

مواقف مع أهل العناد

* وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَ نَا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حَجْرًا مَحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدْ مَنَّآ إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾ وَيَوْمَ تَشَقُّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَمِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا ﴿٢٥﴾ الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْخَاقِ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾ وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيْتَنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَوْمَ يَلْقَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ وَقَالَ الرَّسُولُ يَرْبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾ وَلَقَدْ أَتَيْنَا مُوسَى الْكَتَبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا أَذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِعَايَتِنَا فَدَمْزِلْهُمْ تَذْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْنَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودًا وَأَصْحَابَ الرِّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَاهُ الْأَمْثَلُ وَكُلًّا تَبَرْنَا تَنْبِيرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أَمْطَرْنَا مَطَرًا سَوَاءً أَلَمَ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾ وَإِذَا رَأَوْكَ إِذَا

يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوءًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ الْإِهْنَاءِ لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلَّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا

لا يرجون أى : لا يخافون
ولقاءنا أى : لقاء جزائنا
واللقاء : مقابلة الشيء ومصادفته ،
واستكبروا فى أنفسهم أى : أوقعوا . الاستكبار فى شأن أنفسهم
بعدها كبيرة الشأن

والعتو : تجاوز الحد فى الظلم تجاوزا بلغ أقصى الغاية ، حين كذبوا الرسول الذى جاء بالوحي ، ولم يكثرثوا بالمعجزات التى أتاهم بها ، وحجروا محجورا : كلمة تقولها العرب حين لقاء عدو موتور ، أو هجوم نازلة هائلة ، يقصدون بها الاستعاذة من وقوع ذلك الخطب الذى يلحقهم ، والمكروه الذى يلم بدارهم أى : نسأل الله أن يمنع ذلك منا ويحجره حجرا ، وقدمنا أى : عمدنا وقصدنا ، والهباء كما قال الراغب : دقاق التراب وما انبث فى الهواء ، ولا يبدو إلا فى أثناء ضوء الشمس من كوة ونحوها ، والمستقر ، المكان الذى يستقر فيه المرء فى أكثر الأوقات للجلوس والمحادثة ، والمقيل : المكان الذى يؤوى إليه للاستمتاع بالأزواج والتمتع بحديثهن ، سمي بذلك ، لأن التمتع به يكون وقت القائلة غالبا . (تشقق) تتفتح السماء عن الغمام ، الحق : الثابت الذى لا يزول ، عسيرا : شديدا ، يعرض الظالم على يديه : كناية عن الندم ، خليلا : صاحبا وصديقا ، الذكر : القرآن ، خذولا : الخذل الترك من الإعانة ، جملة واحدة أى : دفعة واحدة ، لنثبت به فؤادك أى : لنقوى به قلبك ، ورتلناه أى : أتينا ببعضه اثر بعض على تودة ومهل من قولهم ثغر مرتل أى : متفلج الأسنان ، بمثل أى : بنوع من الكلام جار مجرى المثل فى تنميقة وتحسينه ورشاقة لفظه وصدق معناه : تفسيراً أى : ايضاحاً ، يحشرون على وجوههم إلى جهنم أى : يسحبون على وجوههم ويجرون إليها . الوزير : قال الزجاج : الوزير من يرجع إليه للاستعانة برأيه ، والتدمير : كسر الشيء على وجه لا يمكن معه إصلاحه ، وأعتدنا : هيأنا وأعدنا ، الرس : البثر غير المبنية ، والجمع رساس . قال ابو عبيدة . والمراد بهم كما قال قتادة أهل قرية من اليمامة يقال لها : الرس والقلج قتلوا نبهم فهلكوا ، وهم بقية ثمود قوم صالح ، والتبشير : التفتيت والتكسير ، والقرية : هى سدوم أعظم قرى قوم لوط . لا يرجون أى : لا يتوقعون ، والنشور : البعث للحساب والجزاء .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن حكى سبحانه أياطيل المشركين السالفة بطعنهم فى نبوة محمد ﷺ - بقولهم ﴿ لولا أنزل

إليه ملك فيكون معه نذيرا ﴿ أردف ذلك بذكر سخافات أخرى لهم في هذا الصدد ، فقالوا : هلا أنزل علينا الملائكة فيخبرونا بصدقه أو نرى ربنا فينبئنا بذلك ، ثم بين أن هذا عتو عظيم منهم ، ثم أعقب هذا ببيان أنهم سيرون الملائكة حين الهول ، يوم الجزاء والحساب حين يقولون لهم : لا بشرى لكم اليوم بل فيه منعكم من كل خير ، فإن ما قدمتم من عمل صالح في الدنيا ، صار هباء منثورا ، ثم أخبر بما يكون لأهل الجنة من خير المستقر ، وحسن المقيّل ، في ظل ظليل ونعم لا مقطوعة ولا ممنوعة ، حين يقولون ﴿ الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبأ من الجنة حيث نشاء ﴾ (١) ولعل في ذكر هذا ما يكون حافزا لهم على مراجعة أنفسهم وتخمين الرأي ، ليرشدوا إلى طريق السداد ، ويقلعوا عما هم فيه من هوى متبع وشيطان مطاع .

وبعد أن بين سبحانه في سابق الآيات أن المشركين طلبوا إنزال الملائكة - أردف هذا ببيان أنهم ينزلون حين ينتهى هذا العالم الدنيوى ويختل نظام الأفلاك والأرض والسموات ، ويحشر الناس من قبورهم للعرض والحساب ، فيعض الكافر على يديه نادما على ما فات ويتمنى أن لو كان قد أطاع الرسول فيما أمر ونهى ، ولم يكن قد أطاع شياطين الإنس والجن ، الذين أضلوه السبيل ، وخذلوه عن الوصول إلى محجة الصواب وبعد أن ذكر مقالاتهم الباطلة وتعتهم الظالم في الرسول من نحو قولهم ﴿ لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا ﴾ وقولهم ﴿ ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى في الأسواق ﴾ وقولهم في القرآن : ﴿ إن هو إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون ﴾ وقولهم فيه : ﴿ إن هو إلا أساطير الأولين اكتتبها ﴾ - أعقب ذلك بشكاية الرسول إلى ربه ، بأن قومه قد هجروا كتابه ، ولم يلتفتوا إلى ما فيه من هداية لهم ورعاية لمصالحهم في دينهم ودنياهم ، ثم سلاه سبحانه على ذلك ، بأن هذا ليس دأب قومك فحسب ، بل إن كثيرا من الأمم قد فعلوا مع رسلهم مثل هذا ، فاقتد بأولئك الأنبياء ، ولا تجزع ، ثم وعده وعدا كريما بأن يهديه إلى مطلبه ، وينصره على عدوه ، وكفى به هاديا ونصيرا .

وبعد أن ذكر مطاعنهم في الكتاب الكريم ، كقولهم : إن هو إلا إفك مبين وقولهم : هو أساطير الأولين - قضى على ذلك بذكر شبهة أخرى لهم ، وهى قولهم : لو كان القرآن من عند الله حقا لأنزله جملة واحدة كما أنزلت التوراة جملة على موسى ، والإنجيل جملة على عيسى ، والزبور على داود فرد الله عليهم مقالاتهم ، وبين لهم فوائد إنزاله منجما ، فذكر منها تثبيت فؤاده ﷺ وتيسير الحفظ ، وفهم المعنى ، وضبط الألفاظ ، إلى نحو أولئك ، ثم وعده بأنهم كلما جاءوا بشبهة دحضها بالجواب الحق ، والقول الفصل الذى يكشف عن وجه الصواب ، وبعدئذ ذكر حال المشركين ، وأنهم حين يحشرون يكونون في غاية الذل والهوان ، ويجرون على وجوههم إلى جهنم وهم مصفدون بالسلاسل والأغلال ...

وبعد أن تكلم في دلائل وحدانيته ، ونفى الأنداد ، وفي النبوة ، وأجاب عن شبهات المنكرين لها ، وفي أحوال يوم القيامة وأهوالها ، التى يلقاها الكافرون وفي النعيم الذى يتفضل به على عباده

المتقين ، أردف ذلك بقصص بعض الأنبياء مع أممهم ، الذين كذبوهم ، فحل بهم النكال والوبال ، ليكون في ذلك عبرة لقومه المشركين ، الذين كذبوا رسوله ، حتى لا يحل بهم من العذاب مثلما حل بمن قبلهم ، إذ هم تمادوا في تكذيبهم ، وأصروا على بغيتهم وطغيانهم .

وقد ذكر من ذلك خمس قصص : قصة موسى مع فرعون وقومه . . . وقصة نوح وقومه ، وقصة هود مع قومه عاد ، وقصة صالح مع قومه ثمود ، وقصة أصحاب الرس .

وبعد أن ذكر مطاعن المشركين في النبي ﷺ وأورد شبهاتهم في ذلك - أردف هذا ببيان أن ذلك ما كفاهم ، وليتهم اقتصروا عليه ، بل زادوا على ذلك الاستهزاء به والخط من قدره ، حتى لقد قال بعضهم لبعض : ﴿ أهذا الذي بعث الله رسولا ؟ ﴾ لقد غالوا في ذلك فسموا دعوته إضلالا ، فرد الله عليهم مقالمهم ، وأبان لهم أنه سيظهر لهم حين مشاهدة العذاب من الضال ومن المضل ، ثم عجب رسوله من شناعة أحوالهم بعد حكاية أقوالهم وأفعالهم القبيحة ، وأرشد إلى أن مثل هؤلاء ، يبعد أن يزدجروا عما هم فيه من الغي بنصحك وإرشادك ، فإن أكثرهم لا يسمعون ولا يعقلون ، وما هم إلا كالأنعام أو أضل منها سبيلا .

روى ان الآية الأولى نزلت في أبي جهل ومن معه ، فإنه كان إذا مر رسول الله ﷺ - مع صحبه قال مستهزئا (أهذا الذي بعث الله رسولا)

التفسير

قوله تعالى : ﴿ وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا ﴾ .

هذا بعض ما اقترحوه ولولا هنا بمعنى هلا ، والمعنى أنزلت علينا الملائكة بالوحي . وذلك يفسره قوله تعالى : ﴿ وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتي مثل ما أوتى رسل الله الله أعلم حيث يجعل رسالته ، سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون ﴾ (١) .

ويحتمل أن يكون المعنى : هلا أنزلت علينا الملائكة فنراها رأى العين ، وذلك كما جاء في قوله تعالى : ﴿ وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأت بالله والملائكة قبيلا ﴾ (٢) .

فجاء الرد القاطع من الله ﴿ قل سبحان ربي هل كنت إلا بشرا رسولا ﴾ (٣) . وفي هذا المقام يقول عنهم : ﴿ لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا ﴾ .

والكبر غمط الناس وبطر الحق ، والعتو والتمرد عن قبول الحق ، كما قال نوح عن قومه : ﴿ إني دعوت قومي ليلا ونهارا فلم يزدتهم دعائي إلا فرارا وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا ﴾ (٤) .

قوله تعالى : ﴿ يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ويقولون حجرا محجورا ﴾ أي هم

(٣) سورة الاسراء الآية رقم : ٩٣

(٤) سورة نوح الآية رقم : ٥ - ٧

(١) سورة الانعام الآية رقم : ١٢٤

(٢) سورة الاسراء الآية رقم : ٩٠ - ٩٢

لا يرون الملائكة في يوم خير لهم ، بل يوم يرونهم لا بشرى يومئذ لهم ، وذلك يصدق على وقت الاحتضار ، حين تبشرهم الملائكة بالنار والغضب من الجبار ، فتقول الملائكة للكافر عند خروج روحه : اخرجى أيتها النفس الخبيثة في الجسد الخبيث ، اخرجى إلى سموم وحميم وظل من يحموم ، فتأبى الخروج وتتفرق في البدن ، فيضربونه كما قال الله تعالى ﴿ ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم ﴾ (١) وقال تعالى : ﴿ ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطو أيديهم - أي بالضرب - أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون ﴾ (٢) ولهذا قال في هذه الآية الكريمة ﴿ يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ﴾ وهذا بخلاف حال المؤمنين ، حال احتضارهم ، فانهم يبشرون بالخيرات وحصول المسرات .

قال الله تعالى : ﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدعون نزلا من غفور رحيم ﴾ (٣) .

وفي الحديث الصحيح عن البراء بن عازب : « أن الملائكة تقول لروح المؤمن اخرجى أيتها النفس الطيبة في الجسد الطيب إن كنت تغمرينه ، أخرجى إلى روح وريحان ورب غير غضبان » (٤) . وقد تقدم الحديث في سورة إبراهيم عند قوله تعالى : ﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء ﴾ (٥) .

وقال آخرون : بل المراد بقوله ﴿ يوم يرون الملائكة لا بشرى ﴾ يعني يوم القيامة قاله مجاهد والضحاك وغيرهما ، ولا منافاة بين هذا وما تقدم ، فإن الملائكة في هذين اليومين ، يوم الممات ويوم المعاد ، تتجلى للمؤمنين وللكافرين ، تبشر المؤمنين بالرحمة والرضوان ، وتخبر الكافرين بالخيبة والخسران ، فلا بشرى يومئذ للمجرمين . (ويقولون حجرا محجورا) أي : تقول الملائكة للكافرين حرام محرم عليكم الفلاح اليوم ، وأصل الحجر المنع ، ومنه يقال : حجر القاضي على فلان ، إذا منعه التصرف ، إما لفلس أو سفه أو صغر ، أو نحو ذلك ، ومنه سمي الحجر عند البيت الحرام ، لأنه يمنع الطواف ، أن يطوفوا فيه ، وإنما يطاف من ورائه ، ومنه يقال للعقل حجر ، لأنه يمنع صاحبه عن تعاطي ما لا يليق ، والغرض أن الضمير في قوله ﴿ ويقولون ﴾ عائد على الملائكة ، هذا قول مجاهد وعكرمة والحسن والضحاك وقتادة وعطية العوفي وعطاء الخراساني وخصيف وغير واحد واختاره ابن جرير .

٢ - وقال ابن أبي حاتم بسنده عن أبي سعيد الخدري في الآية : ﴿ ويقولون حجرا محجورا ﴾ قال حراما محرما أن يبشر بما يبشر به المتقون (٦) .

٣ - وقد حكى ابن جرير عن ابن جريح ، أنه قال ذلك من كلام المشركين (يوم يرون الملائكة ﴾ أي

(٢) سورة الانعام الآية رقم : ٩٣

(١) سورة الانفال الآية رقم : ٥٠

(٣) سورة فصلت الآية رقم : ٣٠ - ٣٢

(٤) سورة إبراهيم الآية رقم : ٢٧

(٥) الحديث رواه ابن ماجه في الزهد / ٣١ ، وأحمد في مسنده - ٣٦٤ / ٢ ، ٢٨٧ / ٤ ، ١٤٠ / ٦ .

(٦) راجع تفسير ابن كثير ١١١ / ٦ ط : الشعب .

يتعوذون من الملائكة ، وذلك أن العرب كانوا إذا نزلت بأحدهم نازلة أو شدة يقول (حجرا محجورا)^(١) وهذا القول وإن كان له مأخذ ووجه ، ولكنه بالنسبة إلى السياق بعيد ، لا سيما وقد نص الجمهور على خلافه ، ولكن قد روى ابن أبي نجيح عن مجاهد ، أنه قال في قوله : ﴿ حجرا محجورا ﴾ أى عودا معاذا ، فيحتمل أنه أراد ما ذكره ابن جريح ، ولكن في رواية ابن أبي حاتم عن ابن أبي نجيح عن مجاهد أنه قال : (حجرا محجورا) عودا معاذا الملائكة تقول ذلك فالله أعلم .
قوله تعالى : ﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا ﴾ قال مجاهد (قدمنا) أى عمدنا .

وقوله تعالى : ﴿ فجعلناه هباء منثورا ﴾ قال : سفيان الثوري بسنده عن علي بن رضى الله عنه في قوله : (هباء منثورا) قال : شعاع الشمس إذا دخل الكوة وقال قتادة في قوله : ﴿ هباء منثورا ﴾ قال أما رأيت ييس الشجر إذا ذرته الريح ؟ فهو ذلك الريح .

وقال عبد الله بن وهب : أخبرني عاصم بن حكيم ، عن أبي سريع الطائي ، عن عبيد بن يعلى قال : إن الهباء الرماد إذا ذرته الريح وحاصل هذه الأقوال التنبيه على مضمون الآية ، وذلك أنهم عملوا أعمالا اعتقدوا أنها على شيء فلما عرضت على الملك الحكم العدل الذى لا يجور ولا يظلم أحدا ، إذ أنها لا شيء بالكلية ، وشبهت في ذلك بالشئ التافه الحقير المتفرق الذى لا يقدر صاحبه منه على شيء بالكلية كما قال تعالى : ﴿ مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شيء ذلك هو الضلال البعيد ﴾^(٢) .

وقال تعالى : ﴿ إن الذين كفروا لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صر أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون ﴾^(٣) .

وقال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذى ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلدا لا يقدرون على شيء مما كسبوا والله لا يهدى القوم الكافرين ﴾^(٤) .

وقال جل شأنه : ﴿ والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب أو كظلمات في بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور ﴾^(٥) .

إن الله تعالى لا يقبل العمل ، إلا إذا توافر فيه شرطان ، أن يكون خالصا لله ، وأن يكون صوابا موافقا لشرعه جل في علاه قال تعالى : ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا ﴾^(٦) .

(٤) سورة البقرة الآية رقم : ٢٦٤

(٥) سورة النور الآية رقم : ٣٩ - ٤٠

(٦) سورة الكهف الآية رقم : ١١٠

(١) راجع تفسير ابن كثير ٦ / ١١١ ط : الشعب .

(٢) سورة ابراهيم الآية رقم : ١٨

(٣) سورة آل عمران الآية رقم : ١١٦ - ١١٧

قال الله تعالى : ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة ﴾^(١) وقال تعالى : ﴿ لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم ﴾^(٢) .

وقال تعالى : ﴿ قل إن تخفوا ما في صدوركم أو تبدوه يعلمه الله ﴾^(٣) .

وعن أمير المؤمنين أبي حفص عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن رباح بن عبد الله ابن قرط بن رزاح بن عدى بن كعب بن لؤى بن غالب القرشى العدوى - رضى الله عنه - قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : (إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه) متفق على صحته^(٤) .

وعن أم المؤمنين أم عبد الله عائشة رضى الله عنها - قالت : قال رسول الله ﷺ : (يغزو جيش الكعبة فإذا كانوا ببيداء من الأرض نخسف بأولهم وآخرهم . قالت قلت : يا رسول الله كيف يخسف بأولهم وآخرهم وفيهم أسواقهم ومن ليس منهم ؟ قال : يخسف بأولهم وآخرهم ثم يبعثون على نياتهم » متفق عليه . هذا لفظ البخارى^(٥) .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : قال النبى ﷺ لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية وإذا استنفرتم فانفروا) متفق عليه^(٦) ومعناه : لا هجرة من مكة ؛ لأنها صارت دار إسلام .

وعن أبى عبد الله جابر بن عبد الله الأنصارى - رضى الله عنهما - قال : (كنا مع النبى ﷺ فى غزاة فقال : (إن بالمدينة لرجالا ما سرتهم مسيرا ولا قطعتم واديا إلا كانوا معكم حبسهم المرض) وفى رواية (إلا شركوكم فى الأجر) رواه مسلم^(٧) .

وروى البخارى عن أنس - رضى الله عنه - قال : (رجعنا من غزوة تبوك مع النبى ﷺ فقال : (إن أقواما خلفنا بالمدينة ما سلكنا شعبا ولا واديا إلا وهم معنا ؟ حبسهم العذر)^(٨) .

(١) سورة البينة الآية رقم : ٥

(٢) سورة الحج الآية رقم : ٣٧

(٣) سورة آل عمران الآية رقم : ٢٩

(٤) الحديث رواه البخارى فى كتاب الايمان (فتح البارى ١ / ١٠ - ١٩ ط الحلبى) ، وفى العتق / ٦ ، وفى مناقب الأنصار ٤٠ ، وفى النكاح ٥ ، وفى الايمان / ٢٣ وفى الحيل / ١ - ورواه مسلم فى الامارة / ١٥٥ ، وأبو داود فى الطلاق / ١١ والترمذى فى فضائل الجهاد / ١٦ ، والنسائى فى أربعة مواضع من سننه (الايمان والطهارة / ٥٩ والعتاق والطلاق / ٢٤ ، وابن ماجه فى الزهد من سننه / ٢٦ وأحمد فى مسنده ١ / ٢٥ ، ٤٣ .

(٥) الحديث رواه البخارى فى الحج / ٤٩ ، وفى البيوع / ٤٩ ، ومسلم فى الفتن / ٤ ، ٦ - ٨ ، وأبو داود فى المهدي / ١ ، والترمذى فى الفتن / ١٠ ، ٢١ ، وفى الحج / ١١٢ ، وابن ماجه فى الفتن / ٣٠ ، وأحمد فى المسند ٦ / ١٠٥ ، ٢٥٩ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٣١٦ ، ٣١٨ ، ٣٢٣ ، ٣٣٦ ، ٣٣٧ ، ٣٧٩ وفى المغازى / ٥٣ .

(٦) الحديث رواه البخارى فى الصبر / ١٠ ، وفى الجهاد ١ ، ٢٧ ، ١٩٤ / وفى الجزية / ٢٢ ومسلم فى الحج ٤٤٥ ، وفى الامارة ٨٥ ، ٨٦ ، وأبو داود فى الجهاد ، والترمذى فى السير ٣٢ ، ٣٣ والنسائى فى البيعة ١٥ ، وابن ماجه فى الجهاد ٩ ، كفارات / ١٢ والدارمى فى السير / ٦٩ ، وأحمد فى المسند ١ / ٢٢٦ ، ٢٦٦ ، ٣٠٦ ، ٣٥٥ ، ٣ / ٤٠١ ، ٦ / ٤٦٦ .

(٧) الحديث رواه مسلم فى الامارة / ١٥٩ ، وأبو داود فى الجهاد / ١٩ ، وابن ماجه فى الجهاد / ٦ .

(٨) الحديث رواه البخارى فى الجهاد / ٣٥ .

وعن أبي يزيد معن بن يزيد بن الأخنس رضي الله عنه - وهو وأبوه وجده صحابيون ، قال :
كان أبو يزيد أخرج دنائير يتصدق بها فوضعها عند رجل في المسجد فجئت فأخذتها فأتيته بها . فقال :
(والله ما إياك أردت فخاصمته إلى رسول الله ﷺ فقال : (لك ما نويت يا يزيد ولك ما أخذ يامعن) رواه
البخاري^(١)

وعن أبي إسحاق سعد بن أبي وقاص مالك بن أهيب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن
مرة بن كعب بن لؤي القرشي الزهري رضي الله عنه - أحد العشرة المشهود لهم بالجنة ، رضي الله عنهم
قال : (جاءني رسول الله ﷺ يعودني عام حجة الوداع من وجع اشتد بي ، فقلت : يا رسول الله ، إني
قد بلغ من الوجع ما ترى ، وأنا ذو مال ، ولا يرثني إلا ابنة لي ، أفأتصدق بثلثي مالي ؟ قال : لا ،
قلت : فالشطر يا رسول الله ؟ فقال : لا ، قلت فالثلث يا رسول الله ، قال : الثلث والثلث كثير - إنك
إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس ، وإنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه
الله ، إلا أجزت عليها حتى ما تجعل في في امرأتك ، قال : فقلت : يا رسول الله أخلف بعد أصحابي ؟
قال : إنك لن تخلف فتعمل عملاً تبتغي به وجه الله ، إلا ازددت به درجة ورفعة ، ولعلك أن تخلف
حتى ينتفع بك أقوام ويضربك آخرون . اللهم أَمْضْ لأصحابي هجرتهم ولا تردهم على أعقابهم لكن
البائس سعد بن خولة) يرثي له رسول الله ﷺ أن مات بمكة متفق عليه^(٢) .

وعن أبي هريرة عبد الرحمن بن صخر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (إن الله لا
ينظر إلى أجسامكم ، ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم) رواه مسلم^(٣)
وعن أبي موسى عبد الله بن قيس الأشعري رضي الله عنه قال : سئل رسول الله ﷺ عن الرجل
يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياء ، أي ذلك في سبيل الله ؟ فقال رسول الله ﷺ : (من قاتل
لتكون كلمة الله هي العليا فهو سبيل الله) متفق عليه^(٤) .

وعن أبي بكرة نفيح بن الحارث الثقفي رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : (إذا التقى المسلمان
بسيفهما فالقاتل والمقتول في النار ، قلت : يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول ؟ قال : إنه كان
حريصاً على قتل صاحبه) متفق عليه .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (صلاة الرجل في جماعة تزيد على
صلاته في سوقه وبيته بضعا وعشرين درجة ، وذلك أن أحدهم إذا توضأ فأحسن الوضوء ، ثم أتى

(١) الحديث رواه البخاري في الزكاة / ١٥ ، والدارمي في الزكاة / ١٤ ، وأحمد في المسند ٣ / ٤٧٠

(٢) الحديث رواه البخاري في الجنائز ٣٦ ، وفي الوصايا ٢ ، وفي مناقب الانصار / ٤٩ ، وفي المغازي ٦٤ ، وفي النفقات ١ / وفي
المرضى ١٦ ، وفي الدعوات ٤٣ ، وفي الفرائض ١٦ ، ورواه مسلم في الوصية ٥ ، ٨ ، وأبو داود في الوصايا / ٢ ، والترمذي
في الوصايا / ١ ، والنسائي في الوصايا / ٣ .

(٣) الحديث رواه مسلم في البر / ٣٢ وابن ماجه في الزهد / ٩ . وأحمد في المسند ٢ / ٢٨٥ ، ٥٣٩ .

(٤) الحديث رواه البخاري في التوحيد / ٢٨ ، ومسلم في الامارة / ١٥ ، والترمذي في فضائل الجهاد ١٦ وابن ماجه في الجهاد ١٣
وأحمد في المسند ٤ / ٣٩٧ ، ٤٠٥ .

المسجد لا يريد إلا الصلاة . لا ينهزه إلا الصلاة لم يخط خطوة إلا رفع له بها درجة وحط عنه بها خطيئة حتى يدخل المسجد ، فإذا دخل المسجد كان في الصلاة ما كانت الصلاة هي تحبسه ، والملائكة يصلون على أحدكم مادام في مجلسه الذي صلى فيه يقولون : اللهم ارحمه ؟ اللهم اغفر له ! اللهم بث عليه ما لم يؤذ فيه ما لم يحدث فيه) متفق عليه^(١) .

وهذا لفظ مسلم وقوله ﷺ : (ينهزه) هو بفتح الياء والهاء وبالزاي : أى يخرج به وينهضه .

٢ - وعن أبي العباس عبد الله بن عباس بن عبد-المطلب رضى الله عنهما عن رسول الله ﷺ فيما يروى عن ربه تبارك وتعالى قال : (إن الله كتب الحسنات والسيئات ثم بين ذلك ، فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله تبارك وتعالى عنده حسنة كاملة ، وإن هم بها فعملها كتبها الله عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ، وإن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله تعالى عنده حسنة كاملة ، وإن هم بها فعملها كتبها الله سيئة واحدة) متفق عليه^(٢) .

٣ - وعن أبي عبد الرحمن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضى الله عنهما قال : (سمعت رسول الله ﷺ يقول : (انطلق ثلاثة نفر من كان قبلكم حتى آواهم المبيت إلى غار فدخلوه فانحدرت صخرة من الجبل فسدت عليهم الغار . فقالوا . إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله تعالى بصالح أعمالكم . قال رجل منهم : اللهم كان لى أبوان شيخان كبيران وكنت لا أغبق قبلهما أهلا ولا مالا ، فنأى بى طلب الشجر يوما ، فلم أرح عليهما حتى ناما ، فحلبت لهما غبوقهما فوجدتهما نائمين فكرهت أن أوقظهما وإن أغبق قبلهما أهلا أو مالا ؟ فلبثت - والقدرح على يدي - أنتظر استيقاظهما حتى برق الفجر والصبية يتضاغون عند قدمي - فاستيقظا فشربا غبوقهما . اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة ، فانفرجت شيئا لا يستطيعون الخروج منه .

قال الآخر : اللهم إنه كانت لى ابنة عم كانت أحب الناس إلى (وفى رواية : كنت أحبها كأشد ما يحب الرجال النساء ، فأردتها على نفسها فامتنعت منى حتى أملت بها سنة من السنين ، فجاءتنى فأعطيتها عشرين ومائة دينار على أن تخلى بينى وبين نفسها ففعلت حتى إذا قدرت عليها ، وفى رواية : (فلما قعدت بين رجلين قالت : اتق الله ولا تفض الخاتم إلا بحقه ، فانصرفت عنها وهى أحب الناس إلى وتركت الذهب الذى أعطيتها ، اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ، فافرج عنا ما نحن فيه ، فانفرجت الصخرة غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها ، وقال الثالث : اللهم استأجرت أجرا وأعطيتهم أجرهم غير رجل واحد ترك الذى له وذهب ، فثمرت أجره حتى كثرت منه الأموال ، فجاءنى بعد حين فقال : يا عبد الله أد إلى أجرى . فقلت كل ماترى من أجرك من الابل والبقر والغنم والرقيق فقال : يا عبد الله لا تستهزئ بى فقلت : لا أستهزئ بك فأخذه كله فاستاقه فلم يترك منه شيئا : اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه ، فانفرجت الصخرة فخرجوا يمشون)^(٣) متفق عليه .

(١) الحديث رواه البخارى فى الصلاة / ٨٧ ، وفى الأذان / ٣٠ ، وفى البيوع / ٤٩ ، وأبو داود فى الصلاة / ٤٨ ، وابن ماجه فى المساجد / ١٦ ، وأحمد فى المسند ٢ / ٢٥٢ .

(٢) الحديث رواه البخارى فى الرقاق / ٣١ ، ومسلم فى الايمان / ٢٠٧ ٣ - الحديث رواه البخارى فى الاجارة / ١٢

المعنى : لا أغبق : « بفتح الهمزة وسكون الغين المعجمة وضم الباء الموحدة وكسرهما » أى : لا أقدم فى الشرب قبلهما أهلا ولا مالا من رقيق وخادم (والغبوق) شرب العشى .
 أرح : « بضم الهمزة وكسر الراء » أى أرجع
 يتضاغون : بالضاد والغين المعجمتين يصيحون من الجوع .
 والآن نسأل ما هو الإخلاص . الإخلاص هو تجريد قصد التقرب إلى الله عز وجل عن جميع الشوائب وقيل : هو أفراد الله عز وجل - بالقصد فى الطاعات .
 وقيل : هو نسيان رؤية الخلق بدوام النظر إلى الخالق .
 والإخلاص شرط لقبول العمل الصالح الموافق لسنة رسول الله ﷺ وقد أمرنا الله عز وجل به فقال تعالى : ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ﴾ .
 وعن أبى امامة رضى الله عنه قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : أرأيت رجلا يلتمس الأجر والذكر ما له ؟ فقال رسول الله ﷺ : لا شيء له فأعادها ثلاث مرات ويقول رسول الله ﷺ لا شيء له ثم قال : (ان الله عز وجل لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصا وابتغى به وجهه) رواه ابو داود والنسائي^(١) .

وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال فى حجة الوداع : (نضر الله امرءا سمع مقالتي فوعاها فرب حامل فقه ليس بفقيه ، ثلاث لا يغل عليهن قلب امرء مؤمن : إخلاص العمل لله والمناصحة لأئمة المسلمين ولزوم جماعتهم يغل : بكسر الغين وتشديد اللام وضم الياء من أغل اذا خان وبفتح الياء من غل إذا صار ذا حقد وعداوة .
 والمعنى أن هذه الثلاثة تستصلح بها القلوب فمن تخلق بها طهر قلبه من الخيانة والدغل والشر .
 الدغل : بالتحريك : الفساد . ولا يتخلص العبد من الشيطان إلا بالإخلاص لقول الله عز وجل : ﴿ إلا عبادك منهم المخلصين ﴾^(٢) وروى ان أحد الصالحين كان يقول لنفسه : (يانفس أخلصى تتخلصى) .

وكل حظ من حظوظ الدنيا تستريح إليه النفس ، ويميل اليه القلب قل أو كثر اذا تطرق الى العمل تكدر به صفوه وزال به إخلاصه ، والانسان مرتبط فى حظوظه ، منغمس فى شهواته ، قلما ينفك فعل من أفعاله وعبادة من عباداته عن حظوظ وأغراض عاجلة من هذه الأجناس ، فلذلك قيل : من سلم له من عمره لحظة واحدة خالصة لوجه الله نجا ، وذلك لعزة الإخلاص وعسر تنقية القلب عن الشوائب ، فالإخلاص : تنقية القلب من الشوائب كلها قليلها وكثيرها ، حتى يتجرد فيه قصد التقرب ، فلا يكون فيه باعث سواه ، وهذا لا يتصور إلا من محب لله مستغرق الهم بالآخرة ، بحيث لم

(١) الحديث رواه أبو داود فى الجهاد / ٢٤ ، ٣٥ ، والنسائي فى الجهاد / ٣٤ ، وأحمد فى المسند ٢ / ٢٩٠ ، ٣٦٦

(٢) سورة الحجر آية رقم : ٤٠ ، سورة ص آية رقم ٨٣

يبقى لحب الدنيا في قلبه قرار ، فمثل هذا لو أكل أو شرب ، أو قضى حاجته كان خالص العمل ، صحيح النية ، ومن ليس كذلك فباب الإخلاص مسدود عليه إلا على الندور وكما أن من غلب عليه حب الله وحب الآخرة فاكسبت حركاته الاعتيادية صفة همه وصارت إخلاصا ، فالذى يغلب على نفسه الدنيا والعلو والرياسة ، وبالجملة غير الله اكتسبت جميع حركاته تلك الصفة ، فلا تسلم له عبادة من صوم وصلاة وغير ذلك إلا نادرا فإن علاج الإخلاص كسر حظوظ النفس وقطع الطمع عن الدنيا والتجرد للآخرة ، بحيث يغلب ذلك على القلب ، فإن ذاك يتيسر به الإخلاص ، وكم من أعمال يتعب الإنسان فيها ويظن أنها خالصة لوجه الله ، ويكون فيها من المغرورين ، لأنه لم ير وجه الآفة كما حكى عن بعضهم : أنه كان يصلى دائما في الصف الأول فتأخر يوما عن الصلاة ، فصلى في الصف الثاني فاعترفته خجلة من الناس حيث رأوه في الصف الثاني ، فعلم أن مسرته وراحة قلبه من الصلاة في الصف الأول ، كانت بسبب نظر الناس إليه ، وهذا دقيق غامض ، قلما تسلم الأعمال من أمثاله ، وقل من ينتبه له إلا من وفقه الله تعالى ، والغافلون عنه يرون حسناتهم يوم القيامة سيئات ، وهم المقصودون بقوله تعالى : ﴿ وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون وبدا لهم سيئات ما كسبوا ﴾ (١) وبقوله عز وجل : ﴿ قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا . الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ﴾ (٢) .

بعض الآثار عن الإخلاص

قال يعقوب : (المخلص من يكتم حسناته كما يكتم سيئاته)
قال السوسى : (الإخلاص فقد رؤية الإخلاص ، فإن من شاهد في إخلاصه الإخلاص فقد احتاج إخلاصه إلى إخلاص) .
وما ذكر إشارة إلى تصفية العمل من العجب بالفعل ، فإن الالتفات إلى الإخلاص والنظر إليه عجب ، وهو من جملة الآفات ، والخالص ما صفا عن جميع الآفات .
قال أيوب : (تخلص النيات على العمال أشد عليهم من جميع الأعمال) .
وقال بعضهم : (إخلاص ساعة نجاة الأبد ، ولكن الإخلاص عزيز) .
وقيل لسهيل : أى شيء أشد على النفس ؟ قال : (الإخلاص ، إذ ليس لها فيه نصيب)
وقال الفضيل : (ترك العمل من أجل الناس رياء ، العمل من أجل الناس شرك ، والإخلاص أن يعافيك الله منها)

حقيقة النية وفضلها

النية : ليست قول القائل بلسانه (نويت) بل هى انبعاث القلب يجرى مجرى الفتوح من الله ،

(١) سورة الزمر آية رقم : ٤٧ - ٤٨

(٢) سورة الكهف آية رقم : ١٠٣

فقد تيسر في بعض الأوقات وقد تتعذر في بعضها ، ومن كان الغالب على قلبه أمر الدين ، تيسر عليه في أكثر الأحوال أحضار النية للخيرات ، فإن قلبه مائل بالجملة إلى اصل الخير ، فينبعث إلى التفاصيل غالبا ، ومن مال قلبه إلى الدنيا وغلبت عليه لم ييسر له ذلك ، بل لا ييسر له في الفرائض إلا بجهد جهيد ، وعن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : (إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه) رواه البخاري ومسلم .

روى عن الشافعي انه قال : (هذا الحديث ثلث العلم) . قوله : (إنما الأعمال بالنيات) يعنى أن صلاح الأعمال الموافقة للسنة بصلاح النية ، وهو كقوله - ﷺ : (إنما الأعمال بالخواتيم) . وقوله ﷺ : (وإنما لكل امرئ ما نوى) يعنى ثواب العامل على عمله بحسب النيات الصالحة التى يجمعها في العمل الواحد وقوله : (فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله ، فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها ، فهجرته إلى ما هاجر إليه) وبعد إرساء القاعدة الأولى ، ذكر مثالا للأعمال التى صورتها واحدة ، وتختلف في صلاحها وفسادها .

والنية الصالحة لا تغير المعاصى عن موضعها ، فلا ينبغى أن يفهم الجاهل ذلك من عموم قوله ﷺ : (إنما الأعمال بالنيات) فيظن ان المعصية تصير طاعة بالنية ، فإن قوله ﷺ : (إنما الأعمال بالنيات) يخص من اقسام العمل الثلاثة : الطاعات والمباحات دون المعاصى ، إذ الطاعة تنقلب معصية بالقصد ، والمباح ينقلب معصية أو طاعة بالقصد ، اما المعصية فلا تنقلب طاعة بالقصد ودخول النية في المعصية ، إذا انضاف اليها قصد خبيثة تضاعف وزرها ووبالها !

والطاعات مرتبطة بالنيات في أصل صحتها وفي تضاعف فضلها ، فأما الأصل فهو ان ينوى بها عبادة الله وحده ، فإن نوى الرياء صارت معصية ، وأما تضاعف الفضل فبكثرة النيات الحسنة أما المباحات فما من شيء منها إلا ويحتمل نية أو نيات ، يصير بها من محاسن القربات وينال بها معالى الدرجات .

فضل النية

عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - انه قال : (أفضل الأعمال أداء ما افترض الله تعالى والورع عما حرم الله وصدق النية فيما عند الله تعالى)

وقال بعض السلف : (رب عمل صغير تعظمه النية ورب عمل كبير تصغره النية) وعن يحيى بن ابي كثير : (تعلموا النية فإنها أبلغ من العمل) وصح عن ابن عمر انه سمع رجلا عند احرامه يقول : اللهم إني أريد الحج والعمرة فقال له : أتعلم الناس أو ليس الله يعلم ما في نفسك ، وذلك لأن النية هى : قصد القلب ولا يجب التلفظ بها في شيء من العبادات .

قوله تعالى : ﴿ أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا ﴾ . وهكذا يقترن الوعد بالوعيد ، فبعد ان حكم الله تعالى على المعاندين بضيايع أعمالهم ، وأنها

ستصير هباء منثورا كما قال تعالى : ﴿الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم﴾^(١) .
وكما قال جل شأنه : ﴿والذين كفروا فتعسا لهم وأضل أعمالهم﴾^(٢) .
بين بعد ذلك جزاء الصالحين الذين أخلصوا دينهم لله ، وسماهم أصحاب الجنة ، وهى تسمية فيها تشريف وتكريم ، فالجنة هو خالقها ومالكها ، ومع ذلك سماهم أصحابها كما قال تعالى : ﴿ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة﴾^(٣) .
قال الحسن رضى الله عنه لما قرأ هذه الآية سبحانه ربى . . الأنفس أنت خالقها ، والمال أنت مالكة ، ومع ذلك تشتري ما تملك وتهب الجنة ، إن هذا هو الفوز المبين .
وهكذا يقف الإنسان وقفة العجب ، بين أهل الجنة ، وأهل النار ، فى كل خطوة على صعيد القيامة ، فأهل النار عندما يبعثون من القبور يقولون : (ياويلنا من بعثنا من مرقدنا) . فيقول لهم أهل الجنة : (هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون)^(٤) أهل الجنة يحشرون بيض الوجوه وفدا كراما ، وأهل النار يحشرون زرقا عطاشا .

﴿ ويوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا ونسوق المجرمين إلى جهنم وردا ﴾^(٥) . أهل النار يقال لهم ﴿ ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة أليس فى جهنم مثوى للمتكبرين ﴾^(٦) وأهل الجنة يقال لهم : ﴿ وينجى الله الذين اتقوا بمفازتهم لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون ﴾^(٦)

أهل الجنة يقول كل منهم : ﴿ هاؤم اقرءوا كتابيه ﴾^(٧) .
وأهل النار يقول كل منهم : ﴿ ياليتنى لم أوت كتابيه ﴾^(٨) .
أهل الجنة يقول كل منهم : ﴿ إني ظننت أنى ملاق حسايه ﴾^(٩) .
وأهل النار يقول كل منهم : ﴿ ولم أدر ما حسايه ﴾^(١٠) .
أهل الجنة يقال لهم ﴿ كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم فى الأيام الخالية ﴾^(١١) .
وأهل النار يقال لكل منهم ﴿ خذوه فغلوه ثم الجحيم صلوه ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه إنه كان لا يؤمن بالله العظيم ولا يحض على طعام المسكين ﴾^(١٢) .

- (١) سورة محمد الآية رقم : ١
- (٢) سورة محمد الآية رقم : ٨
- (٣) سورة التوبة الآية رقم : ١١١
- (٤) سورة يس الآية رقم : ٥٢
- (٥) سورة مريم آية رقم ٨٥ - ٨٦
- (٦) سورة الزمر الآية رقم ٦٠ - ٦١
- (٧) سورة الحاقة الآية رقم ١٩
- (٨) سورة الحاقة الآية رقم ٢٥
- (٩) سورة الحاقة الآية رقم ٢٠
- (١٠) سورة الحاقة الآية رقم ٢٦
- (١١) سورة الحاقة الآية رقم ٢٤
- (١٢) سورة الحاقة الآية رقم ٣٠ - ٣٤

ولقد وعى المسلمون الأوائل ما فى هذه الآية من أسرار فكان أبو الدرداء رضى الله عنه يقول لزوجته (أكثرى من المرق وأطعمى المسكين ، فقد كسرنا نصف السلسلة لما آمنا بالله ، ونريد أن نكسر نصفها الآخر بإطعام المساكين) .

ولما قال تعالى : ﴿ خير مستقرا ﴾ لما توحىه تلك العبارة من الاستقرار المستلزم للأمن كما قال تعالى : ﴿ إن المتقين فى جنات وعيون ادخلوها بسلام آمنين ، ونزعنا ما فى صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين لا يمسهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين ﴾^(١) وكما قال جل شأنه : الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون^(٢) .

وكما قال تبارك اسمه : ﴿ إن المتقين فى مقام أمين فى جنات وعيون يلبسون من سندس وإستبرق متقابلين ، كذلك وزوجناهم بحور عين يدعون فيها بكل فاكهة آمنين ﴾^(٣) .

فأنت ترى أن الأمن نعمة عظيمة ينعم الله بها على عباده ، ومن ثم فقد قدم الأمن على العيش والرزق ، فقال : ﴿ وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان ﴾^(٤) .

ويوم يفقد الإنسان الأمن ، فقد فقد أعظم نعمة بعد الايمان بالله ، فيا بن آدم : إذا كنت معافى فى بدنك ، آمنا فى سربك ، عندك قوت يومك ، فقد حيزت لك الدنيا بحذافيرها .

عش راضيا واترك دواعى الألم	واعدل مع الظالم مهما ظلم
نهاية الدنيا فناء فعش	فيها كريما واعتبرها عدم
ويافؤادى تلك دنيا الخيال	فلا تنؤ تحت الهموم الثقال
سلم له الأمر فمحو الذى	خطت يد الأقدار أمر محال
دنياك ساعات سراع الزوال	ولما العقبى خلود المآل
فهل تبيع الخلد ياعاقلا	وتشترى دنيا المنى والضلال
أسمع الطير أطلال الصباح	وقد بدأ فى الأفق نور الصباح
ما صاح إلا باكيا ليلة	ولت من العمر السريع الرواح

اعلم بأن الدنيا دار مفر ، والآخرة دار مقر ، فخذ من مفرك لمقرك ، وكيف تطمئن إلى دنيا أولها بكاء ، وأوسطها عناء ، وآخرها فناء ، وميت الغد يشيع فيها ميت اليوم .

لا تركزن إلى القصور الفاخرة	واذكر عظامك حين تسمى ناخرة
وإذا رأيت زخارف الدنيا فقل	يارب ان العيش عيش الآخرة

وقوله تعالى : ﴿ وأحسن مقيلا ﴾ والمقيل يطلق على وقت القيلولة ، ويراد به الراحة فى هذا الوقت ، ويطلق على الاستقرار التام والراحة الكاملة ، فهم فى روضات الجنات لهم ما يشاءون عند

(١) سورة الحجر الآية رقم ٤٥ - ٤٨

(٢) سورة الأنعام الآية رقم ٨٢

(٣) سورة الدخان الآية رقم ٥١ - ٥٥

(٤) سورة النحل آية رقم ١١٢

ربهم ويكفيهم رضوان الله قال تعالى : ﴿ وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم ﴾ (١) .

قوله تعالى : ﴿ ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلا الملك يومئذ الحق للرحمن وكان يوما على الكافرين عسيرا ﴾ يخبر تعالى عن هول يوم القيامة وما يكون فيه من الأمور العظيمة ، فيها انشقاق السماء ، وتفطرها وانفراجها بالغمام ، وهو ظلل النور العظيم الذي يبهر الأبصار ، ونزول ملائكة السموات يومئذ فيحيطون بالخلائق في مقام المحشر ، ثم يجيء الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء .

قال مجاهد وهذا كما قال تعالى : ﴿ هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة ﴾ (٢) .

عن ابن عباس انه قرأ هذه الآية : ﴿ ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلا ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما- يجمع الله تعالى الخلق يوم القيامة في صعيد واحد ، الجن والإنس ، والبهائم والسباع ، والطير وجميع الخلق ، فتتشقق السماء الدنيا ، فينزل أهلها وهم أكثر من الجن والإنس ومن جميع الخلق ، فيحيطون بالجن والإنس وجميع الخلق ، ثم تشقق السماء الثانية ، فينزل أهلها ، فيحيطون بالملائكة الذين نزلوا قبلهم ، والجن والإنس ، وجميع الخلق ، وهم أكثر من أهل السماء الدنيا ومن جميع الخلق ، ثم تشقق السماء الثالثة ، فينزل أهلها وهم أكثر من أهل السماء الثانية والسماء الدنيا ومن جميع الخلق ، فيحيطون بالملائكة الذين نزلوا قبلهم وبالجن والإنس وجميع الخلق ، ثم كذلك كل سماء على ذلك التضعيف حتى تشقق السماء السابعة فينزل أهلها وهم أكثر من نزل قبلهم من أهل السموات ومن الجن والإنس ومن جميع الخلق ، فيحيطون بالملائكة الذين نزلوا قبلهم من أهل السموات وبالجن والإنس وجميع الخلق كلهم ، وينزل ربنا- عز وجل- في ظلل من الغمام وحوله الكروبيون وهم أكثر من أهل السموات السبع من الجن والإنس وجميع الخلق ، لهم قرون كأكعب القنا وهم تحت العرش لهم زجل بالتسبيح والتهليل والتقديس لله - عز وجل - رواه ابن أبي حاتم بهذا السياق .

قال جل شأنه : ﴿ فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة فيومئذ وقعت الواقعة وانشقت السماء فهي يومئذ واهية والملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية ﴾ (٣) .

قال شهر بن حوشب حملة العرش ثمانية ، أربعة منهم يقولون : (سبحانك اللهم وبحمدك لك الحمد على حلمك بعد علمك ، وأربعة منهم يقولون : سبحانك اللهم وبحمدك لك الحمد على عفوك بعد قدرتك) رواه ابن جرير .

(١) سورة التوبة الآية رقم ٧٢

(٢) سورة البقرة الآية رقم ٢١٠

(٣) سورة الحاقة الآيات ١٣ - ١٨

قوله تعالى : ﴿ الملك يومئذ الحق للرحمن وكان يوما على الكافرين عسيرا ﴾ وذلك كقوله جل شأنه : ﴿ لينذر يوم التلاق يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء لمن الملك اليوم لله الواحد القهار اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور والله يقضى بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير ﴾ (١) .

وجاء في الصحيح (أن الله تعالى يطوى السموات بيمينه ويأخذ الأرض بيده الأخرى ، ثم يقوا ، أنا الملك .. أنا الديان .. أين الملوك ؟ أين الجبارون ؟ أين المتكبرون ؟) (٢)

قوله تعالى : ﴿ وكان يوما على الكافرين عسيرا ﴾ أى شديدا صعبا ، لأنه يوم عدل وقضاء فصل . كما قال تعالى : ﴿ فإذا نقر في الناقور فذلك يومئذ يوم عسير على الكافرين غير يسير ﴾ (٣) .

فهذه حال الكافرين في هذا اليوم ، وأما المؤمنون فكما قال تعالى : ﴿ لا يحزنهم الفزع الأكبر وتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذى كنتم توعدون ﴾ (٤) .

وكما قال تعالى : ﴿ وأما الذين ابيضت وجوههم ففى رحمة الله هم فيها خالدون ﴾ (٥) .

روى الامام أحمد بسنده عن ابى سعيد الخدرى قال : قيل يارسول الله : (يوم كان مقداره خمسين ألف سنة) .

ما أطول هذا اليوم ؟ فقال رسول الله ﷺ : (والذى نفسى بيده انه ليخفف على المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة يصلحها فى الدنيا) .

مجلس فى ذكر القيامة وأهوالها

قال الله عز وجل : ﴿ إذا زلزلت الأرض زلزالها ﴾ هذه السورة مكية محكمة بالوعد والوعيد ، يخوف الله تبارك وتعالى بها عباده ، ويذكرهم فيها تزلزل الأرض وقيام الساعة ، لينتهوا عما نهاهم عنه من العصيان ، ويمثلوا ما أمرهم به من الطاعة والايمان ، وخوفهم الله تبارك وتعالى من يوم القيامة ليستعدوا لها ولعظيم أهوالها .

قال الله سبحانه وبحمده : ﴿ إذا زلزلت الأرض زلزالها ﴾ يقول إذا تحركت الأرض بأهلها ، فزلزلت من نواحيها ، وارتجت من مشرقها ومغربها ، فلا تزال كذلك حتى يكسر ما على ظهرها من جبل وبناء فلا تسكن حتى يدخل فى بطنها جميع ما خرج منها . وزلزلتها من شدة صوت إسرافيل عليه السلام

(١) سورة غافر الآيات رقم من ١٥ - ٢٠

(٢) الحديث رواه مسلم فى المنافقين ٢٤/ وأبو داود فى السنة ١٩/ وابن ماجه فى الزهد ٣٣ وأحمد فى مسنده ٧٢/٣ .

(٣) سورة المدثر الآيات رقم من ٨ - ١٠

(٤) سورة الأنبياء الآية رقم ١٠٣

(٥) سورة آل عمران الآية رقم ١٠٧

وذلك إذا فرغت أحيان الدنيا وساعاتها وشهورها وأوقاتها وأعوامها وأيامها وحلالها وحرامها ، وذلك إذا خمد الحق وظهر الباطل وترك الناس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وركبوا المآثم واستحلوا المحارم ، وكثر بينهم التظالم ، وترك الجهاد وظهر الفساد وفشا الربا ، وكثر اللواط والزنا ، وركبوا الفواحش والفجور ، واستعانوا على ذلك كله بشرب الخمر ، وأمر قوم بالمعروف وتركوه ، ونهوا عن المنكر وفعلوه ، وكرهوا الحق واتبعوا أهواءهم ، وقرئ القرآن فلم يعمل به ، واسودت القلوب وكثرت الفواحش والعيوب ، وتزين الفساق بالمعاصي والذنوب ، فإذا كانوا كذلك اشتد غضب الجبار - جل جلاله - عليهم وعند ذلك يقول الله : يا إسرافيل انفخ نفخة الصعق ، فينفخ اسرافيل عند ذلك كما أمره الجبار جل جلاله ، فتزلزل الأرض من مشرقها إلى مغربها ، وذلك من غصبة يغضبها الجبار على المنافقين والفجار .

صفة اسرافيل

واسرافيل عليه السلام ، ملك عظيم جناح له بالشرق وجناح له بالمغرب ورجلاه تحت تخوم الأرض السابعة السفلى بخمسماية عام والسموات السبع إلى ركبتيه ، وعنقه ملوى تحت العرش والعرش على كاهله ، وقد مد الرجل اليمنى وآخر اليسرى ، واللوح المحفوظ بين عينيه وقد التقم الصور وشخص ببصره نحو العرش ، وأنصت بأذنيه ينتظر متى يؤمر بالنفخ في الصور ؟ والصور قرن من نور .

قال النبي ﷺ : (الصور قرن من نور ، والذي نفسى بيده إن أعظم ثارة فيه كما بين السماء والأرض)^(١) .

وروى عنه ﷺ أنه قال : (كيف أنعم وصاحب الصور قد التقم الصور وحنى جبهته وشخص ببصره نحو العرش وأنصت بأذنيه ينتظر متى يؤمر ان ينفخ في الصور فإذا نفخ فيه مات أهل السموات والأرض إلا أربعة أملاك فإنهم لا يموتون إلا بعد موت الخلائق وهم : جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت ، فمن شدة صوت إسرافيل تتحرك الأرض من مشرقها إلى مغربها ، فلا يبقى عليها بناء إلا انهدم إلا المساجد ، فإن أساسها يبقى لا ينهدم لفضلها عند الله تبارك وتعالى ، لما عبد فيها ووجد قرئ كلامه فيها^(٢) وذلك قوله تعالى : ﴿ كل شيء هالك إلا وجهه ﴾^(٣) جاء في التفسير ان الأشياء

(١) لم أقف على هذا اللفظ في كتب الحديث التي عندي والذي وقفت عليه في وصف الصور ما رواه أحمد في مسنده ١٦٢ / ١٩٢ ، والترمذي في القيامة ٨ / ، وفي تفسير سورة ٣٩ ، والدارمي في الرقاق ٧٩ / وابن جرير الطبري في تفسيره ٧ / ١٥٧ بلفظ : (الصور قرن، ينفخ فيه) .

(٢) لم أجد هذه الرواية المطولة في مراجع الحديث التي عندي والذي وجدته في هذا ما رواه أحمد في مسنده عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال : كيف أنعم وصاحب الصور قد التقم الصور وحنى جبهته وأصغى سمعه ينتظر متى يؤمر (المسند ٧٣ / ٣) والله أعلم .

(٣) سورة القصص الآية رقم : ٨٨

كلها تهلك ، إلا عملا يراد به وجه الله تعالى ، والمساجد لا تهلك ، لأنها إنما بنيت لوجه الله تعالى

خشية النبي من هبوب الريح

روى عن النبي ﷺ أنه كان إذا هبت الريح تغير لونه ، وكان يخرج ويدخل مرة بعد أخرى من شدة خوف قيام الساعة وزلزلة الأرض .

فإذا كان رسول الله ﷺ يخاف كل هذا الخوف ، وهو أكرم الخلق على الله ؟ فكيف بمن أفنى عمره في السهو والغفلات ؟ وقطع أيامه باللهو والمبطلات ، وضع أوقاته في العصيان حتى مات ؟ ؟ وأنشدوا :

نهارك يامغرور سهو وغفلة	وليلك نوم والردى لك لازم
وشغلك فيما سوف تكره غبه	كذلك في الدنيا تعيش البهائم
وفعلك فعل الجاهلين برهم	وعمر لك في النقصان بل أنت ظالم
فلا أنت في الأيقاظ يقظان حازم	ولا أنت في النوم ناج وسالم
تسر بما يفنى وتفرح بالمنى	كما سر باللذات في النوم حالم
فلا تحمد الدنيا ولكن فذمها	ولا تكثر العصيان إنك ظالم

وروى عن النبي ﷺ أنه قال : (انتهيت ليلة أسرى بي إلى السماء السابعة فرأيت إسرافيل قد حنى جبهته ، وقدم رجلا وآخر أخرى والعرش على منكبه ، والصور في فيه بين شذقيه ، وقد تهيأ للنفخ في الصور ، فما ظننت أن أبلغ الأرض حتى تبلغني النفخة كما رأيت من تهيئته للنفخ) .

سئل رسول الله ﷺ عن إسرافيل فقال : (له جناح بالشرق وجناح له بالمغرب ، ورجلاه تحت الأرض السابعة السفلى والعرش على كاهله وإنه ليفكر في كل يوم ثلاث ساعات في عظمة الله تعالى فيبكي من خوف الجبار حتى تجرى دموعه كالبحار ، فلو أن بحرا من دموعه أذن له أن يسكب لطبق بين السموات والأرض ، وأنه ليتواضع ويصغر حتى يصير كالوضع ، والوضع طير صغير يشبه العندليب ، والعندليب أصغر ما يكون من الطير) .

فالله الله يامعشر من آمن بالله واليوم الآخر ، استعدوا لقيام الساعة وزلزالها قال الله تعالى : ﴿ إذا زلزلت الأرض زلزالها ﴾ تتحرك الأرض وتتمخض وتتطاير الجبال وتنقلع الشجر وتهدم المباني فلا يبقى على ظهرها من جبالها وشجرها ونبتها شيء إلا دخل في جوفها . قال عكرمة : إنما تقوم الساعة على شر الخلق .

متى ينفخ في الصور

قال حذيفة : كان الناس يسألون النبي ﷺ عن الخير وكنت أنا أسأله عن الشر مخافة أن يصيبني ، فكان النبي ﷺ يقول : (في آخر الزمان فتن كقطع الليل المظلم . فإذا غضب الله تعالى على أهل

الأرض أمر الله تعالى إسرافيل أن ينفخ نفخة الصعق فينفخ على غفلة من الناس فمن الناس من هو في وطنه ومنهم من هو في سوقه ومنهم من هو في حرثه ، ومنهم من هو في سفره ومنهم من يأكل فلا يرفع اللقمة إلى فمه حتى يخمد ويصعق ، ومنهم من يحدث صاحبه فلا يتم الكلمة حتى يموت ، فتموت الخلائق كلهم عن آخرهم) .

وإسرافيل لا يقطع الصعقة حتى تفور عيون الأرض وأنهارها ونباتها وأشجارها وجبالها وبحارها ، ويدخل الكل بعضه في بعض في بطن الأرض والناس خمود صرعى ، فمنهم من هو صريع على وجهه ، ومنهم من هو صريع على ظهره وعلى جنبه وعلى خده ، ومنهم من يكون اللقمة في فيه فيموت ، وما أدرك أن يبتلعها ، وتنقطع السلاسل التي فيها قناديل النجوم فتستوى بالأرض من شدة الزلزلة وتموت ملائكة السبع السماوات ، والحجب والسرادقات ، والصادقون والمسيحون ، وحمة العرش والكرسى ، وأهل سرادقات المجد والكروبيون ، ويبقى جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت عليهم السلام .

كيف يموت جبريل

فيقول الجبار جل جلاله ياملك الموت من بقى ؟ - وهو أعلم - فيقول ملك الموت : سيدى ومولاي أنت أعلم . بقى إسرافيل وبقى جبريل وبقى ميكائيل ، وبقى عبدك الضعيف ملك الموت خاضع ذليل قد ذهلت نفسه لعظيم ما عاين من الأهوال . فيقول له الجبار تبارك وتعالى : انطلق إلى جبريل فاقبض روحه ، فينطلق ملك الموت إلى جبريل عليه السلام فيجده ساجدا وراكعا فيقول له : ما أغفلك عما يراد بك يامسكين ، قد مات بنو آدم وأهل الدنيا والأرض والطير ، والسباع والهوام وسكان السموات وحمة العرش والكرسى والسرادقات وسكان سدرة المنتهى ، وقد أمرنى المولى بقبض روحك ! فعند ذلك يبكى جبريل عليه السلام ، ويقول متضرعا إلى الله تعالى : يا الله هون على سكرات الموت ، فيضمه ملك الموت ضمة يقبض فيها روحه ، فيخر جبريل منها صريعا ، فيقول الجبار جل جلاله من بقى ياملك الموت ؟ - وهو أعلم - فيقول : مولاي وسيدى بقى ميكائيل وإسرافيل وعبدك الضعيف ملك الموت .

كيف يموت ميكائيل

فيقول الجبار جل جلاله انطلق إلى ميكائيل فاقبض روحه ، فينطلق ملك الموت إلى ميكائيل كما أمره الله تعالى ، فيجده ينتظر الماء ليكيه على السحاب ، فيقول له ما أغفلك يامسكين عما يراد بك ! ما بقى لبنى آدم رزق ولا للأنعام ولا للوحوش ولا للهوام . قد مات أهل السموات وأهل الأرض وأهل الحجب والسرادقات وحمة العرش والكرسى وسرادقات المجد والكروبيون والصادقون والمسيحون ، وقد أمرنى ربى بقبض روحك ، فعند ذلك يبكى ميكائيل ويتضرع إلى الله ويسأله أن يهون عليه سكرات الموت ، فيحتضنه ملك الموت ويضمه ضمة يقبض فيها روحه ، فيخر صريعا ميتا لا روح

فيه ، فيقول الجبار جل جلاله من بقى ؟ - وهو أعلم - ياملك الموت ؟ فيقول مولاي وسيدى أنت أعلم ، بقى إسرائيل وعبدك الضعيف ملك الموت .

كيف يموت إسرائيل

فيقول الجبار تبارك وتعالى انطلق إلى إسرائيل فاقبض روحه ، فينطلق كما أمره الجبار إلى إسرائيل ، فيقول له ماأغفلك يامسكين عما يراد بك ! قد مات الخلائق كلهم وما بقى أحد ، وقد أمرنى ربى ومولاي أن أقبض روحك ، فيقول إسرائيل : سبحان من قهر العباد بالموت ، سبحان من تفرد بالبقاء ، ثم يقول : مولاي هون على مرارة الموت ، فيضمه ملك الموت ضمة يقبض فيها روحه ، فيخر ميتا صريعا ، فلو كان أهل السموات فى السموات وأهل الأرض فى الأرض لماتوا كلهم من شدة رجة وقعته .

كيف يموت ملك الموت

فيقول الجبار تبارك وتعالى من بقى ياملك الموت ؟ - وهو أعلم - فيقول مولاي وسيدى أنت أعلم بمن بقى ، بقى عبدك الضعيف ملك الموت فيقول الجبار تعالى : وعزق وجلالى لأذيقنك ما أذقت عبادى انطلق بين الجنة والنار وميت ، ينطلق بين الجنة والنار ، فيصيح صيحة لولا أن الله تبارك وتعالى أمات الخلائق لماتوا من عند آخرهم من شدة صيحته فيموت ، فتبقى السموات خالية من أملاكها ، ساكنة أفلاكها ، وتبقى الأرض خاوية من إنسها وجننها وطيرها وهوامها وسباعها وأنعامها ، ويبقى الملك لله الواحد القهار الذى خلق الليل والنهار فلا ترى أنيسا ولا تحس حسيسا ، قد سكنت الحركات ، وخذت الأصوات ، وخلت من سكانها الأرضون والسموات .

لمن الملك اليوم

ثم يطلع الله تبارك وتعالى إلى الدنيا فيقول : يادنيا أين أنهارك ؟ وأين أشجارك ، وأين سكانك ، وأين عمارك ، أين الملوك وأبناء الملوك ، وأين الجبابرة وأبناء الجبابرة ، أين الذين أكلوا رزقى ، وتقلبوا فى نعمتى وعبدوا غيرى لمن الملك اليوم ؟ فلا يجيبه أحد ، فيقول تعالى الملك : لله الواحد القهار ، فينظر الجبار جل جلاله إلى عباده موتى من بين صريع على خده ومن بين بال فى قبره ثم يقول يادنيا أين أنهارك وأين أشجارك وأين سكانك وأين عمارك وأين الملوك وأين الجبابرة لمن الملك اليوم ؟ لا يجيبه أحد ، فيقول تعالى : لله الواحد القهار فتبقى الأرضون والسموات ليس فيهن من ينطق ولا من يتنفس ما شاء الله من ذلك ، وقد قيل تبقى أربعين يوما وهو مقدار ما بين النفختين ، ثم بعد ذلك ينزل الله تبارك وتعالى من السماء السابعة من بحر يقال له بحر الحيوان ماء يشبه منى الرجال ينزله ربنا أربعين عاما فيشق ذلك الماء الأرض شقا فيدخل تحت الأرض إلى العظام البالية فتنبت بذلك الماء كما ينبت الزرع بالمطر .

كيفية بعث الموتى

قال الله تعالى : ﴿ وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته حتى إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون ﴾ . قال الحافظ أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزى رحمه الله تعالى فى كتابه (بستان الواعظين ورياض السامعين) .

كما أخرج النبات بالمطر ، كذلك يخرج الموتى بماء الحياة ، فتجتمع العظام والعروق واللحوم والأشعار ، فيرجع كل عضو إلى مكانه الذى كان فيه فى دار الدنيا ، فتلتئم الأجساد بقدره الجبار جل جلاله ، وتبقى بلا أرواح ، ثم يقول الجبار جل جلاله : ليعثن إسرائيل فيقوم إسرائيل عليه السلام حيا بقدره الله تعالى فيقول له الجبار يا إسرائيل التقم الصور وازجر عبادى لفصل القضاء ، فأول ما يحى الله تبارك وتعالى إسرائيل ويأمره أن يلتقم الصور .

حقيقة الصور

والصور قرن من نور فيه أثقاب على عدد أرواح العباد فتجتمع الأرواح كلها فتجعل فى الصور .

أين يقف إسرائيل

ويأمر الجبار إسرائيل أن يقوم على صخرة بيت المقدس ، وينادى فى الصور ، وهو فى فيه قد التقمه والصخرة أقرب ما فى الأرض إلى السماء ، وهو قوله تعالى : ﴿ واستمع يوم ينادى المنادى من مكان قريب ﴾ ^(١) ويقول إسرائيل فى ندائه : أيتها العظام البالية واللحوم المتقطعة والأشعار المتبددة والعروق المتمزقة ، لتقمن إلى العرض على الملك الديان ، ليجازيكن بأعمالكن ، فإذا نادى إسرائيل عليه السلام فى الصور خرجت الأرواح من أثقاب الصور ، فتتشر بين السماء والأرض ، كأنها النحل ، يخرج من كل ثقب روح ولا يخرج من ذلك الثقب غيره ، فأرواح المؤمنين تخرج من أثقابها نائرة بنور الإيمان وبنور أعمالها الصالحة ، وأرواح الكافرين تخرج مظلمة كظلمات الكفر ، وإسرائيل يديم الصوت والأرواح قد انتشرت بين السماء والأرض ثم تدخل الأرواح فى الأرض إلى الأجساد فيدخل كل روح إلى جسده الذى فارقه فى دار الدنيا ، فتدب الأرواح فى الأجساد كما يدب السم فى الملسوع (وهو الذى لسعته العقرب والحية ونفثت سمها فيه) فيتمشى فى الجسم على مهل إن لم يتدارك بربط العضو الملسوع ، ويجب بعد ربطه ربطا محكما أن يشرط بموس لينزل منه الدم ثم يمتصه آخر ليس فى فمه جروح ، ويوضع عليه ملح الطعام ويسقى ماء الليمون) .

حتى ترجع إلى أجسادها ، كما كانت في دار الدنيا ثم تنشق الأرض من قبل رءوسهم ، فإذا هم قيام على أقدامهم ينظرون إلى أهوال يوم القيامة وطوامها ، وإسرافيل عليه السلام ينادى بهذا النداء لا يقطع الصوت ويمده مدا ، والخلائق يتبعون صوته ، والنيران تسوق الخلائق إلى أرض القيامة .

ملازمة الأعمال للأجساد

فإذا خرجوا من قبورهم ، خرج مع كل إنسان عمله الذي عمله في الدنيا ؛ لأن عمل كل إنسان يصحبه في قبره ، فإن كان العبد مطيعا لربه وعمل عملا صالحا كان أنيسه في الدنيا ، ويكون أنيسه إذا خرج من قبره يوم حشره يؤنسه من الأهوال ومن هموم القيامة وكروبها ، كلما نظر العبد المؤمن إلى نار أو إلى هول من أهوال القيامة جزع ، فيقول له عمله : يا حبيبى ما عليك من هذا شيء ، ليس يراد به من أطاع الله ، وإنما يراد به من عصى الله تعالى مولاه ، ثم كذب بآياته واتبع هواه ، وأنت كنت عبدا مطيعا لمولاك متبعا لنبيك تاركا لهواك ، فما عليك اليوم من هم ولا حزن حتى تدخل الجنة .

العمل السوء وهياته

وإذا كان العبد خاطئا وعاصيا لذى الجلال ، ومات على غير توبة وانتقال ، فإذا خرج المغرور المسكين من قبره ، خرج معه عمله السوء الذى عمل في دار الدنيا ، وكان قد صحبه في قبره ، فإذا نظر إليه العبد المغتر بربه رآه أسود فظيعا فلا يمر على هول ولا نار ولا شيء من هموم القيامة ، إلا قال له عمله : يا عدو الله هذا كله لك وأنت المراد به ، وأنشدوا :

أى يوم يكون يوم النشور	يوم فيه يفوز أهل القبور
يوم فيه الجزاء جنة عدن	لمطيع ومن عصى فى سكير
خاب من قد عصى وفاز مطيع	راقب الله فى جميع الأمور
قام فى الليل للاله ذليلا	ليس يخلو من خوفه للتقدير
خاف من عظم يوم هول شديد	شدة الهول من عذاب الزفير

فالله الله عباد الله ، معشر المريدين انتبهوا من هذا المنام واهجروا الفواحش والآثام ، وارجعوا إلى طاعة الملك العلام ، من قبل أن يأتى يوم تشقق السماء فيه بالغمام .

إخراج الأرض وما فيها

قال الله تعالى : ﴿ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴾ يعنى ما فيها من الموتى والكنوز ، وما أودعها من أعمال العباد ، ومن مخبات أسرارهم من أعمال الطاعة وأعمال العصيان ، فيأمر الله تعالى أن تخرج أعمال العباد ، وذلك أن العبد إذا خرج من قبره يجد عمله على شفير قبره ، فإن كان عملا صالحا وجده نورا يستره ويحجبه ، يستر عورته من أعين الناس ، ويحجبه عن النيران التى تسوق الناس إلى

أرض القيامة ، وإن كان عملا سيئا وجده ظلمة سوداء ، تكون عليه أشد من كل هول يلقاه من أهوال يوم القيامة .

هذا كله في النفخة الثانية ، وبين النفخة الأولى والثانية ، أربعون سنة فهو قوله : ﴿ وأخرجت الأرض أثقالها ﴾ .

فمثل لنفسك يامغرور وقد ترادفت عليك الهموم والكروب ، وأحاطت بك الأهوال والخطوب وأظهرت لك القبائح والعيوب وأثقلت ظهرك الأوزار والذنوب . وأنشدوا :

قد سودت وجهي المعاصي	وأثقلت ظهري الذنوب
أورثني ذكرها سقاما	فليس لي في الوري طيب
ياشؤم نفسي غداة حشري	إذا أحاطت بي الكروب
وصوت داع دعا باسمي	أين مفري وما أجيب؟
هذا كتاب الذنوب فاقرا	ف عندها تظهر العيوب

ذكر أن العبد إذا خرج من قبره ، وجد عمله السوء حزمة وملك من ملائكة العذاب واقف عليها ، فإذا نظر إلى ما قدم في أيامه ، قال له الملك ياعدو الله خذ عملك ، فاحمله على ظهرك كما كنت تلتذ به في الدنيا ولم تراقب مولاك ؟ وقد علمت أنه مطلع عليك ويراك ، فيأخذ العبد المسكين تلك الحزمة ، فيجرها على ظهره أثقل من جبال الدنيا والنار تسوقه إلى الموقف ، وملك يسوقه سوقا حثيثا بالعنف والانتهاز والاغلاظ عليه ، وآخر يشهد عليه مع علم الله تعالى فيه . وأنشدوا :

كيف احتيالي إذا جاء الحساب غدا	وقد حشرت بأثقالى وأوزارى
وقد نظرت إلى صحفى مسودة	من شؤم ذنب قديم العهد أوطارى
وقد تجلى لهتك الستر خالقنا	يوم المعاد ويوم الذل والعسار
يفوز كل مطيع للعزیز غدا	بدار عدن وأشجار وأنهار
لهم نعيم خلود لانفاد له	يخلدون بدار الواحد البارى
ومن عصى فى قرار النار مسكنه	لا يستريح من التعذيب فى النارى
فابكوا كثيرا فقد حق البكاء لكم	خوف العذاب بدمع وأكف جارى

فالله الله ياأولى الألباب ، تفكروا فى هول يوم الحساب ، ولا تنسوا المطالبة برد الجواب ، وأشفقوا على أنفسكم من أليم العذاب ، وارجعوا إلى طاعة رب الأرباب وابكوا على ما سلف من ذنوبكم بانتحاب .

مدة النفخ فى الصور

ذكر أن إسرافيل عليه السلام لا يقطع النداء فى الصور ، حتى تخرج الأرض جميع ما فيها من الموتى وما أودعها الله تعالى من شئ ، فإذا كمل العباد فى الموقف وكل إنس الأرض وجننها ووحوشها

ودوابها وطيرها وأنعامها وهوامها حتى الذباب ، قطع إسرائيل النداء بأمر الله تعالى وذلك بعد تبديل الأرض غير الأرض والسماوات ففى تبديلها قولان :

هياة الأرض

أحدهما أن الأرض التى يحاسب العباد عليها هى أرض من فضة بيضاء لا جبل فيها ولا بناء ولا بحار ولا أنهار ولا أشجار ، ما سفك عليها دم ولا عصى الله تعالى عليها ، يأتى بها من غامض علمه ، ويقول لها : كوني فتكون وقد أضرم تحتها النيران ، وتكون هذه الأرض فى عظم تلك الأرض مثل الشعرة البيضاء فى الثور الأسود .

وقد قيل إن تبديل الأرض هدم مبانيها ، وغور مياهها ، وانقطاع أشجارها وتسجير بحارها ، وتسير جبالها ، وتبديل السماء ، وتكوير شمسها وقمرها ، وانكدار نجومها ، وتعطيل أفلاكها وتشققتها . فهذه تبديل الأرض والسماوات والله أعلم بحقيقة ذلك :

كيف يقف الناس فى المحشر

فإذا قطع إسرائيل عليه السلام النداء ، وقف الخلائق كل واحد منهم ينظر إلى السماء ولا يرتد إليه طرفه ولا يدرى أحد من يقف بجواره لا رجل ولا امرأة ، ولا يدرى الأخ بأخيه ولا الوالد بولده ولا الأم بابنها ، كل إنسان منهم مشغول بما هو فيه من عظيم الأهوال ، وكل واحد منهم يفكر فيما قد جاء به من العصيان وفرط فيه من الطاعة والنسيان ، فالكل ينظر إلى ما ينزل به الأمر من السماء من شقاوة أو سعادة .

مقدار زمن المحشر

ويقال والله أعلم : إن الوقوف يكون مقدار ثلاثمائة سنة من سنى الدنيا ، لا خبر يتنزل ولا خبر يصعد ، قد كثر الزحام فلا تسمع إلا همس الأقدام ، حيارى نادمون فيما فرطوا فيه من استذلال القدم ، يومئذ لا ينفع البكاء ولا الندم . وأنشدوا :

ليس فى الدنيا لمن آ	من بالبعث سرور
إنما يفرح بالدني	أ جهول أو كفور
إنما الدنيا متاع	كل ما فيها غرور
فتذكر هول يوم	السها فيه تمور

بكاء النبى من أهوال القيامة

١ - روى عن رسول الله ﷺ أنه قال : (خوفنى جبريل عليه السلام من أهوال يوم القيامة حتى أبكاني فقلت له : حبيبى جبريل أليس قد غفر الله لى ما تقدم من ذنبى وما تأخر ؟ فقال : « يا محمد

١ - هذا الحديث نقله المصنف مع الكلام السابق واللاحق من (بستان الواعظين لابن الجوزى) ولكن لم أعثر على مخرج لهذا الحديث فيما بين يدي من مراجع وكتب ابن الجوزى بها كثير من مثل هذا

لتشاهدون من الأهوال يوم القيامة ما ينسبك المغفرة « فبكى رسول الله ﷺ حتى بليت دموعه لحيته) .
فهذا كان رسول الله ﷺ يبكى من هول يوم الحساب ، وقد أمنه الجبار من أليم العذاب ، ووعدته
بالجنة وحسن المآب ، فكيف بأمثالنا المساكين ؟
وكيف بمن ترك الحق والصواب ، وخالف السنة والكتاب ، وأطاع الشيطان وأفنى عمره في
معصية الملك الوهاب ؟ وقد قيل في قوله تعالى : (كلا إذا دكت الأرض دكا دكا)^(١) هو تحريكها ،
وقيل : دكا دكا : إذهابا .

معنى دك الأرض وانشقاقها

سئل بعض العلماء عن معنى تكرار هاتين الكلمتين ، دكا دكا وصفا صفا ؟ فقال : تدكدك
الأرض دكا بعد دك ، أى تحرك مرة بعد أخرى ، حتى لا يبقى عليها أثر من بناء أو جبل أو شجر ،
وقوله صفا صفا تأتى الملائكة .
صفا بعد صف ، كل ملك قد شغل بنفسه ، لعظيم ما يرى من ظهور الأهوال ، فإذا كثر زلزال
الأرض (فحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة) حتى تنقطع الجبال من أصولها ، وتنشق الأرض
وتغور فيها أنهارها وعيونها ، ويدخل فيها كل قصر شديد من بين قديم وجديد ، فياله من يوم ما
أهوله ، ومن بلاء ما أطوله ، ومن جبار ما أعدله . قد أفنى العباد بالحمام ، فلا يرى أحد من الأنام ،
فإذا استوى الأولون والآخرين في أرض القيامة ، أمر الله تبارك وتعالى السموات أن تنشق ، فتتشق كل
سما ، وتنقطع مثل قطع السحاب ، وقيل كما يتطاير القطن بين يدي القطانين إذا ندفوه فمثل لنفسك
صوت انشقاقها في سمعك ، وكيف يثبت له فؤادك ويستقر لفضاعة هوله قدمك ، فقدم في أيام حياتك
ما يقيك تلك الأهوال ؛ لأن الخلق في أهوال يوم القيامة على قدر أعمالهم في الدنيا من خير وشر ، فمن
عمل صالحا وخاف من ربه ، وخاف من هول ذلك اليوم ، أمنه مولاه من جميع أهواله وكرويه ، ومن لم
يقدم في دنياه عملا صالحا لأخراه ، لقيته صعاب الخطوب وترادفت عليه الهموم والكروب ، فيندم حين
لا تنفعه الندامة إذا حل في أهوال القيامة .

الأمن والخوف

روى عن رسول الله ﷺ أنه قال : يقول الله تبارك وتعالى : ﴿ إذا خافنى عبدى فى الدنيا
أمتته يوم القيامة وإذا أمننى فى الدنيا أخفته يوم القيامة ﴾^(٢) .
فإذا انشقت السموات بلغت القلوب الحناجر ، وأيقن كل عبد وأمة أنه قادم على ما عمل في

(١) سورة الفجر الآية رقم : ٢١

(٢) الحديث أورده العلامة المنلاوى فى (الاتخافات السنية بالأحاديث القدسية) ص ٢١١ - ٢١٢ بلفظ : لا أجمع على عبدى خوفين
ولا أجمع له أمينين ، إذا أمننى فى الدنيا أخفته يوم القيامة ، وإذا خافنى فى الدنيا أمتته يوم القيامة - وقال : رواه ابن المبارك عن

الظواهر والسرائر ، إذا انشقت السموات عظمت المصائب ، وكثرت النوائب وندم العبد على ما فرط في الدنيا وضيع من الثواب والرغائب .

فإذا انشقت السماوات ، عظمت الرزيات ، وكثرت الآفات وظهر العذاب ، وحلت العقوبات ، وأظهر الله مخبات السريرات وندم العبد المغرور على ما أذنب في الأيام والأوقات وما جنى في الشهور والساعات . فإذا انشقت السماوات ، كثرت الأحزان وبرزت النيران ، وأزلفت الجنان ، وندم العاصي على ما عمل من العصيان وعلى ما فرط فيه من طاعة الرحمن . فانتبهوا لهذه الأقوال ، يامعشر الاخوان يا أهل الاسلام والايمان فإن الهول - والله - عظيم والخطب كبير جسيم .

ملائكة سماء الدنيا

فإذا انشقت السماوات ، وتقطعت ونزلت الملائكة بأجمعها ، فإذا نزلت ملائكة سماء الدنيا ، فرع منهم أهل الأرض ، وظنوا أنهم قد أمر فيهم بأمر ، فتقول لهم ملائكة سماء الدنيا لا تجزعوا منا فإننا نخاف من الذى تخافون ، وتكون ملائكة سماء الدنيا أكثر من أهل الأرض إنسها وجنها وانعامها وطيرها ووحشها وجميع خلق برها وبحرها ، سبعين ضعفا ، فيبقى العباد يموج بعضهم فى بعض .

ملائكة السماء الثانية

ثم ينزل ملائكة السماء الثانية ، وهم أكثر عددا وأعظم خلقا ممن اجتمع فى الأرض سبعين ضعفا ، فتجزع منهم ملائكة سماء الدنيا وجميع من فى الأرض ، فيقولون لهم لا تجزعوا نحن مشغولون بأنفسنا ونخاف مما تخافون منه ، فلا تزال ملائكة كل سماء تنزل ويجزع منهم جميع من سبقهم ، ويكون أهل كل سماء أكثر وأعظم ممن سبقهم سبعين ضعفا . وكان أهل كل سماء فى صف واحد على حدة كل واحد منهم قد شغل بنفسه من عظيم ما يرى وما يبدو له . وأنشدوا :^(١)

يا غافلين أفيقوا قبل بعثكم	وقبل يؤخذ بالأقدام واللمم
والناس أجمع طراشا خصون غدا	لا ينطقون بلبكم ولا صمم
والخلق قد شغلوا والحشر جامعهم	والله طالبهم بالحل والحرم
وقد تبدى لأهل الجمع كلهم	وعد الاله من التعذيب والنقم
وكل نفس لدى الجبار شاخصة	لا ينطقون بلا روح من الزحم

الجبابرة فى الحشر كالذر

روى أن الجبابرة يحشرون يوم القيامة على صور الذر أصغر الناس خلقه ، لتجبرهم على العباد

(١) الحسن مرسلا ، ورواه ابو نعيم عن شداد بن اوس موصولا بلفظ : إن هو أمننى فى الدنيا أخفته يوم أجمع عبادى ، وإن هو خافنى فى الدنيا أمتته يوم أجمع عبادى أ - ه .

في الدنيا ، قد صارت العزة للغنى الحميد ، ولزمت الذلة كل جبار عنيد وشيطان مريد ، قد ترادفت عليهم الهموم والأهوال ، وظهرت لهم العقوبات والأنكال ، وندم كل مذنب بطل ، فحينئذ لا حيلة لمحتال « في يوم لا بيع فيه ولا خال » : -

مقام المذنبين غدا عسير	إذا ما النار قربها القدير
وقد نصب الصراط لكي تجوزوا	فلا ينجو الكبير ولا الصغير
وقد نسفت جبال الأرض نسفا	ويست البحور فلا بحور
وبرزت الجحيم لكل عبد	على أهل المعاد لها زفير

عباد الله تفكروا واعتبروا ، وابكوا وتباكوا ، واستعدوا لليوم الثقيل والهول الكبير والخطب الجليل والعذاب الشديد الطويل .

حديث في أهوال يوم القيامة

ذكر في بعض الأخبار عن النبي ﷺ وعلى آله الأخيار دوام اختلاف الليل والنهار ، أنه قال : (ليوم القيامة مائة ألف هول ، كل هول أعظم من الموت مائة ألف مرة ، فاندم يامسكين على ما صنعت وفات وأصلح بالتوبة النصوح ما هوأت من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله ليس للظالمين من نصير ، ولا للعاصين من مجير ولا لأحد من ملجأ ولا نكير .

شدة الحر والظل

فإذا تكامل أهل السموات وأهل الحجب والسرادات وحملة العرش والكرسى ، وجميع أهل الأرض في عرصة القيامة وازدحمت الخلائق واختلفت الأقدام وشخصت الأحداق وتطاولت الأعناق وانشئت من شدة العطش . واجتمع زحام الخلائق وانفاسهم وشدة حر الشمس وضيق اليأس ، ارتفع العرق على وجه الأرض ، حتى يعلو على الأبدان ، ويعم العباد على قدر منازلهم ورتبتهم ، التي أنزلتهم عليها أعمالهم التي عملوها في دار الدنيا ، وقد زيد في حر الشمس ما يتضاعف قيل حر عشر سنين - ولا ظل يومئذ إلا ظل العرش ، فلا يصيب منه عبد ولا أمة إلا على قدر عمله ، فكم بين مستظل ناعم بظل العرش وبين ضاح باد بحر الشمس ؟

مطر الرحمة

وقد قيل : إن الله تبارك وتعالى يمطر يوم القيامة الغيث على طائفة من عباده ، وترمى جهنم شررها على طائفة أخرى ، فكم من مستريح ببرد ماء الأمطار وبين ملتهب بحر شرر النار ؟ فمن قطع عمره في الدنيا بطاعة الرحمن وعمل بالسنة والقرآن خلصه مولاه من جميع الهموم والأحزان .

ترهيب من أهوال الحشر

فمثل لنفسك وقد نظرت للجبال قد تقلعت من أصولها ، وصارت مثل السراب ، وتقطعت

السموات وتطايرت مثل قطع السحاب ، وقد أيقن كل فاجر وكافر بالحلول في أليم العذاب ، وقد صارت العزة لدى البطش الشديد . ولزمت الذلة كل جبار عنيد ، ثم رجعت السماء كالملهل - وهو دردى الزيت الذى يجلس فى قعر الاناء ، قيل ترجع السماء كالدهن الرقيق وترجع الجبال كالعهن المنفوش ، وهو أضعف ما يكون من الصوف وتصير الخلائق كالفراش وهو البعوض ، وقيل كالجراد المنتشر إذا خرجت عليه الشمس لا يأخذ بجهة واحدة .

كذلك الخلق يموج بعضهم فى بعض لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه . قد اجتمعت القيامة بأهوالها ، ووضعت الحوامل أحماها وزلزلت الأرض زلزالها وأخرجت الأرض أثقالها ، وشهد على الأمم بأعمالها . وشاب الوليد وحضر الوعد وحق الوعيد وعظم الهول الشديد ، وذل كل متكبر وجبار عنيد ، قد خضعت الرقاب لرب الأرباب ، وخاب كل كفار كذاب ، واشتد الهول وعظم العذاب ، فتفكروا فيما تسمعون يامعشر الأحباب ، وانظروا لأنفسكم ياجماعة الاخوان والأصحاب ، واستعدوا لأهوال القيامة يأولى العقول والألباب . وأنشدوا :-

مثل لقلبك أيها المغرور	يوم القيامة والسماء تمور
قد كورت شمس النهار وأضعفت	حرا على رؤوس العباد تفور
وإذا الجبال تعلقت بأصولها	فرايتها مثل السحاب تسير
وإذا النجوم تساقطت وتناثرت	وتبدلت بعد الضياء كدور
وإذا العشار تعطلت عن أهلها	خلت الديار فما بها معمور
وإذا الوحوش لدى القيامة أحضرت	وتقول للأملاك أين نسير
فيقال سيروا تشهدون فضائحا	وعجائبا قد أحضرت وأمور
وإذا الجنين بأمه متعلق	خوف الحساب وقلبه مذعور
هذا بلا ذنب يخاف لهوله	كيف المقيم على الذنوب دهور؟

جهنم فى المحشر

فإذا اشتد الفرق ، وسال العرق ، أمر الجبار جل جلاله أن يؤتى بجهنم ، أعاذنا الله وإياكم منها ، وزحزحنا وإياكم عنها برحمته ، فيؤتى بها وأهوالها وأنكالها وسلاسلها وأغلالها ، وقد اشتد جحيمها وغلى حميمها ، وكثر زقومها ، وغضب زبانياتها ، وعظم سم حياتها وعقاربها ، واسودت جبالها ، وهاجت بحارها ، وتنن غسلينها وغلى سمومها ، وقد اجتمعت مما خلق الله فيها من عظيم بلاء ، فأبرزت للخلائق وهم ينظرون إليها من مسيرة خمسمائة عام .

وصف جهنم

قال الله تعالى : ﴿ وبرزت الجحيم لمن يرى ﴾ ^(١) فيراها الخلائق كلهم وهى تغتاظ على العباد ، وكغضب الجبار جل جلاله وتتغيظ وتتسر ، عليها سبعون ألف زمام من حديد ، قد تعلق بكل زمام

سبعون ألف ملك من ملائكة النار يحبسونها عن الخلائق ، وهى تريد أن تنفلت من أيديهم ، وتأق على أهل الموقف والملائكة الذين يحبسونها وجوههم مثل الجمر وأعينهم مثل البرق الخاطف : فإذا تكلم أحدهم تناثرت النار من فيه

بيد كل واحد منهم أرزبة من حديد من نار ، فيها اثنان وسبعون ألف رأس من نار ، كأمثال الجبال الراسيات العظام ورءوسها كراءوس الأفاعى ، وهى أخف فى يدى الملك من الريشة وأعينهم زرق ووجوههم كلحة ، قد خلقوا من نار السموم ، تريد جهنم أن تنفلت من أيدي الملائكة من غضب الجبار جلا جلاله .

هذا كله قاله الضحاك عن الأئمة عن ابن عباس -رضى الله- تعالى- عنهم .

بطش جهنم

فإذا جاءت جهنم بأمر الله تبارك وتعالى جاءت بالهول الأكبر والفرع الأعظم ، فيخرج من نفسها وهج شديد ، ويسمع من جوفها دوى سلاسل الحديد . فإذا قربت من الخلائق ، سمعوا لها شهيقا ، ورأوا لها حريقا ، فإذا نظرت فى أهل المعاصى ثارت وفارت وأرادت أن تثب عليهم فاغتازت وتمحمت إليهم ، وأرادت أن تأق على جميع الخلائق ، وتريد أن تنفلت من أيدي الخزان فتهرب الخلائق ، فلا يجدون منفذا ولا مكانا يستغيثون إليه . ومناد ينادى (يامعشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان)^(١) أى بحجة - ثم ترجع جهنم بسلطانها على خزانها ، لشدة غضب الجبار على من عصى الله وخالف رسوله ، فإذا انفلتت من أيدي الزبانية ، أرادت أن تقبض على كل من فى الموقف ، فيعرض لها صلوات الله وسلامه عليه محمد الرسول ، وكل نبي يومئذ بنفسه مشغول .

رد الرسول جهنم عن الخلائق

فيأخذ محمد ﷺ بزمامها ويقبض على خطامها ، فيردها على خطامها ، فيردها على عقبها ، وهو ﷺ يقول لها : كفى عن أمتى ، فتخمد من نوره ﷺ وتناديه ايها النبي المكرم ، والرسول المشرف المعظم ، خل سبيلي من يديك ، فما جعل الله لى ولا ليغفرى من سلطان عليك ، فيناديها الملك الجليل الجبار ، هذا محمد حبيبى سيد الأبرار ووزير الأخيار ، فالطاعة لمن له الوسيلة والشفاعة ، فعند ذلك تضع جهنم رأسها خاضعة كالحة كليلة تحت سكون وخمود بإذن الملك المعبود ، لمحمد ﷺ صاحب الحوض المورود ، والمقام المحمود ، واللواء المعقود ، والكرم والجود ، وإقامة الحقائق والحدود ، ولو

تركها خاتم النبيين وسيد المرسلين لأهلكت الخلائق أجمعين غضبا لغضب رب العالمين أعاذنا الله وإياكم - برحمته - منها إنه أرحم الراحمين .

جهنم وزفيرها

وقيل إن جهنم - أعاذنا الله منها وزحزحنا وإياكم برحمته عنها - إذا نظرت إلى الكفار والمنافقين والفجار وأصحاب الخطايا والأوزار ، زفرت زفرة ، فترمى شررا على رءوس الخلائق مثل عدد نجوم السماء وزبد البحر ورمل البر ، فتقع على رءوس الكافرين والعاصين لرب الأولين والآخرين ، فلو كانت الدنيا باقية لانهارت جبالها وجفت أزهارها ، ويبست عيونها وأنهارها من شدة حر شر جهنم ، ولو كان ثم موت لمات الخلق كلهم .

الزفرة الثانية

ثم تزفر أخرى أعظم من الأولى ، فلا تبقى دمة في عين إلا قطرت ، ويغلب بياض العين على سوادها ، وتبلغ القلوب الحناجر ولا يسأل أحد إلا نفسه البر والفاجر .

الزفرة الثالثة

ثم تزفر الثالثة وهي أعظم من الأولى والثانية ، فلا يبقى ملك مقرب ، ولا بنى مرسل ، ولا ولي ولا صديق ، إلا جثا على ركبتيه حتى إبراهيم وجميع المرسلين إلا ما خلا من حبيب رب العالمين محمد ﷺ خاتم النبيين ، فإنه لا يسأل عن هول النار قد خلصه الله من أهوالها .

الزفرة الرابعة

ثم تزفر الرابعة وهي أعظم من الأولى والثانية والثالثة ، فتلقى الزبانية على وجوههم أجمعين وتفر الخلائق كلهم هاربين ، ويتعلق جبريل وميكائيل - عليهما السلام - بساق العرش ، وكل ملك ينادى نفسى نفسى لا أسألك اليوم غيرها ، ويقول أيضا كل واحد منهم بحرمة محمد وبقدر محمد ﷺ نجنى من عذابك ، لما يرون من حرمة وجلالة قدره وعظيم منزلته عند ربه ، فإذا هرب الخلائق وجهنم تريد أن تأق عليهم ، وقد غلى بعضها في بعض ، ويقلب بعضها على بعض ، ولا يبقى غل ولا سربال ولا سلسلة ولا قيد ولا حية ولا عقرب إلا ألقت الكل على منها .

بماذا تخدم النار ؟

فعند ذلك يقبل إليها محمد ﷺ ويلقى يده في زمامها ، ويلوح إليها بحلة خضراء ، فتخدم من نور وجهه المبارك وهو ﷺ يضرع إلى العلى المجيد وهو يقول : ياسلام سلم أمتى من العذاب الشديد . وأنشدوا : -

الدمع في خد من عصي حسن حسب الفتى من دموعه الحزن
يامن شكى حافظاه خلوته لما خلا والعباد ما فطن
قد كان ربى عليك مطلعا وأنت لاهى الفؤاد مفتن
لم تهتك الستر إذ خلوت به ولا انقضت من عطائه المنن
النار تسعى إلى العصاة غدا لم يعلم المذنبون ما وسن

ياقوم العجب من القلوب التى بليت بالعباد ، وغفلت عن أهوال يوم المعاد ، وتمادت على معصية الرب الكريم الجواد .

ياأخى كأن المراد بهذا كله غيرنا . ليعثن الجبار ، الذليل والحقير ، ويسألهم عن الفتيل والنقير ، وعن الذرة والقطمير ، وعن القليل والكثير فى اليوم المهول العبوس العسير ، الذى يشيب من فظاعة هوله الطفل الصغير أرفق الله بنا وبكم فى ذلك اليوم إنه على ما يشاء قدير .

ثم يبعث الله تعالى جبريل عليه السلام إلى جهنم ، فيقول لها : الله تعالى يقول لك الطاعة . فتقول وعزة الله وعظيم جلاله لأنتقمن اليوم ممن لم يعمل بطاعة الله واستعان بنعمته على معصيته . ثم تقول : يا جبريل ، هل خلق الله خلقا يعذبني به ؟

فيقول جبريل : لا ، ما خلقك الله تعالى إلا نعمة لمن عصاه . فتقول جهنم عند ذلك : الحمد لله الذى جعلنى نعمة لمن عصاه ولم يجعل من خلقه من ينتقم منى .

عند ذلك - والله - تعظم الخطوب ، وتظهر القبائح والعيوب ، ويندم أهل المعاصى والذنوب وأنشدوا :

ليس فى الدنيا لمن آمن بالبعث سرور
فإنا لله وإنا إليه راجعون ، على من باع نفسه فى سوق الخسران ، ترك العز ورضى بالهوان ، وبذل مهجته لعذاب النيران ، وبارز بالخطايا الملك الديان .

من أسباب غفران الذنوب

حكى عن بعض العارفين - رحمه الله - أنه قال : حضرت سنة من السنين الوقوف بعرفات ، فإذا بضجة الناس ، فتذكرت يوم القيامة ، وذكرت رحمة الله ، فأردت أن أحلف أن الله قد غفر لكل من فى الجمع ، فذكرت أنى فيهم فأمسكت . وأنشدوا :

ياكثير الذنوب أقصر قليلا قد بلغت المدى من الإسراف
فإذا اشتد بالخلائق الهلع ، وكثر منهم الخوف والجزع ، وبلغت القلوب الحناجر من خوف من يعلم الظواهر والسرائر ، نادى الملك الرحمن : « يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون »^(١)
فإذا سمع الخلائق هذا النداء طمع كل منهم فيه . فيقول سبحانه ﴿ الذين آمنوا بآياتنا وكانوا

مسلمين ﴿ فعند ذلك يأس من الرحمة جميع الكفار والمنافقين والفجار ، ويطمع فيها من آمن بالواحد القهار ، واتبع سنة محمد المختار ، عند ذلك تنشر الدواوين ، وتوضع الموازين وتتطاير الصحف في الأفق ، فكل امرئ بما اكتسب معترف ، فندم الظالم وخسر الأثم وظهرت في الصحف الفضائح وكثر الخجل واشتد الوجل ، وبدت الفضائح وشهدت على كل امرئ حفظته والجوارح . وأنشدوا : -

طال والله بالذنوب اشتغالي	وتساديت في قبيح فعالي
ليت شعري إذا أتيت فريدا	والموازين قد نصبت حيالي
والدواوين قد نشرت وجثنا	والنبيون يشهدون سؤالي
ما اعتذاري وما أقول لربي	في سؤالي وما يكون مقالي
أورثني الذنوب دار هموم	لست أبقى لها ولا تبقى لي
ياعظيم الجلال ما لي عذر	بل حقيق أنا بنار السفال
غير أن الرجاء فيك مكين	فارحم العبد يا جميل الفعال
وتفضل على عبيد بشيء	ليس يرجو سواك يا ذا الجلال

هذا يوم الدين

١ - روى عن رسول الله ﷺ أنه قال : (إذا جمع الله تبارك وتعالى الأولين والآخرين نادى مناد هذا يوم الدين هذا يوم الفصل الذي كتم به تكذبون) .
فانظر لنفسك يامسكين ياضعيف الايمان واليقين يامن يقول إنه من المؤمنين المصدقين ، وهو يعمل أعمال المكذبين المخالفين ، التاركين لسنن سيد المرسلين وخاتم النبيين ، ما أجراك أن تكون عند الله من الكاذبين ، لو خفت من عذاب يوم الدين ، لعملت بالقرآن المبين ، ولو كنت من المؤمنين المصدقين ، لأطعت رب الأولين والآخرين ، فسل مولاك أن يفرج عنك ما قد نزل بك من داء الذنوب ، وهتك سترك من القبائح والعيوب ، وأنشدوا : -

ياطبيب الذنوب والآثام	هل دواء أبرأ به من سقامي
إن داء الذنوب أضعف جسمي	ومشيبي موكل بحمامي
وشفائي أعيأ الأطباء إني	قد تغذيت مدق بالحرام
وركبت الذنوب سرا وجهرا	وتباعدت من محل الكرام
كيف بالطب أن يعالج سقمي	وكلامي يزيد قرح كلامي

١ - لم أعثر على هذا اللفظ فيما بين يدي من مراجع .
والذي وقفت عليه ما أخرجه سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وابن المنذر عن أبي عبد الله الجعفي قال : أتيت بيت المقدس فإذا عبادة بن الصامت وعبد الله بن عمر وكعب الاحبار يتحدثون في بيت المقدس ، فقال عبادة : إذا كان يوم القيامة جمع الناس في صعيد واحد فينفذهم البصر ويسمعهم الداعي ويقول الله : هذا يوم لا ينطقون هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين فإن كان لكم كيد فكيدون ، اليوم لا ينجو مني جبار ولا شيطان مريد ... الخ ، الحديث الطويل « راجع الدر المنثور ٦ / ٣٠٥ »

أيها الناس قد علمتم ذنوبي وأنا أرغب الدعاء فجسدوا واشتياقي إلى الطواف شديد وإلى يشرب يحسن فؤادي فسلوا الله في الوصول فإني فلعل الإله يغفر جرمي ويفك ذو الجلال عبدا ضعيفا الغرام : لعله يريد العذاب الغريم أي الملازم فاضطرته القافية لذلك ، وقد سبق أن نبهنا على أن هذة الأشعار ، هي ألفاظ عامية يلاحظ فيها المعنى لا التركيب البديعي .

موعظة كعب الأحبار

روى أن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قال لكعب : يا كعب خوفنا فأطرق برأسه ، ثم رفع رأسه وعيناه تذرفان دموعا ، فقال : يا أمير المؤمنين والذي نفس كعب بيده ، إن جهنم لتزفر زفرة ، فتقطع السلاسل التي بأيدي الزبانية الذين يمسكونها بها ، حتى تفيض على أهل الجمع وتلقى الزبانية على وجوههم ، وينهزم مالك خازنها من بين يديها ، فلو كان لكل آدمي عمل مائة ألف نبي ، ومائة ألف صديق ، ومائة ألف شهيد ، لحقر عمله ولظن أنه لا ينجو منها ، فعند ذلك يعرض لها النبي ﷺ وقد أشرقت القيامة من نور وجهه ، فيأخذ بزمامها ويقول لها : كفى عن أمتي كفى عن أمتي ، كفى عن أمتي ثلاثا . فتقول له : يا أيها النبي الكريم والرسول الرؤوف الرحيم ، ما جعل الله لي عليك ولا على أمتك من سبيل ، فعند ذلك يتعلق العبد المذنب إذا رأى الأهوال العظام بالنبي - عليه الصلاة والسلام - فيقول يا رسول الله : أنقذني من عذاب الله ، فيقول له : ألم أبلغك رسالة ربي ، فلم عصيت ؟ فيقول له العبد المذنب : يا رسول الله غلبت على شقوق ، فيقول ﷺ لا شقوة على أحد من أمتي ولا على من قال في الدنيا مخلصا : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، فيشفع له إلى الله تعالى فيشفع فيه . وأنشدوا : -

ألا أكرم بأحمد ذي الأيادي	شفيع الناس في يوم التنادي
إذا نشر الخلائق من قبور	عراة يتغنون ندا المنادي
وقربت الجحيم لمن يراها	فيالله من خوف العباد
وقد زفرت جهنم فاستكانوا	سقوطا كالفراش وكالجراد
وقد بلغت حناجرهم قلوبا	وقد شخصوا بأبصار حداد
فياجبار عفوا منك فالطف	ويارحمنا رفقا بالعباد
ونودوا للصراط ألا هموا	فهذا ويحكم يوم المعاد
تسوقكم إليه سوق عنف	مقامع من زبانية شداد

ألا يامعشر الاسلام هبوا من الإغفال في غمر الرقاد

حديث في الترهيب

روى عن النبي ﷺ أنه قال : (كل عين باكية يوم القيامة إلا عين بكت من خشية الله وعين غضت عن محارم الله وعين باتت تحرس في سبيل الله)^(١)
فقدموا عباد الله في السير من الأيام ، ما يقيكم الأهوال العظام ، والخطوب الجسام ، والزلازل والطوام ، والعذاب الغرام ، فإن العمر يسير ، والأجل قصير ، والزاد قليل والهول جليل ، والعذاب طويل ، واليوم مهول ثقيل ، فإننا لله وإنا إليه راجعون ، على من قطع أيامه في العصيان ، واستبدل الجنة بالنيران والربح بالخسران ، وترك العز ورضى بالهوان ، وعوض عن الزيادة النقصان .
ففكر فيما تسمع أيها الانسان ، وأنا وأنت وكلنا ذلك الانسان وأنشدوا : -

مقام المذنبين غدا ذليل	وقدر الطائعين غدا جليل
إذا مد الصراط على جحيم	يطول على العصاة ويستطيل
ونادى مالكا خذ من عصاني	فإن اليوم لست لهم أقيل

سجود جهنم

ذكر في بعض الأخبار أن جهنم - أعاذنا الله منها وزحزحنا برحمته عنها - تستأذن يوم القيامة في السجود ، فيؤذن لها ، فتسجد ما شاء الله من ذلك ، ثم يقال لها ارفعي رأسك ، فترفع رأسها وهي تقول : الحمد لله الذي خلقني لينتقم بي ممن عصاه ، ولم يجعل شيئا من خلقه ينتقم به مني .
إلهي قد اشتد بلائي وأخذت ناري ، وغلا حميمي وزقومي ، وكثرتني وغسليني (هو ما انغسل من لحوم أهل النار ودمائهم وزيد فيه الياء والنون) وأكل بعضي بعضا . إلهي عجل على بأهلي ، فوعزت لك لأنتقم من لك ، ممن عصاك ، واتبع هواه وجحد آياتك ، وكذب رسلك ، وجعل معك إلها غيرك ، لا إله إلا أنت .

فتنادى نداء يسمعه أهل الموقف جميعا ، ثم تغتاط على أهل المعاصي فترمي بشر (فسر ابن عباس بأعناق النخل) كعدد النجوم في السماء وزبد البحر ورمل البرونبات الأرض على رءوس الخلائق ، فيقع على رءوس العصاة ، فمن كان له عمل صالح صار حجابا بينه وبين شر جهنم ، ومن لم يكن له عمل صالح صار رأسه غرضا لشر جهنم ، أعاذنا الله منها وزحزحنا عنها برحمته . يارب العالمين . آمين .

قوله تعالى ﴿ ويوم يعرض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا . ياويلتي يا ليتني لم أتخذ فلانا خليلا . لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني وكان الشيطان للإنسان خذولا ﴾ .

(١) الحديث رواه الترمذي في فضائل الجهاد / ١٢

روى أن عقبة بن أبي معيط كان يكثّر مجالسة النبي ﷺ فدعاه إلى ضيافته ، فأبى أن يأكل من طعامه ، حتى ينطق بالشهادتين ، ففعل . وكان أبي بن خلف صديقه فعاتبه ، وقال له : صبات ، فقال : لا والله ولكن أبي أن يأكل من طعامي وهو في بيتي ، فاستحييت منه ، فشهدت له ، فقال : لا أرضى منك إلا أن تأتيه ، فتطأقفاه ، وتبزق في وجهه ، فوجده ساجدا في دار الندوة ففعل ذلك ، فقال له النبي ﷺ لا ألقاك خارجا من مكة إلا علوت رأسك بالسيف ، فأسر يوم بدر فأمر عليا فقتله ، وقتل أبي بن خلف بيده الشريفة يوم أحد ، طعنه بحربة ، فوقعت في ترقوته فلم يخرج منه دم كثير واحتقن الدم في جوفه ، فجعل كما يخور الثور ، فأقى أصحابه حتى احتملوه وهو يخور ، فما لبث إلا يوما أو نحوه ، حتى ذهب إلى النار ، فأنزل الله الآية .

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ (يحشر المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل) أخرجه أبو داود والترمذي^(١) .

وعن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ (لا تصاحب إلا مؤمنا ولا يأكل طعامكم إلا تقي)^(٢) .

وروى الشيخان عن أبي موسى الأشعري أن النبي ﷺ قال : (مثل المجلس الصالح وجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير فحامل المسك إما أن يحذيك وإما أن تبتاع منه وإما أن تجد منه ريحا طيبة ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك وإما أن تجد منه ريحا خبيثة)^(٣) .

والمراد بالعض على اليدين الندم والحسرة والألم واللوعة النفسية ، وهنا يتمنى النادم أن يكون قد اتخذ مع الرسول طريقا ، يوصل إلى الحق ، وعلى صراط مستقيم ، ثم يتمنى الهلاك لنفسه بقوله : (ياويلتي) يامصيتي احضري فقد آن أوانك ، ليتني لم ألتزم فلانا خليلا وصاحبنا .

نعم خير الأصحاب من إذا ذكرت الله أعانك ، وإذا نسيت ذكرك ، وشر الأصحاب من إذا ذكرت الله لا يعينك ، وإذا نسيت لا يذكرك ،

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه فكل قرين بالمقارن يقتدى

ثم بين له ذلك فقال : - (لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني) والمراد بالذكر هنا القرآن العظيم ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾^(٤) . (ومن يعيش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون حتى إذا جاءنا قال ياليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم في العذاب مشتركون)^(٥) .

(١) الحديث رواه أبو داود في الأدب ١٦ ، والترمذي في الزهد / ٤٥ ، وأحمد في مسنده ٣٠٣/٢ ، ٣٣٤ .

(٢) الحديث رواه أبو داود في الأدب / ١٦ ، والترمذي في الزهد / ٥٦ .

(٣) الحديث رواه البخاري في الذبائح ٣١ ، ومسلم في البر ١٤٦ .

(٤) سورة الحجر آية رقم : ٩ .

(٥) سورة الزخرف آية رقم : ٣٦ - ٣٩ .

وليست هذه الآيات خاصة بظالم بعينه ، بل تشمل كل ظالم ، كما أنها تشمل (لعن) كل قرين سوء ﴿ إن الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيرا ، خالدين فيها أبدا لا يجدون وليا ولا نصيرا ، يوم تقلب وجوههم في النار يقولون ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسول . وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا ، ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا ﴾ (٢) .

إذا المرء لا يلقاك إلا تكلفا	فدعه ولا تكثر عليه التأسفا
ففى الناس أبدال وفى الترك راحة	وفى القلب صبر للحبيب ولو جفا
فما كل من تهواه يهواك قلبه	ولا كل من صافيته لك قد صفا
إذا لم يكن صفو الوداد طبيعة	فلا خير فى ود يجىء تكلفا
ولا خير فى خل يخون خليله	ويلقاه من بعد المودة بالجفا
وينكر عيشا قد تقادم عهده	ويظهر سرا كان بالأمس فى خفا
سلام على الدنيا إذا لم يكن بها	صديق وفى يصدق الوعد منصفاً

قوله تعالى : ﴿ وكان الشيطان للانسان خذولا ﴾ أى وكان من عادة الشيطان أن يخذل الانسان ، فيصرفه عن الحق ، ويدعوه إلى الباطل ، ثم لا ينقذه مما يحل به من البلاء ولا ينجيه منه . قال تعالى : ﴿ وقال الشيطان لما قضى الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلومونى ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخى إني كفرت بما أشركتمونى من قبل إن الظالمين لهم عذاب أليم ﴾ (٣) . وقال جل شأنه : ﴿ إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ﴾ (٣) .

وقال جل شأنه : ﴿ كمثل الشيطان إذ قال للانسان اكفر فلما كفر قال إني برىء منك إني أخاف الله رب العالمين . فكان عاقبتهما أنها فى النار خالدين فيها وذلك جزاء الظالمين ﴾ (٤) .

قوله تعالى : ﴿ وقال الرسول يارب إن قومى اتخذوا هذا القرآن مهجورا ﴾ . كتب الامام ابن القيم فى كتابه (الفوائد) يقول : هجر القرآن أنواع : أحدهما هجر سماعه والايمان به والاصغاء اليه .

والثانى : هجر العمل به والوقوف عند حلاله وحرامه وإن قرأه وآمن به .

الثالث : هجر تحكيمه والتحاكم إليه فى أصول الدين وفروعه واعتقاده لا يفيد اليقين وأن أدلته لفظية لا تحصل العلم .

الرابع : هجر تدبره وتفهمه ومعرفة ما أراد المتكلم به منه .

(١) سورة الاحزاب الآية رقم : ٦٤ - ٦٨

(٢) سورة إبراهيم الآية رقم : ٢٢

(٣) سورة فاطر الآية رقم : ٦

(٤) سورة الحشر الآية رقم : ١٦ ، ١٧

الخامس : هجر الاستشفاء والتداوى به في جميع أمراض القلوب وأدوائها ، فيطلب شفاء دائه من غيره ، ويهجر التداوى به ، وكل هذا داخل في قوله : ﴿ وقال الرسول يارب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا ﴾ وان كان بعض الهجر أهون من بعض .
فاعجب معى لأمة تهجر كتابها المنزل من ربها على نبيها .
فالله نور السماوات والأرض والقرآن نور قال تعالى : ﴿ فآمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزلنا ﴾ (١) .

ونبيها نور : ﴿ قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ﴾ (٢) أمة شأنها هكذا ، كيف ترضى لنفسها أن تعيش في الظلمات ؟ ! إلا فلتعلم هذه الأمة ، فضائل هذا الكتاب ومناقبه ، فتعود إليه ، رافعة لواء الاسلام مرددة نشيد الايمان .

فضائل القرآن ومناقبه

قال تعالى : ، ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم ﴿ (٣) .

١ - وعن ابن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال : (إن هذا القرآن مأدبة الله في أرضه فتعلموا مأدبته ما استطعتم ، وإن هذا القرآن هو جبل الله ، فهو نوره المبين ، والشفاء النافع ، عصمة لمن تمسك به ، ونجاة من تبعه لا يعوج فيقوم ، ولا يزيغ فيستعيب ولا ينقض عجايبه ولا يخلق عن كثرة الرد فاقراءوه ، فإن الله يأجركم بكل حرف عشر حسنات ، أما أنى لا أقول : ألم عشر ولكن ألف ولام وميم ثلاثون حسنة) .

٢ - وعن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : (فضل القرآن على سائر الكلام كفضل الله على خلقه) .

٣ - وعن أبي الدرداء يرفع إلى النبي ﷺ : « القرآن أفضل من كل شيء دون الله ، فمن قرأ القرآن فقد قرأ الله ، ومن لم يقرأ القرآن ، فقد استخف بحرمة الله ، حرمة القرآن على الله كحرمة الوالد على ولده)

(١) سورة التغابن الآية رقم : ٨

(٢) سورة المائدة الآية رقم : ١٥

(٣) سورة الحجر الآية رقم : ٨٧

١ - الحديث رواه الدارمي في فضائل القرآن عن ابن مسعود باب / ١

وأورده المنذرى الترغيب والترهيب ٢ / ١٥٤ وقال : رواه الحاكم من رواية صالح بن عمر عن ابراهيم الهجرى عن ابي الاحوص عنه وقال : تفرد به صالح بن عمر عنه وهو صحيح أ هـ وذكره المحدث عبدالله الصديق القمارى في فضائل القرآن ١ / ٩ بلفظ مقارب وقال : رواه أبو عبيد في فضائل القرآن ومحمد بن نصر المروزى في قيام الليل والحاكم وابن حبان وفي سنده ابراهيم بن مسلم الهجرى ، قال ابو حاتم : لين ليس بالقوى أ هـ

وأورده الهيثمى في مجمع الزوائد ٧ / ١٦٤ بلفظ مقارب وقال : رواه الطبرانى وفيه مسلم بن ابراهيم الهجرى وهو متروك أ هـ

٢ - الحديث رواه الترمذى في ثواب القرآن ٢٥ / ، والدارمي في فضائل القرآن / ٦

٣ - حديث طويل في جمع الجوامع ١ / ٤٣٦ جمع بينهما - وزاد كلاما في وسطه وعزاه لابي نصر السجزي في الابانة عن عائشة رضى الله عنها وقال هذا من أحسن الحديث وأعذبه وليس في اسناده الا مقبول ثقة - والحكيم عن محمد بن علي مرسلا - والحاكم في =

١ - وعن أبي أمامة أن النبي ﷺ قال : (من قرأ ثلث القرآن ، أوتي ثلث النبوة ، ومن قرأ نصف القرآن ، أوتي نصف النبوة ، ومن قرأ ثلثي القرآن ، أوتي ثلثي النبوة ، ومن قرأ القرآن كله ، أوتي النبوة كلها ، ثم يقال له يوم القيامة : اقرأ وارق بكل آية درجة حتى ينجز ما (معه من) القرآن ثم يقال : اقبض فيقبض ، فيقال : هل تدري ما في يديك فإذا في اليمنى الخلد وفي الأخرى النعيم) .

٢ - وعن عائشة رضي الله عنها - عن النبي ﷺ أنه قال : (حملة القرآن محفوفون برحمة الله ، الملبسون نور الله ، المعلمون كلام الله ، فمن عاداهم فقد عادى الله ، ومن والاهم . فقد والى الله يقول الله عز وجل : يا حملة كتاب الله تحببوا إلى الله بتوقيع كتابه يزدكم حبا ، ويحببكم إلى خلقه) يدفع عن مستمع القرآن شر الدنيا ويدفع عن تالي القرآن بلوى الآخرة ، والمستمع آية من كتاب الله ، خير من ثبير ذهباً ولتال آية من كتاب الله ، خير مما تحت العرش إلى تخوم الأرض السفلى) .

٣ - وعن أبي بريدة قال : كنت عند النبي ﷺ فسمعتة يقول : (القرآن يلقي صاحبه يوم القيامة حين ينشق عنه قبره كالرجل الشاحب فيقول له هل تعرفني ؟ فيقول ما اعرفك . فيقول انا صاحبك القرآن الذي اظمأتك في الهواجر . واسهرت ليلتك وان كل تاجر من وراء تجارته وإنك اليوم من وراء كل تجارة) .

قال : فيعطى الملك بيمينه والخلد بشماله ويوضع على رأسه تاج الوقار ، ويكسى والداه حلتين لا يقوم لهما أهل الدنيا فيقولان : بم كسينا هذا ؟ فيقال لهما : بأخذ ولدكما القرآن ثم يقال له : اقرأ واصعد في درج الجنة وغرفها . فهو في صعود مادام يقرأ هذا كان أو ترتيلاً) .

عن معاذ قال : (كنت في سفر مع رسول الله ﷺ فقلت يا رسول الله حدثنا بحديث ينتفع به ، فقال : (إن أردتم عيش السعداء أو موت الشهداء ، والنجاة يوم الحشر ، والظل يوم الحرور ، وألهدي

تاريخه عن محمد بن الحنفية عن علي بن أبي طالب موصولا .
والحديث أورده ابن الجوزي في الموضوعات (من رواية ابن عساكر عن انس بلفظ مقارب وقال : وفيه على بن الحسن الشامي ووافقه السيوطي ثم ابن عراق الكنائى على ذلك (راجع تنزيه الشريعة (١ / ٢٩٤) .

في تنزيه الشريعة ١ / ٢٩٢ : من قرأ ثلث القرآن أعطى ثلث النبوة ومن قرأ ثلثيه أعطى ثلثي النبوة ومن قرأ القرآن فكأنما أعطى النبوة كلها . الحديث . أورده ابن الجوزي في الموضوعات من حديث أبي أمامة وقال : لا يصح ، فيه بشير بن نمير . (وتعقب) بأن بشيرا من رجال ابن ماجه (قلت) قال الحافظ في التقریب : متروك متهم والله أعلم ، والحديث أخرجه البيهقي في الشعب ، وقد ورد مثله من حديث ابن عمر . الخ ماقال (راجع تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأخبار الشنيعة الموضوع ١ / ٢٩٢ - ٢٩٣)

٥ / ٣٤٨ ، ٣٥٢ .
- الحديث رواه ابن ماجه في الأدب / ٥٢ ، والدارمي (سنن الدارمي ٢ / ٣٢٤) في فضائل القرآن / ١٥ ، وأحمد في مسنده

ورواه أيضا البيهقي وابن أبي شيبة بإسناد صحيح ، وقال الهيثمي بعد عزوه لأحمد : ورجاله رجال الصحيح أهـ وقال ابن كثير بعد عزوه له : وهذا إسناد حسن على شرط مسلم - وفي رواية : كالرجل الشاب (راجع تفسير ابن كثير ١ / ٣٣ ط الحلبي ، المطالب العالية ٣ / ٨٤ ، بصائر ذوى التمييز ١ / ٦٠ - ٦١ ، اللآلئ المصنوعة ١ / ١٢٦ ، الترغيب والترهيب ٢ / ٣٥٠ - ٣٥١ ، المنهل العذب المورد ٨ / ١٢٤) (شرح) وفيه : الحاكم عن بريدة .
هـ : الهز : الاسراع بالقراءة - والترتيل : القراءة بتؤدة .

يوم الضلالة ، فادرسوا القرآن ، فإنه كلام الرحمن وحرس من الشيطان ورجحان في الميزان (١) .
وعن عقبة بن عامر قال :

خرج علينا رسول الله ﷺ ذات يوم ونحن في الصفة ، فقال : (أيكم يحب أن يغدو كل يوم إلى بطحان أو العقيق ، فيأتى بناقتين كوماوين زهراوين في غير إثم ولا قطيعة رحم ؟) قلنا : كلنا يا رسول الله يحب ذلك . قال :

(لأن يغدو أحدكم كل يوم إلى المسجد ، فيتعلم آيتين من كتاب الله ، خير له من ناقتين ، وثلاث خير له من ثلاث ، ومن أعدادهن من الابل) (٢) .

وعن عائشة قالت :

(قال رسول الله ﷺ : الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة ، والذي يتتبع فيه له أجران) (٣)
وروى عن أبي ذر أنه جاء إلى النبي - ﷺ - فقال : يا رسول الله إني أخاف أن أتعلم القرآن ولا أعمل به ، فقال - ﷺ - (لا يعذب الله قلبا أسكنه القرآن) (٤) .

وعن أنس عن النبي - ﷺ - أنه قال : (من علم آية من كتاب الله كان له أجرها ماتليت) (٥) .
وعن ابن مسعود أن النبي - ﷺ - قال : « من أراد علم الأولين والآخرين فليتدبر القرآن مؤثرا ؟ فإن فيه علم الأولين والآخرين ، ألم تسمعوا قوله : ﴿ ما فرطنا في الكتاب من شيء ﴾ » (٦) .
- وعن واثلة بن الاسقع أن النبي - ﷺ - قال : أعطيت السبع الطوال مكان التوراة ، وأعطيت المائدة مكان الانجيل وأعطيت المثاني مكان الزبور وفضلت بالمفصل (٧) .
وعن عثمان بن عفان أنه قال : (خيركم من تعلم القرآن وعلمه) (٨) .

(١) الحديث رواه الديلمي عن غضيف بن الحارث

(راجع : بصائر ذوى التمييز ٦١ / ١ نقلا عن كنز العمال ١٣٦ / ١)

(٢) الحديث رواه مسلم في كتاب صلاة المسافرين حديث رقم ٢٥١ ، وأبو داود في كتاب الصلاة - أبواب الوتر ١٤ ، وأحمد في مسنده ١٥٤ / ٤

(٣) الحديث رواه البخارى في تفسير سورة عبس بمسلم في كتاب صلاة المسافرين حديث رقم ٢٤٤ ، وأبو داود في كتاب الوتر / ١٤

والترمذى في أبواب ثواب القرآن / ١٣ ، وابن ماجه في أبواب الأدب / ٥٢ ، والدارمى في كتاب فضائل القرآن / ١ وأحمد في مسنده ٤٨ / ٦ ، ٩٤ ، ٩٨ ، ١١٠ ، ١٧٠ ، ١٩٢ ، ٢٣٩ ، ٢٦٦ .

(٤) الحديث رواه الدارمى في كتاب فضائل القرآن ١

(٥) الحديث ورد بلفظه في بصائر ذوى التمييز ٦٢ / ١ ولكنه في جمع الجوامع ٨٠٢ / ١ بلفظ : من علم آية في كتاب الله كان له ثوابها ماتليت - وقال (رواه ابن لال عن أبان عن أنس)

(٦) الحديث ورد بلفظه في كتاب بصائر ذوى التمييز ٦٢ / ١ ولكنه في كنز العمال ٥٤٨ / ١ رقم ٢٥٤ ورد بلفظ : من أراد علم الأولين والآخرين فليثور القرآن (رواه الديلمي عن أنس) أى فلينقر عنه وليفكر في معانيه

(٧) الحديث رواه النسائى في كتاب الافتتاح ٢٦ ، والدارمى في كتاب فضائل القرآن / ١٧

(٨) الحديث رواه البخارى في كتاب فضائل القرآن ٢١ ، وأبو داود في كتاب الصلاة - أبواب الوتر (عون المعبود ٣٢٥ / ٤ باب في ثواب قراءة القرآن) والترمذى في أبواب ثواب القرآن / ١٥ ، وابن ماجه في المقدمة ١٦ ، والدارمى في كتاب فضائل

وعن أبي موسى الأشعري عن النبي - ﷺ - قال : مثل الذى يقرأ القرآن ويعمل به مثل الأترجة : طعمها طيب وريحها طيب ، ومثل الذى لا يقرأ القرآن ويعمل به مثل الثمرة : طعمها طيب ، ولا ريح لها ، ومثل الذى يقرأ القرآن ولا يعمل به كمثل الريحانة ، لها رائحة وطعمها مر ، ومثل الذى لا يقرأ القرآن ولا يعمل به مثل الحنظلة لا طعم لها ، ولا رائحة (البخارى ومسلم)^(١) .
(والأتربة ضرب من الفواكه) .

وسئل النبي - ﷺ - من أحسن الناس صوتاً ؟ قال من إذا سمعته يقرأ خشية تخشى الله^(٢) وكان - ﷺ - يقول لأصحابه : (اقرأوا القرآن بحزن ، فإنه نزل بحزن)^(٣) .
(كنز العمال)

- وقال ﷺ - (إن هذه القلوب لتصدأ كما يصدأ الحديد .
قيل : فما جلاؤها يا رسول الله ؟ قال : ذكر الموت وتلاوة القرآن : ألم تسمعوا قوله تعالى : ﴿ وشفاء لما فى الصدور ﴾^(٤) .

- وقال - ﷺ - : (القرآن هو الدواء)^(٥) (كنز العمال)
وقال - ﷺ - : (القرآن غنى لا فقر بعده ولا غنى دونه)^(٦) .

ورد فى الإتيان وذكر أنه أخرجه أبو يعلى والطبرانى من حديث أبي هريرة
وقال - ﷺ - : القرآن شافع مشفع أو ماحل مصدق (وماحل بكسر الحاء المهملة أى : ساع وقيل :

(١) الحديث رواه البخارى فى كتاب الأطعمة / ٣٠ ، وفى كتاب فضائل القرآن / ١٧ ، ٣٦ ، وفى كتاب التوحيد / ٥٧ ، ومسلم فى كتاب صلاة المسافرين حديث رقم ٢٤٣ ، وأبو داود فى كتاب الأدب / ١٦ ، والترمذى فى أبواب الأدب / ٧٩ ، والنسائى فى كتاب الإيمان / ٣٢ ، وابن ماجه فى المقدمة / ١٦ ، والدارمى فى كتاب فضائل القرآن / ٨ ، وأحمد فى المسند / ٤ / ٣٩٧ ، ٤٠٤ ، ٤٠٨

(٢) الحديث رواه الدارمى فى سننه ٣٣٨ / ٢ رقم ٣٤٩١ عن طاوس بلفظ : من إذا سمعته يقرأ رأيت أنه يخشى الله وفى كنز العمال ٦٠٨ / ١ رقم ٢٧٨٨ بلفظ : إن من أحسن الناس صوتاً بالقرآن الذى إذا سمعته يقرأ رأيت أنه يخشى الله (ابن ماجه عن جابر)

وفى كنز العمال ٦٠٢ / ١ - ٦٠٣ رقم ٢٧٥٠ بلفظ : (أحسن الناس قراءة الذى إذا قرأ رأيت أنه يخشى الله) رواه محمد ابن نصر فى كتاب الصلاة والبيهقى فى الشعب والخطيب عن ابن عباس رضى الله عنهما ، وأورده الهيثمى فى المجمع ١٧٠ / ٧ وعزاه للطبرانى فى الأوسط عن ابن عمر وثقه ابن حبان وقال ربما أخطأ ويقية رجال البزار رجال الصحيح وقال : وفيه حميد بن حماد بن خوار

(٣) الحديث رواه ابن ماجه فى سننه فى أبواب الإمامة رقم ١٧٦ ورواه ابن عساكر وأبو نعيم فى الحلية والطبرانى فى الأوسط عن بريدة بلفظ : اقرأوا القرآن بالحزن فإنه نزل بالحزن (كنز العمال ٦٠٦ / ١ رقم ٢٧٧٧

(٤) الحديث فى كنز العمال ٥٤٩ / ١٥ - ٥٥٠ رقم ٤٢١٣٠ بلفظ : إن هذه القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد إذا أصابه الماء ، قيل : وما جلاؤها ؟ قال : كثرة ذكر الموت وتلاوة القرآن : (رواه البيهقى فى شعب الإيمان عن ابن عمر)

(٥) رواه السجزي فى الإبانة والقضاعى عن على - رضى الله عنه (كنز العمال ٥١٧ / ١ رقم ٢٣١٠)

(٦) رواه ابن عساكر ومحمد بن نصر عن أنس رضى الله عنه (كنز العمال ٥١٦ / ١ - ٥١٧ رقم ٢٣٠٧) وأورده الهيثمى فى مجمع الزوائد ١٥٨ / ٧ وقال : رواه أبو يعلى عن أنس وفيه يزيد بن أبان الرقاشى وهو ضعيف أ هـ

خصم مجادل) رواه ابن حبان في صحيحه^(١).

قوله تعالى : ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا من المجرمين وكفى بربك هاديا ونصيرا ﴾
أى كما حصل لك يا محمد في قومك من الذين هجروا القرآن ، كذلك كان في الأمم الماضين ،
لأن الله جعل لكل نبي عدوا من المجرمين ، يدعون الناس إلى ضلالهم وكفرهم ، كما قال تعالى :
﴿ وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا
ولو شاء ربك مافعلوه فذرهم وما يفترون . ولتصفى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة وليرضوه
وليقتربوا ما هم مقتربون ﴾^(٢).

ولهذا قال تعالى ههنا : ﴿ وكفى بربك هاديا ونصيرا ﴾ أى لمن اتبع رسوله وآمن بكتابه وصدقه
واتبعه ، فإن الله هاديه وناصره في الدنيا والآخرة ، وإنما قال : ﴿ هاديا ونصيرا ﴾ لأن المشركين كانوا
يصدون الناس عن اتباع القرآن ، لئلا يهتدى أحد به ولتغلب طريقتهم طريقة القرآن ، فلهذا قال :
﴿ وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا من المجرمين ﴾ الآية ..

قوله تعالى : ﴿ وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لثبت به فؤادك
ورتلناه ترتيلا . ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا . الذين يحشرون على وجوههم إلى
جهنم أولئك شر مكانا وأضل سبيلا ﴾

يقول تعالى مخبرا عن كثرة اعتراض الكفار وتعتتهم وكلامهم فما لا يعينهم ، حيث قالوا ﴿ لولا
نزل عليه القرآن جملة واحدة ﴾ أى هلا أنزل عليه هذا الكتاب ، الذى أوحى إليه جملة واحدة ، كما
نزلت الكتب قبله جملة واحدة ، كالتوراة والإنجيل والزبور وغيرها من الكتب الإلهية ، فأجابهم الله
تعالى عن ذلك ، بأنه إنما أنزل منجما في ثلاث وعشرين سنة ، بحسب الوقائع والحوادث وما يحتاج إليه من
الأحكام ، ليثبت قلوب المؤمنين كقوله تعالى : ﴿ وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه
تنزيلا ﴾^(٣) ولهذا قال سبحانه : ﴿ لثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا ﴾ قال قتادة : بيناه تبينا .
وقال ابن زيد وفسرناه تفسيرا .

وقوله تعالى : ﴿ ولا يأتونك بمثل ﴾ أى بحجة وشبهة ﴿ إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا ﴾ أى :
ولا يقولون قولا يعارضون به الحق إلا أجبناهم بما هو الحق في نفس الأمر وأبين وأوضح وأفصح من
مقاتلتهم ، قال سعيد بن جبير عن ابن عباس : ﴿ ولا يأتونك بمثل ﴾ أى بما يلتمسون به عيب القرآن
والرسول ﴿ إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا ﴾ أى إلا نزل جبريل من الله تعالى بجوابهم ، وما هذا إلا
اعتناء وكبير شرف للرسول - ﷺ - حيث كان يأتيه الوحي من الله عز وجل - بالقرآن صباحا ومساء ، ليلا
ونهارا سفرا وحاضرا ، وكل مرة كان يأتيه الملك بالقرآن لا كإنزال الكتاب مما قبله من الكتب المتقدمة ،
فهذا المقام أعلى وأجل وأعظم مكانة من سائر إخوانه الأنبياء - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين -

(١) رواه ابن حبان والبيهقي في الشعب عن جابر رضى الله عنه ، ورواه الطبراني في الكبير والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن
مسعود رضى الله عنه (كنز العمال ٥١٦ / ١ رقم ٢٣٠٦)

(٢) سورة الأنعام آية رقم : ١١٢ ، ١١٣ .

(٣) سورة الإسراء آية رقم : ١٠٦

فالقُرآن أشرف كتاب أنزله الله ، ومحمد - ﷺ - أعظم نبي أرسله الله تعالى ، وقد جمع الله للقُرآن الصفتين معا ، ففي الملأ الأعلى ، أنزل جملة واحدة من اللوح المحفوظ ، إلى بيت العزة في السماء الدنيا ، ثم أنزل بعد ذلك إلى الأرض منجما بحسب الوقائع والحوادث .
 روى النسائي بإسناده عن ابن عباس قال : (وأنزل القرآن جملة واحدة إلى سماء الدنيا في ليلة القدر ، ثم نزل بعد ذلك في عشرين سنة)^(١)

قال الله تعالى : ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾
 وقال تعالى : ﴿ وَقَرَأْنَا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مَكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا ﴾
 ثم قال تعالى : مخبرا عن سوء حال الكفار في معادهم يوم القيامة وحشرهم إلى جهنم في أسوأ الحالات وأقبح الصفات ﴿ الَّذِينَ يَحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرُّ مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾
 وفي الصحيح عن أنس أن رجلا قال يا رسول الله : كيف يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة ؟
 فقال - ﷺ - : (إن الذي أمشاه على رجليه قادر على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة)
 وهكذا قال مجاهد والحسن وقتادة وغير واحد من المفسرين .
 قوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا . فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا . وَقَوْمُ نُوحٍ لَمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ؛ وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرِّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ، وَكَلَّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكَلَّا تَبَرْنَا تَبِيرًا ، وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أَمْطَرْنَا مَطَرَ السَّوَاءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرُونَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴾
 يقول تعالى متوعدا من كذب رسوله محمدا - ﷺ - من مشركى قومه ومن خالفه ، ومخذرهم من عقابه وأليم عذابه ، مما أحله بالأمم الماضية المكذبين لرسله ، فبدأ بذكر موسى وأنه بعثه وجعل معه أخاه هارون وزيرا ، أى نبيا مؤاذرا ومؤيدا وناصرًا فكذبها فرعون وجنوده فدمرناهم تدميرا ، قال تعالى : ﴿ وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ، وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ، وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴾^(٢) وقال سبحانه ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْتَلَبْنَا بِنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ ، فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا . قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَافِرٍ وَابِّنٍ لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَحْبُورًا ﴾^(٣)
 وقال تبارك اسمه : ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ فَقَالُوا أَنْتُمْ لِبَشَرِينَ مِثْلَنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ ، وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾^(٤) .

(١) الحديث رواه النسائي في كتاب (فضائل القرآن) ص ٥٩ رقم ١٥ / الطبعة الأولى سنة ١٤٠٠ هـ طبعة دار الثقافة بالمغرب عن ابن عباس قال : نزل القرآن جملة في ليلة القدر إلى السماء الدنيا ، فكان إذا أراد الله أن يحدث منه شيئا أحدثه .

(٢) سورة مريم آية رقم : ٥١ - ٥٣

٢ - سورة الاسراء : ١٠١ - ١٠٢

(٤) سورة المؤمنون الآيات رقم : ٤٥ - ٤٩

ثم يأتي الحديث عن قوم نوح فيقول تعالى : ﴿ وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم وجعلناهم للناس آية وأعتدنا للظالمين عذابا أليما ﴾

وذلك كقوله جل شأنه : ﴿ ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما فأخذهم الطوفان وهم ظالمون فأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها آية للعالمين ﴾^(١) فاعجب معى لقوم يظل فيهم نبيهم ألف سنة إلا خمسين عاما ، يدعوهم إلى التوحيد ليلا ونهارا ، ويبدل في سبيل ذلك كل أسلوب من أساليب الدعوة ﴿ ثم إنى دعوتهم جهارا ثم إنى أعلنت لهم وأسررت لهم أسراراً ، فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا . يرسل السماء عليكم مدرارا ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا ﴾^(٢) ثم بعد ذلك تكون النتيجة ﴿ وما آمن معه إلا قليل ﴾^(٣) فيالله للبشرية إذا ماوقفت تلك المواقف ، التى تحار فيها الألباب ، وتنشق فيها قلوب الأسود ، وتتفت لها مرائر النمرور .

قوله تعالى : ﴿ وعادا وثمودا وأصحاب الرس وقرونا بين ذلك كثيرا ﴾ قال تعالى : ﴿ فأما عاد فاستكبروا فى الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة ، أولم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون . فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا فى أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون ، وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى ، فأخذتهم (٥)اعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾^(٤) وقال تبارك اسمه :

﴿ وعادا وثمود وقد تبين لكم من مساكنهم وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل وكانوا مستبصرين ﴾^(٦) .

أما أصحاب الرس ، فهم الذين قتلوا نبيهم ، وكانوا يقطنون اليمامة وقال ابن جرير : هم أصحاب الأخدود ، الذين ورد ذكرهم فى سورة البروج فى قوله تعالى : ﴿ قتل أصحاب الأخدود النار ذات الوقود إذ هم عليها قعود وهم على مايفعلون بالمؤمنين شهود . ومانقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد الذى له ملك السموات والأرض والله على كل شئ شهيد . إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق ﴾ قوله تعالى : ﴿ وقرونا بين ذلك كثيرا ﴾ أى :أما كثيرة أهلكتناهم لما كذبوا رسلنا . قال تعالى : ألم يروا كم أهلكتنا من قبلهم من قرن مكناهم فى الأرض ما لم نمكن لكم وأرسلنا السماء عليهم مدرارا وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين ﴾^(٦)

(١) سورة العنكبوت الآيات رقم : ١٤ - ١٥

(٢) سورة نوح الآيات رقم : ٨ - ١٢

(٣) سورة هود . آية رقم : ٤٠

(٤) سورة فصلت الآيات رقم : ١٥ - ١٨

(٥) سورة العنكبوت . آية ، رقم : ٣٨

(٦) سورة الأنعام آية رقم : ٦

وقال سبحانه : ﴿ ثم أرسلنا رسلنا تترا كل ما جاء أمة رسولها كذبوه فأتبعنا بعضهم بعضا وجعلناهم أحاديث فبعدا لقوم لا يؤمنون ﴾^(١) وقال عز من قائل : ﴿ ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون ، فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قربانا آلهة بل ضلوا عنهم وذلك إفكهم وماكانوا يفترون ﴾^(٢)

قوله تعالى : ﴿ وكلا ضربنا له الأمثال وكلا تبرنا تتبيرا ﴾ أى وكل هؤلاء أوضحنا لهم حججنا ، وبيننا لهم أدلتنا ، وأزحنا عنهم الأعذار فتمادوا فى كفرهم وطغيانهم ، فأهلكناهم أفضع الإهلاك وأشدّه ونحو ذلك قوله تعالى فى شأن الظالمين : ﴿ ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار مهطعين مقنعى رءوسهم لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء . وأنذر الناس يوم يأتهم العذاب فيقول الذين ظلموا ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل أو لم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال . وسكتتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال وقد مكروا مكروهم وعند الله مكروهم وإن كان مكروهم لتزول منه الجبال . فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله إن الله عزيز ذو انتقام . يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات وبرزوا لله الواحد القهار وترى المجرمين يومئذ مقرنين فى الأصفاد . سرايلهم من قطران وتغشى وجوههم النار ليجزى الله كل نفس ماكسبت إن الله سريع الحساب هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا أنما هو إله واحد وليذكر أولوا الألباب ﴾^(٣) .

قوله تعالى : ﴿ ولقد أتوا على القرية التى أمطرت مطر السوء أفلم يكونوا يرونها بل كانوا لا يرجون نشورا ﴾ .

أى: وتالله لقد مر هؤلاء المكذبون فى رحلة الصيف على سدوم ، أعظم قرى قوم لوط ، وقد أهلكها الله بأن أمطر عليها حجارة من سجيل ، لأن قومها كانوا يعملون الخبائث ، وحذرهم لوط ، فما أغنت عنهم الآيات والنذر .

ثم وبخهم على تركهم التذكر حين مشاهدة ما يوجبهم فقال : ﴿ أفلم يكونوا يرونها ؟ ﴾ أى: أفلم يروا منازل بتلك القرية من عذاب الله بتكذيب أهلها رسول ربهم ، فيعتبروا ويتذكروا ويراجعوا التوبة من كفرهم وتكذيبهم لرسوله . ثم أبان أن عدم التذكر لم يكن سببه عدم الرؤية ، بل منشؤه إنكار البعث والنشور فقال : ﴿ بل كانوا لا يرجون نشورا ﴾ أى: إنهم ما كذبوا محمدا ﷺ فيما جاءهم به من عند الله ، لأنهم لم يكونوا رأوا ما حل بالقرية التى وصفت ، بل كذبوه من قبل ، إنهم قوم لا يخافون نشورا بعد الممات ، ولا يوقنون بعقاب ولا ثواب فيردعهم ذلك عما يأتون من معاصي الله .

(١) سورة المؤمنون آية رقم : ٤٤

(٢) سورة الأحقاف الآيتان : ٢٧ - ٢٨

(٣) سورة إبراهيم الآيات رقم : ٤٢ - ٥٢

ونحو ذلك قوله تعالى : ﴿ فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود . مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببيعد ﴾^(١) وقوله تعالى : ﴿ وإن لوطا لمن المرسلين إذ نجيناه وأهله أجمعين إلا عجوزا في الغابرين ، ثم دمرنا الآخرين . وإنكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون ﴾^(٢) .

وقوله تعالى ﴿ فأخذتهم الصيحة مشرقين فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل . إن في ذلك لآيات للمتوسمين وإنها لبسبيل مقيم إن في ذلك لآية للمؤمنين ﴾^(٣) . قوله تعالى : ﴿ وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزوا أهذا الذي بعث الله رسولا . إن كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلا ﴾ .

- أي: وإذا رآك هؤلاء المشركون اتخذوك موضع هزؤ وسخرية ، وقالوا احتقارا لشأنك هذه المقالة .

ثم ذكر مازاد في قبحه في زعمهم فقال : ﴿ إن كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها ﴾ أي ويقولون إنه قد كاد يصدنا عن عبادة آلهتنا لولا صبرنا على عبادتها وثباتنا على ديننا ، ونحو ذلك قوله تعالى : ﴿ وانطلق الملائمة منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشيء يراد ، ماسمعنا بهذا في الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق أنزل عليه الذكر من بيننا بل هم في شك من ذكرى بل لما يذوقوا عذاب ﴾^(٤) . ونحوه قوله تعالى : ﴿ وإذا رآك الذين كفروا إن يتخذونك إلا هزوا أهذا الذي يذكر آلهتكم وهم بذكر الرحمن هم كافرون خلق الإنسان من عجل سأريكم آياتي فلا تستعجلون ﴾^(٥) .

قوله تعالى : ﴿ وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلا ﴾ أي: إنهم حين يشاهدون العذاب ، الذي استوجبوه بكفرهم سيعلمون من الضال ومن المضل ؟ وفي هذا رد لقولهم : إن كاد ليضلنا عن آلهتنا ، كما أن فيه وعيدا شديدا على التعامى والإعراض عن الاستدلال والنظر ، فاعجب معي لأهل الباطل ، يصبرون على آلهتهم وضلالتهم وباطلهم ، وأهل الحق يستعجلون ، نعم يامولانا يامن قلت وقولك الحق :

﴿ لتبلون في أموالكم وأنفسكم ، ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور ﴾^(٦) وقلت : ﴿ ولئن صبرتم لهو خير للصابرين واصبر وما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولاتك في ضيق مما يمكرون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ﴾^(٧) .

قوله تعالى : ﴿ أرأيت من اتخذ الهه هواه أفانت تكون عليه وكيلا ﴾ .

(١) سورة هود آية رقم : ٨٢ ، ٨٣

(٢) سورة الصافات آية رقم : ١٣٣ - ١٣٨

(٣) سورة الحجر آية رقم : ٧٣ - ٧٧

(٤) سورة ص آية رقم : ٦ - ٨

(٥) سورة الأنبياء آية رقم : ٣٦ - ٣٧

(٦) سورة آل عمران آية رقم : ١٨٦

(٧) سورة النحل آية رقم : ١٢٦ - ١٢٨

أى انظر فى حال هذا الذى جعل هواه إلهه ، بأن أطاعه وبنى عليه أمر دينه ، وأعرض عن استماع الحجة الباهرة ، والبرهان الجلى الواضح ، وأعجب ولاتأبه به ، فإنك لن تكون حفيظا على مثل هذا ، تزجره عما هو عليه من الضلال ، وترشده إلى الصراط السوى ، وخلاصة ذلك ، كأنه سبحانه يقول لرسوله : إن هذا الذى لا يرى معبودا له إلا هواه ، لا تستطيع أن تدعوه إلى الهدى ، وتمنعه من متابعة الهوى ، إن عليك إلا البلاغ .

ونحو ذلك قوله تعالى : ﴿ أفأرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون ﴾^(١) وقوله تبارك اسمه : ﴿ واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون ساء مثلا القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون ﴾^(٢) .

وقال جل شأنه : ﴿ يادأود إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب ﴾^(٣) . الهوى هو نوازع النفس إلى مسالك الشر ، والكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواه ، وتمنى على الله الأمانى ، ومن عرف الهوى فقد هوى ، وقد صح فى الحديث عن رسول الله - ﷺ - أنه قال : (لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به) .

قال الحافظ ابو الفرج عبد الرحمن بن الجوزى فى كتابه ذم الهوى وتحت عنوان (فى ذم الهوى والشهوات)

اعلم أن الهوى ميل الطبع إلى ما يلائمه ، وهذا الميل قد خلق فى الإنسان لضرورة بقائه ، فإنه لولا ميله إلى المطعم مأكلا ، وإلى المشرب مشربا ، وإلى المنكح مانكح ، وكذلك كل ما يشتهي ، فالهوى مستجلب له ما يفيد ، كما أن الغضب دافع عنه ما يؤذى ، فلا يصلح ذم الهوى على الإطلاق ، وإنما يذم المفرط من ذلك ، وهو ما يزيد على جلب المصالح ودفع المضار . ولما كان الغالب من مواقف الهوى أنه لا يقف منه على حد المنتفع ، أطلق ذم الهوى والشهوات ، لعموم غلبة الضرر ، لأنه يبعد أن يفهم المقصود من وضع الهوى فى النفس ، وإذا فهم تعذر وجود العمل به ونذر مثاله : ان شهوة المطعم إنما خلقت لاجتلاب الغذاء ، فيندر من يتناول بمقتضى مصلحته ولا يتعدى ، فإن وجد ذلك انغمر ذكر الهوى فى حق هذا الشخص ، وصار مستعجلا للمصالح ، وأما الأغلب من الناس فإنهم يوافقون الهوى . فإن حصلت مصلحة حصلت ضمنا وتبعنا ، فلما كان هذا هو الغالب ذكرت فى هذا الباب ذم الهوى والشهوات مطلقا ، ووسمت كتابي بـ « ذم الهوى » لذلك المعنى .

(١) سورة الجاثية آية رقم : ٢٣

(٢) سورة الأعراف آية رقم : ١٧٥ - ١٧٧

(٣) سورة ص آية رقم : ٢٦

وقد روى عن ابن عباس أنه قال : ماذكر الله عز وجل الهوى في موضع من كتابه إلا ذمه . وقال الشعبي : إنما سمي هوى ؛ لأنه يهوى بصاحبه .

فصل :

اعلم أن مطلق الهوى يدعو إلى اللذة الحاضرة من غير فكر في عاقبة ، ويحث على نيل الشهوات عاجلا ، وإن كانت سببا للألم والأذى ومنع لذات في الآجل .
فأما العاقل فإنه ينهى نفسه عن لذة تعقب ألما ، وشهوة تورث ندما ، وكفى بهذا القدر مدحا للعقل وذما للهوى .

ألا ترى أن الطفل يؤثر ما يهوى ، وإن أذاه إلى التلف ! فيفضل العاقل عليه بمنع نفسه من ذلك ، وقد يقع التساوى بينهما في الميل والهوى ، وبهذا القدر فضل الأدمى على البهائم - أعنى ملكة الارادة - لأن البهائم واقفة مع طباعها ، لانظر لها إلى عاقبة ، ولا فكر في مآل ، فهي تتناول ما يدعوها إليه الطبع من الغذاء إذا حضر ، وتفعل ما تحتاج إليه من الروث والبول أى وقت اتفق ، والأدمى يمتنع عن ذلك بقهر عقله لطبعه .

وإذا عرف العاقل أن الهوى يصير غالبا ، وجب عليه أن يرفع كل حادثة إلى حاكم العقل ، فإنه سيشير عليه بالنظر في المصالح الآجلة ، ويأمره عند وقوع الشبهة باستعمال الأحوط في كف الهوى ، إلى أن يتيقن السلامة من الشر في العاقبة .

وينبغي للعاقل أن يتمرن على دفع الهوى المأمون العواقب ليستمر بذلك على ترك ما تؤذى غايته . وليعلم العاقل أن مدمنى الشهوات يصيرون إلى حالة لا يلتذونها ، وهم مع ذلك لا يستطيعون تركها ، لأنها قد صارت عندهم كالعيش الاضطرابى ، ولهذا ترى مدمنى الخمر والجماع لا يلتذ بذلك عشر التذاذ من لم يدمن ، غير أن العادة تقضيه ذلك فيلقى في المهالك لنيل ما يقتضيه تعوده . ولوزال رين الهوى عن بصر بصيرته ، لرأى أنه قد شقى من حيث قدر السعادة ، واغتم من حيث ظن الفرح ، وألم من حيث أراد اللذة . فهو كالحيوان المخدوع بحب الفخ ، لاهونال ماخدع به ، ولا أطاق التخلص مما وقع فيه .

فإن قال قائل : فكيف يتخلص من هذا وقد نشب فيه ؟ قيل له :
بالعزم القوى في هجران ما يؤذى ، والتدرج في ترك ما لا يؤمن أذاه ، وهذا يفتقر إلى صبر ومجاهدة يهونها سبعة أشياء .

أحدها : التفكير في أن الإنسان لم يخلق للهوى ، وإنما هيء للنظر في العواقب والعمل للآجل ، ويدل على هذا أن البهيمة تصيب من لذة الطعام والمشرب والمنكح ما لا يناله الإنسان ، مع عيش هنى خال عن فكر وهم . ولهذا تساق إلى منحراها ، وهى منهكة على شهواتها لفقدان العلم بالعواقب .
والأدمى لا ينال ماتناله لقوة الفكر الشاغل ، والههم الواغل ، وضعف الآلة المستعملة ، فلو كان نيل المشتهى فضيلة لما نجس حظ الأدمى الشريف منه ، وزيد حظ البهائم ، وفى توفير حظ الأدمى من العقل ونجس حظه من الهوى ، مايكفى في فضل هذا وذم ذلك .

والثاني : أن يفكر في عواقب الهوى . فكم قد أفات من فضيلة ، وكم قد أوقع في رذيلة ، وكم من مطعم قد أوقع في مرض ، وكم من زلة أوجبت انكسار جاه وقبح ذكر مع إثم .
غير أن صاحب الهوى لا يرى إلا الهوى ! فأقرب الأشياء شبهها به من في المدبغة ، فإنه لا يجد ريحها حتى يخرج فيعلم أين كان .

والثالث : أن يتصور العاقل انقضاء غرضه من هواه ، ثم يتصور الأذى الحاصل عقيب اللذة ، فإنه يراه يربى على الهوى أضعافا . وقد أنشد بعض الحكماء .
وأفضل الناس من لم يرتكب سببا حتى يميز ماتجنى عواقبه

والرابع : أن يتصور ذلك في حق غيره ، ثم يتلمح عاقبته بفكرة . فإنه سيرى ما يعلم به عيبه إذا وقف في ذلك المقام .
والخامس : أن يتفكر فيما يطلبه من اللذات ، فإنه سيخبره العقل أنه ليس بشيء وإنما عين الهوى عمياء .

وفي الحديث عن ابن سعود رضي الله عنه (إذا أعجبت أحدكم امرأة فليذكر مناتها)
والسادس : أن يتدبر عز الغلبة وذل القهر ، فإنه مامن أحد غلبه هواه إلا أحس بقوة عز ، ومامن أحد غلب هواه إلا وجد في نفسه ذل القهر .

والسابع : أن يتفكر في فائدة المخالفة للهوى ، من اكتساب الذكر الجميل في الدنيا وسلامة النفس والعرض ، والأجر في الآخرة . ثم يعكس ، فيتفكر لو وافق الهوى ، في حصول عكس ذلك على الأبد ، ليفرض لهاتين الحالتين حالتى آدم ويوسف عليهما السلام . في لقمة هذا وصبر هذا .
وياأيها الأخ النصوح أحضر لى قلبك عند هذه الكلمات ، وقل لى . بالله عليك ، أين لذة آدم التى قضاه ، من همة يوسف التى مأمضاها ؟

من كان يكون يوسف لو نال تلك اللذة : فلما تركها وصبر عنها بمجاهدة ساعة صار من قد عرفت .

فصل :

وأعلم أن الهوى يسرى بصاحبه في فنون ، ويخرجه من دار العقل إلى دار الجنون .
وقد يكون الهوى في العلم فيخرج بصاحبه ضد مأمربه العلم .
وقد يكون في الزهد فيخرج إلى الرياء .

وكتابتنا هذا لذم الهوى في شهوات الحس ، وإن كان يشتمل على ذم الهوى مطلقا .
وإذ قد ذكرنا في هذا الفصل من ذم الهوى مأملاه العقل فلنذكر من ذلك ما يحويه النقل .
فصل :

قد مدح الله عز وجل مخالفة الهوى فقال سبحانه ﴿ ونهى النفس عن الهوى ﴾ ^(١) قال المفسرون :

هو نهى النفس عما حرم الله عليها .

قال مقاتل : هو الرجل يهيم بالمعصية فيذكر مقامه للحساب فيتركها .

وقال عز وجل : ﴿ واتبع هواه فمثلته كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ﴾ (١)

وقال : ﴿ واتبع هواه وكان أمره فرطاً ﴾ (٢) وقال : ﴿ أرايت من اتخذ إلهه هواه ﴾ (٣) وقال : ﴿ بل

اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم فمن يهدي من أضل الله ﴾ (٤) وقال : ﴿ واتبعوا أهواءهم ﴾ (٥)

وقال : ﴿ فاعلم أنما يتبعون أهواءهم ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ﴾ (٦) وقال :

﴿ ليضلون بأهوائهم بغير علم ﴾ (٧) وقال : ﴿ أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه ﴾ (٨) وقال : ﴿ ولئن

اتبعت أهواءهم ﴾ (٩) وقال : ﴿ فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا ﴾ (١٠) وقال : ﴿ ولا تتبع الهوى فيضلك

عن سبيل الله ﴾ (١١) .

قال الحسن في هذه الآية : ﴿ أفرأيت من اتخذ إلهه هواه ﴾ قال : هو المنافق لايهوى شيئاً إلا

ركبه .

وقال الغريابي بسنده عن الحسن ، قال : المنافق يعبد هواه ، لايهوى شيئاً إلا ركه . وقال أيضاً

بسنده عن قتادة ﴿ أفرأيت من اتخذ إلهه هواه ﴾ قال : إذا هوى شيئاً ركه .

وعن أنس ، أن النبي ﷺ قال (حفت الجنة بالمكاره ، وحفت النار بالشهوات) أخرجه

مسلم (١٢) .

وفي لفظ البخارى (حجبت) مكان (حفت) (١٣)

وعن أبي هريرة ، عن رسول الله ﷺ قال : لما خلق الله عز وجل الجنة والنار ، أرسل جبريل ،

يعنى إلى الجنة ، فقال : انظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها ، فجاء فنظر إليها وإلى ما أعد الله عز

وجل لأهلها فيها ، فرجع إليه فقال : وعزتك لا يسمع بها أحد إلا دخلها . فأمر بها فحجبت بالمكاره ،

وقال ارجع إليها وانظر إليها ، فرجع فإذا هي قد حجبت بالمكاره فقال : لقد خشيت الا يدخلها أحد

(١) سورة الاعراف آية رقم : ١٧٦

(٢) سورة الكهف آية رقم : ٢٨

(٣) الفرقان آية رقم : ٤٣

(٤) سورة الروم آية رقم : ٢٩

(٥) سورة محمد آية رقم : ١٦

(٦) سورة القصص آية رقم : ٥٠

(٧) سورة الانعام آية رقم : ١١٩

(٨) سورة الكهف آية رقم : ٢٨

(٩) سورة البقرة آية رقم : ١٢٠ ، ١٤٥

(١٠) سورة النساء آية رقم : ١٣٥

(١١) سورة ص آية رقم : ٢٦

(١٢) الحديث رواه مسلم في كتاب الجنة حديث رقم ١ ، وأبو داود في كتاب السنة رقم ٢٢ والنسائي في كتاب الأيمان رقم ٣

والدارمي في كتاب الرقاق رقم ١١٧ ، وأحمد ٢ / ٢٦٠ ..

(١٣) البخارى في كتاب الرقاق رقم ٢٨ ، وأحمد ٢ / ٣٣٣ ، ٣٧٣

قال : فانظر إلى النار وإلى ما أعددت لأهلها فيها ، فجاءها فنظر إليها وإلى ما أعد لأهلها فيها ، فإذا هي يركب بعضها بعضا ، فرجع إليه ، فقال : وعزتك لا يسمع بها أحد فيدخلها . فأمر بها فحفت بالشهوات ، وقال له ارجع إليها فانظر إليها فإذا هي قد حفت بالشهوات ، فرجع إليه فقال : وعزتك لقد خشيت ألا ينجو منها أحد إلا دخلها)

(قال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح)^(١) .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص ، عن النبي ﷺ أنه قال : (لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به) (أخرجه الطبرانى وأبو نعيم فى أربعينه ، وهو حسن صحيح)^(٢) .

ورد عن أبي بردة الأسلمى ، قال : قال رسول الله ﷺ :

(أخوف ما أخاف عليكم شهوات الغنى فى بطونكم وفروجكم ومضلات الفتن) (أخرجه أحمد والبخارى والطبرانى بلفظ إنما أخشى ..)^(٣) .

وعن كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف المزنى ، عن أبيه عن جده ، قال : قال رسول الله ﷺ (إن أخوف ما أخاف على أمتى حكم جائر وزلة عالم وهوى متبع) (أخرجه البخارى والطبرانى بلفظ إنى أخاف)

- وعن أبي أمامة الباهلى ، قال : قال رسول الله ﷺ :

(ماتحت ظل السماء إله يعبد أعظم عند الله من هوى متبع) (أخرجه الطبرانى فى الكبير)^(٤) .

وعن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ :

(ثلاث مهلكات : شح مطاع ، وهوى متبع ، وأعجاب المرء بنفسه) (أخرجه البخارى والبيهقى واسناده ضعيف)^(٥)

وعن بلال بن أبي الدرداء ، عن أبيه ، عن النبي ﷺ قال : (حبك الشيء يعمى ويصم) أخرجه أبو داود وأحمد وهو حسن^(٦) .

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ (ثلاث منجيات وثلاث مهلكات ، فأما المنجيات ، فتقوى الله فى السر والعلانية ، والقول بالحق فى الرضا والسخط ، والقصد فى الفقر والغنى . وأما المهلكات : فهوى متبع ، وشح مطاع ، وأعجاب المرء بنفسه وهى شرهن) (أخرجه البخارى والبيهقى)

(١) الحديث رواه الترمذى فى أبواب الجنة رقم ٢١

(٢) الحديث رواه الحكيم الترمذى وأبو نصر السجزي فى الإبانة وقال : حسن غريبه والخطيب عن ابن عمرو . (راجع جمع الجوامع ٩١٨ / ١)

(٣) الحديث رواه أحمد فى مسنده ٤ / ٤٢٠ ، ٤٢٣

(٤) الحديث رواه الطبرانى فى الكبير وأبو نعيم فى الحلية عن أبي أمامة (مجمع الجوامع ١ / ٦٩٩)

(٥) الحديث رواه البخارى وأبو نعيم والبيهقى والطبرانى فى الأوسط وأبو الشيخ فى التوبيخ كلهم عن أنس رضى الله عنه - قال الحافظ العراقى : سنده ضعيف

(فى فضل القدير ٣ / ٣٠٦ - ٣٠٧ رقم ٣٤٧١ والحديث أوله : ثلاث منجيات ..)

(٦) الحديث رواه أحمد فى مسنده ٥ / ١٩٤ ، ٤٥٠ / ٦ ، وأبو داود فى كتاب الأدب (عون المعبود ١٤ / ٣٩ باب فى الهوى)

وروى عن الخليل بن خدويه ، قال : مر إبراهيم الخليل عليه السلام فرأى عبدا في الهواء متعبدا ، فقال له ، بم نلت هذه المنزلة من الله ؟ قال : بأمر يسير ، فطمت نفسي عن الدنيا ، ولم أتكلم فيما لا يعنيني ، ونظرت فيما أمرت به فعملت به ، ونظرت فيما نهاني عنه فانتهيت عنه ، فأنا إن سألته أعطاني ، وإن دعوته أجابني وإن أقسمت عليه أبر قسمي ، سألته أن يسكنني الهواء فأسكنني .

وروى عن وهب بن منبه يقول : كان في بني اسرائيل رجلان بلغت بهما عبادتهما أن مشيا على الماء ، فبينما هما يمشيان في البحر ، إذا هما برجل يمشي في الهواء ، فقالا له : يا عبد الله بأي شيء أدركت هذه المنزلة ؟ قال : بيسير من الدنيا ، فطمت نفسي عن الشهوات ، وكففت لساني عما لا يعنيني ، ورغبت فيما دعاني إليه ، ولزمت الصمت ، فإن أقسمت على الله أبر قسمي ، وإن سألته أعطاني .

وروى عن منصور بن عمار ، قال : قال سليمان بن داود : الغالب لهواه أشد من الذي يفتح المدينة وحده .

وروى عن حذيفة بن قتادة المرعني ، قال : كنت في المركب فكسر بنا ، فوقعت أنا وامرأة على لوح من ألواح المركب ، فمكثنا سبعة أيام ، فقالت المرأة : أنا عطشى ، فسألت الله تعالى أن يسقيها ، فنزلت علينا من السماء سلسلة فيها كوز معلق فيه ماء ، فشربت . فرفعت رأسي أنظر السلسلة ، فرأيت رجلا جالسا في الهواء متربعا ، فقلت : من أنت ؟ قال : من الإنس قلت : فما الذي بلغك هذه المنزلة ؟ قال آثرت مراد الله على هواي فأجلسني كما تراني .

وروى عن عبد الله بن الصلت ، قال : قال معاوية : المروءة ترك اللذة وعصيان الهوى . وعن أبي الدرداء ؛ قال : إذا أصبح الرجل اجتمع هواه وعمله ، فإن كان عمله تبعا لهواه فيومه يوم سوء ، وإن كان هواه تبعا لعمله فيومه يوم صالح .

وروى عن مالك بن دينار أنه قال : من غلب شهوات الدنيا فذلك الذي يفرق الشيطان من ظله .

وقال أيضا : بش العبد عبد همه هواه وبطنه .

وروى عن صفوان بن سليم قال : ليأتين على الناس زمان تكون همه أحدهم فيه بطنه ، ودينه هواه .

وروى عن الأصمعي ، قال سمعت أعرابيا يقول : إذا أشكل عليك أمران لاتدرى أيهما أرشد ، فخالف أقربهما من هواك فإن أكثر ما يكون الخطأ مع متابعة الهوى .

وروى عن ابن السحال : إن شئت أخبرتك بدائك ، وإن شئت أخبرتك بدوائك . داؤك هواك ، ودواؤك ترك هواك .

وروى أنه قال رجل لأبي الحسن المدائني : يا أبا سعد أي الجهاد أفضل ؟ قال جهادك هواك . وعن الأصمعي قال : مررت بأعرابي به رمد شديد ودموعه تسيل ، فقلت : ألا تمسح عينيك ؟ فقال : زجرني الطبيب ، ولاخير فيمن إذا زجر لاينزجر ، وإذا أمر لا يأتمر ، فقلت أما تشتهي شيئا ؟

فقال : أشتهى ولكن أحتمى ، لأن أهل النار غلبت شهواتهم فلم يحتموا فهلكوا .
وروى عن وهب بن نعيم يقول : قال بشر : اعلم أن البلاء كله في هواك ، والشفاء كله في مخالفتك لهواك .

وروى عن الفضل بن عياض يقول : من استحوذت عليه الشهوات انقطعت عنه مواد التوفيق .
وروى عن سنيد : سمعت حجاجا يقول : الكفر في أربعة أشياء : في الغضب والشهوة والرغبة والرغبة ، ثم قال حجاج رأيت منه اثنتين ، رجلا غضب فقتل أمه ، ورأيت رجلا عشق فتنصر .
وروى عن حسين بن حسن الأسدي ، عن أبيه ، قال : كان عبد الله بن حسن بن حسن يطوف بالبيت ، فنظر إلى امرأة جميلة ، فمشى إلى جانبها ثم قال :
أهوى هوى الدين واللذات تعجبني فكيف لي بهوى اللذات والدين

فقلت له : دع أحدهما تمل الآخر .
وقد رويت لنا هذه الحكاية على غير هذا الوجه . فبلغنا عن عمر بن شبة بسنده عن أبي غسان أحمد ابن عثمان ، عن أبيه ، قال لقي عبد الله بن حسن امرأة جميلة في الطواف ، فلما نظرت إليه ، وإلى جماله مالت نحوه وطمعت فيه ، فأقبل عليها وقال :
أهوى هوى الدين واللذات تعجبني فكيف لي بهوى اللذات والدين
نفس تزين لي الدنيا وزينتها وزاجري من حذار الموت يثني

فتركته ومضت .
وروى عن إسحاق الموصلي قال : قال لي المعتصم ؛ يا إسحاق إذا نصر الهوى ذهب الرأي . .
وروى عن أبي سليمان الداراني أنه قال في قول-الله عز وجل- : ﴿ وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةَ وَحَرِيرًا ﴾^(١) قال (صبروا) عن الشهوات .
وروى عن محمد بن محمد بن أبي الورد أنه قال : إن لله عز وجل- يوما لا ينجو من شره منقاد لهواه . وإن أبطأ الصرعى نهضة يوم القيامة صريع شهوة . وإن العقول لما جرت في ميادين الطلب كان أوفر حظا من يطالبها بقدر ما استصحبته من الصبر . وإن العقل معدن والفكر معول .
وروى عن يحيى بن معاذ يقول : حفت الجنة بالمكاره وأنت تكرهها ، وحفت النار بالشهوات وأنت تطلبها ، فما أنت إلا كالمريض الشديد الداء ، إن صبر نفسه على مضض الدواء اكتسب بالصبر عافية ، وإن جزعت نفسه مما يلقي طالت به علة الفتى .
وقال أيضا : عندما قيل له من أصح الناس عزما ، قال : الغالب لهواه .
وروى عن الوليد بن هشام القحذمي ، قال دخل خلف بن خليفه على سليمان حبيب بن المهلب

بالأهواز ، وعند سليمان جارية له يقال لها البدر ، من أحسن الجوارى وجها وأكملة ، فقال سليمان لخلف : كيف ترى هذه الجارية ؟ فقال أصلح الله الأمير مارأت عيناى جارية قط أحسن منها . فقال خذ بيدها .

فقال خلف : ماكنت لأفعل ، ولا أسلبها الأمير وقد عرفت عجبه بها .
فقال : خذها ويحك على عجبى بها ، ليعلم هواى إنى غالب فأخذها بيدها وخرج وهو يقول :

لقد حبانى وأعطانى وفضلنى عن غير مسألة منى سليمان
أعطانى البدر خودا فى مجاسدها والبدر لم يعطه إنس ولا جان
ولست حقا بناسى عرفه أبدا حتى يغيبنى لحد وأكفان

وروى عن يحيى بن يحيى يقول : قال بعض العباد : أشرف العلماء من هرب بدينه من الدنيا ، واستصعب قياده على الهوى .

وروى عن الحسن بن محمد الجريرى يقول : أسرع المطايا إلى الجنة الزهد فى الدنيا ، وأسرع المطايا إلى النار حب الشهوات فمن استوى على متن شهوة من الشهوات أسرع به القود إلى مايكره .
وروى عن ابن عطاء : من غلب هواه عقله وجزعه صبره افتضح .

وروى عن يحيى بن معاذ يقول : من أرضى الجوارح فى اللذات فقد غرس لنفسه شجر الندامات .

وروى عن الحسن بن على المطوعى : حتم كل إنسان هواه ، فإذا كسره بالمخالفة استحق اسم الفتوة .

وروى عن أبى عمرو الشيبانى قال : لقى عالم من العلماء راهبا من الرهبان ، فقال له كيف ترى الدهر ؟ فقال يخلق الأبدان ، ويجدد الأمال ، ويبعد الأمنية ، ويقرب المنية . قال له : فأى الأصحاب أبر ؟ قال العمل الصالح . قال : فأى شيء أضر ؟ قال النفس والهوى .

وروى عن ابن أبى الحوارى قال : مررت براهب فوجدته نحيفا فقلت له أنت عليل ؟ قال : نعم قلت منذ كم ؟ قال منذ عرفت نفسى قلت فتداو قال : قد أعيانى الدواء وقد عزمت على الكى . قلت : وما الكى ؟ قال : مخالفة الهوى .

وروى عن الأصمعى والعتبى ، قالا سمعنا أعرابيا يقول : ماأشد تحويل الرأى عند الهوى ، هو الهوان وإنما غلط باسمه فاشتق من جنسه ، وإنما يعرف ماأقول من أبكته المنازل والطلول .
وروى عن بشر بن الحارث يقول : (لاتجد حلاوة العبادة حتى تجعل بينك وبين الشهوات حائطا من حديد)

وروى عن أبى سليمان الدرانى : أفضل الأعمال خلاف هوى النفس .

وروى عن السرى يقول : (لن يكمل رجل حتى يؤثر دينه على شهوته ، ولن يهلك حتى يؤثر شهوته على دينه)

وروى عن أحمد بن خضرويه : لانوم أثقل من الغفلة ولا رق أملك من الشهوة ، ولولا ثقل الغفلة لم تظفر بك الشهوة .

وروى عن يوسف بن الحسين : عين الهوى عوراء .
وروى عن أبي بكر الوراق أنه قال : أصل غلبة الهوى مقاربة الشهوات فإذا غلب الهوى أظلم القلب ، وإذا أظلم القلب ضاق الصدر ، وإذا ضاق الصدر ساء الخلق ، وإذا ساء الخلق أبغضه الخلق وإذا أبغضه الخلق أبغضهم ، وإذا أبغضهم جفاهم ، وإذا جفاهم صار شيطانا رجيا .
وروى عن أبي علي الثقفى : من غلبه هواه توارى عنه عقله ، وقال ليس شيء أولى بأن تمسكه من نفسك ، ولا شيء أولى بأن تغلبه من هواك .

وروى عن علي بن سهل : العقل والهوى يتنازعان ، فمعين العقل التوفيق وقرين الهوى الخذلان ، والنفس واقفة بينهما ، فأيهما ظفر كانت في خيره .
وروى عن أبي الحسين الوراق : يقول الشهوة أغلب سلطان على النفس ، ولا يزيلها إلا الخوف المزعج .

وروى عن ابراهيم القصار : أضعف الخلق من ضعف عن رد شهوته وأقوى الخلق من قوى على ردها .

قال السلمى بسنده قال المرتعش ، وقيل له : إن فلانا يمشى على الماء فقال : إن من مكنه الله من مخالفة هواه ، هو أعظم من المشى على الماء .

أنبأنا أحمد بن أحمد المتوكلى قال : أنبأنا أحمد بن علي بن ثابت ، قال : عن أبي بكر بن أبي الدنيا قال : بلغني أن بعض الملوك قال لبعض الحكماء : العجب لمن عرف الله وجلاله كيف يخالف أمره ويتتهك حريمه ؟ فقال الحكيم : بإغفال الحذر وبسط أمد الأمل وبعسى وسوف ولعل ، قال الملك : بم يعتصم من الشهوة وقد ركبت في أبدان ضعيفة ، ففي كل جزء من البدن للشهوة حلول ووطن ؟ قال الحكيم : إن الشهوة من نتاج الفكر ، وقرين كل فكرة عبرة ، ومع كل شهوة زاجر عنها ، فمن قرن شهواته بالاعتبار ، وحاط نفسه بالازدجار ، انخلت عنه ريقه العدوان ، ودحض سىء فكره بإيثار الصبر على شهوته لما يرجو من ثواب الله على طاعته ويخاف من عقابه على معصيته .

قال بشر الحافى لحسن الفلاس : من جعل شهوات الدنيا تحت قدميه ، فرق الشيطان من ظله ، ومن غلب علمه هواه فهو الصابر الغالب ، واعلم أن البلاء كله في هواك ، والشفاء كله في مخالفتك إياه .

وقد حكى عن أنوشروان أنه سئل : أى الأشياء أحق بالالتقاء ؟ فقال أعظمها مضرة : قيل فإن جهل قدر المضرة ؟ قال أعظمها من الهوى نصيبا .

وقيل للمهلب بن أبي صفرة : بم نلت مانلت ؟ قال : بطاعة الحزم وعصيان الهوى .
وقال بشر الحافى لقيت عليا الجرجاني بجبل لبنان على عين ماء ، فلما بصر بي قال بذنب منى لقيت اليوم إنسانا فسعيت خلفه ، وقلت أوصنى فالتفت إلى وقال : أمستوص أنت ؟ عائق الفقر وعاشر

الصبر ، وعاد الهوى وعف الشهوات ، واجعل بيتك أخلى من لحدك يوم تنقل إليه على هذا طاب المسير إلى الله عز وجل .

قال أبو على الدقاق : من ملك شهوته في حال شببته صيره الله ملكا في حال كهولته كيوسف عليه السلام ﴿ إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾ .

وقال عبد الصمد الزاهد : من لم يعلم أن الشهوات فخوج فهو لعاب وقال أعرابي لابنه : يا بني من خاف الموت بادر الفوت ومن لم يكبح نفسه عن الشهوات بادرت به إلى الهلكات والجنة والنار أمامك .

وقال بعض الحكماء : أعدل الناس من أنصف عقله من هواه

وقال آخر : العاقل من كان له على جميع شهواته رقيب من عقله .

وقال آخر : الهوى ملك عسوف ، وسلطان ظالم ، دانت له القلوب ، وانقادت له النفوس .

وقال آخر : النفس اذا هويت شيئا مالت إليه ، حتى تكون عند الذى هويت أكثر من كونها عند جسدها .

وقال آخر : ان لكل شيء أبا جاد إن أبا جاد الحكمة طرد الهوى ووزن الأعمال .

أشعار قيلت في دم الهوى

دخل الوليد بن يزيد بعض كنائس الشام فكتب في حيطانها بفحمة :

مأرى العيش غير أن تتبع النفس هواها فمخطئا أو مصيبا .

فرأى ذلك البيت عبد الله بن على فكتب تحته .

ان المنايا إن أقمت تقيم

لامثل ذلك فى النعيم نعيم .

إن كنت تعلم حين تصبح آمنا

فالزم هواك كما رضيت فإنه

وقال آخر :

من الناس مرغوب إليه وراغب

وإن الصبا للعيش لولا العواقب

وبالناس عاش الناس قدما ولم يزل

وما يستوى الصابى ومن ترك الصبا

عن الأصمعى قال سمعت رجلا يقول :

فإذا هويت فقد لقيت هوانا

إن الهوان هو الهوى قلب اسمه

وسئل ابن المقفع عن الهوى فقال : هو ان سرقت نونه

فنظمه شاعر فقال :

نون الهوان من الهوى مسروقة فإذا هويت فقد لقيت هوانا

عن أبي بكر القرشي قال : انشدني الحسن بن سلمان الأبلي :
 كم أسير لشهوة وقتيل أف للمشتهى خلاف الجميل
 شهوات الانسان تورثه الذل وتلقيه في البلاء الطويل

وأنشد آخر :

رب مستور سبته صبوة فتعري ستره فانتهاكا
 صاحب الشهوة عبد فإذا غلب الشهوة صار الملكا .

وقد أنشدوا لابن المبارك :
 ومن البلاء وللبلاء علامة الا يرى لك عن هواك نزع
 العبد عبد النفس في شهواته والحر يشبع تارة ويجوع .

ولمحمد بن عبد الله بن مناذر :
 خير ما اجتنب به المرء التقى فاتخذها عدة دون العدد
 وأرى الشهوة مفتاح الردى فاجتنبها وأنا عنها وابتعد

ولصالح بن عبد القدوس :
 عاص الهوى ان الهوى مركب يصعب بعد اللين منه الذليل
 ان يجلب اليوم الهوى لذة ففي غد منه البكا والعويل
 ما بين ما يحمد فيه وما يدعو إليك الذم إلا القليل .

ولابن الرومي .

اتبع العقل إنه حاكم الله ولا تمشي في طريق عناده
 ما الهوى في لفيه ان تأملت بقرن للعقل في أجناده
 لا تعرض سداد رأيك للطعن عليه من ناقص في سداده

وقال آخر :

إذا أنت لم تعص الهوى قaddock الهوى الى بعض مافيه عليك مقال
 وقال غيره

وأترك الشيء أهواه ويعجبني أخشى عواقب مافيه من العار
 وقال غيره :

إن المرأة لاتريك عيوب وجهك مع صداها
وكذاك نفسك لاتريك عيوب نفسك مع هواها
وقال آخر

وكل امرئ يدرى مواقع رشده
يشير عليه الناصحون بجهدهم
هوى نفسه يعميه عن قصد رشده .
ولكنه أعمى أسير هواه
فيأبى قبول النصيح وهو يراه
ويبصر عن فهم عيوب سواه

وصايا ومواعظ وزواجر

عن الأوزاعي قال : حدثني يحيى بن أبي كثير ان ابا بكر الصديق كان يقول في خطبته : أين
الوضاة الحسنة وجوههم ؟ أين المعجبون بشبابهم ؟ أين الملوك الذين بنوا المدائن وحصنوها بالحيطان اين
الذين كانوا يعطون الغلبة في مواطن الحرب ؟ قد تضعضع بهم الدهر فأصبحوا في ظلمات القبور ،
الوحا الوح النجا النجا .

وعن ابن مسعود أنه كان يقول : إنكم في عمر الليل والنهار في آجال منقوصة وأعمال محفوظة
والموت يأتي بغتة فمن زرع خيرا فيوشك أن يحصد رغبة ومن زرع شرا فيوشك ان يحصد ندامة ولكل
زارع مازرع .

عن أبي زكريا التيمي قال بينا سليمان بن عبد الملك في المسجد الحرام اذ اتى بحجر منقور فطلب
من يقرأه فأتى بوهب بن منبه فقرأه فإذا فيه : ابن آدم : إنك لو رأيت قرب ما بقى من أجلك ، لزهدت
في طويل أملك ، ولرغبت في الزيادة من عملك ولقصرت من حرصك وحيلك ، وإنما يلقاك ندمك لو
قد زلت بك قدمك وأسلمك أهلك وحشمك فبان منك الوالد والقريب ورفضك الولد والنسيب فلا
أنت إلى دنياك عائد ولا في حسناتك زائد فاعمل ليوم القيامة قبل الحسرة والندامة .

كتب الأوزاعي إلى أخ له : أما بعد ، فإنه قد أحيط بك من كل جانب ، واعلم أنه يسار بك في
كل يوم وليلة ، فاحذر الله والقيام بين يديه ، وان يكون آخر عهدك به والسلام .
عن الفضيل بن عياض قال : بلغني أن رجلا كتب إلى داود الطائي أن عظمي بموعظة
قال : فكتب إليه :

أما بعد : فاجعل الدنيا كيوم صمته عن شهوتك واجعل فطرك الموت فكأن قد . والسلام .
قال : فكتب إليه : زدني فكتب إليه :

أما بعد : فارض من الدنيا باليسير مع سلامة دينك كما رضى أقوام بالكثير مع ذهاب دينهم .
والسلام .

عن النعمان بن عبد السلام عن سفيان قال : أوحى الله تعالى إلى موسى بن عمران : إنه ليست
عقوبتي لمن عرفني واجترأ عليّ كمن لم يعرفني .

وعن أبي بكر محمد بن عبد الله الرازي يقول : سمعت محمد بن حاتم الترمذي يقول : رأس

مالك قلبك ووقتك ، وقد شغلت قلبك بهواجس الظنون ، وضيعت أوقاتك بارتكاب مالايعنيك ، فمتى يربح من خسر رأس ماله .

عن ابراهيم بن بشار يقول مررت أنا وأبو يوسف الغولى فى طريق الشام فوثب إليه رجل فسلم عليه ثم قال :

ياأبا يوسف عظمى بموعظة أحفظها عنك

قال فبكى ثم قال :

اعلم ياأخى أن اختلاف الليل والنهار وممرهما يسرعان فى هدم بدنك ، وفناء عمرك ، وانقضاء أجلك .

فينبغى لك ياأخى الا تطمئن حتى تعلم أين مستقرك ومصيرك ، وساخط ربك عليك بمعصيتك وغفلتك ، أو راض عنك بفضلته ورحمته،ابن آدم الضعيف نطفة بالأمس ، وجيفة غدا ، فإن كنت لاترضى بهذا ، فسترد وتعلم وتندم فى وقت لاينفعك الندم .

قال : وبكى أبو يوسف وبكى الرجل وبكى لبكائهما ووقعا مغشيا عليهما .

ووعظ اعرابى ولده فقال : لا الدهر يعظك ، ولا الأيام تنذكرك ، والساعات تعد عليك ، والأنفاس تعد منك وأحب أمريك اليك أعودهما بالضر عليك .

وكتب بعض الحكماء الى أخ له : أما بعد : فإن الدنيا حلم والآخرة يقظة والمتوسط بينهما الموت ونحن فى أضغاث أحلام والسلام .

عود إلى رحاب التفسير

قوله تعالى : ﴿ أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا ﴾

ونحوه قوله تعالى : ﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والأنس لهم قلوب لايفقهون بها ولهم أعين لايبصرون بها ولهم آذان لايسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون ﴾ (١) . فشبه أكثر الناس بالأنعام ، والجامع بين النوعين التساوى فى عدم قبول الهدى والانقياد له ، وجعل الأكثرين أضل سبيلا من الأنعام ؛ لأن البهيمة يهديها سائقها فتتهدى ، وتتبع الطريق فلا تحيد عنها يمينا ولا شمالا ، والأكثر من يدعوهم الرسل ويهدونهم السبيل ، فلا يستجيبون ، ولا يهتدون ولا يفرقون بين ما يضرهم وبين ما ينفعهم .

والأنعام تفرق بين ما يضرها من النبات والطريق ، فتجنبه ، وما ينفعها فتؤثره ، والله تعالى لم يخلق للأنعام قلوبا تعقل بها ، ولا ألسنة تنطق بها ، وأعطى ذلك لهؤلاء ، ثم لم ينتفعوا بما جعل لهم من العقول والقلوب والألسنة والاسماع والأبصار ، فهم أضل من البهائم ، فإن من لا يهتدى إلى الرشـد

والى الطريق مع الدليل إليه ، هو أضل وأسوأ حالا ممن لا يهتدى ، حيث لا دليل معه .

من آيات الله الكونية

أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَا سَيِّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذْكُرُوا فَآبِيَ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ * وَهُوَ الَّذِي مَرَجَّ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾

تفسير المفردات

ألم تر : أى ألم تنظر .

إلى ربك : أى الى صنعه .

مد : بسط

الظل : ما يحدث من مقابله جسم كثيف كجبل أو بناء أو شجر للشمس من حين ابتداء طلوعها حتى غروبها .

ساكنا : أى ثابتا على حاله فى الطول والامتداد بحيث لا يزول ولا تذهب الشمس .

دليلا : أى علامة .

قبضناه : أى محواه

يسيرا : أى على مهل قليلا قليلا بحسب سير الشمس فى فلكها .

سباتا : من السبت وهو القطع لانقطاع التعب فيه أو لانقطاع الحياة الكاملة .

والنشور : البعث

بشرا : (تخفيف بشر بضميتين) واحدها بشور كرسل ورسول اى مبشرات .
 والرحمة : المطر بين يديه : اى قدامه
 طهورا : اى يتطهر به البلدة : الأرض
 والميت : التى لانبات فيها
 الأنعام : الأبل والبقر والغنم وخصها بالذكر؛ لأنها ذخيرتنا ومعاش أكثر أهل المدر منها .
 أناسى : واحدهم إنسان (أصله أناسين أبدلت النون ياء وأدغمت فى الياء)
 صرفناه : أى حولناه فى أوقات مختلفة الى بلدان متعددة
 ليذكروا : أى ليعتبروا . كفورا : أى كفرانا للنعمة وإنكارا لها
 نذيرا : اى نبيا ينذر أهلها .
 والمرج : من قولهم مرج فلان دابته إذا تركها وشأنها
 فرات : اى مفرط العذوبة .
 أجاج : أى شديد الملوحة . برزخا . . أى حاجزا،حجر محجورا : أى تنافرا شديدا فلا يبغي أحدهما على الآخر ولايفسد الملح العذب
 نسبا وصهرا : أى ذكورا ينسب إليهم وإناثا يصاهر بهن .

المناسبة وإجمال المعنى

لما بين سبحانه جهالة المعرضين عن دلائل التوحيد ، وسخيف مذاهبهم وآرائهم ، أعاد الكرة مرة أخرى ، فذكر خمسة أدلة عليه نراها عيانا ، وتتوارد علينا ليلا ونهارا ، وتكون دليلا على وجود الإله القادر الحكيم .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ﴾ انظر أيها المخاطب العاقل إلى صنع ربك ، كيف أنشأ الظل لكل مظل من طلوع الشمس حتى غروبها ، فاستخدمه الإنسان للوقاية من لفع الشمس وشديد حرارتها .
 ﴿ ولو شاء لجعله ساكنا ﴾ أى ولو شاء لجعله ثابتا على حال واحدة لايتغير ، لكنه جعله متغيرا فى ساعات النهار المختلفة وفى الفصول المتعاقبة ، ومن ثم اتخذ مقياسا للزمن منذ القدم ، فاتخذ المصريون (المسلات) وقاسوا بها أوقات النهار على أوضاع مختلفة وطرق حكيمة متنوعة ، واتخذ العرب المزاويل لمعرفة أوقات الصلاة ، فقالوا : يجب الظهر عند الزوال : أى إذا تحول الظل إلى جانب المشرق ، والعصر حين بلوغ ظل كل شئ مثله عند الائمة عدا أبا حنيفة الذى قال : لايجب إلا إذا بلغ ظل كل شئ مثليه .
 ﴿ ثم جعلنا الشمس عليه دليلا ﴾ أى ثم جعلنا طلوع الشمس دليلا على ظهور الظل ومشاهدته للحس

والعيان ، والأشياء تستبين بأضدادها ، فلولا الشمس لما عرف الظل ، ولولا الظلمة ما عرف النور .
﴿ ثم قبضناه إلينا قبضا يسيرا ﴾ أى ثم أزلناه بضوء الشمس يسيرا يسيرا ، ومحونا على مهل جزءا
فجزءا بحسب سير الشمس ، يقول العلامة ابن القيم فى تفسير هاتين الآيتين :
أخبر تعالى أنه بسط الظل ومده ، وأنه جعله متحركا تبعا لحركة الشمس ، ولو شاء لجعله ساكنا
لا يتحرك ، إما بسكون المظهر له والدليل عليه ، وإما بسبب آخر .

ثم أخبر أنه قبضه بعد بسطه قبضا يسيرا ، وهو شئ بعد شئ ، لم يقبضه جملة ، فهذا من أعظم
آياته الدالة على عظيم قدرته وكمال حكمته .

فندب سبحانه الى رؤية صنعته وقدرته وحكمته فى هذا الفرد من مخلوقاته ، ولو شاء ربنا لجعله
لاصقا بأصل ما هو ظل له من جبل وبناء وشجر وغيره ، فلم ينتفع به أهله ، فإن كمال الانتفاع به تابع
لمده وبسطه وتحوله من مكان إلى مكان ، وفى مده وبسطه تم قبضه شيئا فشيئا : من المصالح والمنافع
مالا يخفى ولا يحصى ، فلو كان ساكنا دائما أو قبض دفعة واحدة ، لتعطلت مرافق العالم ومصالحه به
وبالشمس ، فمد الظل وقبضه شيئا فشيئا لازم لحركة الشمس على ما قدرت عليه من مصالح العالم .
وفى دلالة الشمس على الظلال . ما تعرف به أوقات الصلوات وماضى من اليوم ومابقى منه .
وفى تحركه وانتقاله : ما يبرد ما أصابه حر الشمس ، وينفع الحيوانات والشجر والنبات ، فهو من
الآيات الدالة عليه وفى الآية وجه آخر : وهو انه سبحانه مد الظل حين بنى السماء كالقبة المضروبة ،
ودحا الأرض من تحتها ، فألقت القبة ظلها عليها ، فلو شاء سبحانه لجعله ساكنا مستقرا فى تلك
الحال ، ثم خلق الشمس ونصبها دليلا على ذلك الظل ، فهو يتبعها فى حركتها يزيد بها وينقص ،
ويمتد ويقلص ، فهو تابع لها تبعية المدلول لدليله .

وفى وجه آخر : وهو أن يكون المراد قبضه عند قيام الساعة يقبض أسبابه ، وهى الأجرام التى
تلقى الظلال ، فيكون قد ذكر اعدامه بإعدام أسبابه ، كما ذكر إنشاءه بإنشاء أسبابه وقوله : ﴿ قبضناه
إلينا ﴾ كأنه يشعر بذلك .

وقوله ﴿ قبضا يسيرا ﴾ يشبه قوله ﴿ ذلك حشر علينا يسير ﴾^(١) .

وقوله : ﴿ قبضناه ﴾ بصيغة الماضى لاينافى ذلك كقوله تعالى :

﴿ أتى أمر الله ﴾^(٢) والوجه فى الآية هو الأول .

قوله تعالى : ﴿ وهو الذى جعل الليل لباسا والنوم سباتا وجعل النهار نشورا ﴾ .
وتلك آية أخرى من الآيات الدالة على قدرته ورحمته ، فقد شاء سبحانه أن يجعل الليل بظلمته
لباسا ساترا ، وأن يجعل النوم سباتا قاطعا لمناعب النهار ، فتنامون فيه كما تموتون ، وكما قال ﷺ :
(والله لتموتن كما تنامون ، ولتبعثن كما تستيقظون ، ولتحاسبن بما تعملون ، ولتجزون بالإحسان
إحسانا ، وبالسوء سوءا ، وإنها لجنة أبدا أو لنار أبدا) . سبحانه ربى من قائل : ﴿ وهو الذى

(١) سورة ق آية رقم : ٤٤

(٢) سورة النحل الآية رقم ١

يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى ثم إليه مرجعكم ثم ينبثكم بما كنتم تعملون وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين ﴿٢﴾ وإذا كان الليل والنهار آيتين من آيات الله ، فإن الله جل جلاله يتحدى بهما كل من على وجه الأرض من معاندين ومكابرين وجاحدين ﴿٣﴾ قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون . قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون . ومن رحمته جعل الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴿٤﴾ .

سبحانك من فائل : ﴿٥﴾ ألم نجعل الأرض مهادا والجبال أوتادا وخلقناكم أزواجا وجعلنا نومكم سباتا وجعلنا الليل لباسا وجعلنا النهار معاشا ﴿٦﴾ سبحانك من حكيم جعلت الليل والنهار مطيتين إلى الآخرة فالعاقل من أحسن استعملهما .

نموت وأيامنا تذهب	ونلعب والموت لا يلعب
عجبت الذى لعب قد لهى	عجبت ومالى لأعجب
أيلهو ويلعب من نفسه	نموت ومنزله يخرب
أرى الليل يطلبنا والنهار	ولم أدر أيهما أطلب
أحاط الجديدان جمعا بنا	وليس لنا منها مهرب
وكل له مدة تنقضى	وكل له أثر يكتب

إن الله تعالى جعل النوم قطعاً لمتاعب النهار ولذا فإن النوم نعمة من نعم الله قال عز من قائل : ﴿٧﴾ ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغائكم من فضله إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون ﴿٨﴾

ماذا قالوا عن النوم :

قالوا: إن النوم طرح روحى مؤقت وقالوا :

لقد دامت أبحاث العلم والطب وقتاً طويلاً ، لتجد تعليلاً لظاهرة النوم ، وإيجاد تفسير لما يحدث فى النوم بعد أن عجز العلم عن بيان الأسباب الدافعة المباشرة للنوم . . . فقل إن النوم رغبة جامحة للراحة تنتاب المرهق المتعب ، ونفى ذلك أن غير المتعب ينام أيضاً وتتأهب الرغبة فى النوم ، مثل المكدود فى مواعيد متقاربة ، بل إن من قضت عليه الظروف بالراحة فى الفراش أياماً أو شهوراً أو أعواماً ينام كذلك فى ساعاته المعهودة . . . بالرغم من الراحة الجسدية التى حتمتها عليه ظروف وجوده فى الفراش ،

(١) سورة الأنعام الآيات / ٦٠ - ٦٢

(٢) سورة القصص الآيات / ٧١ - ٧٣

(٣) سورة النبأ الآيات - ٦ - ١١

(٤) سورة الروم الآية رقم / ٢٣

وفي ذلك يقول الدكتور هريوارد كارنيجتون عضو جمعية البحوث النفسية .
قدم الباحثون فيما مضى عدة نظريات لتفسير النوم ، ولكنها رفضت كلها ، ولم يكن من بينها واحدة ملائمة تفي بالغرض مثلا تلك النظريات المسماة النظريات الكيماوية ، تحاول تعليل النوم بافتراضها تكوين مواد سامة داخل الجسم خلال ساعات اليقظة ، ثم تقريرها أن النوم يبيد هذه المواد ، وترمى بعض النظريات إلى أن سبب النوم حدوث حالات غريبة في دورة المخ الدموية . ويقول بعضها إن النوم راجع إلى وجود غدد خاصة . وبعضها ينسبه إلى الاسترخاء العضلي ، ولكن هذه النظريات كلها عجزت في الواقع عن تفسير الحقائق ، التي لاشك في أنها وجود روح آدمية قائمة بذاتها تنسحب كثيرا أو قليلا من الجسم خلال ساعات النوم .

وقد عد العلماء أن ماوصل إليه العلم من اعتبار أن النوم طرح روحى مؤقت ، نصرا مابعده من نصر ، إذ أمكن تفسير الأحلام التي يراها الإنسان في نومه ، فيتحقق منها بعد يقظته طالت المدة أو قصرت ، وأمكن تعليل رؤية النائم لأمكنة أو أشخاص لم يسبق له رؤيتهم ، فإذا مازار هذه الأمكنة أو التقى بهؤلاء الناس عرفهم فورا ، وتعجب من دقة وتطابق للحالتين ، حالة الرؤيا في النوم والملاحظة في اليقظة .

وكان أول من قال إن من دلائل انسحاب الروح في النوم ، ماتقوم به من سياحات أثناء النوم ، فيراها النائم كأنها حلم وأثبت ذلك الدكتور هدرسون تيل إذ يقول في كتابه (أسرار الروحية) إن سيدة ولدت عمياء استطاعت في أحلامها أن ترى الأشياء بوضوح وأن تصفها بدقة ، ولما توفيت شرحت جثتها عقب وفاتها وظهر من التشريح أن أعصاب البصر عندها كانت ميتة .

ويقول الدكتور جورج لندسى جونسون إنه أجرى عملية جراحية في عين فتاة في التاسعة عشرة من عمرها ولم تكن قط رأت شيئا ألبتة ، ولكنها لما شفيت ورفعت الأربطة ، تبينت شكل كل فرد في الحجرة وملبسه ، واستطاعت أن تميز بين الألوان المختلفة ، مما يؤكد أن روحها كانت تنطلق في منامها فترى ما لم تستطع أن تراه بعينها .

وقرر كثيرون أنهم قاموا بأروع أعمالهم عندما شاهدوها في أحلامهم ، مثل الموسيقار آرثر سيمور سوليفان الذى ألف أغنيته المشهورة « النور الضائع » في نومه وجوسيب ثارثيني الذى يقول إنه سمع في نومه كأن الشيطان يغنى ، فما أن صحا من نومه حتى كتب اللحن وسماه « أغنية الشيطان » .
والرياضى المعروف هنرى بوانكاريه ، رأى معادلات جبرية أدت إلى استكشافه قانونا هاما رياضيا .

ولعل من الأحلام التي رددت الأوساط صداها كثيرا ، تلك الرؤيا التي نشرت في عدة كتب وطبعت بأكثر من لغة وفيها : « كان في الصحراء . . في جوف الصحراء الواسعة المترامية الأطراف ، سيد وسيدة كلاهما تلقى العلم في أرقى الجامعات وكلاهما يعرف أن الصحراء غول لاصديق له . . نفذ الماء وعلف الدواب ومعهما رجال من الأدلاء والحراس ، والعمران قصى بعيد والاتجاه في أى متجه من غير علم به معناه الموت المحقق في جوف الرمال . وكانا يبحثان عن واحة مجهولة قطعاً إليها طريقا غير

مسلوك . نزل بهما الهم وأخذ منها ومن رجالهما القنوط ، فأنيمت الإبل وجلست القافلة في ذلك القفر ، لا مؤنس لهما : إلا الاعتقاد بأن الارادة السرمدية نافذة فيهم لاحالة ، فإما طريق إلى الدنيا وإما طريق إلى الآخرة .

حلم السيد حلما وهو بعد ممن لم يعكفوا على التصوف يوما من أيام حياتهم وحلم بامرأة بيضاء أو تلبس البياض لم يستطع أن يصفها قالت له :

« خذ السلسلة التي تعلقها في عنقك ، وتعال معي إلى قمة هذا الكثيب ، ثم ادفنها هناك ، وفي الصباح إذا حضرت لتأخذها سوف ترى آثار قدميك وقدمي معا ، وبذلك تعرف الطريق » وفعل السيد كما أمر .

وفي الصباح نهض من نومه ، وتذكر الحلم فاصطحب السيد رفيقة سفره ورجاله ، وأراهم آثارها أقدام ذاهبة إلى الكثيب ثم هابطة . واحتفر في المكان الذي رآه في نومه فوجد ثم تابع الأقدام فوجد المكان المأهول الذي نجا هو والقافلة بالعثور عليه .

أما السيد فهو المرحوم أحمد محمد حسنين أما السيدة فالجواله روزينا فوربس صاحبة الكتاب . والأمثلة التي تشابه ذلك لاتقع تحت حصر ، بل إن كل فرد لابد قد رأى في نومه حلما تحقق ، وبهذا أمكن إثبات أن النوم إنما هو حالة طرح روى مؤقت ، والرؤيا ماهي إلا سياحة بالروح إلى حيث شاء الله .

وقبل ذلك بمئات السنين يقرر القرآن الكريم هذه الحقيقة عن النوم فتقول الآية ٤٢ من سورة الزمر :

﴿ الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ (١) .

فجعل النوم كالموت أى طرح روى يكون دائما حين الموت ومؤقتا في النوم . والقرآن الكريم أول كتاب كذلك ذكر النوم بالنهار فالآية ٢٣ من سورة الروم نصها : ﴿ ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغواكم من فضله إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون ﴾ . وظل موضوع النوم في النهار موضع جدل حتى وصل العلم والطب إلى ماقرره القرآن الكريم ، إذ ينصح مدير التربية البدنية في جامعة ييل تلاميذه نصيحة خالدة نصها « عليك في الظهر نسبة من النوم » .

ويقول داي جيلز في مجلة « تدهوفر » أما وقد بلغ الإرهاق كل مبلغ بالأجسام والعقول والأرواح ، فقد آن الأوان لإعادة النظر في خطة بسيطة تزيدنا مقدرة على العمل وشعورا بالراحة وتلك هي أن يغفو الإنسان غفوة كل يوم .

لقد اتفق الأطباء على أن هذه الغفوات التي تتخلل النهار تدفع الكلال وتخفض ضغط الدم حوالى ١٥ - ٣٠ ملليمترا وترفع عن القلب بعض الحمل المتعب .

وقد لوحظ أن الإغفاء قبل القيام بأى مجهود بدنى أو عقلى أو بعده يصنع العجائب بالنسبة للإنتاج العضلى والدهنى وللحالة الصحية عامة .

ولقد سئل ديبو عضو الشيوخ الأمريكى والخطيب المشهور كيف يستطيع أن يتكلم عدة ليال فى الأسبوع ، ويقوم مع ذلك بعمله المرهق أثناء النهار فأجاب « إنى أعامل مصرفاً للنوم مأسحب من رصيدى فيه شيئاً بالسهر إلا أودعت فى نفس اليوم وديعة أخرى فيظل رصيدى تام التوازن على الدوام » .

وقد أكد الدكتور آدموند جاكوبسون الذى ألف كتابه عن « الاسترخاء المطرد » و « يجب أن تسترخى » والذى ظل عدة سنين مديراً لمعامل الفسيولوجيا الإكلينيكية بجامعة شيكاغو حقيقة وجوب النوم أثناء النهار .

ويقول ديل كارنيجى فى كتابه « دع القلق وابدأ الحياة » . لقد استطاع جون د . روكفلر الأب أن يضرب رقمين قياسيين الأول أنه جمع أكبر ثروة عرفها العالم فى عهده ، والثانى أنه عاش حتى سن الثامنة والتسعين ، فكيف تأتى له ذلك ؟ أما طول عمره فلعل السبب الأول فيه هو الوراثة .

أما السبب الثانى فهو اعتياده الإغفاء نصف ساعة بعد ظهر كل يوم فى غرفة مكتبه ، فكان يستلقى على أريكته فى غرفة المكتب ويستسلم للراحة التامة . . .

ويتابع قوله إذا تعذر عليك أن تغفو ظهراً فإنك على الأقل تستطيع أن تستلقى على أريكة قبيل العشاء فإذا نمت ساعة فى اليوم فإنك بذلك تضيف ساعة إلى ساعات يقظتك .

لأن ساعة تنامها فى خلال النهار مضافة إلى ست ساعات تنامها ليلاً تجعل المجموع سبع ساعات أجدى عليك من ثمانى ساعات من النوم المتواصل ليلاً .

قوله تعالى : ﴿ وهو الذى أرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته ﴾ أى والله الذى أرسل الرياح بمشرات بقدوم الأمطار .

﴿ وأنزلنا من السماء ماء طهوراً ﴾ الطهور اسم لما يتطهر به كالوقود لما توقد به النار والوضوء لما يتوضأ به ، أى وأنزلنا من السحاب ماء تتطهرون به فى غسل ملابسكم وأجسامكم ، وتتفعون به فى طبخ مطاعمكم ، وتشربونه عذبا فراتا .

روى أن النبى ﷺ قال فى البحر : (هو الطهور ماؤه الحل ميتته) أخرجه أبو داود والترمذى والنسائى (١) .

(لنحى به بلدة ميتا) أى وأنزلناه لنحى به أرضاً طال انتظارها للغيث ، فهى هامة لانبات فيها ، وبذلك الماء تزدهر بالشجر والنبات والأزهار ، وذلك أشبه بالحياة للإنسان والحيوان .

(١) الحديث رواه أبو داود فى كتاب الطهارة ٤١ ، والترمذى فى أبواب الطهارة ٥٢ ، والنسائى فى كتاب الطهارة ٤٦ ، وفى المياه / ٤ ، وفى كتاب الصيد / ٣٥ ، وابن ماجه فى أبواب الطهارة / ٣٨ ، وفى أبواب الصيد / ١٨ ، ومالك فى الموطأ فى كتاب الطهارة / ١٢ ، وفى كتاب الصيد / ١٢ ، والدارمى فى كتاب الوضوء / ٥٣ ، وفى كتاب الصيد / ٦ ، وأحمد فى مسنده / ٢٣٧ ، ٣٦١ ، ٣٧٨ ، ٣٩٣ ، ٣٧٣ / ٣ ، ٣٦٥ / ٥

ونحو الآية قوله : ﴿ فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٌ ﴾^(١) وقوله : ﴿ فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾^(٢) .

﴿ ونسقيه مما خلقنا أنعاماً وأناسي كثيراً ﴾ أى وليشرب منه الحيوان والإنسان ، وآخر ذكر الإنسان عن النبات والحيوان لحاجته إليهما في حياته ، ولأنهم إذا ظفروا بماء يسقى أرضهم ومواشيهم لم يعدموا مايكون منه سقياهم .

ونحو ذلك قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقْلَتِ سَحَابًا ثَقَالًا سَقْنَاهُ لَبَدًا مِيتَ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نَخْرِجُ الْمَوْتَ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾^(٣) .

وقوله جل شأنه : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَّاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيَذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفَلَكَ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾^(٤) .

وقوله تبارك اسمه : ﴿ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيُبْسِطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كَسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خَلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يَنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لِمُبْلِسينَ فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيٍ الْمَوْتِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ﴾^(٥) .

وقوله جل شأنه ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خَلَالٍ وَيَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَمَّنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقُهُ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ ﴾^(٦) .

وقوله جل جلاله : ﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فُسْقِنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مِيتَ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ ﴾^(٧) .

وقوله جلا جلاله : ﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ﴾^(٨) .
وقوله تبارك اسمه : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَنْزِلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ﴾^(٩) .

في رحاب الآيات نعيش مع الحقائق العلمية والعلم يدعو إلى الإيمان ، كما قال تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾^(١٠) .

كتب الدكتور جمال الفندى في كتابه (القرآن والعلم)

تحت عنوان : الطبيعة الجوية والقرآن .. دورة الرياح العامة وتوزيع السحاب والمطر .

(٦) سورة النور آية رقم / ٤٣

(٧) سورة فاطر آية رقم / ٩

(٨) سورة الرعد آية رقم / ١٢

(٩) سورة الشورى آية رقم / ٢٨

(١٠) سورة فصلت آية رقم / ٥٣

(١) سورة الحج آية رقم / ٥

(٢) سورة الروم آية رقم / ٥٠

(٣) سورة الأعراف آية رقم / ٥٧

(٤) سورة الروم آية رقم / ٤٦

(٥) سورة الروم الآيات رقم / ٤٨ - ٥١

يقول الله تعالى في سورة البقرة :

إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجرى في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون ﴿١﴾ .

ويتضمن توزيع الرياح على الأرض في طبقات الجو المختلفة ومن ثم صعودها أو هبوطها وإثارتها للسحب الممطرة ، موضوع دراسات واسعة المدى من الناحيتين الديناميكية والطبيعية . وعلى الرغم من أن هذه الدراسات الحديثة لم تكتمل بعد ، فإننا سنلخص أهم النتائج العلمية التي تم التوصل إليها للنلمس أهميتها وعمق ماتشير إليه الآية الكريمة .

فمن حيث طبقات الغلاف الجوى كانت معظم معلوماتنا عنه حتى عهد قريب - قبل عصر الفضاء - إنما تجمع عن طريق دراسة الطبقة السفلى المعروفة باسم (التروبوسفير) أو منطقة التغير باستخدام البالونات أو الطائرات التي قلما تصل إلى علو يزيد على ٣٠ ميلا ثم الطبقة التي تعلوها وهي (الأوزونوسفير) أو منطقة تجمع الأوزون باستخدام أجهزة قياس تجمع الأوزون في الاتجاه الرأسى (يتكون من ثلاث ذرات من الأكسجين) .

وتكون (الأوزونوسفير) الجزء السفلى من طبقة (الستراتوسفير) أو المحيط ذو الطبقات . وهي الآن تدرس بالصواريخ كذلك ويلي (الستراتوسفير) من أعلى طبقة متأينة هي (الأيونوسفير) التي يتواجد فيها الأكسجين الذرى . وكانت معالم هذه الطبقة تجمع باستخدام مسجل التآين الذى يحدد عمليا درجات تركيز الكهارب على الارتفاعات المختلفة داخل (الأيونوسفير) ، تتكاثر هذه الكهارب في طبقات معينة تعرف علميا باسم طبقات (هفينسيد) وهي التي تعكس أمواج اللاسلكى بعد انطلاقها من محطات الإذاعة وتردها إلى مراكز الاستقبال . كل ذلك بالإضافة إلى تحليل طيف الفجر القطبى وهو ظاهرة ضوئية تحدث في أعالي الجو الممتد من ١٠٠ إلى ١٠٠٠ كيلو متر ويطلق عليه الفرنجة اسم (الأورورا) وهو لا يشاهد عادة إلا بالقرب من قطبى الأرض .

ويبلغ ارتفاع الطبقة السفلى (التروبوسفير) نحو ١٨ كيلو مترا عند خط الاستواء ، ٨ كيلو مترا فقط عند القطبين .

وتحدث كافة التقلبات الجوية في هذه الطبقة : ففيها تثار السحب وينزل المطر وتحدث الأعاصير . ومن أهم صفاتها الطبيعية أن درجة الحرارة فيها تنخفض بازدياد الارتفاع بمعدل متوسطه ٦,٥ درجة مئوية لكل ألف متر .

وعلة ذلك أن مصدر الحرارة في هذه الطبقة هو سطح الأرض ، بما يكتسب من الإشعاع الشمسى . ولقد قدر بالقياسى والحساب أن نحو ٣٠ فى المائة من الإشعاع الشمسى الذى يرد إلى سطح الأرض يستخدم فى تبخير المياه من الأسطح المائية ، ويتحول إلى حرارة كامنة فى البخار العالق فى الجو ، وتنطلق هذه الحرارة الكامنة كلها فى طبقة (التروبوسفير) عندما يتم تكاثف بخار الماء وتحوله إلى سحب ومطر .

وترتفع درجة الحرارة في طبقة (الأوزونوسفير) نظرا لما يمتصه غاز الأوزون من الأشعة فوق البنفسجية التي ترسلها الشمس .

وتصل درجة الحرارة أقصى ارتفاع لها عند علو نحو ٥٠ كيلو مترا .
وحديثا أطلق على الجزء العلوى من (الستراتوسفير) اسم (الميزوسفير) أو الكرة الوسطى . وفي هذه الطبقة لا تكفى كثافة الأوكسجين لتكوين الأوزون ، ولذلك تنخفض درجة الحرارة كلما صعدنا قدما إلى أعلى حتى تصل أقل قيمة لها في جوالأرض على ارتفاع نحو ٨٠ كيلو مترا ، وبعد ذلك يلعب الأوكسجين الذرى الموجود في الجو العلوى دورا هاما في امتصاص بعض الأشعة فوق البنفسجية الواردة من الشمس ، فيسبب تسخين تلك الطبقات من جديد .

ولهذا تعرف مشارف الهواء العلوى كذلك باسم (الثيرموسفير) أو المحيط الحرارى . وفوق (الثيرموسفير) منطقة من الغلاف الجوى تنخفض فيها كثافة الهواء إلى الحد الذى يحول دون توهج الشهب ، إلا أنها رغم ذلك تستطيع حمل الفجر القطبى . هذه المنطقة هى (الأكوسفير) أو المحيط الخارجى .

وليست هناك أية حدود معينة عليا لهذه الطبقة ، إلا أننا نستطيع أن نقول بأنها تنتهى حيث تتعادل الكثافة مع كثافة الفضاء الكونى القريب وهو نحو ١٠٠ جسيم مثلا لكل سنتيمتر مكعب . ولقد دلت عمليات الرصد الجوى على سطح الأرض خلال العديد من السنين على مساحات واسعة أن الرياح إنما تتبع فى سيرها قواعد معينة تجعلها توزع على الأرض بطريقة خاصة فى المتوسط هى الدورة العامة .

ولما كان الدافع للهواء على الحركة هو اختلاف الضغط الجوى أو كثافة الهواء من مكان لآخر ، فانه من الطبيعى أن نجد توزيع الرياح على الأرض مرتبطا بتوزيع الضغط الجوى ، وهذا الأخير يرتبط بتوزيع درجات الحرارة التى هى المحدد الأول لكثافة الهواء على الأرض .

ومن البديهى أن تتواجد درجات الحرارة العظمى (والكثافات والضغط المنخفضة) فى المناطق الاستوائية عموما ، كما تتواجد درجات الحرارة المنخفضة (والكثافات الكبيرة والضغط العالية) . فى المناطق الباردة وخاصة داخل القارات فى الشتاء وحول القطبين .

وتهب الرياح بميل حول خطوط الضغط المتساوى (اليسوبارز) إلى مناطق الضغط المنخفض متدفقة من مناطق الضغط العالى ، متبعة فى قاعدة عامة هى :

« فى نصف الكرة الشمالى تدور الرياح حول خطوط الضغط المتساوى منحرفة نحو الضغط المنخفض بحيث تكون هذه المراكز على يسارها وتكون مراكز الضغط العالى يمينها ، ويحدث العكس فى نصف الكرة الجنوى »

وتبعا لذلك نجد أن للرياح (دورة عامة) من أهم مظاهرها :
أولا : توجد حول خط الاستواء منطقة ضغط خفيف وتتركز هذه المنطقة عادة شمال خط الاستواء بقليل ، كما أنها تتذبذب صوب الشمال أو الجنوب متبعة فى ذلك الوضع الظاهرى للشمس .

ثانيا : يحد هذه المنطقة من شمالها ومن جنوبها منطقتان من الضغط العالى (مابين خطى عرض ١٥ درجة و ٣٠ درجة شمالا وجنوبا) .

وهما يظهران بوضوح وجلاء فوق المحيطات ، وخاصة فى نصف الكرة الجنوبي حيث يقل اتساع اليابس نسبيا عما هو عليه فى نصف الكرة الشمالى ، وتعرف المنطقتان عادة باسم (ركاب الخيل) ويهب من كل منها هواء يتجه إلى مناطق الضغط الخفيف حولها وينحرف هذا الهواء تجاه الغرب أثناء سيره إلى منطقة الضغط الخفيف عند خط الاستواء فيغطى الرياح الشمالية الشرقية فى نصف الكرة الشمالى ، والرياح الجنوبية الشرقية فى نصف الكرة الجنوبي . وتعرف هذه الرياح عندنا باسم (الرياح التجارية) .

ثالثا : - الأهوية التى تتجه إلى القطبين تنحرف صوب الشرق بحيث تصير جنوبية غربية فى نصف الكرة الشمالى ، وتعرف باسم (الغربيات السائدة) .

وشمالية غربية فى نصف الكرة الجنوبي وهى شديدة السرعة . وتميل الضغوط الجوية إلى الهبوط والتناقص فى مناطق هبوب الغربيات السائدة . وذلك نظرا لما يتولد فيها من آن لآخر من عواصف محلية واضطرابات جوية متجولة تعرف باسم (الانخفاضات العرضية) هذه الانخفاضات تتابع فى سلسلة تجعل توزيع الضغط العام يهبط نسبيا داخل مناطق هبوب الغربيات السائدة بينما تظل مناطق القطبين عالية الضغوط نظرا لبرودتها وهبوط الهواء فيها من أعلى .

رابعا : - تكون منطقة كل قطب أشبه شىء بطقية من الضغط العالى الذى تنطلق منه غالبا رياح شرقية تتجه إلى مناطق هبوب الغربيات السائدة .

نرى مما سبق أن الرياح التجارية ريح شرقية عموما ، تهب بشدة على المحيطات حيث تكون أثبت أنواع الرياح على الأرض ، وهى تلعب دورا هاما فى توزيع طاقة الاشعاع الشمسى التى تصل المحيطات كما أنه لا يمتد إليها إلا بعض الاضطرابات التى تكون فى صورة أمواج تسبب من آن لآخر ظهور نكباء المناطق الحارة التى طالما هذدت السفن وسببت الرعب للملايين فى مختلف العصور .

أما داخل القارات فإن حزام الرياح التجارية كثيرا ما يتقطع ويصبح غير متصل كما أن أهويتها تكون جافة ولهذا تكثر فى مناطق هبوب التجاريات الصحارى والقفار مثل الصحراء الكبرى وصحراء الغرب .

أما الغربيات السائدة فهى غير ثابتة ، تتغير شدتها واتجاهاتها تبعا لحالة الجو المحلية ، فقد تصبح جنوبية شرقية أو جنوبية أو جنوبية غربية أو حتى غربية .

وفى المحيط الأطلسى تدفع الغربيات السائدة معها مياه البحر الدافئة من مناطق ركاب الخيل إلى شواطئ غرب أوروبا حتى خط عرض نحو ٨٠ درجة شمالا .

ونظرا لهبوبها من مناطق ساخنة نسبيا إلى أخرى أبرد فهى رياح ممطرة ، ذلك لأن تبريد الهواء أو انخفاض درجة حرارته هو السبب فى حمل أبخرة الماء العالقة فيه على التجمع والتكاثف أو التحول إلى نقط من الماء تكون السحب والأمطار ونحوها .

وتتذبذب منطقة الغريبات السائدة أيضا صوب الشمال أو الجنوب تبعا للوضع الظاهري للشمس فهي في فصل الشتاء تغمر منطقة البحر الأبيض المتوسط ومصر وتصيبها بأمطار شتوية . وتتابع الانخفاضات العرضية (وهي مناطق الضغط المنخفض التي تتولد تباعا على شمال الأطلسي في مناطق هبوب الغريبات السائدة وتسير من الغرب إلى الشرق وتدور حولها الأهوية في سلسلة تغمر المنطقة كلها بمتوسطات من الضغوط الخفيفة فتقبل إليها الرياح من الشمال والجنوب) ولعل هذا هو السبب في عدم اقترام هذا المحيط حتى عهد قريب نسبيا .

أما المحيط الهندي وبحر العرب فتجتاحهما في أشهر الصيف رياح موسمية جنوبية غربية تبدأ من نصف الكرة الجنوبي (جنوب خط الاستواء) كرياح جنوبية شرقية تنحرف إلى جنوبية غربية بعد عبورها خط الاستواء وتستمر لكي تغذي انخفاض الهند الموسمي الصيفي وانخفاض السودان الصيفي المعروفين «

وفوق منطقة الركود تلتقي الرياح التجارية المقبلة من الجنوب والشمال فتصعد إلى أعلى مثيرة السحب الممطرة التي تنشأ عنها الغابات الاستوائية . وعند حوالى خطي عرض ٣٠ درجة شمالا وجنوبا تهبط الرياح من أعلى فترتفع درجة حرارتها ولا تثار السحب وتنشأ الصحارى المدارية . وحول خطي عرض ٦٠ درجة شمالا وجنوبا تلتقي الغريبات السائدة مع الشرقيات القبلية فترتفع مثيرة للسحب الممطرة التي تنشأ عنها الغابات الصنوبرية . أما على القطبين فإن الهواء يهبط من أعلى ولا تتكون السحب ، وبذلك تنشأ الصحارى الجليدية .

وهكذا نرى أن تصريف الرياح أو توزيعها إنما يتبعه توزيع السحب العام على الأرض ، ومن ثم الأمطار التي تتحكم في عالم النبات ويضطرب الجو في مناطقنا والمناطق المعتدلة مثل حوض البحر المتوسط وأوروبا تحت تأثير مرور ماعرفناه علميا باسم الانخفاضات العرضية التي سبق ذكرها . والانخفاض العرضي عبارة عن جزء من الجوى ينخفض فيه الضغط الجوى انخفاضاً كبيراً بحيث تحدث ذبذبة في الضغط كثيرا ما تفوق سعتها ساعة التغيرات السنوية ، إذ قد تصل السعة إلى ٥٠ ملليبار في المركز . والانخفاض لا يثبت بعد تكوينه في مكان واحد إلا نادرا وتحت ظروف خاصة ، والعادة أنه يسير من الغرب إلى الشرق (في نصف الكرة الشمالي) وتصحبه أثناء سيره التقلبات الجوية التي تتكرر في كل مكان بتكرار مرور هذه الانخفاضات .

وتتفاوت الانخفاضات العرضية من حيث الاتساع والعمق ، فمن حيث الاتساع تتراوح أقطارها ما بين ٣٠٠٠ كيلو متر إلى ما لا يزيد قطره على ٣٠٠ كيلو متر . أما من حيث العمق فقد يهبط الضغط في مركز الانخفاض إلى ٩٣٠ ملليبار وقد يظل عند ١٠٠٠ ملليبار ، ولا يدل عمق الانخفاض على شدته ، وإنما ترتبط شدة الدورة حول الانخفاض ارتباطا وثيقا « بتدرج الضغط » (أى تقارب خطوط الضغط من بعضها) وفي العادة يبلغ تدرج الانخفاض في المتوسط نحو ٥ ملليبار لكل ١٠٠ كيلومتر ويزداد في الانخفاضات النشطة إلى ١٥ ملليبار لكل ١٠٠ كيلومتر ، ويمتد تأثير بعض هذه الانخفاضات أحيانا

من بحر البلطيق شمالا إلى حوض البحر الأبيض المتوسط جنوبا وتدور الرياح حول هذه الانخفاضات في اتجاه مضاد لعقارب الساعة .

ولدراسة الانخفاض من حيث تولده وتحركه ثم امتلاؤه بعد ذلك ، ولإمكان عمل التنبؤات الجوية ، ترسم خرائط الطقس ، وهي خرائط عادية تبين مواقع محطات الرصد وتوقع عليها عناصر الجو لكل محطة ثم ترسم عليها خطوط الضغط المتساوي ، ويتكرر ذلك في ساعات معينة كل يوم وفقا بالنظام الدولي الخاص بالأرصاد .

وترسم خطوط الضغط المتساوي بحيث تتفاوت عن بعضها البعض بمقدار ٢ أو ٤ أو ٥ ملليبارات وتتحدد بذلك مناطق الضغط الخفيف أو الانخفاضات وترسم أيضا إلى جانب ذلك خرائط الجو العلوى وهو تبين توزيع الضغط والحرارة على ارتفاعات معينة وتفيد في أعمال التنبؤ إذ أنها لا تتأثر فيها العناصر الجوية مثل درجة الحرارة واتجاه الرياح وسرعتها بالعوامل المحلية .

وهناك عدة نظريات تشرح تولد الانخفاض العرضي ، ومن أهم هذه النظريات ، وأقربها للحقيقة والواقع ، وأعمها شيوعا نظرية الجبهة القطبية ، وهذه الجبهة هي السطح التخيلي الذي يفصل الغربيات السائدة عن التيارات القطبية الشمالية الشرقية . وتتكون نواة الانخفاض في بادئ الأمر في صورة التواء أو تنوء في هذه الجبهة وينمو هنا التنوء على غرار نمو الدوامات تقريبا ويبدأ الانخفاض مثلا بسطح مستوي يفصل بين تيار شمالي شرقي بارد وآخر جنوبي غربي ساخن نسبيا ثم يندفع الهواء الساخن داخل التيار البارد في صورة تنوء لا يلبث أن ينمو مكونا القطاع الساخن أى حوض الهواء الساخن المتجمع داخل الهواء البارد نسبيا . وتبعاً لذلك تلتوى الجبهة الفاصلة بين الكتلتين في صورة موجة يتميز نصفها الأمامي عن نصفها الخلفي بميزات معينة ، ويسمى النصف الأمامي الجبهة الساخنة والنصف الخلفي الجبهة الباردة . ونقطة تلاقيهما هي مركز الانخفاض . ويتحرك مركز الانخفاض غالبا في اتجاه الرياح داخل القطاع الساخن .

وهناك جبهة مدارية كشفها المؤلف كذلك تتكون عليها الانخفاضات الخماسين في الربيع ، وهواؤها ساخن جدا يعرف بالسموم أو الخماسين التي تنفذ أتربتها إلى العيون والأذان والأنوف والحناجر .

وقد تصل أتربة هذه العواصف إلى بحر البلطيق شمالا . وقد تبلغ النهاية العظمى لدرجة الحرارة فيها ٤٨ أو أكثر في الظل ، كما تصل درجة الرطوبة النسبية حدود ٢ في المائة ، أى منتهى الجفاف ، مما يعمل على هلاك النبات والأحياء من الدواب على السواء ، خصوصا إذا ما ازدادت سرعة الرياح ، وطالت مدتها ، واشتدت حدتها .

والمعروف أو المؤلف أن « الحسومات » فترة من العواصف الحادة التي تهب في موسم الخماسين في الشرق الأوسط ، وربما تميظ لنا هذه الحقيقة اللثام عن تفسير الآية الخاصة بالرياح المعجزة التي أهلكت قوم عاد في قوله تعالى :

﴿ وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية ، سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية ﴾ - الحاقة - .

وعلى أية حال فالمعروف أن رياح الخماسين أهلكت جيش قمبيز وهو في طريقه إلى سيوه عندما كانت عامرة في القدم .

وعموما أى انخفاض عرضي عندما تدخل الجبهة الساخنة يتغير اتجاه الرياح إلى الجنوب أو الجنوب الغربي ، وتسوء الرؤية نوعا ما بحسب محتويات الهواء الساخن من الأتربة ونحوها . وعندما يكون متشبعا بأبخرة المياه تتكون أيضا السحب المنخفضة الممطرة .

أما إذا كان الهواء الساخن غير محمل بأبخرة كافية كما هو الحال في الشرق الأوسط عموما ، حيث يأتى الهواء الساخن من قلب الصحارى ، فإن الجبهة الساخنة قلما يصحبها مطر ، وقد يكون في صورة رذاذ فقط قرب الساحل ، وتنعدم السحب تقريبا وسط القطاع الساخن ، ثم تظهر السحب الركامية المتوسطة الارتفاع باقتراب الجبهة الباردة ، فالسحب الركامية المنخفضة الممطرة نتيجة الحركات الرأسية العنيفة التى تصحب مقدمة هذه الجبهة حيث يتدفق الهواء البارد من آن لآخر إلى السطح فيدفع بالهواء إلى أعلى ، ويتغير اتجاه الرياح إلى الغربى فالشمالى الغربى وتحسن الرؤية ، ويكون المطر في صورة رخات متواصلة أو متقطعة تتوقف شدتها على كميات أبخرة المياه العالقة وعلى مدى استقرار الجو وعدمه في الطبقات العليا .

وفي العادة تسير الجبهة الباردة بسرعة أكبر من سرعة سير الجبهة الساخنة التى في المقدمة ، ولهذا يأخذ القطاع الساخن في التناقص تدريجيا من الخلف ، وتنطبق بذلك أجزاء الجبهة الباردة بأجزاء الجبهة الساخنة القريبة من المركز ويمتد هذا الانطباق تدريجيا كلما انكمشت مساحة القطاع الساخن مكونا جبهة واحدة هى جبهة الامتلاء ولا تزال هذه الجبهة الأخيرة تمتد حتى يختفى القطاع الساخن وبذلك يتم رفع جميع الهواء الساخن إلى أعلى ويختفى القطاع الساخن بحلول الهواء البارد محله . ويصحب هذه الظاهرة في العادة المطر المتواصل في أوروبا .

وهناك أنواع عديدة من الانخفاضات العرضية الأخرى مثل انخفاضات قبرص الجوية التى يرجع السبب الرئيسى في تولدها إلى هبوب تيارات باردة حول الانخفاضات العرضية الممتلئة في شرق البحر المتوسط . وأهم مميزات هذه الانخفاضات تعدد الجبهات الباردة وعدم وجود قطاع ساخن واضح يتبعها ، والمؤلف أول من أطلق عليها هذا الاسم وأحاط عنها اللثام في بحث مفصل .

والحديث عن تقسيم الرياح بمثل هذا التفصيل إنما يصيرنا بآيات الخالق في مجال واحد من مجالات البحث والتنقيب عن أسرار هذه الأرض الذى هو موضوع كتابنا هذا فما بال المجالات الأخرى !! . والحق أن تصنيف الرياح إنما يتم وفق نظام محكم ، هو أساس دراسات الطبيعة الجوية . وإتماما لما قدمنا نقول إن هناك أيضا الارتفاعات الجوية وهى مناطق الضغط العالى ، ويصحبها غالبا طقس هادى جميل . وتكثر فيها ظاهرة هبوط أو تساقط الهواء من أعلى ، ولذا تصفو السماء كما ترتفع درجات الحرارة عموما وخاصة أثناء النهار بالإشعاع الشمسى ، وينشط فيها الإشعاع الحرارى أثناء الليل وتزداد حالات تكون الضباب والندى في الصباح المبكر .

ويمكن أن تقسم الارتفاعات الجوية عموما إلى ثلاثة أنواع :

الارتفاعات الموسمية . ومن أمثلة ذلك ارتفاع سيبيريا الشتوى ، حيث يرتفع الضغط إلى ١٠٥٠

ملليبار (أو ما يعادل نحو ٧٨٠ ملليمتر) وهو لا يضمحل إلا في أواسط الربيع . وكثيرا ما يزحف أثناء الشتاء إلى أوروبا وينشر فيها الصقيع حيث قد تصل درجة الحرارة إلى ٢٥ درجة مئوية تحت الصفر . وهو أيضا قد تزحف أطرافه إلى البلقان وآسيا الصغرى ويعطى نفس الظواهر ثم يسبب إثارة الجوفى الشرق الأوسط عموما ، إذ تولد ألسنة الهواء البارد عند عبورها البحر المتوسط أكثر الانخفاضات الجوية نشاطا ، (هى انخفاضات قبرص الجوية) .

هذا كما أن هنالك الارتفاعات النسبية ، وهى تتواجد بين الانخفاضات وتتحرك عموما بغير انتظام وببطء ، وإذا تحركت سميت « باردة » أما الارتفاعات الجوية الثابتة فهى (دافئة) ذلك لأن حالات الركود وعدم الحركة فيها تجعل ظاهرة هبوط الطبقات العليا أهم عامل لتسخين الهواء تدريجيا بالتضاغط وخاصة في المركز . ويحدث الهبوط عادة بمعدل ثلث كيلو متر في اليوم .

وتوجد أيضا الارتفاعات العرضية ، وهى مناطق من الضغط العالى التى تتكون لمدة قصيرة نسبيا ثم تضمحل دون أن ترتبط بالانخفاضات العرضية .

ومن أمثلة ذلك الارتفاع الذى يقع فوق مصر في الاعتدالين وأغلب فصل الشتاء . أما الأعاصير الاستوائية فهى تتولد في المحيطات الساخنة قرب خط الاستواء أو داخل التجاريات ، وهى تسير معها من الشرق إلى الغرب عموما على عكس الانخفاضات العرضية التى تتولد في مناطق الغربيات السائدة ، وأهم المناطق المشهورة بهذه الأعاصير هى جزر الهند الغربية ، وخليج المكسيك وبحر العرب وبحر الصين وجزائر الفلبين واليابان والمحيط الهندى وشرق جزيرة مدغشقر والمحيط الهادى وشرق أستراليا ويطلق عليها اسم (ولى ولى) ، وتسمى (للتيون) في الصين واليابان والهوكن في الولايات المتحدة ، وقد سبق أن عرفناها باسم النكباء .

ومن أهم الأوصاف الدقيقة التى وردت في القرآن الكريم خاصة بهذه الأعاصير عندما تجتاح السفن وتدهمها عبر المحيط قوله تعالى :

﴿ أو كظلمات في بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ، ظلمات بعضها فوق بعض ﴾ - النور (٤٠) -

ومن الإعجاز العلمى في هذه الآية أن العاصفة تخرج منها أمواج مختلفة الارتفاع (أو السعة) والصفات ، يلاحق بعضها بعضا تحت ظلمة السحاب المنعقد في السماء . ونحن نستطيع من دراسة هذه الأمواج عندما تصل إلى محطاتنا الأرضية الخاصة برصد موج البحر وتحليلها رياضيا أن نحدد مركز العاصفة . وجدير بالذكر أن الرسول (ﷺ) لم يكن قد سافر قط عبر هذه المحيطات حتى يذكر مثل هذا الوصف الدقيق . مما يثبت قطعاً أنه من وحى الخالق العظيم .

ويلاحظ أن جميع مناطق هذه الأعاصير تقع إلى الجانب الغربى من المحيطات ، وليس في الجانب الشرقى منها . وهى تظهر أولا عادة على البحار

وتستمر في عنفوانها إلى أن تدخل اليابس فتضمحل نوعا ما ، ثم تتحول إلى انخفاضات صغيرة تتلاشى سريعا . وتدور الرياح حول الأعاصير كدورتها حول (الانخفاضات) مع ازدياد هائل في

السرعة ثم في تدرج الضغط ، وكثيرا ما يبدأ الإعصار بإتساع يزيد على ٨٠ كيلو مترا ثم يزداد إلى أكثر من ٥٠٠ كيلو متر . وفي مركز الإعصار يسود الهدوء وتنكشف السماء ويهطل المطر في منطقة محدودة هي « عين الإعصار » لا يزيد قطرها على نحو ٣٥ كيلو مترا ، وأهم مميزات الأعاصير غزارة الأمطار ، فقد تهطل مئات المليمترات في بضع ساعات ، وتلعب الحرارة التي تنطلق بعمليات التكاثف هذه دورا هاما في نشاط الإعصار :

وهناك نوع من العواصف يقال له (التورنادو) ، وهذا نوع من الأعاصير الشديدة الصغيرة الحجم ولا يزيد قطرها عموما على نصف كيلو متر ولكنها تشتهر بالتدمير وذلك لشدة هبوط الضغط الجوي فيها ثم سرعة دوران الرياح من حولها : فقد تصل أحيانا إلى ٥٠٠ كيلو متر في الساعة ، وأهم مناطقها وادي نهر المسيسيبي بأمريكا ، وكثيرا ما يصحبها ظهور قمع من السحب يتدلى إلى الأرض . ويستغرق مكثها في أى مكان قبل تحركها إلى مكان آخر نحو ساعة فقط يحدث خلالها تدمير شامل لكل ماتصادفه أو يعترضها على الأرض .

وهنا نحب أن نشير إلى أن أعاصير البحر عندما تدنو من الشواطئ فقد تحدث طوفانات محلية تغرق الأرض ومن عليها ، خصوصا المناطق المنخفضة .

* في الهواء ماء على هيئة بخار *

لاتراه العين

لعل أول كتاب قرر حقيقة أن السحاب الممطر إنما تثيره الرياح هو القرآن الكريم ، وقد كانت الفكرة السائدة في الحضارات القديمة أن المطر يأتي من ماء مخزون في السماء عندما تفتح الآلهة الأبواب والنوافذ !! والآن لندرس قوله تعالى :

١ - ﴿ الله الذى يرسل الرياح فتثير سحابا فيسطه فى السماء ﴾ الروم (٤٨) .

وكذلك قوله تعالى :

٢ - ﴿ وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته حتى إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلدا ميتا - فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون ﴾ - الأعراف ٥٧ -

يظهر لنا مدى الإعجاز العلمى فى الآيتين ، إذا ما تذكرنا أنه فى العهد الذى نزل فيه القرآن الكريم لم يكن أحد من الناس - ربما إلا قلة نادرة - يعرف أن الهواء يحمل مقادير وفيرة من الماء على هيئة بخار ، وأن هذا البخار هو الذى يكون السحب ، ويعطى المطر عندما تندفع تيارات الهواء إلى أعلى ، وتبرد تحت تأثير الانتشار بتقليل ضغط الواقع عليها بالارتفاع .

ويسمى هذا التبريد علميا باسم التبريد الذاتى (أى منه فيه) ، وهو يفسر المبدأ الذى تعمل به ثلاجات الكهرباء ، وتبلغ قيمة التبريد الذاتى من الهواء الصاعد الذى لا يحده التكاثف درجة واحدة سنتجراد لكل ١٠٠ متر ، فإذا ما حدث التكاثف بسبب التبريد ، تهبط قيمة معدل التبريد الذاتى إلى ٦٥ . درجة سنتجراد لكل ١٠٠ متر .

والمعروف علميا أن قدرة الهواء على حمل بخار الماء تقل بانخفاض درجة الحرارة ، وباستمرار

التبريد يحدث التشبع ويعود جزء من بخار الماء العالق في الهواء إلى حالة السيولة (نقط ماء) أو حالة الصلابة (بللورات ثلج) .

ويتم هذا التكاثف عادة على جسيمات خاصة يحملها الهواء تسمى علميا باسم (نوى التكاثف) ، وأغلبها مساحيق دقيقة تذوب في الماء أو تمتصه ، مثل ملح الطعام وكلورود الكالسيوم وثاني أكسيد الكبريت ، وتتجمع جزئيات بخار الماء على هذه النوى مكونة نقطا دقيقة جدا لاتلبث أن تنمو بالتصادم والالتصاق مع بعضها البعض .

وفي الثلجات الكهربائية يعمل المحرك (الموتور) على ضغط نوع معين من الغاز ببطء ويتركه يتمدد فجأة حول صندوق التبريد ، أما في الجوفان التمدد إنما يحدث بالصعود إلى أعلى ، ويضطر الهواء إلى الصعود إلى أعلى تحت تأثير عوامل عديدة مثل التجمع من كل الجهات في صعيد واحد عند سطح الأرض ، ومثل حالات عدم الاستقرار التي يتواجد فيها الهواء البارد الكثيف فوق الهواء الساخن الخفيف ، ومما يعمل على نقص كثافة الهواء إضافة بخار الماء إليه ، فالهواء الرطب أقل وزنا أو كثافة من الهواء الجاف ، الذي في نفس درجة الحرارة وتحت نفس الضغط .

ومما يدلنا على مبلغ مااستحدثته هذه الآية من جديد في ميدان الطبيعة الجوية ، نقول إن قدماء المصريين مثلا كانوا يفاخرون الإغريق بأن النيل الخالد الذي يروى مصر ، إنما يفيض من المحيط الأعظم الذي لاينفد ، أما بلاد الإغريق ، فأغلب ماتعمد على المطر الذي يأتي من ماء مخزون في السماء ، عندما يفتح الآلهة أبواب السماء ، ومامن شك أنه سيأتي يوم ينفد فيه هذا الماء !!
لقد فاتهم - وفات غيرهم - أن الهواء هو الذي يثير السحب ويعطى المطر ، وأن للماء العذب على الأرض دورة مستمرة ، وأنه يتجدد على الدوام ، تحت تأثير الطاقة الشمسية التي تبخر بعض ماء البحر ، وان ماء المطر ، إنما يعود في النهاية إلى البحر عن طريق الأنهار والمياه الجوفية والمطر المباشر ، ولقد ذكر القرآن الكريم تلك الحقيقة ، كما ذكر حقيقة أن الهواء يحمل نوى التكاثف اللازمة لتكوين السحب وأستمرار عمليات التكاثف في إعجاز بليغ أخاذ كما سنبين فيمايلي .

تلقيح الرياح للسحب لتجود بالمطر ،

(نوى التكاثف) ،

دورة الماء ما بين الجو والأرض

تحت هذا العنوان تدخل قائمة هامة من أحدث الحقائق العلمية الرائعة ، التي لم يتوصل إليها الإنسان إلا في عصر النهضة العلمية ، بعد أن اخترع الأجهزة التي يقيس بها عناصر الجو مثل : الضغط الجوى ، ودرجة الحرارة ، ودرجة الرطوبة ، وسرعة الرياح واتجاهها ، الخ . . وبعد أن درست طبيعة السحب الممطرة ، وظهرت فيها المؤلفات العديدة ، نقول بعد كل هذا المجهود العلمى الضخم الذى اشتركت فيه أغلب أمم الأرض ، توصل الإنسان إلى أن عمليات التكاثف داخل السحب ، إنما تحدث على جسيمات صغيرة جدا تحملها الرياح وتعرف باسم (نويات التكاثف) كما ذكرنا . وأهم أنواع هذه

النوى أو النوى ، هى مساحيق ملح الطعام ، وكلورور الكلسيوم التى تتطاير من سطح الأرض والبحر مع تيارات الهواء ، وكذلك ثانى أكسيد الكبريت الناتج من عمليات الاحتراق . ووظيفة هذه النوى تجميع جزئيات بخار الماء مع بعضها لتكون نقطة صغيرة من الماء أو جسيمات من بللورات الثلج ، والذى يغذى مناطق تولد السحب بهذه النوى ، هى الرياح الصاعدة والمحملة بأكداس منها . وعندما تعجز الرياح لسبب ما عن تلقيح السحب بهذه النوى لتجود بالمطر ، يعتمد الناس إلى التلقيح الصناعى باستخدام الطائرات أو المولدات الأرضية ، التى يمكن أن تقذف بالمساحيق إلى أعالي الجو . وتعرف هذه العمليات علميا الآن باسم (المطر الصناعى) ، وأهم المواد التى تستخدم هى يودور الفضة ، أو مسحوق ملح الطعام الصخرى . ويستخدم كذلك ثانى أكسيد الكربون الجاف . وفى الواقع نجد أن نظرية المطر الصناعى وحتى المطر الطبيعى ، هى أكثر تعقيدا من ذلك ، إذ يستغل فيها حقيقة أن الهواء المشبع بالنسبة لنقط الماء السائل يكون فى حالة فوق التشبع ، بالنسبة لبللورات الثلج التى فى نفس درجة الحرارة ، وبذلك تنشط عمليات التكاثف إذا تواجد ثلج جنبا إلى جنب مع نقط الماء البارد ، ويتكون هذا الثلج على نوى التكاثف الصلبة التى على غرار مساحيق ملح الطعام ، أو يودور الفضة أو حتى ثانى أكسيد الكربون الجاف الذى يمكن أن تلقح به السحابة لتلقيحا طبيعيا بواسطة الهواء (ملح الطعام) أو صناعيا بواسطة الطائرات كما قلنا .

وفى الطبيعة يمكن أن تتواجد نقط الماء ، وهى فى حالة السيولة تحت درجات حرارة منخفضة جدا ، قد تصل إلى ٤٠ درجة سنتجراد تحت الصفر ، وعندئذ تسمى نقط الماء فوق المبرد . ويعطى الجدول الآتى ضغط بخار الماء اللازم للتشبع بالنسبة لنقط الماء وبللورات الثلج التى فى نفس درجة الحرارة ، لتبين كيف تكون السحابة المشبعة بالنسبة لنقط الماء فوق المبرد فى حالة من فوق التشبع ، إذا تكون الثلج فيها عن طريق تلقيح السحابة بنوى التكاثف ، وعندما تنمو البللورات الثلجية داخل مناطق نقط الماء فوق المبرد تزداد سرعات تساقطها نسبيا ، فتتصادم مع غيرها من النقط الصغيرة وتلتحم بها ، وهكذا تنمو النقط سريعا ، وتزداد حجوما ، فتساقط على هيئة مطر .

أما الآية التى تقرر كل هذا فى إعجاز أخذ وإيجاز رائع فهى قوله تعالى :

﴿ وأرسلنا الرياح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه ﴾^(١) .

وهكذا تربط الآية الشريفة وتوثق العلاقة بين تلقيح الرياح للسحاب بنوى التكاثف وبين نزول المطر . وثمة معنى آخر هو أن الرياح فى حالة صعودها المستمر ، بسبب إرسالها لتتجمع فى صعيد واحد إنما تمد السحاب ، أو تلقحه ببخار الماء اللازم لنزول المطر . وقد حسب المؤلف مقدار الهواء الذى يصعد فى انخفاضات قبرص الجوية ، فوجده نحو ٧٠ ألف كيلو متر مكعب فى الساعة الواحدة فى المتوسط !!!

وأعجب من كل هذا وأروع أن الآية تمضى فتقول : ﴿ وما أنتم له بخازنين ﴾ ، أى من الماء

الذى ينزل من السماء على هيئة مطر لا يختزنه أحد ، ولا يمكن أن يختزن ، بل هو يتجدد دائما ، إشارة إلى الدورة العظمى لماء الأرض مابين سطحها وسمائها أو غلافها الجوى .

فهل بعد ذلك إعجاز علمى ؟ وهل بعد ذلك يقول قائل : إن هذا القرآن من صنع محمد ؟ ويعود القرآن ليذكر الناس بهذه الحقيقة حين يقول فى سورة الطارق - ١١ - ﴿ والسما ذات المرجع ﴾ أى التى تعود مرتدة إلى الأرض والمراد ماء السحب .

والمطر ، كما هو معروف ، مصدر المياه العذبة على الأرض ، وعليه يتوقف كيان الزراعة التى هى ينبوع الرخاء ومورد الثروة الدائم منذ القدم ، وإذا شحت كمية المطر عن معدلها فى إقليم ما ، أجذبت الأراضى ، وأقحلت المراعى ، ونفقت الماشية ، وقد لاتنصلح حال الإقليم إلا بعد سنوات . وتتوقف أعمال الرى والرعى ، سواء كانت باستخدام المطر المباشر ، أو بالأنهر والترع والقنوات ، على ماتجود به السماء من مطر كل عام .

ومنذ القدم عرف الإنسان البدائى قيمة المطر لحياته وحياة ماشيته ، فكان يعالج شثونه بالسحر والشعوذة . وفى كثير من الشعوب المتحضرة تستخدم الصلاة ، ومنها صلاة الاستسقاء لتجود السماء بالماء ، بعد طول الجفاف واشتداد البلاء .

ولقد ثبت الاستسقاء بالكتاب والسنة - قال تعالى :

﴿ فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا . يرسل السماء عليكم مدرارا ﴾ (١) .

وكان الرسول (ﷺ) يستسقى فيدعو الله تعالى ، ومن دعائه :

(اللهم اسقنا الغيث ولا تجعلنا من القانطين ، اللهم إن بالعباد والبلاد من الجهد والجوع والضعف مالا نشكو إلا إليك ، اللهم أنبت لنا الزرع ، وأدر لنا الضرع ، وأنزل علينا من بركات السماء ، وأنبت لنا من بركات الأرض ، واكشف عنا من البلاء مالا يكشفه غيرك ، اللهم إنا نستغفرك إنك كنت غفارا ، فأرسل السماء علينا مدرارا) .

ويوجه القرآن كذلك أنظارنا إلى أن ماء المطر العذب ؛ يحيى الأرض بعد موتها ، ويعطينا مثلا يتجدد أمام أعيننا ليوم البعث الذى يحيى فيه الله الموتى . ومن الآيات التى تؤدى هذا المعنى قوله تعالى : ﴿ والله الذى أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور ﴾ (٢) .

وهنا مرة أخرى يربط القرآن الكريم بين إرسال الرياح وإثارة السحب المطيرة ، ولقد حسب المؤلف حجم الهواء ، الذى يتجمع ويصعد إلى أعالي الجو عندما تنساب الرياح حول انخفاض قبرص الجوى ، الذى يسبب أمطار الشتاء فى الشرق الأوسط ، فوجده يعادل نحو ٧٠ ألف كيلومتر مكعب فى الساعة الواحدة كما قدمنا .
وعندما ننظر إلى قوله تعالى :

﴿ أفأرأيتم الماء الذى تشربون . أنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون . لو نشاء جعلناه أجاجا فلولا تشكرون ﴾ (٣) .

(١) سورة نوح الآيتان : ١٠ ، ١١

(٢) سورة فاطر آية رقم ٩

(٣) سورة الواقعة الآيات من ٦٨ - ٧٠

نجد أن الظروف الطبيعية التي تؤدي إلى تكوين المزن ، (وهو السحاب الممطر) ونزول المطر لا يمكن أن يصنعها البشر ، بل حتى لاسبيل إلى التحكم فيها ، ولا يزال موضوع المطر الصناعي - أو استمطار السحب العابرة - في مرحلة التجارب التي لم يتم نجاحها بعد . وحتى إذا ماتم نجاحها ، فإنه من اللازم أن توفر الطبيعة الظروف الملائمة للمطر الطبيعي ، حتى يمكن استمطار السماء صناعيا ، أى أن واجب علماء الطبيعة الجوى لا يتعدى قدح الزناد فقط ، بتوليد حالات من فوق التشبع داخل السحب الركامية ، وعلى الأخص داخل مناطق نقط الماء فوق المبرد ، بقذف بعض المواد التي تصلح لتكون نوى تكاثف على هيئة مساحيق أو أبخرة ، مثل ملح الطعام ، أو يودور الفضة ، أو بللورات ثاني أكسيد الكربون ، وتمضى الآية الكريمة فتقول إنه لو شاء الله لجعل ماء المطر ملحا زعانا كماء البحر لا يشرب .

وآيات طبيعة السحب متعددة ، منها على سبيل المثال :

١ - ﴿ هو الذى يريكـم البرق خوفا وطمعا وينشئ السحاب الثقال ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء ﴾ (١) .

إن ثورة الطبيعة التي تلازم الجو العاصف من برق ورعد وصواعق ومطر . . كلها تذكرنا بطاعة الله تعالى خوفا وطمعا . خوفا من عذابه وطمعا فى رحمته - والرعد ، رغم جبروته ، إنما يحدث وفق أمره وحسب سننه وتبعا لحكمته .

٢ - ﴿ الله الذى يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه فى السماء كيف يشاء ويجعله كسفا فترى الودق يخرج من خلاله ﴾ (٢) .

ونحب أن نضيف هنا أن التيارات الهوائية العليا التي تنساب فى أعالي (التروبوسفير) إنما تلعب دورا هاما فى تقلبات الجو على سطح الأرض ، وهذه التيارات لا يمكن أن يتحكم فيها البشر بحال من الأحوال ، كما أنه لم يتم التعرف عليها بالتفصيل إلا فى السنين الأخيرة ، التي استخدم فيها الطيران العالى .

ففى أعقاب الحرب العالمية الثانية ، تم اكتشاف تيارات هوائية عليا تتدفق بسرعة كبيرة داخل أحزمة معينة ، وأطلق عليها اسم (التيارات العليا النفاثه) وأهم هذه التيارات تياران دافقان يكونان إطارين حول الأرض وينساب الهواء فيهما بسرعة تتراوح بين ١٠٠ و ١٥٠ ميلا فى الساعة الواحدة ، على علويقارب ارتفاع « التروبوبوز » أحدهما فى المنطقة المعتدلة الشمالية ، والثانى فى الجنوبية ، وحديثا جدا تم التعرف كذلك على التيار النفاث الاستوائى ، الذى يتدفق من الشرق إلى الغرب ، ويلعب دورا هاما فى الأمطار الموسمية ، ومنها أمطار السودان والحبشة التي ينجم عنها فيضان النيل .

٣ - ﴿ ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات وليذيقكم من رحمته ﴾ (٣) .

والمعروف علميا أن المطر فى أية منطقة على الأرض إنما يصحب هبوب تيارات هوائية معينة على

(١) سورة الرعد الآيتان ١٣ ، ١٤

(٢) سورة الروم الآية رقم ٤٨

(٣) الروم الآية رقم ٤٦

المنطقة . ففي مصر مثلا تقبل الأمطار مع الرياح الشمالية الغربية خلال الشتاء ، وفي السودان تكون الرياح الموسمية الممطرة في الصيف ، هي الجنوبية الغربية أو الجنوبية عموما . . ويمكن التعرف عليها من خواصها .

٤ - ﴿ وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته ﴾^(١) - ، أما رياح الكتل الهوائية الجافة الساخنة المتربة (الصفراء) فمن أوصافها :

٥ - ﴿ ولئن أرسلنا ريحا فرأوه مصفرا لظلوا من بعده يكفرون ﴾ - الروم (٥١) - ، فعندما تحمل الرياح الساخنة الجافة الأتربة والرمال يكون لونها مصفرا ، نظرا لأن الجسيمات الصلبة العالقة فيها تعمل على تشتيت أشعة الشمس الصفراء بدرجة كبيرة فيبدو الجو مصفرا علامة الجفاف والجذب والحر .

٦ - ﴿ إنا أرسلنا عليهم حاصبا ﴾^(٢)

والمراد الرياح الشديدة التى تثير الحصى . والمعروف أن الرياح هى التى تثير الرمال والحصى كلما اشتدت وزادت سرعتها ، فتكون عواصف الرمال والأعاصير . وتتوقف درجة التركيز - أى عدد الحبيبات لكل سنتيمتر مكعب من الهواء - على سرعة الرياح وحجوم الحبيبات المثارة . ولتيارات الهواء الصاعدة أثرها فى رفع الحصى ونقله عبر مسافات كبيرة ، وتعظم هذه التيارات وتشتد فى حالات عدم الاستقرار الجوى ، أو مرور الجبهات الباردة .

قوله تعالى : ﴿ ولقد صرفناه بينهم ﴾ أى ولقد صرفنا المطر بين الناس على أوضاع شتى ، فلا تمر ساعة فى ليل ولا نهار إلا كان فيه دليل على آثار قدرتنا ، فننزله على قوم ونحجبه عن آخرين ، فنحن صرفناه بينهم كما صرفنا الليل والنهار ، فالشمس تجرى من عند قوم وتذهب إلى آخرين : ﴿ صنع الله الذى أتقن كل شيء ﴾^(٣) إلى أن الماء يكون جامدا يشبه الحجر ، وسائل يشبه الزيت وسائر المائعات ، وحينما بخاريا يشبه الهواء ، وهو أيضا غاد ورائح فى الجو وفى الأنهار وفى الغدران وفى أجسام النبات والحيوان والإنسان .

قوله تعالى : ﴿ ليذكروا فأبى أكثر الناس إلا كفورا ﴾

أى صرفناه بينهم ، ليعتبروا ويعرفوا حق النعمة ، فيشكروا ولكن أكثر الناس أبوا إلا جحودا للنعمة وكفرانا بخالقها ، ثم بين منته على رسوله وأنه كلفه الأحمال الثقيل من أعباء النبوة ، ليزداد شرفا ويعظم قدرا فقال : ﴿ ولو شئنا لبعثنا فى كل قرية نذيرا ﴾

أى ولو أردنا أن نرسل رسولا إلى أهل كل قرية لفعلنا وخفت عنك أعباء النبوة ، ولكن بعثناك إلى القرى كلها وحملناك ثقل النذارة ، لتستوجب بصبرك ما أعددناه لك من الكرامة والمنزلة الرفيعة ، فقابل ذلك بشكر النعمة ، وبالثبات والاجتهاد فى الدعوة وإظهار الحق كما قال : ﴿ قل يأيتها الناس إني رسول الله إليكم جميعا ﴾^(٤) .

(١) الأعراف الآية رقم ٥٧

(٢) القمر آية رقم ٣٤

(٣) سورة النمل آية رقم : ٨٨

(٤) سورة الأعراف آية رقم : ١٥٨

وجاء في (الصحاح) (بعثت إلى الأحمر والأسود »^(١) أى إلى العجم والعرب . والخلاصة - إنا عظمناك بهذا الأمر وجعلناك مستقلا بأعبائه ، لتحوز ما دخر لك من عظيم جزائه ، وكبير مثوبته ، فعليك بالمجاهدة والمثابرة ، ولا عليك من تلقيهم الدعوة بالإعراض والمشاكسة .
قوله تعالى : ﴿ فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهادا كبيرا ﴾
أى فلا تطع الكافرين فيما يدعونك إليه من موافقتهم على مذاهبهم وآرائهم وجاهدهم بالشدة والعنف لا بالملاينة والمداراة لتكسب ودهم ومحبتهم ، وعظهم بما جاء به القرآن من المواعظ والزواجر وذكرهم بأحوال الأمم المكذبة لرسالتها ، وذلك منتهى الجهاد الذى لا يقادر قدره .
ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ يا أيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير ﴾^(٢) .

وقوله تعالى : ﴿ يا أيها النبى اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين إن الله كان عليا حكيما . واتبع ما يوحى إليك من ربك إن الله كان بما تعملون خبيرا . وتوكل على الله وكفى بالله وكيل ﴾^(٣) .
وقوله تعالى : ﴿ فلا تطع المكذبين ودوا لوتدهن فيدهنون ﴾^(٤) والقول الفصل ماجاء فى قوله تبارك اسمه : ﴿ قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد ولا أنا عابد ما عبدتم ولا أنتم عابدون ما أعبد . لكم دينكم ولى دين ﴾^(٥) .

الله اكبر إن دين محمد وكتابه أقوى وأقوم قيلا
لاتذكروا الكتب السوالف عنده طلع الصباح فاطفئوا القنديلا

والخلاصة - إنك مبعوث إلى الناس كافة ، لتنذرهم ما بين أيديهم وما خلفهم ، فاجتهد فى دعوتك ، ولا تتوان فيها ، ولا تحفل بوعيدهم فإن الله ناصر دينك ومظهر دينك على الدين كله ولو كره المشركون .

قوله تعالى : ﴿ وهو الذى مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج وجعل بينهما برزخا وحجرا محجورا ﴾
أى ومن آثار نعمته على خلقه أن خلى البحرين متجاورين متلاصقين وجعلهما لا يمتزجان ، ومنع الملح من تغيير عذوبة العذب وإفساده إياه وحجزه عنه بقدرته ، فكأن بينهما حاجزا يمنع أحدهما من إفساد الآخر ، وكأن بينهما ساترا يجعله لا يبغي عليه .

(١) الحديث رواه مسلم فى كتاب المساجد/٣ ، والدارمى فى كتاب السير/٢٨ ، وأحمد فى مسنده ٢٥٠/١ ، ٣٠١ ، ٤١٦/٤ ، ١٤٥/٥ ، ١٤٨ ، ١٦٢ من هذا يتضح أن قوله فى الصحيحين خطأ .

(٢) سورة التوبة آية رقم ٧٣ وسورة التحريم آية رقم : ٩

(٣) سورة الأحزاب الآيات ١ - ٣

(٤) سورة القلم الآيتان ٨ ، ٩

(٥) سورة الكافرون .

والخلاصة - أنه تعالى جعل البحرين مختلطتين في مرأى العين ، منفصلين في التحقيق بقدرته تعالى بحيث لا يختلط الملح بالعذب ولا العذب بالملح ولا يتغير طعم أحدهما بالآخر ولا يفسده .
ونحو الآية قوله في سورة الرحمن : ﴿ مرج البحرين يلتقيان ، بينهما برزخ لا يبغيان فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ (١) .

* مبحث يتعلق بالإعجاز العلمى فى القرآن الكريم *

يقول الدكتور/ ابراهيم عوض فى كتابه (مصدر القرآن - دراسة فى الإعجاز النفسى) .
وقريب من النبوءات المنتشرة فى القرآن ، والتي لم أذكر هنا سوى بعضها ، ماورد فى القرآن أيضا من آيات تتعلق بمعارف علمية : - تاريخية وجغرافية وأحيائية (بيولوجية) وطبية ، وتشريعية ، وكيميائية وطبيعية (فيزيائية) ، وفلكية كان مستحيلا على محمد ، لو لم يكن رسولا مؤيدا بالوحي الإلهى ، ومستحيلا كذلك على أحد فى عصره فى شرق العالم أو غربه أو شماله أو جنوبه ، وبلى وفيما بعد عصره بقرون طوال ، أن يحلم بـله أن يكون على علم بها . وأقل مايمكن أن يقال بالنسبة إلى هذه الحقيقة هو ماخرج به الدكتور موريس بوكاى الطبيب الفرنسى ، من دراسة الكتب الدينية الثلاثة : التوراة والإنجيل والقرآن والمقابلة بينها وبين حقائق العلم الحديث ، إذ قال : « لقد قمت أولا بدراسة القرآن الكريم وذلك دون أى فكر مسبق وبموضوعية تامة ، باحثا عن درجة اتفاق نص القرآن ومعطيات العلم الحديث ، وكنت أعرف هذه الدراسة ، وعن طريق الترجمان ، أن القرآن يذكر أنواعا كثيرة من الظواهر الطبيعية ، ولكن معرفتى كانت وجيزة وبفضل الدراسة الواعية للنص العربى استطعت أن أحقق قائمة أدركت بعد الانتهاء منها أن القرآن لا يحتوى على أية مقولة قابلة للنقد من وجهة نظر العلم الحديث » ليس هذا فحسب بل يمضى العالم الطبيب الفرنسى قائلا : « وبنفس الموضوعية قمت بنفس الفحص على العهد القديم والأنجيل أما بالنسبة للعهد القديم فلم تكن هناك حاجة للذهاب إلى أبعد من الكتاب الأول ، أى سفر التكوين ، فقد وجدت مقولات لايمكن التوفيق بينها وبين أكثر معطيات العلم رسوخا فى عصرنا . وأما بالنسبة للأنجيل فما نكاد نفتح الصفحة الأولى منها حتى نجد أنفسنا دفعة واحدة فى مواجهة مشكلة خطيرة ، ونعنى بها شجرة أنساب المسيح . وذلك أن نص إنجيل متى يناقض بشكل جلى إنجيل لوقا ، وأن هذا الأخير يقدم لنا صراحة أمرا لايتفق مع المعارف الحديثة الخاصة بقدم الإنسان على الأرض .

أما النتيجة التى وصل إليها الدكتور بوكاى فهى هى الحكم الذى أصدره القرآن على هذه الكتب منذ أربعة عشر قرنا ، ودون أن يكون لدى محمد عليه الصلاة والسلام لا الوقت ولا نصوص الكتابين الآخرين ولا المقدره العلمية التى تمكنه من القيام بمثل ماقام به العالم الفرنسى من دراسة . استمع إلى مايقوله الدكتور بوكاى : « إن وجود هذه الأمور المتناقضة وتلك التى لايحتملها التصديق وتلك الأخرى

التي لا تتفق والعلم ، لا يبدو لي أنها تستطيع أن تضعف الإيمان بالله ولا تقع المسئولية فيها الا على البشر .

ولا يستطيع أحد أن يقول كيف كانت النصوص الأصلية ومانصيب الخيال والهوى في عملية تحريرها ، أو مانصيب التحريف المقصود من قبل كتبة هذه النصوص ، أو مانصيب التعديلات غير الواعية التي أدخلت على الكتب المقدسة . ثم يعود الدكتور بوكاي إلى الحديث عن دراسته التطبيقية على القرآن الكريم فيقول : « أما الجزء الثالث (يقصد من كتابه) فسيجد فيه القارىء أمثلة توضيحية لتطبيق العلم على دراسة أحد الكتب المقدسة وهو تطبيق لم يكن ليتوقعه الإنسان .

كما سيجد القارىء في ذلك بيانا لما قد جاء به العلم الحديث ، الذى هو فى متناول كل يد من أجل فهم أكمل لبعض الآيات القرآنية التي ظلت حتى الآن مستغلقة أو غير مفهومة . ولا عجب في هذا إذا عرفنا أن الإسلام قد اعتبر دائما أن الدين والعلم توأمان متلازمان . وأنا إذ أستشهد بالدكتور بوكاي ، لأعنى أن أحدا لم يسبقه إلى مثل هذه الدراسة ، فالعلماء المسلمون يفعلون ذلك منذ عشرات السنين ولكن قصدت أن أقول إن الدراسة العلمية للقرآن الكريم ، وهى فقط أحد الجوانب التي يمكن أن يدرس منها هذا الكتاب الإلهي ، قد أدت بهذا العالم . إلى الدخول في دين الإسلام . ولست أنوى أن أناقش كل الآيات المتعلقة بالعلم في القرآن المجيد فما أكثر الكتب التي قامت ، كما قلت آنفا ، بهذه المهمة ، وإن غالى بعضها في الربط بين حقائق العلم الحديث ونظرياته وبعض الآيات ، التي يصعب على الدارس الموضوعي الذي لا يغلبه تحمسه لدينه على نفسه أن يرى فيها شيئا قاطعا أو على الأقل واضحا يربطها بالحقائق العلمية الثابتة ، ودعك من بعضهم الذين يرون في بعض الآيات أشياء لا وجود لها ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، وإنما سأكتفى بمجرد ذكر عدد من الآيات التي بهذا الشكل وسأقف عند بعضها مستأنيا بعض الشيء . اقرأ مثلا هذه الآيات الكريمة ، وراجع بنفسك تفسيرها في ضوء حقائق العلم الحديث : ﴿ ويسألونك عن المحيض . قل : هو أذى . فاعتزلوا النساء في المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن .. ﴾ (١) .

﴿ وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته حتى إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات ﴾ (٢)

﴿ وينزل من السماء من جبال فيها من برد ﴾ (٣)

﴿ وإن لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بطونه من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين .. ﴾ (٤) .

﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة في قرار مكين . ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاما ، فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ (٥)

(٣) سورة النور آية : ٤٣

(٤) سورة النحل آية : ٦٦

(٥) سورة المؤمنون الآيات : ١٢ - ١٤

(١) سورة البقرة آية : ٢٢٢

(٢) سورة الأعراف آية : ٥٧

﴿ وجعلنا من الماء كل شيء حي ﴾^(١) ﴿ يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق في ظلمات ثلاث ﴾^(٢) ﴿ والشمس تجري لمستقر لها . ذلك تقدير العزيز العليم . والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم . لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار . وكل في فلك يسبحون ﴾^(٣) .

﴿ فلينظر الإنسان مم خلق . خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والثرائب ﴾^(٤) . ولنعد مرة ثانية إلى الدكتور بوكاي ، الذي يقول : « ومن الثابت فعلا أنه في فترة تنزيل القرآن . . كانت المعارف العلمية في مرحلة ركود منذ عدة قرون ، كما أن عصر الحضارة الإسلامية النشط مع الازدهار العلمي الذي واكبها كان لاحقا لنهاية تنزيل القرآن . إن الجهل وحده بهذه المعطيات الدينية والدينية هو الذي يسمح بتقديم الاقتراح الغريب الذي سمعت بعضهم يصوغونه أحيانا والذي يقول إنه إذا كان القرآن فيه دعاوى ذات صفة علمية مثيرة للدهشة ، فسبب ذلك هو تقدم العلماء العرب على عصرهم ، وأن محمدا ﷺ بالتالي قد استلهم دراساتهم . إن من يعرف ولو سيرا تاريخ الاسلام يعرف أيضا أن عصر الازدهار الثقافي والعلمي في العالم العربي في القرون الوسطى لاحق لمحمد ﷺ ، ولن يسمح لنفسه بإقامة مثل هذه الدعاوى الوهمية . فلا محل لأفكار من هذا النوع ، وخاصة أن معظم الأمور العلمية الموحى بها أو المصوغة بشكل بين تماما في القرآن لم تتلق التأييد إلا في العصر الحديث . من هنا ندرك كيف أن مفسري القرآن ربما في ذلك مفسرو عصر الحضارة الإسلامية العظيم ، قد أخطأوا حتما وطيلة قرون ، في تفسير بعض الآيات التي لم يكن باستطاعتهم أن يفطنوا إلى معناها الدقيق .

وهنا نصل إلى الآيات التي ذكرت آنفا ، إنني أحب أن أستأنى عندها قليلا ، فقد وجدت في التفاسير القديمة ما يؤكد هذا الذي يقوله الدكتور بوكاي ، ففي تفسير قوله تعالى : ﴿ وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذ من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون . ثم كل من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللا . يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس ﴾^(٥) .

يقول الشريف الرضي : « والعسل عند المحققين من العلماء غير خارج من بطون النحل ، وإنما تنقله بأفواهها من مساقطه ومواقعه من أوراق الأشجار وأصناف النبات ، لأنه يسقط كسقوط الندى في أماكن مخصوصة وعلى أوصاف معلومة ، والنحل تتبع تلك المساقط ، وتعهد تلك المواقع فتنتقل العسل بأفواهها إلى كوراتها والمواضع المعدة لها فقال سبحانه ﴿ يخرج من بطونها ﴾ والمراد « من جهة بطونها » وجهة بطونها أفواهها .

وهذا من غوامض هذا البيان وشرائط هذا الكلام فانظر كيف أن العلماء المحققين في عصر الشريف الرضي (القرن الخامس الهجري) يقررون أن

(١) سورة الأنبياء آية : ٣٠

(٢) سورة الزمر آية ٦

(٣) سورة يس ٣٨ - ٤٠

(٤) سورة الطارق الآيات : ٥ - ٧

(٥) سورة النحل الأيتان : ٦٨ ، ٦٩

العسل لا يخرج من بطون النحل ومن ثم هو قوله تعالى : ﴿ يخرج من بطونها شراب .. ﴾ مجازات القرآن التي أدار عليها كتابه الذي اقتبسنا منه النص السابق ، والصواب هو ما قاله القرآن من أن العسل يخرج فعلا من بطون النحل التي تجمع الرحيق ، ويتحول في معدتها إلى عسل تقوم بافرازه بعد ذلك .

وفي خطأ مشابه يقع الإمام الباقلاني ، إذ يعد قوله تعالى : ﴿ والله خلق كل دابة من ماء .. ﴾ ^(١) نوعا من التعميم في التعبير ، فقد ظن أن القرآن حينما قال : إن كل الدواب مخلوقة من ماء لم يقصد أنها كلها كذلك بل بعضها فقط ، ولكنه عم القول . فماذا يقول علماء العصر الحديث ، الذين قتلوا هذه المسألة بحثا .

الثابت بالتحديد أن أصل الحياة مائي ، وأن الماء هو العنصر الأول المكون لكل خلية حية ، فلا حياة ممكنة بلا ماء . وإذا مانوقشت إمكانية الحياة على كوكب ما فإن أول سؤال يطرح هو : أيتحتوى هذا الكوكب على كمية كافية من الماء للحياة عليه ؟

والطريف أن الباقلاني قال ذلك دفاعا عما ظنه الملحدون في عصره مطعنا في القرآن الكريم . وهذا نص كلامه « وأما قوله عز وجل : ﴿ والله خلق كل دابة من ماء .. ﴾

قال الملحدون : وفي هذه الآية ! حالة من وجوه ! أحدها أنه خلق كل دابة من ماء وليس الأمر كذلك ، لأن منها ما يخلق من بيض وتراب ونطف .. والجواب أن قوله « كل » لا يقتضى استغراق الجنس بل هو صالح للتعميم والتخصيص . ولو ثبت العموم لجاز تخصيصه إذ علمنا أن من الدواب ما لم يخلق من ماء . على أن من الناس من يقول : أصل الأشياء كلها أربع : الماء والهواء والنار والأرض وكل دابة مركبة من بلة ورطوبة »

والآيتان السابقتان وتعليق الشريف الرضى والباقلاني عليهما لايحتاجان إلى تعقيب ، اللهم إلا القول بأن هذين العالمين قد أتيا بعد سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام بعدة قرون أحرز المسلمون أثناءها تقدما علميا كبيرا جدا بالقياس إلى معارف العرب بل والعالم كله في عصر الرسول ، ومع ذلك فالقرآن على صواب ، وهذان العالمان ، وهما يعكسان معارف عصريهما ، هما المخطئان .

ويمكن أن نلحق بهاتين الآيتين قوله تعالى : ﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد في السماء .. ﴾ ^(٢) .

فقد فسر البيضاوى ، وهو مفسر متأخر نسبيا (عاش في القرن الثامن الهجرى) ، عبارة « كأنما يصعد في السماء على النحو التالى : « شبهه (أى شبه الله من يريد أن يضله) مبالغة في ضيق صدره بمن يزاول ما لا يقدر عليه ، فإن صعود السماء مثل فيما يبعد عن الاستطاعة . ونبه به على أن الإيمان يمتنع منه كما يمتنع الصعود . وقيل : معناه : كأنما يتصاعد إلى السماء نبوا عن الحق وتباعدة في الهرب منه . أما تفسير الآية في ضوء مكتشفات العلم التجريبي ، فهو أن الذى يضله الله يشعر بنفس ضيق الصدر

١ - سورة النور آية رقم / ٤٥

٢ - سورة الأنعام آية رقم / ١٢٥

الذى يحسه الصاعد فى طبقات الجو العليا حيث الهواء مخلخل فلاتجد الرثتان كفايتهما من الهواء والأكسجين . وأنا ، وإن لم أكن متخصصا فى أى فرع من العلوم الطبيعية ، يصعب على أن أوافق الدكتور موريس بوكاى ، الذى يؤكد أن هذه الآية تعبر عن فكرة عادية تماما ، والذى يخالف من يقولون إن فكرة ضيق التنفس كانت مجهولة عند العرب فى عصر الرسول عليه السلام ، لأن وجود مرتفعات عالية تربو على ٣٠٠٠ متر فى شبه الجزيرة العربية يجعل من غير المنطقى فى الآية ، القول بجهل صعوبة التنفس الناشئة عن الارتفاع .

وتنهض مخالفتى للدكتور بوكاى على أساس أن الآية تتحدث عن « التصعد فى السماء » وهو ما لم يكن متاحا لأى إنسان فى عصر الرسول عليه السلام (بغض النظر عن حادث المعراج) ولا فيما بعده ببضعة عشر قرنا لا « التصعيد فى الجبال » كما يفيد كلامه .

كذلك فإن الرسول عليه السلام ، كما نعرف من سيرته الشريفة ، لم يصعد غير جبلى حراء وثور ، أولهما فى فترة التحنث السابقة على البعثة ، والثانى فى طريقه هو وأبى بكر إلى يثرب . . ولم ترد فى السيرة أية إشارة ، ولو من بعيد ، إلى أى أثر لهذا الصعود على جهازه التنفسى عليه السلام . بل إنى لأذكر أن أحدا من كتاب السيرة فى العصر الحديث الشديد على تسجيل كل ما يعترهم أثناء ذلك من تأثيرات عضوية أو نفسية . ولم يثبت أن الرسول ﷺ قد زار صنعاء التى يشير إليها الدكتور (بوكاى) بل إنى أستبعد أن يكون سكان مثل هذه المدن العالية فى ذلك العصر ، حتى لو كانوا أحسوا بشيء من هذا ، قد تنبهوا إلى السبب الحقيقى لذلك .

وأحب أن أكرر القول ، كيلا ننسى ، أن القرآن يتحدث عن « التصعد فى السماء » لا « التصعد فى الجبال »

ثم ها هى ذى كتب التفسير القديمة ، لاتجدها حين تبلغ هذه الآية إلا تقول ، إن المقصود هو أن الكافر الذى أغلق قلبه يستحيل عليه الإيمان ، كما يستحيل على أى بشر أن يصعد فى السماء ، وهو ما يدل دلالة قاطعة على أن فكرة ضيق التنفس المشار إليها كانت مجهولة لدى هؤلاء المفسرين الذين كانوا بلا شك يعيشون فى ظل حضارة متقدمة أعظم التقدم بالقياس إلى الحياة البدائية التى كان يحياها عرب الجاهلية وعصر المبعث .

وثمة آية أخرى أراى ، رغم عدم تخصصى كما سلف القول فى أى من العلوم الطبيعية ، مضطرا إلى أن أخالف فى تفسيرها الدكتور بوكاى الذى يكرر كلام المفسرين القدامى . وهذه هى ﴿ وهو الذى مرج البحرين . هذا عذب فرات ، وهذا ملح أجاج وجعل بينهما برزخا وحجرا محجورا ﴾ وفى تفسيرها يقول د . بوكاى : « معروفة تلك الظاهرة التى كثيرا ماتشاهد عن عدم الاختلاط الفورى لمياه البحر المالحة بالمياه العذبة للأنهار الكبيرة ، ويرى البعض أن القرآن يشير إليها لعلاقتها بمصب نهري دجلة والفرات ، الذين يشكلان بالتقائهما جسرا ، إذا جاز القول ، طوله أكثر من ١٥٠ كم ، هو شط العرب . وفى الخليج ينتج تأثير المد ظاهرة طيبة هى انحسار الماء العذب إلى داخل الأراضى وذلك يضمن ريا طيبا .

والحقيقة أن هذا التفسير غير مقنع . فمن الناحية اللغوية يصعب على أن أوافق العالم الفرنسى ومفسرينا القدامى ، على أن أداة التعريف فى « البحرين » هنا هى للعهد ، الذى قيل على أساسه إن « البحرين » المذكورين هما دجلة والفرات ، إن الآيات السابقة تتحدث عن الظل (الظلام) والرياح والماء والأنعام والأناسى ، وهى مفاهيم عامة لاتشير إلى ظلام بعينه ، ولأرياح بعينها ، ولا ماء معين ، ولا أنعام ، ولا أناسى مخصوصة ، فلم يقال إذن إن « البحرين » هناهما بحران معينان (دجلة والفرات) ؟ إن السياق الذى وردت فيه هذه الكلمة هو سياق عام ، ومن ثم فإن بلاغة الكلام تقتضى أن يكون (البحرين) أيضا هما « النهر والبحر » بإطلاق أى أن (الـ) فيهما هى (الـ) الجنس لا العهد ، فهذا من ناحية اللغة والبلاغة ، فضلا عن ذلك ، فإن ماء النهر مهما توغل بقوة اندفاعه إلى مدى بعيد فى داخل البحر أو المحيط ، يختلط فى النهاية بمائهما ، ومن ثمة كان ظاهر الأمر ، أن النهر ييغى فى البداية على البحر (عندما شق ماءه المالح وأزاحه عن طريقه) ليعود البحر فييغى فى النهاية عليه (عندما اختلط ماؤه العذب بماء البحر المالح الذى أفقده خاصية العذوبة وأعطاه بدلا منها ملوحته) فأين البرزخ إذن والحجر المحجور ، أما المنتخب فى تفسير القرآن الكريم ، فإنه يقول فى هامش خصصه للتعليق على هذه الآية ، إنها ربما (تشير إلى نعمة الله على عباده ، بعدم اختلاط الماء المالح المتسرب من البحار فى الصخور القريبة من الشاطئء بالماء العذب المتسرب إليها من البر اختلاطا تاما ، بل إنهما يلتقيان مجرد تلاق : يطفو العذب منهما فوق المالح ، كأن بينهما برزخا يمنع بغي أحدهما على الآخر وحجرا محجورا ، أى حاجزا خفيا مستورا لانراه . لكن ثمة نقطة هامة يبدو لى أن كاتبى هذا التعليق ، على رغم جدته وطرافته (بالنسبة لى على الأقل) قد أغفلوها ، إذ إن الماء العذب والماء المالح اللذين يلتقيان فى الشقوق على هذا النحو لايمكن تسميتهما بحرین .

ثم إذا كان الماءان فى هذه الظروف لايلتقيان ، فإنهما فى عرض البحر والمحيط يلتقيان ويتمازجان ويصبحان فى النهاية ماء واحدا ، كما قلنا من قبل ، يبدو لى ، والله أعلم ، أن البرزخ المذكور فى هذه الآية ، هو القوانين التى بمقتضاها بقى كل من الماء العذب والمالح ، كل هذه الدهور المتطاولة التى لا يعلم مداها إلا الله ، وسيبقىان إلى أن يرث الله الأرض والسماوات ، فالأنهار تصب فى البحار والمحيطات ، وكان المفروض لو أن الأمر انتهى عند هذا الحد ، أن يختلط الماءان اختلاطا دائما ، فلا ينفصلا بعد ذلك أبدا ، ويصبح كل الماء الموجود على سطح الأرض ماء ملحا .

بيد أن التقدير الإلهى ، قد شاء أن يقوم البحر بحمل الماء من البحار والمحيطات ، فتسوقه الرياح ليسقط على الجبال ، وينحدر إلى الأنهار ماء عذبا كما كان وهكذا دواليك ، وهكذا أيضا يبقى الماء العذب والماء المالح ، ويتعايش البحرين دون أن ييغى أحدهما على الآخر ، ويقضى عليه ، فهذا هو البرزخ وهذا هو الحجر المحجور فيما أفهم . والله أعلم .

ثم يستطرد الباحث قائلا : -

ونأتى الآن إلى آخر آية أحب أن أترث عندها قليلا ، وهى قوله تعالى : ﴿ وما يستوى البحرين : هذا عذب فرات سائغ شرابه ، وهذا ملح أجاج . ومن كل تأكلون لحما طريا وتستخرجون

حلية تلبسونها ﴿١﴾ .

مأكثر ما قرأت هذه الآية ولكن لم ألفت إلى ما تنبّهت إليه وأفزعني منذ فترة ليست بالبعيدة ، وهو ما تؤكد الآية من أن الحلى تستخرج من النهر والبحر كليهما ، إذ أن الذى كنت أعرفه حتى ذلك الوقت هو أن اللؤلؤ والمرجان (المذكورين فى آية متشابهة فى سورة « الرحمن »)

لا يوجدان إلا فى البحار . وقفز السؤال إلى عقلى على الفور مفزعا « أيمكن أن يكون القرآن قد أخطأ ؟ » . إن ثمة آية أخرى متشابهة فى سورة « الرحمن » ولكنها لا تثير آية مشاكل ، فنصها هو :

﴿ مرج البحرين يلتقيان . بينهما برزخ لا يبغيان . فبأى آلاء ربكما تكذبان . يخرج منها اللؤلؤ والمرجان ﴾ ومعناه أن اللؤلؤ والمرجان يخرجان من مجموع البحرين لا من كل منهما ، كما تقول : « إن

فى يدى هاتين مائة جنيه ، ويكون المبلغ كله فى اليد الأولى بينما الثانية خلوت تماما من أى نقود ، ولا تكون قد عدوت الحقيقة . أما آية سورة « فاطر » فإنها تقول بصريح العبارة ﴿ ومن كل . . وتستخرجون

حلية تلبسونها ﴾ ولم يسعنى ما عندى من تفاسير قديمة فأخذت أقلب نظرى فى أرفف مكتبتى فأجد فيها شفاء نفسى ، إذ يذكر المترجم - رحمه الله - (فى تعليقه على هذه الآية فى الهامش) من الحلى البحرى

اللؤلؤ والمرجان ، ومن الحلى النهري العقيق وبرادة الذهب وغيرهما ، ثم رجعت بعد ذلك إلى دائرة المعارف البريطانية .

(مادة Pearl)

والمنتخب من تفسير القرآن الكريم « فوجدت أن اللؤلؤ يوجد أيضا فى المياه العذبة . وكان الكتاب الأخير يرد على حيرتى إذ يقول :

« وقد يستبعد بعض الناس أن تكون المياه العذبة مصدرا للحلى ، ولكن العلم والواقع أثبتا غير ذلك . أما اللؤلؤ فإنه كما يستخرج من أنواع معينة من البحر ، يستخرج أيضا من أنواع معينة أخرى من الأنهار ، فتوجد اللآلىء فى المياه العذبة فى إنجلترا واسكتلندا وويلز وتشيكوسلوفاكيا واليابان . . الخ ، بالإضافة إلى مصايد اللؤلؤ البحرية المشهورة ، ويدخل فى ذلك ما تحمله المياه العذبة من المعادن العالية

الصلادة كالماس ، الذى يستخرج من رواسب الأنهار الجافة المعروفة باليرقة . ويوجد الياقوت كذلك فى الرواسب النهرية فى موجوك بالقرب من باندالاس فى بورما العليا . أما فى سيام وفى سيلان فيوجد الياقوت غالبا فى الرواسب النهرية . ومن الأحجار شبه الكريمة التى تستعمل فى الزينة حجر التوباز ويوجد فى الرواسب النهرية فى مواقع كثيرة ومنتشرة فى البرازيل وروسيا (الأورال وسيبيريا) وهو فلور سيليكات الألمونيوم ويغلب أن يكون أصفر أو بنيا والزيركون CIRON - حجر كريم جذاب تتقارب خواصه من خواص الماس ، ومعظم أنواعه الكريمة تستخرج من الرواسب النهرية ، وحتى يقدر القارئ رد فعل الأولى حق قدره أذكر له أنه حتى بعض المترجمين الأوروبيين فى العصر الحديث ، قد استبعدوا أن تكون الأنهار مصدرا من مصادر الحلى ، وقد تجلّى هذا فى ترجمتهم لهذه الآية ، فمثلا نرى رودويل الإنجليزى يترجم الجزء الخاص بالحلى منها هكذا :

Yet from bath yoeat drerh jish, and take jarth for you atname nts to wear .
 فعبارة (fram bath) تصلح لترجمة آية سورة الرحمن لا هذه الآية ، كذلك ينقل رودى باريت هذه العبارة إلى الألمانية على النحو الآتى :

Aus beiden est ihr jrisches Fleirch إلى هنا والترجمة صحيحة ، فهذه العبارة تقابل بالضبط قوله تعالى : ﴿ ومن كل تأكلون لحما طريا ﴾ وإن كان استخدم فى مقابل « طريا » كلمة " Irisch " ومعناها الدقيق « طازج » لكن تنبه لترجمته للجزء الآتى الذى يقول فيه :

Umd (aus dem S alzmeer)geurmmt ihr Schwuck um ihm euch anzulegen .
 والذى ترجمته : « وتستخرجون (من البحر المالح) حلية تلبسونها . ويرى القارئ أن المترجم قد

أضاف من عنده بين قوسين عبارة : « من البحر المالح (aus dem Salzmeer) وهو مايوحى باستبعاده أن تكون الأنهار مصدرا من مصادر اللؤلؤ والعقيق ، وغيرهما من أنواع الحلى على ما تقول الآية الكريمة .

(أما ترجمتا سيل وبالم (الانجليزيتان) وترجمتا كاز يمريسكى وماسون (الفرنسيتان) وكذلك

ترجمتا ماكس هنج ومولانا صدر الدين (الألمانيتان) على سبيل المثال فقد ترجمت كل النص القرآنى كما هو ولكنها لظمت الصمت فلم تعلق بشيء .

ويرى القارئ من هذه الآية بالذات كيف ان القرآن قبل أربعة عشر قرنا ، قد أشار إلى حقيقة يستبعدوها واحد مثلى يعيش فى القرن العشرين ، وآخرون مثل المستشرق الانجليزى رودويل ونظيره

الألمانى روى باريت فكيف عرفها محمد إذن وأداها بهذه البساطة لو كان هو مؤلف القرآن ، وبخاصة أن الأنهار التى ذكر أن اللؤلؤ وغيره من الأحجار الكريمة وشبه الكريمة ، تستخرج منها تقع فى بلاد سحيفة بالنسبة للجزيرة العربية ، بل إن بعضها كالبرازيل مثلاً لم تكتشف إلا فى العصور الحديثة ؟ أخشى ما أخشاه إذا تنبه المستشرقون لأهمية هذه الآية ؟ أن يزعموا أن سيدنا رسول الله - ﷺ - قد قام برحلات إلى هذه البلاد خفية فى الفترات التى كان يدعى فيها لزوجته أنه ذاهب إلى غار حراء للتحنث . أما كيف كان ذلك فليست هذه مشكلتهم .

قوله تعالى : ﴿ وهو الذى خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا وكان ربك قديرا ﴾ أى خلق الإنسان من نقطة ضعيفة ، فسواه وعدله وجعله كامل الخلقه ذكرا وأنثى كما يشاء . ﴿ فجعله نسبا وصهرا ﴾ فهو فى ابتداء أمره ولد نسيب ثم يتزوج فيصير صهرا ثم يصير له أصهار وأختان وقربات ، وكل ذلك من ماء مهين ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وكان ربك قديرا ﴾

* لا معبود إلا الله *

وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾
وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ
إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ
عِبَادِهِ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى
الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ
أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴿٦٠﴾ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا
سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ
شُكُورًا ﴿٦٢﴾

* معانى المفردات *

الظهير والمظاهر : المعاون فهو يعاون الشيطان على ربه أى على رسوله بالعداوة .

وسبح بحمده : أى ونزهه وصفه بصفات الكمال ويقال كفى بالعلم جمالا : أى حسبك فلا تحتاج معه إلى غيره . والخبير بالشئ : العليم بظاهره وباطنه وبكل مايتصل به . والبروج : منازل السيارات الأثنى عشر المعروفة التى جمعها بعضهم فى قوله .

حمل الثور جوزة السرطان ورعى الليث سنبل الميزان
ورمى عقرب بقوس الجدى نزع الدلو بركة الحيتان

فهى الحمل والثور والجوزاء والسرطان والأسد والسنبله والميزان والعقرب والقوس والجدى والدلو والحوث وهى منازل الكواكب السيارة السبعة وهى : المريخ وله الحمل والعقرب، والزهرة ولها الثور والميزان، وعطارد وله الجوزاء والسنبله، والقمر : وله السرطان، والشمس ولها الأسد، والمشتري وله القوس والحوث، وزحل : وله الجدى والدلو .
وهى فى الأصل القصور العالية فأطلقت عليها على طريق التشبيه

والسراج : الشمس .
خلفه : أى يخلف أحدهما الآخر ويقوم مقامه فيما ينبغى أن يعمل فيه .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن بسط سبحانه أدلة التوحيد ، وأرشد إلى مافى الكون من باهر الآيات ، وعظيم المشاهدات ، التى تدل على بديع قدرته ، وجليل حكمته ، أعاد الكرة مرة أخرى وبين شناعة أقوالهم وقبيح أفعالهم ، إذ هم مع كل مايشاهدون لايرعون عن غيهم ، بل هم عن ذكر ربهم معرضون ، فلا يعظمون إلا الأحجار والأتان ، وما لاينفع فيه إن عبد وما لاضر فيه ان ترك إلى أنهم يظاهرون أولياء الشيطان ويناثون أولياء الرحمن ، ولأن تعجب لشيء فاعجب لأمرهم ، فقد بلغ من جهلهم أنهم يضارون من جاء لنفعهم ، وهو الرسول الذى يبشرهم بالخير العميم . إذا هم أطاعوا ربهم ، وينذرهم بالويل والثبور إذا هم عصوه ثم هو على ذلك لايتغنى أجرا .

ثم أمر رسوله ألا يرهب وعيدهم ، ولا يخشى بأسهم ، بل يتوكل على ربه ، ويسبح بحمده ، وينزهه عما لايليق به من صفات النقص كالشريك والولد وهو الخبير بأفعال عباده فيجازيهم بما يستحقون .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ ويعبدون من دون الله مالا ينفعهم ولا يضرهم ﴾ أى ومن قبائح هؤلاء أنهم بعد ظهور الأدلة ، وقيام البراهين ، ونصب الآيات التكوينية ، عبدوا من دون الله آلهة لا يخلقون شيئا وهم يخلقون ، ولا يملكون لانفسهم ضرا ولا نفعا ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا .

نعم عبدوا مالا ينفعهم لو عبدوه ولا يضرهم إذا تركوا عبادته ﴿ واتخذوا من دونه آلهة ليكونوا لهم عزا كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا ﴾ (١) .
﴿ قال أتعبدون ما نتحتون والله خلقكم وما تعملون ﴾ (٢) .

وقال سبحانه ﴿ واتل عليهم نبأ إبراهيم إذ قال لأبيه وقومه ماتعبدون قالوا نعبد أصناما فنظّل لها عاكفين قال هل يسمعونكم إذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون قال أفأنتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون فإنهم عدو لى إلا رب العالمين الذى خلقنى فهو يهدين والذى هو يطعمنى ويسقنى وإذا مرضت فهو يشفين والذى يمتننى ثم يحيين والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين ﴾ (٣) .
سبحانك ربى :

مافى الوجود سواك رب يعبد	كلا ولا مولى هناك فيقصد
يامن له عنت الوجوه بأسرها	رهبا وكل الكائنات توحد
انت الإله الواحد الحق الذى	كل القلوب له تقرر وتشهد

سبحانه .

﴿ يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى ذلكم الله ربكم له الملك والذين تدعون من دونه ما يملكون من قمطير إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير ياأيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغنى الحميد إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز ﴾ (٤) .
قوله تعالى : ﴿ وكان الكافر على ربه ظهيرا ﴾

قال العلامة ابن القيم :

هذا من ألطف خطاب القرآن وأشرف معانيه ، وأن المؤمن دائما مع الله على نفسه وهواه وشيطانه

(٣) سورة الشعراء الآيات : ٦٩ - ٨٢

(٤) سورة فاطر الآيات : ١٣ - ١٤

(١) سورة مريم الآيتان رقم : ٨١ ، ٨٢

(٢) الصفات الآيتان رقم : ٩٥ ، ٩٦

وعدوربه ، وهذا معنى كونه من حزب الله وجنده وأوليائه ، فهو مع الله على عدوه الداخل فيه والخارج عنه ، يحاربهم ويعاديهم ويبغضهم له سبحانه ، كما يكون خواص الملك معه على حرب أعدائه والبعيدون منه فارغون من ذلك غير مهتمين به ، والكافر مع شيطانه ونفسه وهواه على ربه .
وعبارات السلف على هذا تدور ، وقد ذكر ابن أبي حاتم عن عطاء بن دينار عن سعيد بن جبير قال : عوننا للشيطان على ربه بالعداوة والشرك .

وقال ليث ومجاهد : يظاهر الشيطان على معصيته الله يعينه عليها . وقال : زيد بن اسلم : ظهيرا أى مواليا .

والمعنى : أنه يوالى عدوه على معصيته والشرك به ، فيكون مع عدوه معينا له على مساخط ربه ، فالمعية الخاصة التى للمؤمن مع ربه وإلهه ، قد صارت لهذا الكافر والفاجر مع الشيطان ومع نفسه وهواه وملذاته .

ولهذا صدر الآية بقوله : ﴿ ويعبدون من دون الله مالا ينفعهم ولا يضرهم ﴾ وهذه العبارة هى الموالاة والمحبة والرضا بمعبوديتهم المتضمنة لمعيتهم الخاصة لهم .
فظاهر أعداء الله على معاداته ومخالفته ومساخطه ، بخلاف وليه سبحانه ، فإنه معه على نفسه وشيطانه وهواه .

وهذا المعنى من كنوز القرآن لمن فهمه وعقله .

قوله تعالى : ﴿ وما أرسلناك إلا مبشرا ونذيرا ﴾

نعم مبشرا بالجنة ، ونذيرا للعصاة بالنار ، فأنت النبى المجتبى ، والرسول المختار ، الذى زكى الله عقله فقال : ﴿ ماضل صاحبكم وماغوى ﴾ ، وزكى لسانه فقال : ﴿ وماينطق عن الهوى ﴾ وزكى شرعه فقال :

﴿ إن هو الا وحى يوحى ﴾ وزكى معلمه فقال : ﴿ علمه شديد القوى ﴾ وزكى فؤاده فقال : ﴿ ماكذب الفؤاد ما رأى ﴾ .

وزكى بصره فقال : ﴿ مازاغ الصبر وماطغى ﴾ وزكى رسالته فقال :

﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ وزكاه كله فقال : ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ .

سيدى أبا القاسم يارسول الله

أنت الذى من نورك البدر اكتسى	والشمس مشرقة بنور بهاك
أنت الذى لما رفعت إلى السما	بك قد سمت وتزينت لسراك
أنت الذى ناداك ربك مرحبا	ولقد دعاك لقربه وحباك
وخفضت دين الشرك ياعلم الهدى	ورفعت دينك فاستقام هناك
ماذا يقول المادحون وماعسى	أن يجمع الكتاب من معناك
صلى عليك الله ياعلم الهدى	ماشفاق مشتاق إلى مشواك

لقد خاطبك الله بقوله : ﴿ ياأيتها النبى إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه

وسراجا منيرا وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيرا ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلًا ﴿١﴾ .

وإذا كنت انت المبشر النذير فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ان الله عليم بما يصنعون ولا تخزن عليهم ولا تك في ضيق مما يمكرون)

﴿ قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى اتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبي المرسلين وإن كان كبر عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبتغي نفقا في الأرض أو سلما في السماء فتأتيهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين ﴾ (٢) .

﴿ ما على الرسول إلا البلاغ والله يعلم ما تبدون وما تكتمون ﴾ (٣) فبشر الذين يعملون الصالحات بالجنة ، وانذر العصاة من عذاب النار ﴿ الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا قيبا لينذر بأسا شديدا من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا حسنا ما كثر فيهم أبدا وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا ما لهم به من علم ولا لآبائهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا ﴾ (٤) .

وكيف يكذبونك ويقفون منك موقف العناد ، وأنت الصادق المعصوم الذي لاتسألم عن التبليغ أجرا ﴿ أم تسألم أجرا فهم من مغرم مثقلون ﴾ (٥)

قال تعالى : ﴿ قل ما أسألكم عليه من أجر ﴾ (٦) أى أجر اذ النكرة في سياق النفي تفيد العموم ﴿ إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا ﴾

أى لكن من أراد أن يتخذ لنفسه أجرا عند الله ومثوبة وسبيلا إلى الجنة فليفعل ذلك بالانفاق في مرضات الله والجهاد في سبيله .

﴿ وانفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة وأحسنوا إن الله يحب المحسنين ﴾ (٧) . ﴿ من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون ﴾ (٨) .

قوله تعالى : ﴿ وتوكل على الحى الذى لا يموت وسبح بحمده ﴾ أما أنت أيها النبي ، فلا تأسى على القوم الكافرين ، ولا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد - لن يضروك بشيء ولو اجتمعوا على ذلك ؛ لأن الله تعالى يعصمك من الناس ، فتوكل على الحى الذى لا يموت ، وسبح بحمده ، أى قل سبحان الله وبحمده ونزه ربك عن كل نقص تنزيها مصحوبا بالحمد لنعمته ﴿ وكفى به بذنوب عباده خبيرا ﴾

(٥) سورة الطور آية رقم : ٤٠

(٦) سورة (ص) آية رقم : ٨٦

(٧) سورة البقرة آية رقم : ١٩٥

(٨) سورة البقرة آية رقم : ٢٤٥

(١) سورة الأحزاب الآيات : ٤٥ - ٤٨

(٢) سورة الأنعام الآيات : ٣٣ - ٣٥

(٣) سورة المائدة آية رقم : ٩٩

(٤) الكهف الآيات : ١ - ٦

فهو الذى يعلم ماتكسب كل نفس ، الخبير بدقائق الأشياء ، العليم بحقائقها ، صاحب العزة القائمة والمملكة الدائمة .

قوله تعالى : ﴿ الذى خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش الرحمن فاسأل به خبيراً ﴾ .

قال الامام مالك : (الاستواء معلوم والكيف مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة ، فإنه تعالى كان ولا مكان وهو على ما كان قبل خلق المكان لم يتغير عما كان . سبحانه فلا العرش يحمله ، ولا الكرسي يسندة ، بل الكل محمول بقدرته ، مقهور بارادته ، علم ما كان وعلم ما يكون وعلم ما سيكون وعلم ما لا يكون لو كان كيف كان يكون . خالق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ﴾ وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴿ (١)

كيف يكون له شريك أو ولد ، ﴿ بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه وهو على كل شيء وكيل لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها وما أنا عليكم بحفيظ ﴾ (٢) .

(الرحمن) أى عظيم الرحمة بكم والحدب عليكم ، فلا تعبدوا إلا إياه ، ولا تتوكلوا إلا عليه . والخلاصة : توكلوا على من لا يموت ، وهو رب كل شيء وخالقه ، وخالق السموات السبع على ارتفاعها واتساعها وما فيها من عوالم ، لا يعلم كنهها إلا هو ، وخالق الأرض السبع على ذلك الوضع البديع فى ستة أيام ، ثم استوى على العرش يدبر الأمر ويقضى بالحق . ﴿ فاسأل به خبيراً ﴾ أى فاسأل عن خلق ما ذكر خبيراً به يخبرك بحقيقته ، وهو الله سبحانه ، لأنه لا يعلم تفاصيل تلك المخلوقات إلا هو .

بيان فضيلة التوكل

يقول حجة الاسلام أبو حامد الغزالي رحمه الله تعالى فى كتابه الإحياء عن فضيلة التوكل :

أما من الآيات فقد قال تعالى : ﴿ وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين ﴾ (٣)

وقال عز وجل ﴿ وعلى الله فليتوكل المتوكلون ﴾ (٤)

وقال تعالى : ﴿ ومن يتوكل على الله فهو حسبه ﴾ (٥) .

وقال سبحانه وتعالى : ﴿ إن الله يحب المتوكلين ﴾ (٦) .

وأعظم بمقام موسوم بمحبة الله تعالى صاحبه ومضمون بكفاية الله تعالى ملابسه ، فمن كان الله

(٤) سورة ابراهيم آية : ١٢

(٥) سورة الطلاق آية : ٣

(٦) سورة آل عمران آية رقم : ١٥٩

(١) سورة الملك الأيتان : ١٣ ، ١٤

(٢) سورة الأنعام الآيات : ١٠١ - ١٠٤

(٣) سورة المائدة آية : ٢٣

تعالى حسبه وكافيه ، ومحبه ومراعيه ، فقد فاز الفوز العظيم ، فإن المحبوب لا يعذب ولا يبعد ولا يحجب ، وقال تعالى : ﴿ أليس الله بكاف عبده ﴾ ^(١) فطالب الكفاية من غيره ، والتارك للتوكل هو المكذب لهذه الآية ، فإنه سؤال في معرض استنطاق بالحق ، كقوله تعالى : ﴿ هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا ﴾ ^(٢) .

وقال عز وجل : ﴿ ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم ﴾ ^(٣) أي عزيز لا يذل من استجار به ، ولا يضيع من لاذ بجنباه والتجأ إلى ذمامه وحماه ، وحكيم لا يقصر عن تدبير من توكل على تدبيره ، وقال تعالى : ﴿ إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم ﴾ ^(٤) بين أن كل ماسوى الله تعالى عبد مسخر حاجته مثل حاجتكم ، فكيف يتوكل عليه .

وقال تعالى : ﴿ إن الذين تعبدون من دون الله لايملكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه ﴾ ^(٥)

وقال عز وجل : ﴿ والله خزائن السموات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون ﴾ ^(٦) .
وقال عز وجل : ﴿ يدبر الأمر مامن شفيح إلا من بعد اذنه ﴾ ^(٧) وكل ماذكر في القرآن من التوحيد فهو تنبيه على قطع الملاحظة عن الأغيار والتوكل على الواحد القهار وأما الأخبار : فقد قال ﷺ فيما رواه ابن مسعود (أريت الأعم في الموسم فرأيت أمتي قد ملأوا السهل والجبل فأعجبني كثرتهم وهياثهم فقيل لي أرضيت قلت نعم قيل ومع هؤلاء تسعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب قيل : من هم يا رسول الله ؟ قال الذين لا يكتون ولا يتطيرون ولا يسترقون وعلى ربهم يتوكلون فقام عكاشة وقال : يا رسول الله ادع الله أن يجعلني فيهم فقال : رسول الله ﷺ : اللهم اجعله فيهم فقام آخر فقال : يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم فقال ﷺ : سبقك بها عكاشة ^(٨))
وقال ﷺ : (لو انكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خالصا وتروح بطانا) ^(٩)

(١) سورة الزمر آية رقم : ٣٦

(٢) سورة الانسان آية : ١

(٣) سورة الأنفال آية : ٤٩

(٤) سورة الأعراف آية / ١٩٤

(٥) سورة العنكبوت آية رقم : ١٧

(٦) سورة المنافقون آية : ٧

(٧) سورة يونس آية : ٣

(٨) الحديث رواه البخارى فى الرقاق / ٥٠ ، وفى الطب / ١٧ ، ٤٢ ، وفى اللباس / ١٨ ورواه مسلم فى كتاب الإيمان دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب (صحيح مسلم ٨٨ / ٣) ، وأبو عوانه الاسفرائينى (مسند أبى عوانه ١ / ١٤٠ ، ٨٦ - ٨٧ ورواه الدارمى فى الرقاق ٨٦ ، ١٠٢ ، وأحمد ٢ / ٣٠٢ ، ٣٥١ ، ٤٠١ ، ٤٥٦ ، ٥٠٢

(٩) الحديث رواه أحمد فى المسند وفى الزهد والترمذى وقال حسن صحيح والنسائى وابن ماجه والحاكم فى كتاب الرقائق وقال صحيح وأقره الذهبى .

(المسند ١ / ٣٠ ، ٥٢ الزهد / ٥٨ ، تحفة الأحوذى ٧ / ٨ حديث رقم ٢٤٤٧ أبواب الزهد ، باب ماجاء فى الزهادة ، فىض

القدير ٣١١ / ٥ رقم ٧٤٢٠

وقال ﷺ (من انقطع إلى الله عز وجل كفاه الله تعالى كل مؤنة ورزقه من حيث لا يحتسب ومن انقطع إلى الدنيا وكله الله إليها)^(١)

وقال ﷺ (من سره ان يكون أغنى الناس فليكن بما عند الله أوثق منه بما في يديه)^(٢)
ويروى عن رسول الله ﷺ (أنه كان اذا أصاب أهله خصاصة قال قوموا إلى الصلاة ويقول :
بهذا أمرني ربي عز وجل قال عز وجل ﴿ وامر أهلك بالصلاة واصطبر عليها ﴾^(٣)
وقال ﷺ (لم يتوكل من استرقى واكتوى)

وروى أنه لما قال جبريل لإبراهيم عليهما السلام وقد رمى إلى النار بالمنجنيق ألك حاجة قال أما إليك فلا . . وفاء بقوله حسبي الله ونعم الوكيل إذ قال ذلك حين أخذ ليرمى فأنزل الله تعالى ﴿ وإبراهيم الذي وفى ﴾

وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام يا داود ما من عبد يعتصم بى دون خلقى فتكيده السموات والأرض إلا جعلت له مخرجاً^(٤)

وأما الآثار فقد قال سعيد بن جبير لدغتنى عقرب فأقسمت على أمتى لتسترقين فناولت الراقى يدي التى لم تلدغ وقرأ الخواص قوله تعالى : ﴿ وتوكل على الحى الذى لا يموت ﴾ إلى آخرها فقال ما ينبغي للعبد بعد هذه الآية أن يلجأ إلى أحد غير الله تعالى .

وقيل لبعض العلماء فى مقامه : من وثق بالله تعالى فقد أحرز قوته . وقال بعض العلماء لا يشغلك المضمون لك من الرزق عن المفروض عليك من العمل ، فتضيع أمر آخرتك ، ولاتنال من الدنيا إلا ما قد كتب الله لك .

وقال يحيى بن معاذ فى وجود العبد الرزق من غير طلب دلالة على أن الرزق مأمور بطلب العبد .

وقال إبراهيم بن أدهم : سألت بعض الرهبان من اين تأكل فقال لى ليس هذا العلم عندى ولكن سل ربي

(١) الحديث رواه الطبراني فى الصغير وأبو الشيخ ابن حبان فى الثواب ، واسناد الطبراني مقارب وابن ابى الدنيا وعن طريقه أخرجه البيهقى فى الشعب قال الحافظ العراقى : لم يسمع منه وفيه إبراهيم بن الأشعث تكلم فيه أبو حاتم من رواية الحسن بن عمران ، واختلف فى سماعه منه / ورواه عنه أيضا الخطيب وابن أبى حاتم فى تفسيره (الدر المنثور ٦ / ٢٣٣ ، احياء علوم الدين ٤ / ٢٣٩ سعادة الدارين فى الصلاة على سيد الكونين ص ٦٥١)

(٢) الحديث أخرجه الحاكم والبيهقى فى الزهد من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف (الاحياء ٤ / ٢٣٩)
(٣) الحديث أخرجه الطبراني فى الأوسط من حديث محمد بن حمزة عن عبد الله بن سلام - قال : الحافظ العراقى : ومحمد بن حمزة ابن يوسف بن عبد الله بن سلام إنما ذكروا له روايته عن أبيه عن جده فيبعد سماعه من جد أبيه اهـ (الاحياء للغزالي بتخريج العراقى ٤ / ٢٣٩ أول كتاب التوحيد والتوكل) وأخرجه أحمد فى الزهد وابن أبى حاتم فى تفسيره عن ثابت رضى الله عنه وعبد الرازق فى المصنف عن رجل من قریش وأخرجه سعيد بن منصور فى مسنده وابن المنذر فى تفسيره من طريق عثمان عن حمزة بن عبد الله بن سالم (الزهد ص ٤٦ ، سعادة الدارين ص ٦٥١)

(٤) الاحياء للغزالي ٤ / ٢٣٩ أول كتاب التوحيد والتوكل
وأخرجه أحمد فى الزهد عن وهب قال : يقول الله تبارك وتعالى : إذا توكل على عبدى لو كادته السموات والأرض جعلت له من بين ذلك المخرج (الدر المنثور ٦ / ٣٣٤)

من أين يطعمنى .

وقال هرم بن حيان لأويس القرني : أين تأمرنى أن أكون ، فأومأ إلى الشام ، قال هرم : كيف المعيشة ، قال أويس : أف لهذه القلوب قد خالطها الشك فما تنفعها الموعظة ، وقال بعضهم : متى رضيت بالله وكيلا ، وجدت إلى كل خير سبيلا ، نسأل الله تعالى حسن الأدب .

بيان حقيقة التوحيد الذى هو أصل التوكل

اعلم أن التوكل من أبواب الإيمان ، وجميع أبواب الإيمان لا تنتظم إلا بعلم وحال وعمل ، والتوكل كذلك ينتظم من علم هو الأصل ، وعمل هو الثمرة ، وحال هو المراد باسم التوكل فلنبداً ببيان العلم الذى هو الأصل ، هو المسمى إيماناً فى أصل اللسان ، إذ الإيمان هو التصديق ، وكل تصديق بالقلب ، فهو علم ، وإذا قوى سمي يقيناً ، ولكن أبواب اليقين كثيرة ، ونحن إنما نحتاج منها إلى مانبى عليه التوكل ، وهو التوحيد ، الذى يترجمه قولك : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، والإيمان بالقدرة الذى يترجم عنه قولك : له الملك ، والإيمان بالجود والحكمة ، الذى يدل عليه قولك : وله الحمد ، فمن قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، تم له الإيمان الذى هو أصل التوكل ، أعنى أن يصير معنى هذا القول وصفا لازماً لقلبه غالباً عليه ، فأما التوحيد فهو الأصل ، والقول فيه يطول ، وهو من علم المكاشفة ، ولكن بعض علوم المكاشفات متعلق بالأعمال بواسطة الأحوال ، ولا يتم علم المعاملة إلا بها ، فإذن لا نتعرض إلا للقدر ، الذى يتعلق بالمعاملة ، وإلا فالتوحيد هو البحر الخضم الذى لا ساحل له ، فنقول : للتوحيد أربع مراتب ، وينقسم إلى لب ، وإلى لب اللب ، وإلى قشر ، وإلى قشر القشر ، ولنمثل ذلك تقريبا إلى الأفهام الضعيفة بالجوز فى قشرته العليا ، فإن له قشريتين وله لب ، وللب دهن هو لب اللب ، فالمرتبة الأولى من التوحيد ، هى أن يقول الانسان بلسانه لا إله إلا الله ، وقلبه غافل عنه أو منكر له كتوحيد المنافقين ، والثانية أن يصدق بمعنى اللفظ قلبه كما صدق به عموم المسلمين ، وهو اعتقاد العوام ، والثالثة أن يشاهد ذلك بطريق الكشف ، بواسطة نور الحق ، وهو مقام المقربين ، وذلك بأن يرى أشياء كثيرة ، ولكن يراها على كثرتها صادرة عن الواحد القهار ، والرابعة الا يرى فى الوجود إلا واحداً ، وهى مشاهدة الصديقين وتسمية الصوفية الفناء فى التوحيد لأنه من حيث لا يرى إلا واحداً فلا يرى نفسه أيضاً ، وإذا لم ير نفسه لكونه مستغرقاً بالتوحيد ، كان فانياً عن نفسه فى توحيده ، بمعنى أنه فنى عن رؤية نفسه والخلق ، فالأول موحد بمجرد اللسان ، ويعصم ذلك صاحبه فى الدنيا عن السيف والسنان ، والثانى موحد بمعنى أنه معتقد بقلبه مفهوم لفظه وقلبه خال عن التكذيب بما انعقد عليه قلبه ، وهو عقدة على القلب ، ليس فيه انشراح وانفساح ، ولكنه يحفظ صاحبه من العذاب فى الآخرة إن توفى عليه ولم تضعف بالمعاصى عقده ، ولهذا العقد حيل يقصد بها تضعيفه وتحليله ، تسمى بدعة ، وله حيل يقصد بها دفع حيلة التحليل والتضعيف ، ويقصد بها أيضاً أحكام هذه العقدة وشدها على القلب وتسمى كلاماً ، والعارف به يسمى متكلماً ، وهو فى مقابلة المبتدع ومقصده دفع المبتدع عن

تحليل هذه العقدة عن قلوب العوام ، وقد يخص المتكلم باسم الموحد ، من حيث إنه يحمي بكلامه مفهوم لفظ التوحيد على قلوب العوام ، حتى لاتنحل عقده ، والثالث موحد بمعنى أنه لم يشاهد الا فاعلا واحدا إذا انكشف له الحق ، كما هو عليه ولا يرى فاعلا بالحقيقة إلا واحدا ، وقد انكشفت له الحقيقة كما هي عليه لا أنه كلف قلبه أن يعقد على مفهوم لفظ الحقيقة ، فإن تلك رتبة العوام والمتكلمين إذا لم يفارق المتكلم العامي في الاعتقاد بل في صنعة تلفيق الكلام الذي به حيل المبتدع عن تحليل هذه العقدة . والرابع موحد بمعنى أنه لم يحضر في شهوده غير الواحد .

فلا يرى الكل من حيث أنه كثير ، بل من حيث انه واحد ، وهذه هي الغاية القصوى في التوحيد ، فالأول كالقشرة العليا من الجوز ، والثاني كالقشرة السفلى ، والثالث كاللب ، والرابع كالدهن المستخرج من اللب ، وكما أن القشرة العليا من الجوز لاخير فيها ، بل ان أكل فهو مر المذاق ، وان نظر إلى باطنه فهو كريه المنظر ، وان اتخذ حظبا اطفأ النار وأكثر الدخان ، وان ترك في البيت ضيق المكان ، فلا يصلح إلا أن يترك مدة على الجوز للصون ثم يرمى به عنه ، فكذلك التوحيد بمجرد اللسان دون التصديق بالقلب عديم الجدوى كثير الضرر مدموم الظاهر والباطن ، لكنه ينفع مدة في حفظ القشرة السفلى إلى وقت الموت ، والقشرة السفلى هي القلب والبدن ، وتوحيد المنافق يصون بدنه عن سيف الغزاة ، فإنهم لم يؤمروا بشق القلوب ، والسيف انما يصيب جسم البدن ، وهو القشرة ، وإنما يتجرد عنه بالموت فلا يبقى لتوحيده فائدة بعده ، وكما أن القشرة السفلى ظاهرة النفع بالاضافة إلى القشرة العليا ، فإنها تصون اللب وتحرسه عن الفساد عند الادخار ، وإذا فصلت أمكن أن ينتفع بها حظبا لكنها نازلة القدر بالاضافة إلى اللب ، وكذلك مجرد الاعتقاد من غير كشف كثير النفع بالاضافة إلى مجرد نطق اللسان ناقص القدر بالاضافة إلى الكشف والمشاهدة ، التي تحصل بانشرح الصدر وانفساحه ، وإشراق نور الحق فيه إذ ذاك الشرح هو المراد بقوله تعالى : ﴿ فَمَنْ يَرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ﴾ (١) وبقوله عز وجل : ﴿ أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ ﴾ (٢) . وكما ان اللب نفيس في نفسه بالاضافة إلى القشر وكله المقصود ، ولكنه لا يخلو عن شوب عصارة بالاضافة إلى الدهن المستخرج منه ، فكذلك توحيد الفعل مقصد عال للسالكين لكنه لا يخلو عن شوب ملاحظة الغير والالتفات إلى الكثرة بالاضافة إلى من لا يشاهد سوى الواحد الحق .

فإن قلت : كيف يتصور الا يشاهد الا واحدا ، وهو يشاهد السماء والأرض وسائر الأجسام المحسوسة ، وهي كثيرة فكيف يكون الكثير واحدا . فاعلم أن هذه غاية علوم المكاشفات ، وأسرار هذا العلم لايجوز أن تسطر في كتاب ، فقد قال العارفون إفشاء سر الربوبية كفر ثم هو غير متعلق بعلم المعاملة نعم ذكر مايكسر سورة استبعادك ممكن ، وهو أن الشيء قد يكون كثيرا بنوع مشاهدة واعتبار ، ويكون واحدا بنوع آخر من المشاهدة والاعتبار ، وهذا كما أن الانسان كثير ان التفت الى روحه وجسده وأطرافه وعروقه وعظامه وأحشائه ،

(١) سورة الأنعام آية رقم ١٢٥

(٢) سورة الزمر آية رقم : ٢٢

وهو باعتبار آخر ومشاهدة أخرى واحد ، إذ نقول إنه انسان واحد ، فهو بالاضافة إلى الإنسانية واحد وكم من شخص يشاهد إنسانا ولا يخطر بباله كثرة أمعائه وعروقه وأطرافه وتفصيل روحه وجسده وأعضائه والفرق بينهما انه في حالة الاستغراق والاستهتار به مستغرق بواحد ليس فيه تفريق وكأنه في عين الجمع والمثلث إلى الكثرة في تفرقة فكذلك كل مافي الوجود من الخالق والمخلوق له اعتبارات ومشاهدات كثيرة مختلفة ، فهو بإعتبار واحد من الاعتبارات واحد ، وباعتبارات أخرى سواء كثيرة بعضها أشد كثرة من بعض ، ومثاله الإنسان وأن كان لا يطابق الغرض ، ولكنه ينبه في الجملة على كيفية مصير الكثرة في حكم المشاهدة واحدا ، ويستبين بهذا الكلام ترك الانكار والجحود لمقام لم تبلغه وتؤمن به إيمان تصديق ، فيكون لك من حيث إنك مؤمن بهذا التوحيد نصيب ، وإن لم يكن ماآمنت به صفتك ، كما أنك اذا آمنت بالنبوة وإن لم تكن نبيا كان لك نصيب منه بقدر قوة إيمانك ، وهذه المشاهدة التي لا يظهر منها إلا الواحد الحق تارة ، وتارة تطراً كالبرق الخاطف وهو الأكثر والدوام .

نادر عزيز وإلى هذا أشار الحسين بن منصور الحلاج ، حيث رأى الخواص يدور في الأسفار ، فقال : فيماذا أنت فقال : أدور في الأسفار لأصحح حالتي في التوكل ، وقد كان من المتوكلين ، فقال الحسين : أفنيت عمرك في عمران باطنك ، فأين الفناء في التوحيد ، فكأن الخواص كان في تصحيح المقام الثالث في التوحيد ، فطالبه بالمقام الرابع ، فهذه مقامات الموحدين في التوحيد على سبيل الإجمال .

فإن قلت فلا بد لهذا من شرح بمقدار مايفهم كيفية ابتناء التوكل عليه .

فأقول : أما الرابع فلا يجوز الخوض في بيانه ، وليس التوكل أيضا مبينا عليه ، بل يحصل حال التوكل بالتوحيد الثالث وأما الأول وهو النفاق فواضح

وأما الثاني وهو الاعتقاد فهو موجود في عموم المسلمين ، وطريق تأكيده بالكلام ، ودفع حيل المبتدعة فيه مذكور في علم الكلام ، وقد ذكر في كتاب الاقتصاد في الاعتقاد القدر المهم منه .

وأما الثالث : فهو الذي يبني عليه التوكل ، إذ مجرد التوحيد بالاعتقاد لا يورث حال التوكل ، فلنذكر منه القدر الذي يرتبط التوكل به ، دون تفصيله ، الذي لا يحتمله أمثال هذا الكتاب ، وحاصله أن ينكشف لك أن لا فاعل إلا الله تعالى ، وأن كل موجود من خلق ورزق وعطاء ومنع وحياة وموت وغنى وفقر إلى غير ذلك مما ينطلق عليه اسم فالمنفرد بابداعه واختراعه هو الله عز وجل لا شريك له فيه ، وإذا انكشف لك هذا لم تنظر إلى غيره ، بل كان منه خوفك وإليه رجائك وبه ثقتك وعليه اتكالك ، فإنه الفاعل على الانفراد دون غيره وماسواه مسخرون لاستقلالهم بتحريك ذرة من ملكوت السموات والأرض ، وإذا انفتحت لك ابواب المكاشفة اتضح لك هذا ايضا كما أتم من المشاهدة بالبصر ، وإنما يصدك الشيطان عن هذا التوحيد في مقام يتغنى به أن يطرق إلى قلبك شائبة الشرك بسببين :

أحدهما الالتفات الى اختيار الحيوانات الثاني الالتفات إلى الجمادات

أما الالتفات إلى الجمادات ، فكاعتمادك على المطر في خروج الزرع ونباته ونمائه ، وعلى الغيم في نزول المطر ، وعلى البرد في اجتماع الغيم وعلى الريح في استواء السفينة وسيرها ، وهذا كله شرك في

التوحيد وجهل بحقائق الأمور ولذلك قال تعالى :

﴿ فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون ﴾^(١) .
 قيل معناه أنهم يقولون لولا استواء الريح لما نجونا ، ومن انكشف له امر العالم كما هو عليه ، علم ان الريح هو الهواء والهواء لا يتحرك بنفسه مالم يحركه محرك ، وكذلك محركه وهكذا الى أن ينتهي الى المحرك الأول ، الذي لا محرك له ولا هو متحرك في نفسه - عز وجل - فالتفت العبد في النجاة إلى الريح يضاهي التفت من أخذ لتجز رقبته فكتب الملك توقيعاً بالعمو عنه وتخليته ، فأخذ يشتغل بذكر الخبر والكاغد والقلم الذي به كتب التوقيع يقول لولا القلم لما تخلصت فيرى نجاته من القلم لا من محرك القلم وهو غاية الجهل ومن علم أن القلم لاحكم له في نفسه وإنما هو مسخر في يد الكاتب لم يلتفت إليه ولم يشكر إلا الكاتب بل ربما يدهشه فرح النجاة وشكر الملك والكاتب من أن يخطر بباله القلم والخبر والدواة والشمس والقمر والنجوم والمطر والغيم في الأرض وكل حيوان وجماد مسخرات في قبضة القدرة كتسخير القلم في يد الكاتب ، بل هذا تمثيل في حقك لاعتقادك أن الملك الموقع هو الكاتب التوقيع ، والحق أن الله تبارك وتعالى هو الكاتب لقوله تعالى : ﴿ وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ﴾^(٢) .
 فإذا انكشف لك ان جميع مافي السموات والأرض مسخرات على هذا الوجه ، انصرف عنك الشيطان خائفاً ، وأيس عن مزج توحيدك بهذا الشرك ، فأناك في المهلكة الثانية وهي الالتفات الى إختيار الحيوانات في الافعال الاختيارية ، ويقول كيف ترى الكل من الله ، وهذا الانسان يعطيك رزقك باختياره ، فإن شاء أعطاك وإن شاء قطع عنك ، وهذا الشخص هو الذي يحز رقبتك بسيفه ، وهو قادر عليك إن شاء حز رقبتك ، وإن شاء عفى عنك ، فكيف لا تخافه وكيف لا ترجوه ، وأمرك بيده وأنت تشاهد ذلك ولا تشك فيه ، ويقول له ايضاً نعم ان كنت لا ترى القلم لأنه مسخر فكيف لا ترى الكاتب بالقلم وهو المسخر له ، وعند هذا زلت اقدام الأكثرين الا عباد الله المخلصين ، الذين لاسلطان عليهم للشيطان اللعين ، فشاهدوا بنور البصائر كون الكاتب مسخراً مضطراً ، كما نشاهد جميع الضعفاء كون القلم مسخراً ، وعرفوا أن غلط الضعفاء في ذلك كغلط النملة مثلاً لو كانت تدب على الكاغد ، فترى رأس القلم يسود الكاغد ولم يمتد بصرها إلى اليد والأصابع ، فضلاً عن صاحب اليد فغلطت وظنت أن القلم هو المسود للبياض ، وذلك لقصور بصرها عن مجاوزة رأس القلم ، لضيق حدقتها ، فكذلك من لم ينشرح بنور الله تعالى صدره للإسلام ، قصرت بصيرته عن ملاحظة جبار السموات والأرض ومشاهدة كونه قاهراً وراء الكل ، فوقف في الطريق على الكاتب ، وهو جهل محض ، بل أرباب القلوب والمشاهدات قد أنطق الله تعالى في حقهم كل ذرة في السموات والأرض ، بقدرته التي بها نطق كل شيء ، حتى سمعوا تقديسها وتسبيحها لله تعالى ، وشهادتها على نفسها بالعجز بلسان ذلق ، تتكلم بلا حرف ولا صوت ، لا يسمعه الذين هم عن السمع معزولون ، ولست أعني به السمع الظاهر الذي لا يجاوز الأصوات فإن الحمار شريك فيه ولا قدر لما يشارك فيه البهائم ، وإنما أريد

(١) العنكبوت آية رقم ٦٥

(٢) سورة الأنفال آية رقم ١٧

به سمعا يدرك به كلام ليس بحرف ولا صوت ولا هو عربى ولا عجمى .
 فإن قلت فهذه أعجوبة لا يقبلها العقل ، فصف لى كيفية نطقها ، وأنها كيف نطقت ، وبماذا
 نطقت ، وكيف سبحت و قدست ، وكيف شهدت على نفسها بالعجز ، فاعلم أن لكل ذرة فى السموات
 والأرض مع أرباب القلوب مناجاة فى السر ، وذلك مما لا ينحصر ولا يتناهى ، فانها كلمات تستمد من
 بحر كلام الله تعالى الذى لا نهاية له ﴿ قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر ﴾ (١) الآية . .
 ثم أنها تتناجى بأسرار الملك والمملوك ، وإفشاء السر لئوم بل صدور الأحرار قبور الأسرار ، وهل رأيت
 قط أمينا على أسرار الملك ، قد نوجى بخفياه ، فنادى بسرّه على ملأ من الخلق ، ولو جاز إفشاء كل سر
 لنا لما قال النبى - ﷺ - (لو تعلمون ما اعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا)
 بل كان يذكر ذلك لهم حين يكون ولا يضحكون ولما نهى عن إفشاء سر القدر ، ولما قال (إذا
 ذكر النجوم فأمسكوا وإذا ذكر القدر فأمسكوا وإذا ذكر أصحابي فأمسكوا)
 ولما خص حذيفة رضى الله عنه ببعض الأسرار فاذن عن حكايات مناجاة ذرات الملك والمملوك
 لقلوب أرباب المشاهدات مانعان :
 أحدهما استحالة إفشاء السر .

الثانى خروج كلماتها عن الحصر والنهية ، ولكن فى المثال الذى كنا فيه وهى حركة القلم نحكى من
 مناجاتها قدرا يسيرا يفهم به على الاجمال كيفية ابتناء التوكل عليه ، ونرد كلماتها إلى الحروف
 والأصوات ، وان لم تكن هى حروفا وأصواتا ولكن هى ضرورة التفهيم فنقول :
 قال بعض الناظرين عن مشكاة نور الله تعالى للكاغد ، وقد رآه أسود وجهه بالخبر ، مابال
 وجهك كان أبيض مشرقا ، والآن قد ظهر عليه السواد ، فلم سودت وجهك ، وما السبب فيه فقال
 الكاغد :

ما أنصفتنى فى هذه المقالة ، فأنى ماسودت وجهى بنفسى ، ولكن سل الخبر ، فانه كان مجموعا فى
 المحبرة التى هى مستقره ، ووطنه فسافر عن الوطن ونزل بساحة وجهى ظلما وعدوانا ، فقال :
 صدقت ، فسأل الخبر عن ذلك فقال :

ما أنصفتنى ، فإنى كنت فى المحبرة وادعا ساكنا عازما على أن الا أبرج منها ، فاعتدى على القلم
 بطمعه الفاسد ، واختطفنى من وطنى وأجلانى عن بلادى ، وفرق جمعى وبددنى كما ترى على ساحة
 بيضاء ، فالسؤال عليه لا على ، فقال : صدقت ، ثم سأل القلم عن السبب فى ظلمه وعدوانه وإخراج
 الخبر من أوطانه ، فقال سل اليد والأصابع ، فإنى كنت قصبا نابتا على شط الأنهار ، متنزها بين خضرة
 الأشجار ، فجاءتنى اليد بسكين فنحت عنى قشرى ، وفرقت عنى ثيابى واقتلعتنى من أصلى ، وفصلت
 بين انابيسى ، ثم برتنى وشقت رأسى ثم غمستنى فى سواد الخبر وحرارته ، وهى تستخدمنى وتمشيبنى على
 قمة رأسى .

ولقد نثرت الملح على جرحى بسؤالك وعتابك ، فتنح عني وسل من قهرني ، فقال : صدقت ، ثم سأل اليد عن ظلمها وعدوانها على القلم واستخدامها له ، فقالت اليد : ما أنا إلا لحم وعظم ودم ، وهل رأيت لحما يظلم أو جسما يتحرك بنفسه ، وإنما أنا مركب مسخر ركبنى فارس يقال له القدرة والعزة فهي التي ترددني وتجول في نواحي الأرض ، أما ترى المدر والحجر والشجر لا يتعدى شيء منها مكانه ، ولا يتحرك بنفسه ، إذا لم يركبه مثل هذا الفارس القوى القاهر ، أما ترى أيدي الموتى تساويني في صورة اللحم والعظم والدم ، ثم لا معاملة بينها وبين القلم ، فأنا أيضا من حيث أنا لا معاملة بيني وبين القلم ، فسل القدرة عن شأني ، فإنني مركب أزعجني من ركبني ، فقال : صدقت ، ثم سأل القدرة عن شأنها في استعمالها اليد وكثرة استخدامها وترديدها ، فقالت : دع لومي ومعاتبتي فكم من لائم ملوم ، وكم من ملوم لا ذنب له ، وكيف خفى عليك أمري ، وكيف ظننت اني ظلمت اليد لما ركبتها ، وقد كنت لها راكبة قبل التحريك ، وما كنت أحركها ولا أستسخرها بل كنت نائمة ساكنة ثوما ظن الظانون بي أني ميتة أو معدمة ، لأنني ما كنت أتحرك ولا احرك ، حتى جاءني موكل أزعجني وارهقني إلى ما تراه مني ، فكانت لي قوة على مساعدته ، ولم تكن لي قوة على مخالفته ، وهذا الموكل يسمى الارادة ولا أعرفه الا باسمه وهجومه وصياله ، إذ أزعجني من غمرة النوم ، وارهقني إلى ما كان لي مندوحة عنه لو خلاني ورأيي ، فقال : صدقت ، ثم سأل الارادة ما الذي جرأك على هذه القدرة الساكنة المطمئنة ، حتى حذفتها إلى التحريك ، وأرهقتها اليه إرهاقا لم تجد عنه مخلصا ولا مناصا ، فقالت : الارادة : لا تعجل على فعل لنا عذرا ، أو أنت تلوم ، فإنني ما انتهضت بنفسى ولكن انهضت وما انبعثت ، ولكني بعثت بحكم قاهر وأمر حازم ، وقد كنت ساكنة قبل مجيئه ، ولكن ورد على من حضرة القلب رسول العلم على لسان العقل بالإشخاص للقدرة ، فأشخصتها باضطرار ، فإنني مسكينة مسخرة تحت قهر العلم والعقل ، ولا ادري بأي جرم وقفت عليه وسخرت له وألزمت طاعته ، لكنني أدري اني في دعة وسكون ، ما لم يرد على هذا الوارد القاهر ، وهذا الحاكم العادل أو الظالم ، وقد وقفت عليه وقفا وألزمت طاعته الزاما ، بل لا يبقى لي معه مهما جزم حكمه طاقة على المخالفة لعمرى مادام هو في التردد مع نفسه والتحير في حكمه ، فأنا ساكنة لكن مع استشعار وانتظار لحكمه ، فإذا انجزم حكمه ازعجت بطبع وقهر تحت طاعته وأشخصت القدرة لتقوم بموجب حكمه ، فسل العلم عن شأني ودع عني عتابك ، فإنني كما قال القائل :

متى ترحلت عن قوم وقد قدروا الا تفارقهم فالراحلون هم

فقال : صدقت ، وأقبل على العلم والقلب مطالبا لهم ومعاتبا إياهم على استنهاض الارادة وتسخيرها لأشخاص القدرة ، فقال العقل : أما أنا فسراج ما اشتعلت بنفسى ، ولكن أشعلت ، وقال القلب : اما أنا فلوح ما انبسطت بنفسى ولكن بسطت ، وقال العلم أما أنا فنقش نقشت في بياض لوح القلب لما أشرق سراج العقل وما انخططت بنفسى ، فكم كان هذا اللوح قبل خاليا عني ، فسل القلم عني ، لان الخط لا يكون إلا بالقلم ، فعند ذلك تتعنت السائل ولم يقنعه جواب ، وقال : قد طال تعبي في هذا الطريق وكثرت منازل ولا يزال يحيلني من طمعت في معرفة هذا الأمر منه على غيره ، ولكن

كنت أطيب نفسا بكثرة التردد لما كنت أسمع كلاما مقبولا في الفؤاد ، وعذرا ظاهرا في دفع السؤال ، فأما قولك إني خط ونقش ، وإنما خطني قلم فلست أفهمه ، فإني لا أعلم قلما إلا من القصب ، ولا لوحا إلا من الحديد أو الخشب ، ولا خطأ إلا بالحبر ، ولا سراجا إلا من النار ، وإني لأسمع في هذا المنزل حديث اللوح والسراج والخط والقلم ، ولا أشاهد من ذلك شيئا ، أسمع جعجعة ولا أرى طحنا ، فقال له القلم : ان صدقت فيما قلت ، فبضاعتك مزجاة وزادك قليل ومركبك ضعيف واعلم ان المهالك في الطريق التي توجهت اليها كثيرة ، فالصواب لك ان تنصرف وتدع ما أنت فيه ، فما هذا بعشك ، فادرج عنه فكل ميسر لما خلق له ، وإن كنت راغبا في استتمام الطريق الى المقصد ، فأتق سمعك وأنت شهيد . واعلم أن العوالم في طريقك هذا ثلاثة : عالم الملك والشهادة أولها ، ولقد كان الكاغد والحبر والقلم واليد من هذا العالم ، وقد جاوزت تلك المنازل على سهولة ، والثاني عالم الملكوت ، وهو رائى فاذا جاوزتني انتهيت إلى منازل ومنه المهامه والنيح ، والجبال الشاهقة ، والبحار المفرقة ، ولا أدري كيف تسلم فيها . والثالث عالم الجبروت ، وهوبين عالم الملك وعالم الملكوت ، ولقد قطعت منها ثلاث منازل ، في أوائلها منزل القدرة والارادة والعلم ، وهو واسطة بين عالم الملك والشهادة والملكوت ؛ لأن عالم الملك أسهل منه طريقا ، وعالم الملكوت أوعر منه نهجا ، وإنما عالم الجبروت بين عالم الملك وعالم الملكوت ، يشبه السفينة التي هي في الحركة بين الأرض والماء ، فلاهي في حد اضطراب الماء ، ولا هي في حد سكون الأرض وثباتها ، وكل من يمشى على الأرض يمشى في عالم الملك والشهادة ، فإن جاوزت قوته إلى أن يقوى على ركوب السفينة ، كان كمن يمشى في عالم الجبروت ، فإن انتهى إلى أن يمشى على الماء من غير سفينة ، مشى في عالم الملكوت من غير تتع ، فإن كنت لا تقدر على المشى على الماء فانصرف ، فقد جاوزت الأرض وخلفت السفينة ولم يبق بين يديك إلا الماء الصافي ، وأول عالم الملكوت مشاهدة القلم الذي يكتب به العلم في لوح القلب ، وحصول اليقين الذي يمشى به على الماء ، اما سمعت قول رسول الله ﷺ في عيسى عليه السلام : (لو ازداد يقينا لمشى على الهواء) لما قيل له إنه كان يمشى على الماء ، فقال السالك السائل : قد تحيرت في أمرى واستشعر قلبي خوفا مما وصفته من خطر الطريق ، ولست أدري أطيق قطع هذه المهامة التي وصفتها أم لا ، فهل لذلك من علامة ؟ قال نعم افتح بصرك ، واجمع ضوء عينيك وحدقه نحوى ، فإن ظهر لك القلم الذي به أكتب في لوح القلب ، فيشبه أن تكون أهلا لهذا الطريق ، فإن كل من جاوز عالم الجبروت ، وقرع بابا من أبواب الملكوت كوشف بالقلم ، اما ترى ان النبي ﷺ في أول امره كوشف بالقلم إذ أنزل عليه ﴿ اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم ﴾ فقال السالك : لقد فتحت بصرى وحدقته فوالله ما أرى قصبا ولا خشبا ، ولا أعلم قلما إلا كذلك ، فقال العلم لقد أبعدت النجعة ، أما سمعت ان متاع البيت يشبه رب البيت ، أما علمت أن الله تعالى لا تشبه ذاته سائر الذوات ، فكذلك لا تشبه يده الأيدي ، ولا قلمه الأقلام ، ولا كلامه سائر الكلام ولا خطه سائر الخطوط ، وهذه أمور إلهية من عالم الملكوت ، فليس الله تعالى في ذاته بجسم ولا هو في مكان ، بخلاف غيره ولا يده لحم وعظم ودم بخلاف الأيدي ، ولا قلمه من قصب ، ولا لوحه من خشب ، ولا كلامه بصوت وحرف ،

ولا خطه رقم ورسم ولا حبره زاج وغفص ، فإن كنت لا تشاهد هذا هكذا ، فما أراك إلا مخنثا بين مخولة التنزيه وأنوثة التشبيه ، مذبذبا بين هذا وذا لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ، فكيف نزهت ذاته وصفاته تعالى عن الأجسام وصفاتها ، ونزهت كلامه عن معاني الحروف والأصوات ، وأخذت تتوقف في يده وقلمه ولوحه وخطه ، فإن كنت قد فهمت من قوله ﷺ : (إن الله خلق آدم على صورته)^(١) الصورة الظاهرة المدركة بالبصر ، فكن مشبها مطلقا ، كما يقال كن يهوديا صرفا ، وإلا فلا تلعب بالتوراة وإن فهمت شبه الصورة الباطنة ، التي تدرك بالبصائر لا بالأبصار ، فكن منزها صرفا ومقدسا فحلا واطو الطريق ، فإنك بالواد المقدس طوى ، واستمع بسر قلبك لما يوحى ، فلعلك تجد على النار هدى ، ولعلك من سرادقات العرش تنادى بما نودى به موسى ﴿ إني أنا ربك ﴾^(٢) فلما سمع السالك من العلم ذلك ، استشعر قصور نفسه ، وأنه مخنث بين التشبيه والتنزيه ، فاشتعل قلبه نارا من حدة غضبه على نفسه لما رآها بعين النقص ، ولقد كان زيتته الذى فى مشكاة قلبه يكاد يضىء ولو لم تمسسه نار فلما نفخ فيه العلم بحدته اشتعل زيتته ، فاصبح نورا على نور ، فقال له العلم : اغتنم الآن هذه الفرصة ، وافتح بصرك لعلك تجد على النار هدى ، ففتح بصره ، فأنكشف له القلم الإلهى ، فإذا هو كما وصفه العلم فى التنزيه ، ما هو من خشب ولا قصب ، ولا له رأس ولا ذنب وهو يكتب على الدوام فى قلوب البشر كلهم أصناف العلوم ، وكان له فى كل قلب رأس ولا رأس له ، فقضى منه العجب ، وقال نعم الرفيق العلم فجزاه الله تعالى عنى خيرا ، إذ الآن ظهر لى صدق أنبائه عن أوصاف القلم ، فإنى أراه قلما لا كالأقلام ، فعند هذا ودع العلم وشكره ، وقال قد طال مقامى من عندك ، ومرادى لك وأنا عازم على أن أسافر إلى حضرة القلم ، واسأله عن شأنه ، فسافر إليه وقال له : ما بالك أيها القلم ، تخط على الدوام فى القلوب من العلوم ما تبعث به الارادات إلى أشخاص القدر وصرفها الى المقدورات فقال : أوقد نسيت ما رأيت فى عالم الملك والشهادة ، وسمعت من جواب القلم إذ سألته فأحالك على اليد ، قال : لم أنس ذلك ، قال : فجوابى مثل جوابه ، قال : كيف وأنت لا تشبهه ، قال القلم : اما سمعت الله تعالى خلق آدم على صورته ، قال : نعم ، قال : فسل عن شأنى الملقب بقين الملك ، فإنى فى قبضته ، وهو الذى يرددنى وأنا مقهور مسخر ، فلا فرق بين القلم الإلهى وقلم الأدمى فى معنى التسخير ، وإنما الفرق فى ظاهر الصورة ، فقال : فمن يمين الملك ، فقال القلم : أما سمعت قوله تعالى : ﴿ والسموات مطويات بيمينه ﴾^(٣) قال : نعم ، قال : والاقلام ايضا فى قبضة يمينه ، هو الذى يرددها ، فسافر السالك من عنده إلى اليمين ، حتى شاهده ، ورأى من عجائبه ما يزيد على عجائب القلم ، لا يجوز وصف شيء من ذلك ، ولا شرحه بل لا تحوى مجلدات .

كثيرة عشر عشير وصفه ، والجملة فيه أنه يمين لا كالأيمان ، يد لا كالأيدى ، وأصبع لا كالأصابع ،

(١) الحديث رواه البخارى فى كتاب الاستئذان رقم ١ ، ومسلم فى كتاب البر حديث رقم ١١٥ ، وفى كتاب الجنة حديث رقم ٢٨ ، وأحمد فى مسنده ٢ / ٢٤٤ ، ٣١٥ ، ٣٢٣ ، ٤٣٤ ، ٤٦٣ ، ٥١٩ .

(٢) سورة طه الآية رقم : ١٢

(٣) سورة الزمر الآية رقم : ٦٧

فرأى القلم محركاً في قبضته ، فظهر له عذر القلم ، فسأل اليمين عن شأنه وتحريكه للقلم ، فقال : جوابي مثل ما سمعته من اليمين التي رأيتها في عالم الشهادة ، وهي الحوالة على القدرة ، إذ اليد لا حكم لها في نفسها ، وإنما محركها القدرة لا محالة ، فسافر السالك إلى عالم القدرة ، ورأى فيه من العجائب ما استحضر عندها ما قبله وسألها عن تحريك اليمين ، فقالت : إنما أنا صفة فاسأل القادر إذ العمدة على الموصوفات لا على الصفات ، وعند هذا كاد أن يزيغ ويطلق بالجرأة لسان السؤال ، فثبت بالقول الثابت وقيل : (لا يسأل عما يفعل وهم يسألون) فخر صعباً يضطرب في غشيته ، فلما أفاق ، قال : سبحانك ما أعظم شأنك ، تبت إليك وتوكلت عليك ، وآمنت بأنك الملك الجبار الواحد القهار ، فلا أخاف غيرك ، ولا أرجو سواك ، ولا أعوذ إلا بعفوك من عقابك ، وبرضاك من سخطك ، وما لي إلا أن أسألك واتضرع إليك ، وأبتهل بين يديك فأقول : اشرح لي صدري لأعرفك ، واحلل عقدة من لساني ، لأثنى عليك ، فنودي من وراء الحجاب ، إياك ان تطمع في الثناء ، وتزيد على سيد الأنبياء ، بل ارجع إليه ، فما آتاك فخذ ، وما نهاك عنه ، فأنته عنه ، وما قاله لك فقله ، فإنه ما زاد في هذه الحضرة على أن قال (سبحانك لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك) .

من أقوال الرسول ﷺ

في التوكل واليقين

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : (عرضت على الأمم فرأيت النبي ومعه الرهيط ، والنبي ومعه الرجل والرجلان ، والنبي ليس معه أحد إذ رفع لي سواد عظيم فظننت أنهم أمتي فقبل لي : هذا موسى وقومه ، ولكن انظر إلى الأفق فنظرت ، فإذا سواد عظيم ، فقبل لي : انظر إلى الأفق الآخر ، فإذا سواد عظيم ، فقبل له : هذه أمتك ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب ثم نهض فدخل منزله فحاض الناس في أولئك الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب فقال بعضهم فلعلهم الذين صحبوا رسول الله ﷺ وقال بعضهم : فلعلهم الذين ولدوا في الاسلام فلم يشركوا بالله - وذكروا أشياء - فخرج عليهم رسول الله ﷺ فقال : (ما الذي تخوضون فيه ؟) فاخبروه فقال : (هم الذين لا يرقون ولا يسترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون) فقام عكاشة بن محض فقال : (ادع الله ان يجعلني منهم فقال : « أنت منهم » ثم قام رجل آخر فقال ادع الله ان يجعلني منهم فقال سبقك بها عكاشة)^(١) . متفق عليه .

« الرهيط » تصغير رهط وهم دون عشرة أنفس : و « الأفق » الناحية والجانب . « سواد عظيم » أي اشخاص كثيرة « لا يسترقون » لا يطلبون الرقية من غيرهم . « ولا يتطيرون » أي لا يتشاءمون بالطيور ونحوها . و « عكاشة » بضم العين وتشديد الكاف صحابي من أصحاب الرسول ﷺ .

(١) الحديث رواه البخاري في الرقاق / ٥٠ ، وفي الطب / ١٧ ، ٤٢ ، وفي اللباس / ١٨ ، ومسلم في كتاب الايمان - دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب (صحيح مسلم ٣ / ٨٨) ، وأبو عوانة الاسفرائيني (مسند أبي عوانة ١ / ١٤٠ ، ٨٦ - ٨٧) ، والدارمي في كتاب الرقاق ٨٦ ، ١٠٢ ، وأحمد ٢ / ٣٠٢ ، ٣٥١ ، ٤٠١ ، ٤٥٦ ، ٥٠٢ .

وعن ابن عباس رضى الله عنها أيضا ان رسول الله ﷺ كان يقول (اللهم لك أسلمت ، وبك آمنت ، وعليك توكلت ، وإليك أنبت ، وبك خاصمت : اللهم أعوذ بعزتك ، لا إله إلا أنت ان تضلني أنت الحى الذى لا تموت والجن والانس يموتون)^(١) . متفق عليه « لك أسلمت » استسلمت لحكمك وامرك . « وأنبت » رجعت إلى عبادتك ، والاقبال على ما يقرب منك « وبك خاصمت » اعداء الدين .

وعن ابن عباس رضى الله عنها أيضا قال : « حسبنا الله ونعم الوكيل قالها إبراهيم ﷺ حين ألقى فى النار ؟ وقالها محمد ﷺ حين قالوا إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل » (رواه البخارى) .

وفى رواية للبخارى أيضا عن ابن عباس رضى الله عنها قال : (كان آخر قول إبراهيم عليه السلام حين ألقى فى النار : حسبى الله ونعم الوكيل)^(٢) .

وعن ابى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « يدخل الجنة أقوام أفئدتهم مثل أفئدة الطير »^(٣) رواه مسلم

قيل معناه متوكلون وقيل قلوبهم رقيقة .

وعن جابر رضى الله عنه قال : كنا مع رسول الله ﷺ بذات الرقاع فإذا آتينا على شجرة ظليلة تركناها لرسول الله ﷺ فجاء رجل من المشركين وسيف رسول الله ﷺ : معلق بالشجرة فاخترطه فقال تخافنى ؟ قال : لا ، فقال : فمن يمنعك منى ؟ قال : الله .

وفى رواية لأبى بكر الاسماعيلي فى صحيحه - فقال من يمنعك منى ؟

قال : الله . فسقط السيف من يده فأخذ رسول الله ﷺ وسلم السيف فقال من يمنعك منى ؟ فقال كن خير آخذ فقال : تشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله ؟ قال لا ولكنى أعاهدك الا أقاتلك ولا أكون مع قوم يقاتلونك فخلى سبيله فأتى أصحابه فقال : جئكم من عند خير الناس^(٤) متفق عليه

وعن عمر رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا^(٥) رواه الترمذى وقال حديث حسن معناه

(١) الحديث رواه البخارى فى كتاب التهجد رقم / ١ ، وفى كتاب الدعوات رقم / ٩ ، وفى كتاب التوحيد رقم ٨ ، ٢٤ ، ومسلم فى كتاب صلاة المسافرين حديث رقم ١١٩ ، وفى كتاب الذكر حديث رقم ٦٨ ، وابو داود فى كتاب الصلاة رقم ١١٩ ، والترمذى فى أبواب الدعوات رقم / ٢٩ ، والنسائى فى كتاب قيام الليل رقم / ٩ ، وابن ماجه فى أبواب الاقامة رقم / ١٨٠ والدارمى فى كتاب الصلاة رقم ١٦٩ ، ومالك فى الموطأ فى كتاب القرآن رقم / ٣٤ ، وأحمد فى مسنده ١ / ٢٩٨ ، ٣٠٢ ، ٣٥٨ .

(٢) راجع فتح البارى ٩ / ٢٩٧ كتاب التفسير (سورة آل عمران) باب قوله : الذين قال هم الناس ... الخ .

(٣) الحديث رواه مسلم فى كتاب الجنة / ٢٧ ، وأحمد فى مسنده ٢ / ٣٣١ .

(٤) الحديث رواه مسلم فى كتاب صلاة المسافرين حديث رقم ٣١١ ، وأحمد فى مسنده ٣ / ٣٦٤ ، ٣٦٥ ، ٣٩٠ (وليس متفقا عليه كما ذكر)

(٥) الحديث رواه أحمد فى مسنده ١ / ٣٠ ، ٥٢ ، وفى الزهد ص ٥٨ ، والترمذى فى جامعه وقال حسن صحيح (تحفة الأحوذى ٧ / ٨ حديث رقم ٢٤٤٧ أبواب الزهد ، باب ما جاء فى الزهادة فى الدنيا ، والنسائى فى سنته ، وابن ماجه والحاكم فى كتاب الرقائق وقال صحيح واقره الذهبى (فيض القدير ٥ / ٣١١ رقم ٧٤٢) .

تذهب أول النهار خماسا : أى ضامرة البطون من الجوع وترجع آخر النهار بطانا : أى ممتلئة البطون .
وعن ابى عمارة البراء بن عازب رضى الله عنها قال : قال رسول الله ﷺ (يا فلان إذا أويت إلى فراشك فقل : اللهم أسلمت نفسى إليك ووجهت وجهى إليك : وفوضت أمرى إليك والجات ظهري إليك رغبة ورهبة إليك ، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك آمنت بكتابك الذى أنزلت وبنبيك الذى أرسلت ، فإنك إن مت من ليلتك مت على الفطرة وإن أصبحت أصبت خيرا)^(١) متفق عليه وفى رواية فى الصحيحين عن البراء قال : قال لى رسول الله ﷺ : (إذا آتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة ثم اضطجع على شقك الأيمن وقل وذكر نحو هذا الحديث ثم قال : واجعلهن آخر ما تقول)^(٢) .
(أسلمت نفسى) أى جعلتها منقادة لك ، طائعة لحكمك ، راضية بقضائك ، قانعة بقدرك ، والجات : أى اسندت « ظهري إليك » إلى حفظك ، رغبة ورهبة إليك ، أى طمعا فى ثوابك وخوفا من عقابك . آمنت بكتابك الذى أنزلت : أى القرآن وقوله ﷺ : « على الفطرة أى على الايمان » .
وعن أبى بكر الصديق رضى الله عنه قال : (نظرت إلى أقدام المشركين ونحن فى الغار وهم على رؤوسنا فقلت : يا رسول الله لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا . فقال : ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما)^(٣) متفق عليه .

ومعنى (الله ثالثهما) أى بالنصر والمعونة والحفظ ، أيصييهما ضيم ؟ وعن أم المؤمنين أم سلمة رضى الله عنها ان النبى ﷺ (كان إذا خرج من بيته قال : بسم الله توكلت على الله : اللهم إني أعوذ بك ان أضل أو أضل أو أزل أو أزل ، أو أظلم أو أظلم أو أجهل أو يجهل على)^(٤) .
ومعنى « ان أضل » بفتح أوله وكسر الضاد المعجمة أى أغيب عن معالى الأمور أو أضل « بضم ففتح » أى يضلنى غير . . أو أزل فتح فكسر أى أزل عن الطريق المستقيم أو « أزل » بضم ففتح أى يستولى على من يزلنى عن معالى الأمور إلى سفاسفها .

وعن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ من قال : (هذه إذا خرج من بيته : - بسم الله توكلت على الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله يقال له : هدى وكفيت ووقيت وتنحى عنه الشيطان » رواه أبو داود والترمذى والنسائى وغيرهم . وفى رواية أبى داود فيقول يعنى الشيطان - لشيطان آخر : كيف لك برجل قد هدى وكفى ووفى ؟)^(٥) .

(١) الحديث فى عمدة القارىء ٢٥ / ١٥٦ - ١٥٧ كتاب التوحيد ، باب قول الله تعالى أنزله بعلمه ، صحيح مسلم ١٧ / ٣٣ - وفى فتح البارى ١٧ / ٢٤١ : بلفظ : أصبت أجرا .

(٢) وفى رواية للبخارى وأبى داود : فإن مت مت على الفطرة واجعلهم آخر ما تقول (فتح البارى ١٣ / ٣٥٥ - ٣٥٧ ، عون المعبود ١٣ / ٣٨٩) .

(٣) الحديث رواه البخارى فى كتاب فضائل أصحاب النبى ﷺ رقم ٢ / ، والترمذى فى تفسير سورة ٩ ، ١١ وأحمد فى مسنده ١ / ٤ .

(٤) الحديث رواه أبو داود فى كتاب الأدب رقم ١٠٣ والترمذى فى أبواب الدعوات رقم ٢٨ / ، والنسائى فى كتاب الاستعاذة رقم ٣٠ ، ٦٥ ، وابن ماجه فى أبواب الدعاء رقم ١٨ / ، وأحمد فى مسنده ٦ / ٣٠٦ ، ٣١٨ ، ٣٢٢ .

(٥) الحديث رواه أبو داود والترمذى وقال بحسن صحيح غريب وابن السنى وعبد الرزاق فى مصنفه .
(عون المعبود ١٣ / ٤٣٧ - ٤٣٨ كتاب الأدب - باب ما يقول إذا خرج من بيته ، تحفة الاحوذى ٩ / ٣٨٤ أبواب الدعوات ، باب ما يقول الرجل إذا خرج من بيته ، عمل اليوم والليلة ص ٧٥ رقم ١٧٧ باب ما يقول إذا خرج من بيته ، المصنف ٥ / ٣٢ - ٣٣ رقم ١٩٨٢٧) .

وعن أنس رضي الله عنه قال : (كان أخوان على عهد النبي ﷺ وكان أحدهما يأتي النبي ﷺ والآخر يحترف ، فشكا المحترف أخاه للنبي ﷺ فقا : لعلك ترزق به)^(١) رواه الترمذي بإسناد صحيح ومعنى « يحترف » أى يكتسب ويتسبب .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نفورا ﴾ ومن قبائح هؤلاء الذين عبدوا من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم ، أنهم كانوا إذا أمروا بالسجود للرحمن ، سألوا متجاهلين ، وما الرحمن نحن لا نعرف إلا رحمن اليمامة ، وهكذا لجوا في طغيانهم يعمهون ، وفي دينهم يترددون ، ثم ازدادوا فسوقا وعصيانا ، فقالوا نسجد لما تأمرنا ، قالوها تهكما واستهزاء ويوم القيامة سيعضون على أيديهم ندما ﴿ يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون ﴾^(٢) وقد كان موقف فرعون مشابها لموقفهم ، لما قالوا وما الرحمن ؟ فقد قال فرعون لموسى : وما رب العالمين ؟ وهو يعلم علم اليقين ما رب العالمين ، قال تعالى : ﴿ ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فاسئل بنى إسرائيل إذ جاءهم فقال له فرعون إني لأظنك ياموسى مسحورا قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر وإني لأظنك يافرعون مشورا ﴾^(٣) .

روى الضحاك أن رسول الله ﷺ وأصحابه سجدوا ، فلما رأهم المشركون يسجدون تباعدوا في ناحية المسجد مستهزئين ، وقد ورد في فضل سجود التلاوة ، قوله ﷺ إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد اعتزل الشيطان يبكى يقول : ياويله أمر بالسجود فسجد فله الجنة ، وأمرت بالسجود فعصيت فلى النار^(٤) رواه احمد ومسلم وابن ماجه عن أبي هريرة .

(والويل : الهلاك يقصد نفسه : أى يحزن الشيطان ويأهلاكه) .

وروى عن ابن عباس رضي الله عنهما قال جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله إني رأيت فيما يرى النائم كأنى أصلى خلف شجرة فقرأت السجدة فسجدت فسجدت الشجرة بسجودى فسمعتها تقول وهى ساجدة : اللهم اكتب لى بها عندك اجرا ، واجعلها لى عندك ذخرا ، واقبلها منى كما قبلتها^٤ من عبدك داود قال ابن عباس فرأيت النبي ﷺ ، قام فقرأ السجدة ثم سجد فسمعتة يقول وهو ساجد : كما حكى الرجل عن كلام الشجرة^(٥) رواه الترمذي .

وحكم هذا السجود كما بين العلماء : فقد ذهب جمهور العلماء إلى ان سجود التلاوة سنة للقارىء والمستمع ، لما رواه البخارى عن عمر انه قرأ على المنبر يوم الجمعة سورة النحل حتى جاء السجدة ، فنزل وسجد وسجد الناس حتى إذا كانت الجمعة القابلة قرأ بها حتى إذا جاء السجدة قال يأيتها الناس

(١) الحديث رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح : صحيح الترمذي بشرح الامام ابن العربى ٢٠٨/٩ أبواب الزهد ، باب ما جاء فى الزهادة فى الدنيا - الطبعة الاولى ١٣٥٣ هـ مصطفى البابى الحلبي .

(٢) سورة ن الآية رقم ٤٢ ، ٤٣

(٣) سورة الاسراء آية رقم ١٠١ ، ١٠٢

(٤) الحديث رواه أحمد فى مسنده ٤٤٣/٢ ، ومسلم فى كتاب الايمان حديث رقم ١٣٣ ، وابن ماجه فى أبواب الاقامة رقم ٧٠ .

(٥) الحديث رواه الترمذي فى أبواب الجمعة رقم ٥٥ ، وفى أبواب الدعوات رقم ٣٣ ، وابن ماجه فى أبواب الاقامة رقم ٧٠

إنا لم نؤمر بالسجود فمن سجد فقد أصاب ومن لم يسجد فلا إثم عليه .
لقد اشترط جمهور الفقهاء لسجود التلاوة ما اشترطوه للصلاة من طهارة واستقبال قبله وستر عورة .

ومن سجد سجود التلاوة دعا بما شاء ، وقد صح عن رسول الله ﷺ انه كان يقول في سجوده (سجد وجهي للذي خلقه وشق سمعه وبصره بحوله وقوته فتبارك الله أحسن الخالقين) (١) رواه الخمسة إلا ابن ماجه

وبالنسبة لسجود التلاوة في الصلاة : يجوز للامام والمنفرد ان يقرأ كل منها آية السجدة في الصلاة الجهرية والسرية ، ويسجد متى قرأها روى البخارى ومسلم عن أبي رافع قال : صليت مع أبي هريرة رضي الله عنه : صلاة العتمة أو قال صلاة العشاء فقرأ : ﴿ إذا السماء انشقت ﴾ فسجد فيها فقلت يا أبا هريرة ما هذه السجدة ؟ فقال سجدت فيها خلف أبي القاسم ﷺ فلا أزال أسجدها حتى ألقاه (٢) . قال النووي : لا يكره قراءة للسجدة عندنا للامام كما لا يكره للمنفرد ، سواء كانت الصلاة سرية أو جهرية ، ويسجد متى قرأها .

ومواضع السجود في القرآن الكريم خمسة عشر موضعا في سورة (الاعراف آية ٢٠٦) ، (الرعد آية ١٥) ، (النحل آية ٤٩) ، (الاسراء آية ١٠٧) ، (مريم آية ٥٨) ، (الحج آية ١٨) ، (الحج آية ٧٧) ، (الفرقان آية ٦٠) ، (النمل آية ٢٥) ، (السجدة آية ١٥) (ص آية ٢٤) ، (فصلت آية ٣٧) ، (النجم آية ٦٢) ، (الانشقاق آية ٢١) ، واسجد واقترب - العلق آية ١٩ . فتأمل حال السعداء من حال الاشقياء ، السعداء إذا امرؤ بالسجود خروا سجدا وبكيا ، الاشقياء إذا امرؤ بالسجود قالوا : ﴿ أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفورا ﴾ .

كان سفيان الثوري يقول في هذه الآية : إلهي زدني لك خضوعا ، ما زاد عداك نفورا . ثم يأتي الجواب قاطعا والبرهان ساطعا عما سألوا عنه ، انهم لما قالوا : وما الرحمن ! جاءتهم الاجابة من قبل الرحمن في قوله تعالى ﴿ تبارك الذي جعل في السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا ، وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا ﴾ .
أى تقدس ربنا الذي جعل في السماء نجوما كبارا عدها المتقدمون نحو ألف وعدها علماء العصر الحاضر بعد كشف آلات الرصد الحديثة أكثر من مائتي ألف ألف ولا يزال البحث يكشف كل حين منها جديدا ، وجعل فيها شمسا متوقدة وقمرا مضيئا .

ثم بين آية أخرى من آيات قدرته وفيها الدليل على وحدانيته فقال سبحانه : ﴿ وهو الذي جعل

(١) الحديث رواه مسلم في كتاب صلاة المسافرين حديث رقم ٢٠١ ، وفي كتاب الجنازات حديث رقم ٧ ، وأبو داود في كتاب الصلاة رقم ١١٩ ، وفي السجود ٧ ، وفي كتاب الجنازات رقم ١٧ ، والترمذي في أبواب الجمعة رقم ٥٥ ، وفي أبواب الدعوات رقم ٣٣ ، والنسائي في كتاب التطبيق رقم ٦٧ / ٧٠ ، وابن ماجه في أبواب الاقامة رقم ٧٠ ، وفي أبواب الجنازات رقم ٦ ، وأحمد في مسنده ٣١ / ٦ ، ٢١٧ ، ٢٩٧

(٢) الحديث رواه البخارى في كتاب الأذان رقم ١٠٠ ، ١٠١ ، وفي كتاب السجود رقم ١١ ومسلم في كتاب المساجد حديث رقم ١١٠ .

الليل والنهار خلفه لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا ﴿ أي وهو الذي جعل الليل والنهار متعاقبين يخلف أحدهما الآخر ، فيكون في ذلك عظة لمن أراد ان يتعظ باختلافهما ويتذكر آلاء الله فيهما ويتفكر في صنعه أو أراد ان يشكر نعمة ربه ليحظى ثمار كل منهما ، إذ لو جعل أحدهما دائما لفاتت فوائد الآخر ، ولحصلت السامة والملل وفتر العزم الذي يثيره دخول وقت الآخر ، إلى نحو أولئك من الحكم التي أحكمها العلي الكبير .

وقد جل جلال الله إذ يقول : ﴿ وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شيء فصلناه تفصيلا ﴾ (١) وإذ يقول سبحانه : ﴿ يقلب الله الليل والنهار إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار ﴾ (٢) ويقول سبحانه : ﴿ قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون ، قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾ (٣)

وفي رحاب هذه الآيات نعيش مع قصة الايمان (للشيخ نديم مفتي طرابلس ولبنان الشمالي) فقد كتب تحت عنوان (المطويات بيمينه) قال بأسلوب شائق ممتع فيه الروعة والجمال في صورة سؤال وجواب التلميذ واسمه حيران بن الاضعف يسأل والشيخ واسمه ابو النور الموزون من علماء سمرقند .

قال الشيخ : - والآن يا حيران بأى آيات الله في مخلوقاته نبدأ ؟
حيران : الخيار لك يا مولاي ، فمخلوقات الله في السماء والأرض أكثر من ان تحصى ، فهل إلى ذكرها كلها من سبيل ؟

الشيخ : ليس الخيار لي ولكني سأتابع نهج القرآن الكريم ، وأختار ما اختاره فيه العليم الحكيم . فالقرآن يحض على النظرة الشاملة حين يقول : ﴿ أولم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء ﴾ (٤) ونقسم هذه النظرة الشاملة حين يقول ﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾ (٥) ويختار من آياته ، في الآفاق وفي أنفسنا ، أشياء يخصها بالذكر ، فمن الخير لنا ان نتبع نفس التقسيم والترتيب ، ولكن لا سبيل لنا ، كما قلت يا حيران ، لتفصيل الكلام عن كل شيء من آيات الله ، فلا بد ان نحصر الكلام في نطاق ما خصه القرآن بالذكر ، لتتخذ منه ، كما أراد لنا العليم الحكيم ، منطلقا للنظرة الشاملة الكاملة .

حيران : إذا نبدأ بآيات الله في الآفاق
الشيخ : نعم في الآفاق .

(٤) سورة الاعراف آية رقم : ١٨٥

(٥) سورة فصلت آية رقم : ٥٣

(١) سورة الاسراء آية رقم ١٢

(٢) سورة النور آية رقم ٤٤

(٣) سورة القصص الآيات : ٧١ - ٧٣

حيران : ونبدأ بالسماء

الشيخ : نعم نبدأ بالسماء يا حيران لنرى ، على ضوء القرآن والعلم ، ما هو حظ المصادفة في هذا الخلق العظيم .

- يقول الخلاق العظيم في كتابه الكريم : ﴿والسما بيناها بأيد وإنا لموسعون﴾^(١) .
 ويقول سبحانه : ﴿أولم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء﴾^(٢) .
 - ﴿أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بيناها وزيناها وما لها من فروج﴾^(٣) .
 - ﴿الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها﴾^(٤) .
 - ﴿وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون﴾^(٥) .
 - ﴿الذي خلق سبع سموات طباقا ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور﴾^(٦) .
 - ﴿أنتم أشد خلقا أم السماء بناها رفع سمكها فسواها﴾^(٧) .
 - ﴿إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا﴾^(٨) .
 - ﴿تبارك الذي جعل في السماء بروجا ، وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا﴾^(٩) .
 - ﴿والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم . والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم . لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون﴾^(١٠) .

- ﴿فلا أقسم بمواقع النجوم ، وإنه لقسم لو تعلمون عظيم﴾^(١١) .
 فتعال يا حيران ننظر كما أمر الله سبحانه ، وعلى ضوء العلم ، إلى ما في هذه السماء من شيء مخلوق بلا تفاوت ، وبينان مشيد بلا عمد ، وسقف محفوظ بلا فطور ، وسمك مرفوع بلا فروج ، وإلى ما هي عليه هذه السماء من سعة تستحق أن يقول عنها خالقها بكل جبروت الألوهية : ﴿والسما بيناها بأيد وإنا لموسعون﴾ وإلى ما في بنائها من نجوم لا تعد ولا تحصى ، وما لهذه النجوم من (مواقع) تستحق أن تكون محلا للقسم العظيم يقسمه الخلاق العظيم بماذا أحدثك عن سعة السماء يا حيران ... ؟
 ان السعة التي عرفها العلم اليوم من السماء لم تكن تخطر على قلب بشر في العصر الذي نزل فيه القرآن . أنت تعلم ان الضوء يقطع في الثانية ١٨٦ ألف ميل (أو ٣٠٠ ألف كيلومتر) أي أنه يقطع في الدقيقة (١١ مليون و ١٦٠ ألف ميل) وفي السنة الواحدة من سنينا يقطع (ستة ملايين مليون ميل أو ستة آلاف مليار ميل تقريبا) بهذه المسافة هي التي اصطلحوا على تسميتها (السنة الضوئية) ليعبروا بها

(١) سورة الذاريات آية رقم ٤٧

(٢) سورة الاعراف آية رقم ١٨٥

(٣) سورة ق آية رقم ٦

(٤) سورة الرعد آية رقم ٢

(٥) سورة الانبياء آية رقم ٣٢

(٦) سورة الملك آية رقم ٣

(٧) سورة النازعات آية رقم ٢٧ ، ٢٨

(٨) سورة فاطر آية رقم ٤١

(٩) سورة الفرقان آية رقم ٦١

(١٠) سورة يس الآيات من رقم ٣٨ - ٤٠

(١١) سورة الواقعة الآيتان ٧٥ ، ٧٦

عن أبعاد السماء الهائلة ؟ فمتى قيل لنا إن نجما يبعد عنا سنة ضوئية فهمنا انه يبعد عنا ستة ملايين مليون ميل .

فالقمر ، يا حيران ، وهو اقرب الاجرام السماوية إلى الأرض ، يصل نوره إلينا في أقل من ثانيتين ، لأن بعده عن الأرض ٢٤٠ ألف ميل تقريبا اما الشمس فيصل نورها إلينا في نحو ٨ دقائق لأن بعدها عن الأرض ٩٣ مليون ميل تقريبا . فهل تدري يا حيران كم يبعد عنا أقرب نجم إلينا بعد الشمس ؟

حيران : اذكر اني تعلمت في المدرسة ان نور الشمس يصل إلينا في ٨ دقائق ولا أذكر ما قيل لنا عن القمر والنجوم .

الشيخ : ان اقرب نجم إلى الارض يبعد عنها أربع سنوات ضوئية تقريبا ، ومعنى ذلك انه يبعد عنا ٢٣ مليون مليون ميل تقريبا .

حيران : هذا شيء هائل .

الشيخ : هذا شيء تافه يا حيران ، ف وراء ذلك (النسر الطائر) الذي يبعد عنا ١٤ سنة ضوئية ، (والنسر الواقع) الذي يبعد عنا ٣٠ سنة ضوئية ، و (السمال الرامح) الذي يبعد عنا ٥٠ سنة ضوئية أى (٢٩٤ مليون مليون ميل) تقريبا .

حيران حقا إن ذاك شيء تافه ، فهذا هو الهائل الشيخ - وهذا ايضا تافه يا حيران ، ف وراء ذلك نجوم تبعد عنا ألف سنة ضوئية ، و وراء مجراتنا هذه سدم منها سديم (المرأة المسلسلة) الذي يبعد عنا مليون سنة ضوئية ، و وراءه من السدم ما هو أبعد في تقدير العلماء . فهل يكفيك هذا يا حيران لتدرك معنى ذلك التوكيد المضاعف الذي عبر به الخلاق العظيم عن سعة السماء بقوله : ﴿ والسماء بنيناها بأيدٍ وإنا لموسعون ﴾ .

حيران : سبحان الخلاق العظيم .. سبحانه .

الشيخ : هذا في سعة السماء ، أما عدد النجوم فماذا أحدثك ؟ إنهم في الماضي كانوا يعدون النجوم بالألوف ، ثم صاروا يعدونها بالملايين ، ثم صاروا يعدونها الى مليارين - اما اليوم فإنهم يقدرون عدد النجوم في المجرة التي نحن من عالمها بثلاثين مليارا .

حيران : ثلاثون مليارا في مجرتنا وحدها .

الشيخ : نعم ثلاثون مليارا في مجرتنا هذه التي تسمى عندنا (درب التبان)

وتسمى عند الافرنج (الدرب اللبنة) . وهذه المجرة ، التي يقع نظامنا الشمسي كله في طرفها ، يوجد وراءها عالم السدم .

ومن جملته سديم المرأة المسلسلة بل عوالم السدم التي رأوا منها حتى اليوم بآلات التصوير (٥٠٠) ألف سديم ، ثم قالوا لو تقدمت هذه الآلات وازدادت اتقانا ، لرأينا أكثر من مليون سديم .

حيران : ياللهول . سبحان الخلاق العظيم .

الشيخ : وعن مواقع النجوم بماذا أحدثك يا حيران . . . ؟ لقد رأى العلماء ان لهذه النجوم مواقع

لا تتبدل ولا تتغير ، فظنوها ثابتة ، وسموها (الثوابت) ، ومنها شمسنا . . وما هي بثوابت كما حقق العلماء في هذا العصر ، بل كلها تدور وتجرى ، لمستقر لها في مجريين مختلفين ، متداخل أحدهما في الأخرى ، كأنها فوجان من النحل مختلطان .

، ولكن هذا الجرى يتم ويستمر في مواقع ومدارات لا تتبدل ولا تتغير بنسبة بعضها إلى بعض على كر الدهور بذلك النظام العجيب الذي كان محل القسم العظيم .

حيران : والشمس تجرى معها أيضا ؟

الشيخ : كيف لا والشمس نجم من جملة نجوم هذه المجرة ، إنها تجرى مثلها ومعها أيضا صاحبة وراءها موكبها من السيارات ومن جملتها الأرض .

حيران : فرج الله عنك يامولاي كما فرجت عنى . فقد كان العلم يؤكد ان النجوم ثوابت ، وان الشمس ثابتة ، وكنت أجادل مشايخي في معنى قوله تعالى : ﴿ والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وكل في فلك يسبحون ﴾ .

الشيخ : ألم تتعلم يا حيران ، من كل ما قررته لك ، ان حقائق العلم لا يمكن ان تتنافى مع حقائق الدين الحق . ان النجوم كلها تدور وتجرى ، والشمس معها تدور وتجرى إنهم عرفوا من قبل ، أنها تدور على محورها مرة في مدة ٢٦ يوما ، ولكنهم كان يحسبونها ثابتة لا تنتقل ولا تجرى ، أما اليوم فقد ثبت لهم ثبوتها لا ريب فيه ، أنها تجرى ، وان النظام الشمسي كله يجرى في السماء ، كما تجرى كل النجوم في مجرتنا وفيها وراءها جريا عجيبا لمستقر لها ، كما قال القرآن . ومن مواقع النجوم عرف العلم ان لها اقدارا ثابتة .

مقدرة بحسب نورها وعددها ! عدوا منها في الماضي البعيد ستة اقدار ووقفوا ، ثم مازال العلم يكشف الجديد ، حتى وصلوا إلى القدر العشرين ثم إلى القدر الحادى والعشرين . والعجيب في هذه الاقدار انها تسير متروية أو متدنية بحسب عدد النجوم تارة ، وبحسب قوة نورها أخرى ، في نسب مذهشة تطرد في عدد النجوم ، فتزداد تباعا من قدر إلى قدر ، فيكون عدد نجوم القدر الاول ١٤ نجما ، ثم لا يزال يزداد حتى يبلغ في القدر العشرين ٧٦ مليون نجم ، ويبلغ في القدر الحادى والعشرين مليارى نجم . اما في قوة النور ، فالعجيب ان قوة النور في تلك الاقدار ، تزداد باطراد من القدر الأول إلى القدر العاشر ، فكلما زاد عدد نجوم القدر زادت قوة نور نجومه ، واما بعد القدر العاشر فتعكس الآية وتأخذ قوة النور في التضاؤل .

وترى مثل هذا التناسب بين الأبعاد في عالم الشمس . فأنت تعلم أن في المجموعة الشمسية ثمانية كواكب غير منيرة تدور حول الشمس : أصغرها عطارد ثم المريخ ثم الزهرة ، فالأرض فأورانوس فنبوتون فزحل فالمشتري ، ثم بلوتو الذى كشفوه منذ ثلاثين سنة (وهو كوكب شاذ في صغر حجمه وفي بعده عن الشمس فلا يصلح أن يكون سببا قاطعا لإبطال النسبة العجيبة التى سأذكرها لك عن بعد الكواكب من الشمس) . هذا في ترتيب أحجامها ، وأما بعدها عن الشمس فالكواكب تأتى على ترتيب آخر : فأقربها عطارد الذى يبلغ متوسط بعده عن الشمس ٣٦ مليون ميل ، ثم الزهرة

ومتوسط بعدها ٦٧ مليوناً ، فالأرض ومتوسط بعدها ٩٣ مليوناً ، فالمرخ وبعده ١٤٢ مليوناً ، فالمشتري وبعده ٤٨٤ مليوناً ، فزحل وبعده ٨٨٧ مليوناً فأورانوس وبعده ١٧٨٢ مليوناً ، ونبتون ومتوسط بعده عن الشمس ٢٧٩٢ مليوناً من الأميال .

وما ذكرت هذه الأحجام والأبعاد لأعرفك بشيء أنت تعرفه ، أو تستطيع أن تعثر عليه في أبسط كتب الفلك ، وإنما ذكرتها لأعرفك بما تنطوي عليه هذه الأبعاد من نسب مقدرة تدهش العقول : فقد كشف العلماء ان أبعاد هذه السيارات عن الشمس جارية على نسب مقدرة ومطرودة تسير وفق (٩) منازل : أولها (الصفر) ثم نليه ثمانية أعداد تبدأ بالعدد (٣) ثم تتدرج متضاعفة هكذا : (٣ - ٦ - ١٢ - ٢٤ - ٤٨ - ٩٦ - ١٩٢ - ٣٨٤) .

فإذا أضيف إلى كل واحد منها العدد (٤) ثم ضرب حاصل الجمع بتسعة ملايين ميل ، ظهر مقدار بعد السيارة ، التي في منزلة العدد ، عن الشمس . أى أنه بإضافة (٤) إلى كل منزلة تصبح المنازل التسع هكذا : (٤ - ٧ - ١٠ - ١٦ - ٢٨ - ٥٢ - ١٠٠ - ١٩٦ - ٣٨٨) . فإذا أخذنا أعداد المنازل هذه وضربنا كل عدد منها بتسعة ملايين ، يظهر لنا بعد السيارة التي هي في منزلة ذلك العدد عن الشمس . فعطارد مثلاً يبلغ متوسط بعده عن الشمس (٣٦) مليون ميل كما سبق القول ، وبما ان منزلته في البعد هي الأولى ، فيكون رقمها (٤) فإذا ضربنا ٩×٤ ملايين يكون حاصل الضرب (٣٦) مليون ميل . وهكذا تسير النسبة في بعد كل سيارة عن الشمس مع فروق مختلفة قليلة . ولكنهم حاروا كيف تكون المنازل التي اكتشفوها في تفاوت الأبعاد تسع منازل في حين ان الكواكب المعروفة ثمانية . فقد وجدوا أن منزلة العدد (٢٨) ليس فيها كوكب ، بل يأتي ، بعد المريخ صاحب العدد (١٦) ، كوكب المشتري الذي هو صاحب العدد (٥٢) . فما هو السر في هذا الفراغ ؟ إما أن تكون النسبة التي اكتشفوها غير مطردة ، وإما أن يكون هنالك كوكب غير منظور في مرتبة العدد (٢٨) على بعد ٢٥٢ مليون ميل عن الشمس ، أى بين المريخ والمشتري .

ومن عجائب النظام الباهر انهم وجدوا اخيراً في هذا الفراغ الشيء الذي قدروا انه لا بد من وجوده . ولكنهم لم يجدوه كوكباً كبيراً بل وجدوا كويكبات صغيرة كثيرة تدور كلها في الفراغ المذكور الذي بين المريخ والمشتري ، أى في نفس المنزلة التي حسبوها من قبل فارغة فهل هذا التناسب في مواقع النجوم وأقذارها ، ومواقع الكواكب وأبعادها ، كله أثر من أثار المصادفة العمياء يا حيران ؟

حيران : زدنى يامولاي من هذه العجائب زدنى .

الشيخ : ماذا أزيدك ، خذ لك كتاباً من كتب الفلك واقرأه تزدد إيماناً وخشوعاً يا حيران . بماذا أحدثك ؟ أحدثك عن أحجام النجوم والشموس التي تبهر العقول ؟ أحدثك عن الأضواء التي تبهر الأبصار ؟ وما قولى تبهر الأبصار كأنى أحدثك عن شمسنا .

حيران : إذن فهناك نجوم أبهر نورا من شمسنا وأكبر .

الشيخ : وما هي شمسنا هذه يا حيران في نورها وحجمها بالنسبة للنجوم الكبرى ؟ ان نور شمسنا يبلغ بتقدير العلماء (ثلاثة آلاف مليون مليون مليون شمع) ، ولكن ما قولك إذا عرفت

أن نور النجم المسمى (الشعري اليمانية) أقوى من نور شمسنا بـ ٢٦ مرة . . . وإن هنالك ، في النجوم البعيدة ، شمساً نورها أقوى من نور شمسنا بمائة مرة
حيران - ياللهول !

الشيخ : وما قولك إذا عرفت أن العلم اكتشف اليوم أن هنالك نجوماً نورها أقوى من نور شمسنا بـ ٥٠٠ ألف مرة . . . ؟
حيران : ياللهول الهائل !

الشيخ : الهول الهائل في أحجام النجوم الكبرى وأوزانها ياحيران .
فحجم أرضنا هو أكثر من مليون مليون كيلو متر مكعب ، والشمس في حجمها أكبر من أرضنا (بمليون و ٣٠٠ ألف مرة) . لأن متوسط قطر الأرض هو (١٢٧٥٦) كيلو متراً في حين أن متوسط قطر الشمس هو : (مليون و ٣٩٠ ألف) كيلو متر . فتكون نسبة قطر الأرض إلى قطر الشمس كنسبة (واحد إلى ١٠٩) . ومن المعلوم أن أحجام الكرات تتناسب وكعوب أقطارها . فيكون حجم الشمس (١٠٩ مكعبة) أى (مليون و ٣٠٠ ألف مرة) أكثر من حجم الأرض .
وأرضنا هذه وزنها (خمسة آلاف مليون مليون) طن . أما الشمس فلا يستطيع أن أقول لك كم وزنها ، ولكن أقول لك أن كتلة الشمس (masse) أى وزنها أكبر من كتلة الأرض بمقدار (٣٣٢ ألف) مرة فاضرب وزن الأرض بـ (٣٣٢ ألف مرة) وانظر هل تستطيع أن تقرأ حاصل الضرب ؟

والآن بعد أن عرفت حجم الشمس وقطرها ووزنها بالنسبة للأرض فإنى مخبرك أن قطر النجم المسمى (منكب الجوزاء) هو أطول بـ ٤٦٠ مرة من قطر الشمس فيكون حجمه إذن أعظم من حجم الشمس (بمائة مليون مرة) تقريباً .
حيران : ياللهول الهائل !

الشيخ : وهذا أيضاً ضئيل وتافه بالنسبة إلى حجم (سديم المرأة المسلسلة) الذى يضرب العلماء مثلاً ، ليعرفوك بالفرق العظيم بين حجمه وحجم الشمس ، فيقولون لك : (هذه الهباءة من الغبار التى تراها فى شعاع الشمس النازل من الكوة إلى أرض غرفتك كم هو حجمها ووزنها تلك الهباءة ، بالقياس إلى حجم الأرض ؟ هكذا حجم شمسنا ووزنها بالقياس إلى سديم المرأة المسلسلة ، وحق لهم أن يضربوا هذا المثل ، فإن كتلة سديم المرأة المسلسلة ، أى وزنها يفوق قدر كتلة الشمس بنحو (ألف مليون مرة) . أما حجمه ياحيران فأعظم بكثير . . فلكى تعرف ما هو حجم سديم المرأة المسلسلة بالنسبة إلى حجم الشمس ، يجب أن تعرف مقدار قطره بالنسبة لقطر الشمس الذى سبق معك أن طوله مليون و ٣٩٠ ألف كيلو متر ، فهل تدري كم هو طول قطر سديم المرأة المسلسلة ؟ إنه يبلغ نحو ٣٠ ألف سنة نورية . . أى أن حجم هذا السديم يبلغ قدر حجم الشمس (مليون مليون مليون مليون مرة) (أو ألف مليار مليار مرة .)

حيران : ياللهول الهائل . . سبحان الله العظيم . . كيف تقف هذه الأحجام والأوزان الهائلة

في الفضاء بهذا التوازن العجيب ؟

الشيخ : يجيبك القرآن عن هذا فيقول لك : ﴿ الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها ﴾ ويقول لك : ﴿ إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ﴾ .
أما العلم فيقول إن هذا الامساك يحصل بقوة الجاذبية ، التي شاهد العلماء آثارها ، وأحصوا أطوارها ، ومسوا سطوحها ولم يسبروا أغوارها ، وعرفوا قوانينها ونواميسها ولم يعرفوا بعد أسرارها . . . ولعمري انه الحق ما قالوا . فالجاذبية حق ، وقوانينها المحسوبة المتزنة المناسبة المحكمة الدقيقة حق . ولكن هل يكون القانون الدقيق المحكم اثرا من آثار المصادفة العمياء يا حيران . . . ؟
﴿ وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ (١) .

عباد الرحمن

وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿٦٣﴾
وَالَّذِينَ يَبِينُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَمًا ﴿٦٤﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٢﴾
وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْ لَنَا لِمُنْتَظَرٍ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ﴿٧٥﴾ خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ

رَبِّ لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾

معاني المفردات

الهُون : الرفق واللين والمراد أنهم يمشون في سكينة ووقار ، ولا يضربون بأقدامهم أشرا وبطرا ، الجاهلون : أى السفهاء

سلاما : أى سلام توديع ومتاركة لاسلام تحية كقول إبراهيم لأبيه : « سلام عليك »
يبيتون : أى يدركهم الليل ناموا أو لم يناموا كما يقال بات فلان قلقا .
غراما : أى هلاكا لازما ، قال الأعشى

إن يعاقب يكن غراما وإن يعط جزىلا فإنه لا يبالي
الاسراف : - مجاوزة الحد فى النفقة بالنظر لنظرائه فى المال .

التقتير : التضييق والشح
قواما : أى وسطا عدلا

لا يدعون : أى لا يشركون

الآثام : الاثم والمراد جزاؤه

مهانا : أى ذليلا مستحقرا

لا يشهدون الزور : أى لا يقيمون الشهادة الكاذبة والمراد أنهم لا يساعدون أهل الباطل على باطلهم .
واللغو ما ينبغى أن يلغى وي طرح مما لا خير فيه .

كراما : أى مكرمين أنفسهم عن الخوض فيه

الخرور : السقوط على غير نظام وترتيب .

قرة العين : يراد بها الفرح والسرور .

الامام : يستعمل للمفرد والجمع والمراد الثانى أى أئمة يقتدى بهم فى إقامة مراسم الدين .

الغرفة : كل بناء عال مرتفع ويراد بها الدرجات الرفيعة .

ما يعبا بكم : أى لا يعقد بكم .

دعائكم : أى عبادتكم .

لزاما : أى لازما يحق بكم حتى يكبكم فى النار .

المناسبة وإجمال والمعنى

بعد أن وصف الكافرين بالاعراض عن عبادته والنفور من طاعته والسجود له عز اسمه - ذكر هنا أوصاف خلص عباده المؤمنين وبين ما لهم من فاضل الصفات ، وكامل الاخلاق ، التى لأجلها استحقوا

جزيل الثواب من ربهم ، وأكرم لأجلها مثواهم ، وقد عد من ذلك تسع صفات مما تشرئب إليها أعناق العاملين ، وتتطلع إليها نفوس الصالحين الذين يبتغون المثوبة ونيل النعيم كفاء ما اتصفوا من كريم الخلال ، وأتوا به من جليل الأعمال .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما ﴾ .

هذه صفات عباد الله المؤمنين ﴿ الذين يمشون على الأرض هونا ﴾ أى بسكينة ووقار من غير جبرية ولا استكبار ، كقوله تعالى : ﴿ ولا تمش في الأرض مرحا ﴾ فأما هؤلاء فإنهم يمشون من غير استكبار ولا مرح ولا أشر ولا بطر ، وليس المراد أنهم يمشون كالمرضى تصنعاً ورياء ، فقد كان سيد ولد آدم ﷺ إذا مشى كأنما من صيب ، وكأنما الأرض تطوى له ، وقد كره بعض السلف المشى بتضعف وتصنع ، حتى روى عن عمر أنه رأى شاباً يمشى رويداً ، فقال ما بالك أنت مريض ؟ قال لا يا أمير المؤمنين فعلاه بالدرة وامره ان يمشى بقوة، وإنما بالمراد بالهون هنا السكينة والوقار كما قال رسول الله ﷺ (إذا أتيتم الصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون وأتوها وعليكم السكينة فما أدركتم منها فصلوا وما فاتكم فأتموا) .

وقال عبد الله بن المبارك عن معمر عن عمر بن المختار عن الحسن البصري في قوله (وعباد الرحمن) قال : إن المؤمنين قوم ذلل ، ذلت منهم والله الأسماع والأبصار والجوارح ، حتى يحسبهم الجاهل مرضى وما بالقوم من مرض ، وإنهم والله لأصحاء ، ولكنهم دخلهم من الخوف ما لم يدخل غيرهم ، ومنعهم من الدنيا علمهم بالآخرة .

قالوا : الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن . أما والله ما أحزنهم ما أحزن الناس ولا تعظم في نفوسهم بشيء طلبوا به الجنة ، ولكن أبكاهم الخوف من النار ، إنه من لم يتعز بعزاء الله تقطع نفسه على الدنيا حسرات ، ومن لم ير لله نعمة إلا في مطعم أو مشرب ، فقد قل علمه وحضر عذابه . وقوله تعالى : ﴿ وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما ﴾ أى إذا سفه عليهم الجاهل بالقول السيئ لم يقابلوهم عليه بمثله ، بل يعفون ويصفحون ولا يقولون إلا خيراً ، كما كان رسول الله ﷺ لا تزيده شدة الجاهل عليه إلا حلماً ، كما قال تعالى : ﴿ وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه ﴾ .

وروى الامام أحمد بسنده عن النعمان بن مقرن المزني قال : قال رسول الله ﷺ وسب رجل رجلاً عنده فجعل المسبوب يقول : عليك السلام فقال رسول الله ﷺ : (أما إن ملكاً بينكما يذب عنك كلما شتمك هذا قال له بل أنت وأنت أحق به وإذا قلت له وعليك السلام قال لا بل عليك وأنت أحق به) (١) .

وقال مجاهد (قالوا سلاما) يعنى قالوا: سدادا ، وقال سعيد بن جبير : ردوا معروفا من القول ، وقال الحسن البصرى ، قال سلام عليكم ، إن جهل عليهم حلموا ، يصاحبون عباد الله نهارهم بما يسمعون ، ثم ذكر أن ليلهم خير ليل ، فقال تعالى : ﴿ والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما ﴾ أى فى طاعته وعبادته ، كما قال تعالى : ﴿ كانوا قليلا من الليل ما يهجعون وبالأسحار هم يستغفرون ﴾ (١) وقوله : ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ﴾ (٢) وقال تعالى : ﴿ أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه ﴾ (٣) .

فضل قيام الليل

عن أبى هريرة رضى الله عنه ان رسول الله ﷺ قال : (يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد يضرب على كل عقدة عليك ليل طويل فارقد ، فإن استيقظ فذكر الله تعالى انحلت عقدة ، فإن توضأ انحلت عقدة ، فإن صلى انحلت عقده كلها فأصبح نشيطا طيب النفس وإلا أصبح خبيث النفس كسلان) رواه مالك والبخارى ومسلم وأبو داود والنسائى .
وابن ماجه وقال : (فيصبح نشيطا طيب النفس ، قد أصاب خيرا ، وإن لم يفعل أصبح كسلا خبيث النفس لم يصب خيرا) (٤) رواه ابن خزيمة فى صحيحه ونحوه .
وزاد فى آخره : فحلوا عقد الشيطان ولو بركعتين .

المعنى : -

[قافية] الرأس : مؤخره ومنه سمي آخر بيت الشعر قافية .
يعقد : أى يأتى بأشياء حقيقية وينوبها ويثبتها ويسحر عليها ، كى تمنع الانسان من القيام من نومه ، ليعبد ربه ، كما يعقد الساحر من سحره . قال العيني واكثر ما يفعله النساء : تأخذ إحداهن الخيط فتعقد منه عقدا وتتكلم عليها بالكلمات ، فيتأثر المسحور عند ذلك ، كما أخبر الله تعالى فى كتابنا الكريم : ﴿ ومن شر النفاثات فى العقد ﴾ (٥) فالذى خذل يعمل فيه ، والذى وفق يصرف عنه ، والدليل على كونه على الحقيقة ما رواه ابن ماجه ومحمد بن نصر من طريق صالح عن أبى هريرة مرفوعا (على قافية رأس أحدكم حبل فيه ثلاث عقد) (٦) إلى أن قال بعضهم : هو على المجاز كأنه شبه فعل الشيطان بالنائم بفعل الساحر بالمسحور ، وقيل : هو من عقد القلب وتصميمه ، فكأنه يوسوس بأن

(١) الذاريات الآية رقم : ١٧ ، ١٨

(٢) السجدة الآية رقم : ١٦

(٣) الزمر الآية رقم : ٩

(٤) الحديث رواه البخارى فى كتاب التهجد رقم / ١٢ ، وفى كتاب بدء الخلق رقم / ١١ ، ومسلم فى كتاب صلاة المسافرين رقم

٢٠٧ ، وابوداود فى كتاب التطوع رقم / ١٨ ، وابن ماجه فى أبواب الاقامة رقم ١٧٤ ، ومالك فى الموطأ فى كتاب السفر رقم

٩٥ وأحمد فى مسنده ٢ / ٢٤٣ .

(٥) سورة الفلق الآية رقم ٤

(٦) الحديث رواه ابن ماجه فى أبواب الاقامة رقم ١٧٤ ، وأحمد فى مسنده ٢ / ٢٥٣

عليك ليلا طويلا ، فيتأخر عن القيام بالليل ، وقال صاحب النهاية : المراد تثقيله في النوم وإطالته ، فكأنه قد سد عليه سدا وعقد عليه عقدا .

يضرب : يمر بيده ويضغط على حباله الداعية إلى الكسل والخمول والعجز والتقصير عن الطاعات ، وتحصيل الدرجات ، ونيل الحسنات وكسب الخيرات ، وقيل يضرب بالرقاد ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فضربنا على آذانهم في الكهف ﴾^(١) ومعناه حجب الحس عن النائم حتى لا يستيقظ قائلا عند كل ضربة : نم ليلك طويل .

فارقد : نم واهداً .

فأصبح : يستقبل يومه بسرور ، وصباحه بحبور ، وبكورته بفرح جزيل ، قوى البنية ، منشرح الصدر ، باسم الثغر ، مثلوج الفؤاد ، قرير العين ، لان الله تعالى وفقه لطاعته ، وجلب المحامد ، وكسب المحاسن ، وقد بارك له في وقته وفي نفسه وتصرفه الحسن ، وأزال سلطان الشيطان عليه وقهره .

وإلا : وإن ترك ما كان اعتاده أو نواه من فعل الخير ، ولم يقم من نومه ، يتعبد ، طلع النهار وعليه الغضب والخبث (كسلان) ببقاء أثر تشييط الشيطان عليه ، قال الكرمانى : وأعلم أن مقتضى (وأصبح) ان من لم يجمع الأمور الثلاثة : الذكر والوضوء والصلاة ، فهو داخل تحت من أصبح خبيث النفس كسلان وإن أتى ببعضها ، وقال العيني : وإن لم يذكر ولم يتوضأ ولم يصل ، يصبح خبيث النفس كسلان ؛ وفيه ان الذكر يطرد الشيطان ، وكذا الوضوء والصلاة ، ويجزىء كل ما يصدق عليه ذكر الله تعالى ، ويدخل فيه تلاوة القرآن ، ولا تحل عقدة الجنب إلا بالاغتسال .

وعن جابر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (ما من ذكر ولا أنثى إلا على رأسه جرير معقود حين يرقد بالليل ، فإن استيقظ فذكر الله انحلت عقدة فإذا قام توضأ وصلى ، انحلت العقد وأصبح خفيفا طيب النفس قد أصاب خيرا)^(٢) . رواه ابن خزيمة في صحيحه

وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (أفضل الصيام بعد رمضان شهر الله المحرم ، وأفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل)^(٣) . رواه مسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن خزيمة في صحيحه

وعن عبدالله بن سلام رضى الله عنه قال : أول ما قدم رسول الله ﷺ المدينة انجفل الناس إليه ، فكنت فيمن جاءه ، فلما تأملت وجهه واستبنته عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب . قال فكان أول ما سمعت من كلامه أن قال : (أيها الناس أفشوا السلام وأطعموا الطعام وصلوا الأرحام وصلوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام)^(٤) رواه الترمذى

(١) سورة الكهف الآية رقم : ١١

(٢) صحيح ابن خزيمة ٢ / ١٧٥ - ١٧٦ رقم ١١٣٣ ، كتاب الصلاة قال ابو بكر ابن خزيمة : الجرير : الحبل .

(٣) الحديث رواه مسلم في كتاب الصيام حديث رقم ٢٠٢ ، والترمذى في ابواب المواقيت رقم ٢٠٧ ، والنسائى في كتاب قيام الليل رقم ٦ ، وأحمد في مسنده ٢ / ٣٤٤

(٤) الحديث رواه الترمذى في أبواب القيامة رقم ٤٢ ، وابن ماجه في أبواب القيامة رقم ١٧٤ ، وفي ابواب الاطعمة رقم ١ / ١ ، والدارمى في كتاب الصلاة رقم ١٥٦ ، وفي كتاب الاستئذان رقم ٤ / ٤ ، وأحمد ٥ / ٤٥١ .

المعنى

أفشوا : أكثروا من رميه على من عرفت ومن لم تعرف ، والسلام من الله الأمان والرحمة .
 أطعموا الطعام : أكثروا من إطعام الطعام والجود والكرم وبذل المعروف وإيواء الجائع .
 وصلوا الأرحام : زوروا أقاربكم وودوهم بصلة وهدية وساعدوهم وأعينوهم واستجلبوا رضاهم .
 وصلوا بالليل : - تهجدوا

بسلام : بلا عذاب

انجفل الناس : أى أسرعوا ومضوا كلهم .

استبينته : أى تحققته وتبينته .

وعن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال : (فى الجنة غرفة يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها فقال ابو مالك الأشعرى : لمن هى يارسول الله ؟ قال : لمن أطاب الكلام ، وأطعم الطعام وبات قائما والناس نيام)^(١) رواه الطبرانى فى الكبير

المعنى

أطاب الكلام : أحسن القول ، وأبش وجهه ، وطاب كلامه ، وعذب لفظه ، وكثر خيره ، وعم بره ولطفه ، وجل أدبه وعظم حياؤه ، ورق شعوره ودق إحساسه .

بات قائما : يذكر الله تعالى ، ويتهجد ويعبد ربه فى ليله ، والناس نائمون ، وأفشوا فعل أمر : أى أظهره برفع الصوت ، وأن تسلم على كل من لقيته من المسلمين وإن لم تعرفه ، وبذل الطعام أن تصدق بما فضل عن نفقة من تلزمك نفقته .

قال النووى : السلام أول أسباب التآلف ، ومفتاح استجلاب المودة ، وفى إفشائه تمكين ألفة المسلمين بعضهم لبعض وإظهار شعارهم من غيرهم من أهل الملل ، مع ما فيه من رياضة النفوس ، ولزوم التواضع ، وإعظام حرمت المسلمين .

وبه يزول التنافر يا أخى المسلم فسلم ، لتدوم المحبة وتجتمع القلوب ، فعليك به ، اجعله تحيتك لأهل بيتك وللمسلمين ، وإفشاؤه سبب رضاء الله تعالى عن عبده ، ويشيب عليه ، قال ﷺ : (أفشوا السلام فإنه لله تعالى رضا) رواه عمر بن الخطاب .

وعن أبى الدرداء (أفشوا السلام كى تعلوا) حديث حسن أى إذا أفشيتم السلام تحاببتكم فاجتمعت كلمتكم فقهرتم عدوكم وعلوتم عليه .

وعن أبى مالك الأشعرى رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : إن فى الجنة غرفا يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها ، أعدها الله لمن أطعم الطعام وأفشى السلام وصلى بالليل والناس نيام)^(٢)

(١) الحديث رواه الطبرانى فى الكبير بإسناد حسن والحاكم وقاله صحيح على شرطهما . (الترغيب والترهيب ١ / ٤٢٣ - ٤٢٤)

(٢) موارد الظمان إلى زوائد ابن حبان ص ٦٨ رقم ٦٤١ .

رواه ابن حبان في صحيحه

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قلت يارسول الله إني إذا رأيتك طابت نفسي وقرت عيني أنبئني عن كل شيء ، قال : (كل شيء خلق من الماء فقلت أخبرني بشيء إذا عملته دخلت الجنة ؟ قال : أطعم الطعام وأفش السلام وصل الأرحام وصل بالليل والناس نيام . تدخل الجنة بسلام)^(١) رواه احمد وابن أبي الدنيا .
المعنى : -

طابت : فرحت وطهرت واستبشرت وطابت نفسه بالشئ : إذا سمحت به من غير كراهة ومنه الحديث أنه قال لعمار : « مرحبا بالطيب المطيب » أى الطاهر المطهر .
وقرت : سرت ومنه حديث « لو رأيك لقرت عيناه » أى لسر بذلك وفرح وحقيقته : أبرد الله دمة عينيه لأن دمة الفرح والسرور باردة) .
وقيل : معنى أقر الله عينك بلغك أمنيته حتى ترضى نفسك وتسكن عينك فلا تستشرف إلى غيره .

أنبئني : - أخبرني

كل شيء خلق من ماء : - الماء أول حادث بعد العرش من أجرام هذا العالم وكل شيء خلق منه وفي قوله تعالى : ﴿ وهو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملا ﴾^(٢)

قيل خلقهما لم يكن حائل بينهما لا أنه موضوع على متن الماء ، واستدل به على إمكان الخلاء .
وروى عن علي رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن فى الجنة لشجرة يخرج من أعلاها حلل ومن أسفلها خيل من ذهب مسرجة ملجمة من در وياقوت لا تروث ولا تبول لها أجنحة خطوها مد البصر فيركبها أهل الجنة فتطير بهم حيث شاءوا ، فيقول الذين أسفل منهم درجة يارب بما بلغ عبادك هذه الكرامة كلها ؟ قال فيقال لهم : كانوا يصلون بالليل ، وكنتم تنامون ، وكانوا يصومون وكنتم تأكلون ، وكانوا ينفقون وكنتم تبخلون ، وكانوا يقاتلون وكنتم تجنبون^(٣) رواه ابن أبي الدنيا
المعنى : -

لا تروث : لا تنزل ثغلا للطعام

خطوها : أى مقدار الخطوة الواحدة نهاية امتداد البصر فى الآفاق ، بمعنى أنها تنهب الأرض نهايتها وتطويها طيا بقدرة الله تعالى ، لتظهر البهجة والرواء والعزة والنعيم ، وتذهب إلى أى مكان أرادها أهل الجنة ، فيراهم من هم أقل منهم عملا صالحا فى دنياهم ، ويسألون الله عز وجل عن سبب هذا

(١) الحديث رواه أحمد ٢/٢٩٥ ، ٣٢٣ ، ٣٢٤ ، ٤٩٣ ورواه أيضا ابن أبي الدنيا فى كتاب التهجد، وابن حبان فى صحيحه، والحاكم وصححه (الترغيب والترهيب ١/٤٢٥)

(٢) سورة هود الآية رقم ٧

(٣) الترغيب والترهيب ١ / ٤٢٥

النعيم ، فيفضل المولى تبارك وتعالى بالاجابة بفضل التهجد ، وصيام النافلة ، وكثرة الصدقات ، وعمل مشروعات الخير ، وإعانة المحتاج والانفاق في البر والجهاد في إعلاء دين الله ، والشجاعة في إظهار الحق ، والمروءة في العدل والشمم في نصر الدين ، والدفاع عن شرع الرسول ﷺ .
وروى عن أسماء بنت يزيد رضى الله عنها عن رسول الله ﷺ قال : (يحشر الناس في صعيد واحد يوم القيامة فينادى مناد فيقول : أين الذين كانوا تتجافى جنوبهم عن المضاجع فيقومون وهم قليل فيدخلون الجنة بغير حساب ثم يؤمر بسائر الناس إلى الحساب)^(١) رواه البيهقي .
المعنى : -

صعيد واحد : وجه الأرض أى مستوى .
تتجافى جنوبهم : يستيقظون ويهجرون فراش النوم في السحر وفيه دليل على أن التهجد يمنع من الحساب .
وعن المغيرة بن شعبة رضى الله عنه قال : قام النبي ﷺ حتى تورمت قدماه ، فقبل له : قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر . قال : (أفلا أكون عبدا شكورا)^(٢) رواه البخارى ومسلم والنسائى .
المعنى : -

تورمت قدماه : أصابها ورم وانتفاخ ، وفي النهاية انتفخت من طول قيامه في صلاة الليل ، يقال : ورم يرم ، والقياس يورم وهو أحد ما جاء على هذا البناء .
وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ يقوم حتى ترم قدماه ، فقبل له : أى رسول الله أتصنع هذا وقد جاءك من الله ان قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر قال : (أفلا أكون عبدا شكورا)^(٣) رواه ابن خزيمة في صحيحه
المعنى :

ترم : فعل مضارع مبنى للمجهول وترم بكسر الراء . من ورم جلده يرم تورم وورمه غيره توريا .
وعن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ كان يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه ، فقلت له : لم تصنع هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال : (أفلا أحب أن أكون عبدا

(١) الحديث أورده المنذرى في الترغيب والترهيب بصيغة التمريض (روى) ١ / ٤٢٥ - ٤٢٦ كتاب الصلاة - الترغيب في قيام الليل وعزاه للبيهقي .

(٢) الحديث رواه البخارى في كتاب التفسير (سورة الفتح) (فتح البارى ١٠ / ٢٠٦) ومسلم في كتاب صفات المؤمنين واحكامهم (صحيح مسلم ١٧ / ١٦٢) ، النسائى ١ / ٢٤٤ كتاب قيام الليل وتطوع النهار ذكر صلاة رسول الله ﷺ بالليل ، الترمذى (تحفة الأحوذى ٢ / ٤٦٠ - ٤٦١) ، البيهقى في السنن الكبرى ٣ / ١٦ كتاب الصلاة ، باب من وثق بنفسه فشدد على نفسه بالعبادة .

(٣) صحيح ابن خزيمة ٢ / ٢٠١ كتاب الصلاة حديث رقم ١١٨٤

شكورا^(١) رواه البخارى ومسلم

المعنى :

تنفطر : أى تتشقق وتتألم من كثرة الوقوف .

عبدا شكورا : بينه وبينه ﷺ بأنه يتعهد ثلث الليل ويكثر من صوم التطوع . قال الشرقاوى : أى أترك قيامى وتهجدى لما غفر لى (فلا أكون عبدا شكورا) . يعنى أن غفران الله لى سبب لأن أقوم وأتهجد شكرا له فكيف أتركه : كأن المعنى ألا أشكره وقد أنعم على وخصنى بخير الدارين ، فإن الشكور من أبنية المبالغة يستدعى نعمة خطيرة ، وتخصيص العبد بالذكر مشعر بغاية الاكرام والقرب من الله تعالى ، ومن ثم وصفه به فى مقام الاسراء ولأن العبودية تقتضى صحة النسبة ، وليست الا بالعبادة والعبادة عين الشكر ، وفيه أخذ الانسان على نفسه بالشدة فى العبادة ، وهو أفضل إن لم يخش الملل ؛ لأنه إذا كان هذا فعل المغفور له ، فكيف من جهل حاله وأثقلت ظهره الأوزار ، ولا يأمن غدا النار .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : (أحب الصلاة إلى الله صلاة داود ، وأحب الصيام إلى الله صيام داود ، كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه ويصوم يوما ويفطر يوما)^(٢) رواه البخارى ومسلم وأبو داود .

المعنى : -

يقوم ثلثه : وقت تجلى الرب تبارك وتعالى على عباده .

ينام سدسه : ليستريح من تعب القيام فى بقية الليل ، وإنما كان هذا أحب إلى الله تعالى ، لأنه أخذ بالرفق على النفوس التى يخشى منها السامة المؤدية إلى ترك العبادة ، والله يحب أن يوالى فضله ويديم إحسانه ، وإنما كان ذلك أرفق ؛ لأن النوم بعد القيام ، يريح البدن ويذهب ضرر السهر وذبول الجسم ، بخلاف السهر إلى الصباح ، وفيه من المصلحة أيضا استقبال الصبح وأذكار النهار بنشاط وإقبال ، ولأنه أقرب إلى عدم الرياء ، لأن من نام السدس الاخير ، أصبح ظاهر اللون سليم القوى ، فهو أقرب إلى أنه يخفى عمله الماضى على من يراه . أشار إليه ابن دقيق العيد .

وعن جابر رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (إن فى الليل لساعة لا يوافقها رجل مسلم يسأل الله خيرا من أمر الدنيا والآخرة إلا أعطاه إياه وذلك كل ليلة)^(٣) رواه مسلم

المعنى :

قال النووى : فيه إثبات ساعة الاجابة فى كل ليلة ، ويتضمن الحث على الدعاء فى جميع ساعات الليل رجاء مصادفتها .

(١) الحديث رواه البخارى فى كتاب التفسير (سورة الفتح) فتح البارى ٣ / ٢٥٦ باب قيام النبى ﷺ بالليل ، ومسلم (صحيح مسلم ١٧ / ١٦٢) كتاب صفات المؤمنين وأحكامهم ، إكثار الأعمال والاجتهاد فى العبادة .

(٢) الحديث رواه البخارى فى كتاب التهجد رقم ٧ / ، وفى كتاب الانبياء رقم ٣٨ / ، والنسائى فى كتاب قيام الليل رقم ١٤ / ، وفى كتاب الصيام رقم ٦٩ ، وابن ماجه فى أبواب الصيام رقم ٣١ ، وأحمد ٢ / ١٦٠ ، ٢٠٦ .

(٣) الحديث رواه مسلم فى كتاب صلاة المسافرين حديث رقم ١٦٦ ، ١٦٧ .

أيها المكروب . إذا أصابك هم فالجأ إلى الله تعالى ، واستيقظ من نومك سحرا ، وتوضأ وصل ركعتين لله نافلة ، وتضرع إليه جل وعلا عسى أن تصادفك ساعة الاجابة ، فيزيل الله كربك ويشرح صدرك ، ويذهب عسرك ويبعد ضيقك .

وعن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : (عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم وقربة إلى ربكم ومكفرة للسيئات ومنهاة عن الاثم)^(١) رواه الترمذي .
المعنى :

دأب : العادة والشأن من دأب العمل : جد وتعب .
مكفرة للسيئات : سبب تغطية الذنوب وسترها ومزيلها وفي النهاية أصل الكفر : تغطية الشيء تغطية تستهلكه ومنه (من ترك الرحي فنعمة كفرها) .

منهاة : أي مبعدة وفي النهاية أي حالة من شأنها ان تنهى عن الاثم ، أو هي مكان مختص بذلك ، وهي مفعلة من النهي والميم الزائدة والنهي العقول واحداثها نهي بالضم ، سميت بذلك لأنها تنهى صاحبها عن القبيح .

نعم إن الذي تعود أن يقف بين يدي ربه يناجيه بلسان الاخلاص شرح الله صدره للعبادة فطهر نفسه من أدران الحياة ، فيتحرى الصالحات فيعملها .

وعن سلمان الفارسي رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (عليكم بقيام الليل ، فإنه دأب الصالحين قبلكم ومقربة لكم إلى ربكم ومكفرة للسيئات ومنهاة عن الاثم ، ومطرده للداء عن الجسد)^(٢) رواه الطبراني في الكبير
المعنى : -

مقربة : يفتح لكم أبواب رحماته ، ويتجلى عليكم برضوانه ، فيستجاب دعاؤكم وتشعرون بالرضا .

مطرده : - في النهاية (هو قربة إلى الله تعالى ، مطردة الداء عن الجسد) أي أنها حالة من شأنها إبعاد الداء ، أو مكان يختص به ويعرف ، وهي مفعلة من الطرد . إن هذا وصف طبيب النفوس ، من قام ليله صفا جسمه ، وملك صحته ، وأزال الله مرضه ، وحسبك الالتجاء إلى الحكيم الخالق أن يشفيه ﴿ الذي خلقني فهو يهدين ، والذي هو يطعمني ويسقين وإذا مرضت فهو يشفين ﴾^(٣)
وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (رحم الله رجلا قام من الليل فصلى وأيقظ امرأته ، فإن أبت نضح في وجهها الماء ، ورحم الله امرأة قامت من الليل فصلت . وأيقظت

(١) الحديث رواه الترمذي في أبواب الدعوات رقم ١٠١ ، ورواه أيضا ابن خزيمة في صحيحه ٢ / ١٧٦ - ١٧٧ كتاب الصلاة حديث رقم ١١٣٥

(٢) الحديث أورده الهيثمي في المجمع وعزاه للطبراني في الكبير وقال : وفيه عبد الرحمن بن سليمان بن أبي الجون وثقه دحيم وابن حبان وابن عدي وضعفه ابو داود وابو حاتم (مجمع الزوائد ٢ / ٢٥) وأورده أيضا بلفظ : عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم وهو قربة إلى ربكم ومكفر للسيئات ومنهاة عن الاثم .
- وقال : رواه الطبراني في الكبير واللاوسط عن أبي أمامة وفيه عبدالله بن صالح كاتب الليث ، قال عبد الملك بن شعيب بن الليث : ثقة مأمون وضعفه جماعة من الأئمة أ هـ

(٣) سورة الشعراء الآيات رقم : ٧٨ - ٨٠

زوجها ، فإن أبي نضحت في وجهه الماء (١) رواه أبو داود

المعنى : -

نضح : أن يأخذ قليلا من الماء فيرش به ، وقد نضح عليه الماء ونضحه به : إذا رشه عليه ، وفيه من السنن العشر الانتضاح .

أى يرش مذاكيره بعد الوضوء لينفى عنه الوسواس ، يدعو النبي ﷺ لمن استيقظ ليتهجد فيوقظ
زوجها بالرحمة والخير ، وشموله بالبركة والرضوان فإذا فتر الصديق ، أو كسل عن اليقظة ، أتى خليله
وخدنه بقليل من الماء يمره على وجهه ، ليزول نومه ، ويبعد كسله ، ويملك شعوره ، ويتعاونان على
عبادة الله . هذه التربية العالية أيها المسلمون أن يتفق الرجل وزوجه على طاعة الله ، وبذا توجد الثقة
والاطمئنان ويدوم العيش الرغد ، وترفرف السعادة بين المتألفين ، وحسبك أنهما في ظل الله يوم
القيامة ، وهما أحد السبعة (اجتماعا عليه وتفرقا عليه) وقد دعا ﷺ أيضا للزوجة إن استيقظت للعبادة
ودعت زوجها النائم للتهجد أن الذى يفعل ذلك بتعاليم القرآن عمل لآخرته ، ودخل في زمرة من
قال الله فيهم : ﴿ وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذى بين يديه ولتنذر أم القرى ومن حولها والذين
يؤمنون بالآخرة يؤمنون به وهم على صلاتهم يحافظون ﴾ (٢) . يقول البيضاوى (مبارك) كثير النفع
والفائدة ، مصدق الكتب التى قبله أو التوراة ، ولينذر أهل مكة ، وأهل الشرق والغرب ، فإن من
صدق بالآخرة خاف العاقبة ، ولا يزال الخوف يحمله على التدبر والنظر ، حتى يؤمن بالنبي ﷺ
والكتاب والضمير يحتملها ويحافظ على الطاعة ، وتخصيص الصلاة لأنها عماد الدين وعلم الايمان .
وروى الطبرانى فى الكبير عن أبى مالك الأشعرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (ما
من رجل يستيقظ من الليل فيوقظ امرأته ، فإن غلبها النوم نضح في وجهها الماء ، فيقومان في بيتهما
فيذكران الله عز وجل ساعة من الليل إلا غفر لهما) (٣)

وعن أبى هريرة وأبى سعيد رضى الله عنهما قالا : قال رسول الله ﷺ : (إذا أيقظ الرجل أهله من
الليل فصليا ، أو صلى ركعتين جميعا ، كتبنا فى الذاكرين والذاكرات) (٤) رواه أبو داود
وعن عبد الله رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (فضل صلاة الليل على صلاة النهار
كفضل صدقة السر على صدقة العلانية) (٥) رواه الطبرانى
المعنى : -

فضل : ثواب والمعنى المحافظة على التهجد تسبب حسنات لمصيلها جمه ، لبعدها عن الرياء ،

(١) الحديث رواه أبو داود فى كتاب التطوع رقم / ١٨ ، وفى كتاب الوتر رقم / ١٣ ، والنسائى فى كتاب قيام الليل رقم / ٥ ، وأحمد
فى مسنده ٢ / ٢٥٠ ، ٤٣٦

(٢) سورة الانعام الآية رقم : ٩٢

(٣) جمع الجوامع ١ / ٧١٧ - قال الهيثمى : وفيه محمد بن اسماعيل بن عياش وهو ضعيف (مجمع الزوائد ٢ / ٢٦٣)

(٤) الحديث رواه أبو داود فى كتاب الوتر رقم / ١٣ ، وابن ماجه فى أبواب الإقامة رقم / ١٧٥

(٥) الحديث رواه ابن المبارك فى الزهد والطبرانى فى الكبير وابو نعيم فى الحلية عن ابن مسعود رضى الله عنه قال الهيثمى ورجاله
ثقات أ هـ وخرجه البيهقى باللفظ المذكور وصحح وقفه (فيض القدير ٤ / ٤٣٦ رقم ٥٨٧٢ ، مجمع الزوائد ٢ / ٢٥١)

ولمجاهدة النفس في ترك لذة النوم ، وطلب مناجاة الرب جل وعلا ، وقال المناوي : يؤخذ منه أن المقتدى به المعلم غيره صلاة النهار في حقه أفضل ، كما في إظهار المقتدى به الصدقة بقصد أن يتبعه الناس .

وقد علق عليه الشيخ الحفنى : يؤخذ من هذا التشبيه ، أنه لو كان يصلى في النهار ، لقصد تعليم الناس ، أو ليقضى به غيره ، كان أفضل من صلاة الليل ، كما أن صدقة العلانية حينئذ أفضل . وروى عن سمرة بن جندب رضى الله عنه قال : (أمرنا رسول الله ﷺ أن نصلى من الليل ما قل أو كثر ونجعل آخر ذلك وترا)^(١) رواه الطبرانى والبخارى .
المعنى : -

نصلى من الليل : صلاة التهجد وبعد ذلك نختم بالوتر . هذا في حق من آانس القيام بالليل وضمن اليقظة وأمن الغفلة .

وروى عن أنس رضى الله عنه يرفعه قال : (صلاة في مسجدي تعدل بعشرة آلاف صلاة ، وصلاة في المسجد الحرام تعدل بمائة ألف صلاة والصلاة بأرض الرباط تعدل بألف صلاة وأكثر من ذلك كله الركعتان يصليهما العبد في جوف الليل لا يريد بهما إلا ما عند الله عز وجل)^(٢) رواه ابو الشيخ بن حبان في كتاب الثواب
المعنى : -

مسجدي : مسجده ﷺ بالمدينة : ثواب الركعة فيه مضاعف حسنات تساوى هذا العدد في غيره .

المسجد الحرام : - بمكة

أرض الرباط : - المكان الذى ينتظر فيه المجاهدون

جوف الليل : - وسطه ، والمعنى أن ثواب الركعتين مضاعف الأجر كثير الثواب . وعن إياس بن معاوية المزنى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (لا بد من صلاة بليل ، ولو حلب شاة ، وما كان بعد صلاة العشاء فهو من الليل)^(٣) رواه الطبرانى
المعنى : -

حلب : - أى تصلى في وقت قدر إخراج اللبن من ضرع الشاة : أى في نحو خمس دقائق . الليل : - بعد راحة وفتور الجسم ، وأخذه قسطا ، ولو قليلا من النوم ولا يعد التهجد إلا بعد القيام من نومه . قال تعالى : ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ﴾^(٤)

(١) الحديث رواه البخارى والطبرانى فى الأوسط والكبير وابويعلی - ولله در فى رواية : أن رسول الله ﷺ كان يأمرنا أن نصلى كل ليلة بعد الصلاة المكتوبة نحوه - وإسناده ضعيف - قاله الهيثمى (مجمع الزوائد ٢ / ٢٥٢)

(٢) الترغيب والترهيب ١ / ٤٣٠ كتاب الصلاة - الترغيب فى قيام الليل .

(٣) الحديث رواه الطبرانى فى الكبير ، قال الهيثمى : وفيه محمد بن إسحاق وهو مدلس وبقية رجاله ثقات (مجمع الزوائد ٢ / ٢٥٢)

(٤) سورة السجدة آية رقم ١٦ .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : فذكرت قيام الليل ، فقال بعضهم : إن رسول الله ﷺ قال : (نصفه ثلثه ربه ، فواق حلب ناقة ، فواق حلب شاة) ^(١) رواه ابو يعلى وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : (أمرنا رسول الله ﷺ بصلاة الليل ، ورغب فيها حتى قال عليكم بصلاة الليل ولو ركعة) ^(٢) رواه الطبرانى فى الكبير والأوسط المعنى : -

أمره ﷺ للنذب ، والترغيب فى قيام الليل ، وذكر الله وتسبيحه وعدم غفلة المسلم، وكنت واقفا أمام سيدنا الحسين رضى الله عنه فجاءنى رجل أعده وليا من أولياء الله ، وأكثر من ذكر هذه الجملة (من كثر دمه كثر نومه ، ومن كثر نومه فالنار أولى به) .

فأيقنت أن هذا يخاطب الجمهور ، ولكن يعلمنى لعل أفقه فأعمل .

وعن سهل بن سعد رضى الله عنهما قال : (جاء جبريل إلى النبى ﷺ فقال : يا محمد : عش ما شئت فإنك ميت ، واعمل ما شئت فإنك مجزى به ، وأحب من شئت فإنك مفارقه ، واعلم أن شرف المؤمن قيام الليل ، وعزه استغناؤه عن الناس) ^(٣) رواه الطبرانى فى الأوسط المعنى : - عن الناس :

سيدنا جبريل عليه السلام يعطى درسا لأشرف الخلق عليه الصلاة والسلام ، ليرشد أمته ﷺ ان العمر وإن طال فماله الفناء ، وكل محاسب على عمله ، إن خيرا وإن شرا مجازى به ومسئول عنه ، ويأمر بالمحبة وحسن المعاشرة والتودد والتحلى بمكارم الأخلاق ، ليكسب الانسان الذكر الحسن بعد فراقه ﴿ كل من عليها فان ﴾ ^(٤) وأخبر أن التهجد رفعة ، ورقى ومحامد ، والعز عدم سؤال أى مخلوق . أشراف : -

كرماء وفضلاء وأعاضم وأسياد أمتى الذين يحفظون القرآن ، ويعملون بأوامره ، ويجتنبون مناهيه ، ويصونون قراءته عن الابتذال ، ويتحرون أماكن النظافة، والمستمعين ويكونون قدوة حسنة وأسوة صالحة .

أصحاب الليل : - التهجدون العابدون الذاكرون المستغفرون .

وروى عن معاذ بن جبل رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (من صلى منكم من الليل فليجهر بقراءته ، فإن الملائكة تصلى بصلاته ، وتستمع لقراءته ، وإن مؤمنى الجن الذين يكونون فى الهواء وجيرانه فى مسكنه ، يصلون بصلاته ويستمعون قراءته ، وإنه يطرد بقراءته عن داره وعن الدور التى حوله فساق الجن ومردة الشياطين وإن البيت الذى يقرأ فيه القرآن عليه خيمة من نور يهتدى بها أهل السماء كما يهتدى بالكوكب الدرى فى لجج البحار وفى الأرض القفر ، فإذا مات صاحب القرآن

(١) الحديث رواه ابو يعلى ، قال الهيثمى : ورجاله رجال الصحيح (مجمع الزوائد ٢ / ٢٥٢)

(٢) الحديث رواه الطبرانى فى الكبير والأوسط ، قال الهيثمى : وفيه حسين بن عبدالله وهو ضعيف (مجمع الزوائد ٢ / ٢٥٢)

(٣) الحديث رواه الطبرانى فى الأوسط ، قال الهيثمى : وفيه زافر بن سليمان ، وثقه احمد وابن معين وابوداود ، وتكلم فيه ابن عدى وابن حبان بما لا يضر (مجمع الزوائد ٢ / ٢٥٢ - ٢٥٣)

(٤) سورة الرحمن الآية رقم : ٢٦

رفعت تلك الخيمة ، فتنظر الملائكة من السماء ، فلا يرون ذلك النور . فتلقاه الملائكة من سماء إلى سماء فتصلي الملائكة على روحه في الأرواح ، ثم تستقبل الملائكة الحافظين الذين كانوا معه ، ثم تستغفر له الملائكة إلى يوم يبعث ، وما من رجل تعلم كتاب الله ، ثم صلى ساعة من ليل ، إلا أوصت به تلك الليلة الماضية الليلة المستأنفة ، أن تنبهه لساعته وأن تكون عليه خفيفة ، فإذا مات وكان أهله في جهازه ، جاء القرآن في صورة حسنة جميلة فوقف عند رأسه ، حتى تدرج في أكفانه فيكون القرآن على صدره دون الكفن ، فإذا وضع في قبره وسوى وتفرق عنه أصحابه ، أتاه منكر ونكير عليهما السلام فيجلسانه في قبره فيجىء القرآن حتى يكون بينه وبينهما ، فيقولان له : إليك حتى نسأله ؟ فيقول : لا ورب الكعبة إنه لصاحبى وخليلى ولست أخذ له على حال ، فإن كنتما أمرتما بشيء ، فامضيا لما أمرتما ودعاني مكاني ، فإنى لست أفارقه حتى أدخله الجنة ، ثم ينظر القرآن إلى صاحبه فيقول : أنا القرآن الذى كنت تجهر بى وتحفنى وتحبنى ، فأنا حبيبك ومن أحببته أحبه الله ليس عليك بعد مسألة منكر ونكيرهم ولا حزن ، فيسأله منكر ونكير ويصعدان ويبقى هو والقرآن ، فيقول لأفرشك فراشا لنا ، ولأدثرنك دثارا حسنا جميلا بما أسهرت ليلك وأنصبت نهارك .

قال : فيصعد القرآن إلى السماء أسرع من الطرف ، فيسأل الله ذلك له ، فيعطيه ذلك فيجىء القرآن فينزل به ألف ألف ملك من مقربى السماء السادسة فيجىء القرآن فيحييه فيقول : هل استوحشت ما زدت منذ فارقتك أن كلمت الله تبارك وتعالى ، حتى أخذت لك فراشا ودثارا ومصباحا ، وقد جئتك به فقم حتى تفرشك الملائكة عليهم السلام . قال : فتنهض الملائكة إنهاضا لطيفا ثم يفسح له في قبره مسيرة أربعمائه عام ، ثم يوضع له فراش بطانته من حرير أخضر حشوه المسك الأذفر ، ويوضع له مرافق عند رجليه ورأسه من السندس والاستبرق ، ويسرج له سراجان من نور الجنة عند رأسه ورجليه يزهران إلى يوم القيامة ثم تضعه الملائكة على شقه الايمن مستقبل القبلة ثم يؤق بياسمين الجنة وتصعد عنه ويبقى هو والقرآن ، فيأخذ القرآن الياسمين ، فيضعه على أنفه غضا فيستنشق حتى يبعث ، ويرجع القرآن إلى أهله ، فيخبرهم كل يوم وليلة ، ويتعاهده كما يتعاهد الوالد الشفيق ولده بالخير ، فإن تعلم أحد من ولده القرآن بشره بذلك ، وإن كان عقبه عقب سوء دعا لهم بالصلاح والاقبال أو كما ذكر^(١) رواه البزار .

المعنى :-

يطرد : يبعد

فساق : عصاة

مردة : جمع مارد : العاني الشديد

خيمة : ظلة ساترة ومنه خيم بالمكان : أقام فيه وسكنه ، فاستعارها لظل رحمة الله ورضوانه ،

وأمنه ، وهذا معنى « الشهيد في خيمة الله تحت العرش » .

(١) الحديث رواه البزار ، قال الهيثمى قال البزار ، قال : ابن معدان لم يسمع من معاذ قلت : وفيه من لم أجده من ترجمه أهـ (مجمع الزوائد ٢ / ٢٥٣ - ٢٥٤) .

بالكوكب : أى الشديد الانارة ، كأنه نسب إلى الدر تشبيها بصفاته ، وقال الغراء : الكوكب الذى عند العرب هو العظيم المقدار ، وقيل : هو أحد الكواكب الخمسة السيارة .
لجج : فضائها الواسع ولجة البحر : معظمة ، والمعنى فى شدة تلاطم أمواجه وظلمه يسطع النور السارى .

القفر : المفازة : الصحراء التى لا تنبت ، والمعنى يستضىء الماشى فى المهامة به ، كذلك يستضاء بالقرآن .

فتلقاه : أى فتقابل به بالبشرى وتستقبله بالفرح .
فتصلى : فتدعوه له بنعيم روحه ، وتجعل الملائكة احتفالا بهيجا لحراسه والحافظين عليه فى حياته .

تستغفر : تكون وظيفة الملائكة طلب الاستغفار له من الله جل وعلا ، حتى ينشر ويخرج من قبره للحساب .

صلى : ذكر الله وسبح واستغفر وتهجد جزءا من الزمن فى سحره .
الليلة : الليلة الآتية الجديدة توصيها سابقتها بيقظته . . والرأفة به وتلطيف هوائها وإزالة شرها : وإبعاد أذاها ، حتى يتجدد نشاطه وتقوى صحته ويزداد انشراحا وقبولا ويشعر بالسرور جهازه : الاستعداد لدفعه

دون : يتمثل القرآن نورا ملاصقا لصدره فوق كفنه
فيجىء القرآن : يمثل الله القرآن بشفيق قوى الحجة مدافع عنه

إليك : إبعد عنا وتنح

ولست أخذه : والله لا أهزمه ولا أتركه

فامضيا : اسألا ونفذا مهمتكما واعملا بواجبكما

ودعاني : اتركاني ملازما له .

تجهر : كنت تقرأ فى الجهر وفى السر ولا تخشى فى الله لومة لائم وتحترمنى وتعظ الناس بى وتعمل بأدأبى .

ويصعدان : يذهبان إلى ربهما .

ولأدثرنك : والدثار : الثوب الذى يكون فوق الشعار (القميص) ، ومنه

دثرونى : أى غطونى بما أدفا به . قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ وَرَبِّكَ فَكْبِيرٌ ﴾ (١) . وإن القلب يدثر كما يدثر السيف فجلاؤه ذكر الله : أى يصدأ كما يصدأ السيف .

أسهرت : بعدت جفونك عن النوم .

وأنصبت : - أقيمت يومك فى العبادة والتلاوة .

الطرف : لمح البصر .

مقربى : الأبرار المقربين المطيعين

فيحييه : - يقدم له أجل تحية مباركة للاستثناس .

فتنهضه : - تطلب منه تخطي هذا المكان برفق لتكسوه من أغلى الرياش وأفخر الأثاث (بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر)

مسيرة أربعمئة عام : - بمقدار سير ناقة نجبية مسرعة . قبره يساوى هذه المسافة في الاتساع .

حشوه المسك : كثير الطيب منتشر الرائحة .

السندس : الحرير الرقيق .

الاستبرق : الحرير الغليظ . قال تعالى : ﴿ وإذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا عليهم ثياب

سندس خضر واستبرق ﴾ (١)

يسرج : - يضاء له

يزهران : يلمعان وفي صفته ﷺ أنه كان أزهر اللون ، والزهر الأبيض المستنير والزهر والزهرة : البياض النير وهو أحسن الألوان .

ياسمين : نوع من أحسن الرياحين عرفها ذكى وشذاها طيب .

غضا : طريا لم يتغير ومنه حديث على هل ينتظر أهل غضاضة الشاب أى نضارته وطراوته .

عقب : إن ترك ذرية فاسقة ، تضرع القرآن لربه عز وجل أن يوفقهم للعمل كأبيهم . وهذه

بشارة عظيمة لحامل القرآن أن يبارك الله في ذريته ويحيطهم برحمته ، ويشملهم برضاه تعالى .

وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : (من بات ليلة في خفة من الطعام

والشراب صلى تراكضت حوله الحور العين حتى يصبح) (٢) رواه الطبراني في الكبير .

المعنى : -

تراكضت : - أى لازمته وأحاطت به وفي حديث ابن عمرو بن العاص (المؤمن أشد ارتكاضة

على الذنب من العصفور حين يعذف به) أى أشد حركة واضطرابا ، والركض : الضرب بالرجل

والإصابة بها . وفي الحديث طلب الأكل الخفيف في العشاء وعدم تثاقل المعدة بالطعام ، رجاء اليقظة

للتهجد ولذكر الله تعالى ، ليعمه نعيم الله ورضوانه ، وتحفه رياض الجنة ، وزهرتها ، ويحوطه نساء

الجنة الحسان يدعون له بالتوفيق ، برجاء أن يزف إليهن يوم القيامة . يأخى : السيدة الحسنة والغادة

الهيفاء تبتهج بعبادتك وتنتظرك ، ل تتمتع بها في آخرتك وتنادى مهرها التهجد .

وقيدت نفسى فى هواك محبة ومن خطب الحسناء لم يغلها مهر

وعن عمرو بن عتبة رضى الله عنه أنه سمع النبى ﷺ يقول : (أقرب ما يكون الرب من العبد فى

جوف الليل الآخر فإن استطعت أن تكون ممن يذكر الله فى تلك الساعة فكن) رواه الترمذى .

(١) سورة الانسان الآيتان ٢٠ ، ٢١

(٢) الحديث رواه الطبراني فى الكبير ، قال الهيثمى : وفيه أصرم بن حوشب وهو متروك (مجمع الزوائد ٢ / ٢٥٥) .

المعنى :

جوف الليل : بعد نصف الليل إلى مطلع الفجر كما قال ﷺ : (ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر ، فيقول : من يدعوني فأستجيب له ، ومن يسألني فأعطيه ومن يستغفرني فأغفر له ؟) أى تنزل رحمته وأمره وملائكته ومعناه الاقبال على الداعين بالاجابة واللفظ .

وعن عبدالله بن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (ما خيب الله امرأ قام فى جوف الليل فافتتح سورة البقرة وآل عمران)^(١) رواه الطبرانى فى الأوسط
المعنى : - ما خيب :

أى ما أسقط وما حرم ، والخائب : الذى لا نصيب له فى الخير وخاب يخيب ويخوب ومنه الحديث : (خيبة لك وياخية الدهر)

وعن أبى الدرداء رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : (ثلاثة يحبهم الله ويضحك إليهم ويستبشر بهم : الذى إذا انكشفت فته قاتل وراءها بنفسه لله عز وجل ، فإما أن يقتل وإما أن ينصره الله عز وجل ويكفيه فيقول : انظروا إلى عبدى هذا كيف صبر لى بنفسه ؟ والذى له امرأة حسنة وفراش لين حسن ، فيقوم من الليل فيقول : يذر شهوته ويذكرنى ، ولو شاء رقد والذى إذا كان فى سفر وكان معه ركب فسهروا ثم هجعوا فقام من السحر فى ضراء وسراء .)^(٢) رواه الطبرانى
المعنى : يكفيه : يبعد عنه شرهم ويزيل ضررهم .

يذر : يترك لذته ويبتعد عن تمتعه بزوجه الحسناء حبا فى ذكر الله وتسبيحه تهجدا .
رقد : نام وأحل الله له ذلك وتمتع .

ركب : جماعة رفقاؤه

فهرؤا : أدلجوا طول الليلة ولم يذوقوا النوم .

هجعوا : ناموا ليلا وفى حديث الثورى : طرقتى بعد هجع من الليل . والهجع والهجرة والهجيع : طائفة من الليل .

السحر : آخر الليل يتحمل آلام السهر فى طاعة الله وذكره ويشعر بالسرور فى درك ثواب الله .
وعن ابن مسعود رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : (عجب ربنا تعالى من رجلين : رجل ثار عن وطائه ولحافه من بين أهله وحبه إلى صلاته ، فيقول الله جل وعلا : انظروا إلى عبدى ثار عن فراشه ووطائه من بين حبه وأهله إلى صلاته رغبة فيما عندى وشفقة مما عندى ، ورجل غزا فى سبيل الله وانهمز أصحابه وعلم ما عليه فى الانهزام وماله فى الرجوع ، فرجع حتى يريق دمه فيقول الله انظروا إلى عبدى رجع رجاء فيما عندى وشفقة مما عندى حتى يهريق دمه)^(٣) رواه احمد

(١) الحديث رواه الطبرانى فى الأوسط ، قال الهيثمى : وفيه ليث بن أبى سليم وفيه كلام وهو ثقة مدلس أ هـ (مجمع الزوائد ٢ / ٢٥٤)

(٢) الحديث رواه الطبرانى فى الكبير ، قال الهيثمى : ورجاله ثقات (مجمع الزوائد ٢ / ٢٥٥)

(٣) الحديث رواه احمد فى مسنده ١ / ٤١٦ واللفظ له ، وابو يعلى والطبرانى فى الكبير ، قال الهيثمى بعد عزوه لهم : وإسناده حسن (مجمع الزوائد ٢ / ٢٥٥)

المعنى : -

ثار : - بعد من ثار الشيء يثور : انتشر وارتفع ومنه الحديث (فرأيت الماء يثور من بين أصابعه)
أى ينبع بقوة وشدة .

الشيء المذلول : الموطوء : أى ترك فراشه وغطاءه الدفء . والوطاء : ما تحت الأقدام .
حبه : أقربائه وحببيه .

رغبة : رجاء ثوابي وحبا في طلب رضاي

شفقة : - خوفا من عذابي ومنه قوله تعالى : ﴿ والذين هم من عذاب ربهم مشفقون ﴾ (١) أى
خائفون .

ما عليه : علم أن الاندحار سبب موته وأسرته وقتله ولكن جاهد حتى يشهد طلبا في نعيم الله .

يهريق : - يراق وبسال دمه ، والمعنى أن رجلين اكتسبا زيادة الأجر من الله تعالى :

أ - من هجر لذة نومه وترك سريرته ليتجهجد

ب - المجاهد في سبيل الله المستبسل ولم يفر عند الهزيمة .

* وعن عقبة بن عامر رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (الرجل من أمتي يقوم
من الليل يعالج نفسه إلى الطهور وعليه عقد فإذا وضأ يديه انحلت عقدة وإذا وضأ وجهه انحلت
عقدة وإذا مسح رأسه انحلت عقدة وإذا وضأ رجله انحلت عقدة فيقول الله عز وجل للذين وراء
الحجاب : انظروا إلى عبدى هذا يعالج نفسه يسألنى ما سألنى عبدى هذا فهو له) (٢) . رواه احمد
المعنى :

الطهور : الوضوء : أى ما يتطهر به

عقد : خيال غلب عليه الشيطان وكتفه بخيوط الكسل والغفلة وجرى مجرى عروق الدم منه
رجاء نسيان ذكر الله ورقوده وسبائيه ، فإذا اراد الله له باليقظة ، فذكر الله حطم سلسلة من قيوده وفرق
عقدة من اغلاله ، وهكذا حتى يتم الوضوء ، فيتجلى عليه الرب جل وعلا ويباهى بفعله هذا ملائكته
المقربين ، ويأمرهم ان ينظروا إلى فعل طاعته ، وتذلل لربه رجاء رحمته تعالى ، ثم يشرهم بإجابة كل
ما سأل تفضلا وتكرما ، الله اكبر هذا وقت المعاملة الحسنة مع الله ، والتجارة مع الغنى الكريم
والتضرع إليه وقد تكفل سبحانه بعدم رد طلب لمن سأل .

* وعن أبى عبيدة رضى الله عنه قال : قال عبد الله : إنه مكتوب في التوراة : « لقد أعد الله
للذين تتجافى جنوبهم من المضاجع ما لم ترعين ولم تسمع اذن ولم يخطر على قلب بشر ولا يعلمه ملك
مقرب ولا نبي مرسل » قال ونحن نقرأها (فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين) (٣) رواه
الحاكم .

(١) سورة سأل الآية رقم ٢٧

(٢) الحديث رواه احمد في مسنده ٤ / ١٥٩ ، ٢٠١ - قال الهيثمى : وفيه ابن لهيعة وفيه كلام (مجمع الزوائد ٢ / ٢٦٤)

(٣) الحديث رواه الحاكم في المستدرک ٢ / ٤١٤ كتاب التفسير (سورة السجدة) وقال صحيح واقره الذهبى ولفظه ولا يعلمه نبي

مرسل ولا ملك مقرب... ما عين جزاء بما كانوا يعملون .

قال الحافظ المنذرى : ابو عبيدة لم يسمع من عبد الله بن مسعود ، وقيل سمع (الترغيب والترهيب ١ / ٤٣٧)

المعنى : عبدالله : سيدنا عبدالله بن سلام كان حبراً وعالماً انبأنا عما في التوراة لسيدنا موسى ، وقد أوفقه كلام الله عز وجل في قرآنه عن جزاء المتهجد العابد الذاكر المستغفر سحراً .
 * وعن عبد بن أبي قيس رضى الله عنه قال : قالت عائشة رضى الله عنها : « لا تدع قيام الليل فإن رسول الله ﷺ كان لا يدعه وكان إذا مرض أو كسل صلى قاعداً »^(١) رواه أبو داود
 المعنى : لا تدع : لا تترك . لا : الناهية
 لا يدعه : كان لا يتركه

مرض أو كسل : أعياه التعب : ولحق به العناء .
 * وعن طارق بن شهاب أنه بات عند سلمان رضى الله عنه لينظر ما اجتهداه قال : « فقام يصلى من آخر الليل ، فكأنه لم ير الذى كان يظن ، فذكر ذلك له ، فقال سلمان : حافظوا على هذه الصلوات الخمس ، فإنهن كفارات لهذه الجراحات ما لم تصب المقتلة ، فإذا صلى الناس العشاء صدروا عن ثلاث منازل .

منهم : من عليه ولا له ، ومنهم : من له ولا عليه ومنهم : من لا له ولا عليه ، فرجل اغتتم ظلمة الليل وغفلة الناس فركب فرسه في المعاصي ، فذلك عليه ولا له . ومن له ولا عليه : فرجل اغتتم ظلمة الليل وغفلة الناس ، فقام يصلى فذلك له ولا عليه ، ومن لا له ولا عليه : فرجل صلى ثم نام فلا له ولا عليه : إياك والحققة وعليك بالقصد ودوامه . رواه الطبراني في الكبير موقوفاً .
 المعنى : - ما اجتهداه : ما اسم استفهام مبتدأ : أى شئ بلغ اجتهداه .

كفارات : - مزيلات الصغائر وسائر الخطايا التي يقترفها الانسان .
 المقتلة : ما لم تفعل الكبائر التي أوعده الله بها العقاب الأليم ونهى عنها وشدد على مرتكبيها مثل الزنا ، والسرقه ، والشرك بالله ، والسحر ، والربا ، وقتل النفس ، وعقوق الوالدين ، وقذف المحصنات الغافلات ، والغيبة والنميمة ، والكبر والحسد ، والفتنة .
 من له : أى يجاهد نفسه في التوبة من المعاصي وكثرة الاستغفار والانابة إلى الله والاقلاع عن الشرور والتهجد .

فركب : أى استرسل في إدراك شهوات نفسه وأطلق لها العنان في فعل الموبقات ، فذلك أوزاره جمه وسيئاته كثيرة وعذابه أليم وحسابه عسير .

فذلك : - له الثواب الجزيل ولا ذنب عليه .

نام : - لا له ولا عليه .

ودوامه : - أى استمر في العبادة جهد الطاقة ، ولا تتعب نفسك بكثرة السهر واترك الغلو في

العبادة ، ولا تحمل نفسك فوق طاقتها ، وفيه ان الانسان يصلى العشاء وينام رجاء أن الله يوفقه بالقيام للتهجد ، لينال من الله النعيم ، ويجاب دعاؤه ، ويحذر أن يسهر في معصية ويسامر في غضب الله ،

وفيه النهى عن المغالاة في العبادة « إن الدين متين فأوغل فيه برفق فإن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى »

الحققة : بحاءين مهملتين مفتوحتين وقافين ، الأولى ساكنة ، والثانية مفتوحة : هو أشد السير ، وقيل : هو أن يجتهد في السير ويلح فيه ، حتى تعطب راحلته ، أو تقف ، وقيل غير ذلك .
* وعن سمرة بن جندب رضى الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ يقول لنا : (ليس في الدنيا حسد إلا في اثنتين : الرجل يغبط أن يعطيه الله المال الكثير فينفق منه فيكثر النفقة ، يقول الآخر : لو كان لي مال لأنفقته مثل ما ينفق هذا وأحسن فهو يحسده ، ورجل يقرأ القرآن فيقوم الليل ورجل إلى جنبه لا يعلم القرآن فهو يحسده على قيامه وعلى ما علمه الله عز وجل القرآن ، فيقول : لو علمني الله مثل هذا لقمتم مثل ما يقوم) (١) رواه الطبراني في الكبير المعنى : -

حسد : هنا غبطة : أي تمنى أن تفعل خيرا مثله وليس الحسد المذموم الذي هو تمنى زوال النعمة عن أخيك .

ما علمه الله عز وجل من القرآن : - يبين رسول الله ﷺ خصلتين تمنى أن تتحلى بهما أيها المسلم :

أ - خلة الانفاق والجود على إنشاء مشروعات الخير وتشجيع الصالحات وتنظر إلى المحسنين ، فتمنى أن يكون لك مال لتعمل مثلهم .

ب - خلة التقوى المنبعثة من قراءة القرآن الداعية إلى التهجد الغارسة دوحات العلم النافع في قلب حافظه ، فتمنى أن تفقه القرآن وتقرأه لتظهر تعاليمه وتثمر أوراقه في حديقتك . الحسد : -

يطلق ويراد به تمنى زوال النعمة عن المحسود ، وهذا حرام بالاتفاق ويطلق ويراد به الغبطة وهو تمنى حالة كحالة المغبط من غير تمنى زوالها عنه ، وهو المراد في هذا الحديث وفي نظائره ، فإن كانت الحالة التي عليها المغبط محمودة فهو تمن محمود ، وإن كانت مذمومة فهو تمن مذموم يأثم عليه المتمنى .
* وعن عبد الله رضى عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (لا حسد إلا في اثنتين : رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار، ورجل آتاه الله مالا فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار) (١) رواه مسلم

وعن يزيد بن الاخنس وكانت له صحبة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (لا تنافس إلا في اثنتين : رجل اعطاه الله قرآنا ، فهو يقوم به آناء الليل والنهار ، فيقول رجل لو أن الله اعطاني ما اعطى فلانا ، فأقوم به كما يقوم ، ورجل اعطاه الله مالا ، فهو ينفق منه ويتصدق ، فيقول رجل مثل ذلك)

(١) الحديث رواه الطبراني في الكبير ، قال الهيثمي : وفي اسناده بعض ضعف ورواه البزار بإسناد ضعيف (مجمع الزوائد ٢ / ٢٥٦)

(١) الحديث رواه البخاري في كتاب التمنى رقم / ٥ ، وفي كتاب التوحيد رقم / ٤٥

رواه الطبراني في الكبير .

تنافس : التسابق في الخير وانتهاز فرص نيل الثواب .

آناء : ساعاته جمع إنا بالكسر والقصر أو جمع آناء بالفتح والمد قال تعالى ﴿ ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى ﴾^(١)

والمعنى انه يعظ الناس به في أوقات الليل ان سنحت الفرصة وكذا في النهار مع العمل به ، ويقراء امام الفقراء ويحترم قراءته ونفسه ثم رسخ الايمان بقلبه ، فتهجد وذكر الله في السحر .
ينفق : ينشئ به الاعمال الصالحات ومشروعات تفيد الابناء ، ويوجد اعمالا للعاطلين ، ويكسو عريانا ويطعم جائعا ويصرف في وجوه البر ويزكى

- وعن فضالة بن عبيد وقيم الداري رضى الله عنهما عن النبي ﷺ قال : (من قرأ عشر آيات في ليلة كتب له قنطار والقنطار خير من الدنيا وما فيها فإذا كان يوم القيامة ، يقول ربك عز وجل : اقرأ وارق بكل آية درجة حتى ينتهي إلى آخر آية منه يقول ربك عز وجل للعبد : اقبض ، فيقول العبد بيده : يارب أنت أعلم يقول لهذه الخلد وهذه النعيم)^(٢) . رواه الطبراني

ظاهره من أى سورة ينال ثوابا لو وزن لرجحت كفته عن القنطار ، وهذا خير من نعيم الدنيا الفانى على ان الله تعالى يتفضل ويرقيه إلى درجات عالية كل آية درجة يصعد بها إلى العلياء والعز والنعيم المقيم لما في الآيات من ذكر الله وتسبيحه وتقديسه ، بمعنى انه يتهجد وبعد فاتحة الكتاب يقرأ ما تيسر من القرآن يحفظ الله له ذلك ذخيرة عنده يوم القيامة ويجازيه ، وما من كمال إلا وعند الله اكمل منه ، قال ﷺ : (ان في الجنة مائة درجة ما بين الدرجتين ، كما بين السماء والأرض فإذا سألت الله فاسأله المقنطرين)^(٣)

- وعن عبدالله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : (من قام بعشر آيات لم يكتب من الغافلين ، ومن قام بمائة آية كتب من القانتين ، ومن قام بألف آية كتب من المقنطرين)^(٣) رواه ابو داود

لم يكتب من الغافلين : أى صلى نافلة وتلا في صلاته عشر آيات عد من الذاكرين الله كثيرا ومحبت عنه الغفلة ، ومن قام أى تهجد في صلاته فقرأ مائة آية ، كتبه الله من الطائعين الخاشعين العابدين وفيه (تفكر ساعة خير من قنوت ليلة)

(١) سورة طه آية رقم ١٣٠

(٢) الحديث رواه الطبراني في الكبير واللاوسط ، قال الهيثمي : وفيه اسماعيل بن عياش ، ولكنه من روايته عن الشاميين وهي مقبولة (مجمع الزوائد ٢ / ٢٦٧)

(٣) الحديث رواه البخاري في كتاب الجهاد رقم ٤ / ، وفي كتاب التوحيد رقم ٢٢ / والترمذي في أبواب الجنة رقم ٤ / وأحمد ٢ / ٣٣٥ .

(٤) الحديث رواه ابو داود في سننه واللفظ له وابن حبان ولفظه : ومن قام بمائتي آية كتب من المقنطرين - قال في عون المعبود : قال السندی : والحديث سكت عنه المنذرى أ هـ (المنهل العذب ٨ / ١٥ - ١٦ ، عون المعبود ٤ / ٢٧٤ أبواب قيام الليل ، باب تحزيب القرآن ، موارد الظمان ١٧٢ رقم ٦٦٢ كتاب المواقيت ، باب القراءة في الليل .

وقال ابن الانباري : القنوت على أربعة اقسام :

الصلاة وطول القيام وإقامة الطاعة والسكوت أ . هـ ومنه :

أ - ﴿ وقوموا لله قانتين ﴾ وقيل اى الصلاة أفضل ؟

قال : طول القنوت اى الاشتغال بالعبادة ورفض كل من سواه سبحانه وتعالى فعليك أخى بكثرة

القراءة فى الصلاة عسى ان تنال هذه الصفة قال تعالى :

(ب) ﴿ ان إبراهيم كان أمة قانتا ﴾^(١)

(ج) ﴿ يا مريم اقتنى لربك ﴾^(٢)

(د) ﴿ ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحا نؤتها أجرها مرتين وأعتدنا لها رزقا

كريما ﴾^(٣)

وعن أبى هريرة رضى الله عنه ان رسول الله ﷺ قال : (القنطار اثنا عشر ألف أوقية . . الأوقية

خير مما بين السماء والأرض)^(٤) رواه ابن حبان فى صحيحه

- وعن أبى امامة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : من قرأ عشر آيات فى ليلة لم يكتب من

الغافلين ومن قرأ مائة آية كتب له قنوت ليلة ومن قرأ مائتى آية كتب من القانتين ومن قرأ اربعمائة آية

كتب من العابدين ومن قرأ خمسمائة آية كتب من الحافظين ومن قرأ ستمائة آية كتب من الخاشعين ومن

قرأ ثمانمائة آية كتب من المخبتين ومن قرأ الف آية أصبح له قنطار والقنطار ألف ومائتا أوقية والأوقية

خير مما بين السماء والأرض . أو قال : خير مما طلعت عليه الشمس ومن قرأ الفى آية كان من

الموجبين)^(٥) رواه الطبرانى

المعنى : -

الحافظين : الذين أجادوا معرفته وعد من المطهرين المقربين ، الذين قال الله عنهم : ﴿ وإن

عليكم لحافظين كراما كاتبين يعلمون ما تفعلون ﴾^(٦) ما شاء الله زيادة التلاوة فى الصلاة ، تنقى

صحائف القارىء ، وتطهره من الآثام ، وتجعله فى صفوف الابرار الصالحين الذين يخافون الله جل

وعلا الذين يعنيههم الله بقوله : ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان ﴾^(٧)

الخاشعين : المتواضعين الذين يعنيههم الله بقوله : ﴿ فاهلكم إله واحد فله أسلموا وبشر المخبتين

الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم والصابرين على ما أصابهم والمقيمي الصلاة وما رزقناهم

ينفقون ﴾^(٨) .

(١) سورة النحل آية رقم ١٢٠

(٢) سورة آل عمران آية رقم ٤٣

(٣) سورة الاحزاب آية رقم ٣١

(٤) موارد الظمان إلى زوائد ابن حبان ص ١٧٢ حديث رقم ٦٦٣

(٥) الحديث رواه الطبرانى فى الكبير ، قال الهيثمى : وفيه يحيى بن عتبة بن أبى العيزار وهو ضعيف (مجمع الزوائد ٢ /

٢٦٧ - ٢٦٨)

(٦) سورة الانفطار آية رقم ١٠ ، ١١ ، ١٢

(٧) سورة الرحمن آية رقم ٤٦

(٨) سورة الحج الآيتان رقم ٣٤ ، ٣٥

المختبين : زيادة التواضع والذلة لله يقال أختب الله .
 أى زاد تواضعا : الموجب : الذى اتى بفعل يوجب له الجنة وكذلك من أتى بفعل يوجب له النار
 أربع خصال حازها المختبون : أولا : خوف الله ، ثانيا : الصبر عند المصائب ، ثالثا : إقامة الصلاة .
 رابعا : الانفاق فى الخيرات ﴿ يشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم ﴾ .

صلاة التهجد سعادة وهى ثمرات دوحات نبتت فى قلوب المتقين فأزهرت .
 أى الصلاة بالليل بعد العشاء وأصله ترك الهجود وهو النوم : قال ابن فارس : التهجد : المصلى
 ليلا وفى نسخة من الليل

أريد ان ابين للمسلمين ان القيام ليلا لذكر الله يجلب هناءة الضمير وقرة العين وإنشراح الصدر .
 أولا : لازالة سلطة الشيطان عليه وقهره وفك عقد كسله (فأصبح نشيطا)
 ثانيا : سبب دخول الجنة وحصن منيع من النار ، وقد رأى سيدنا عبد الله بن عمر ملكين اخذاه
 الى النار ، فقابله آخر قال : (لن تراعى لن تراعى) فقص الرؤيا على أخته (السيدة حفصة) فقصتها على
 سيدنا رسول الله ﷺ فقال : (نعم الرجل عبد الله لو كان يقوم من الليل) فما ترك التهجد بعدئذ .
 قال شراح الحديث : فيه ان القيام بالليل يمنع عذاب النار ، وأى فرح وعز وشعور بالنجاة والسرور
 من ان يضمن الانسان لنفسه السلامة من جهنم والفوز بجنة اعداها الله للمحسنين الصالحين .
 ثالثا : يقف الخلائق للحساب إلا التهجد فيمر بسلام .

رابعا : لعل التهجد يتفق دعاؤه ساعة تفتحت لها أبواب رحمة الله تعالى فيجاب دعاؤه وينال
 سؤاله وتقضى آماله فينجح ويربح .

خامسا : اخبرنا الصادق المصدوق ﷺ ان قيام الليل يجدد للجسم نشاطه ويبعث الصحة ،
 ويقوى دورة الدم وينقيه باستنشاق نسيم السحر العليل البليل الجميل .

ويعطى الرئتين قوة ومناعة وتصح العينان ، ويسلم الرأس من عوارض الزكام والصداع ، وتطرد
 الأدواء عن الجسم (ومطرودة للداء عن الجسد) كما قال ﷺ وهو عليه الصلاة والسلام : (ما ضل
 صاحبكم وما غوى وما ينطق عن الهوى ان هو إلا وحى يوحى علمه شديد القوى ذو مرة)^(١)
 صدق أيها المسلم واحى هذه العادة الجميلة لتحيا حياة الابرار وتعيش عيشة الاخيار الاطهار .

سادسا : تبادل الثقة بين الزوجين : الرجل يوقظ زوجته أو هى توقظ زوجها وقد دعا لهما ﷺ
 بالرحمة ان فعلا ذلك ، هذه هى السعادة ان يتعاونوا على طاعة الله وهنا تتجدد عرى الصداقة وتقوى
 روابط الأسرة ، وينزل سوء التفاهم ، وتشرق أنوار السعادة على هذا البيت ، فيخرج الزوج إلى عمله
 قريير العين ، مثلوج الفؤاد ، آمنا على عرضه ، مطمئنا على بيته وقديما قيل (رأس الحكمة مخافة الله)
 وأترك للقارىء حوادث سوء النية للزوج أو الزوجة اللذين لا يخافان الله وإنها لكثيرة : شقاق وكدر
 وغضب ومحاكم وتبرج ونزاع وإسراف وقلة أدب ، وهكذا مما يجره عدم العمل بكتاب رب العالمين

وسنة سيد المرسلين ونسيان قوله تعالى : ﴿ وأمر أهلك بالصلاة ﴾^(١) وقوله ﷺ : (فصلى وأيقظ امرأته) .

سابعاً : عد ﷺ قيام الليل شرفاً وسيادة ، وعلو نفس طماعة إلى كسب المعالي ، وجنى ثمار المحامد ، ولو كشف الله بصيرته لرأى جمال الهيئة وأنوار ملائكة الرحمة ، وفرح الحور العين بعمله ، وتجليات المولى جل وعلا عليه بالرحمة واستظلاله بظل الله ، والناس غافلون ، وقد نفى ﷺ الخيبة في طلبه والخسران في عمله ، وكفل له الربح والفلاح وأمنه الله من المكاره وزال عنه الاخطار .
ثامناً : تخفيف الطعام في العشاء من سنة رسول الله ﷺ لتستريح المعدة ، ويهدأ نومه وهذا نهاية الطب ومجلب للصحة .

أدلة التهجد من القرآن

قال تعالى : ﴿ أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً ومن الليل فتعبد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً . وقل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً ﴾^(٢) .

قيل المراد بالصلاة صلاة المغرب ثم بين مبدأ الوقت ومنتهاه وقال ﷺ : (أتاني جبريل لدلوك الشمس حين زالت فصلى بي الظهر وقيل : لغروبها (وقرآن الفجر) صلاة الصبح تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار ، أو شواهد قدرة الخالق جل وعلا من تبدل ظلمة الليل بضياء النهار والنوم بالانتباه ، ليعتبر العقلاء ، فيقوموا لذكر الله وشاهدنا (ومن الليل فتعبد به) أي وبعض الليل فاترك المهجود للصلاة ، والضمير للقرآن (نافلة لك) فريضة زائدة لك على الصلوات المفروضة ، أو فضيلة لك لاختصاص وجوبه بك رجاء مقام يحمد القائم فيه وكل من عرفه .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه عليه الصلاة والسلام قال : (هو المقام الذي أشفع فيه لأمتي)^(٣) ثم دعا ﷺ بدعاء (أدخلني) أي في القبر إدخالاً مرضياً (وأخرجني) أي منه عند البعث إخراجاً ملقى بالكرامة ، أو أدخلني يارب المدينة أو مكة ظاهراً عليها ، أو فيما جعلتني من أعباء الرسالة ، وأخرجني من مكة سالماً آمناً من المشركين ، أو أخرجني مما حملتني من عباء الرسالة مؤدياً حقه ، أو أدخلني الغار وأخرجني سالماً وقوياً بحجة تنصرتني على من خالفني ، أو ملكاً ينصر الإسلام على الكفر . والحق الإسلام ، والباطل الشرك كان مضمحلاً غير ثابت .

عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه عليه الصلاة والسلام دخل مكة يوم الفتح وفيها ثلاثمائة وستون صنماً ، فجعل ينكت بمخصرته في عين واحد واحد منها فيقول : جاء الحق وزهق الباطل ، فينكب

(١) سورة طه آية رقم ١٣٢

(٢) سورة الاسراء الآيات رقم ٧٨ - ٨١

(٣) الحديث رواه أحمد في مسنده ٢ / ٤٤١ ، ٥٢٨ عن أبي هريرة

لوجهه حتى ألقى جميعها ، وبقي صنم خزاعة فوق الكعبة ، وكان من صفر فقال يا على : ارم به فصعد فرمى به فكسره^(١) .

قال الشرقاوى : فى صحيح النووى انه نسخ عنه التهجد كما نسخ عن أمته قال : ونقله الشيخ ابو حامد عن النص وهو الاصح أو الصحيح ففى مسلم عن عائشة رضى الله عنها ما يدل عليه أو فضيلة لك فإنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وحينئذ فلم يكن فعل ذلك يكفر شيئاً ، ويرجع التكليف كلها فى حقه عليه الصلاة والسلام قررة عين وإلهام طبع ، وتكون صلاته فى الدنيا مثل تسبيح اهل الجنة فى الجنة لا على وجه الكلفة والتكليف ، وهذا كله مفرع على طريقة إمام الحرمين من أن التكليف يستلزم الوعيد ، وأما على طريقة القاضى حيث يقول : لو أوجب الله تعالى شيئاً لوجب وإن لم يكن وعيد فلا يمتنع حينئذ بقاء التكليف فى حقه عليه الصلاة والسلام على ما كانت عليه مع طمأنينته عليه الصلاة والسلام من ناحية الوعيد ، وعلى كلا التقديرين فهو معصوم ولا ذنب ولا عتب ، وأما أمره بالاستغفار فى قوله ﴿ فسبح بحمد ربك واستغفره ﴾ فهو تعبد على الفرض والتقدير : أى استغفر مما عساه ان يقع لولا عصمتك .

ب - ﴿ ان المتقين فى جنات وعيون آخذين ما آتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون وبالأسحار هم يستغفرون وفى أموالهم حق للسائل والمحروم ﴾^(٢)
ج - ﴿ يأتيا المزمّل قم الليل إلا قليلاً نصفه أو انقص منه قليلاً أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلاً ﴾^(٣) .

روى انه عليه الصلاة والسلام كان يصلى متلفاً بمرط مفروش على عائشة رضى الله عنها وأصله المزمّل فأدغم التاء فى الزاى من تزمّل الزمّل : تحمل الحمل : أى يأتيا المتحمل أعباء النبوة قم إلى الصلاة أو داوم عليها ﴿ إنا سنلقى عليك قولاً ثقيلاً إن ناشئة الليل هى أشد وطأً وأقوم قبلاً ﴾^(٤) قولاً : أى القرآن لما فيه من التكليف الشاقة ثقیل على المكلفين سيما على الرسول ﷺ إذا كان عليه ان يتحملها ويحملها أمته ﴿ إن ناشئة الليل ﴾ أى إن النفس التى تنشأ من مضجعتها إلى العبادة من نشأ من مكانه إذا نهض وقام .

أو قيام الليل على ان الناشئة له أو العبادة التى تنشأ بالليل : أى تحدث أو ساعات الليل ؛ لأنها تحدث واحدة بعد أخرى ﴿ هى أشد وطأً ﴾ أى كلفة أو ثبات قدم وقرىء ﴿ وطأ ﴾ أى مواطأة القلب اللسان لها أو فيها أو موافقة لما يراد منها من الخضوع والاخلاص ﴿ وأقوم قبلاً ﴾ أى وأشد مقالا أو اثبت قراءة لحضور القلب وهذه الاصوات .

﴿ إن لك فى النهار سبحة طويلاً واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلاً ﴾^(٥) أى تقلباً فى مهماتك

(١) الحديث رواه البخارى فى تفسير سورة الاسراء ، وفى كتاب المظالم ومسلم فى كتاب الجهاد ، الترمذى فى تفسير سورة الاسراء - وقال حسن صحيح - وأحمد ١ / ٣٧٧ ، ٣٧٨

(٢) سورة الذاريات آيات : ١٥ - ١٩ (٣) سورة المزمّل آيات ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤

(٤) سورة المزمّل آيات ٥ ، ٦

(٥) المزمّل الآيات : ٧ - ٨

واشتغالا بها فعليك بالتهجد فإن مناجاة الحق تستدعى فراغا (قرىء سبخا) أى فراغا تفرغ قلب بالشواغل مستعار من سبخ الصوف وهو نقشه ونشر أجزائه ودم على ذكر ربك ليلا ونهارا وذكر الله يتناول كل ما يذكر به من تسبيح وتهليل وتمجيد وتحميد وصلاة وقراءة قرآن ودراسة علم (وتبتل) وانقطع إليه بالعبادة وجرّد نفسك عما سواه .

أيها المسلم : هل تقتدى بسيدنا رسول الله ﷺ امره الله بالتهجد ، فزاد كمالا . ونصره الله ، ودانت له الأرض ، وعز ملكه وانتشر دينه ﷺ ونال الشفاعة العظمى وخصه الله بمحامد ومكارم وأخلاق .

قال تعالى : ﴿ وإن لك لأجرا غير ممنون وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ (١) ﷺ (غير ممنون) غير مقطوع أو ممنون به عليك من الناس فانه تعالى يعطيك بلا توسط ، لأنك تتحمل من قومك ما لا يتحمل أمثالك ، وسئلت عائشة رضى الله عنها عن خلقه ﷺ فقالت : « كان خلقه القرآن » أأستقرأ القرآن ؟ بلى اقرأ قد أفلح المؤمنون اللهم صلى عليه وانفعنا بسنته ووفقنا لنهج منهجه إنك عزيز حكيم . وقد اخبر الله تعالى فى محكم كتابه انه ﷺ وأصحابه قاموا بالتهجد خير قيام ، قال جل وعلا : ﴿ إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك والله يقدر الليل والنهار علم أن لن تحصوه فتاب عليكم فاقرءوا ما تيسر من القرآن علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون فى الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون فى سبيل الله ﴾ (٣) (ادنى) استعار الادنى للاقل ، لأن الأقرب إلى الشيء أقل بعدا منه ويقوم بذلك جماعة من أصحابك ولا يعلم مقادير ساعات الليل والنهار كما هى إلا الله سبحانه وتعالى ، ولن تحصوا تقدير الأوقات ، ولن تستطيعوا ضبط الساعات (فتاب عليكم) بالترخيص فى ترك القيام المقدر ورفع التبعة ، كما رفع التبعة عن التائب (فاقرءوا ما تيسر من القرآن) : فصلوا ما تيسر عليكم من صلاة الليل عبر عن الصلاة بالقرآن كما عبر عنها بسائر أركانها وقيل : فاقرءوا القرآن بعينه كيفما تيسر عليكم والضرب فى الأرض المسافرة للتجارة أو لتحصيل العلم .

﴿ فاقرءوا ما تيسر منه وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ﴾ المفروضة

التحذير من صلاة الانسان وقراءته حال النعاس

عن عائشة رضى الله عنها ان النبى ﷺ قال : (إذا نعس احدكم فى الصلاة فليرقد حتى يذهب عنه النوم ، فإن احدكم إذا صلى وهو ناعس لعله يذهب يستغفر فيسب نفسه) . رواه مالك والبخارى ومسلم

إذا نعس احدكم وهو يصلى فلينصرف فلعله يدعو على نفسه وهو لا يدري .

وعن انس رضى الله عنه ان النبى ﷺ قال : (إذا نعس احدكم فى الصلاة فليمن حتى يعلم ما

(١) سورة (ن) الآيتان : ٣ - ٤

(٢) سورة الزمل الآية رقم : ٢٠

يقرؤه .) رواه البخارى والنسائى إلا انه قال : (إذا نعس احدكم فى صلاته فلينعصره وليرقد) (١)
 نعس : اخذه النوم يقال نعس نعسة ونعاسا وهو الوسن وأول النوم ، نهى ﷺ ان يستمر النعاس
 فى صلاته خشية ان يدعو على نفسه وهو لا يدري وخشية عدم إتمام الأركان ، فليقطع صلاته ولينم حتى
 يذهب عنه النوم ، وحتى يذهب ليفعل الوسائل التى تزيل وسنه ، وفيه ان المصلى لابد ان يملك شعوره
 ويعلم حركاته واقواله وان المتعبد اذا لم يذهب نومه بل غلبه ينام أحسن من الاستمرار فى الصلاة خوفا
 من الخلط وسب نفسه .

وعن ابى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (إذا قام احدكم من الليل فاستعجم
 القرآن على لسانه فلم يدر ما يقول فليضطجع) (٢) رواه مسلم .

المعنى : استعجم : استغلق

على لسانه : اى ثقلت عليه القراءة كالأعجمى لغلبة النعاس .

قال العلقمى : قال القرطبى : القرآن مرفوع على انه فاعل استعجم اى صارت قراءته
 كالعجمية لاختلاف حروف النائم وعدم بيانها .

فليضطجع : قال المناوى : للنوم ندبا ان خف النعاس بحيث يعقل القول ، أو وجوبا ان غلبه
 بحيث أفضى الى الاخلال بواجب . أ . هـ .

وقال العلقمى : لئلا يغير كلام الله ويبدله أ . هـ .

وقال الحنفى : والتقيد بالليل للغالب من ان النوم فى الليل وإلا فالنوم فى النهار كذلك . أ . هـ .
 واقول : ينم اذا كان فى تهجد ليلا أو نافلة نهارا ، أما اذا كان يصلى الفرض وينام فيقطع صلاته
 ويرش على وجهه الماء ويذهب النوم عنه ويصلى خشية ان يضيع الوقت وخوفا من ذهاب الفضيلة ،
 والله سبحانه وتعالى اعلم .

التحذير من نوم الانسان الى الصباح

وترك قيام شيء من الليل

عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : ذكر عند النبى ﷺ رجل نام ليلة حتى أصبح قال : ذاك
 رجل بال الشيطان فى أذنيه ، أو قال فى أذنه) (٣) رواه البخارى ومسلم .

(١) الحديث رواه البخارى فى كتاب الوضوء رقم ٥٣ ، ومسلم فى كتاب صلاة المسافرين حديث رقم ٢٢٢ ، وأبو داود فى كتاب
 صلاة التطوع رقم ١٨ / ، والترمذى فى ابواب المواقيت رقم ١٤٦ ، وابن ماجه فى ابواب الاقامة رقم ١٨٤ ، ومالك فى الموطأ
 فى كتاب صلاة الليل رقم ٣ ، والدارمى فى كتاب الصلاة رقم ١٠٧ ، واحمد فى مسنده ٥٦ / ٦ ، ٢٠٢ ، ٢٠٥ ، ٢٥٩ ، ٣ /
 ١٤٢ ، ١٥٠

(٢) الحديث رواه مسلم فى كتاب صلاة المسافرين حديث رقم ٢٢٣ ، وأبو داود فى كتاب التطوع رقم ١٨ ، وابن ماجه فى ابواب
 الاقامة رقم ١٨٤ ، واحمد ٢ / ٣١٨

(٣) الحديث رواه البخارى فى كتاب التهجد رقم ١٣ ، وفى كتاب بدء الخلق رقم ١١ ، ومسلم فى كتاب صلاة المسافرين حديث
 رقم ٢٠٥ ، والنسائى فى كتاب قيام الليل رقم ٥ ، وابن ماجه فى ابواب الامامة رقم ١٧٤ ، واحمد ١ / ٣٧٥ ، ٤٢٧ ، ٢ /
 ٤٢٧ ، ٢٦٠

المعنى : بال : قيل معناه سخر منه وظهر عليه حتى نام عن طاعة الله عز وجل كقول الشاعر :
بال سهيل في الفضيف ففسد .

أى لما كان الفضيف يفسد بطلوع سهيل كان ظهوره عليه مفسدا له وعن الحسن مرسلان ان النبى
ﷺ قال : (فإذا نام شجر الشيطان برجله فبال في اذنه) وسهيل الفضيف كوكبان وشجر رفع احدى
رجليه ليبول ، والمعنى ان الشيطان يسلح على الغافل تارك التهجد وهو كالتغوط للانسان .
وروى الطبرانى في الأوسط حديث ابن مسعود رضى الله عنه ولفظه قال رسول الله ﷺ : (إذا اراد
العبد الصلاة من الليل أتاه ملك فقال له : (قم فقد أصبحت فصل واذكر ربك فيأتيه الشيطان
فيقول : عليك ليل طويل وسوف تقوم ، فإن قام فصلى أصبح نشيطا خفيف الجسم قرير العين وان هو
اطاع الشيطان حتى أصبح بال في اذنه)
المعنى : ملك : من ملائكة الرحمة الحفظة .

فصل : قربت من السحر فتهجد

قرير العين : مسرورا اقر الله عينه اعطاه حتى تفرح فلا تطمح إلى من هو فوقه ودمعة السرور
باردة والحزن حارة .

وعن ابى هريرة رضى الله عنه ان رسول الله ﷺ قال : (يعقد الشيطان على قافية رأس احدكم اذا
هو نام ثلاث عقد يضرب على كل عقدة : عليك ليل طويل فارقد ، فإن استيقظ فذكر الله انحلت
عقدة ، فإن توضأ انحلت عقدة ، فإن صلى انحلت عقدة ، فأصبح نشيطا طيب النفس ، وإلا أصبح
خبيث النفس كسلان) (١) رواه مالك والبخارى ومسلم .

فيصبح نشيطا طيب النفس قد أصاب خيرا وإن لم يفعل أصبح كسلان خبيث النفس لم يصب
خيرا .

وروى عن جابر بن عبد الله رضى الله عنها قال : قال رسول الله ﷺ : (قالت ام سليمان بن داود
لسليمان : يا بنى : لا تكثر النوم بالليل ، فإن كثرة النوم بالليل تترك الرجل فقيرا يوم القيامة) (٢) رواه
ابن ماجه

فقيرا : خاليا من الحسنات .

وعنه رضى الله عنه ايضا ان النبى ﷺ قال : (ما من مسلم ذكر ولا انشئ ينام الا وعليه جرير
معقود فإن هو توضأ وقام إلى الصلاة أصبح نشيطا قد أصاب خيرا وقد انحلت عقده كلها وان استيقظ
ولم يذكر الله أصبح وعقده عليه ، وأصبح ثقيلا كسلان ولم يصب خيرا) . (١) رواه ابن حبان و ابن
خزيمة .

(١) سبق تخريجه ص ٢١

(٢) الحديث رواه ابن ماجه في ابواب الاقامة رقم ١٧٤

(١) هذا الحديث رواه ابن ماجه في صحيحه بهذا اللفظ

قال الحافظ المنذرى في الترغيب والترهيب ١ / ٤٤٦ بعد ذكره لهذه الرواية : رواه ابن خزيمة وابن حبان في صحيحهما واللفظ
لابن حبان وتقدم لفظ ابن خزيمة أ هـ

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (ان الله يبغض كل جعظري جواظ صخاب في الاسواق جيفة بالليل حمار بالنهار عالم بأمر الدنيا جاهل بأمر الآخرة)^(١) رواه ابن حبان .
قال أهل اللغة : الجعظري : الشديد الغليظ
الجواظ : الأكل
والصخاب : الصياح .

المعنى : يخبر ﷺ ان الله تعالى خلق الانسان للعمل والعبادة ، قال تعالى : ﴿ وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون . إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴾^(٢)

أى لما خلقهم على صورة متوجهة إلى العبادة مغلبة لها ، وجعل خلقهم مغياها مبالغة في ذلك ، ولو حمل على ظاهره مع ان الدليل يمنعه . لنا في ظاهره قوله : ﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والانس ﴾^(٣) ذرأ خلق وقد قرأ ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون ﴾ وقيل معناه الا لأمرهم بالعبادة ، وهو منقول عن على رضي الله عنه وقيل : لا ليكونوا عبادا لى والوجه أن تحمل العبادة على التوحيد ، وقد قال ابن عباس رضي الله عنه : كل عبادة في القرآن توحيد والكل يوحدونه في الآخرة .

قال تعالى : ﴿ ثم لم تكن فتنتهم الا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين ﴾^(٤) ﴿ ما أريد منهم من رزق ﴾ أى ما أريد أى أحد منكم في تحصيل رزقى ، فاشتغلوا بما انتم كالمخلوقين له أو المأجورين به ، والمراد ان يبين ان شأنه مع عباده ليس شأن السادة من عبيدهم ، فإنهم إنما يملكونهم ليستعينوا بهم في تحصيل معاشهم ، والله تعالى يرزق كل من يفتقر الى الرزق ، وفيه إيحاء باستغنائه عنه . . فسبحانه غنى شديد القوة ، واذا عرفت معنى هذه الآية علمت ان الذى خلق لياكل مذموم وتراه معتنيا بملذاته وترفه ، فيغلظ جسمه ويتضخم ، ثم يتفنن في الطعام والشراب وينسى حقوق الله ويترك الصدقة ، ثم يكثر اللغظ والسباب والفسوق والصياح ، ولا يذكر الله تعالى ، فالله ينتقم منه ويعذبه يوم القيامة ، ويمنع عنه سبحانه وتعالى رحمته ، ويحمل عليه سخطه (حمار بالنهار) أى شغال لجمع الدنيا ولا يفقه في الدين ، وعالم بظاهر الحياة بلا عمل صالح . قال تعالى : ﴿ يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون ﴾^(٥) .

قوله تعالى : ﴿ والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم ان عذابها كان غراما . إنها ساءت مستقرا ومقاما والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما ﴾

(١) الحديث رواه ابن حبان في صحيحه والاصبهاني (الترغيب والترهيب ١ / ٤٤٦ - ٤٤٧)

(٢) سورة الذاريات الآيات رقم : ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨

(٣) سورة الاعراف الآية رقم ١٧٩

(٤) سورة الأنعام الآية رقم ٢٣

(٥) سورة الروم الآية رقم ٧

وهذا دعاء ورجاء ، فكل نعيم دون الجنة حقير ، وكل بلاء دون النار عافية ، والغرام هو الشيء الملازم الدائم قال الحسن : كل شيء يصيب ابن آدم ويزول عنه فليس بغرام ، وإنما الغرام اللازم مادامت السموات والأرض قوله تعالى : ﴿ إنها ساءت مستقرا ومقاما ﴾ أى بشس المستقر وبشس المقام جهنم .

قال ابن أبي حاتم عند قوله : ﴿ إنها ساءت مستقرا ومقاما ﴾ حدثنا أبي حدثنا الحسن بن الربيع حدثنا أبو الأحوص عن الأعمش عن مالك بن الحارث قال : (إذا طرح الرجل في النار هوى فيها فإذا انتهى إلى بعض أبوابها ، قيل له مكانك حتى تتحف قال فيسقى كأسا من سم الاسود والعقارب قال فيتميز الجلد على حدة والشعر على حدة والعصب على حدة والعروق على حدة) .

وقال أيضا عن عبيد بن عمير قال : ان في النار لجبابا فيها حيات أمثال البخت وعقارب أمثال البغال الدهم فإذا قذف بهم في النار خرجت اليهم من أوطانها فأخذت بشفاههم وأبشارهم وأشقارهم فكشطت لحومهم إلى أقدامهم فإذا وجدت حر النار رجعت .

وقال الإمام أحمد بسنده عن أنس عن مالك عن النبي ﷺ قال : (إن عبدا في جهنم لينادى ألف سنة يا حنان يا منان فيقول الله عز وجل لجبريل اذهب فائتني بعبدي هذا ، فينطلق جبريل فيجد أهل النار مكبين فيكون فيرجع إلى ربه عز وجل فيخبره ، فيقول الله عز وجل ائتني به فانه في مكان كذا وكذا فيجىء به فيوقفه على ربه عز وجل ، فيقول له يا عبدي كيف وجدت مكانك ومقيلك ؟ فيقول يارب شر مكان وشر مقيل ، فيقول الله عز وجل : ردوا عبدي فيقول يارب ما كنت أرجو إذ أخرجتني منها ان تردني فيها فيقول الله عز وجل دعوا عبدي)^(١)

قوله تعالى : ﴿ والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا ﴾ أى ليسوا بمبذرين في انفاقهم ، فيصرفون فوق الحاجة ولا بخلاء على أهلهم ، فيقصرون في حقهم ، فلا يكفونهم بل عدولا خيارا وخير الأمور أوسطها لا هذا ولا هذا .

﴿ وكان بين ذلك قواما ﴾ كما قال تعالى : ﴿ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط ﴾ .

قال الإمام أحمد عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ (من فقه الرجل قصده في معيشته) . وقال الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ (ما عال من اقتصد) وقال الحافظ البزار عن حذيفة قال : قال رسول الله ﷺ (ما أحسن القصد في الغني وما أحسن القصد في الفقر وما أحسن القصد في العبادة) .

وقال الحسن البصري : ليس في النفقة في سبيل الله سرف وقال إياس بن معاوية : ما جاوزت به أمر الله تعالى فهو سرف وقال غيره السرف النفقة في معصية الله عز وجل .

قوله تعالى : ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاما . يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا . إلا من تاب وآمن

وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما . ومن تاب وعمل صالحا فإنه يتوب إلى الله متابا .

قال الامام أحمد حدثنا ابو معاوية، حدثنا الأعمش عن شقيق عن عبدالله هو ابن مسعود قال سئل رسول الله ﷺ أى الذنب أكبر؟ قال : « أن تجعل لله أندادا وهو خلقك » قال ثم أى؟ قال : « ان تقتل ولدك خشية ان يطعم معك » قال ثم أى؟ قال : « ان تزاني حليلة جارك » . قال عبدالله وأنزل الله تصديق ذلك (والذين لا يدعون مع الله إلها آخر)^(١) وقال النسائي حدثنا قتيبة بن سعيد حدثنا جرير عن منصور عن هلال بن يساف عن سلمة بن قيس قال : قال رسول الله ﷺ فى حجة الوداع « ألا إنما هى أربع » فما أنا بأشجع عليهن منذ سمعتهن من رسول الله ﷺ ، (لا تشركوا بالله شيئا ، ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ، ولا تزنوا ، ولا تسرقوا)^(٢) وقال الامام أحمد حدثنا على بن المدينى رحمه الله حدثنا محمد بن فضيل بن غزوان حدثنا محمد بن سعيد الانصارى سمعت ابا طيبة الكلاعى سمعت المقداد بن الأسود رضى الله عنه يقول : قال رسول الله ﷺ يقول لأصحابه : (ما تقولون فى الزنا ؟) قالوا حرمه الله ورسوله فهو حرام إلى يوم القيامة . فقال رسول الله ﷺ لأصحابه : (لأن يزنى الرجل بعشر نساء أسير عليه من أن يزنى بإمرأة جاره) قال (فما تقولون فى السرقة ؟) قالوا حرمها الله ورسوله فهى حرام . قال : (لأن يسرق الرجل من عشرة أبيات أسير عليه من أن يسرق من بيت جاره)^(٣) وقال ابو بكر بن ابى الدنيا حدثنا عمار بن نصر حدثنا بقية عن أبى بكر بن أبى مريم عن الهيثم بن مالك الطائى عن النبى ﷺ قال : (ما من ذنب بعد الشرك أعظم عند الله من نطفة وضعها رجل فى رحم لا يحل له) . وقال ابن جريج أخبرنى يعلى عن سعيد بن جبيرة أنه سمع ابن عباس يحدث ان ناسا من اهل الشرك قتلوا فأكثروا وزنوا فأكثروا ثم اتوا محمدا ﷺ فقالوا : إن الذى تقول وتدعو إليه لحسن لو تخبرنا ان لما عملنا كفارة فنزلت ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ﴾ الآية ، ونزلت ﴿ قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم ﴾ الآية وقال ابن ابى حاتم حدثنا ابى حدثنا ابن ابى عمر حدثنا سفيان عن عمرو عن أبى فاختة قال : قال رسول الله ﷺ لرجل (إن الله ينهك أن تعبد المخلوق وتدع الخالق ، وينهك أن تقتل ولدك وتغذم كلبك ، وينهك أن تزنى بحليلة جارك) قال سفيان وهو قوله : ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ﴾ الآية ، وقوله تعالى : ﴿ ومن يفعل ذلك يلق أثاما ﴾ . روى عن عبدالله ابن عمرو أنه قال : أثاما : واد فى جهنم ، وقال عكرمة (يلق أثاما) نكالا : كنا نحدث انه واد فى جهنم .

وقد ذكر لنا ان لقمان كان يقول : يا بنى ! إياك والزنا فإن أوله مخافة وآخره ندامة . وقد ذكر فى الحديث الذى رواه ابن جرير وغيره عن أبى إمامة الباهلى موقوفا ومرفوعا ان غيا وأثاما بثران فى قعر

(١) الحديث رواه البخارى فى كتاب التفسير (تفسير سورة البقرة ٢٥ ، وفى التوحيد رقم ٤٠ ، ٤٦ ، ومسلم فى كتاب الايمان حديث رقم ١٤١ ، ١٤٢ ، والترمذى فى تفسير سورة ٢٥ ، والنسائى فى كتاب التحريم رقم ٤ ، واحمد ١ / ٣٨٠ ، ٤٣١ ، ٤٣٤ ، ٤٦٤ .

(٢) الحديث رواه أحمد ٤ / ٣٣٩

(٣) الحديث رواه أحمد ٦ / ٨

جهنم أجارنا الله منها ، بمنه وكرمه . وقال السدى (يلق أاثاما) جزاء وهذا أشبه بظاهر الآية وبهذا فسرهم بما بعده مبدلاً عنه وهو قوله تعالى : ﴿ يضاعف له العذاب يوم القيامة ﴾ أى يكرر عليه ويغلظ . ﴿ يخلد فيه مهاناً ﴾ أى حقيراً ذليلاً .

قال الامام ابن القيم رحمه الله تعالى : وقد دل القرآن والسنة وإجماع الصحابة والتابعين بعدهم والأئمة على ان من الذنوب كبائر وصغائر قال الله تعالى : ﴿ إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم ﴾ . وقال تعالى : ﴿ والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش الا اللثم ﴾ . وفى الصحيح عنه ﷺ أنه قال : (الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر)^(١) وهذه الاعمال المكفرة لها ثلاث درجات : إحداها ان تقصر عن تكفير الصغائر لضعفها وضعف الاخلاص فيها والقيام بحقوقها بمنزلة الدواء للضعيف الذى ينقص عن مقاومة الداء كمية وكيفية ، الثانية ان تقاوم الصغائر ولا ترتقى إلى تكفير شيء من الكبائر الثالثة ان تقوى على تكفير الصغائر وتبقى فيها قوة تكفر بها بعض الكبائر فتأمل هذا فإنه يزيل عنك إشكالات كثيرة وفى الصحيح عنه ﷺ انه قال : (ألا أنبئكم بأكبر الكبائر . قلنا : بلى يا رسول الله ، فقال : الاشرار بالله وعقوق الوالدين وشهادة الزور)^(٢) وروى فى الصحيح عنه ﷺ : (اجتنبوا السبع الموبقات . قيل وما هن يا رسول الله ؟ قال : (الاشرار بالله والسحر وقتل النفس التى حرم الله الا بالحق وأكل مال اليتيم وأكل الربا . والتولى يوم الزحف وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات)^(٣) وفى الصحيح عنه ﷺ ، انه سئل أى الذنب أكبر عند الله قال : أن تجعل لله ندا وهو خلقك قيل ثم أى ، قال : أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك ، قيل ثم أى ، قال أن تزنى بحليلة جارك . فأنزل الله تعالى تصديقها : ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله الا بالحق ولا يزنون ﴾ واختلف الناس فى الكبائر هل لها عدد يحصرها على قولين . ثم الذين قالوا بحصرها اختلفوا فى عددها . فقال عبدالله بن مسعود : هى أربعة وقال غيره هى إحدى عشر ، وقال آخر هى سبعون ، وقال أبو طالب المكى : جمعتها من أقوال الصحابة فوجدتها أربعة فى القلب وهى : الشرك بالله ، والاصرار على المعصية ، والقنوط من رحمة الله ، والأمن مكر الله . وأربعة فى اللسان وهى : شهادة الزور وقذف المحصنات واليمين الغموس والسحر . وثلاثة فى البطن : شرب الخمر وأكل مال اليتيم وأكل الربا . واثنان فى الفرج وهما : الزنا واللواط . واثنان فى اليدين : وهما القتل والسرقة . وواحدة فى الرجلين وهى

(١) الحديث رواه مسلم فى كتاب الطهارة حديث رقم ١٤ ، ١٥ ، والترمذى فى ابواب المواقيت رقم ٣٦ ، وابن ماجه فى ابواب الطهارة رقم ٧٨ ، ١٠٦ ، وأحمد ٢ / ٢٢٩ ، ٣٥٩ ، ٤٠٠ ، ٤١٤ ، ٤٨٤ ، ٥٠٦ .

(٢) الحديث رواه البخارى فى كتاب الأدب رقم ٦ ، وفى كتاب الاستئذان رقم ٣٥ ، وفى كتاب الايمان رقم ١٦ ، وفى كتاب الاستئابة رقم ١ ، وفى كتاب الديات رقم ٢ ، وفى كتاب الشهادات رقم ١٠ ، ومسلم فى كتاب الايمان حديث رقم ١٤٣ ، ١٤٤ ، وأبو داود فى كتاب الوصايا رقم ١٠ ، والترمذى فى ابواب البر رقم ٤ ، وفى ابواب البيوع رقم ٣ ، وفى ابواب الشهادات رقم ٣ ، وفى تفسير سورة ٤ ، والنسائى فى كتاب التحريم رقم ٣ ، وفى كتاب القسامة رقم ٤٩ ، والدارمى فى كتاب الديات رقم ٩ وأحمد ٢ / ٢٠١ ، ٢٠٣ ، ٢١٤ .

(٣) الحديث رواه البخارى فى كتاب الوصايا رقم ٢٣ وفى كتاب الطب رقم ٤٨ ، وفى كتاب الحدود رقم ٤٤ ، ومسلم فى كتاب الايمان حديث رقم ١٤٤ ، وأبو داود فى كتاب الوصايا رقم ١٠ ، والنسائى فى كتاب الوصايا رقم ١٢ .

الفرار من الزحف . وواحدة تتعلق بجميع الجسد وهي عقوق الوالدين . والذين لا يحصرونها بعدد منهم من قال : كل ما نهى الله عنه في القرآن فهو كبيرة ، وما نهى عنه الرسول ﷺ فهو صغيرة . وقالت طائفة : ما اقترن بالنهي عنه وعيد من لعن أو غضب أو عقوبة فهو كبيرة ، وما لم يقرن به من ذلك شيء فهو صغيرة . وقيل كل ما رتب عليه حد في الدنيا أو وعيد في الآخرة فهو كبيرة . وما لم يرتب عليه لا هذا ولا هذا فهو صغيرة . وقيل كل ما اتفقت الشرائع على تحريمه فهو من الكبائر وما كان تحريمه في شريعة دون شريعة فهو صغيرة، وقيل كل ما لعن الله أو رسوله فاعله فهو كبيرة . وقيل كل ما ذكر من أول سورة النساء إلى قوله : ﴿ إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم ﴾ . والذين لم يقسموها إلى كبائر وصغائر قالوا : الذنوب كلها بالنسبة للجراة على الله سبحانه معصيته ومخالفة أمره كبائر . فانظر إلى من عصى أمره وانتهاك محارمه فوجب أن تكون الذنوب كلها كبائر وهي مستوية في هذه المفسدة . قالوا ويوضح هذا أن الله سبحانه لا تضره الذنوب ولا يتأثر بها فلا يكون بعضها بالنسبة إليه أكبر من بعض فلم يبق إلا مجرد معصيته ومخالفته ولا فرق في ذلك بين ذنب وذنب . قالوا ويدل عليه أن مفسدة الذنب تابعة للجراة والتوثب على حق الرب تبارك وتعالى . ولهذا لو شرب رجل خمرًا أو وطأ فرجا حراما وهو لا يعتقد تحريمه لكان قد جمع بين الجهل وبين مفسدة ارتكاب الحرام ولو فعل ذلك من يعتقد تحريمه لكان اتى بإحدى المفسدتين وهو الذي يستحق العقوبة دون الأول فدل على أن مفسدة الذنب تابعة للجراة والتوثب . قالوا ويدل على هذا أن المعصية تتضمن الاستهانة بأمر المطاع ونهيه وانتهاك حرمة وهذا لا فرق فيه بين ذنب وذنب قالوا فلا ينظر العبد إلى كبر الذنب وصغره في نفسه ولكن ينظر إلى قدر من عصاه وعظمته وانتهاك حرمة بالمعصية وهذا لا يقترن فيه الحال بين معصية ومعصية . فإن ملكا عظيما مطاعا لو أمر أحد مملوكيه أن يذهب في مهم له إلى بلد بعيد وأمر آخر أن يذهب له في شغل إلى جانب الدار فعصياه وخالفا أمره لكانا في مقتته والسقوط من عينه سواء، قالوا ولهذا كانت معصية من ترك الحج من مكة وترك الجمعة ، وهو جار المسجد اقبح عند الله من معصية من تركه من المكان البعيد ، والواجب على هذا أكثر من الواجب على هذا ، ولو كان مع رجل مائة درهم فمنع زكاتها ومع آخر مائتا ألف درهم فمنع زكاتها لا يستويان في منع ما وجب على كل واحد منهما ولا يبعد استواءهما في العقوبة إذا كان كل منهما مصرا على منع زكاة ماله قليلا كان المال أو كثيرا .

فصل

وكشف الغطاء عن هذه المسألة ان يقال إن الله عز وجل ارسل رسله وأنزل كتبه وخلق السماوات والأرض ليعرف ويعبد ويوحّد ويكون الدين كله له ، والطاعة كلها له والدعوة له كما قال تعالى : ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ (١) وقال تعالى : ﴿ وما خلقتنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق ﴾ (٢) وقال تعالى : ﴿ الله الذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن ينزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علما ﴾ (٣) وقال تعالى : ﴿ جعل الله الكعبة البيت

(١) سورة الذاريات آية ٥٦

(٢) سورة الحجر آية ٨٥

(٣) سورة الطلاق آية ١٢

الحرام قياما للناس والشهر الحرام والهدى والقلائد ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما في السماوات وما في الأرض وأن الله بكل شيء عليم ﴿١﴾ .

فأخبر سبحانه أن القصد بالخلق والأمر أن يعرف بأسمائه وصفاته ويعبد وحده لا يشرك به وأن يقوم الناس بالقسط وهو العدل الذي قامت به السماوات والأرض . كما قال تعالى : ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ﴾ (٢) فأخبر سبحانه أنه أرسل رسله وأنزل كتبه ليقوم الناس بالقسط وهو العدل ، ومن أعظم القسط التوحيد ، بل هو رأس العدل وقوامه وأن الشرك ظلم كما قال تعالى : ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾ فالشرك أظلم الظلم ، والتوحيد أعدل العدل ، فما كان أشد منافاة لهذا المقصود فهو أكبر الكبائر وتفاوتها في درجاتها بحسب منافاتها له ، وما كان أشد موافقة لهذا المقصود ، فهو أوجب الواجبات وأفرض الطاعات . فتأمل هذا الأصل حق التأمل واعتبر بتفاصيله تعرف به أحكم الحاكمين وأعلم العالمين فيما فرضه على عباده وحرمه عليهم . وتفاوت مراتب الطاعات والمعاصي ، فلما كان الشرك بالله منافيا بالذات لهذا المقصود كان أكبر الكبائر على الإطلاق . وحرّم الله الجنة على كل مشرك ، وأباح دمه وماله وأهله لأهل التوحيد وأن يتخذوهم عبيدا لهم لما تركوا القيام بعبوديته ، وأبى الله سبحانه أن يقبل من مشرك عملا أو يقبل فيه شفاعا أو يستجيب له في الآخرة دعوة أو يقبل له فيها عشرة . فإن المشرك أجهل الجاهلين بالله حيث جعل له من خلقه ندا ، وذلك غاية الجهل به كما أنه غاية الظلم منه . . . وإن كان المشرك لم يظلم ربه وإنما ظلم نفسه ووقعت مسألة وهي أن المشرك إنما قصده لعظيم جناب الرب تبارك وتعالى ، أو أنه لعظمته لا ينبغي الدخول عليه إلا بالوسائط والشفعاء كحال الملوك . . . فالشرك لم يقصد الاستهانة بجناب الربوبية ، وإنما قصد تعظيمه ، وقال إنما أعبد هذه الوسائط لتقربني إليه وتدخلي عليه ، فهو المقصود وهذه وسائل وشفعاء وكان هذا القدر موجبا لسخطه وغضبه تبارك وتعالى ومخلدا في النار وموجبا سفك دماء أصحابه واستباحة حريمه وأموالهم وترتب على هذا سؤال آخر ، وهو أنه هل يجوز أن يشرع الله سبحانه لعباده التقرب إليه بالشفعاء والوسائط ، فيكون تحريم هذا إنما استفيد من الشرع أم ذلك قبيح في الفطر والعقول يمتنع أن تأتى به شريعة بل جاءت بتقرير مافي الفطر والعقول من قبحه الذي هو اقبح من كل قبيح ، وما السبب في كونه لا يغفره من دون سائر الذنوب كما قال تعالى : ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ (٣) . .

وتأمل هذا السؤال واجمع قلبك وذهنك على جوابه ولا تستهونه فإن به يحصل الفرق بين المشركين والموحدين والعالمين بالله والجاهلين وأهل الجنة وأهل النار فنقول وبالله التوفيق والتأييد ومنه نستمد المعونة والتسديد ، فإنه من يهdy الله فهو المهتد ومن يضل فلا هادى له ، ولا مانع لما أعطى ولا معطى لما منع ، الشرك شركان شرك يتعلق بذات المعبود واسمائه وصفاته وأفعاله ، وشرك في عبادته

(١) سورة المائدة آية ٩٧

(٢) سورة الحديد آية ٢٥

(٣) سورة النساء الآية رقم ٤٨ ، ١١٦

ومعاملته وإن كان صاحبه يعتقد انه سبحانه لا شريك له في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله ، والشرك الأول نوعان ، احدهما شرك التعطيل وهو أقبح أنواع الشرك كشرك فرعون اذ قال : وما رب العالمين ؟ . . وقال تعالى مخبرا عنه انه قال : ﴿ وقال فرعون يا هامان ابن لي صرحا لعلى أبلغ الأسباب أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى وإني لأظنه كاذبا ﴾ (١) .

فالشرك والتعطيل متلازمان ، فكل مشرك معطل وكل معطل مشرك ، لكن لا يستلزم اصل التعطيل ، بل قد يكون المشرك مقرا بالخالق سبحانه وصفاته . ولكن عطل حق التوحيد . وأصل الشرك وقاعدته التي ترجع إليها هو التعطيل ، وهو ثلاثة أقسام : تعطيل المصنوع عن صانعه وخالقه ، وتعطيل الصانع سبحانه عن كمال المقدس بتعطيل أسمائه وصفاته وأفعاله ، وتعطيل معاملته عما يجب على العبد من حقيقة التوحيد ومن هذا شرك طائفة أهل وحدة الوجود الذين يقولون ما ثم خالق ومخلوق ، ويقولون ههنا شيان بل الحق المنزه هو عين الخلق المشبه ، ومنه شرك الملاحدة القائلين بقدم العالم وأبديته وانه لم يكن معدوما اصلا بل لم يزل ولا يزال والحوادث بأثرها مستندة عندهم إلى أسباب ووسائط اقتضت إيجادها ليسمونها العقول والنفوس ومن هذا شرك من عظيم أسماء الرب تعالى وأوصافه وأفعاله من غلاة الجهمية والقرامطة فلم يثبتوا له اسما ولا صفة ، بل جعلوا المخلوق أكمل منه اذ كمال الذات بأسمائها وصفاتها .

فصل

النوع الثاني شرك من جعل معه إلها آخر ، ولم يعطل اسماء وربوبيته وصفاته ، كشرك النصارى الذى جعلوه ثالث ثلاثة ، فجعلوا المسيح إلها وأمه إلها ، ومن هذا شرك المجوس القائلين بإسناد حوادث الخير إلى النور وحوادث الشر إلى الظلمة ، ومن هذا شرك القدرية القائلين بأن الحيوان هو الذى يخلق افعال نفسه ، وانها تحدث بدون مشيئة الله وقدرته وإرادته ، ولهذا كانوا من اشباه المجوس ، ومن هذا شرك الذى حاج ابراهيم في ربه اذ قال ابراهيم : ربى الذى يحيى ويميت ، قال انا احى وأميت ، فهذا جعل نفسه ندا لله يحيى ويميت بزعمه ، كما يحيى الله ويميت ، فألزمه إبراهيم عليه السلام ورحمة الله وبركاته ان طرد قولك ان تقدر على الإتيان بالشمس من غير الجهة التى يأت الله بها منها ، وليس هذا انتقالا كما زعم بعض أهل الجدل بل إلزاما على طرد الدليل ان كان حقا ، ومن هذا شرك كثيرا ممن يشرك بالكواكب العلويات ، ويجعلها أربابا مدبرة لأمر هذا العالم ، كما هو مذهب مشركى الصابئة وغيرهم ، ومن هذا شرك عباد الشمس وعباد النار وغيرهم ، ومن هؤلاء من يزعم ان معبوده هو الإله على الحقيقة ومنهم من يزعم أنه أكبر الآلهة ، ومنهم من يزعم انه إله من جملة الآلهة ، وانه اذا خصه بعبادته والتبتل إليه والانقطاع إليه أقبل عليه واعتنى به ، ومنهم من يزعم ان معبودهم الأدنى ، يقربه إلى المعبود الذى هو فوقه والفوقانى يقربه إلى ما هو فوقه حتى تقربه تلك الآلهة إلى الله

سبحانه ، فتارة تكثر الوسائط وتارة تقل .

فصل

وأما الشرك في العبادة ، فهو اسهل من هذا الشرك وأخف امرا ، فإنه يصدر ممن يعتقد انه لا إله إلا الله وأنه لا يضر ولا ينفع ولا يعطى ولا يمنع إلا الله ، وإنه لا إله غيره ولا رب سواه ، ولكن لا يخلص لله في معاملته وعبوديته ، بل يعمل لحظ نفسه تارة ، وطلب الدنيا تارة ، وطلب الرفعة والمنزلة والجاه عند الخالق تارة ، فله من عمله وسعيه نصيب ، ولنفسه وحظه وهواه نصيب ، وللشيطان نصيب ، وللخلق نصيب . هذا حال أكثر الناس ، وهو الشرك الذى قال فيه النبى ﷺ فيما رواه ابن حبان في صحيحه : (الشرك في هذه الأمة اخفى من ديب النمل . قالوا وكيف ننجم منه يارسول الله ؟ قال : قل : (اللهم إني أعوذ بك ان أشرك بك وأنا أعلم وأستغفرك لما لا أعلم) فالرياء كله شرك . قال تعالى : ﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد . فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا ﴾ ^(١) أى كما انه إله واحد لا إله سواه . فكذاك ينبغي ان تكون العبادة له وحده ، فكما تفرد بالالهية يجب ان يفرد بالعبودية ، فالعمل الصالح هو الخالى من الرياء المقيد بالسنة ، وكان من دعاء عمر بن الخطاب رضى الله عنه : (اللهم اجعل عملى كله صالحا ، واجعله لوجهك خالصا ولا تجعل لأحد فيه شيئا) وهذا الشرك فى العبادة يبطل ثواب العمل وقد يعاقب عليه إذا كان العمل واجبا ، فإنه ينزله منزلة من لم يعمله ، فيعاقب على ترك الأمر فإن الله سبحانه إنما أمر بعبادته خالصة قال تعالى : ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ﴾ ^(٢) فمن لم يخلص لله فى عبادته لم يفعل ما أمر به بل الذى اتى به شئ غير المأمور به ، فلا يصح ولا يقبل منه ويقول الله تعالى : ﴿ أنا أغنى الشركاء عن الشرك . فمن عمل عملا أشرك معى فيه غيرى فهو للذى أشرك به وأنا منه برىء ﴾ .

وهذا الشرك ينقسم إلى مغفور وغير مغفور وأكبر وأصغر ، والنوع الأول ينقسم إلى كبير وأكبر ، وليس شئ منه مغفور فمنه الشرك بالله فى المحبة والتعظيم ، بان يحب مخلوقا كما يحب الله ، فهذا من الشرك الذى لا يغفره الله ، وهو الشرك الذى قال سبحانه فيه : ﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا ﴾ ^(٣) وقال أصحاب هذا الشرك لأهتهم وقد جمعهم الجحيم : ، تالله إن كنا لفي ضلال مبين إذ نسويكم برب العالمين ﴾ ^(٤) . ومعلوم أنهم ما سووهم به سبحانه فى الخلق والرزق والامانة والأحياء والملك والقدرة ، وإنما سووهم به فى الحب والتأله والخضوع لهم والتذلل ، وهذا غاية الجهل والظلم ، فكيف يسوى من خلق من التراب برب الأرباب ، وكيف يسوى العبيد بمالك الرقاب ، وكيف يسوى

(١) سورة الكهف الآية رقم ١١٢

(٢) سورة البينة الآية رقم ٥

(٣) سورة البقرة الآية رقم ١٦٥

(٤) سورة الشعراء الآية رقم ٩٧ ، ٩٨

الفقير بالذات الضعيف بالذات العاجز بالذات المحتاج بالذات الذي ليس له من ذاته إلا العدم بالغنى بالذات القادر بالذات الذي غناه وقدرته وملكه وجوده وإحسانه وعلمه ورحمته وكماله المطلق التام من لوازم ذاته ، فأى ظلم أقبح من هذا ، وأى حكم أشد جوراً منه ، حيث عدل من لا عدل له يخلقه ، كما قال تعالى : ﴿ الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون ﴾^(١) فعدل المشرك من خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ، بمن لا يملك لنفسه ولا لغيره مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ، فيالك من عدل تضمن أكبر الظلم وأقبحه .

فصل

ويتبع هذا الشرك الشرك به سبحانه في الأقوال والأفعال ، والآراء ، والنيات ، فالشرك في الأفعال كالسجود لغيره والطواف بغير بيته ، وحلق الرأس عبودية وخضوعاً لغيره ، وتقبيل الأحجار غير الحجر الأسود الذى هو يمين الله في الأرض ، أو تقبيل القبور واستلامها والسجود لها . وقد لعن النبي ﷺ من اتخذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد يصلى الله فيها فكيف بمن اتخذ القبور أوثاناً يعبدونها من دون الله ، وفي الصحيحين عنه أنه قال : (لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ..) وفي الصحيح عنه أن من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء والذين يتخذون القبور مساجد^(٢) وفي الصحيح أيضاً عنه أن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد ألا فلا تتخذوا القبور مساجد ، فإني أنهاكم عن ذلك ، وفي مسند الإمام أحمد رضى الله عنه وصحيح ابن حبان عنه ﷺ : (لعن الله زوارات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج)^(٣) . وقال : (اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد)^(٤) وقال : (إن من كان قبلكم إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجداً وصوروا فيه تلك الصورة ، أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة)^(٥) فهذا حال من سجد لله في مسجد على قبر فكيف حال من سجد للقبر بنفسه) وقد قال النبي ﷺ اللهم لا تجعل قبري وثناً

(١) سورة الأنعام الآية رقم ١

تعليق قصير جداً على هذه الأحاديث

قال الحافظ في الفتح ٧١ / ٢ ط : الحلبى : قال البيضاوى : لما كانت اليهود والنصارى يسجدون لقبور الأنبياء تعظيماً لشأنهم ، ويجعلونها قبلة يتوجهون في الصلاة نحوها ، واتخذوها أوثاناً ، لعنهم الله ، ومنع المسلمين عن مثل ذلك ، فأما من اتخذ مسجداً في جوار صالح وقصد التبرك بالقرب منه لا التعظيم له ولا التوجه نحوه فلا يدخل في ذلك الوعيد أ هـ والكلام كثير في الرد على من يرى غير ذلك (كصاحب هذا الكتاب) ولا يتسع المقام لذكره .

(٢) الحديث رواه أحمد في مسنده ٤٣٥ / ١

(٣) الحديث رواه أبو داود في كتاب الجنائز رقم ٧٨ ، والترمذى في أبواب الصلاة ٩٢١ ، والنسائى في كتاب الجنائز رقم ١٠٤ ،

وأحمد ١ / ٢٢٩ ، ٢٨٧ ، ٣٢٤ ، ٣٣٧

(٤) الحديث رواه البخارى في كتاب المغازى رقم ٢٤ ، ومسلم في كتاب الجهاد حديث رقم ١٠٦ ومالك في الموطأ في كتاب السفر

رقم ٨٥ ، وأحمد ١ / ٢٨٨ ، ٢ / ٣١٧ ، ٤٩٢

(٥) الحديث رواه البخارى في كتاب الصلاة رقم ٤٨ ، ٥٤ ، وفي كتاب الجنائز رقم ٧٠ ، وفي كتاب مناقب الانصار رقم ٣٧ ،

ومسلم في كتاب المساجد حديث رقم ١٦ ، وفي كتاب الفتن حديث رقم ١١٠ ، ١١٦ ، ١٣١ ، والنسائى في كتاب المساجد

رقم ١٣ .

يعبد^(١) . وقد حمى النبي ﷺ جانب التوحيد أعظم حماية حتى نهى عن صلاة التطوع لله سبحانه عند طلوع الشمس وعند غروبها ، لئلا يكون ذريعة الى التشبه بعباد الشمس الذين يسجدون لها في هاتين الحالتين وسد الذريعة ، بأن منع الصلاة بعد العصر والصبح ، لاتصال هذين الوقتين بالوقتتين اللذين يسجد المشركون فيهما للشمس ، وأما السجود لغير الله ، فقال لا ينبغي لأحد ان يسجد لأحد إلا الله ، ولا ينبغي في كلام الله ورسوله ﷺ للذى هو في غاية الامتناع شرعا . كقوله تعالى : ﴿ وما ينبغي للرحمن ان يتخذ ولدا ﴾^(٢) وقال : ﴿ وما علمناه الشعر وما ينبغي له ﴾^(٣) وقوله : ﴿ وما تنزل به الشياطين وما ينبغي لهم ﴾^(٤) وقوله عن الملائكة : ﴿ ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ﴾^(٥) ...

فصل

ومن الشرك به سبحانه - الشرك به في اللفظ كالحلف بغيره كما رواه أحمد وأبو داود عنه - ﷺ - أنه قال : « من حلف بغير الله فقد أشرك » وصححه الحاكم وابن حبان^(٦) .

ومن ذلك قول القائل للمخلوق : ماشاء الله وشئت ، كما ثبت عن النبي ﷺ انه قال له رجل : ماشاء الله وشئت . قال : أجعلتنى لله ندا . قل ، ما شاء الله وحده^(٦) وهذا مع أن الله قد أثبت للعبد مشيئة كقوله : ﴿ لمن شاء منكم أن يستقيم ﴾ . فكيف من يقول : أنا متوكل على الله وعليك . وأنا في حسب الله وحسبك . وما لى إلا الله وأنت . وهذا من الله ومنك وهذا من بركات الله وبركاتك . والله لى في السماء وأنت لى في الأرض . ويقول : والله وحياة فلان أو يقول : نذرا لله ولفلان . وأنا تائب لله ولفلان أو أرجو الله ولفلانا ، ونحو ذلك . فوازن بين هذه الألفاظ وبين قول القائل : ما شاء الله وشئت . ثم انظر أيهما أفحش يتبين لك ان قائلها أولى لجواب النبي ﷺ لقائل تلك الكلمة وأنه إذا كان قد جعله ندا لله بها ، فهذا قد جعل من لا يدانى رسول الله ﷺ في شيء من الأشياء بل لعله أن يكون من أعدائه ندا لرب العالمين ، فالسجود والعبادة ، والتوكل والابانة ، والتقوى والخشية ، والتحسب والتوبة ، والنذر والحلف ، والتسبيح والتكبير ، والتهليل والتحميد ، والاستغفار وحلق الرأس خضوعا وتعبدًا . والطواف بالبيت والدعاء ، كل ذلك محض حق الله لا يصلح ولا ينبغي لسواه من ملك مقرب ، ولا نبي مرسل ، وفي مسند الامام أحمد ان رجلا اتى به إلى النبي ﷺ قد أذنب ذنبا فلما وقف بين يديه قال : اللهم إني أتوب إليك ولا أتوب إلى محمد ، فقال قد عرف الحق لأهله .

(١) الحديث رواه مالك في الموطأ في كتاب السفر رقم ٨٥ ، وأحمد في مسنده ٢ / ٢٤٦ .

(٢) سورة مريم الآية ٩٢

(٣) سورة يس الآية ٦٩

(٤) سورة الشعراء الآية ٢١٠ ، ٢١١

(٥) سورة الفرقان الآية ١٨

(٦) الحديث رواه أحمد ٢ / ٣٤ ، ٦٧ ، ٦٩ ، ٨٧ ، ٩٨ ، ١٢٥ ، ١٤٢ ، والترمذى في ابواب النذور رقم ٩ ، والنسائي في كتاب الايمان رقم ٤ ، وابن ماجه في ابواب الكفارات رقم ٢ ، والدارمى في كتاب النذور رقم ٦

(٧) الحديث رواه أحمد ٢ / ٣٤ ، ٦٧ ، ٦٩ ، ٨٧ ، ٩٨ ، ١٢٥ ، ١٤٢ ، والترمذى في ابواب النذور رقم ٩ ، والنسائي في كتاب الايمان رقم ٤ ، وابن ماجه في ابواب الكفارات رقم ٢ ، والدارمى في كتاب النذور رقم ٦ .

(٨) الحديث رواه أحمد ١ / ٢١٤ ، ٢٢٤ ، ٢٨٣ ، ٣٤٧

فصل

وأما الشرك في الارادات والنيات ، فذلك البحر الذي لا ساحل له ، وقل من ينجو منه ، فمن أراد بعمله غير وجه الله نوى شيئا غير التقرب إليه وطلب الجزاء منه فقد أشرك في نيته وإرادته ، والاخلاص ان يخلص الله في أفعاله وأقواله وإرادته ونيته ، وهذه هي الحيفية ملة إبراهيم التي أمر الله بها عباده كلهم ولا يقبل من أحد غيرها ، وهي حقيقة الاسلام كما قال تعالى : ﴿ ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين ﴾^(١) وهي ملة إبراهيم عليه السلام التي من رغب عنها فهو من أسفه السفهاء .

فصل

وإذا عرفت هذه المقدمة إن فتح لك باب الجواب عن السؤال المذكور فنقول : ومن الله وحده نستمد الصواب حقيقة الشرك هو التشبه بالخالق والتشبيه للمخلوق به هذا هو التشبيه في الحقيقة لا إثبات صفات الكمال التي وصف الله بها نفسه ووصفه بها رسول الله ﷺ ، فعكس من نكس الله قلبه وأعمى عين بصيرته وأوكسه بلبسه الأمر وجعل التوحيد تشبها والتشبيه تعظيما وطاعة ، فالمشرك مشبه للمخلوق بالخالق في خصائص الالهية ، فإن من خصائص الالهية التفرد بملك الضر والنفع والعطاء والمنع ، وذلك يوجب تعليق الإدعاء والخوف والرجاء والتوكل به وحده ، فمن علق ذلك بمخلوق ، فقد شبهه بالخالق وجعل من لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا أفضل من غيره ، تشبها بمن له الأمر كله ، فآزمة الأمور كلها بيديه ، ومرجعها اليه فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، لا مانع لما أعطى وما معطى لما منع ، بل إذا فتح لعبده باب رحمته لم يمسكها احد ، وإن أمسكها عنه لم يرسلها إليه أحد فمن اقبح التشبيه تشبيه هذا العاجز الفقير بالذات بالقادر الغني بالذات ، ومن خصائص الالهية الكمال المطلق من جميع الوجوه الذي لا نقص فيه بوجه من الوجوه ، وذلك يوجب ان تكون العبادة كلها له وحده والتعظيم والاجلال والخشية والدعاء والرجاء والانابة والتوكل والاستعانة وغاية الذل مع غاية الحب كل ذلك يجب عقلا وشرعا وفطرة ان يكون له وحده ويمنع عقلا وشرعا وفطرة ان يكون لغيره . فمن جعل شيئا من ذلك لغيره فقد شبه ذلك الغير بمن لا شبه له ولا ند له وذلك اقبح التشبيه وأبطله ولشدة قبحه وتضمنه غاية الظلم ، أخبر سبحانه عباده انه لا يغفره مع أنه كتب على نفسه الرحمة ، ومن خصائص الالهية العبودية التي قامت على ساقين لا قوام لها بدونها غاية الحب مع غاية الذل ، هذا تمام العبودية وتفاوت منازل الخلق فيها بحسب تفاوتهم في هذين الاصلين ، فمن أعطى حبه وذله وخضوعه لغير الله ، فقد شبهه به في خالص حقه ، وهذا من المحال ان تأتى به شريعة من الشرائع وقبحه مستقر في كل فطرة وعقل ، ولكن غيرت الشياطين فطر أكثر الخلق وعقولهم وأفسدتهم عليهم واجتالتهم عنها ومضى على الفطرة الأولى من سبقت له من الله الحسنی ، فأرسل إليهم رسله وأنزل عليهم كتبه بما يوافق فطرهم وعقولهم ، فازدادوا بذلك نورا على نور يهدي الله لنوره من يشاء . إذا عرف هذا فمن خصائص الالهية السجود فمن سجد لغيره ، فقد شبه المخلوق به ومنها

التوكل فمن توكل على غيره فقد شبهه به ومنها التوبة فمن تاب لغيره فقد شبهه به ومنها الحلف باسمه تعظيماً واجلالاً ، فمن حلف بغيره فقد شبهه به . هذا في جانب التشبيه . واما في جانب التشبه به فمن تعاضم وتكبر ودعا الناس إلى اطرائه في المدح والتعظيم والخضوع والرجاء وتعليق القلب به خوفاً ورجاء والتجاء واستعانة فقد تشبه بالله ونازعه في ربوبيته وإلهيته ، وهو حقيقة بان يهيئه غاية الهوان ويذله غاية الذل ، ويجعله تحت اقدام خلقه وفي الصحيح عنه ﷺ قال ﴿ يقول الله عز وجل : العظمة إزارى والكبرياء ردائى فمن نازعنى واحداً منها عذبتة ﴾^(١) وإذا كان المصور الذى يصنع الصورة بيده من أشد الناس عذاباً يوم القيامة لتشبهه بالله فى مجرد الصنعة فما الظن بالتشبه بالله فى الربوبية والالهية كما قال النبى ﷺ : (أشد الناس عذاباً يوم القيامة المصورون . يقال لهم : احيوا ما خلقتكم)^(٢) .

وفى الصحيحين عنه ﷺ انه قال : (قال الله عز وجل : « ومن أظلم ممن ذهب يخلق خلقاً كخلقى فليخلقوا ذرة فليخلقوا شعيرة »^(٣) فنبه بالذرة والشعيرة على ما هو أعظم منها وأكبر والمقصود ان هذا حال من تشبه به فى صنعة صورته ، فكيف حال من تشبه به فى خواص ربوبيته وإلهيته . وكذلك من تشبه به فى الاسم الذى لا ينبغى إلا لله وحده كملك الأملاك ، وحاكم الحكام ونحوه : وقد ثبت فى الصحيح عنه ﷺ انه قال : (إن اخنع الاسماء عند الله رجل يسمى بشاهان شاه ملك الملوك ولا ملك إلا الله)^(٤) وفى لفظ أغيظ رجل على الله رجل يسمى بملك الأملاك)^(٥) فهذا مقت الله وغضبه على من تشبه به فى الاسم الذى لا ينبغى إلا له ، فهو سبحانه ملك الملوك وحده ، وهو حاكم الحكام وحده ، فهو الذى يحكم على الحكام كلهم ويقضى عليهم كلهم لا غيره .

فصل

إذا تبين هذا فهنا أصل عظيم يكشف سر المسألة ، وهو أن أعظم الذنوب عند الله إساءة الظن به ، فإن المسىء به الظن قد ظن به خلاف كما له المقدس ، فظن به ما يناقض اسماء وصفاته ، ولهذا توعده الله سبحانه الظانين به ظن السوء بما لم يتوعد به غيرهم كما قال تعالى : ﴿ عليهم دائرة السوء وغضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيراً ﴾^(٦)

وقال تعالى لمن أنكر صفة من صفاته ﴿ وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أرادكم فأصبحتم من الخاسرين ﴾^(٧) وقال تعالى عن خليله إبراهيم ﴿ إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون أفكافاً آلهة دون الله

(١) الحديث رواه مسلم فى كتاب البر حديث رقم ١٣٦ ، وأبو داود فى كتاب اللباس رقم ٢٥ ، وابن ماجه فى ابواب الزهد رقم ١٦ ، واحد فى مسنده ٢ / ٢٤٨ ، ٣٧٦ ، ٤١٤ ، ٤٢٧ ، ٤٤٢ ، ٦ / ١٩

(٢) الحديث رواه البخارى فى كتاب اللباس رقم ٨٩ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٥ ، والترمذى فى ابواب المواقيت رقم ١٤٩

(٣) الحديث رواه البخارى فى كتاب التوحيد رقم ٥٦ ، واحد ٢ / ٢٣٢ ، ٢٥٩ ، ٣٩١ ، ٤٥١ ، ٥٢٧ .

(٤) الحديث رواه البخارى فى كتاب الأدب رقم ١١٤ ، وأبو داود فى كتاب الأدب رقم ٦٢ ، والترمذى فى ابواب الأدب رقم ٦٦ ، واحد ٢ / ٢٤٤

(٥) الحديث رواه احمد ٢ / ٣١٥

(٦) سورة الفتح الآية رقم ٦

(٧) سورة فصلت الآية رقم ٢٣

تريدون فما ظنكم برب العالمين ﴿١﴾ أى فما ظنكم ، اى يجازيكم به إذا لا قيثموه وقد عبدتم غيره ، وماذا ظننتم به حين عبدتم معه غيره ، وما ظننتم باسمائه وصفاته وربوبيته من النقص ، حتى أحوجكم ذلك إلى عبودية غيره ، فلو ظننتم به ما هو أهله من انه بكل شىء عليم ، وهو على كل شىء قدير ، وانه غنى عن كل ما سواه ، وكل ما سواه فقير إليه ، وانه قائم بالقسط على خلقه ، وانه المتفرد بتدبير خلقه لا يشرك فيه غيره والعالم بتفاصيل الأمور ، فلا يخفى عليه خافية من خلقه والكافى لهم وحده ، فلا يحتاج إلى معين ، والرحمن بذاته فلا يحتاج فى رحمته إلى من يستعطفه ، وهذا بخلاف الملوك وغيرهم من الرؤساء فإنهم يحتاجون إلى من يعرفهم أحوال الرعية وحوائجهم وإلى من يعينهم على قضاء حوائجهم وإلى من يسترحمهم وإلى من يستعطفهم بالشفاعة ، فاحتاجوا إلى الوسائط ضرورة لحاجتهم وضعفهم وعجزهم وقصور علمهم ، فأما القادر على كل شىء الغنى عن كل شىء الرحمن الرحيم الذى وسعت رحمته كل شىء فإدخال الوسائط بينه وبين خلقه نقض لحق ربوبيته وإلهيته وتوحيده وظن به ظن سوء ، وهذا يستحيل ان يشرعه لعباده ويمتنع فى العقول والفطر ، وقبحه مستقر فى الفطر السليمه فوق كل قبيح ، يوضح هذا ان العابد معظم لمعبوده متأله خاضع ذليل له ورب تعالى وحده هو الذى يستحق كمال التعظيم والجلال والتأله والتذلل والخضوع ، وهذا خالص حقه فمن اقبح الظلم ان يعطى حقه لغيره أو يشرك بينه وبينه فيه ولا سيما الذى جعل شريكه فى حقه هو عبده ومملوكه كما قال تعالى :

﴿ ضرب لكم مثلا من أنفسمكم هل لكم مما ملكت أيما نكم من شركاء فيما رزقناكم ﴾ (٢) أى إذا كان أحدكم يأنف أن يكون مملوكه شريكا له فى رزقه ، فكيف تجعلون لى من عبيدى شركاء فيما أنا به متفرد ، وهو الالهية التى

لا تنبغى لغيرى ولا تصح لسوائى فمن زعم ذلك فما قدرنى حق قدرى ، ولا عظمى حق عظمتى ولا أفردنى بما أنا متفرد به وحدى دون خلقى ، فما قدر الله حق قدره من عبد معه غيره كما قال تعالى : ﴿ يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له ﴾ (٣) إلى قوله ﴿ لقوى عزيز ﴾ . فما قدر الله حق قدره من عبد معه غيره من لا يقدر على خلق أضعف حيوان وأصغره ، وان يسلبهم الذباب شيئا مما عليه لم يقدروا على الاستعاذة منه . قال تعالى : ﴿ وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة ﴾ (٤) فما قدر من هذا شأنه وعظمته حق قدره من أشرك معه فى عبادته من ليس له شىء من ذلك البتة ، بل هو أعجز شىء وأضعفه فما قدر القوى العزيز حق قدره من أشرك معه الضعيف الذليل ، وكذلك ما قدره حق قدره من قال : انه لم يرسل إلى خلقه رسولا ، ولا أنزل كتابا ، بل نسبه إلى ما لا يليق به ولا يحسن منه من إهمال خلقه وتضييعهم وتركهم سدى وخلقهم باطلا عبثا ، وكذا ما قدره حق قدره من نفى حقائق اسمائه الحسنى وصفاته العلى ، فنفى سمعه وبصره وإرادته واختياره وعلوه فوق خلقه وكلامه وتكليمه لمن شاء من خلقه بما يريد ونفى عموم قدرته وتعلقها بأفعال عباده من طاعتهم . ومعاصيهم ، فأخرجها عن قدرته

(٣) سورة الحج الآيتان ٧٣ ، ٧٤

(٤) سورة الزمر الآية رقم ٦٧

(١) سورة الصافات الآيات رقم ٨٥ - ٨٧

(٢) سورة الروم الآية رقم ٢٨

ومشيئته ، وجعلهم يخلقون لأنفسهم ما يشاءون بدون مشيئة الرب ، فيكون في ملكه ما لا يشاء ويشاء
 مالا يكون ، فتعالى عن قولة أشباه المجوس علوا كبيرا ، وكذلك ما قدره حق قدره من قال أيعاقب عبده
 على ما لا يفعله عبده ولا له عليه قدرة ولا تأثير له فيه البتة ، بل هو نفس فعل الرب جل جلاله ،
 فيعاقب عبده على فعله ، فهو سبحانه الذى جبر العبد عليه، وجبره على الفعل أعظم من إكراه المخلوق
 للمخلوق ، وإذا كان من المستقر فى الفطر والعقول ان السيد لو أكره عبده على فعل أو ألجأه وإليه ثم
 عاقبه عليه لكان قبيحا فأعدل العادلين وأحكم الحاكمين وأرحم الراحمين ، كيف يجبر العبد على فعل
 لا يكون للعبد فيه صنع ولا تأثير ولا هو واقع بإرادته ولا فعله البتة ، ثم يعاقب عليه . تعالى الله عن
 ذلك علوا كبيرا وقول هؤلاء شر من أشباه قول المجوس . والطائفتان ما قدر الله حق قدره ، وكذلك ما
 قدره حق قدره من لم يصنه عن نتن ولا مكان يرغب عن ذكره ، بل جعله فى كل مكان ، وصانه
 عن عرشه ان يكون مستويا عليه ، إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ، وتخرج الملائكة
 والروح، وتنزل من عنده وتدبر الأمر من السماء الى الأرض ، ثم تخرج اليه فصانه عن استوائه على سرير
 الملك ثم جعله فى كل مكان يأنف الانسان بل غيره من الحيوان ان يكون فيه ، وما قدر الله حق قدره
 من نفى حقيقة محبته ورحمته ورأفته ورضاه ، وغضبه ومقته ، ولا من نفى حقيقة حكمته التى هى
 الغايات المحمودة المقصودة بفعله ، ولا من نفى حقيقة مجيئه واتيانه واستوائه على عرشه وتكليمه موسى
 من جانب الطور ومجيئه يوم القيامة لفصل القضاء بين عباده بنفسه ، إلى غير ذلك من أفعاله وأوصاف
 كماله التى نفوها وزعموا أنهم بنفيا قد قدره حق قدره ، وكذلك لم يقدره حق قدره من جعل له
 صاحبة وولدا ، وجعله سبحانه يحل فى جميع مخلوقاته ، أو جعله عين هذا الوجود ، وكذلك لم يقدره
 حق قدره من قال إنه رفع اعداء رسول الله ﷺ وأهل بيته وأعلى ذكركم ، وجعل الله فيهم الملك
 والخلافة والعز و وضع أولياء رسول الله ﷺ وأهل بيته، أهانهم وأذلهم وضرب عليهم الذل أينما ثقفوا ،
 وهذا يتضمن غاية القدح فى جناب الرب . تعالى عن قول الرافضة علوا كبيرا ، وهذا القول مشتق من
 قول اليهود والنصارى فى رب العالمين ، انه ارسل ملكا ظالما فادعى النبوة لنفسه وكذب على الله وأخذ
 زمانا طويلا يكذب على الله كل وقت ، ويقول : قال كذا وامر بكذا ، ونهى عن كذا . وينسخ شرائع
 أنبيائه ورسله ويستبيح دماء اتباعهم وأموالهم وحریمهم ويقول : الله اباح لى ذلك والرب تعالى يظهره
 ويؤيده ، ويعليه ويقربه ، ويجيب دعواته ويمكنه بمن يخالفه ، ويقيم الأدلة على صدقه ولا يعاديه أحد
 إلا ظفر به ، فيصدقه بقوله وفعله وتقريره وتحديث ادلة تصديقه شيئا بعد شيء إلى يوم القيامة، ومعلوم ان
 هذا يتضمن أعظم القدح والطعن فى الرب سبحانه وتعالى وعلمه وحكمته ورحمته ورؤيته تعالى الله عن
 قول الجاحدين . علوا كبيرا . فوازن بين قول هؤلاء وقول إخوانهم من الرافضة تجد القولين كما قال
 الشاعر :

رضيعى لبان ثدى أم تقاسما بأسحم داج عوض لا يتفرق

وكذلك لم يقدره حق قدره من قال انه يجوز ان يعذب أوليائه ، ومن لم يعصه طرفة عين
 ويدخلهم دار النعيم ، وان كل الامرين بالنسبة إليه وإنما الخبر المحض جاء عنه بخلاف ذلك فمعناه

للخبر لا للمخالفة حكمته وعدله ، وقد أنكر سبحانه في كتابه على من جوز عليه ذلك غاية الانكار وجعل الحكم به من أسوأ الأحكام ، وكذلك لم يقدره حق قدره من زعم انه لا يحيى الموتى ، ولا يبعث من فى القبور ، ولا يجمع الخلق ليوم يجازى المحسن فيه بإحسانه ، والمسيء فيه بإساءته ، ويأخذ للمظلوم فيه حقه من ظالمة ، ويكرم المتحملين المشاق فى هذه الدار من أجله وفى مرضاته بأفضل كرامته ، ويبين لخلق الذين يختلفون فيه ، ويعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين، وكذلك لم يقدره حق قدره من هان عليه امره فعصاه ، ونهى فارتكبه ، وحقه فضيعه ، وذكره فأهمله ، وغفل قلبه عنه وكان هواه أثر عنده من طلب رضاه وطاعة المخلوق أهم عنده من طاعة الله فلهذا الفضلة من قلبه وعلمه ، وقوله وعمله وماله وسواه المقدم فى ذلك ، لأنه المهم عنده يستخف بنظر الله إليه واطلاعه عليه وهو فى قبضته وناصيته بيده ويعظم نظر المخلوق إليه واطلاعه عليه بكل قلبه وجوارحه ، ويستخفى من الناس ولا يستخفى من الله ، ويخشى الناس ولا يخشى الله ، ويعامل الخلق بأفضل ما عنده وما يقدر عليه وإن عامل الله عامله بأهون ما عنده وأحقره ، وإن قام فى خدمة من يحبه من البشر قام بالجد والاجتهاد وبذل النصيحة ، وقد أفرغ له قلبه وجوارحه وقدمه على كثير من مصالحه ، حتى إذا قام فى حق ربه ان ساعده القدر قام قياما لا يرضاه مخلوق من مخلوق مثله ، وبذل له من ماله ما يستحى ان يواجه به مخلوقا مثله ، فهل قدر الله حق قدره من هذا وصفه ، وهل قدره حق قدره من شارك بينه وبين عدوه فى محض حقه من الاجلال والتعظيم والطاعة والذل والخضوع والخوف والرجاء ، فلو جعل له من أقرب الخلق إليه شريكا فى ذلك لكان ذلك جرأة وتوثبا على محض حقه واستهانة به وتشريكا بينه وبين غيره فيما لا ينبغى ولا يصلح إلا له سبحانه ، فكيف وإنما اشرك معه أبغض الخلق اليه وأهونهم عليه وأمقتهم عنده ، وهو عدوه على الحقيقة ، فإنه ما عبد من دون الله إلا الشيطان . كما قال تعالى : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَابْنَى آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ . إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ . وَأَنْ أَعْبُدُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ (١) .

ولما عبد المشركون الملائكة بزعمهم وقعت عبادتهم للشيطان ، وهم يظنون أنهم يعبدون الملائكة كما قال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا . ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ : أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ؟ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيْنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ﴾ (٢)

فالشيطان يدعو المشركين إلى عبادته ويوهمهم انه ملك كذلك عباد الشمس والقمر والكواكب يزعمون أنهم يعبدون روحانيات هذه الكواكب وهى التى تخاطبهم وتقضى لهم الحوائج ، ولهذا إذا طلعت الشمس قارنها الشيطان فيسجد لها الكفار ، فيقع سجودهم له ، وكذلك عند غروبها ، وكذلك من عبد المسيح وأمه لم يعبدهما وإنما عبد الشيطان ، فإنه يزعم انه يعبد من امره بعبادته وعبادة أمه ورضيها لهم وأمرهم بها ، وهذا هو الشيطان الرجيم . لعنة الله عليه لا عبد الله ورسوله ﷺ فيدل هذا كله على قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَابْنَى آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ . وَإِنْ أَعْبُدُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ فما عبد أحد من بنى آدم غير الله كائنا من كان إلا وقعت عبادته

(١) سورة يس الآيتان ٦٠ ، ٦١

(٢) سورة سبأ الآيتان ٤٠ ، ٤١

للشيطان ، فيستمتع العابد بالمعبود في حصول أغراضه ، ويستمتع المعبود بالعابد في تعظيمه له وإشراكه مع الله الذي هو غاية رضاء الشيطان ولهذا قال تعالى : ﴿ ويوم نحشرهم جميعا يامعشر الجن قد استكثرتم من الانس ﴾ . اى من اغوائهم واضلالهم ﴿ وقال أولياؤهم من الانس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذى أجلت لنا قال النار مثواكم خالدن فيها إلا ما شاء الله إن ربك حكيم عليم ﴾ (١)

فهذه اشارة لطيفة إلى السر الذى لأجله كان الشرك أكبر الكبائر عند الله ، وانه لا يغفره بغير التوبة منه ، وانه يوجب الخلود فى النار ، وانه ليس تحريمه وقبحه بمجرد النهى عنه ، بل يستحيل على الله سبحانه أن يشرع لعباده إلهام غيره ، كما يستحيل عليه ما يناقض أوصاف كمال ونعوت جلاله ، وكيف يظن بالمنفرد بالربوبية والالهية والعظمة والاجلال ان يأذن فى مشاركته فى ذلك او يرضى به تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

فصل

فلما كان الشرك أكبر شئ منافاة للأمر الذى خلق الله له الخلق كان من أكبر الكبائر عند الله ، وكذلك الكبر وتوابعه كما تقدم ، فإن الله سبحانه وتعالى خلق الخلق وأنزل الكتاب لتكون الطاعة له وحده ، والشرك والكبر ينافیان ذلك ، ولذلك حرم الله الجنة على أهل الشرك والكبر ولا يدخلها من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر .

فصل

ويلى ذلك فى كبر المفسدة القول على الله بلا علم فى أسمائه وصفاته وأفعاله ووصفه بضد ما وصف به نفسه ووصفه به رسوله ﷺ ، فهذا أشد شئ منافاة ومناقضة لكمال من له الخلق والأمر وقدح فى نفس الربوبية وخصائص الرب ، فإن صدر ذلك عن علم فهو عناد أقبح من الشرك وأعظم اثما عند الله فإن المشرك المقر بصفات الرب خير من المعطل الجاحد لصفات كماله ، كما ان من اقر بالملك للملك ولم يجحد ملكه ولا الصفات التى استحق بها الملك لكن جعل معه شريكا فى بعض الأمور تقريبا اليه خيرا ممن جحد صفات الملك وما يكون به الملك ملكا هذا امر مستقر فى سائر الفطر والعقول فأين القدح فى صفات الكمال والجحد لها من عباده واسطة بين المعبود الحق وبين العابد يتقرب اليه بعبادة تلك الواسطة اعظم له واجلالا وفداء التعطيل هذا الداء العضال الذى لا دواء له ، ولهذا حكى عن امام المعطلة فرعون انه انكر على موسى ما أخبر به من ان ربه فوق السموات ﴿ ياها مان ابن لى صرحا لعلى أبلغ الاسباب اسباب السماوات فأطلع الى اله موسى وانى لأظنه كاذبا ﴾ ، واحتج الشيخ ابو الحسن الأشعرى فى كتبه على المعطلة بهذه الآية وقد ذكرنا لفظه فى غير هذا الكتاب ، وهو كتاب اجتماع

الجيوش الاسلامية على حرب المعطلة والجهمية في اثبات العلوم . والقول على الله بلا علم والشرك متلازمان ، ولما كانت هذه البدع المضلة جهلا بصفات الله وتكذيبا بما اخبر به عن نفسه واخبر به عنه رسوله ﷺ عنادا وجهلا ، كانت من اكبر الكبائر ان قصرت عن الكفر وكانت أحب إلى إبليس من كبار الذنوب ، كما قال بعض السلف البدعة أحب إلى إبليس من المعصية ؛ لان المعصية يتاب منها ، والبدعة لا يتاب منها ، وقال إبليس لعنه الله : أهلكت بنى آدم بالذنوب وأهلكوني بلا اله إلا الله والاستغفار ، فلما رأيت ذلك بثت فيهم الالهواء ، فهم يذنبون ولا يتوبون ؛ لانهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، ومعلوم ان المذنب إنما ضرره على نفسه ، وأما المبتدع فضرره على النوع ، وفتنة المبتدع في أصل الدين ، وفتنة المذنب في الشهوة ، والمبتدع قد قعد للناس على صراط الله المستقيم يصددهم عنه والمذنب ليس كذلك ، والمبتدع قاذح في أوصاف الرب وكماله ، والمذنب ليس كذلك ، والمبتدع مناقض لما جاء به الرسول ﷺ ، والعاصي ليس كذلك ، والمبتدع يقطع على الناس طريق الآخرة ، والعاصي بطيء السير بسبب ذنوبه .

فصل

ثم لما كان الظلم والعدوان منافيين للعدل الذي قامت به السموات والأرض وأرسل الله سبحانه رسوله صلى الله عليهم وسلم وانزل كتبه ليقوم الناس بالقسط ، كان أى الظلم من أكبر الكبائر عند الله وكانت درجته في العظمة بحسب مفسدته في نفسه وكان قتل الانسان ولده الطفل الصغير الذي لا ذنب له ، وقد جبل الله سبحانه وتعالى القلوب على محبته ورحمته وعطفها عليه وخص الوالدين من ذلك بمزية ظاهرة وقتله خشية أن يشاركه في مطعمه ومشربه وماله من أقبح الظلم وأشده ، وكذلك قتله أبويه اللذين كانا سبب وجوده ، وكذلك قتله ذات رحمه وتتفاوت درجات القتل بحسب قبحه واستحقاق من قتله السعى في إبقائه ونصيحته ، ولهذا كان أشد الناس عذابا يوم القيامة من قتل نبيا أو قتله نبي ، ويليه من قتل إماما عادلا ، أو عالما يأمر الناس بالقسط ويدعوهم إلى الله سبحانه وينصحهم في دينهم وقد جعل الله سبحانه جزاء قتل النفس المؤمنة عمدا ، الخلود في النار ، وغضب الجبار ولعنته واعداد العذاب العظيم له . هذا موجب قتل المؤمن عمدا ما لم يمنع منه مانع ، ولا خلاف ان الاسلام الواقع بعد القتل طوعا واختيارا مانع من نفوذ ذلك الجزاء ، وهل تمنع توبة المسلم منه بعد وقوعه فيه . فيه قولان للسلف والخلف وهما روايتان عن احمد والذين قالوا لا تمنع التوبة من نفوذه رأوا انه حق لأدمى لم يستوفه في دار الدنيا وخرج منه بظلامته فلا بد ان يستوفى له في دار العدل . قالوا فما استوفاه الوارث ، وإنما استوفى محض حقه الذي خيره الله بين استيفائه والعفو عنه وما ينفع المقتول من استيفاء وارثه ، وأى استدراك بظلامته حصل له باستيفاء وارثه ، وهذا اصح القولين في المسألة ان حق المقتول لا يسقط باستيفاء الوارث ، وهى وجهان لأصحاب الشافعى واحمد وغيرهما ، ورأت طائفة انه يسقط بالتوبة واستيفاء الوارث ، فإن التوبة تهدم ما قبلها ، والذنب الذى قد جناه قد اقيم عليه حده ، قالوا: وإذا كانت التوبة تمحو أثر الكفر والسحر ، وهما أعظم إثما من القتل ، فكيف تقصر عن محو أثر القتل ، وقد

قبل الله توبة الكفار الذين قتلوا أولياءهم وجعلهم من خيار عباده ، ودعا الذين أحرقوا أولياءهم وفتنوه عن دينهم ودعاهم إلى التوبة ، وقال تعالى : ﴿ يا عبادي الذين اسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا ﴾ ^(١) وهذا في حق التائب وهي تتناول الكفر فما دونه . قالوا : وكيف يتوب العبد من الذنب ويعاقب عليه بعد التوبة ؟ هذا معلوم انتفاؤه في شرع الله وجزائه ، قالوا وتوبة هذا المذنب تسليم نفسه ، ولا يمكن تسليمها إلى المقتول ، فأقام الشارع وليه مقامه ، وجعل تسليم النفس إليه كتسليمها إلى المقتول بمنزلة تسليم المال الذي عليه لوارثه ، فإنه يقوم مقام تسليمه للموروث والتحقيق في المسألة ان القتل يتعلق به ثلاثة حقوق : حق الله ، وحق للمظلوم المقتول وحق للولي ، فإذا سلم القاتل نفسه طوعا واختيارا إلى الولي ، ندما على ما فعل ، وخوفا من الله ، وتوبة نصوحا يسقط حق الله بالتوبة ، وحق الولي بالاستيفاء أو الصلح أو العفو وبقي حق المقتول يعرضه الله عنه يوم القيامة عن عبده التائب المحسن ويصلح بينه وبينه ، فلا يبطل حق هذا ولا تبطل توبة هذا ، وأما مسألة المال فقد اختلف فيها . فقالت طائفة : إذا أدى ما عليه من مال إلى الوارث فقد برىء من عهده في الآخرة ، كما برىء منها في الدنيا . وقالت طائفة : بل المطالبة لمن ظلمه بأخذه باقية عليه يوم القيامة ، وهو لم يستدرك ظلماته بأخذ وارثه له ، فإنه منعه من انتفاعه به في طول حياته ، ومات ولم ينتفع به ، فهذا ظلم لم يستدركه وإنما ينتفع به غيره بإدراكه ، وبنوا هذا على انه لو انتقل من واحد إلى واحد وتعدد الورثة كانت المطالبة للجميع ، لانه حق كان يجب عليه دفعه إلى كل واحد منهم عند كونه هو الوارث ، وهذا قول طائفة من أصحاب مالك وأحمد ، وفصل شيخنا رحمه الله بين الطائفتين ، فقال : إن تمكن الموروث من اخذ ماله والمطالبة به فلم يأخذ حتى مات صارت المطالبة به للوارث في الآخرة ، كما هي له كذلك في الدنيا ، وإن لم يتمكن من طلبه واخذه بل حال بينه وبينه ظلما وعدوانا فالطلب له في الآخرة ، وهذا التفصيل من أحسن ما يقال فإن المال إذا استهلكه الظالم على الموروث وتعذر أخذه منه ، صار بمنزلة عبده الذي قتله قاتل وداره التي احرقها غيره وطعامه وشرابه الذي أكله وشربه غيره ، ومثل هذا إنما تلف على الموروث لا على الوارث في حق المطالبة لمن تلف على ملكه ، فينبغي أن يقال ، فإذا كان المال عقارا وأرضا أو أعيانا قائمة باقية بعد الموت ، فهي ملك للوارث يجب على الغاصب دفعها إليه كل وقت ، وإذا لم تدفع إليه أعيان ما له استحق المطالبة بها عند الله تعالى ، كما يستحق المطالبة بها في الدنيا ، وهذا سؤال قوى لا يخلص منه إلا بأن يقال المطالبة لهما جميعا كما لو غصب مالا مشتركا بين جماعة استحق كل منهم المطالبة بحقوقهم منه ، وكما لو استولى على وقف مرتب على بطون فأبطل حق البطون كلهم منه كانت المطالبة يوم القيامة لجميعهم ولم يكن بعضهم أولى بها من بعض والله أعلم .

فصل

ولما كانت مفسدة القتل هذه المفسدة قال الله تعالى : ﴿ من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس

جميعاً^(١) وقد أشكل فهم هذا على كثير من الناس ، وقالوا معلوم ان إثم قاتل مائة أعظم إثماً عند الله من إثم قاتل نفس واحدة ، وإنما أتوا من ظنهم ان التشبيه في مقدار الاثم والعقوبة، والقول لم يدل على هذا ولا يلزم من تشبيه الشيء أخذه بجميع أحكامه وقد قال تعالى : ﴿ كَانَهُمْ يَوْمَ يَرُونَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَةً أَوْ ضُحَاهَا ﴾^(٢) وقال تعالى : ﴿ كَانَهُمْ يَوْمَ يَرُونَ مَا يُوْعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ ﴾^(٣) وذلك لا يوجب ان لبثهم في الدنيا إنما كان هذا المقدار وقد قال النبي ﷺ : (من صلى العشاء في جماعة فكأنما قام نصف الليل ومن صلى الفجر في جماعة فكأنما قام الليل كله)^(٤) أى مع العشاء كما جاء في لفظ آخر وأصرح من هذا قوله : من صام رمضان وأتبعه ستة من شوال فكأنما صام الدهر^(٥) وقوله ﷺ من قرأ قل هو الله فكأنما قرأ ثلث القرآن^(٦) ومعلوم ان ثواب فاعل هذه الأشياء لم يبلغ ثواب المشبه به . فيكون قدرها سواء ، ولو كان قدر الثواب سواء لم يكن لمصلي الفجر والعشاء في جماعة في قيام الليل منفعة غير التعب والنصب ، وما أوتي احد بعد الايمان أفضل من الفهم عن الله وعن رسوله ﷺ ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، فإن قيل ففي أى شيء وقع التشبيه بين قاتل نفس واحدة وقاتل الناس جميعاً ، قيل : في وجوه متعددة: أحدها ان كل واحد منها عاص لله ورسوله ﷺ ، يخالف لأمره متعرض لعقوبته، وكلا منها قد باء بغضب من الله ولعنته واستحقاق الخلود في نار جهنم واعدلهم عذاباً عظيماً ، وان تفاوتت درجات العذاب فليس إثم من قتل نبياً أو إماماً عادلاً أو عالماً يأمر الناس بالقسط كمن قتل من لا مزية له من آحاد الناس . الثاني انها سواء في استحقاق ازهاق النفس ، الثالث انها سواء في الجراءة على سفك الدم الحرام فإن من قتل نفساً بغير استحقاق بل لمجرد الفساد في الأرض ولأخذ ماله فإنه يجترأ على قتل كل من ظفر به وامكنه قتله ، فهو معاد للنوع الانساني ، ومنها انه يسمى قاتلاً أو فاسقاً أو ظالماً أو عاصياً بقتله واحداً ، كما يسمى ذلك بقتله الناس جميعاً ، ومنها ان الله سبحانه وتعالى جعل المؤمنين في توادهم وتراحهم وتعاطفهم وتواصلهم كالجسد الواحد اذا اشتكى عضو تداعى له سائر الجسد بالحمل والسهر . فإذا اتلف القاتل عضواً من ذلك الجسد فكأنما اتلف سائر الجسد وآلم جميع أعضائه فمن آذى مؤمناً واحداً فقد آذى جميع المؤمنين وفي آذى جميع المؤمنين آذى جميع الناس كلهم ، فإن الله إنما يدافع عن الناس بالمؤمنين الذين بينهم فإيذاء الخفير إيذاء المخفر وقد قال النبي ﷺ : - (لا تقتل النفس ظلماً بغير حق إلا كان على ابن آدم الأول كفل منها) لأنه أول من سن القتل ولم يجيء هذا الوعيد في أول زان ولا أول سارق ولا أول شارب مسكر .

(١) سورة المائدة آية رقم ٣٢

(٢) سورة النازعات آية رقم ٤٦

(٣) سورة الأحقاف آية رقم ٣٥

(٤) الحديث رواه البخارى في كتاب الاذان رقم ٣٤ ، ومسلم في كتاب المساجد حديث رقم ٢٦٠ ، والترمذى في ابواب الصلاة رقم ٢٨ ، واحد ١ / ٥٨ ، ٦٨

(٥) الحديث رواه البخارى في كتاب الصوم رقم ٥٩ ، وفي كتاب النكاح رقم ١ ، ومسلم في كتاب الصيام حديث رقم ١٨٢ ، ١٨٦ ، ١٨٩ ، ١٩٥ ، والترمذى في ابواب الصوم رقم ٤٤ ، ٥٣ ، ٥٥ ، ٧٥ ، والنسائى في كتاب الصيام رقم ٧٢ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٨ ، ٨٢ ، وابن ماجه في ابواب الصيام ٣٢ / ١ ، واحد ٥ / ١٤٦ .

(٦) الحديث لفظه : (من قرأ قل هو الله احد فكأنما قرأ بثلث القرآن) رواه احمد والنسائى في اليوم واللييلة عن ابى بن كعب ، أو عن رجل من الانصار - قال الهيثمى بعد عزوه لأحمد : ورجاله رجال الصحيح

(المسند ٥ / ١٤١ ، مجمع الزوائد ٧ / ١٤٧ ، تفسير ابن كثير ٤ / ٥٦٧ ط : الحلبي

وإن كان أول المشركين قد يكون أولى بذلك من أول قاتل؛ لأنه أول من سن الشرك ، ولهذا رأى النبي - ﷺ - عمرو بن لحي الخزاعي يعذب أعظم العذاب في النار ؛ لأنه أول من غير دين إبراهيم - عليه السلام - وقد قال تعالى : ﴿ ولا تكونوا أول كافر به ﴾ ^(١) ، أى فيقتدى بكم من بعدكم فيكون إثم كفره عليكم وكذلك حكم من سن سنة سيئة فاتبع عليها .

وفي جامع الترمذى عن ابن عباس - رضى الله عنهما - عن النبي - ﷺ - قال : (يجرىء المقتول بالقاتل يوم القيامة ناصيته ورأسه بيده وأوداجه تشخب دما يقول يارب سل هذا فيما قتلتنى فذكروا لابن عباس التوبة فتلا هذه الآية ﴿ ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها ﴾ ^(٢) ثم قال : ما نسخت هذه الآية ولا بدلت وأنى له التوبة قال الترمذى : هذا حديث حسن ^(٣) .

وفي صحيح البخارى عن سمرة بن جندب قال : (أول ما ينتن من الانسان بطنه فمن استطاع منكم ألا يأكل الا طيبا فليفعل ومن استطاع الا يحول بينه وبين الجنة ملء كف من دم أهرقه فليفعل) ^(٤) .

وفي جامع الترمذى عن نافع قال : (نظر عبد الله بن عمر يوما الى الكعبة فقال : ما أعظمك وأعظم حرمتك والمؤمن عند الله أعظم حرمة منك) قال الترمذى هذا حديث حسن .

وفي صحيح البخارى - أيضا - عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ - : (لا يزال المؤمن في فسحة من دينه ما لم يصب دما حراما) ^(٥) .

وذكر البخارى أيضا عن ابن عمر قال : (من ورطت الأمور التى لا مخرج لمن أوقع نفسه فيها سفك الدم الحرام بغير حله) .

وفي الصحيحين عن أبي هريرة يرفعه : (سباب المؤمن فسوق . وقتاله كفر) ^(٦) .

وفيها أيضا عنه - ﷺ - (لا ترجعوا بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض) ^(٧) .

وفي صحيح البخارى عنه ﷺ : (من قتل معاهدا لم يرح رائحة الجنة وإن ريحها يوجد مسيرة

(١) سورة البقرة الآية : ٤١

(٢) سورة النساء من الآية : ٩٣

(٣) الحديث فى سنن الترمذى « أبواب تفسير القرآن » ج ٤ ص ٣٠٦ - ٣٠٧ عن ابن عباس بلفظ « يجرىء المقتول بالقاتل يوم القيامة ناصيته ورأسه بيده وأوداجه تشخب دما يقول : يارب قتلتنى هذا حتى يدينه من العرش ، قال : فذكروا لابن عباس التوبة فتلا هذه الآية ... » الخ وقال : هذا حديث حسن .

(٤) صحيح البخارى كتاب الاحكام - باب من شاق شق الله عليه ، من حديث طويل ، من سَمِعَ الله به يوم القيامة ... الخ عن جندب .

(٥) الترغيب والترهيب .. كتاب الحدود .. باب التهيب من قتل النفس .. الخ ج ٣ ص ٢٩٢ حديث رقم ٤ وهذا جزء من حديث ابن عمر . ثم قال المنذرى : رواه البخارى والحاكم وقال : صحيح على شرطهما .

(٦) الترغيب والترهيب كتاب الادب وغيره باب « التهيب من السباب واللعن .. الخ » ج ٣ ص ٤٦٦ الحديث رقم ٢ عن ابن مسعود - رضى الله عنه - بلفظه ..

(٧) صحيح البخارى كتاب العلم - باب « الانصات للعلماء » ج ١ ص ٤١ عن جرير ان النبي - ﷺ - قال له فى حجة الوداع : استنصت الناس فقال : لا ترجعوا بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض .

وانظر سنن الترمذى كتاب الفتن ابواب القدر ج ٣ ص ٣٢٩ حديث رقم ٢٢٨٩ .

أربعين عاما (١) ..

هذه عقوبة قاتل عدو الله اذا كان معاهدا في عهده وامانه فكيف بعقوبة قاتل عبده المؤمن .
واذا كانت امرأة قد دخلت النار في هرة حبستها حتى ماتت جوعا وعطشا فرأها النبي - ﷺ - في
النار والهرة تخذشها في وجهها وصدرها . فكيف عقوبة من حبس مؤمنا حتى مات بغير جرم . وفي بعض
السنن عنه - ﷺ - (لزوال الدنيا أهون على الله من قتل مؤمن بغير حق) .

﴿ مفسدة الزنا ﴾

ولما كانت مفسدة الزنا من أعظم المفاسد وهي منافية لمصلحة نظام العالم في حفظ الأنساب وحماية
الفروج وصيانة الحرمات وتوقي ما يوقع أعظم العداوة والبغضاء بين الناس من إفساد كل منهم امرأة
صاحبه وبنته واخته وأمه وفي ذلك خراب العالم ، كانت تلى مفسدة القتل في الكبر ولهذا قرنه الله -
سبحانه - بها في كتابه ورسوله - ﷺ - في سننه . قال الامام احمد ولا أعلم بعد قتل النفس شيئا أعظم
من الزنا وقد أكد الله سبحانه حرمة بقوله : ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس
التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ﴾ (٢) ، فقرن الزنا بالشرك وقتل النفس وجعل جزاء ذلك الخلود في
النار وفي العذاب المضاعف المهين مالم يرفع العبد وجب ذلك بالتوبة والايمان والعمل الصالح وقد قال
تعالى : ﴿ ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا ﴾ (٣) . فأخبر عن فحشه في نفسه وهو القبيح
الذي قد تناها قبحه حتى استقر فحشه في العقول حتى عند كثير من الحيوانات كما ذكر البخاري في
صحيحه عن عمرو بن ميمون الأودي قال : رأيت في الجاهلية قردا زنا بقردة فاجتمع القردود عليها
فرجموها حتى ماتا (٤) ثم أخبر عن غايته بأنه ساء سبيلا فانه سبيل هلكة وبوار وافتقار في الدنيا
وسبيل عذاب في الآخرة وخزي ونكال ، ولما كان نكاح أزواج الآباء من أقبحه خصه بمزيد ذم فقال انه
كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا وعلق سبحانه فلاح العبد على حفظ فرجه منه فلا سبيل له الى الفلاح
بدونه فقال : ﴿ قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون ﴾ الى قوله : ﴿ فمن ابتغى وراء
ذلك فأولئك هم العادون ﴾ (٥) . وهذا يتضمن ثلاثة أمور : من لم يحفظ فرجه لم يكن من
المفلحين ، وانه من الملوين ، ومن العادين ، ففاته الفلاح واستحق اثم العدوان ، ووقع في اللوم ،

(١) « الترغيب والترهيب » كتاب الحدود باب « من قتل معاهداً .. الخ ج ٣ ص ٢٩٨ ، حديث رقم ٢٣ عن عبد الله بن عمرو بن
العاص بلفظه . وقال المنذرى : رواه البخاري واللفظ له ، والنسائي إلا انه قال : من قتل قتيلا من أهل الذمة ،
وانظر البيهقي ج ٨ ص ١٣٣ باب ما جاء في اثم من قتل ذميا .. الخ بزيادة « بغير حق » وقال رواه البخاري في الصحيح

عن قيس بن جعفر .. الخ

(٢) سورة الفرقان من الآية : ٦٨

(٣) سورة الاسراء الآية : ٣٢

(٤) صحيح البخاري « القسامة في الجاهلية » ح ٥٦ عن عمرو بن ميمون بلفظ قال : « رأيت في الجاهلية قردة اجتمع عليها
قردة قد زنت فرجموها فرجتها معهم »

(٥) سورة المؤمنون الآيات من ١ - ٧

فمقاساة ألم الشهوة ومعاناتها أيسر من بعض ذلك ، ونظير هذا أنه ذم الانسان ، وانه خلق هلوعا لا يصبر على شر ولا خير ، بل اذا مسه الخير منع وبخل ، واذا مسه الشر جزع إلا من استثناه بعد ذلك من الناجين من خلقه فذكر عنهم ﴿ الذين هم لفروجهم حافظون ، إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين . فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون ﴾ وأمر الله - تعالى - نبيه أن يأمر المؤمنين بغض أبصارهم وحفظ فروجهم وأن يعلمهم أنه مشاهد لأعمالهم مطلع عليها ﴿ يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ﴾^(١) . ولما كان مبدأ ذلك من قبل البصر جعل الأمر بغضه مقدما على حفظ الفرج فإن الحوادث مبدؤها من النظر كما أن معظم النار مبدؤها من مستغر الشرر .

﴿ أثر المعاصي ﴾

وللمعاصي من الآثار القبيحة المذمومة المضرة بالقلب والبدن في الدنيا والآخرة مالا يعلمه إلا الله فمنها :

حرمان العلم فإن العلم نور يقذفه الله في القلب ، والمعصية تطفىء ذلك النور ، ولما جلس الامام الشافعي بين يدي مالك وقرأ عليه أعجبه ما رأى من وقور فطنته وتوقد ذكائه وكمال فهمه فقال : إني أرى الله قد ألقى على قلبك نورا فلا تطفئه بظلمة المعصية . وقال الشافعي :

فأرشدني إلى ترك المعاصي
وفضل الله لا يؤتاه عاصي

شكوت إلى وكيع سوء حفظي
وقال : اعلم بان العلم فضل

ومنها حرمان الرزق :

وفي المسند أن العبد ليحرم الرزق بالذنوب يصيبه ، تقدم ولما أن كانت تقوى الله مجلبة للرزق فترك التقوى مجلبة للفقر ، فما استجلب رزق الله بمثل ترك المعاصي .

ومنها وحشة يجدها العاصي في قلبه بينه وبين الله لا يوازنها ولا يقارنها لذة ، ولو اجتمعت له لذات الدنيا بأسرها لم تف بتلك الوحشة وهذا أمر لا يحس به إلا من في قلبه حياة ، وما لجرح بميت إيلام ، فلو لم يكن ترك الذنوب إلا حذرا من وقوع تلك الوحشة لكان العاقل حريا بتركها ، وشكا رجل الى بعض العارفين وحشة يجدها في نفسه فقال له :

إذا كنت قد أوحشتك الذنوب فدعها إذا شئت واستأنس وليس على القلب أمر من وحشة الذنب على الذنب فالله المستعان :

ومنها الوحشة التي تحصل له بينه وبين الناس ولا سيما أهل الخير منهم فانه يجد وحشة بينه وبينهم ، وكلما قويت تلك الوحشة بعد منهم ومن مجالستهم وحرمة البركة الانتفاع بهم وقرب من حزب الشيطان ، بقدر ما يبعد من حزب الرحمن ، وتقوى هذه الوحشة حتى تستحكم فتقع بينه وبين امرأته

وولده وأقاربه وبيته وبين نفسه ، فتراه مستوحشا من نفسه وقال بعض السلف : إني لأعصى الله فأرى ذلك في خلق دابتي وامراتي ،

وفي تعسير أموره عليه فلا يتوجه لأمر إلا يجده مغلقا دونه أو متعسرا عليه .
وهذا كما أن من اتقى الله جعل له من أمره يسرا ، فمن عطل التقوى جعل الله له من أمره عسرا .

ويا الله العجب كيف يجد العبد أبواب الخير والمصالح مسدودة عنه متعسرة عليه وهو لا يعلم من أين أتى .

ومنها ظلمة يجدها في قلبه حقيقة يحس بها كما يحس بظلمة الليل البهيم إذا ادلهم فتصير ظلمة المعصية لقلبه كالظلمة الحسية لبصره ، فإن الطاعة نور والمعصية ظلمة ، وكلما قويت الظلمة ازدادت حيرته حتى يقع في البدع والضلالات والأمور المهلكة . وهو لا يشعر كأعمى أخرج في ظلمة الليل يمشي وحده ، وتقوى هذه الظلمة حتى تظهر في العين ثم تقوى حتى تعلو الوجه وتصير سوادا في الوجه حتى يراه كل أحد .

قال عبد الله بن عباس : ان للحسنة ضياء في الوجه ونورا في القلب ، وسعة في الرزق ، وقوة في البدن ، ومحبة في قلوب الخلق .

وان للسيئة سوادا في الوجه ، وظلمة في القبر والقلب ووهنا في البدن ، ونقصا في الرزق ، وبغضة في قلوب الخلق .

ومنها أن المعاصي توهن القلب والبدن ، وأما وهنها للقلب فأمر ظاهر بل لا يزال توهنه حتى تزيل حياته بالكلية ، وأما وهنها للبدن فإن المؤمن قوته من قلبه ، وكلما قوى قلبه قوى بدنه .
وأما الفاجر فانه وإن كان قوى البدن فهو أضعف شيء عند الحاجة ، فتخونه قوته عند أحوج ما يكون الى نفسه ، فتأمل قوة أبدان فارس والروم كيف خانتهم عند أحوج ما كانوا إليها ، وقهرهم أهل الايمان بقوة أبدانهم وقلوبهم . ومنها حرمان الطاعة فلو لم يكن للذنوب عقوبة إلا انه يصد عن طاعة تكون بدله ، ويقطع طريق طاعة أخرى فينقطع عليه طريق ثالثة ، ثم رابعة ، وهلم جرا ، فينقطع عليه بالذنوب طاعات كثيرة كل واحدة منها خير له من الدنيا وما عليها ، وهذا كرجل أكل أكلة أوجبت له مرضة طويلة ، منعه من عدة أكالات أطيب منها . والله المستعان .

ومنها أن المعاصي تقصر العمر وتمحق بركته ولا بد فإن البر كما يزيد في العمر فالفجور ينقص .
وقد اختلف الناس في هذا الموضع فقالت طائفة : نقصان عمر العاصي هو ذهاب بركة عمره ومحققا عليه ، وهذا حق وهو بعض تأثير المعاصي .

وقالت طائفة : بل تنقصه حقيقة كما تنقص الرزق ، فجعل الله سبحانه للبركة في الرزق أسبابا كثيرة تكثره وتزيده ، وللبركة في العمر أسباب تكثره وتزيده قالوا : ولا تمنع زيادة العمر بأسباب ، كما ينقص بأسباب ، فالأرزاق ، والآجال ، والسعادة ، والشقاوة ، والصحة ، والمرض ، والغنى ، والفقر ، وان كانت بقضاء الله - عز وجل - فهو يقضى ما يشاء بأسباب جعلها موجبة لمسبباتها مقتضية لها .

وقالت طائفة أخرى : تأثير المعاصي في محق العمر إنما هو بأن تفوته حقيقة الحياة ، وهى حياة القلب ، ولهذا جعل الله - سبحانه وتعالى . . الكافر ميتا غير حي ، كما قال سبحانه ﴿ أموات غير أحياء ﴾ ^(١) فالحياة في الحقيقة حياة القلب ، وعمر الانسان مدة حياته ، فليس عمره إلا أوقات حياته ، بالله ، فتلك ساعات عمره .

فالبر والتقوى والطاعة تزيد في هذه الأوقات التى هى حقيقة عمره ولا عمر له سواها . وبالجمله فالعبد اذا أعرض عن الله واشتغل بالمعاصي ضاعت عليه أيام حياته الحقيقية التى يجد غب إضاعتها يوم يقول : ﴿ ياليتنى قدمت لحياى ﴾ ^(٢) فلا يخلو اما أن يكون له مع ذلك تطلع الى مصالحه الدنيوية والأخروية أولا ، فان لم يكن له تطلع الى ذلك فقد ضاع عليه عمره كله وذهبت حياته باطلا ، وان كان له تطلع الى ذلك طالت عليه الطريق بسبب العوائق وتعسرت عليه أسباب الخير بحسب اشتغاله بأضرارها ، وذلك نقصان حقيقى من عمره .

وسر المسألة ان عمر الانسان مدة حياته ولا حياة له إلا بإقباله على ربه ، والتنعم بحبه وذكره ، وإيثار مرضاته .

ومنها أن المعاصي تزرع أمثالها وتولد بعضها بعضا حتى يعز على العبد مفارقتها والخروج منها كما قال بعض السلف : إن من عقوبة السيئة سيئة بعدها ، وان من ثواب الحسنة حسنة بعدها . فالعبد اذا عمل حسنة قالت أخرى الى جنبها : اعملنى أيضا ، فاذا عملها قالت الثانية . . كذلك وهلم جرا فيتضاعف الربح ، وتزايدت الحسنات ، وكذلك كانت السيئات . أيضا حتى تصير الطاعات والمعاصي هيئات راسخة ، وصفات لازمة ، وملكات ثابتة ، فلو عطل المحسن الطاعة لضاعت عليه نفسه ، وضاعت عليه الأرض بما رحبت ، وأحس من نفسه بأنه كالحوت إذا فارق الماء حتى يعاودها فتسكن نفسه وتقر عينه ، ولو عطل المجرم المعصية وأقبل على الطاعة لضاعت عليه نفسه ، وضاق صدره ، وأعيت عليه مذاهبه حتى يعاودها ، حتى ان كثيرا من الفساق ليوافق المعصية من غير لذة يجدها ، ولا داعية إليها إلا لما يجد من الألم بمفارقتها ، كما صرح بذلك شيخ القوم الحسن بن هانئ حيث قال :

وكأس شربت على لذة
وأخرى تداويت منها بها
وقال الآخر :

وكانت دوائى وهى دائى بعينه
كما يتداوى شارب الخمر بالخمر
ولا يزال العبد يعانى الطاعة ويألفها ويحبها ويؤثرها حتى يرسل الله - سبحانه - برحمته عليه الملائكة تأذنه إليها أزا ، وتحرضه عليها ، وتزعجه عن فراشه ، ومجلسه إليها ، ولا يزال يألف المعاصي ويحبها ويؤثرها حتى يرسل الله اليه الشياطين فتأذنه إليها أزا ، فالأول قوى جند الطاعة بالمدد فكانوا اكثر من أعوانه ، وهذا قوى جند المعصية بالمدد فكانوا أعوانا عليه .

(١) سورة النحل من الآية : ٢١

(٢) سورة الفجر من الآية : ٢٤

ومنها وهو من أخوفها على العبد أنها تضعف القلب عن إرادته فتقوى إرادة المعصية ، وتضعف إرادة التوبة شيئا فشيئا الى أن تنسلخ من قلبه إرادة التوبة بالكلية ، فلو مات نصفه لما تاب الى الله ، فيأتى بالاستغفار وتوبة الكذابين باللسان لشيء كثير ، وقلبه معقود بالمعصية ، مصر عليها ، عازم على مواقعتها متى أمكنه ، وهذا من أعظم الأمراض وأقربها الى الهلاك .

ومنها ان ينسخ من القلب استقباحها فتصير له عادة فلا يستقبح من نفسه رؤية الناس له ولا كلامهم فيه ، وهو عند أرباب الفسوق هو غاية التفكه وتمام اللذة ، حتى يفتخر أحدهم بالمعصية ، ويحدث بها من لم يعلم أنه عملها ، فيقول : يا فلان عملت كذا وكذا ، وهذا الضرب من الناس لا يعافون ، وتسد عليهم طريق التوبة وتغلق عنهم أبوابها في الغالب كما قال النبي - ﷺ - (كل أمتي معافي إلا المجاهرين وان من الاجهار ان يستر الله على العبد ثم يصبح يفضح نفسه ويقول : يا فلان عملت البارحة يوم كذا وكذا فتهتك نفسه وقد بات يستره ربه)^(١) .

ومنها أن كل معصية من المعاصي فهي ميراث عن أمة من الأمم التي أهلك الله - عز وجل - فاللوطية ميراث عن قوم لوط ، وأخذ الحق بالزائد ودفعه بالناقص ميراث عن قوم شعيب ، والعلوفى الأرض والفساد ميراث عن فرعون وقوم فرعون ، والتكبر والتجبر ميراث عن قوم هود . فالعاصي لابس ثياب بعض هذه الأمم وهم أعداء الله .

وقد روى عبد الله بن أحمد في كتاب الزهد لأبيه عن مالك بن دينار قال : أوحى الله الى نبي من أنبياء بني اسرائيل أن قل لقومك لا تدخلوا مداخل أعدائي ، ولا تلبسوا ملابس أعدائي ، ولا تركبوا مراكب أعدائي ، ولا تطعموا مطاعم أعدائي ، فتكونوا أعدائي، كما هم أعدائي .

وفي مسند أحمد من حديث عبد الله بن عمر عن النبي - ﷺ - قال : (بعثت بالسيف بين يدي الساعة حتى يعبد الله وحده لا شريك له وجعل رزقى تحت ظل رمحي وجعل الذلة والصغار على من خالف أمرى ومن تشبه بقوم فهو منهم)^(٢) .

ومنها أن المعصية سبب لهوان العبد على ربه وسقوطه من عينه قال الحسن البصري : هانوا عليه فعصوه ولو عزوا عليه لعصمهم واذا هان العبد على الله لم يكرمه أحد كما قال الله تعالى : ﴿ ومن يهن الله فما له من مكرم ﴾^(٣) . وان عظمهم الناس في الظاهر لحاجتهم اليهم أو خوفا من شرهم لهم في قلوبهم أحقر شيء وأهونه .

ومنها ان العبد لا يزال يرتكب الذنوب حتى تهون عليه وتصغر في قلبه وذلك علامة الهلاك فان الذنب كلما صغر في عين العبد عظم عند الله .

(١) الحديث في رياض الصالحين-باب ستر عورات المسلمين والنهي عن اشاعتها لغير ضرورة-ص١٢٦ ولفظه ، عن ابن هريرة - رضي الله عنه - قال : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : « كل أمتي معافي الا المجاهرين ، وان من المجاهرة ان يعمل الرجل بالليل عملا ثم يصبح وقد ستره الله عليه فيقول : يا فلان ، عملت البارحة كذا وكذا وقد بات يستره ربه ويصبح يكشف ستر الله » متفق عليه .

(٢) مسند الامام احمد المجلد الثاني ط دار الفكر العربي ص٥٠ بلفظه عن ابن عمر .

(٣) سورة الحج من الآية : ١٨

وقد ذكر البخارى فى صحيح على بن مسعود قال : (ان المؤمن يرى ذنوبه كأنها فى أصل جبل يخاف أن يقع عليه ، وان الفاجر يرى ذنوبه كذباب وقع على أنفه فقال : هكذا فطار)^(١) .
ومنها ان غيره من الناس والدواب يعود عليه شؤم ذنبه فيحترق هو وغيره بشؤم الذنوب والظلم قال ابو هريرة : ان الحبارى لتموت فى وكرها من ظلم الظالم ، وقال مجاهد : ان البهائم تلعن عصاة بنى آدم اذا اشتدت السنة وأمسك المطر وتقول هذا بشؤم معصية ابن آدم وقال عكرمة : دواب الارض وهوامها حتى الخنافس والعقارب يقولون منعنا القطر بذنوب بنى آدم فلا يكفيه عقاب ذنبه حتى يبوء بلعنة من لا ذنب له .

ومنها ان المعصية تورث الذل ولا بد ، فان العز كل العز فى طاعة الله - تعالى - قال تعالى : ﴿ من كان يريد العزة فلله العزة جميعا ﴾^(٢) . فليطلبها بطاعة الله فانه لا يجدها إلا فى طاعته ، وكان من دعاء بعض السلف (اللهم أعزنى بطاعتك ولا تذلى بمعصيتك) . قال الحسن البصرى : انهم وان طقطقت بهم البغال وهملجت بهم البراذين ان ذل المعصية لا تفارق قلوبهم ، أبى الله إلا أن يذل من عصاه وقال عبد الله بن المبارك .

رأيت الذنوب تमित القلو	ب وقد يورث الذل إدمانها
وترك الذنوب حياة القلو	ب وخير لنفسك عصيانها
وهل أفسد الدين إلا الملو	ك واحبار سوء ورهبانها

ومنها أن المعاصى تفسد العقل فان للعقل نورا والمعصية تطفىء نور العقل ، ولا بد ، واذا طفىء نوره ضعف ونقص ، وقال بعض السلف : ماعصى الله أحد حتى يغيب عقله وهذا ظاهر ، فانه لو حضر عقله لحجزه عن المعصية وهو فى قبضة الرب تعالى أو تحت قهره وهو مطلع عليه وفى داره على بساطه ، وملائكته .
شهود عليه ، ناظرون اليه ، وواعظ القرآن ينهاه ، ولفظ الايمان ينهاه ، وواعظ الموت ينهاه ، وواعظ النار ينهاه ، والذي يفوته بالمعصية من خير الدنيا والآخرة أضعاف أضعاف ما يحصل له من السرور واللذة بها ، فهل يقدم على الاستهانة بذلك كله والاستخفاف به ذو عقل سليم .
ومنها ان الذنوب اذا تكاثرت طبع على قلب صاحبها فكان من الغافلين ، كما قال بعض السلف فى قوله تعالى : ﴿ كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ﴾^(٣) قال: هو الذنب بعد الذنب وقال

(١) شرح السنة للامام البغوى كتاب الدعوات - باب التوبة - ج ٥ ص ٨٦ ط/ المكتب الاسلامى عن الحارث بن سويد قال : دخلت على عبد الله أعوده وهو مريض ، فحدثنا بحدِيثين: حديث عن نفسه ، وحديث عن رسول الله - ﷺ - قال : « ان المؤمن يرى ذنوبه كأنه فى أصل جبل يخاف ان يقع ، وان الفاجر يرى ذنوبه مثل ذباب مر على أنفه فذبه عنه ، قال : وسمعت رسول الله ﷺ يقول : لله أشد فرحا بتوبة عبده ... الخ

وانظر صحيح البخارى ج ١١ ص ١٠٢ باب التوبة حديث رقم ٦٣٠٨ مع اختلاف فى بعض الفاظه .

(٢) سورة فاطر من الآية : ١٠

(٣) سورة المطففين آية : ١٤

الحسن : هو الذنب على الذنب حتى يعمى القلب . وقال غيره : لما كثرت ذنوبهم ومعاصيهم أحاطت بقلوبهم ، وأصل هذا ان القلب يصدى من المعصية فاذا زادت غلب الصدى حتى يصير رانا ثم يغلب حتى يصير طبعا وقفلا وختمًا ، فيصير القلب في غشاوة وغلاف ، فاذا حصل له ذلك بعد الهدى والبصيرة انتكس فصار أعلاه أسفله فحينئذ يتولاه عدوه ويسوقه حيث أراد . .

ومنها أن الذنوب تدخل العبد تحت لعنة رسول الله - ﷺ - فانه لعن على معاص والتى غيرها اكبر منها ، فهي أولى بدخول فاعلها تحت اللعنة فلعن الواشمة والمستوشمة، والواصلة والموصلة، والنامصة والمتنمصة، والواشرة والمستوشرة ، ولعن أكل الربا ومؤكله وكاتبه وشاهده ، ولعن المحلل والمحلل له ، ولعن السارق ، ولعن شارب الخمر وساقيا وعاصرها ومعتصرها وبائعها ومشتريها وآكل ثمنها وحاملها والمحمولة اليه ، ولعن من غير منار الأرض وهى اعلامها وحدودها ، ولعن من لعن والديه ، ولعن من اتخذ شيئا فيه الروح غرضا يرميه بسهم ، ولعن المخنثين من الرجال والمترجلات من النساء ، ولعن من ذبح لغير الله ، ولعن من أحدث حدثا أو آوى محدثا ، ولعن المصورين ، ولعن من عمل عمل قوم لوط ، ولعن من سب أباه وأمه ، ولعن من كره أعمى عن الطريق ، ولعن من أتى بهيمة ، ولعن من رسم دابة في وجهها، ولعن من ضار بمسلم أو مكر به ، ولعن زوارات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج ، ولعن من أفسد امرأة على زوجها أو مملوكا على سيده ، ولعن من أتى امرأة في دبرها ، وأخبر ان من باتت مهاجرة لفراش زوجها لعنتها الملائكة حتى تصبح ، ولعن من انتسب الى غير ابيه ، وأخبر ان من أشار الى اخيه بحديدة فان الملائكة تلعه ، ولعن من سب الصحابة ، وقد لعن الله من أفسد في الأرض وقطع رحمه واذاه وأذى رسوله ، ولعن من كتم ما انزل الله - سبحانه - من البينات والهدى ، ولعن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات بالفاحشة ، ولعن من جعل سبيل الكافر أهدي من سبيل المسلم ، ولعن رسول الله - ﷺ - الرجل يلبس لباس المرأة ، والمرأة تلبس لباس الرجل ، ولعن الراشى والمرتشى والرائش وهو الواسطة في الرشوة ، ولعن على اشيء آخر غير هذه لولم يكن في فعل ذلك إلا رضاء فاعله بأن يكون ممن يلعه الله ورسوله وملائكته لكان في ذلك ما يدعو الى تركه .

ومنها حرمان دعوة رسول الله ﷺ - ودعوة الملائكة فان الله - سبحانه - أمر نبيه ان يستغفر للمؤمنين والمؤمنات .

وقال تعالى : ﴿ الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم . ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم . وقهم السيئات ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته وذلك هو الفوز العظيم ﴾ (١) . فهذا دعاء الملائكة للمؤمنين التابعين المتبعين لكتابه وسنة رسوله الذين لا سبيل لهم غيرها فلا يطمع غير هؤلاء باجابة هذه الدعوة اذا لم يتصف بصفات المدعو له بها .

ومن عقوبات المعاصي - ما رواه البخارى فى صحيحه من حديث سمره بن جندب قال : (كان النبى - ﷺ - مما يكثر ان يقول لأصحابه : هل رأى أحد منكم البارحة رؤيا فيقص عليه ما شاء الله ان يقص وانه قال لنا ذات غداة : انه أتانى الليلة آتيان وأنها انبعثا لى وانها قالوا لى : انطلق وانى انطلقت معهما وإنا أتينا على رجل مضطجع واذا آخر قائم عليه بصخرة واذا هو يهوى بالصخرة لرأسه فيثلغ رأسه فيتدهده الحجر هاهنا فيتبع الحجر فيأخذه فلا يرجع اليه حتى يصح رأسه كما كان ثم يعود عليه فيفعل به مثل ما فعل فى المرة الأولى قال : قلت لهما : سبحان الله ما هذان ؟ قالوا لى : انطلق انطلق فانطلقنا فأتينا على رجل مستلق لقفاه واذا آخر قائم عليه بكلوب من حديد واذا هو يأتى احد شقى وجهه فيشرشر شذقه الى قفاه، ومنخره الى قفاه، وعينه الى قفاه ثم يتحول الى الجانب الآخر فيفعل به مثل ما فعل بالجانب الأول فما يفرغ من ذلك الجانب حتى يصح ذلك الجانب كما كان ثم يعود عليه فيفعل مثل ما فعل فى المرة الأولى ، قال : سبحان الله ما هذان ؟ فقال لى : انطلق انطلق فانطلقنا فأتينا على مثل التنور واذا فيه لغط وأصوات قال : فاطلعنا فيه فاذا فيه رجال ونساء عراة واذا هم يأتهم لهب من أسفل منهم فاذا أتاهم ذلك اللهب ضوضوا فقال : قلت : من هؤلاء ؟ قال : فقالوا لى : انطلق انطلق قال : فانطلقنا فأتينا على نهر أحمر مثل الدم فاذا فى النهر رجل سابح يسبح واذا على شط النهر رجل قد جمع عنده حجارة كثيرة واذا ذلك السابح يسبح ما يسبح ثم يأتى ذلك الذى قد جمع عنده الحجارة فيفغر له فاه فيلقمه حجرا فينطلق فيسبح ثم يرجع اليه كما رجع اليه فيفغر له فاه فيلقمه حجرا قال : قلت لهما : ما هذان ؟ قالوا لى : انطلق انطلق فانطلقنا فأتينا على رجل كرىه المراءى كأكره ما أنت راء رجلا مرأوا اذا هو عنده نار يحثها ويسعى حولها قال : قلت لهما : ما هذا ؟ قال : قالوا لى : انطلق انطلق فانطلقنا على روضة مغيمة فيها من كل نور الربيع واذا بين ظهرائى الروضة رجل طويل لا أكاد أرى رأسه طولا فى السماء واذا حول الرجل من أكثر ولدان رأيتهم قط قال : قلت : ما هذا ؟ وما هؤلاء ؟ قال : قالوا لى : انطلق انطلق فانطلقنا فأتينا دوحة عظيمة لم أر دوحة قط أعظم منها ولا أحسن قال : قالوا لى : ارق فيها فارتقينا فيها الى مدينة مبنية بلبن ذهب ولبن فضة قال : فأتينا باب المدينة فاستفتحنا ففتح لنا فدخلناها فتلقانا رجال شطر من خلقهم كأحسن ما أنت راء وشر من خلقهم كأقبح ما أنت راء قال لهم : اذهبوا ففعلوا فى ذلك النهر قال : واذا نهر معترض يجرى كان ماءه المحض فى البياض فذهبوا فوقعوا فيه ثم رجعوا الينا وقد ذهب ذلك السوء عنهم قال : قالوا لى : هذه جنة عدن وهناك منزلك قال : فسما بصرى صعدا فاذا قصر مثل الربابة البيضاء قال : قالوا لى : هذاك منزلك .

قال : قلت لهما : بارك الله فيكما فذراني أدخله قالوا : أما الآن فلا، وأنت داخله قال : قلت لهما : فإن رأيت منذ الليلة عجبا فما هذا الذى رأيت قال : قالوا لى : أما إنا سنخبرك ، أما الرجل الأول الذى أتيت عليه يثلغ رأسه بالحجر فانه الرجل يأخذ القرآن فيرفضه وينام عن الصلاة المكتوبة ، وأما الرجل الذى أتيت عليه يشرشر شذقه الى قفاه ومنخره الى قفاه وعينه الى قفاه فانه الرجل يغدو من بيته فيكذب الكذبة تبلغ الآفاق ، وأما الرجال والنساء العراة الذين هم فى مثل بناء التنور فانهم الزناة والزواني ، وأما الرجل الذى أتيت عليه يسبح فى النهر ويلقم الحجارة فانه آكل الربا ، وأما الرجل

الكريه المنظر الذى عند النار يحثها ويسعى حولها ، فانه مالك خازن جهنم ، وأما الرجل الطويل الذى فى الروضة فانه ابراهيم ، وأما الولدان الذين حوله فكل مولود مات على الفطرة - وفى رواية البرقانى - ولد على الفطرة . فقال بعض المسلمين : يارسول الله ، وأولاد المشركين فقال رسول الله - ﷺ - وأولاد المشركين ، وأما القوم الذين كانوا شطر منهم حسن وشطر منهم قبيح فانهم قوم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا تجاوز الله عنهم ^(١) .

ومن آثار الذنوب والمعاصي انها تحدث فى الأرض انواعا من الفساد فى المياه والهوى والزرع والثمار والمساكن قال تعالى : ﴿ ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس ليذيقهم بعض الذى عملوا لعلهم يرجعون ﴾ قال مجاهد : اذا ولى الظالم سعى بالظلم والفساد فيحس بذلك القطر فيهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد ثم قرأ ﴿ ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس ليذيقهم بعض الذى عملوا لعلهم يرجعون ﴾ ^(٢) . ثم قال : أما والله ما هو بحركم هذا ولكن كل قرية على ماء جار فهو بحر وقال عكرمة : ظهر الفساد فى البر والبحر أما انى لا أقول لكم بحركم هذا ولكن كل قرية على ماء ، وقال قتادة : اما البر فأهل العمور وأما البحر فأهل القرى والريف قلت : وقد سمى الله - تعالى - الماء العذب بحرا فقال : ﴿ وهو الذى مرج البحرين هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج ﴾ ^(٣) . وليس فى العالم بحر حلو واقفا وانما هى الأنهار الجارية والبحر المالح هو الساكن فتسمى القرى التى على المياه الجارية باسم تلك المياه ، وقال ابن زيد : ظهر الفساد فى البر والبحر قال : الذنوب ، قلت : أراد ان الذنب سبب الفساد الذى ظهر وان أراد ان الفساد الذى ظهر هو الذنوب نفسها فيكون قوله : ﴿ ليذيقهم بعض الذى عملوا ﴾ لام العاقبة والتعليل وعلى الاول فالمراد بالفساد النقص والشر والآلام التى يحدثها الله فى الأرض بمعاصي العباد فكل ما أحدثوا ذنبا أحدث لهم عقوبة كما قال بعض السلف كلما أحدثتم ذنبا أحدث الله لكم من سلطانه عقوبة ، والظاهر - والله أعلم - ان الفساد المراد به الذنوب وموجباتها ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ ليذيقهم بعض الذى عملوا ﴾ فهذا حالنا وانما أذاقنا الشيء اليسير من أعمالنا فلو أذاقنا كل أعمالنا لما ترك على ظهرها من دابة .

ومن تأثير المعاصي فى الأرض ما يحل بها من الخسف والزلازل ويمحق بركتها وقد مر رسول الله - ﷺ - على ديار ثمود فمنعهم من دخول ديارهم الا وهم باكون ومن شرب مياههم ومن الاستسقاء من أبيارهم حتى أمر الا يعلف العجين الذى عجن بمياههم لنواضح الابل لتأثير شؤم المعصية فى الماء وكذلك شؤم تأثير الذنوب فى نقص الثمار وما ترى به من الآفات . وقد ذكر الامام احمد فى مسنده فى ضمن حديث قال : وجدت فى خزائن بعض بنى أمية حنطة الحبة بقدر نواة الثمر وهى فى صبرة مكتوب عليها كان هذا ينبت فى زمن العدل وكثير من هذه الآفات أحدثها الله - سبحانه وتعالى - بما أحدث العباد من الذنوب .

(١) صحيح البخارى كتاب الجنائز ج ٢ ص ١٢٥ وما بعدها ورد الحديث عن سمرة بن جندب مع اختلاف فى اللفظ .

(٢) سورة الروم الآية : ٤١

(٣) سورة الفرقان من الآية : ٥٣

وأخبرني جماعة من شيوخ الصحراء انهم كانوا يعهدون الثمار أكبر مما هي الآن ، وكثير من هذه الآفات التي تصيبها لم يكونوا يعرفونها . . وانما حدثت من قرب ، وأما تأثير الذنوب في الصور والخلق فقد روى الترمذى في جامعه عن النبي - ﷺ - انه قال : (خلق الله آدم وطوله في السماء ستون ذراعاً^(١) ولم يزل الخلق ينقص حتى الآن فاذا أراد الله ان يطهر الأرض من الظلمة والخنوة والفجرة أخرج عبدا من عباده من أهل بيت نبيه - ﷺ - فيملا الأرض قسطا كما ملئت جورا ويقتل المسيح اليهود والنصارى ويقيم الدين الذي بعث الله به رسوله وتخرج الأرض بركاتها وتعود كما كانت حتى ان العصابة من الناس ليأكلون الرمانة ويستظلون بقحفها ويكون العنقود من العنب وقر بعير ولبن اللقمة الواحدة يكفى الفئام من الناس وهذا لأن الأرض لما طهرت من المعاصي ظهرت فيها آثار البركة من الله - تعالى - التي محقتها الذنوب والكفر ، ولا ريب ان العقوبات التي أنزلها الله في الأرض بقية آثارها سارية في الأرض تطلب ما يشاء ، كلها من الذنوب التي هي آثار تلك الجرائم التي عذبت بها الأمم ، فهذه الآثار في الأرض من آثار العقوبات كما أن هذه المعاصي من آثار الجرائم فتناست كلمة الله وحكمه الكوني أولا وآخرا وكان العظيم من العقوبة للعظيم من الجناية ، والأخف للأخف ، وهنا يحكم سبحانه بين خلقه في دار البرزخ ودار الجزاء ، وتأمل مقارنة الشيطان ومحل وداره فانه لما قارن العبد واستولى عليه نزعت البركة من عمره وعمله وقوله ورزقه ، ولما أثرت طاعته في الأرض ما أثرت نزعت البركة من كل محل ظهرت فيه طاعته وكذلك مسكنه لما كان الجحيم لم يكن هناك شيء من الروح والرحمة والبركة .

ومن عقوباتها : انها تطفىء من القلب نار الغيرة التي هي لحياته وصلاحه كالحرارة الغريزية لحياة جميع البدن ، فان الغيرة حرارته وناره التي تخرج ما فيه من الخبث والصفات المذمومة كما يخرج الكبر خبث الذهب والفضة والحديد ، وأشرف الناس وأعلاهم قدرا وهمة أشدهم غيرة على نفسه وخاصته وعموم الناس ولهذا كان النبي - ﷺ - أغير الخلق على الأمة ، والله - سبحانه - أشد غيرة منه كما ثبت في الصحيح عنه ﷺ انه قال : (اتعجبون من غيرة سعد لأنا أغير منه والله أغير مني)^(٢) وفي الصحيح أيضا عنه انه قال - ﷺ - في خطبة الكسوف (يا أمة محمد ، ما أحد أغير من الله أن يزني عبده أو تزني أمته)^(٣) وفي الصحيح - أيضا - عنه - انه قال : (لا أحد أغير من الله من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا أحد أحب إليه العذر من الله من أجل ذلك أرسل الرسل مبشرين ومنذرين ولا أحد أحب إليه المدح من الله من أجل ذلك اثنى على نفسه^(٤) فجمع في هذا الحديث بين الغيرة التي أصلها كراهة القبائح وبغضها وبين محبة العذر الذي يوجب كمال العدل والرحمة والاحسان . والله - سبحانه -

(١) مسند الامام احمد ج ٢ ص ٣١٢ ورد الحديث عن ابى هريرة بلفظ : «خلق الله - عز وجل - آدم على صورته طوله ستون ذراعاً . . الخ

وانظر كثر العمال ج ٦ ص ١٢٩ حديث رقم ١٥١٢٩ وعن ابى هريرة بلفظ : «خلق الله آدم على صورته وطوله ستون ذراعاً . . الخ

(٢) صحيح البخارى ج ٧ ص ٤٥ باب الغيرة ورد الحديث بلفظه .

(٣) وانظر مسند الامام احمد ج ٤ ص ٢٤٨ ورد الحديث عن المغيرة بن شعبه مع اختلاف في بعض ألفاظه .

(٤) صحيح البخارى ج ٧ ص ٤٥ باب الغيرة ورد الحديث بلفظ : «يا أمة محمد ما أحد أغير من الله ان يزني عبده أو أمته

(٤) انظر مسند الامام احمد ج ١ ص ٣٨١

مع شدة غيـرته يحب ان يعتذر اليه عبده ويقبل عذر من اعتذر اليه ، وانه لا يؤاخذ عبده بارتكاب ما يغار من ارتكابه حتى يعذر اليهم ، ولـاجل ذلك ارسل رسـله وانزل كتبه اعذارا وانذارا وهذا غاية المجد والاحسان ونهاية الكمال فان كثيرا ممن تشتد غيـرته من تحمله شدة الغيرة على سرعة الايقاع والعقوبة من غير إعذار منه ، ومن غير قبول العذر ممن اعتذر إليه ، بل قد يكون له في نفس الأمر عذر ولا تدعه شدة الغيرة أن يقبل عذره ، وكثير ممن تقبل المعاذير يحمله على قبولها قلة الغيرة حتى يتوسع في طرق المعاذير ويرى عذرا ما ليس بعذر حتى يعذر كثير منهم بالعذر . وكل منهما غير ممدوح على الإطلاق ، وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال : (إن من الغيرة ما يحبها الله ، ومنها ما يبغضها الله ، فالتى يبغضها الله الغيرة من غير رية ^(١)) وذكر الحديث وإنما الممدوح اختزان الغيرة بالعذر فيغار في محل الغيرة ويعذر في موضع العذر ، ومن كان هكذا فهو الممدوح حقا .

ولما جمع - سبحانه - صفات الكمال كلها كان أحق بالمدح من كل أحد ولا يبلغ أحد أن يمدحه كما ينبغي له بل هو مدح نفسه وأثنى على نفسه ، فالغيور قد وافق ربه - سبحانه - في صفة من صفاته ، ومن وافق الله في صفة من صفاته قادته تلك الصفة اليه بزمـامه وأدخلته على ربه وأدنته منه وقربته من رحمته وصيرته محبوبا له ، فانه - سبحانه - رحيم يحب الرحماء كريم يحب الكرماء ، عليم يحب العلماء ، قوى يحب المؤمن القوى وهو أحب اليه من المؤمن الضعيف ، حتى يحب أهل الجفاء ، جميل يحب ما يحب أهل الجمال وتر يحب أهل الوتر ، ولو لم يكن في الذنوب والمعاصي الا انها توجب لصاحبها ضد هذه الصفات وتمنعه من الاتصاف بها لكفى بها عقوبة ، فإن الخطرة تنقلب وسوسة ، والوسوسة تصير إرادة ، والإرادة تقوى فتصير عزيمة ، ثم تصير فعلا ، ثم تصير صفة لازمة ، وهيئة ثابتة راسخة ، وحينئذ يتعذر الخروج منها كما يتعذر عليه الخروج من صفاته القائمة به ، والمقصود انه كلما اشتدت ملابسته للذنوب أخرجت من قلبه الغيرة على نفسه وأهله وعموم الناس ، وقد تضعف في القلب حدا لا يستقبح بعد ذلك القبيح لا من نفسه ، ولا من غيره ، وإذا وصل إلى هذا الحد فقد دخل في باب الهلاك ، وكثير من هؤلاء لا يقتصر على عدم الاستقباح بل يحسن الفواحش والظلم لغيره

ويزينه له ويدعوه إليه ويحثه عليه ويسعى له في تحصيله ، ولهذا كان الديوث أخبث خلق الله واللجنة حرام عليه ، وكذلك محلل الظلم والبغى لغيره ومزينه لغيره ، فانظر ما الذى حملت عليه قلة الغيرة وهذا يدل على أن أصل الدين الغيرة ومن لا غيرة له لا دين له ، فالغيرة تحمى القلب فتحمى له الجوارح فتدفع السوء والفواحش ، وعدم الغيرة تميم القلب فتموت الجوارح فلا يبقى عندها دفع البتة ، ومثل الغيرة في القلب مثل القوة التى تدفع المرض وتقاومه فاذا ذهبت القوة وجد الداء المحل

(١) السنن الكبرى للبيهقى ج ٩ ص ١٥٦ كتاب السر - باب الخيلاء في الحرب - ورد الحديث عن جابر بن عتيك بلفظ : « ان من الغيرة ما يحبها الله ، ومنها ما يبغض الله ، فاما الغيرة التى يحبها الله فالغيرة في الريبة ، وأما الغيرة التى يبغض الله فالغيرة في غير رية . . الخ

قابلا ولم يجد دافعا فتمكن فكان الهلاك ، ومثلها مثل صياصي الجاموس التي تدفع بها عن نفسه وعن ولدها فاذا تكسرت طمع فيها عدوها .

ومن عقوباتها ذهاب الحياء الذي هو مادة الحياة للقلب ، وهو أصل كل خير، وذهابه ذهاب كل خير بأجمعه وفي الصحيح عنه - ﷺ - انه قال : (الحياء خير كله)^(١) وقال : (ان مما أدرك الناس من كلام النبوة الاولى اذا لم تستح فاصنع ما شئت)^(٢) وفيه تفسيران : أحدهما : انه على التهديد والوعيد والمعنى من لم يستح فانه يصنع ما شاء من القبائح ، اذ الحامل على تركها الحياء ، فاذا لم يكن هناك حياء نزرعه عن القبائح فانه يوافقها . وهذا تفسير ابى عبيدة والثاني : ان الفعل اذا لم تستح فيه من الله فافعله وانما الذى ينبغى تركه ما يستحى فيه من الله ، وهذا تفسير الامام احمد فى رواية ابن هانى فعلى الاول : يكون تهديدا كقوله : ﴿ اعملوا ما شئتم إنه بما تعملون بصير ﴾^(٣) وعلى الثاني : يكون اذنا واباحة . فان قيل : فهل من سبيل الى حمله على المعنيين ؟ قلت : لا ولا على قول من يحمل المشترك على جميع معانيه لما بين الاباحة والتهديد من المنافاة ، ولكن اعتبار احد المعنيين يوجب اعتبار الآخر ، والمقصود ان الذنوب تضعف الحياء من العبد حتى ربما انسلخ منه بالكلية ، حتى ربما انه لا يتأثر بعلم الناس بسوء حاله ولا باطلاعهم عليه ، بل كثير منهم يخبر عن حاله وقبيح ما يفعله، والحامل على ذلك انسلاخه من الحياء ، واذا وصل العبد الى هذه الحالة لم يبق فى صلاحه مطمع واذا رأى ابليس طلعة وجهه حياه وقال : فديت من لا يفلح .

والحياء مشتق من الحياة والغيث سمي حيا بالقصره لان به حياة الأرض والنبات والدواب . وكذلك سميت بالحياة حياة الدنيا والآخرة ، فمن لا حياء فيه ميت فى الدنيا شقى فى الآخرة ، وبين الذنوب وبين قلة الحياء وعدم الغيرة تلازم من الطرفين ، وكل منهما يستدعى الآخر ويطلبه حثيثا ، ومن استحى من الله عند معصيته استحى الله من عقوبته يوم يلقاه ، ومن لم يستح من الله - تعالى - من معصيته لم يستح الله من عقوبته .

ومن عقوباتها : انها تضعف فى القلب تعظيم الرب - جل جلاله - وتضعف وقاره فى قلب العبد ولا بد شاء أم أبى ، ولو تمكن وقار الله وعظمته فى قلب العبد لما تجرأ على معاصيه ، وربما اغتر المغتر وقال : انما يحملنى على المعاصى حسن الرجاء وطمعى فى عفوه لا ضعف عظمته فى قلبى ، وهذا من مغالطة النفس فان عظمة الله - تعالى - وجلاله فى قلب العبد وتعظيم حرماته يحول بينه وبين الذنوب ، والمتجرئون على معاصيه ما قدره حق قدره ، وكيف يقدره حق قدره أو يعظمه أو يكبره أو يرجو وقاره ويجله من يهون عليه أمره ونهيه هذا من أمحل المحال وأبين الباطل ، وكفى بالعاصى عقوبة ان يضمحل من قلبه تعظيم الله - جل جلاله - وتعظيم حرماته ويهون عليه ، ومن بعض عقوبة هذا ان يرفع الله - عز وجل - مهابته من قلوب الخلق ويهون عليهم ويستخفون به ، كما هان عليه أمره واستخف به ، فعلى قدر محبة العبد لله يحبه الناس ، وعلى قدر خوفه من الله يخافه الناس ، وعلى قدر تعظيمه الله وحرماته

(١) مجمع الزوائد المجلد الرابع ج ٨ ص ٢٦ باب « ما جاء فى الحياء » . . ورد الحديث بلفظه عن انس

(٢) مجمع الزوائد المجلد الرابع ج ٨ ص ٢٧ باب « ما جاء فى الحياء » ص ٢٧ ورد الحديث بلفظه عن حذيفة .

(٣) سورة فصلت من الآية : ٤٠

يعظم الناس حرماته ، وكيف ينتهك عبد حرمت الله ويطمع الا ينتهك الناس حرماته ، ام كيف يهون عليه حق الله ولا يهونه الله على الناس ، أم كيف يستخف بمعاصي الله ولا يستخف به الخلق وقد أشار - سبحانه - الى هذا في كتابه عند ذكر عقوبات الذنوب وانه اركس اربابها بما كسبوا وغطى على قلوبهم وطبع عليها بذنوبهم وانه نسيهم كما نسوه واهانهم كما اهانوا دينه وضيعهم كما ضيعوا امره ، ولهذا قال تعالى : في آية سجود المخلوقات له : ﴿ ومن يهن الله فما له من مكرم ﴾ ^(١) . فانهم لما هان عليهم السجود له واستخفوا به ولم يفعلوه اهانهم فلم يكن لهم من مكرم بعد ان اهانهم ومن ذا يكرم من أهانه الله أو يهن من اكرم .

ومن عقوباتها : انها تستدعى نسيان الله لعبده وتركه وتخليته بينه وبين نفسه وشيطانه ، وهنالك الهلاك الذى لا يرجى معه نجاة قال الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون . ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون ﴾ ^(٢) فأمر بتقواه ونهى ان يتشبه عباده المؤمنون بمن نسيه بترك تقواه ، وأخبر أنه عاقب من ترك التقوى بأن أنساه نفسه ، أى : أنساه مصالحها وما ينجيها من عذابه ، وما يوجب له الحياة الأبدية وكمال لذتها وسرورها ونعيمها ، فأنساه الله ذلك كله جزاء لما نسيه من عظمته وخوفه والقيام بأمره ، فترى العاصي مهملًا لمصالح نفسه مضيعًا لها قد أغفل الله قلبه عن ذكره واتبع هواه وكان أمره فرطًا ، قد انفرطت عليه مصالح دنياه وآخرته وقد فرط في سعادته الأبدية واستبدل بها أدنى ما يكون من لذة إنمّا هي سحابة صيف أو حبال طيف .

أحلام نوم أو كظل زائل
ان اللبيب بمثلها لا يخدع
وأعظم العقوبات نسيان العبد لنفسه وإهماله لها وإضاعته حظها ونصيبتها من الله وبيعها ذلك بالغبن والهوان وأبخس الثمن فضيع من لا غنى له عنه ولا عوض له منه ، واستبدل به من عنه كل الغنى أو منه كل العوض .

من كل شيء اذا ضيعته عوض وليس في الله ان ضيعت من عوض

فالله سبحانه يعرض عن كل شيء ما سواه ولا يعرض منه شيء ، ويغنى عن كل شيء ولا يغنى عنه شيء ، ويمنع من كل شيء ولا يمنع منه شيء ، ويجير من كل شيء ولا يجير منه شيء ، كيف يستغنى العبد عن طاعة من هذا شأنه طرفة عين ، وكيف ينسى ذكره ويضيع أمره ، حتى ينسيه نفسه فيخسرها ويظلمها أعظم الظلم ، فما ظلم العبد ربه ولكن ظلم نفسه ، وما ظلمه ربه ولكن هو الذى ظلم نفسه .

ومن عقوباتها : أنها تخرج العبد من دائرة الاحسان وتمنعه من ثواب المحسنين ، فان الاحسان اذا باشر القلب منعه عن المعاصي ، فان من عبد الله كأنه يراه لم يكن كذلك إلا لاستيلاء ذكره ومحبته وخوفه

(١) سورة الحج من الآية : ١٨

(٢) سورة الحشر الايتان : ١٨ ، ١٩

ورجائه على قلبه ، بحيث يصير كأنه يشاهده ، وذلك سيحول بينه وبين ارادة المعاصي فضلا عن موافقتها ، فاذا خرج من دائرة الاحسان فاته صحبة رفقة الخاصة وعيشهم الهنيء ونعيمهم التام ، فان اراد الله به خيرا أقره في دائرة عموم المؤمنين ، فان عصاه بالمعاصي التي تخرجه من دائرة الايمان كما قال النبي - ﷺ - (لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربه وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا ينتهب نهبة ذات شرف يرفع اليه الناس فيها أبصارهم حين ينتهبها وهو مؤمن ، اياكم وإياكم والتوبة معروضة بعد) . ومن فاته رفقة المؤمنين خرج عن دائرة الايمان ، فاته حسن دفاع الله عن المؤمنين فإن الله يدافع عن الذين آمنوا ، وفاته كل خير رتبته الله في كتابه على الايمان وهو نحو مائة خصلة كل خصلة منها خير من الدنيا وما فيها .

فمنها الاجر العظيم ﴿ وسوف يؤت الله المؤمنين أجرا عظيما ﴾ (١) .

ومنها الدفع عنهم شرور الدنيا والآخرة ﴿ إن الله يدافع عن الذين آمنوا ﴾ (٢) ومنها استغفار حملة العرش لهم ﴿ الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ﴾ (٣) .

ومنها موالاة الله لهم ولا يذل من والاه الله قال تعالى : ﴿ الله ولي الذين آمنوا ﴾ (٤) ومنها أمره ملائكته بتبيتهم ﴿ اذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا ﴾ (٥) . ومنها ان لهم الدرجات عند ربهم والمغفرة والرزق الكريم ومنها العزة ﴿ والله العزة ولرسوله وللمؤمنين ﴾ (٦) ومنها معية الله لاهل الايمان ﴿ وإن الله مع المؤمنين ﴾ (٧) ومنها الرفعة في الدنيا والآخرة ﴿ يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ﴾ (٨) ومنها اعطاهم كفلين من رحمته واعطاهم نورا يمشون به ومغفرة ذنوبهم ، ومنها الود الذى يجعله سبحانه لهم وهو انه يحبهم ويحبهم الى ملائكته وانبيائه وعباده الصالحين ومنها أمانهم الخوف يوم يشتد الخوف ﴿ من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ (٩) ومنها انهم المنعم عليهم الذين أمرنا ان نسأله ان يهدينا الى صراطهم المستقيم فى كل يوم وليلة سبع عشرة مرة .

ومنها ان القرآن انما هو هدى لهم وشفاء ﴿ قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون فى آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد ﴾ (١٠) .

والمقصود ان الايمان سبب جالب لكل خير ، وكل خير فى الدنيا والآخرة فسببه الايمان ، فكيف يهون على العبد ان يرتكب شيئا يخرجه من دائرة الايمان ، ويحول بينه وبينه ، ولكن لا تخرج من دائرة عموم المسلمين ، فان استمر على الذنوب واصر عليها خيف عليه ان يرين على قلبه فيخرجه عن

(٦) سورة المنافقون من الآية : ٨

(٧) سورة الأنفال من الآية : ١٩

(٨) سورة المجادلة من الآية : ١١

(٩) سورة المائدة من الآية : ٦٩

(١٠) سورة فصلت من الآية : ٤٤

(١) سورة النساء من الآية : ١٤٦

(٢) سورة الحج من الآية : ٣٨

(٣) سورة غافر من الآية : ٧

(٤) سورة البقرة من الآية : ٢٥٧

(٥) سورة الانفال من الآية : ١٢

الاسلام بالكلية ، ومن هنا اشتد خوف السلف كما قال بعضهم : انتم تخافون الذنوب وانا أخاف الكفر .

ومن عقوباتها انها تضعف سير القلب الى الله والدار الآخرة أو تعوقه وتوقفه وتعطفه عن السير فلا تدعه يخطو الى الله خطوة، هذا ان لم ترده عن وجهته الى ورائه ، فالذنب يحجب الواصل ويقطع السائر ، وينكس الطالب ، والقلب انما يسير الى الله بقوته فاذا مرض بالذنوب ضعفت تلك القوة التي تسير ، فان زالت بالكلية انقطع عن الله انقطاعا يبعد تداركه والله المستعان .

فالذنب إما يميت القلب ، وإما يمرضه مرضا مخوفا ، أو يضعف قوته ، ولا بد حتى ينتهي ضعفه الى الاشياء الثمانية التي استعاذ منها النبي - ﷺ - وهي الهم ، والحزن ، والكسل ، والعجز ، والجبن ، والبخل ، وضلع الدين ، وغلبة الرجال ، وكل اثنين منها قرينان فالهم والحزن قرينان فإن المكروه والوارد على القلب ان كان من أمر مستقبل يتوقعه أحدث الهم ، وان كان من أمر ماض قد وقع أحدث الحزن . والعجز والكسل قرينان ، فان تخلف العبد عن أسباب الخير والفلاح إن كان لعدم قدرته فهو العجز ، وان كان لعدم ارادته فهو الكسل ، والجبن والبخل قرينان ، فان عدم النفع منه ان كان بيدنه فهو الجبن ، وان كان بماله فهو البخل ، وضلع الدين وقهر الرجال قرينان فان استيلاء الغير عليه ان كان بحق فهو من ضلع الدين ، وان كان بباطل فهو من قهر الرجال .

والمقصود أن الذنوب من أقوى الأسباب الجالبة لهذه الثمانية ، كما أنها من أقوى الأسباب الجالبة لجهد البلاء ودرك الشقاء وسوء القضاء وشماتة الأعداء ومن أقوى الأسباب الجالبة لزوال النعم ، وتحول عافيته وفجاءة نقمته وجميع سخطه .

ومن عقوبات الذنوب انها تزيل النعم وتحل النقم فمازالت عن العبد نعمة إلا بسبب ذنب ولا حلت به نقمة إلا بذنب كما قال علي بن ابي طالب - رضى الله عنه : ما نزل بلاء إلا بذنب ولا رفع بلاء الا بتوبة وقد قال تعالى : ﴿ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير ﴾^(١) وقال تعالى : ﴿ ذلك بان الله لم يك مغيرا نعمة انعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾^(٢) فاخبر الله تعالى انه لا يغير نعمته التي انعم بها على احد حتى يكون هو الذى يغير ما بنفسه فيغير طاعة الله بمعصيته وشكره بكفره واسباب رضاه باسباب سخطه فاذا غير غير عليه جزاء وفاقا ﴿ وما ربك بظلام للعبيد ﴾^(٣) فان غير المعصية بالطاعة غير الله عليه العقوبة بالعافية والذل بالعز قال تعالى : ﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له وما لهم من دونه من وال ﴾^(٤) وفى بعض الآثار الالهية عن الرب - تبارك وتعالى - انه قال : ﴿ وعزق وجلالى لا يكون عبد من عبيدى على ما أحب ثم ينتقل عنه الى ما أكره إلا انتقلت له مما يحب عبيدى الى ما يكره ولا يكون عبد من عبيدى على ما أكره فينتقل عنه الى ما أحب إلا انتقلت له مما يكره الى ما يحب ﴾ وقد أحسن القائل :

إذا كنت فى نعمة فارعها فان الذنوب تزيل النعم

(٣) سورة فصلت من الآية : ٤٦

(٤) سورة الرعد من الآية : ١١

(١) سورة الشورى من الآية : ٣٠

(٢) سورة الأنفال من الآية : ٥٢

وحطها بطاعة رب العباد فرب العباد سريع النقم
واياك والظلم مهما استطعت فظلم العباد شديد الوخم
وسافر بقلبك بين الورى لتبصر آثار من قد ظلم
فتلك مساكنهم بعدهم شهود عليهم ولا تتهم
وما كان شيء عليهم أضر من الظلم وهو الذى قد قصم
فكم تركوا من جنان ومن قصور واخرى عليهم أطم
صلوا بالجحيم وفات النعم وكان الذى نالهم كاللحم

ومن عقوباتها : ما يلقيه الله - سبحانه وتعالى - من الرعب والخوف فى قلب العاصى فلا تراه إلا خائفا مرعوبا فان الطاعة حصن الله الأعظم الذى من دخله كان من الأمنين من عقوبات الدنيا والآخرة ومن خرج عنه أحاطت به المخاوف من كل جانب ، فمن أطاع الله انقلبت المخاوف فى حقه أمانا. ، ومن عصاه انقلبت مآمنه مخاوف ، فلا تجد العاصى إلا وقلبه كأنه بين جناحى طائر إن حركت الريح الباب قال جاء الطلب ، وإن سمع وقع قدم خاف أن يكون نذيرا بالعطب ، يحسب كل صيحة عليه وكل مكروه قاصدا اليه ، فمن خاف الله آمنه من كل شيء ، ومن لم يخف الله أخافه من كل شيء .

بدا قضاء الله بين الخلق مذ خلقوا أن المخاوف والاعرام فى قرن

ومن عقوباتها : أنها توقع الوحشة العظيمة فى القلب ، فيجد المذنب نفسه مستوحشا مذ وقعت الوحشة بينه وبين ربه ، وبين الخلق وبينه ، وبين نفسه وكلما كثرت الذنوب اشتدت الوحشة وأمر العيش عيش المستوحشين الخائفين ، وأطيب العيش عيش المستأنسين ، فلو نظر العاقل ووزان بين لذة المعصية وما يولد فيه من الخوف والوحشة . لعلم سوء حاله وعظيم غبنه ، إذ باع أنس الطاعة وأمنها وحلاوتها بوحشة المعصية وما توجبه من الخوف . .

إذا كنت قد أوحشتك الذنوب فدعها إذا شئت واستأنس

وسر المسألة : أن الطاعة توجب القرب من الرب - سبحانه - وكلما اشتد القرب قوى الأنس ، والمعصية توجب البعد من الرب ، وكلما زاد البعد قويت الوحشة ، ولهذا يجد العبد وحشة بينه وبين عدوه للبعد الذى بينهما ، وإن كان ملابسا له قريبا منه ، ويجد أنسا قويا بينه وبين من يحب ، وإن كان بعيدا عنه ، والوحشة سببها الحجاب ، وكلما غلظ الحجاب زادت الوحشة فالغفلة توجب الوحشة ، وأشد منها وحشة المعصية ، وأشد منها ، وحشة الشرك الكفر ، ولا تجد أحدا يلبس شيئا من ذلك إلا ويعلوه من الوحشة بحسب ما لابس منه فتعلوا الوحشة وجهه وقلبه فيستوحش ويستوحش منه .
ومن عقوباتها : أنها تصرف القلب عن صحته واستقامته الى مرضه وانحرافه ، فلا يزال مريضا معلولا لا ينتفع بالأغذية التى بها حياته وصلاحه ، فان تأثير الذنوب فى القلوب كتأثير الأمراض فى

الأبدان ، بل الذنوب أمراض القلوب وداؤها ، ولا دواء لها الا تركها ، وقد أجمع السائرون الى الله ان القلوب لا تعطى منها حتى تصل الى مولاها ، ولا تصل الى مولاها حتى تكون صحيحة سليمة ، ولا تكون صحيحة سليمة حتى ينقلب داؤها فيصير نفس دوائها ، ولا يصح ذلك إلا بمخالفة هواها ، وهواها مرضها ، وشفائها مخالفتها ، فإن استحكمت المرض قتل أو كاد ، وكما ان من نهى نفسه عن الهوى كانت الجنة مأواه ، كذلك يكون قلبه في هذه الدار في جنة عاجلة لا يشبه نعيم أهلها نعيم البتة ، بل التفاوت الذي بين النعيمين كالتفاوت الذي بين نعيم الدنيا والآخرة ، وهذا أمر لا يصدق به الا من باشر قلبه هذا وهذا ، ولا تحسب ان قوله تعالى : ﴿ إِنْ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ . وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴾^(١) مقصور على نعيم الآخرة وجحيمها فقط ، بل في دورهم الثلاثة كذلك أعنى : دار الدنيا ، ودار البرزخ ، ودار القرار . فهؤلاء في نعيم ، وهؤلاء في جحيم ، وهل النعيم إلا نعيم القلب ، وهل العذاب إلا عذاب القلب ، وأى عذاب أشد من الخوف والهلم والحزن وضيق الصدر وإعراضه عن الله والدار الآخرة وتعلقه بغير الله وإنقطاعه عن الله بكل واد منه شعبة ، وكل شيء تعلق به وأحبه من دون الله فانه يسومه سوء العذاب ، فكل من أحب شيئاً غير الله عذب به ثلاث مرات في هذه الدار ، فهو يضرب به قبل حصوله حتى يحصل ، فاذا حصل عذب به حال حصوله بالخوف من سلبه وفواته والتنغيص والتنكيد عليه . وأنواع المعارضات ، فاذا سلبه اشتد عذابه عليه ، فهذه ثلاثة أنواع من العذاب في هذه الدار، وأما في البرزخ فعذاب يقارنه ألم الفراق الذي لا يرجى عوده ، وألم فوات ما فاته من النعيم العظيم باشتغاله بضده ، وألم الحجاب عن الله ، وألم الحسرة التي تقطع الأكباد ، فالهم والغم والحسرة والحزن تعمل في نفوسهم نظير ما تعمل الهوام والديدان في أبدانهم ، بل عملها في النفوس دائم مستمر حتى يردّها الله الى أجسادها فحينئذ ينتقل العذاب الى نوع هو أدهى وأمر ، فأين هذا من نعيم يرقص قلبه طرباً وفرحاً وانسا بربه ، واشتياقاً اليه ، وارتياحاً بحبه ، وطمأنينة بذكره ، حتى يقول بعضهم : في حال نزعهم واطرباه ، ويقول آخر : ان كان اهل الجنة في مثل هذا الحال انهم لفى عيش طيب ، ويقول الآخر : مساكين أهل الدنيا خرجوا منها وما ذاقوا لذيق العيش فيها وما ذاقوا أطيب ما فيها ويقول الآخر : لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف . ويقول الآخر : ان في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة .

فيا من باع حظه الغالى بأبخس الثمن وغبن كل الغبن في هذا العقد وهو يرى انه قد غبن اذا لم يكن لك خبرة بقيمة السلعة فاسأل المقومين ، فيا عجباً من بضاعة معك الله مشتريها وثمنها جنة المأوى ، والسفير الذي جرى على يده عقد التبايع وضمن الثمن عن المشتري هو الرسول - ﷺ - وقد بعثها بغاية الهوان .

اذا كان هذا فعله عبد بنفسه فمن ذاله من بعد ذلك يكرم

﴿ ومن يهن الله فما له من مكرم ، إن الله يفعل ما يشاء ﴾^(٢)

(١) سورة الانفطار الآيتان : ١٣ - ١٤

(٢) سورة الحج من الآية : ١٨

ومن عقوباتها : أنها تعمى بصر القلب وتطمس نوره ، وتسد طرق العلم ، وتحجب مواد الهداية ، وقد قال مالك للشافعي - رحمهما الله تعالى - لما اجتمع به ورأى تلك المخايل : إني أرى الله - تعالى - قد ألقى على قلبك نورا فلا تطفئه بظلمة المعصية ، ولا يزال هذا النور يضعف ويضمحل وظلام المعصية يقوى حتى يصير القلب في مثل الليل البهيم - فكم من مهلك يسقط فيه وهو لا يبصر كأعمى خرج بالليل في طريق ذات مهالك ومعاطب ، فيا عزة السلامة ويا سرة العطب ، ثم تقوى تلك الظلمات وتفيض من القلب الى الجوارح فيغشى الوجه منها سواد بحسب قوتها وتزايدها ، فإذا كانت عند الموت ظهرت في البرزخ فامتلاً القبر ظلمة كما قال النبي - ﷺ - : (إن هذه القبور ممتلئة على أهلها ظلمة ، وإن الله ينورها بصلاتي عليهم)^(١) فإذا كان يوم المعاد وحشر العباد وعلت الظلمة الوجوه علوا ظاهرا يراه كل احد حتى يصير الوجه أسود مثل الحممة فياها من عقوبة لا توازن لذات الدنيا بأجمعها من أولها الى آخرها ، فكيف يقسط العبد المنغص المنكد المتعب في زمن انما هو ساعة من حلم والله المستعان .

ومن عقوباتها : انها تصغر النفس وتقمعها وتدسيها وتحقرها حتى تصير أصغر كل شيء وأحققره كما أن الطاعة تنميها وتزكيها وتكبرها ، قال تعالى : ﴿ قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها ﴾^(٢) . والمعنى قد أفلح من كبرها وأعلاها بطاعة الله وأظهرها وقد خسر من أخفاها وحقرها وصغرها بمعصية الله وأصل التدسية الاخفاء ومنها قوله تعالى : ﴿ يدسه في التراب ﴾^(٣) فالعاصي يدس نفسه في المعصية ويخفي مكانها ويتوارى من الخلق من سوء ما يأتي به ، قد انقمع عند نفسه وانقمع عند الله وانقمع عند الخلق فالطاعة والبر تكبر النفس وتعزها وتعليها حتى تصير أشرف شيء وأكبره وأزكاه وأعلاه ومع ذلك فهي أذل شيء وأحققره وأصغره لله - تعالى - وبهذا الذل حصل لها هذا الشرف والعز والنمو فما صغر النفس مثل معصية الله وما كبرها وشرفها ورفعها مثل طاعة الله .

ومن عقوباتها أن العاصي دائما في أسر شيطانه وسجن شهواته وقيود هواه فهو أسير مسجون مقيد ، ولا أسير أسوأ حالا عن أسير أسره أعدى عدوله ، ولا سجن أضيق من سجن الهوى ، ولا قيد أصعب من قيد الشهوة فكيف يسير الى الله والدار الآخرة قلب مأسور مسجون مقيد ، وكيف يخطو خطوة واحدة اذا تقيد القلب طرقته الآفات ، وكلما نزل استوحشه جانب بحسب قيوده ، ومثل القلب مثل الطائر كلما علا بعد عن الآفات وكلما نزل استوحشه الآفات ، وفي الحديث : (الشيطان ذئب الانسان) وكما ان الشاة التي لا حافظ لها وهي بين الذئب سريعة العطب فكذا العبد اذا لم يكن عليه حافظ من الله فذئبه مفترسه ولا بد ، وانما يكون عليه حافظ من الله بالتقوى ، فهي وقاية وجنة حصينة بينه وبين ذئبه ، كما هي وقاية بينه وبين عقوبات الدنيا والآخرة ، وكلما كانت الشاة أقرب من الراعى كانت أسلم من الذئب ، وكلما بعدت عن الراعى كانت أقرب الى الهلاك ، فأجى ما تكون الشاة اذا قربت من الراعى ، وانما يأخذ الذئب القاصي من الغنم ، وهي أبعدهن من الراعى ، وأصل هذا كله

(١) سنن الدار قطنى كتاب الجنائز باب الصلاة على القبر ج ٢ ص ٧٧ حديث رقم ٤ فقد ورد الحديث بلفظه عن انس .

(٢) سورة الشمس الآيتان : ٩ - ١٠

(٣) سورة النحل من الآية : ٥٩

أن القلب اذا كان أبعد من الله كانت الآفات اليه أسرع ، وكلما كان أقرب من الله بعدت عنه الآفات ، والبعد من الله مراتب بعضها أشد من بعض ، فالغفلة تبعد العبد عن الله ، وبعد المعصية أعظم من بعد الغفلة ، وبعد البدعة أعظم من بعد المعصية ، وبعد النفاق والشرك أعظم من ذلك كله . ومن عقوباتها : سقوط الجاه والمنزلة والكرامة عند الله وعند خلقه ، فان أكرم الخلق عند الله اتقاهم ، وأقربهم منه منزلة أطوعهم له ، وعلى قدر طاعة العبد تكون له منزلة عنده ، فاذا عصاه وخالف أمره سقط من عينه فأسقطه من قلوب عباده ، واذا لم يبق له جاه عند الخلق وهان عليهم عاملوه على حسب ذلك ، فعاش بينهم أسوء عيش خامل الذكر ، ساقط القدر ، ذرى الحال ، لا حرمة له ، فلا فرح له ، ولا سرور ، فان خول الذكر وسقوط القدر والجاه معه كل هم وغم وحزن ، ولا سرور معه ولا فرح ، وأين هذا الألم من لذة المعصية لولا سكر الشهوة .

ومن أعظم نعم الله على العبد ان يرفع له بين العالمين ذكره ، ويعلى قدره ، ولهذا خص أنبياءه ورسله من ذلك بما ليس لغيرهم كما قال تعالى : ﴿ واذكر عبادنا ابراهيم واسحاق ويعقوب أولى الأيدي والأبصار ﴾ إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار ﴿^(١)﴾ أى خصصناهم بخصيصة وهو الذكر الجميل الذى يذكرون به فى هذه الدار وهو لسان الصدق الذى سألته ابراهيم الخليل - عليه الصلاة والسلام - حيث قال : ﴿ واجعل لى لسان صدق فى الآخرين ﴾ ﴿^(٢)﴾ وقال - سبحانه وتعالى - عنه وعن نبيه : ﴿ ووهبنا لهم من رحمتنا وجعلنا لهم لسان صدق عليا ﴾ ﴿^(٣)﴾ وقال لنبيه - ﷺ - ﴿ ورفعنا لك ذكرك ﴾ ﴿^(٤)﴾ فاتباع الرسل لهم نصيب من ذلك بحسب ميراثهم من طاعتهم ومتابعتهم وكل من خالفهم فانه من ذلك بحسب مخالفتهم ومعصيتهم .

ومن عقوباتها : انها تسلب صاحبها أسماء المدح والشرف وتكسوه أسماء الذم والصغار فتسلبه اسم المؤمن ، والبر ، والمحسن ، والمتقى ، والمطيع ، والمنيب ، والولى ، والورع ، والصالح ، والعايد ، والخائف ، والأواب ، والطيب ، والرضى ، ونحوها ، وتكسوه اسم الفاجر ، والعاصى ، والمخالف ، والمسيء ، والمفسد ، والخبيث ، والمسخوط ، والزانى ، والسارق ، والقاتل ، والكاذب ، والخائن ، واللوطى ، والغادر ، وقاطع الرحم ، وأمثالها .

فهذه أسماء الفسوق وبش الاسم الفسوق بعد الايمان التى توجب غضب الديان ودخول النيران وعيش الخزى والهوان .

وتلك أسماء توجب رضاء الرحمن ودخول الجنان وتوجب شرف المسمى بها على سائر أنواع الانسان ، فلو لم يكن فى عقوبة المعصية إلا استحقاق تلك الأسماء وموجباتها لكان فى العقل ناه عنها ، ولو لم يكن فى ثواب الطاعة الا الفوز بتلك الاسماء وموجباتها لكان فى العقل أمر بها ، ولكن لا مانع لما أعطى الله ، ولا معطى لما منع ، ولا مقرب لمن باعد ، ولا مبعد لمن قرب . ﴿ ومن يهن الله فما له من مكرم إن الله يفعل ما يشاء ﴾ ﴿^(٥)﴾ .

(٤) سورة الشرح الآية : ٤

(٥) سورة الحج الآية : ١٨

(١) سورة ص الأيتان : ٤٥ - ٤٦

(٢) سورة الشعراء الآية : ٨٤

(٣) سورة مريم الآية : ٥٠

ومن عقوباتها : انها تؤثر بالخاصة في نقصان العقل فلا تجد عاقلين أحدهما مطيع لله والآخر عاص
إلا وعقل المطيع منها أوفر وأكمل ، وفكره أصح ، ورأيه أسد ، والصواب قرينه ، ولهذا تجد خطاب
القرآن انما هو مع أولى الألباب والعقول كقوله : ﴿ واثقون يا أولى الألباب ﴾ (١) .
وكقوله : ﴿ فاتقوا الله يا أولى الألباب ﴾ (٢) .
وقوله : ﴿ وما يذكر إلا أولوا الألباب ﴾ (٣) .

ونظائر ذلك كثيرة وكيف يكون عاقلا وافر العقل من يعص من هو في قضيته وفي داره وهو يعلم أنه يراه ويشاهده فيعصيه ، وهو
بعينه غير متوار عنه ، ويستعين بنعمه على مساخطه ، ويستدعى كل وقت غضب عليه ، ولعنته له ، وإبعاده من قرب ،

وطرده عن بابه ، وإعراضه عنه ، وخذلانه له ، والتخلية بينه وبين نفسه وعدوه ، وسقوطه من عينه ،
وحرمانه وروح رضاه وحب ، وقرة العين بقربه ، والفوز بجواره ، والنظر الى وجهه في زمرة أوليائه ، الى
أضعاف اضعاف ذلك من عقوبة أهل المعصية ، فأى عقل لمن أثر لذة ساعة أو يوم أو دهر ثم تنقضي
كأنها حلم لم يكن على هذا النعيم المقيم ، والفوز العظيم ، بل هو سعادة الدنيا والآخرة ، ولولا العقل
الذي تقوم عليه به الحجة لكان بمنزلة المجانين ، بل قد يكون المجانين أحسن حالا منه ، وأسلم
عاقبة ، فهذا من هذا الوجه .

واما تأثيرها في نقصان العقل العيشي فلولا الاشتراك في هذا النقصان لظهر لمطيعنا نقصان عقل
عاصينا ولكن الجائحة عامة ، والجنون فنون ، ويا عجباً لو صحت العقول لعلمت ان الطريق الذي
يحصل به اللذة والفرحة والسرور وطيب العيش انما هو في رضاء من النعم كله في رضاه ، والألم
والعذاب كله في سخطه وغضبه ، ففي رضاء قرة العيون ، وسرور النفوس ، وحياة القلوب ، ولذة
الأرواح ، وطيب الحياة ، ولذة العيش ، وأطيب النعيم مما لو وزن منه مثقال ذرة بنعيم الدنيا لم تف
به ، بل اذا حصل للقلب من ذلك أيسر نصيب لم يرض بالدنيا وما فيها عوضاً منه ، ومع هذا فهو يتنعم
بنصيبه من الدنيا أعظم من نعم المترفين فيها ، ولا يشوب تنعمه بذلك الحظ اليسير ما يشوب تنعم
المترفين من الهموم والغموم والأحزان والمعارضات ، بل قد حصل له على النعيمين وهو ينتظر نعيمين
آخرين أعظم منهما ، وما يحصل له في خلال ذلك من الآلام ، فالأمر كما قال سبحانه : ﴿ إن تكونوا
تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجعون ﴾ (٤)

فلا إله إلا الله ما أنقص عقل من باع الدر بالبر ، والمسك بالرجيع ومرافقة الذين أنعم الله
عليهم من النبين والصديقين والشهداء والصالحين بمرافقة الذين غضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم
جهنم وساءت مصيراً .

ومن أعظم عقوباتها : أنها توجب القطيعة بين العبد وبين ورثته - تبارك وتعالى - واذا وقعت

(١) سورة البقرة الآية : ١٩٧

(٢) سورة المائدة من الآية : ١٠٠ ، سورة الطلاق من الآية : ١٠

(٣) سورة البقرة من الآية : ٢٦٩

(٤) سورة النساء من الآية : ١٠٤

القطيعة انقطعت عنه أسباب الخير واتصلت به أسباب الشر ، فأى فلاح وأى رجاء وأى عيش لمن انقطعت عنه أسباب الخير ، وقطع ما بينه وبين وليه ومولاه الذى لا غنى له عنه طرفه عين ، ولا بدل له منه ، ولا عوض له عنه ، واتصلت به أسباب الشر ، ووصل ما بينه وبين اعداء عدو له ، فتولاه عدوه ، وتخلى عنه وليه ، فلا تعلم نفس ما لهذا الانقطاع والاتصال من أنواع الآلام وأنواع العذاب .

قال بعض السلف : رأيت العبد ملقى بين الله - سبحانه - وبين الشيطان فان عرض الله عنه تولاه الشيطان ، وان تولاه الله لم يقدر عليه الشيطان ، وقد قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ افْتَخَذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِشٍّ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ۝ ^(١) ﴾ يقول سبحانه لعباده : أنا أكرمت أباكم ، ورفعت قدره ، وفضلته على غيره ، فأمرت ملائكتي كلهم ان يسجدوا له تكريما وتشريفا فأطاعوني ، وأبى عدوى وعدوه فعصى أمرى وخرج عن طاعتي ، فكيف يحسن بكم بعد هذا ان تتخذوه وذريته أولياء من دونى ، فتطيعوه فى معصيتي ، وتوالوه فى خلاف مرضاتي ، وهم أعداء عدو لكم ، فواليتم عدوى وقد أمرتكم بمعاداته ، ومن وإلى اعداء الملك كان هو وأعداؤه عنده سواء ، فان المحبة والطاعة لا تتم إلا بمعادات أعداء المطاع وموالاة أوليائه ، وأما ان توالى أعداء الملك ثم تدعى انك موال له فهذا محال ، هذا لو لم يكن عدو الملك عدوا لكم ، فكيف اذا كان عدوكم على الحقيقة ، والعداوة التى بينكم وبينه اعظم من العداوة التى بين الشاة والذئب ، فكيف يليق بالعاقل ان يوالى عدوه وعدو وليه ومولاه الذى لا مولى له سواه ، ونبه سبحانه على قبح هذه الموالاة بقوله : ﴿ وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ ۝ وَكَمَا نَبِهَ عَلَى قَبْحِهَا بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ۝ فَيُبَيِّنُ أَنَّ عِدَاوَتَهُ لِرَبِّهِ وَعِدَاوَتَهُ لَنَا كُلِّ مِنْهَا سَبَبٌ يَدْعُو إِلَى مَعَادَاتِهِ ، فَمَا هَذِهِ الْمَوَالَاةُ وَمَا هَذَا الِاسْتِبْدَالُ بِشٍّ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ، وَيُشَبِّهُ أَنَّ يَكُونُ تَحْتَ هَذَا الْخُطَابِ نَوْعٌ مِنَ الْعِقَابِ لَطِيفًا عَجِيبًا ، وَهُوَ أَنَّ عَادِيَّتَ إِبْلِيسَ إِذْ لَمْ يَسْجُدْ لِأَبِيكُمْ آدَمَ مَعَ مَلَائِكَتِي فَكَانَتْ مَعَادَاتِهِ لِأَجْلِكُمْ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ هَذِهِ الْمَعَادَاةِ أَنَّ عَقَدْتُمْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ عَقْدَ الْمَصَالِحَةِ .

ومن عقوباتها : انها تحقق بركة العمر وبركة الرزق وبركة العلم وبركة الطاعة وبالجمله انها تحقق بركة الدين والدنيا فلا تجد أقل بركة فى عمره ودينه ودنياه ممن عصى الله ، وما محيت البركة من الأرض إلا بمعاصي الخلق قال الله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۝ ^(٢) ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ وَأَلَوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقِينَهُمْ مَاءً غَدَقًا لَنَفْتَنَهُمْ فِيهِ ۝ ^(٣) ﴾ .

وان العبد ليحرم الرزق بالذنوب يصيبه ، وفى الحديث : (ان روح القدس نفث فى روعى انه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب فانه لا ينال ما عند الله إلا بطاعته ، وان الله جعل الروح والفرح فى الرضا واليقين وجعل الهم والحزن فى الشك والسخط ^(٤)) وقد تقدم الأثر الذى

(١) سورة الكهف من الآية : ٥٠

(٢) سورة الاعراف من الآية : ٩٦

(٣) سورة الجن الآية : ١٦٠ وجزء من الآية : ١٧

(٤) كشف الخفاء ج ١ ص ٢٦٨ حديث رقم ٧٠٧ ورد بلفظ . . ان روح القدس نفث فى روعى لن تموت النفس حتى تستكمل

ذكره احمد في كتاب الزهد (أنا الله اذا رضيت باركت وليس لبركتي منتهى ، واذا غضبت لعنت ولعنتي تدرك السابع من الولد ، وليست سعة الرزق والعمل بكثرتي ، ولا طول العمر بكثرة الشهور والأعوام ، ولكن سعة الرزق والعمر بالبركة فيه) وقد تقدم ان عمر العبد هو مدة حياته ، ولا حياة لمن أعرض عن الله واشتغل بغيره ، بل فحياة البهائم خير من حياته فإن حياة الانسان بحياة قلبه وروحه ، ولا حياة لقلبه إلا بمعرفة فاطره ومحبه وعبادته وحده ، أو الانابة اليه والطمأنينة بذكره والأنس بقربه ، ومن فقد هذه الحياة فقد الخير كله ، ولو تعوض عنها بما تعوض به في الدنيا بل ليست الدنيا بأجمعها عوضاً عن هذه الحياة ، فمن كل شيء يفوت العبد عوضاً ، واذا فاته الله لم يعوض عنه شيء البتة ، وكيف يعوض الفقير بالذات عن الغنى بالذات ، والعاجز بالذات عن القادر بالذات ، والميت عن الحي الذي لا يموت ، والمخلوق عن الخالق ، ومن لا وجود له في شيء له من ذاته البتة . عمن غناه وحياته وكماله ووجوده ورحمته من لوازم ذاته ، وكيف يعوض من لا يملك مثقال ذرة عمن له ملك السموات والأرض ، وانما كانت معصية الله سبباً لمحق بركة الرزق والأجل ؛ لأن الشيطان موكل بها وبأصحابها فسلطانه عليهم وحوالته على هذا الديوان وأهله وأصحابه ، وكل شيء يتصل به الشيطان ويقارنه فبركته محوقة ، ولهذا شرع ذكر اسم الله - تعالى - عند الأكل ، والشرب ، واللبس ، والركوب ، والجماع ، لما في مقارنة اسم الله من البركة وذكر اسمه يطرد الشيطان فتحصل البركة ولا معارض لها، وكل شيء لا يكون لله فبركته منزوعة ، فإن الرب هو الذي يبارك وحده والبركة كلها منه ، وكل ما نسب اليه مبارك ، فكلامه مبارك ، ورسوله مبارك ، وعبد المومن النافع لخلقه مبارك ، وبيته الحرام مبارك ، وكنائنه من أرضه وهي الشام أرض البركة ، وصفها بالبركة في ست آيات من كتابه فلا مبارك إلا هو وحده ، ولا مبارك الا ما نسب اليه ، اعني الى محبه وألوهيته ورضاه ، والا فالكون كله منسوب الى ربوبيته وخلقه ، وكل ما باعده من نفسه من الاعيان والأقوال والأعمال فلا بركة فيه ولا خير فيه ، وكل ما كان منه قريباً من ذلك ففيه من البركة على قدر قربته منه ، وضد البركة اللعنة فأرض لعنها الله ، أو شخص لعنه الله ، أو عمل لعنه الله ، أبعد شيء من الخير والبركة ، وكل ما اتصل بذلك وارتبط به وكان منه السبيل فلا بركة فيه البتة ، وقد لعن عدوه ابليس وجعله ابعد خلقه منه ، فكل ما كان من جهته فله من لعنة الله بقدر قربته منه واتصاله ، فمن ههنا كان للمعاصي أعظم تأثير في محق بركة العمر ، والرزق ، والعلم ، والعمل ، فكل وقت عصيت الله فيه ، أو مال عصي الله به ، أو بدن ، أو جاه ، أو علم ، أو عمل فهو على صاحبه ليس له ، فليس له من عمره وماله وقوته وجاهه وعلمه وعمله الا ما أطاع الله به ، ولهذا من الناس من يعيش في هذه الدار مائة سنة أو نحوها ويكون عمره لا يبلغ عشرين سنة أو نحوها ، كما أن منهم من يملك القناطير المقنطرة من الذهب والفضة ويكون ماله في الحقيقة لا يبلغ الف درهم أو نحوها ، وهكذا الجاه . والعلم وفي الترمذي عنه - عليه السلام - (الدنيا ملعونة

== رزقها ، فاتقوا الله واجملوا في الطلب . . وانظر حلية الأولياء ج ١٠ ص ٢٧ عن أبي امامة قال : قال رسول الله - عليه السلام - « ان روح القدس نفث في روعي ان نفسا لن تموت حتى تستكمل أجلها وتستوعب رزقها فاجملوا في الطلب ، ولا يحملن أحدكم استبطاء الرزق ان يطلبه بمعصية فان الله لا ينال ما عنده إلا بطاعته . »

ملعون ما فيها إلا ذكر الله - عز وجل - وما والاه أو عالما أو متعلما^(١) وفي أثر آخر (ملعون ملعون ما فيها إلا ما كان لله هذا هو الذي فيه البركة خاصة والله المستعان .

ومن عقوباتها انها تجعل صاحبها من السفلة بعد أن كان مهيبا لأن يكون من العلية ، فان الله خلق خلقه قسمين : عليا ، وسفلة وجعل عليين مستقر العلية ، وأسفل سافلين مستقر السفلة ، وجعل أهل طاعته الأعلين في الدنيا والآخرة ، وأهل معصيته الأسفلين في الدنيا والآخرة ، كما جعل أهل طاعته أكرم خلقه عليه ، وأهل معصيته أهون خلقه عليه ، وجعل العزة لهؤلاء ، والذلة والصغار لهؤلاء ، كما في مسند احمد من حديث عبد الله بن عمر عن النبي - ﷺ - انه قال : (جعلت الذلة والصغار على من خالف أمري وكلما عمل العبد معصية نزل الى أسفل درجة ولا يزال في نزول حتى يكون من الأسفلين ، وكلما عمل طاعة ارتفع بها درجة ولا يزال في ارتفاع حتى يكون من الأعلين)^(٢) وقد يجتمع للعبد في أيام حياته الصعود من وجه والنزول من وجه وأيهما كان أغلب عليه كان من أهله فليس من صعد مائة درجة ونزل درجة واحدة كمن كان بالعكس ولكن يعرض ههنا للنفوس غلط عظيم وهو ان العبد قد ينزل نزولا بعيدا أبعد مما بين المشرق والمغرب ومما بين السماء والأرض لا بفىء بصعوده الف درجة بهذا النزول الواحد كما في الصحيح عن النبي - ﷺ - انه قال : (ان العبد ليتكلم بالكلمة الواحدة ولا يلقي لها بالا يهوى بها في النار أبعد مما بين المشرق والمغرب)^(٣) فأى صعود يوازن هذه النزلة والنزول أمر لازم للانسان ، ولكن من الناس من يكون نزوله الى غفلة ، فهذا متى استيقظ من غفلته عاد الى درجته او الى أرفع منها بحسب يقظته ، ومنهم من يكون نزوله الى مباح لا ينوى به الاستعانة على الطاعة ، فهذا اذا رجع الى الطاعة قد يعود الى درجته ، وقد لا يصل اليها ، وقد يرتفع عنها ، فانه قد يعود أعلى همة مما كان ، وقد يكون اصعب همة ، وقد تعود همته كما كانت ، ومنهم من يكون نزوله الى معصية اما صغيرة واما كبيرة ، فهذا يحتاج في عودته الى درجته الى توبة نصوح ، وانا بة صادقة ، واختلف الناس هل يعود بعد التوبة الى درجته التي كان فيها بناء على أن التوبة تمحو أثر الذنب ، وتجعل وجوده كعدمه فكأنه لم يكن أو لا يعود بناء على أن التوبة تأثيرها في اسقاط العقوبة ، واما الدرجة التي فاتته فانه لا يصل اليها قالوا : وتقرير ذلك انه كان مستعدا باشتغاله بالطاعة في الزمن الذي عصي فيه لصعود آخر وارتفاعه بجملة أعماله السابقة بمنزلة كسب الرجل كل يوم بجملة ماله الذي يملكه ، وكلما تضاعف المال تضاعف الربح ، فقد راح عليه في زمن المعصية ارتفاع ، وربح بجملة أعماله ، فاذا استأنف العمل استأنف صعودا من نزول ، وكان قبل ذلك صاعدا من أسفل الى أعلى

(١) سنن ابن ماجه ج ٢ ص ١٣٧٧ كتاب الزهد باب « مثل الدنيا » ورد الحديث بلفظه عن أبي هريرة حديث رقم ٤١١٢

(٢) صحيح البخارى كتاب الجهاد باب ما قيل في الرماح ج ٤ ص ٤٩ عن ابن عمر عن النبي - ﷺ - « جعل رزقى تحت ظل رعى ، وجعل الذلة والصغار على من خالف أمري »

وانظر مسند الامام احمد ج ٢ ص ٥٠ فقد ورد هذا الحديث جزءا من روايتين لابن عمر .

(٣) صحيح البخارى كتاب الرقاق - باب حفظ اللسان ج ١١ ص ٣٠٨ حديث رقم ٦٤٧٧ ، ٦٤٧٨ الروايتان عن ابى هريرة فقد ذكر الحديث مع اختلاف يسير في الفاظ الحديث الذى معنا .

وانظر مسند الامام احمد المجلد الثانى ص ٣٧٩ فقد ورد الحديث عن ابى هريرة بلفظ « ان العبد يتكلم بالكلمة يزل بها في النار

ابعد ما بين الشرق والغرب »

وبينهما بون عظيم ، قالوا : ومثل ذلك رجلان مرتقيان في سلمين لا نهاية لهما وهما سواء فنزل أحدهما الى أسفل ولو درجة واحدة ، ثم استأنف الصعود فان الذي لم ينزل يعلو عليه ولا بد ، وحكم شيخ الاسلام ابن تيمية بين الطائفتين حكما مقبولا فقال : التحقيق أن من التائبين من يعود الى أرفع من درجته ، ومنهم من يعود الى مثل درجته ، ومنهم من لا يصل الى درجته ، ومنهم من يعود الى درجته . قلت : وهذا بحسب قدر التوبة وكما لها ، وما أحدثت المعصية للعبد من الذل والخضوع ، والالابة والحذر والخوف من الله والبكاء من خشية الله ، وقد تقوى على هذه الأمور حتى يعود التائب الى أرفع من درجته ويصير بعد التوبة خيرا منه قبل الخطيئة ، فهذا قد تكون الخطيئة في حقه رحمة ، فانها نفت عنه داء العجب وخلصته من ثقته بنفسه وأعماله ووضعت خد ضراسته وذله وانكساره على عتبة باب سيده ومولاه ، وعرفته قدره ، وأشهدته فقره وضرورته الى حفظ سيده له ، ومولاه ، وإلى عفوه عنه ومغفرته له ، وأخرجت من قلبه صولة الطاعة ، وكسرت أنفه من ان يشمخ بها أو يتكبر بها أو يرى نفسه بها خيرا من غيره ، وأوقفته بين يدي ربه موقف الخطائين المذنبين ناكس الرأس بين يدي ربه مستحيا خائفا منه وجلا محتقرا لطاعته مستعظما لمعصيته ، عرف نفسه بالنقص والذم وربه متفرد بالكمال والحمد والوفى كما قيل :

استأثر الله بالوفى وبالحمد وولى الملامة الرجلا

فأى نعمة وصلت من الله اليه استكثرها على نفسه ورأى نفسه دونها ولم يرها أهلا لها ، وأى نقمة أو بلية وصلت اليه رأى نفسه أهلا لما هو أكبر منها ، ورأى مولاه قد أحسن اليه اذ لم يعاقبه على قدر جرمه ولا شطره ولا أدنى جزء منه ، فان ما يستحقه من العقوبة لا تحمله الجبال الراسيات ، فضلا عن هذا العبد الضعيف العاجز ، فإن الذنب دوان صغر فان مقابله العظيم الذى لا شيء أعظم منه ، الكبير الذى لا شيء أكبر منه ، الجليل الذى لا أجل منه ، ولا أجل ، المنعم بجميع أنواع النعم دقيقتها وجليلتها من أقبح الأمور وأفظعها وأشنعها ، فان مقابلة العظماء والأجلاء وسادات الناس بمثل ذلك يستقبحه كل أحد مؤمن وكافر ، وأرذل الناس وأسقطهم مروءة من قابلهم بالردائل ، فكيف بعظيم السموات والأرض وملك السموات والأرض ، وإله أهل السموات والأرض ، ولولا ان رحمته سبقت غضبه ، ومغفرته سبقت عقوبته وإلا لزلزلت الأرض بمن قابله بما لا تليق بمقابلته به ، ولولا حلمه ومغفرته لزالَت السموات والأرض ، من معاصي العباد قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ ^(١) فتأمل ختم هذه الآية باسمين من أسمائه وهما الحليم والغفور كيف تجد تحت ذلك أنه لولا حلمه عن الجناة ومغفرته للعصاة لما استقرت السموات والأرض ، وقد أخبر - سبحانه - عن كفر بعض عباده أنه تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا ، وقد أخرج الله - سبحانه - الأبوين من الجنة بذنب واحد ارتكباه وخالفا فيه نبيه ولعن إبليس

وطرده وأخرجه من ملكوت السموات بذنب واحد ارتكبه وخالف فيه أمره ، ونحن معاشر الحمقاء كما قيل :

نصل الذنوب إلى الذنوب ونرتجي درج الجنان لذى النعيم الخالد
ولقد علمنا أخرج الأبوين من ملكوتها الأعلى بذنب واحد

والمقصود أن العبد قد يكون بعد التوبة خيرا مما كان قبل الخطيئة وأرفع درجة ، وقد تضعف الخطيئة همته وتوهن عزمه وتعرض قلبه فلا يقوى ذو التوبة على اعادته الى الصحة الأولى فلا يعود الى درجته ، وقد يزول المرض بحيث تعود الصحة كما كانت ويعود الى مثل عمله فيعود الى درجته ، هذا كله اذا كان نزوله الى معصيته فان كان نزوله الى امر يقدر في اصل ايمانه مثل الشكوك والريب والنفاق فذاك نزول لا يرجي لصاحبه صعود الا بتجديد اسلامه من رأسه .

ومن عقوباتها : انها تجتريء على العبد ما لم يكن يجتريء عليه من أصناف المخلوقات ، فتجتريء عليه الشياطين بالأذى والإغواء والوسوسة والتخويف والتغريير وانسائه ما مصلحته في ذكره ومضرته في نسيانه ، فتجتريء عليه الشياطين حتى تؤزه الى معصيته الله أزا وتجتريء عليه شياطين الانس بما تقدر عليه من الأذى في غيبته وحضوره ، ويجتريء عليه أهله وخدمه وأولاده وجيرانه حتى الحيوان البهيم قال بعض السلف : انى لأعصى الله فأعرف ذلك في خلق امرأتى ودابتى .

وكذلك يجتريء عليه أولياء الأمر بالعقوبة التي ان عدلوا فيها أقاموا عليه الحدود ، وتجتريء عليه نفسه فتأسد عليه وتصعب عليه فلو أرادها لخير لم تطاوعه ولم تنقذ له وتسوقه الى ما فيه هلاكه شاء أم أبى ، وذلك لأن الطاعة حصن الرب - تبارك وتعالى - الذي من دخله كان من الأمنين فإذا فارق الحصن اجتراً عليه قطاع الطريق وغيرهم وعلى حسب اجترائه على معاصي الله يكون اجتراء هذه الآفات والنفوس عليه وليس شيء يرد عنه فان ذكر الله وطاعته والصدقة وارشاد الجاهل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وقاية ترد عن العبد بمنزلة القوة التي ترد المرض وتقاومه، فإذا سقطت القوة غلب وارد المرض وكان الهلاك ، ولا بد للعبد من شيء يرد عنه فان موجب السيئات والحسنات يتدافع ويكون الحكم للغالب كما تقدم .

وكلما قوى جانب الحسنات كان الرد أقوى ، فان الله يدافع عن الذين آمنوا ، والايمان قول وعمل فبحسب قوة الايمان تكون قوة الدفع والله المستعان .

ومن عقوباتها : انها تخون العبد أحوج ما يكون الى نفسه فان كل احد محتاج الى معرفة ما ينفعه وما يضره في معاشه ومعاده ، وأعلم الناس أعرفهم بذلك على التفصيل ، وأقواهم وألبسهم من قوى على نفسه وإرادته فاستعملها فيما ينفعه وكفها عما يضره ، وفي ذلك تفاوت معارف الناس وهمهم ومنازلهم فأعرفهم من كان عارفا بأسباب السعادة والشقاوة ، وأرشدهم من أثر هذه على هذه ، كما ان أسفهم من عكس الأمر والمعاصي تخون العبد أحوج ما كان الى نفسه في تحصيل هذا العلم . وإيثار الحظ الأشرف العالى الدائم على الحظ الخسيس الأدنى المنقطع فتحجبه الذنوب عن كمال هذا العلم

وعن الاشتغال بما هو أولى به وأنفع له في الدارين ، فاذا وقع في مكروه واحتاج الى التخلص منه خاف قلبه ونفسه وجوارحه ، وكان بمنزلة رجل معه سيف قد غشيه الحرب ولزم قرابه بحيث لا ينجذب مع صاحبه اذا جذبه فعرض له عدو يريد قتله ، فوضع يده على قائم سيفه واجتهد ليخرجه فلم يخرج معه ، فدهمه العدو وظفر به ، كذلك القلب يصدأ بالذنوب ويصير مثخنا بالمرض ، فاذا احتاج الى محاربة العدو لم يجد معه شيئا ، والعبد انما يحارب ويصاول ويقدم بقلبه والجوارح تبع للقلب ، فاذا لم يكن عند ملكها قوة يدفع به فما الظن بها عند عدم ملكها ، وكذلك النفس فانها تخبث بالشهوات والمعاصي وتضعف أعني النفس المطمئنة وان كانت الامارة تقوى وتتأسد ، وكلما قويت هذه ضعفت هذه ، فبقى الحكم والتصرف للأمانة ، وربما ماتت نفسه المطمئنة موتا لا يرجى معه حياة ، فهذا ميت في الدنيا ميت في البرزخ غير حي في الآخرة حياة ينتفع بها ، بل حياته حياة يدرك بها الألم فقط ، والمقصود ان العبد اذا وقع في شدة أو كربة أو بلية خاف قلبه ولسانه وجوارحه عما هو أنفع شيء له : فلا ينجذب قلبه للتوكل على الله - تعالى - والالابة اليه والجمعية عليه والتضرع والتذلل والانكسار بين يديه ولا يطاوعه لسانه لذكره وان ذكره بلسانه لم يجمع بين قلبه ولسانه فلا ينجس القلب على اللسان بحيث يؤثر فيه الذكر ولا ينجس اللسان والقلب على المذكور ، بل ان ذكر أو دعا ذكر بقلب غافل لاه ساه ولو أراد من جوارحه ان تعينه بطاعة تدفع عنه لم تنقد له ولم تطاوعه ، وهذا كله أثر الذنوب والمعاصي لمن له جند يدفع عنه الاعداء فأهمل جنده وضعفهم وأضعفهم وقطع اخبارهم ثم أراد منهم عند هجوم العدو عليه ان يستفرغوا وسعهم في الدفع عنه بغير قوة ، هذا وثم أمر أخوف من ذلك وأدهى وأمر ، وهو ان يخونه قلبه ولسانه عند الاحتضار والانتقال الى الله - تعالى - فربما تعذر عليه النطق بالشهادة كما شاهد الناس كثيرا من المحتضرين أصابهم ذلك حتى قيل لبعضهم قل : لا إله إلا الله ، فقال آه آه لا أستطيع أن أقولها ، وقيل لآخر : قل : لا إله إلا الله ، فقال شاه رخ غلبتك ، ثم قضى ، وقيل ، لآخر : قل : لا إله إلا الله فقال : يارب قائلة يوما وقد تعبت : أين الطريق الى حمام منجباب ثم قضى وقيل لآخر : قل : لا إله إلا الله ، فجعل يهزى بالغناء ويقول : تاتا نتتا ، فقال : وما ينفعني ما تقول ولم أدع معصية إلا ركبتها ثم قضى ولم يقلها ، وقيل لآخر ، ذلك فقال : وما يغني عني وما أعلم أني صليت لله - تعالى - صلاة ثم قضى ولم يقلها ، وقيل لآخر ذلك فقال : هو كافر بما تقول وقضى ، وقيل لآخر ذلك فقال : كلما أردت ان أقولها فلساني يمسك عنها ، وهناك بعض الشحاذين عند موته فجعل يقول لله فليس لله فليس حتى قضى ، وأخبرني بعض التجار عن قرابة له أنه احتضر وهو عنده فجعلوا يلقنونه : لا إله إلا الله وهو يقول : هذه القطعة رخيصة هذا مشترى جيد هذه كذا حتى قضى ، وسبحان الله كم شاهد الناس من هذا عبرا والذي يخفى عليهم من أحوال المحتضرين أعظم وأعظم ، واذا كان العبد في حال حضور ذهنه وقوته وكمال ادراكه قد تمكن منه الشيطان واستعمله بما يريده من المعاصي وقد أغفل قلبه عن ذكر الله - تعالى - وعطل لسانه من ذكره وجوارحه عن طاعته ، فكيف الظن به عند سقوط قواه واشتغال قلبه ونفسه بما هو فيه من ألم النزاع وجمع الشيطان له كل قوته وهمته وحشد عليه بجميع ما يقدر عليه لينال منه فرصته ، فان ذلك آخر العمل فاقوى ما يكون عليه شيطانه ذلك الوقت ، وأضعف ما يكون هو في تلك

الحالة فمن ترى يسلم على ذلك ، فهناك ﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء ﴾^(١) فكيف يوفق لحسن الخاتمة من أغفل الله - سبحانه - قلبه عن ذكره واتبع هواه وكان أمره فرطاً فبعيد من قلبه بعيد من الله - تعالى - غافل عنه متعبد لهواه ، مصير لشهواته ولسانه يابس من ذكره ، وجوارحه معطلة من طاعته ، مشغلة بمعصية الله ان يوفق لحسن الخاتمة ولقد قطع خوف الخاتمة ظهور المتقين، وكان المسيئين الظالمين قد أخذوا توقيفاً بالآيمان ﴿ أم لكم آيمان علينا بالغة إلى يوم القيامة ان لكم لما تحكمون * سلهم أيهم بذلك زعيم ﴾^(٢) .

يا آمنا من قبيح الفعل يصنعه	هل أذاك تواقع أم انت تملكه
جمعت شيئين آمنا واتباع هوى	هذا واحداهما في المرء تهلكه
والمحسنون على درب المخاوف قد	ساروا وذلك درب لست تسلكه
فرطت في الزرع وقت البذر من سفه	فكيف عند حصاد الناس تدركه
هذا وأعجب شيء منك زهدك في	دار البقاء بعيش سوف تتركه
من السفه إذاً بالله أنت أم	المغبون في البيع غبنا سوف تدركه

ومن عقوباتها : أنها تعمى القلب فإن لم تعمه أضعفت بصيرته ولا بد ، فإذا عمى القلب وضعف فإته من معرفة الهدى وقوته على تنفيذه في نفسه وفي غيره بحيث تضعف بصيرته وقوته ، فان كمال الانسان مداره في أصليين : معرفة الحق من الباطل ، وإثاره عليه ، وما تفاوتت منازل الخلق عند الله - تعالى - في الدنيا والآخرة الا بقدر تفاوت منازلهم في هذين الأمرين وهما اللذان أثنى الله بهما - سبحانه - على أنبيائه - عليهم الصلاة والسلام - في قوله تعالى : ﴿ واذكر عبادنا إبراهيم واسحق ويعقوب أولى الأيدي والأبصار ﴾^(٣) فالأيدى : القوة في تنفيذ الحق ، والأبصار : البصائر في الدين فوصفهم بكمال ادراك الحق ، وكمال تنفيذه .

وانقسم الناس في هذا المقام أربعة أقسام : فهؤلاء أشرف الأقسام من الخلق وأكرمهم على الله - تعالى - القسم الثاني : عكس هؤلاء من لا بصيرة له في الدين ولا قوة على تنفيذ الحق وهم أكثر هذا الخلق الذين رؤيتهم قذى للعيون وحمى للأرواح وسقم القلوب ، يضيّقون الديار ويغلون الأسعار ولا يستفاد من صحبتهم إلا العار والشنار، القسم الثالث : من له بصيرة في الهدى ومعرفة به لكنه ضعيف لا قوة له على تنفيذه ولا الدعوة اليه ، وهذا حال المؤمن الضعيف والمؤمن القوى خير وأحب إلى الله منه . القسم الرابع : من له قوة وهمة وعزيمة لكنه ضعيف البصيرة في الدين لا يكاد يميز بين أولياء الرحمن من أولياء الشيطان ، بل يحسب كل سوداء تمرة ، وكل بيضاء شحمة ، يحسب الورم شحماً ، والدواء النافع سماً ، وليس في هؤلاء من يصلح للامامة في الدين ، ولا هو موضعاً لها سوى القسم الأول قال

(١) سورة ابراهيم الآية : ٢٧

(٢) سورة القلم الآيتان : ٣٩ - ٤٠

(٣) سورة ص الآية : ٤٥

الله - تعالى : ﴿ وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون ﴾ ^(١) فأخبر - سبحانه - ان بالصبر واليقين نالوا الامامة في الدين ، وهؤلاء هم الذين استثناهم الله - سبحانه - من جملة - الخاسرين وأقسم بالعصر الذي هو زمن سعى الخاسرين والدائخين على ان من عداهم فهو من الخاسرين فقال تعالى : ﴿ والعصر ان الانسان لفي خسر ﴾ * إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ^(٢) فلم يكتف منهم بمعرفة الحق والصبر عليه حتى يوصى بعضهم بعضا ويرشده اليه ويحثه عليه ، فاذا كان من عدا هؤلاء فهو من الخاسرين ، فمعلوم ان المعاصي والذنوب تعمى بصيرة القلب ، فلا يدرك الحق كما ينبغي ، وتضعف قوته وعزيمته فلا يصبر عليه ، بل قد تتوارد على القلب حتى ينعكس ادراكه كما ينعكس سيره فيدرك الباطل حقا ، والحق باطلا والمعروف منكرا والمنكر معروفا ، فينتكس في سيره ويرجع عن سفره الى الدار الآخرة الى سفره الى مستقر النفوس المبجلة التي رضيت بالحياة الدنيا واطمأنت بها ، وغفلت عن الله وآياته ، وتركت الاستعداد للقاءه ، ولو لم يكن في عقوبة الذنوب إلا هذه وحدها لكانت كافية داعية الى تركها والبعد منها والله المستعان .

وهذا كما أن الطاعة تنور القلب وتجلوه وتصفله وتقويه وتثبته حتى يصير كالمرآة المجلوة في جلائها وصفائها فيمتلئ نورا، فاذا دنا الشيطان منه أصابه من نوره ما يصيب مسترق السمع من الشهب الثواقب ، فالشيطان يفرق من هذا القلب أشد من فرق الذئب من الأسد ، حتى ان صاحبه ليصرع الشيطان فيخر صريعا فيجتمع عليه الشياطين فيقول بعضهم لبعض ما شأنه ، فيقال : أصابه إنسى وبه نظرة من الأنس .

فيا نظرة من قلب حر منور يكاد لها الشيطان بالنور يحرق

أفيستوى هذا القلب وقلب مظلم أرجاؤه ، مختلفة أهواؤه ، قد اتخذ الشيطان وطنه ، وأعد مسكنه ، إذا أصبح بطلعته حياه وقال : فديت من لا يفلح في دنياه ولا في أخراه .

أنا قرينك في الدنيا وفي الحشر بعدها فأنت قرين لي بكل مكان
فان كنت في دار الشقاء فإنني وأنت جميعا في شقا وهوان

قال تعالى : ﴿ ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين . وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون . حتى إذا جاءنا قال ياليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين . ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم في العذاب مشتركون ﴾ ^(٣) .

فأخبر - سبحانه - ان من عشى عن ذكره وهو كتابه الذي أنزل على رسوله - ﷺ - وبارك فيه

(١) سورة السجدة آية : ٢٤

(٢) سورة العصر الآيات : ١ - ٢ - ٣

(٣) سورة الزخرف الآيات : ٣٦ - ٣٧ - ٣٨ - ٣٩

فأعرض عنه وعمى عنه وعشت بصيرته عن فهمه وتدبره ومعرفة مراد الله منه قىض الله له شيطاناً عقوبة له فى إعراضه عن كتابه ، فهو قرينه الذى لا يفارقه لا فى الإقامة ولا فى المسير ، ومولاه وعشيرته الذى هو بشس المولى وبشس العشيرة .

رضيعى لبان ثدى أم تقاسما بأسحهم واج عوض لا يتفرق

ثم أخبر - سبحانه - أن الشيطان ليصد قرينه ووليه عن سبيله الموصل إليه وإلى جنته ، ويحسب هذا الضال المضل الصدود أنه على طريق هدى ، حتى إذا جاء القرينان يوم القيامة يقول أحدهما للآخر : ياليت بينى وبينك بعد المشرقين فبشس القرين - كنت لى فى الدنيا أضللتنى عن الهدى بعد إذ جاءنى ، وصددتنى عن الحق ، وأغويتنى حتى هلكت ، وبشس القرين أنت لى اليوم ، ولما كان المصاب إذا شاركه غيره مصيبتة حصل بالتأسى نوع تخفيف وتسلية - أخبر الله - سبحانه - أن هذا غير موجود وغير حاصل فى حق المشتركين فى العذاب ، وأن القرين لا يجد راحة ولا أدنى فرح بعذاب قرينه معه وأن كانت المصائب فى الدنيا إذا عمت صارت مسلاة كما قالت الخنساء فى أخيها صخر :

ولولا كثرة الباكين حولى على اخوانهم لقتلت نفسى
وما يكون مثل اخى ولكن أعزى النفس عنه بالتأسى
ألا يا صخر لا أنساك حتى افارق عيشتى وورود رمسى

فمنع الله - سبحانه - هذا القدر من الراحة على أهل النار فقال : ﴿ ولن ينفعكم اليوم اذ ظلمتم أنكم فى العذاب مشتركون ﴾ .

ومن عقوباتها : أنها مدد من الإنسان يمد به عدوه عليه وجيش يقويه به على حربه ، وذلك أن الله - سبحانه - ابتلى هذا الإنسان بعدو لا يفارقه طرفة عين ، صاحبه ينام ولا ينام عنه ، ويغفل لا يغفل عنه ، يراه هو وقبيله من حيث لا يراه ، يبذل جهده فى معاداته بكل حال ، ولا يدع أمراً يكيد به يقدر على إيصاله إليه إلا أوصله ، ويستعين عليه ببني جنسه من شياطين الانس وغيرهم من شياطين الجن ، وقد نصب له الحبائل وبغى له الغوائل ، ومد حوله الاشرار ونصب له الفخاخ والشباك ، وقال لأعوانه : دونكم عدوكم وعدو أبيكم ، لا يفوتكم ولا يكون حظهم الجنة وحظكم النار ، ونصبيه الرحمة ونصبيكم اللعنة ، وقد علمتم أن ما جرى على وعليكم من الخزي واللعن والابعاد من رحمة الله بسببه ومن أجله ، فابذلوا جهدكم أن تكونوا شركاءنا فى هذه البلية ، اذ فاتنا شركة صالحهم فى الجنة ، ولما علم - سبحانه - أن آدم وبنيه قد بلوا بهذا العدو وسلطوا عليهم أمدهم بعساكر وجند يلقون بها ، وأمد عدوهم - أيضاً - بجند وعساكر يلقاهاهم به ، وأقام سوق الجهاد فى هذه الدار فى مدة العمر التى هى بالاضافة إلى الآخرة كنفس واحد من انفسها ، واشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة

يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون . وأخبر أن ذلك وعد مؤكد عليه فى أشرف كتبه وهى التوراة

والانجيل والقرآن ، ثم أخبر انه لا أوفى بعهده منه - سبحانه - ثم أمرهم ان يستبشروا بهذه الصفقة التي من أراد ان يعرف قدرها فلينظر الى المشتري من هو ، والى الثمن المبذول في هذه السلعة ، والى من جرى على يديه هذا العقد ، فأى فوز أعظم من هذا ، وأى تجارة أربح منه ، ثم أكد - سبحانه - معهم هذا الأمر بقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ * تَوَدُّونَ أَنَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يَتَجَاهَدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١) .

ولم يسلط سبحانه هذا العدو على عبده المؤمن الذي هو أحب المخلوقات اليه الا لأن الجهاد أحب شيء اليه وأهله أرفع الخلق عنده درجات ، وأقربهم اليه وسيلة ، فعقد - سبحانه - لواء هذا الحرب لخلاصة مخلوقاته وهو القلب الذي هو محل معرفته ومحبه وعبوديته والاخلاص له والتوكل عليه والابانة اليه ، فولاه أمر هذه الحرب ، وأيده بجند من الملائكة لا يفارقونه ، له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله ، يعقب بعضهم بعضا كلما جاء جند وذهب جاء بدله آخر ، يشبثونه ويأمرونه بالخير ، ويحضونه عليه ، ويعدونه بكرامة الله ، ويصبرونه ويقولون : انما هو صبر ساعة وقد استرحت راحة الأبد ثم أيده - سبحانه - بجند آخر من وحيه وكلامه ، فأرسل اليه رسوله - ﷺ - وانزل اليه كتابه ، فازداد قوة الى قوته ، ومددا الى مدده ، وعدة الى عدته ، وأمده مع ذلك بالعقل وزيرا له ومدبرا ، وبالمعرفة مشيرة عليه ناصحة له ، وبالايمان مثبتا له ومؤيدا وناصرا ، وباليقين كاشفا له عن حقيقة الأمر حتى كأنه يعاين ما وعد الله - تعالى - أوليائه وحزبه على جهاد أعدائه ، فالعقل يدبر امر جيشه ، والمعرفة تضع له أمور الحرب وأسبابها ومواضعها اللاتقة بها ، والايمان يشبته ويقويه ويصبره ، واليقين يقدم به ويحمل به الحملات الصادقة ، ثم مد - سبحانه - القائم بهذا الحرب بالقوى الظاهرة والباطنة ، فجعل العين طليعة ، والأذن صاحب خبرة ، واللسان ترجمانه ، واليدين والرجلين أعوانه ، وأقام ملائكته وحمله عرشه يستغفرون له ، ويسألون له ان يقيه السيئات ويدخله الجنات ، وتولى - سبحانه - الدفع والدفاع عنه بنفسه ، وقال : هؤلاء حزب الله وحزب الله هم المفلحون ، وهؤلاء جنده ، وان جندنا لهم الغالبون ، وعلم عباده كيفية هذه الحرب والجهاد ، فجمعها لهم في أربع كلمات فقال :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (٢) .

ولا يتم امر هذا الجهاد الا بهذه الأمور الأربعة ، فلا يتم الصبر إلا بمصابرة العدو وهي مقاومته ومنازلته ، فاذا صابر عدوه احتاج الى امر آخر وهو المراقبة وهي لزوم ثغر القلب وحراسته ، لئلا يدخل منه العدو ، ولزوم ثغر العين ، والأذن واللسان ، والبطن واليد والرجل ، فهذه الثغور يدخل منها العدو فيجوس خلال الديار ويفسد ما قدر عليه ، فالمراقبة لزوم هذه الثغور ، ولا يخلى مكانها فيصادف العدو الثغر خاليا فيدخل منه ، فهؤلاء أصحاب رسول الله - ﷺ - خير الخلق بعد النبيين والمرسلين - صلى

(١) سورة الصف الآيات : ١٠ - ١٣

(٢) سورة آل عمران آية : ٢٠٠

الله عليهم وسلم - أجمعين - وأعظم حماية وحراسة من الشيطان الرجيم - وقد خلوا المكان الذي أمروا بلزومه يوم أحد فدخل منه العدو فكان ما كان - واجماع هذه الثلاثة وعمودها الذي تقوم به هو تقوى الله فلا ينفع الصبر ولا المصابرة ولا المراقبة إلا بالتقوى ولا تقوم التقوى الا على ساق الصبر ، فانظر الآن فيك الى إلتقاء الجيشين ، واصطدام العسكرين ، وكيف تداله مرة ويدال عليك أخرى ، اقبل ملك الكفرة بجنوده وعساكره فوجد القلب في حصنه جالسا على كرسى مملكته ، أمره نافذ في أعوانه وجنده قد حصنوا به ، يقاتلون عنه ، ويدافعون عن حوزته ، فلم يمكنهم الهجوم عليه إلا بمخامرة بعض أمرائه وجنده عليه ، فسأل عن أخص الجند به وأقربهم منه منزلة ، ف قيل له هي النفس ، فقال لأعوانه : أدخلوا عليها من مرادها وانظروا مواقع محبتها وما هو محبوبها فعدوها به ومنوها اياه وانقشوا صورة المحبوب فيها في يقظتها ومنامها ، فاذا اطمثت اليه وسكنت عنده فاطرحوا عليها كلاليب الشهوة وخطاطيفها ثم جروها بها اليكم ، فاذا خامرت على القلب وصارت معكم عليه ملكتم ثغر العين والأذن واللسان والفم واليد والرجل فرابطوا على هذه الثغور كل المراقبة ، فمتى دخلتم منها الى القلب فهو قتل أو أسير أو جريح مثخن بالجراحات ، ولا تخلوا هذه الثغور ولا تمكنوا سرية تدخل منها الى القلب فتخرجكم منها ، وان غلبتم فاجتهدوا في اضعاف السرية ووهنها ، حتى لا تصل الى القلب ، فان وصلت اليه وصلت ضعيفة لا تغني عنه شيئا ، فاذا استوليتم على هذه الثغور فامنعوا ثغر العين ان يكون نظره اعتبارا ، بل اجعلوا نظره تفرحا واستحسانا وتلهيا ، فان استرق نظرة عبثا فافسدوها عليه بنظر الغفلة والاستحسان والشهوة ، فانه اقرب اليه واعلق بنفسه وأخف عليه ، ودونكم ثغر العين فان منه تنالون بغيتكم ، فاني ما أفسدت بنى آدم بشيء مثل النظر فإني أبذر به في القلب بذر الشهوة ثم أسقيه بماء الأمنية ، ثم لا أزال أعده وأمنيه حتى أقوى عزيمته وأقوده بزمام الشهوة الى انخلاع من العصمة ، فلا تهملوا أمر هذا الثغر وأفسدوه بحسب استطاعتكم ، وهو نوا عليه أمره ، وقولوا له مقدار نظرة تدعوك الى تسبيح الخالق والرازق البديع، والتأمل والتجمل صفته ، وحسن هذه الصورة التي انما خلقت ليستدل بها الناظر عليه ، وما خلق الله لك العينين سدى ، وما خلق الله هذه الصورة ليحجبها عن النظر ، وإن ظفرتم به قليل العلم فاسد العقل ، فقولوا له هذه الصورة مظهرة من مظاهر الحق ومجلى من مجاليه فادعوه الى القول بالاتحاد ، فان لم يقبل فالقول بالحلل العام والخاص ولا تقنعوا منه بدون ذلك فانه يصير به من اخوان النصارى، فمروه حينئذ بالعفة والصيانة والعبادة والزهد في الدنيا - واصطادوا عليه الجهال فهذا من أقرب خلفائى واكبر جندى بل انا من جنده وأعوانه .

ثم امنعوا ثغر الأذن ان يدخل عليه ما يفسد عليكم الأمر ، فاجتهدوا الا تدخلوا منه الا الباطل ، فانه خفيف على النفس تستحليه وتستملحه ، وتخبروا له أعذب الألفاظ وأسحرها للألباب ، أمزجوه بما تهوى النفس مزجا ، وألقوا الكلمة فان رأيتم منه إصغاء اليها فزيده بأخواتها ، فكلما صادفتم منه استحسان شيء فاهجوا له بذكره ، وإياكم ان يدخل من هذا الثغر شيء من كلام الله أو كلام رسوله - ﷺ - أو كلام النصحاء ، فان غلبتم على ذلك ودخل شيء من ذلك فحولوا بينه وبين فهمه وتدبره والتفكر فيه والعظة به إما بإدخال ضده عليه وإما بتحويل ذلك وتعظيمه ، وان هذا امر قد

حيل بين النفوس وبينه فلا سبيل لها اليه ، وهو حمل ثقيل عليها لا تستقل به ونحو ذلك ، واما بإرخاصه على النفوس ، وان الاشتغال ينبغي ان يكون بما هو أعلى عند الناس واعز عليهم واغرب عندهم ، وزبونه اكثر ، واما الحق فهو مهجور والقائل به معرض نفسه للعدوان ولا ينبغي ، والربح بين الناس أولى بالاثار ونحو ذلك ، فيدخلون الباطل عليه في كل قالب يقبله ويخف عليه ، ويخرجون له الحق في كل قالب يكرهه ويثقل عليه ، واذا شئت ان تعرف ذلك فانظر الى اخوانهم من شياطين الانس كيف يخرجون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في قالب كثرة الفضول وتتبع عثرات الناس ، والتعرض من البلاء مالا يطيق ، والقاء الفتن بين الناس ونحو ذلك ، ويخرجون أتباع السنة ووصف الرب - تعالى - بما وصف به نفسه ووصفه به رسول الله - ﷺ - في قالب التشبيه والتجسيم والتكليف ، ويسمون علو الله على خلق خلقه واستوائه على عرشه ومباينته لمخلوقاته تحيزا ، ويسمون نزوله الى سماء الدنيا وقوله من يسألني فأعطيه تحركا وانتقالا ، ويسمون ما وصف به نفسه من اليد والوجه أعضاء وجوارح ، ويسمون ما يقوم به من أفعاله حوادث ، وما يقوم من صفاته أعراضا ، ثم يتوصلون الى نفى ما وصف به نفسه بهذه الأمور ، ويوهمون الأغمار وضعفاء البصائر أن اثبات الصفات التي نطق بها كتاب الله وسنة رسوله - ﷺ - تستلزم هذه الأمور ، ويخرجون هذا التعطيل في قالب التنزيه والتعظيم ، وأكثر الناس ضعفاء العقول يقبلون الشيء بلفظ ، ويردونه بعينه بلفظ آخر ، قال الله - تعالى - ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم الى بعض زخرف القول غرورا ﴾ ^(١) فسماء زخرفا وهو القول الباطل بلان صاحبه يزخرفه ويزينه ما استطاع ويلقيه الى سمع المغرور فيغتر به ، والمقصود ان الشيطان قد لزم ثغر الاذن ان يدخل فيها ما يضر العبد ، ويمنع ان يدخل اليها ما ينفعه ، وان دخله بغير اختياره أفسده عليه .

ثم يقول : قوموا على ثغر اللسان فانه الثغر الأعظم وهو قبالة الملك فأجروا عليه من الكلام ما يضره ولا ينفعه وامنعوا ان يجرى عليه شيء مما ينفعه من ذكر الله واستغفاره وتلاوة كتابه ونصيحة عباده ، أو التكلم بالعلم النافع ، ويكون لكم في هذا الثغر أثران عظيمان لا تبالون بأيهما ظفرتما . أحدهما : التكلم بالباطل فإنما المتكلم بالباطل أخ من إخوانكم ومن أكبر جندكم وأعوانكم ، الثاني : السكوت عن الحق فان الساكت عن الحق أخ لكم أخرس كما أن الاول أخ لكم ناطق ، وربما كان الأخ الثاني أنفع لإخوانكم لكم ، أما سمعتم قول الناصح المتكلم بالباطل شيطان ناطق ، والساكت عن الحق شيطان أخرس ، فالرباط الرباط على هذا الثغر ان يتكلم بحق أو يمسك عن باطل ، وزينوا له التكلم بالباطل بكل طريق ، وخوفوه من التكلم بالحق بكل طريق ، واعلموا يا بني ان ثغر اللسان هو الذي أهلك منه بنو آدم وأكبهم منه على مناخرهم في النار ، فكم لى من قتيل وأسير وجريح أخذته من هذا الثغر ، وأوصيكم بوصية فاحفظوها : لينطق أحدكم على لسان أخيه من الانس بالكلمة ، ويكون الآخر على لسان السامع فينطق باستحسانها وتعظيمها والتعجب منها ، ويطلب من أخيه اعادتها ، وكونوا .

أعوانا على الانس بكل طريق ، وادخلوا عليهم من كل باب ، واقعدوا لهم كل مرصد ، أما سمعتم
قسمى الذى أقسمت به لربهم حيث قلت : ﴿ قال فيها أغويتنى لأقعدن لهم صراطك المستقيم ﴾ ثم

لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمنهم وعن شمائلهم ولا نجد أكثرهم شاكرين ﴿^(١)﴾ . أما ترونى قد
قعدت لابن آدم بطرقه كلها فلا يفوتنى من طريق إلا قعدت له من طريق غيره حتى أصبت منه حاجتى أو

بعضها ، وقد حذرهم ذلك رسول الله - ﷺ - وقال لهم : إن الشيطان قد قعد لابن آدم بطرقه كلها قعد
له بطريق الاسلام فقال له : أتسلم وتذر دينك ودين آبائك ؟ فخالفه وأسلم فقد له بطريق الهجرة
فقال : أتهاجر وتذر أرضك وسماءك ؟ فخالفه وهاجر ثم قعد له بطريق الجهاد فقال : أتجاهد فتقتل
ويقسم المال وتنكح الزوجة ؟ فخالفه وجاهد فهكذا فاقعدوا لهم بكل طريق الخير ، فإذا أراد أحدهم ان
يتصدق فاقعدوا له على طريق الصدقة فقولوا له فى نفسه : أخرج المال وتبقى مثل هذا السائل وتصير
بمنزلة أنت وهو سواء ، أو ما سمعتم ما ألقيته على لسان رجل سأل آخر أن يتصدق عليه قال : أموالنا
إذا أعطيناكموها صرنا مثلكم ، واقعدوا له بطريق الحج فقولوا له : طريقة مخوفة مشقة يتعرض سالكها
لتلف النفس والمال ، وهكذا فاقعدوا له على سائر طرق الخير بالتنفير منها وذكر صعوبتها وآفاتنا ثم
اقعدوا على المعاصي فحسنوها فى عين بنى آدن وزينوها فى قلوبهم ، واجعلوا اكبر أعوانكم على ذلك
النساء فمن أبوابهن فادخلوا عليهم فنعم العون هن لكم ، ثم الزموا ثغر اليدين والرجلين فامنعوها أن
تبطن بما يضركم أو تمشى فيه ، واعلموا إن اكبر أعوانكم على لزوم هذه الثغور مصالحة النفس الأمانة
فأعينوها واستعينوا بها وأمدوها واستمدوا منها وكونوا معها على حرب النفس المطمئنة ، فاجتهدوا فى
كسرها وإبطال قواها ولا سبيل إلى ذلك إلا بقطع مواردها عنها فإذا انقطعت مواردها عنها وقويت موارد
النفس الأمانة وطاعت لكم أعوانها فاستنزلوا القلب من حصنه وأعزلوه عن مملكته وولوا مكانه النفس ،
فإنها لا تأمر إلا بما تهوونه وتحبونه ولا تجبكم بما تكرهونه البتة مع أنها لا تخالفكم فى شيء تشيرون به
عليها بل إذا اشرتم عليها بشيء بادرت إلى فعله ، فإن أحسستم من القلب منازعة إلى مملكته وأردتم
الأمّن من ذلك فاعقدوا بينه وبين النفس عقد النكاح ، فزينوها وجملوها وأروها إياه فى أحسن صورة
عروس توجد ، وقولوا له ذق حلاوة طعم هذا الوصال والتمتع بهذه العروس كما ذقت طعم الحرب
وباشرت مرارة الطعن والضرب ، ثم وازن بين لذة هذه المسألة ومرارة تلك المحاربة ، فدع الحرب
تضع أوزارها فليست بيوم وينقضى ، وإنما هو حرب متصل بالموت وقواك تضعف عن الحرب الدائم
واستعينوا يا بنى بجندين عظيمين لن تغلبوا معهما . أحدهما : جند الغفلة فاغفلوا قلوب بنى آدم عن
الله - تعالى - والدار الآخرة بكل طريق فليس لكم شيء أبلغ من تحصيل غرضكم من ذلك فإن القلب
إذا غفل عن الله - تعالى - تمكنت منه ومن أعوانه الثانى : جند الشهوة فزينوها فى قلوبهم وحسنوها فى
أعينهم ، وصولوا عليهم بهذين العسكرين ، فليس لكم فى بنى آدم أبلغ منها ، واستعينوا على الغفلة
بالشهوات وعلى الشهوات بالغفلة ، واقربوا بين الغافلين ثم استعينوا بهما على الذاك ، ولا يغلب واحد

خمسة فإن مع الغافلين شيطانين صاروا أربعة ، وشيطان الذاكر معهم ، وإذا رأيتم جماعة مجتمعين على ما يضركم من ذكر الله ومذاكرة أمره ونهيه ودينه ولم تقدرُوا على تفريقهم فاستعينوا عليهم ببني جنسهم من الإنس البطالين ، فقربوهم منهم ، وشوشوا عليهم بهم ، وبالجملَة فاعدوا للأمور أقرانها وادخلوا على كل واحد من بني آدم من باب إرادته وشهوته فساعدوه عليها ، وكونوا له أعوانا على تحصيلها ، وإذا كان الله قد أمرهم بالصبر أن يصبروا لكم ويصابروكم ويرابطوا عليكم الثغور فاصبروا أنتم وصابروا ورابطوا عليهم بالثغور ، وانتهزوا فرصتكم فيهم عند الشهوة والغضب فلا تصطادوا بني آدم في أعظم من هذين الموطنين ، واعلموا أن منهم من يكون سلطان الشهوة عليه أغلب وسلطان غضبه ضعيف مقهور ، فخذوا عليه طريق الشهوة ودعوا طريق الغضب ، ومنهم من يكون سلطان الغضب عليه أغلب فلا تخلوا طريق الشهوة عليه ، ولا تعطلوا ثغرها فإن من لم يملك نفسه فانه بالحرى ألا يملكها عند الشهوة ، فزوجوا بين غضبه وشهوته ، وأمزوجوا أحدهما بالآخر ، وادعوه الى الشهوة من باب الغضب والى الغضب من طريق الشهوة ، واعلموا أنه ليس لكم في بني آدم سلاح أبلغ من هذين السلاحين ، وإنما أخرجت أبويهم من الجنة بالشهوة ، وإنما ألقيت العداوة بين أولادهم بالغضب ، فبه قطعت أرحامهم وسفكت دماءهم ، وبه قتل أحدا بني آدم أخاه ، واعلموا أن الغضب جرة في قلب ابن آدم ، والشهوة نار تثور من قلبه ، وإنما تطفأ النار بالماء والصلاة والذكر والتكبير ، وإياكم أن تمكثوا ابن آدم عند غضبه وشهوته من قربان الوضوء والصلاة ، فإن ذلك يطفىء عنهم نار الغضب والشهوة وقد أمرهم نبيهم بذلك .

وقال : إن الغضب جرة في قلب ابن آدم أما رأيتم من احمرار عينيه وانتفاخ أوداجه فمن أحسن بذلك فليتوضأ . وقال لهم : إنما تطفأ النار بالماء وقد أوصاهم الله أن يستعينوا عليكم بالصبر والصلاة فحولوا بينهم وبين ذلك ، وانسوهم إياه ، واستعينوا عليهم بالشهوة والغضب ، وأبلغ أسلحتكم فيهم وأنكأها الغفلة واتباع الهوى ، واعظم أسلحتهم فيكم وأمنهم حصونهم ذكر الله ومخالفة الهوى ، فإذا رأيتم الرجل مخالفا لهواه فاهربوا من ظلمه ولا تدنوا منه ، والمقصود أن الذنوب والمعاصي سلاح ومدد يمد بها العبد أعداءه ويعينهم بها على نفسه ، فيقاتلونه بسلاحه ، والجاهل يكون معهم على نفسه وهذا غاية الجهل ، قال : ما يبلغ الأعداء من جاهل ما يبلغ الجاهل من نفسه ومن العجائب أن العبد يسعى بنفسه ، في هوان نفسه وهو يزعم أنه لها مكرم ويجتهد في حرمانها من حظوظها واشراقها ، وهو يزعم أنه يسعى في حظها ويبذل جهده في تحقيرها وتصغيرها وتدنيها ، وهو يزعم أنه يسعى في صلاحها ويعليها ويرفعها ويكبرها ، وكان بعض السلف يقول في خطبته ألا رب مهين لنفسه وهو يزعم أنه لها مكرم ، ومذل لنفسه وهو يزعم أنه لها معز ، ومصغر لنفسه وهو يزعم أنه لها مكبر ، ومضيع لنفسه وهو يزعم أنه مراع لحقها ، وكفى بالمرء جهلاً أن يكون مع عدوه على نفسه يبلغ منها بفعله مالا يبلغه عدوه والله المستعان .

ومن عقوباتها : أنها تنسى العبد نفسه فإذا نسي نفسه أهملها وأفسدها وأهلكها ، فإن قيل : كيف ينسى العبد نفسه وإذا نسي نفسه فأى شيء يذكره وما معنى نسيانه نفسه قيل : نعم ينسى نفسه أعظم

نسيان ، قال تعالى : ﴿ ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون ﴾^(١) فلما نسوا ربهم - سبحانه - نسيهم وأنساهم أنفسهم كما قال الله تعالى : ﴿ نسوا الله فنسيهم ﴾^(٢) فعاقب سبحانه من نسيه عقوبتين أحدهما : أنه سبحانه نسيه ، والثانية : أنه أنساه نفسه ، ونسيانه سبحانه للعبد إهماله وتركه وتخليه عنه وإضاعته ونسيانه ، فاهلاك أدنى إليه من اليد للقم ، وأما إنساؤه نفسه فهو انساؤه لحفظها العالية وأسباب سعادتها وفلاحها واصلحها وما يكملها ، ينسيه ذلك كله جميعه فلا يخطر بباله ولا يجعله على ذكره ولا يصرف إليه همته فيرغب فيه ، فإنه لا يمر بباله حتى يقصده ويؤثره وأيضا فينسيه عيوب نفسه ونقصها وآفات ، فلا يخطر بباله إزالتها واصلحها ، وأيضا فينسيه أمراض نفسه وقلبه وآلامها فلا يخطر بقلبه مداواتها ولا السعى في إزالة عللها وامراضها التي تؤول بها إلى الفساد والهلاك ، فهو مريض مثخن بالمرض ومرضه مترام به إلى التلف ، ولا يشعر بمرضه ولا يخطر بباله مداواته ، وهذا من أعظم العقوبة للعامة والخاصة ، فأى عقوبة أعظم من عقوبة من أهمل نفسه وضعفها ونسي مصالحها وداءها ودواءها ، وأسباب سعادتها واصلحها وفلاحها وحياتها الأبدية في النعيم المقيم .

ومن تأمل هذا الموضع تبين له أن أكثر هذا الخلق قد نسوا أنفسهم حقيقة وضعفها وأضاعوا حظها من الله ، وباعوها رخيصة بثمان بخس بيع الغبن ، وإنما يظهر لهم هذا عند الموت ، ويظهر هذا كل الظهور يوم التغابن ، يوم يظهر للعبد أنه غبن في العقد الذي عقده لنفسه في هذه الدار ، والتجارة التي اتجر فيها لمعاده ، فإن كل أحد يتجر في هذه الدنيا لآخرته ، فالحاسرون الذين يعتقدون أنهم أهل الربح والكسب ، اشتروا الحياة الدنيا وحظهم فيها فأذهبوا طيباتهم ولذاتهم بالآخرة ، وحظهم فيها في حياتهم الدنيا وحظهم فيها ولذاتهم بالآخرة واستمتعوا بها ورضوا بها واطمأنوا إليها وكان يسعيهم لتحصيلها فباعوا واشتروا واتجروا وباعوا أجلا بعاجل ونسيئة بنقد وغائبا بناجز وقالوا هذا هو الزهرة ، ويقول أحدهم : خذ ما تراه ودع شيئا سمعت به ، فكيف أبيع حاضرا نقدا شاهدا في هذه الدار بغائب نسيئة في دار أخرى غير هذه ، وينضم إلى ذلك ضعف الإيمان وقوة داعي الشهوة ومحبة العاجلة والتشبه ببنى الجنس ، فأكثر الخلق في هذه التجارة الخاسرة التي قال الله في أهلها : ﴿ أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون ﴾^(٣) وقال فيهم : ﴿ فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين ﴾^(٤) فإذا كان يوم التغابن ظهر لهم الغبن في هذه التجارة ، فتقطع عليهم النفوس حسرات ، وأما الرابحون فإنهم باعوا فانيا بباقي ، وخسيسا بنفيس ، وحقيرا بعظيم ، وقالوا : ما مقدار هذه الدنيا من أولها إلى آخرها حتى نبيع حظنا من الله - تعالى - والدار الآخرة بها ، فكيف بما ينال العبد منها في هذا الزمن القصير الذي هو في الحقيقة كغفوة حلم لا نسبة له إلى دار القرار البتة ، قال تعالى : ﴿ ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار يتعارفون بينهم ﴾^(٥) وقال تعالى : ﴿ يسألونك عن الساعة أيان مرساها * فيم أنت من ذكراها * إلى ربك منتهاها * انما أنت منذر من يخشاها * كأنهم

(٣) سورة البقرة من الآية : ٨٦

(٤) سورة البقرة من الآية : ١٦

(٥) سورة يونس من الآية : ٤٥

(١) سورة الحشر من الآية : ١٩

(٢) سورة التوبة من الآية : ٦٧

يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها ﴿١﴾ وقال تعالى : ﴿ كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار بلاغ ﴾ ﴿٢﴾ وقال تعالى : ﴿ قال كم لبثتم في الأرض عدد سنين قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم فاسأل العادين ﴾ قال إن لبثتم إلا قليلا لو أنكم كنتم تعلمون ﴿٣﴾ وقال تعالى : ﴿ ويوم ينفخ في الصور ونحشر المجرمين يومئذ زرقا ﴾ يتخافتون بينهم ان لبثتم إلا عشرا ﴿ نحن أعلم بما يقولون اذ يقول أمثلهم طريقة إن لبثتم إلا يوما ﴾ ﴿٤﴾ فهذه حقيقة هذه الدنيا عند موافاة يوم القيامة فلما علموا قلة لبثهم فيها ، وان لهم دارا غير هذه الدار دار الحيوان ودار البقاء ، رأوا من أعظم الغبن بيع دار البقاء بدار الفناء ، فاتجروا بتجارة الأكياس ، ولم يغتروا بتجارة السفهاء من الناس ، فظهر لهم ربح تجارتهم ومقدار ما شروه ، وكل أحد في هذه الدنيا بائع مشتر متجر ، وكل الناس يفد فبايع نفسه فمعتقها أو موبقها ﴿ ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا في التوراة والانجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم ﴾ ﴿٥﴾ فهذا أول نقد من ثمن هذه التجارة ، فتاجروا أيها المفلسون ويامن لا يقدر على هذا الثمن ، ههنا ثمن آخر فان كنت من أهل هذه التجارة فأعط هذا الثمن ﴿ التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الأمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين ﴾ ﴿٦﴾ يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ﴿ تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾ ﴿٧﴾ والمقصود ان الذنوب تنسى العبد حظه من هذه التجارة الرباحة وتشغله بالتجارة الخاسرة وكفى بذلك عقوبة والله المستعان .

ومن عقوباتها : أنها تزيل النعم الحاضرة وتقطع النعم الواصلة فتزيل الحاصل وتمنع الواصل ، فإن نعم الله ما حفظ موجودها بمثل طاعته ، ولا استجلب مفقودها بمثل طاعته ، فإن ما عند الله لا ينال إلا بطاعته ، وقد جعل الله - سبحانه - لكل شيء سببا وآفة - سببا يجلبه وآفة تبطله ، فجعل أسباب نعمه الجالبة لها طاعته وآفات المانعة منها معصيته ، فإذا أراد حفظ نعمته على عبده ألهمه رعايتها بطاعته فيها ، وإذا أراد زوالها عنه خذله حتى عصاه بها ، ومن العجب علم العبد بذلك مشاهدة في نفسه وغيره ، وسماعا لما غاب عنه من أخبار من أزيلت نعم الله عنهم بمعاصيه وهو مقيم على معصيته الله ، كأنه مستثنى من هذه الجملة ، أو مخصوص من هذا العموم وكأن هذا أمر جار على الناس لا عليه ، وواصل إلى الخلق لا إليه ، فأى جهل أبلغ من هذا وأى ظلم للنفس فوق هذا فالحكم لله العلى الكبير .

ومن عقوباتها : أنها تباعد عن العبد وليه ، وأنصح الخلق له ، وأنفعهم له ، ومن سعادته في قربه منه ، وهو الملك الموكل به ، وتدنى منه عدوه وأغش الخلق له وأعظمهم ضررا له وهو الشيطان ، فان العبد إذا عصى الله تباعد منه الملك بقدر تلك المعصية ، حتى إنه يتباعد منه بالكذبة الواحدة مسافة

(١) سورة النازعات الآيات : ٤٢ - ٤٦

(٢) سورة الاحقاف من الآية : ٣٥

(٣) سورة المؤمنون الآيات : ١١٢ - ١١٤

(٤) سورة طه الآيات : ١٠٢ - ١٠٤

(٥) سورة التوبة اية : ١١١

(٦) سورة التوبة آية : ١١٢

(٧) سورة الصف الايتان : ١٠ ، ١١

بعيدة ، وفي بعض الآثار إذا كذب العبد تباعد منه الملك ميلا من تنن ريحه ، فإذا كان هذا تباعد الملك منه من كذبة واحدة ، فماذا يكون قدر تباعده منه مما هو أكبر من ذلك وأفحش منه ، وقال بعض السلف : إذا ركب الذكر عجت الأرض إلى الله وهربت الملائكة إلى ربها وشكت إليه عظم ما رأت ، وقال بعض السلف : إذا أصبح ابن آدم ابتدره الملك والشیطان ، فإن ذكر الله وكبره وحمده وهله طرد الملك الشیطان وتولاه ، وإن افتتح بغير ذلك ذهب الملك عنه وتولاه الشیطان ، ولا يزال الملك يقرب من العبد حتى يصير الحكم والطاعة والغلبة له فتتولاه الملائكة في حياته وعند موته وعند مبعثه ، قال الله - تعالى : ﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون ، نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ﴾ (١) وإذا تولاه الملك تولاه أنصح الخلق له وأنفعهم وأبرهم له فثبته وعلمه وقوى جنانه وأيده ، قال تعالى : ﴿ إذ يوحى ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا ﴾ (٢) ويقول الملك عند الموت لا تخف الموت ، وفي القبر عند المسألة فليس أحد أنفع للعبد من صحبة الملك له ، وهو وليه في يقظته ومنامه وحياته وعند موته وفي قبره ، ومؤنسه في وحشته ، وصاحبه في خلوته ، ومحدثه في سره ويحارب عنه عدوه ، ويدافع عنه ، ويعينه عليه ، ويعده بالخير ويبشره به ، ويحثه على التصديق بالحق ، كما جاء في الأثر الذي يروى مرفوعا وموقوفا !! للملك بقلب ابن آدم لمة وللشیطان لمة ، فلمة الملك إبعاد بالخير وتصديق بالوعد ، ولمة الشیطان إبعاد بالشر وتكذيب بالحق ، وإذا اشتد قرب الملك من العبد تكلم على لسانه ، وألقى على لسانه القول السديد ، وإذا أبعد منه وقرب الشیطان من العبد تكلم على لسانه قول الزور والفحش ، حتى يرى الرجل يتكلم على لسان الملك ، والرجل يتكلم على لسان الشیطان وفي الحديث : (إن السكينة تنطق على لسان عمر - رضي الله عنه) وكان أحدهم يسمع الكلمة الصالحة من الرجل الصالح فيقول ما ألقاها على لسانك إلا الملك ، ويسمع ضدها فيقول ما ألقاها على لسانك إلا الشیطان ، فالملك يلقي في القلب الحق ويلقيه على اللسان ، والشیطان يلقي الباطل في القلب ويجريه على اللسان .

فمن عقوبة المعاصي : أنها تبعد من العبد وليه الذي سعادته في قربه ومحاورته وموالاته ، وتدني منه عدوه الذي شقاؤه وهلاكه وفساده في قربه وموالاته ، حتى إن الملك لينافح عن العبد ويرد عنه إذا سفه عليه السفیه وسبه ، كما اختصم بين يدي النبي - ﷺ - رجلان فجعل أحدهما يسب الآخر وهو ساكت فتكلم بكلمة يرد بها على صاحبه ، فقام النبي - ﷺ - فقال : يا رسول الله ، لما رددت عليه بعض قوله قمت ، فقال : كان الملك ينافح عنك ، فلما رددت عليه جاء الشیطان ، فلم أكن لأجلس (وإذا دعا العبد المسلم في ظهر الغيب لأخيه أمن الملك على دعائه فقال : ولك بمثل ذلك ، وإذا فرغ من قراءة الفاتحة أمن على دعائه ، فإذا أذنب العبد الموحد المتبع سبيله وسنة رسوله - ﷺ - استغفر له حملة العرش ومن حوله ، وإذا نام العبد المؤمن بات في شعاره ملك ، فملك المؤمن يرد عليه ويحارب ويدافع عنه ويعلمه ويثبته ويشجعه فلا يليق به أن ينسى جواره ويبالغ في أذاه وطرده عنه وإبعاده ، فإنه ضيفه

(١) سورة فصلت الآية : ٣٠ وجزء من الآية : ٣١

(٢) سورة الانفال من الآية : ١٢

وجاره ، وإذا كان اكرام الضيف من الأدميين والإحسان إلى الجار من لزوم الإيمان وموجباته فما الظن بإكرام أكرم الأضياف وخير الجيران وأبرهم ، وإذا أذى العبد الملك بأنواع المعاصي والظلم والفواحش دعا عليه ربه وقال : لا جزاك الله خيرا ، كما يدعو له إذا أكرمه بالطاعة والإحسان ، قال بعض الصحابة - رضى الله عنهم : ان معكم من لا يفارقكم فاستحيوا منهم وأكرمواهم ، والأهم ممن لا يستحي من الكريم العظيم القادر ولا يكرمه ولا يوقره وقد نبه سبحانه على هذا المعنى بقوله : ﴿ وَإِنْ عَلَيْكُمْ لِحَافِظِينَ ﴾ كراما كاتبين * يعلمون ما تفعلون ﴿^(١) أى استحيوا من هؤلاء الحافظين الكرام وأكرمواهم وأجلوهم أن يروا منكم ما تستحيون أن يريكم عليه من هو مثلكم ، والملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم ، وإذا كان ابن آدم يتأذى ممن يفجر ويعصى بين يديه وإن كان قد يعمل مثل عمله فما الظن بأذى الملائكة الكرام الكاتبين والله المستعان .

ومن عقوباتها : أنها تستجلب مراد هلاك العبد في دنياه وآخرته فإن الذنوب هي أمراض القلوب متى استحسنت قتلت ولا بد ، وكما أن البدن لا يكون صحيحا إلا بغذاء يحفظ قوته واستفراغ يستفرغ المواد الفاسدة والاخلط الرديء التي متى غلبت عليه أفسدته جميعه ، وحمية يمتنع بها من تناول ما يؤذيه ويخشى ضرره ، فكذلك القلب لا تتم حياته إلا بغذاء من الإيمان والأعمال الصالحة تحفظ قوته ، واستفراغ بالتوبة النصوح يستفرغ المواد الفاسدة والأخلط الرديء منه ، وحمية توجب له حفظ صحته ويجتنب ما يضادها ، وهي عبارة عن ترك استعمال ما يضاد الصحة ، والتقوى اسم يتناول هذه الأمور الثلاثة ، فما فات منها فات من التقوى بقدره ، وإذا تبين هذا فالذنوب مضادة لهذه الأمور الثلاثة ، فانها تستجلب المواد المؤذية وتستوجب التخليط المضاد للجميع وتمنع الاستفراغ بالتوبة النصوح ، فانظر الى بدن عليل قد تراكمت عليه الأخلط ومواد المرض وهو لا يستفرغها ولا يحتذى لها كيف تكون صحته وبقاؤه ولقد أحسن القائل :

جسمك بالحمية أحصته مخافة من ألم طارى
وكان أولى بك أن تحتذى من المعاصي خشية البارى

فمن حفظ القوة بامثال الأوامر واستعمل الحمية باجتناب النواهي واستفرغ التخليط بالتوبة النصوح لم يدع للخير مطلبا ولا من الشر مهربا والله المستعان .

فان لم ترعك هذه العقوبات ولم تجد لها تأثيرا في قلبك فأحضره العقوبات الشرعية التي شرعها الله ورسوله على الجرائم ، كما قطع السارق في ثلاثة دراهم ، وقطع اليد والرجل على قطع الطريق على معصوم المال والنفس، وشق الجلد بالسوط على كلمة قذف بها المحصن أو قطرة خمر يدخلها جوفه ، وقتل بالحجارة أشنع قتلة في إيلاج الحشفة في فرج حرام ، وخفف هذه العقوبة عمن لم تتم عليه نعمة الاحصان بمائة جلدة وينفى سنة عن وطنه وبلده إلى بلد الغربة ، وفرق بين رأس العبد وبدنه إذا وقع على ذات محرم أو ترك الصلاة المفروضة أو تكلم بكلمة كفر ، وأمر بقتل من وطئ ذكرا مثله ، وقتل

المفعول به ، وأمر بقتل من أتي بهيمة ، وقتل البهيمة معه ، وغرم على تحريق بيوت المتخلفين عن الصلاة في الجماعة ، وغير ذلك من العقوبات التي رتبها الله على الجرائم ، وجعلها بحكمته على حسب الدواعي إلى تلك الجرائم ، وحسب الوازع عنها ، فما كان الوازع طبعيا وما ليس في الطباع داعيا إليه اكتفاء بالتحريم مع التعزير ولم يرتب عليه حدا ، كأكل الرجيع، وشرب الدم وأكل الميتة وما كان في الطباع داعيا إلى ترتب عليه من العقوبة بقدر مفسدته وبقدر داعي الطبع إليه ، ولهذا لما كان داعي الطباع إلى الزنا من أقوى الدواعي كانت عقوبته العظمى من أشنع القتلات وأعظمها وعقوبته السهلة على أنواع : الجلد مع زيادة التعذيب ، ولما كان اللواط في الأمان كان حده القتل بكل حال ، ولما كان داعي السرقة قويا ومفسدتها كذلك قطع فيها اليد ، وتأمل حكمته في افساد العضو الذي باشر به الجناية ، كما أفسد على قاطع الطريق يده ورجله اللتين هما آلة قطعه ، ولم يفسد على القاذف لسانه الذي جنى به، إذ مفسدة قطعه تزيد على مفسدة الجناية ولا يبلغها فاكتفى من ذلك بإيلاام جميع بدنه بالجلد ، فان قيل : فهلا أفسد على الزاني فرجه الذي باشر به المعصية ؟ قيل بوجوه :

أحدها : أن مفسدة ذلك تزيد على مفسدة الجناية إذ فيه قطع النسل وتعرضه للهلاك .

الثاني : أن الفرج عضو مستور لا يحصل بقطعه مقصود الحد من الردع والزجر لأمثاله من الجناية

بخلاف قطع اليد .

الثالث : أنه إذا قطع يده أبقى له يد أخرى تعوض عنها بخلاف الفرج .

الرابع : أن لذة الزنا عمت جميع البدن فكان الأحسن أن تعم العقوبة جميع البدن وذلك أولى من

تخصيصها ببضعة منه .

فعقوبات الشارع جاءت على أتم الوجوه وأوفقها للعقل وأقومها بالمصلحة ، والمقصود أن الذنوب

انما ترتب عليها العقوبات الشرعية والقدرية أو يجمعها الله على العبد وقد يرفعها عن تاب وأحسن .

وعقوبات الذنوب نوعان : شرعية وقدرية .

فإذا أقيمت الشرعية رفعت العقوبات القدرية أو خففها ولا يكاد الرب - تعالى - يجمع على عبده

بين العقوبتين إلا إذا لم تف إحداها برفع موجب الذنب ، ولم يكن في زوال دائه ، وإذا عطلت

العقوبات الشرعية استحالت قدرية وربما كانت أشد من الشرعية ، وربما كانت دونها ، ولكنها تعم ،

والشرعية تخص ، فإن الرب - تبارك وتعالى - لا يعاقب شرعا إلا من باشر الجناية أو تسبب إليها .

وأما العقوبة القدرية فانها تقع عامة وخاصة : فإن المعصية إذا خفيت لم تضر إلا صاحبها ، وإذا

أعلنت ضرت الخاصة والعامة ، وإذا رأوا الناس المنكر فاشتركوا في ترك انكاره ، أو شك أن يعمهم

الله - تعالى - بعقابه ، وقد تقدم أن العقوبة الشرعية شرعها الله - سبحانه - على قدر مفسدة الذنب

وتقاضى الطبع لها وجعلها سبحانه ثلاثة أنواع : القتل ، والقطع ، والجلد . وجعل القتل بإزاء الكفر

وما يليه ويقر به وهو الزنا واللواط ، فإن هذا يفسد الأديان ، وهذا يفسد الانسان . قال الامام أحمد

رحمه الله : لا أعلم بعد القتل ذنبا أعظم من الزنا واحتج بحديث عبد الله بن مسعود أنه قال يارسول

الله : (أي الذنب أعظم ؟ قال : ان تجعل لله ندا وهو خلقك ، قال : قلت ثم أي ؟ قال : أن تقتل

ولذلك مخافة أن يطعم معك . قال : قلت ثم أى ؟ قال : أن تزنى بحليلة جارك . فأنزل تصديقها في كتابه : ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ﴾ (١) الآية .. والنبي - ﷺ - ذكر كل نوع أعلاه ليطابق جوابه سؤال السائل فانه سئل عن أعظم الذنب فأجابه بما تضمن ذكر أعظم أنواعها ، وما هو أعظم كل نوع . فاعظم أنواع الشرك أن يجعل العبد لله ندا .

وأعظم أنواع القتل أن يقتل ولده خشية أن يشاركه في طعامه وشرابه .
وأعظم أنواع الزنا أن يزنى بحليلة جاره ، فإن مفسدة الزنا تتضاعف بتضاعف ما انتهكه من الحق ، فالزنا بالمرأة التي لها زوج أعظم إثماً وعقوبة من التي لا زوج لها ، إذ فيه انتهاك حرمة الزوج ، وإفساد فراشه ، وتعليق نسب عليه لم يكن منه ، وغير ذلك من أنواع أذاه ، فهو أعظم إثماً وجرمًا من الزنا بغير ذات البعل ، فإن كان زوجها جاراً له أنضاف إلى ذلك سوء الجوار ، وإذا أجاره بأعلى أنواع الأذى وذلك من أعظم البوائق ، وقد ثبت عن النبي - ﷺ - أنه قال : (٢) (لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه) ولا بائقة أعظم من الزنا بإمرأته ، فالزنا بمائة امرأة لا زوج لها أيسر عند الله من الزنا بامرأة الجار ، فإن كان الجار أخاً له أو قريباً من أقاربه انضم إلى ذلك قطيعة الرحم ، فيتضاعف الإثم ، فإن كان الجار غائباً في طاعة الله كالصلاة ، وطلب العلم ، والجهاد ، تضاعف الإثم ، حتى إن الزاني بإمرأة الغازي في سبيل الله يوقف له يوم القيامة ويقول : خذ من حسناته ما شئت قال - النبي - ﷺ (٣) : (فما ظنكم أى ما ظنكم أنه يترك له من حسنات قد حكم في أن يأخذ منها ما شاء على شدة الحاجة إلى حسنة واحدة حيث لا يترك الأب لابنه ولا الصديق لصديقه حقاً يجب عليه) فإن اتفق أن تكون المرأة رحماً منه أنضاف إلى ذلك قطيعة رحمها ، فإن اتفق على أن يكون الزاني محصناً كان الإثم أعظم ، فإن كان شيخاً كان أعظم إثماً وهو أحد الثلاثة الذين لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم ، فإن اقترن بذلك أن يكون في شهر حرام ، أو بلد حرام ، أو وقت معظم عند الله ، كأوقات الصلاة ، وأوقات الإجابة ، تضاعف الإثم ، وعلى هذا فاعتبر مفسد الذنوب وتضاعف درجاتها في الإثم والعقوبة . والله المستعان .

وجعل سبحانه القطع بإزاء إفساد الأموال الذي لا يمكن الاحتراز منه ، فإن السارق لا يمكن الاحتراز منه لأنه يأخذ الأموال في الاختفاء ، وينقب الدور ويتسور من غير الأبواب ، فهو كالصقور والحية التي تدخل عليك من حيث لا تعلم ، فلم ترفع مفسدة سرقة إلى القتل ولا تندفع بالجلد ،

(١) مسند الإمام أحمد ج ١ ص ٣٨٠ ورد هذا الحديث وكذا في ص ٤٣١ ، ٤٣٤ ، ٤٦٢ ، ٤٦٤ من رواية عبد الله مع اختلاف يسير في بعض الفاظه .

انظر سنن النسائي ج ٧ ص ٨٢ باب ذكر أعظم الذنوب ورد هذا الحديث عن عبد الله مع اختلاف يسير في بعض الفاظه . سورة الفرقان من الآية : ٦٨ .

(٢) صحيح مسلم كتاب الإيمان باب بيان تحريم إيذاء الجار ج ١ ص ٦٨ حديث رقم ٧٣ ورد الحديث بلفظه عن أبي هريرة .

(٣) صحيح مسلم كتاب الإمارة باب حرمة نساء المجاهدين ، واثم من خانهم فيهن ج ٣ رقم ١٥٠٨ برقم ١٣٩ .

فأحسن ما دفعت به مفسدته أبانة العضو الذي تسلط به على الجناية ، وجعل الجلد بإزاء إفساد العقول وتمزيق الأعراض بالقذف فدارت عقوباته - سبحانه - الشرعية على هذه الأنواع الثلاثة ، كما دارت الكفارات على ثلاثة أنواع :

العتق وهو أعلاها .

والإطعام والصيام .

ثم جعل سبحانه الذنوب ثلاثة أقسام :

قسم فيه الحد فهذا لم يشرع فيه كفارة اكتفاء بالحد .

وقسم لم يترتب عليه حد فشرع فيه كفارة كالوطة في نهار رمضان ، والوطة في الإحرام ،

والظهار ، وقتل الخطأ والحنث في اليمين ، وغير ذلك .

وقسم لم يترتب عليه حد ولا كفارة وهو نوعان :

أحدهما ما كان الوازع عنه طبيعياً كأكـل العذرة ، وشرب البول والدم .

والثاني ما كانت مفسدته أدنى من مفسدة ما رتب عليه الحد كالنظرة ، والقبلة واللمس ،

والمحاذنة ، وسرقة فلس ، ونحو ذلك وشرع الكفارات في ثلاثة أنواع :

أحدها : ما كان مباح الأصل ثم عرض تحريمه فباشره في الحالة التي عرض فيها التحريم كالوطة

في الإحرام ، والصيام ، وطرده الوطء في الحيض ، والنفاس ، بخلاف الوطء في الدبر ، ولهذا كان

إلحاق بعض الفقهاء له بالوطء في الحيض لا يصح فإنه لا يباح في وقت دون وقت فهو بمنزلة التلوط

وشرب المسكر .

النوع الثاني : ما عقد الله من نذر ، أو ما لله من يمين ، أو حرمه الله ثم أراد حله ، فشرع الله

سبحانه حله بالكفارة وسماها تحلة ، وليست هذه الكفارة ماحية لهتك حرمة الاسم بالحنث كما ظنه

بعض الفقهاء ، فإن الحنث قد يكون واجباً ، وقد يكون مستحباً ، وقد يكون مباحاً ، وإنما الكفارة حل

لما عقده .

النوع الثالث : ما تكون فيه جابرة لما فاتت كفارة قتل الخطأ ، وإن لم يكن هناك إثم ، وكفارة

قتل الصيد الخطأ ، وإن لم يكن هناك إثم ، فإن ذلك من باب الجوابر .

والنوع الأول من باب الزواجر والنوع الوسط من باب التحلة لما منعه العقد ولا يجتمع الحد

والتعزير في معصية بل إن كان فيها حد اكتفى به كفارة فيها ، وما فيه كفارة فلا حد فيه ، وهل يجتمع

التعزير والكفارة في المعصية التي لا حد فيها فيه وجهان ، وهذا كالوطة في الإحرام ، والصيام ، ووطء

الحائض ، إذا أوجبنا فيه الكفارة .

ف قيل : يجب فيه التعزير لما انتهك من الحرمة بركوب الجناية .

وقيل : لا تعزير في ذلك اكتفاء بالكفارة لأنها جابرة وماحية .

وأما العقوبات القدرية فهي نوعان :

نوع على القلوب والنفوس .

ونوع على الأبدان والأموال .

والتي على القلوب نوعان :

أحدهما : آلام وجودية يضرب بها القلب .

والثاني : قطع المواد التي بها حياته وصلاحه عنه ، وإذا قطعت عنه حصل له أضدادها .

وعقوبة القلوب أشد العقوبتين ، وهي أصل عقوبة الأبدان ، وهذه العقوبة تقوى وتزايد حتى

تسرى من القلب الى البدن ، كما يسرى ألم البدن الى القلب ، فإذا فارقت النفس البدن صار الحكم

متعلقا بها ، فظهرت عقوبة القلب حينئذ ، وصارت علانية ظاهرة ، وهي المسماة بعذاب القبر ،

ونسبته إلى البرزخ كنسبة عذاب الأبدان إلى هذه الدار .

والتي على الأبدان - أيضا - نوعان :

نوع في الدنيا .

ونوع في الآخرة . وشدتها ودوامها بحسب مفاصد ما رتب عليه في الشدة والخفة ، فليس في الدنيا

والآخرة شر أصلا إلا الذنوب وعقوباتها ، فالشر اسم لذلك كله وأصله من شر النفس وسيئات

الأعمال ، وهما الأصلان اللذان كان النبي - ﷺ - يستعيز منهما في خطبته بقوله : (ونعوذ بالله من

شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا) وسيئات الأعمال من شرور النفس فعاد الشر كله إلى شر النفس ،

فإن سيئات الأعمال من فروعها وثمراته .

وقد اختلف في معنى قوله : ومن سيئات أعمالنا . هل معناه السوء عن أعمالنا فيكون من باب

إضافة النوع إلى جنسه ، أو يكون بمعنى من ، وقيل : معناه من عقوباتها التي تسوء ، فيكون التقدير

ومن عقوبات أعمالنا التي تسوءنا ، ويرجح هذا القول ان الاستعاذة تكون قد تضمنت جميع الشر ، فإن

شرور الأنفس تستلزم الأعمال السيئة ، وهي تستلزم العقوبات السيئة ، فنبه بشرور الأنفس على ما

تقتضيه من قبح الأعمال ، واكتفى بذكرها منه أو هي أصله .

ثم ذكر غاية الشر ومنتهاه وهو السيئات التي تسوء العبد من عمله من العقوبات والآلام ،

فتضمنت هذه الاستعاذة أصل الشر وفروعه وغايته ومقتضاه ، ومن دعاء الملائكة للمؤمنين قولهم :

﴿وقهم السيئات ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته﴾^(١) فهذا يتضمن طلب وقايتهم من سيئات الأعمال

وعقوباتها التي تسوء صاحبها فإنه سبحانه متى وقاهم عمل السوء وقاهم جزاء السوء وإن كان قوله :

﴿ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته﴾ أظهر في عقوبات الأعمال المطلوب وقايتهم يومئذ .

فإن قيل : فقد سألوه - سبحانه - أن يقيهم عذاب الجحيم وهذا هو وقاية العقوبات السيئة ،

فدل على أن المراد السيئة التي سألوا وقايتها الأعمال السيئة ، ويكون الذي سأل به الملائكة نظير ما استعاذ

منه النبي - ﷺ - ولا يرد على هذا قوله : ﴿يومئذ﴾ فإن المطلوب وقاية شرور سيئات الأعمال ذلك

اليوم . وهي سيئات في نفسها .

قيل : وقاية السيئات نوعان :

أحدهما وقاية فعلها بالتوفيق فلا تصدر منه .

والثاني : وقاية جزاؤها بالمغفرة فلا يعاقب عليها .

فتضمنت الآية سؤال الأمرين والظرف تقييد للجملة الشرطية لا بالجملة الطلبية ، وتأمل ما تضمنه هذا الخبر عن الملائكة من مدحهم بالإيمان والعمل الصالح والإحسان إلى المؤمنين بالاستغفار لهم ، وقدموا بين يدي استغفارهم وتوسلهم إلى الله - سبحانه - بسعة علمه وسعة رحمته ، فسعة علمه يتضمن علمه بذنوبهم وأسبابها وضعفهم عن العصمة واستيلاء عدوهم وأنفسهم وهواهم وطباعهم وما زين لهم من الدنيا وزينتها ، وعلمه بهم إذ أنشأهم من الأرض وإذ هم أجنة في بطون أمهاتهم ، وعلمه السابق بأنهم لابد أن يعصوه ، وأنه يحب العفو والمغفرة ، وغير ذلك من سعة علمه الذي لا يحيط به أحد سواه ، وسعة رحمته تتضمن أنه لا يهلك عليه أحد من المؤمنين به من أهل توحيدِهِ ومحبته ، فانه واسع الرحمة لا يخرج عن دائرة رحمته إلا الأشقياء ، ولا أشقى ممن لم تسعه رحمته التي وسعت كل شيء .

ثم سأله أن يغفر للتائبين الذين اتبعوا سبيله وهو صراطه الموصل إليه الذي هو معرفته ومحبته وطاعته فيما أمر وترك ما يكره فتأبوا بما يكره واتبعوا السبيل الذي يحبها .

ثم سأله أن يقيهم عذاب الجحيم وأن يدخلهم والمؤمنين من أصولهم وفروعهم وأزواجهم جنات عدن التي وعدهم بها ، وهو - سبحانه - وإن كان لا يخلف الميعاد فإنه وعدهم بها بأسباب ، من جملتها : دعاء الملائكة لهم بأن يدخلهم الجنة ، يدخلونها برحمته التي منها : أن وفقهم لأعمالها ، وأقام ملائكته يدعون لهم بدخولها ، ثم أخبر سبحانه عن ملائكته أنهم قالوا عقيب هذه الدعوة : ﴿ إنك أنت العزيز الحكيم ﴾ أي مصدر ذلك وسببه وغايته صادر عن كمال قدرتك ، وكما علمك ، فإن العزة كمال القدرة ، والحكمة كمال العلم وبهاتين الصفتين يقضى - سبحانه وتعالى - ما يشاء ، ويأمر وينهى ، ويشيب ويعاقب ، فهاتان الصفتان مصدر الخلق والأمر ، والمقصود أن عقوبات السيئات تتنوع إلى عقوبات شرعية وعقوبات قدرية وهي إما في القلب ، وإما في البدن وإما فيهما ، وعقوبات في دار البرزخ بعد الموت ، وعقوبات يوم عود الأجسام في الدار الآخرة ، فالذنوب لا يخلو من عقوبة البتة ، ولكن لجهل العبد لا يشعر بما هو فيه من العقوبة ، لأنه بمنزلة السكران والمخدر والنائم الذي لا يشعر بالألم ، فإذا استيقظ وصحاح أحس بالمؤلم ، فترتب العقوبات على الذنوب كترتيب الاحراق على النار ، والكسر على الانكار ، والاعتراف على الماء ، وفساد البدن على السموم ، والأمراض للأسباب الجالبة لها ، وقد تقارن المضرة للذنوب ، وقد تتأخر عنه إما يسيرا وإما مدة ، كما يتأخر المرض عن سببه أن يقارنه ، وكثيرا ما يقع الغلط للعبد في هذا المقام ويذنب الذنب فلا يرى أثره عقيقه ، ولا يدري أنه يعمل ، وعمله على التدريج شيئا فشيئا كما تعمل السموم ، والأشياء الضارة حذو القذفة بالقذفة ، فإن تدارك العبد نفسه بالأدوية والاستفراغ والحمية ، وإلا فهو صائر إلى الهلاك هذا إذا كان ذنبا واحدا لم يتداركه بما يزيل أثره فكيف بالذنوب على الذنب كل يوم . . . وكل ساعة . . . والله المستعان .

فاستحضر بعض العقوبات التي رتبها الله - سبحانه وتعالى - على الذنوب ، وجوز وصولها إليك ،

واجعل ذلك داعيا للنفس إلى هجرانها ، وأنا أسوق إليك منها طرفا يكفي العاقل مع التصديق ببعضه .
فمنها الختم على القلوب والأسماع ، والغشاوة على الأبصار ، والأقفال على القلوب ، وجعل
الأكنة عليها ، والرین عليها ، والطبع عليها ، وتقلب الأفئدة والأبصار ، والحيلولة بين المرء وقلبه ،
وإغفال القلب عن ذكر الرب ، وإنساء العبد نفسه ، وترك إرادة الله تطهير القلب ، وجعل الصدر
ضيقة حرجا كأنما يصعد في السماء ، وصرف القلوب عن الحق وزيادتها مرضا على مرضها ، واركاسها
وإنكاسها بحيث تبقى منكوسة ، كما ذكر الإمام أحمد عن حذيفة بن اليمان - رضى الله عنه - أنه قال :
القلوب أربعة :

فقلب أجرد فيه سراج يزهر فذلك قلب المؤمن .

وقلب أغلف فذلك قلب الكافر .

وقلب منكوس فذلك قلب المنافق .

وقلب تمده مادتان : مادة إيمان ، ومادة نفاق وهو لما غلب عليه منها .

ومنها التثبط عن الطاعة والابتعاد عنها .

ومنها جعل القلب أصم لا يسمع الحق ، أبكم لا ينطق به ، أعمى لا يراه ، فيصير النسبة بين
القلب وبين الحق الذي لا ينفعه غيره كالنسبة بين أذن الأصم والأصوات وعين الأعمى والألوان ولسان
الأخرس والكلام^(١) وبهذا يعلم أن الصم والبكم والعمى للقلب بالذات ، والحقيقة والجوارح بالفرض
والتبعية . (فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور)^(٢) وليس المراد نفى العمى
الحسى عن البصر كيف وقد قال تعالى : ﴿ ليس على الأعمى حرج ﴾^(٣) . وقال : ﴿ عبس وتولى * ان
جاءه الأعمى ﴾^(٤) وإنما المراد : أن العمى التام على الحقيقة عمى القلب حتى أن عمى البصر بالنسبة إليه
كالأعمى حتى يصح نفيه بالنسبة إلى كماله وقوته كما قال النبي - ﷺ - (ليس الشديد بالصرعة ولكن
الذى يملك نفسه عند الغضب) وقوله - ﷺ - (ليس المسكين بالطواف الذى ترده اللقمة واللقمتان
ولكن المسكين الذى لا يسأل الناس ولا يفتن له فيتصدق عليه) ونظائره كثيرة والمقصود أن من
عقوبات المعاصي جعل القلب أعمى أصم أبكم .

ومنها الخسف بالقلب كما يخسف بالمكان وما فيه فيخسف به إلى أسفل سافلين . وصاحبه لا
يشعر ، وعلامة الخسف به أنه لا يزال جوالا حول السفليات والقاذورات والردائل ، كما أن القلب
الذى رفعه الله وقربه إليه لا يزال جوالا حول البر والخير ومعالي الأمور والأعمال والأقوال والأخلاق
قال بعض السلف : إن هذه القلوب جواله : فمنها ما يجول حول العرش ، ومنها ما يجول حول
الحشر ، ومنها مسخ القلب فيمسخ كما تمسخ الصورة فيصير القلب على قلب الحيوان الذى شابهه في
أخلاقه وأعماله وطبيعته ، فمن القلوب ما يمسخ على قلب خنزير لشدة شبه صاحبه به ، ومنها ما يمسخ
على خلق كلب أو حمار أو حية أو عقرب وغير ذلك . وهذا تأويل سفيان بن عيينة في قوله تعالى : ﴿ وما

(١) مسند الإمام أحمد ج ٣ ص ١٧ ورد الحديث

(٢) سورة الحج من الآية : ٤٦

(٣) سورة النور من الآية : ٦١

(٤) سورة عبس الآيتان : ١ - ٢

من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم^(١) قال : منهم من يكون على أخلاق السباع العادية ، ومنهم من يكون على أخلاق الكلاب ، وأخلاق الخنزير ، وأخلاق الحمير ، ومنهم من يتطوس في ثيابه لحماً بتطوس الطاووس في ريشه ، ومنهم من يكون بليداً كالحمار ، ومنهم من يؤثر على نفسه كالديك ، قال : منهم من يألف ويؤلف كالحمام ، ومنهم الحقود كالجمل ، ومنهم الذي هو خير كله كالغنم ، ومنهم أشباه الذئاب ، ومنهم أشباه الثعالب التي يروغ كروغانها ، وقد شبه الله - تعالى - أهل الجهل والغى بالحرر تارة ، وبالكلب تارة ، وبالأنعام تارة ، وتقوى هذه المشابهة باطنا حتى تظهر في الصورة الظاهرة ظهوراً خفياً يراه المتفرسون ، ويظهر في الأعمال ظهوراً يراه كل أحد ، ولا يزال يقوى حتى تعلو الصورة ، فتقلب له الصورة بإذن الله وهو المسخ التام ، فيقلب الله - سبحانه وتعالى - الصورة الظاهرة على صورة ذلك الحيوان كما فعل باليهود وأشباههم ، ويفعل بقوم من هذه الأمة ويمسخهم قردة وخنازير فسبحان الله كم من قلب منكوس وصاحبه لا يشعر ، وقلب ممسوخ ، وقلب مخسوف به ، وكم من مفتون بثناء الناس عليه ، ومغرور بسير الله عليه ، ومستدرج بنعم الله عليه ، وكل هذه عقوبات وإهانة ويظن الجاهل أنها كرامة .

ومنها مكر الله بالماكر ، ومخادعته للمخادع ، وأستهزاؤه بالمستهزىء ، وازاغته لقلب الزائع عن الحق . ومنها نكس القلب حتى يرى الباطل حقاً ، والحق باطلاً ، والمعروف منكراً ، والمنكر معروفاً ، ويفسد ويرى انه يصلح ، ويصد عن سبيل الله وهو يرى انه يدعو إليها ، ويشتري الضلالة بالهدى وهو يرى انه على الهدى ، ويتبع هواه وهو يزعم انه مطيع لمولاه ، وكل هذا من عقوبات الذنوب الجارية على القلوب .

ومنها حجاب القلب عن الرب في الدنيا ، والحجاب الأكبر يوم القيامة كما قال تعالى : ﴿ كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ﴾^(٢) .

فمنعتهم الذنوب أن يقطعوا المسافة بينهم وبين قلوبهم ، فيصلوا إليها ، فيروا ما يصلحها ويزكيها ، وما يفسدها ويشقيها ، وان يقطعوا المسافة بين قلوبهم وبين ربهم فتصل القلوب إليه ، فتفوز بقربه وكرامته ، وتقرب به عينا ، وتطيب به نفساً ، بل كانت الذنوب حجاباً بينهم وبين قلوبهم وحجاباً بينهم وبين ربهم وخالقهم .

ومنها المعيشة الضنك في الدنيا وفي البرزخ والعذاب في الآخرة قال تعالى : ﴿ ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ﴾ ونحشره يوم القيامة أعمى^(٣) وفسرت المعيشة الضنك ، بعذاب القبر ، ولا ريب أنه من المعيشة الضنك ، والآية تتناول ما هو أعم منه ، وإن كانت نكرة في سياق الإثبات فإن عمومها من حيث المعنى ، فإنه - سبحانه - رتب المعيشة الضنك على الإعراض عن ذكره ، فالمعرض عنه له من ضنك المعيشة بحسب إعراضه ، وان تنعم في الدنيا بأصناف النعم ففى قلبه من الوحشة والذل والحسرات التي يقطع القلوب والأمانى الباطلة والعذاب الحاضر ما فيه ، وإنما تواريه عنه سكرات الشهوات والعشق وحب الدنيا والرياسة إن لم ينضم إلى ذلك سكر الخمر ، فسكر هذه الأمور أعظم من

(١) سورة الأنعام من الآية : ٣٨

(٢) سورة المطففين من الآية : ١٥

(٣) سورة طه من الآية : ١٢٤

سكر الخمر ، فإنه يفيق صاحبه ويصحو ، وسكر الهوى وحب الدنيا لا يصحو صاحبه إلا إذا سكر في مسكر الأموات ، فالمعيشة الضنك لازمة لمن أعرض عن ذكر الله الذي أنزله على رسوله - ﷺ - في دنياه وفي البرزخ ويوم معاده ، ولا تفر العين ولا يهدأ القلب ولا تطمئن النفس إلا بأهلها ومعبودها الذي هو حق ، وكل معبود سواه باطل فمن قرت عينه بالله قرت به كل عين ، ومن لم تفر عينه بالله تقطعت نفسه على الدنيا حسرات ، والله - تعالى - إنما جعل الحياة الطيبة لمن آمن بالله وعمل صالحا كما قال تعالى : ﴿ من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنجزيه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ (١) . فضمن لأهل الايمان والعمل الصالح الجزاء في الدنيا بالحياة الطيبة والحسنى يوم القيامة ، فلهم أطيب الحياتين وهم أحياء في الدارين ، ونظير هذا قوله تعالى : ﴿ للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين ﴾ (٢) ونظيرها قوله تعالى : ﴿ وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعا حسنا إلى أجل مسمى ويؤت كل ذي فضل فضله ﴾ (٣) .

فهاز المتقون المحسنون بنعم الدنيا والآخرة ، وحصلوا على الحياة الطيبة في الدارين ، فان طيب النفس وسرور القلب وفرحته ولذته وابتهاجه وطمأنينته وانشراحه ونوره وسعته وعافيته من ترك الشهوات المحرمة ، والشبهات الباطلة هو النعيم على الحقيقة ، ولا نسبة لنعيم البدن إليه ، فقد قال بعض من ذاق هذه اللذة : لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف ، وقال آخر : إنه يمر بالقلب أوقات أقول فيها إن أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيش طيب ، وقال الآخر : إن في الدنيا جنة هي في الدنيا كالجنة في الآخرة : ومن لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة ، وقد أشار النبي - ﷺ - إلى هذه الجنة بقوله : (إذا مررتم برياض الجنة فارتقوا ، قالوا : وما رياض الجنة ؟ قال : حلق الذكر . وقال : ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة) (٤) .

ولا تظن أن قوله تعالى : ﴿ إن الأبرار لفي نعيم ﴾ وإن الفجار لفي جحيم (٥) يختص بيوم الميعاد فقط ، بل هؤلاء في نعيم في دورهم الثلاثة ، وهؤلاء في جحيم في دورهم الثلاثة ، وأى لذة ونعيم في الدنيا أطيب من بر القلب وسلامة الصدر ومعرفة الرب - تعالى - ومحبة والعمل على موافقته ، وهل عيش في الحقيقة إلا عيش القلب السليم . وقد أثنى الله - تعالى - على خليله - عليه السلام - بسلامة القلب فقال : ﴿ وإن من شيعته لإبراهيم ﴾ إذ جاء ربه بقلب سليم (٦) وقال حاكيا عنه أنه قال : ﴿ يوم لا ينفع مال ولا بنون ﴾ إلا من أتى الله بقلب سليم (٧) .

والقلب السليم هو الذي سلم من الشرك والغل والحقد والحسد والشح والكبر وحب الدنيا والرياسة فسلم من كل آفة تبعده من الله وسلم من كل شبهة تعارض خبره ومن كل شهوة تعارض أمره ، وسلم من كل ارادة تزاحم مراده ، وسلم من كل قاطع يقطعه عن الله . فهذا القلب السليم في

(١) سورة النحل الآية : ٩٧

(٢) سورة النحل الآية : ٣٠

(٣) سورة هود من الآية : ٣

(٤) سنن الترمذي أبواب الدعوات ج ٥ ص ١٩٤ الحديث ٣٥٧٧ من رواية انس ابن مالك الحديث بلفظه ولم يرد فيه : « وقال : ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة » ثم قال هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه من حديث ثابت عن انس .

(٥) سورة الانفطار الآيتان : ١٣ ، ١٤

(٦) سورة الشعراء الآيتان : ٨٨ ، ٨٩

(٧) سورة الصافات الآيتان : ٨٣ ، ٨٤

جنة معجلة في الدنيا ، وفي جنة في البرزخ ، وفي جنة يوم المعاد ، ولا يتم له سلامته مطلقا حتى يسلم من خمسة أشياء : من شرك يناقض التوحيد وبدعة تخالف السنة ، وشهوة تخالف الأمر ، وغفلة تناقض الذكر ، وهو يناقض التجريد ، والإخلاص يعم ، وهذه الخمسة حجب عن الله وتحت كل واحد منها أنواع كثيرة تتضمن أفراد الأشخاص لا تحصر ، ولذلك اشتدت حاجة العبد بل ضرورته إلى أن يسأل الله أن يهديه الصراط المستقيم ، فليس العبد أحوج إلى شيء منه إلى هذه الدعوة وليس شيء أنفع

منها ، فإن الصراط المستقيم يتضمن علوما وإرادة وأعمالا وتروكا ظاهرة وباطنة تجرى عليه كل وقت فتفاصيل الصراط المستقيم قد يعلمها العبد وقد لا يعلمها ، وقد يكون مالا يعلمه أكثر مما يعلمه ، وما يعلمه قد يقدر عليه ، وقد لا يقدر عليه ، وهو من الصراط المستقيم ، وإن عجز عنه وما يقدر عليه قد تريده نفسه وقد لا تريده كسلا وتهاونا أو لقيام مانع وغير ذلك ، وما نريده قد يفعله وقد لا يفعله وما يفعله قد يقوم بشروط الإخلاص ، وقد لا يقوم ، وما يقوم فيه بشروط الإخلاص ، قد يقوم فيه بكمال المتابعة وقد لا يقوم وما يقوم فيه بالمتابعة قد يثبت عليه ، وقد صرف قلبه عنه ، وهذا كله واقع سار في الخلق فمستقل ومستكثر ، وليس في طباع العبد الهداية إلى ذلك كله ، بل متى وكل إلى طباعه حيل بينه وبين ذلك وهذا هو الإركاس الذي أركس الله به المنافقين بذنوبهم فأعادهم إلى طباعهم ، وما حلفت عليه نفوسهم من الجهل والظلم ، والرب - تبارك وتعالى - على صراط مستقيم في قضائه وقدره وأمره ونهيه ، فيهدي من يشاء إلى صراط مستقيم بفضله ورحمته ، وجعل الهداية حيث تصلح ويصرف من يشاء عن صراط مستقيم بعدله وحكمته لعدم صلاحية المحل ، وذلك موجب صراطه المستقيم الذي هو عليه فهو على صراط مستقيم ، ونصب لعباده من أمره صراطا مستقيما ، دعاهم جميعا إليه حجة منه وعدلا وهدى من يشاء منهم إلى سلوكه نعمة منه وفضلا ، ولم يخرج بهذا الفضل وهذا العدل عن صراطه المستقيم الذي هو عليه ، فإذا كان يوم القيامة نصب لخلق صراطا مستقيما يوصلهم إلى جنته ، ثم صرف عنه من صرف في الدنيا وأقام من أقام في الدنيا ، وجعل نور المؤمنين به وبرسوله وما جاء به

الذي كان في قلوبهم في الدنيا نورا ظاهرا لهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم في ظلمة الحشر ، وحفظ عليهم نورهم حتى يقطعوه كما حفظ عليهم الإيمان حتى لقوه ، وأطفئ نور المنافقين أحوج ما كانوا إليه ، كما أطفأه من قلوبهم في الدنيا ، وأقام أعمال العصاة بجنتي الصراط كلاليب وحسكا تحطفهم كما تحطفهم في الدنيا عن الاستقامة عليه وجعل على قدر سيرهم وسرعتهم إليه في الدنيا ، ونصب للمؤمنين حوضا يشربون منه بإزاء شربهم من شرعه في الدنيا وحرم من الشرب هناك من حرم من الشرب من شرعه ودينه ههنا فنظروا إلى الآخرة كأنها رأى عين ، وتأمل حكمة الله سبحانه في الدارين تعلم حينئذ علما يقينا لا شك فيه أن الدنيا مزرعة الآخرة ، وعنوانها ونموذجها ، وأن منازل الناس فيها من السعادة والشقاوة على حسب منازلهم في هذه الدار في الإيمان والعمل الصالح وضدها وبالله التوفيق فمن أعظم عقوبات الذنوب الخروج عن الصراط في الدنيا والآخرة .

* التوبة معروضة بعد *

قوله تعالى : ﴿إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما﴾ ومن تاب وعمل صالحا فإنه يتوب إلى الله متابا ﴿^(١)﴾ .
هذا استثناء مما سبق فالذين سبق الحديث عنهم من أهل الكبائر شاءت رحمة الله الواسعة ألا تقنط أحدا ﴿قل يا عبادي الذي أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم﴾ ^(٢) .

وقد قال ﷺ في حديثه الجامع : (لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن إلى آخر الحديث) ^(٣) قال في نهايته (والتوبة معروضة بعد) وفي قوله جل شأنه : ﴿فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات﴾ .
قولان : أحدهما : أنهم بدلوا مكان عمل السيئات بعمل الحسنات ، قال على بن أبي طلحة عن ابن عباس في الآية قال : هم المؤمنون كانوا من قبل إيمانهم على السيئات فرغب الله بهم عن السيئات فحوّلهم إلى الحسنات فأبدلهم مكان السيئات الحسنات ، وروى عن مجاهد عن ابن عباس أنه كان ينشد عند هذه الآية :

بدلن بعد حره خريفا وبعد طول النفس الوجيفا

يعنى: تغيرت تلك الأحوال إلى غيرها. وقال عطاء بن أبي رباح : هذا في الدنيا يكون الرجل على صفة قبيحة ثم يبدله الله بها خيرا .
وقال سعيد بن جبير أبدلهم الله بعبادة الأوثان عبادة الرحمن وأبدلهم بقتال المسلمين قتال المشركين . وأبدلهم بنكاح المشركات نكاح المؤمنات .
وقال الحسن البصري : أبدلهم الله بالعمل السيء العمل الصالح ، وأبدلهم بالشرك إخلاصا ، وأبدلهم بالفجور إحصانا وبالكفر اسلاما وهذا قول أبي العالية وقتادة وجماعة آخرين .
(والقول الثانى) : إن تلك السيئات الماضية تنقلب بنفس التوبة النصوح حسنات ، وماذاك إلا لأنه كلما تذكر ما مضى ندم واسترجع واستغفر فينقلب الذنب طاعة بهذا الاعتبار فيوم القيامة وإن وجده مكتوبا عليه فإنه لا يضره وينقلب حسنة في صحيفته كما ثبتت السنة بذلك وصحت به الآثار المروية عن السلف - رضى الله عنهم - فعن أبي ذر رضى الله عنه : قال : قال رسول الله - ﷺ - (إني لأعرف آخر أهل النار خروجا من النار ، وآخر أهل الجنة دخولا إلى الجنة ، يؤتى برجل فيقول : نحوا عنه كبار) ^(٤)

(١) سورة الفرقان الآيتان : ٧٠ ، ٧١

(٢) سورة الزمر الآية : ٥٣

(٣) صحيح مسلم كتاب الإيمان باب بيان نقصان الإيمان بالمعاصي . . الخ ج ١ ص ٧٧ حديث رقم ١٠٤ ورد الحديث بلفظه عن أبي هريرة .

(٤) صحيح مسلم كتاب الإيمان باب - أدنى أهل الجنة منزلة فيها - ج ١ ص ١٧٧ حديث رقم ٣١٤ من رواية أبي ذر مع اختلاف بعض ألفاظه .

وانظر تفسير ابن كثير ج ٦ ص ١٣٧ .

ذنوبه وسلوه عن صغارها قال فيقال له : عملت يوم كذا وكذا ، وعملت يوم كذا ، كذا ، وكذا فيقول : نعم ، لا يستطيع أن ينكر من ذلك شيئا فيقال : فإن لك بكل سيئة حسنة فيقول : يارب عملت أشياء لا أراها ههنا) قال فضحك رسول الله - ﷺ - حتى بدت نواجذه ، انفراد باخراجه مسلم . وقال الحافظ أبو القاسم بسنده عن أبي مالك الأشعري قال : قال رسول الله - ﷺ - (إذا نام ابن آدم قال الملك للشيطان أعطني صحيفة فيعطيه إياها فما وجد في صحيفته من حسنة محابها عشر سيئات من صحيفة الشيطان وكتبهن حسنات ، فإذا أراد أحدكم أن ينام فليكبر ثلاثا وثلاثين تكبيرة ، ويحمد أربعاً وثلاثين تحميدة ، ويسبح ثلاثا وثلاثين تسبيحة فتلك مائة)^(١) .

وقال ابن أبي حاتم بسنده عن سلمان قال : (يعطى الرجل يوم القيامة صحيفته فيقرأ أعلاها فإذا سيئاته ، فإذا كاد يسوء ظنه نظر في أسفلها فإذا حسناته ، ثم ينظر في أعلاها فإذا هي قد بدلت حسنات)^(٢) .

وقال أيضا حدثنا أبي عن هشام بن عمار بسنده عن أبي العنبي عن أبيه عن أبي هريرة قال : (ليأتيني الله - عز وجل - بآناس يوم القيامة رأوا أنهم قد استكثروا من السيئات ، قيل من هم يا أبا هريرة ؟ قال الذين يبدل الله سيئاتهم حسنات)^(٣) .

وقال أيضا حدثنا أبي حدثنا عبد الله بن أبي زياد حدثنا سيار حدثنا جعفر حدثنا أبو حمزة عن أبي الصيف - قلت وكان من أصحاب معاذ بن جبل - قال : يدخل أهل الجنة الجنة على أربعة أصناف المتقين ثم الشاكرين ثم الخائفين ثم أصحاب اليمين ، قلت : لم سموا أصحاب اليمين ؟ قال لأنهم قد عملوا بالسيئات والحسنات فأعطوا كتبهم بأيمانهم فقرأوا سيئاتهم حرفا وحرفا وقالوا ياربنا هذه سيئاتنا فأين حسناتنا فعند ذلك مح الله السيئات وجعلها حسنات فعند ذلك قالوا : (هاؤم اقرءوا كتابيه)^(٤) أنهم أكثر أهل الجنة .

وقال علي بن الحسين زين العابدين (يبدل الله سيئاتهم حسنات) قال في الآخرة .

وقال مكحول يغفرها لهم فيجعلها حسنات رواها ابن أبي حاتم^(٥) .

وروى ابن جرير عن سعيد بن المسيب مثله .

قال ابن أبي حاتم بسنده عن أبي جابر أنه سمع مكحولا يحدث قال : (جاء شيخ كبير هرم قد سقط حاجباه على عينيه فقال يارسول الله رجل غدر وفجر ولم يدع حاجة ولا داجة إلا اقتطفها بيمينه ولو^(٦))

(١) الدر المنثور في التفسير بالماثور للسيوطي ج ٦ ص ٢٨٢ ط دار الفكر الحديث بلفظه أخرجه الطبراني عن أبي مالك الأشعري .

(٢) الدر المنثور في التفسير بالماثور للسيوطي ج ٦ ص ٢٨٠ ط/ دار الفكر ورد الحديث بلفظ عن سلمان وأخرجه عبد بن حميد وابن

أبي حاتم .

(٣) انظر تفسير ابن كثير ج ٦ ص ١٣٨ فقد ورد الحديث بلفظه عن أبي هريرة . وانظر الدر المنثور في التفسير بالماثور للسيوطي ج ٦

ص ٢٨١ بلفظ . أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله - ﷺ - (ليأتين ناس يوم القيامة ودوا أنهم

استكثروا من السيئات قيل : ومن هم يارسول الله ؟ قال : الذين بدل الله سيئاتهم حسنات)

(٤) انظر تفسير ابن كثير ج ٦ ص ١٣٨ ورد الحديث بلفظه عن أبي الصيف .

(٥) انظر تفسير ابن كثير ج ٦ ص ١٣٨ فقد ورد الحديث بلفظه - عن أبي جابر انه سمع مكحولا .

(٦) وانظر الدر المنثور في التفسير بالماثور للسيوطي ج ٦ ص ٢٨١ فقد ورد الحديث وقد أخرجه ابن أبي حاتم عن مكحول غير أن به

اختلافا في بعض ألفاظه .

قسمت خطيئته بين أهل الأرض لأوبقتهم فهل له من توبه ؟ فقال النبي - ﷺ - أسلمت) قال أما أنا فأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله فقال النبي - ﷺ - (فان الله غافر لك ما كنت كذلك ومبدل سيئاتك حسنات) فقال يا رسول الله وغدراقي وفجراتي ؟ فقال (وغدراتك وفجراتك) فولى الرجل يكبر ويهمل .

وروى الطبراني من حديث أبي المغيرة عن أبي فروة أنه أتى رسول الله - ﷺ - فقال : أرأيت رجلا عمل الذنوب كلها ولم يترك حاجة ولا داجة فهل له من توبة ؟ فقال (أسلمت ؟) فقال نعم ، قال (فافعل الخيرات واترك السيئات فيجعلها الله لك خيرات كلها) قال وغدراقي وفجراتي ؟ قال (نعم) فما زال يكبر حتى توارى . رواه الطبراني من طريق أبي فروة الرهاوي عن ياسين الزيات عن أبي سلمة الحمصي عن يحيى بن جابر عن سلمة بن نفيل مرفوعا^(١) .

وقال أيضا حدثنا أبو زرعة حدثنا إبراهيم بن المنذر حدثنا عيسى بن شعيب بن ثوبان عن فليح بن عبيد بن أبي عبيد الشماسي عن أبيه عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : (جاءني امرأة فقالت هل لي من توبة ؟ إني زني وولدت وقتلته ، فقلت : لا ولا نعمت العين ولا كرامة ، فقامت وهي تدعو بالحسرة ، ثم صليت مع النبي - ﷺ - الصبح فقصصت عليه ما قالت المرأة وما قلت لها فقال رسول الله - ﷺ - : (بشما قلت أما كنت تقرأ هذه الآية ؟) ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلها آخر - إلى قوله - إلا من تاب ﴾^(٢) الآية فقرأتها عليها فخرت ساجدة وقالت الحمد لله الذي جعل لي مخرجا ، ثم قال تعالى مخبرا عن عموم رحمته بعباده وأنه من تاب إليه منهم تاب عليه من أي ذنب كان جليلا أو حقيرا كبيرا أو صغيرا .

فقال تعالى : ﴿ ومن تاب وعمل صالحا فإنه يتوب إلى الله متابا ﴾^(٣) أي فإن الله يقبل توبته كما قال تعالى ﴿ ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ﴾ وقال تعالى : ﴿ قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ﴾ .

قوله تعالى ﴿ والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراما . والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا . والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قررة أعين واجعلنا للمتقين إماما ﴾^(٤) .

وتلك من صفات عباد الرحمن وما أجلها من صفة وما أعظمها من فضيلة وهم أهل الفضائل والكرم وقد ورد في تفسير ﴿ لا يشهدون الزور ﴾ أقوال لأئمة التفسير نبينها فيما يلي :

(١) انظر تفسير ابن كثير ج ٦ ص ١٣٨ - ١٣٩ فقد ورد الحديث بلفظه .
وانظر أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير ج ٢ ص ٥٢٥ عن أبي بكر بن أبي عاصم عن أبي طويل شطب المدود مع اختلاف في بعض ألفاظه .

(٢) سورة الفرقان من الآيتان : ٦٨ - ٧٠

(٣) سورة الفرقان من الآية : ٧١

(٤) سورة الفرقان الآيتان : ٧٢ - ٧٤

قيل : هو الشرك وعبادة الأصنام ، وقيل : الكذب والفسق والكفر واللغو والباطل . وقال محمد ابن الحنفية : هو اللغو والغناء وقال أبو العالية وطاوس وابن سيرين والضحاك والربيع بن أنس - وغيرهم : هو أعياد المشركين وقال عمرو بن قيس : هي المجالس السوء والخنا . وقال مالك عن الزهري : شرب الخمر لا يحضره ولا يرغبون فيه كما جاء في الحديث (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يجلس على مائدة يدار عليها الخمر)^(١) وقيل المراد بقوله تعالى : ﴿ لا يشهدون الزور ﴾ أى شهادة الزور وهي الكذب معتمدا على غيره كما في الصحيحين عن أبي بكرة قال : قال رسول الله - ﷺ - (ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ ثلاثا : قلنا : بلى يا رسول الله قال : الشرك بالله وعقوق الوالدين ، وكان متكئا فجلس فقال : ألا وقول الزور ألا وشهادة الزور فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت)^(٢) . والأظهر من السياق أن المراد لا يشهدون الزور أى لا يحضره ولهذا قال تعالى : ﴿ وإذا مروا باللغو مروا كراما ﴾ أى لا يحضرون الزور وإذا اتفق مرورهم به مروا ولم يتدنسوا منه بشيء ولهذا قال ﴿ مروا كراما ﴾ وقال ابن أبي حاتم بسنده عن ابراهيم بن ميسر أن ابن مسعود مر بلهو فلم يقف فقال رسول الله - ﷺ - (لقد أصبح ابن مسعود وأمسي كريما)^(٣) . وحدثنا الحسين بن محمد بسنده عن ميسرة قال بلغني أن ابن مسعود مر بلهو معرضا فلم يقف فقال رسول الله - ﷺ - (لقد أصبح ابن مسعود وأمسي كريما) ثم تلا ابراهيم بن ميسرة ﴿ وإذا مروا باللغو مروا كراما ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صميا وعميانا ﴾ . وهذه - أيضا - من صفات المؤمنين ﴿ الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون ﴾^(٤) بخلاف الكافر فإنه إذا سمع كلام الله لا يؤثر فيه ولا يتغير عما كان عليه بل يبقى مستمرا على كفره وطغيانه وجهله وضلاله كما قال تعالى : ﴿ وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانا فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون ، وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم ﴾^(٥) فقله ﴿ لم يخروا عليها صميا وعميانا ﴾ أى بخلاف الكافر الذى إذا سمع آيات الله فلا تؤثر فيه فيستمر على حاله كأن لم يسمعها أصم أعمى . قال مجاهد قوله : ﴿ لم يخروا عليها صميا وعميانا ﴾ قال لم يسمعوا ولم يبصروا ولم يفقهوا شيئا ، وقال الحسن البصرى - رضى الله عنه - : كم من رجل يقرؤها ويخر عليها أصم أعمى . وقال قتادة قوله تعالى : ﴿ والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صميا وعميانا ﴾ . يقول : لم يصموا عن الحق ولم يعملوا فيه ، فهم والله قوم عقلوا عن الحق وانتفعوا بما سمعوا من كتابه . وقال ابن أبي حاتم بسنده عن عبد الله بن حمران عن ابن عون قال سألت الشعبي قلت الرجل

(١) سنن الدارمى ج ٢ كتاب الأشربة باب النهى عن القعود على مائدة يدار عليها الخمر ج ٣٧ فقد ورد الحديث بلفظه عن جابر .

(٢) صحيح البخارى كتاب الأدب ج ٨ ص ٤ ورد الحديث بلفظه عن عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبيه - رضى الله عنه .

(٣) أنظر تفسير ابن كثير ج ٦ ص ١٤٠ فقد ورد ذلك عن ابن أبي حاتم .

(٤) سورة الانفال الآية : ٢

(٥) سورة التوبة الآية : ١٢٤ وجزء من الآية ١٢٥

يرى القوم سجودا ولم يسمع ما سجدوا أيسجد معهم ؟ قال فتلا هذه الآية : يعنى أنه لا يسجد معهم لأنه لم يتدبر أمر السجود ولا ينبغى للمؤمن أن يكون إمعة بل يكون على بصيرة من أمره ويقين واضح بين : قال الإمام ابن القيم - رحمه الله تعالى - فى تفسير هذه الآية :

قال مقاتل : إذا وعظوا بالقرآن لم يقعوا عليه صما ، لم يسمعوه ، وعميانا : لم يبصروه ولكنهم سمعوا وأبصروا وأيقنوا به .

وقال ابن عباس : لم يكونوا عليها صما وعميانا بل كانوا خائفين خاشعين . وقال الكلبي : يخرون عليها سمعا وبصرا .

وقال الفراء : وإذا تلى عليهم القرآن لم يقعدوا على حالهم الأولى كأنهم لم يسمعوه : فذلك الخرور ، وسمعت العرب تقول : قعد يشتمى ، كقولك : قام يشتمى وأقبل يشتمى . والمعنى على ما ذكر : لم يصيروا عندها صما وعميانا .

وقال الزجاج : المعنى إذا تليت عليهم آيات ربهم خروا سجدا وبكيا سامعين ، مبصرين ، كما أمروا به .

وقال ابن قتيبه : أى لم يتغافلوا عنها ، كأنهم صم لم يسمعوها وعمى لم يروها . قلت : ههنا أمران : ذكر الخرور وتسليط النفى عليه : وهل خرور القلب أو خرور البدن للسجود ؟ وهل المعنى : لم يكن خرورهم عن صمم وعمه . فلهم عليها خرور بالقلب خضوعا أو بالبدن سجودا أو ليس هناك خرور ، وعبر به عن القعود .

قوله تعالى : ﴿ والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قررة أعين ﴾ ^(١) . يعنى الذين يسألون الله أن يخرج من أصلابهم من ذرياتهم من يطيعه ويعبده وحده لا شريك له قال : قال ابن عباس يعنون من يعمل بطاعة الله فتقربه أعينهم فى الدنيا والآخرة ، قال عكرمة : لم يريدوا بذلك صباحة ولا جمالا ولكن أرادوا ان يكونوا مطيعين .

وسئل الحسن البصرى عن هذه الآية فقال : أن يرى الله العبد المسلم من زوجته ومن أخيه ومن حميمه طاعة الله لا والله لا شيء أقر لعين المسلم من أن يرى ولدا أو ولد أو أخا أو حميما مطيعا لله - عز وجل - قال ابن جريج فى قوله ﴿ هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قررة أعين ﴾ قال : يعبدونك فيحسنون عبادتك ولا يجرون علينا الجرائر وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : يعنى يسألون الله - تعالى - لأزواجهم وذرياتهم أن يهديهم للإسلام .

وقال الامام احمد بسنده عن جبير بن نصير عن أبيه قال : جلسنا إلى المقداد بن الأسود يوما فمر به رجل فقال : طوبى لهاتين العينين اللتين رأيا رسول الله - ﷺ - لوددنا أنا رأينا ما رأيت وشهدنا ما شهدت فاستغضب المقداد فجعلت أعجب لأنه ما قال إلا خيرا ثم أقبل إليه فقال : ما يحمل الرجل على أن يتمنى محضرا غيبه الله عنه لا يدري لو شاهده كيف يكون فيه ، والله لقد حضر رسول الله - ﷺ - أقوام اكبههم الله على مناخرهم فى جهنم لم يجيبوه ولم يصدقوه ، أولا تحمدون الله اذ أخرجكم من بطون

أمهاتكم لا تعرفون إلا ربكم مصدقين بما جاء به نبيكم قد كفيتم البلاء بغيركم ؟ لقد بعث الله النبي - ﷺ - على أشر حال بعث عليها نبيا من الأنبياء في فترة جاهلية ، ما يرون أن ديننا أفضل من عبادة الأوثان فجاء بفرقان فرق به بين الحق والباطل وفرق بين الوالد وولده

إن كان الرجل ليرى والده وولده وأخاه كافرا وقد فتح الله قفل قلبه للإيمان يعلم أنه إن هلك دخل النار فلا تفرغينه . وهو يعلم أن حبيبه في النار وأنها التي قال الله تعالى : ﴿ والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين ﴾ وهذا إسناد صحيح ولم يخرجوه^(١) .
وقوله تعالى ﴿ واجعلنا للمتقين إماما ﴾ .

قال ابن عباس والحسين والسدي وقتادة والربيع بن أنس : أئمة يقتدى بنا في الخير ، وقال غيرهم ، هداة مهتدين دعاة إلى الخير فأحبوا أن تكون عبادتهم متصلة بعبادة أولادهم وذرياتهم ، وأن يكون هداهم متعديا إلى غيرهم بالنفع ، وذلك أكثر ثوابا وأحسن مآبا ولهذا ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله - ﷺ - : (إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : ولد صالح يدعو له أو علم ينتفع به من بعده أو صدقة جارية)^(٢) .

قوله تعالى : ﴿ أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ويلقون فيها تحية وسلاما . خالدين فيها حسنت مستقرا ومقاما . قل ما يعبؤا بكم ربى لولا دعاؤكم فقد كذبتم فسوف يكون لزاما) . لما ذكر تعالى من أوصاف عباده المؤمنين ما ذكر من الصفات الجميلة والأقوال والأفعال الجليلة ، قال بعد ذلك كله ﴿ أولئك ﴾ أى : المتصفون بهذه ﴿ يجزون ﴾ يوم القيامة ﴿ الغرفة ﴾ وهى الجنة . . . قال أبو جعفر الباقر وسعيد ابن جبير والضحاك والسدي : سميت بذلك لارتفاعها ﴿ بما صبروا ﴾ أى : على القيام بذلك ﴿ ويلقون فيها ﴾ أى : فى الجنة ﴿ تحية وسلاما ﴾ أى : يتدرون فيها بالتحية والاكرام . ويلقون التوقير والاحترام . فلهم السلام وعليهم السلام فإن الملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار .

وقوله تعالى : ﴿ خالدين فيها ﴾ أى : مقيمين لا يظعنون ولا يحولون ولا يموتون ولا يزولون عنها ولا ييغون عنها حولا كما قال تعالى : ﴿ وأما الذين سعدوا ففى الجنة خالدين فيها مادامت السموات والأرض ﴾^(٣) .

وقوله تعالى : ﴿ حسنت مستقرا ومقاما ﴾ أى : حسنت منظرا وطابت مقبلا ومنزلا .
ثم قال تعالى ﴿ قل ما يعبأ بكم ربى ﴾ أى : لا يبالي ولا يكثر بكم إذا لم تعبدوه ، فانه إنما خلق الخلق ليعبدوه ويوحدوه ويسبحوه بكرة وأصيلا ، قال مجاهد وعمر بن شعيب ﴿ ما يعبأ بكم ربى ﴾ يقول ما يفعل بكم ربى .
وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله ﴿ قل ما يعبأ بكم ربى ﴾ يقول لولا إيمانكم وأخبر

(١) صحيح مسلم ج ٦ ص ٢ ، ٣ ورد الحديث بلفظه عن عبد الرحمن بن جبيرة عن أبيه .

(٢) الترغيب والترهيب « كتاب العلم » باب من علم ومن لم يعلم ، ج ١ ص ٩٩ حديث ٩٩ عن أبى هريرة بلفظ : « قال رسول الله - ﷺ - : (إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له) وقال : رواه مسلم وغيره .

(٣) سورة هود من الآية : ١٠٨

تعالى الكفار انه لا حاجة له بهم اذ لم يخلقهم مؤمنين ولو كان له بهم حاجة لحب اليهم الايمان كما حبه الى المؤمنين .

وقوله تعالى : ﴿ فقد كذبتم ﴾ أيها الكافرون .

﴿ فسوف يكون لزاما ﴾ أي فسوف يكون تكذيبكم لزاما لكم يعني مقتضيا لعذابكم وهلاككم ودماركم في الدنيا والآخرة ، ويدخل في ذلك يوم بدر كما فسر به ذلك عبد الله بن مسعود وأبي بن كعب ومحمد بن كعب القرظي ومجاهد والضحاك وقتادة والسدي وغيرهم وقال الحسن البصري ﴿ فسوف يكون لزاما ﴾ أي: يوم القيامة ولا منافاة بينهما ، آخر تفسير سورة الفرقان والله الحمد والمنة .

﴿ سورة الشعراء ﴾

مقدمة

قال صاحب البصائر :

السورة مكية ، إلا آية واحدة : ﴿ والشعراء يتبعهم الغاؤون ﴾ إلى آخره ، عدد آياتها مائتان وسبع وعشرون في عد الكوفي والشامي وست في عد الباقيين .

كلماتها ألف ومائتان وسبع وسبعون . وحروفها خمسة آلاف وخمسمائة وثمان وأربعون .

وسميت سورة الشعراء لاختتامها بذكرهم في قوله ﴿ والشعراء يتبعهم الغاؤون ﴾ .

مقصود السورة وجل ما اشتملت عليه : ذكر القسم ببيان آيات القرآن وتسليية الرسول عن تأخير

المنكرين عن الايمان وذكر موسى وهارون ومناظرة فرعون الملعون ، وذكر السحرة ومكرهم في الابتداء ، وإيمانهم وانقيادهم في الانتهاء ، وسفر موسى ببني اسرائيل من مصر وطلب فرعون إياهم ،

وانفلاق البحر وإغراق القبط وذكر الجبل ، وذكر المناجاة ودعاء ابراهيم الخليل .

وذكر استغاثة الكفار من عذاب النيران ، وقصة نوح وذكر الطوفان ، وتعدي عاد وذكر هود ،

وذكر عقوبة ثمود ، وذكر قوم لوط وخبثهم ، وقصة شعيب وهلاك أصحاب الأيكة لعبثهم ، وتنزيل

جبريل على النبي بالقرآن العربي وتفصيل حال الأمم السالفة الكثيرة وأمر الرسول - ﷺ - بإنذار

العشيرة ، وتواضعه للمؤمنين ، وأخلاقه اللينة وبيان غواية شعراء الجاهلية وأن العذاب منقلب الذين

يظلمون في قوله : ﴿ وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون ﴾ .

المتشابهات :

قوله : ﴿ وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث ﴾ سبق في الأنبياء . ﴿ فسيأتيهم ﴾ سبق في

الأنعام ، وكذا ﴿ أو لم يروا ﴾ وما تعلق بقصة موسى وفرعون سبق في الأعراف .

قوله : ﴿ إن في ذلك لآية ﴾ مذكور في ثمانية مواضع : أولها : في محمد - ﷺ - وإن لم يتقدم

ذكره صريحا ، فقد تقدم كناية ووضوحا ، والثانية : في قصة موسى ، ثم ابراهيم، ثم نوح ، ثم هود ،

ثم صالح ، ثم لوط ثم شعيب .

قوله ﴿ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ الى قوله : ﴿ العالمين ﴾ مذكور في خمسة مواضع في قصة نوح ، وهود ، وصالح ، ولوط ، وشعيب - عليهم السلام - ثم كرر ﴿ فاتقوا الله وأطيعون ﴾ في قصة نوح ، وهود ، وصالح ، فصار ثمانية مواضع ، وليس في ذكر النبي - ﷺ - ﴿ وما أسألكم عليه من أجر ﴾ لذكرها في مواضع وليس في قصة موسى ؛ لأنه رباه فرعون حيث قال : ﴿ ألم نربك فينا وليدا ﴾ ولا في قصة ابراهيم ؛ لأن أباه في المخاطبين حيث يقول : ﴿ إذ قال لأبيه وقومه ﴾ وهو رباه فاستحيا موسى وابراهيم ان يقولوا : ما أسألكم عليه من أجر ، وان كانا منزهين من طلب الأجر .

قوله : في قصة ابراهيم : ﴿ ما تعبدون ﴾ وفي الصفات ﴿ ماذا تعبدون ﴾ لأن ﴿ ما ﴾ لمجرد الاستفهام فأجابوا فقالوا : ﴿ نعبد أصناما ﴾ و ﴿ ماذا ﴾ فيه مبالغة وقد تضمن في الصفات معنى التوبيخ فلما وبخهم ولم يجيبوا زاد في التوبيخ فقال ﴿ أثفكا آلهة دون الله تريدون فما ظنكم برب العالمين ﴾ فجاء في كل سورة ما اقتضاه ما قبله وما بعده .

قوله : ﴿ الذي خلقني فهو يهدين ﴾ والذي هو يطعمني ويسقين * واذا مرضت فهو يشفين ﴾ زاد ﴿ هو ﴾ في الاطعام والشفاء ؛ لأنها مما يدعى الانسان ، فيقال : زيد يطعم وعمرو يداوى . فأكد إعلاما لأن ذلك منه - سبحانه وتعالى - لا من غيره وأما الخلق والموت والحياة فلا يدعيها مدع . فأطلق .

قوله في قصة صالح : ﴿ ما أنت ﴾ بغير واو وفي قصة شعيب ﴿ وما أنت ﴾ لأنه في قصة صالح بدل من الأول وفي الثانية عطف وخصت الأولى بالبدل ، لأن صالحا قلل في الخطاب ، فقللوا في الجواب وأكثر شعيب في الخطاب فأكثروا في الجواب .

﴿ فضلها ﴾

عن البراء بن عازب ان النبي - ﷺ - قال : (إن الله أعطاني السبع الطوال مكان التوراة وأعطاني المثين مكان الانجيل وأعطاني الطواسين مكان الزبور وفضلني بالحواميم والمفصل ما قرأهن نبي قبلي) .

﴿ مناسبتها ﴾

ومناسبتها ما قبلها من وجوه :

(أ) إن فيها بسطا وتفصيلا لبعض ما ذكر في موضوعات سالفاتها .

(ب) إن كليتيها قد بدئت بمدح الكتاب الكريم .

(ج) إن كليتيها ختمت بإيعاد المكذبين .

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

طَسَمَ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ لَعَلَّكَ بَخِيعٌ نَفْسِكَ ءَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ

﴿٤﴾ إِنْ نَشَأْ نُزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴿٥﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحَدَّثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٦﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٧﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زوجٍ كَرِيمٍ ﴿٨﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٠﴾

﴿ تفسير المقردات ﴾

(لعلك) لعل : هنا للاستفهام الذي يراد به الانكار ، وقال العسكري : إنها للنهي ، و (باخع نفسك) : أى مهلكها من شدة الحزن . وأصل البخع . ان تبلغ بالذبح البخاع (بكسر الباء) وهو عرق مستبطن فقار الرقبة ، وذلك يكون من المبالغة فى الذبح . و (ذكر) : أى : موعظة (أنباء) والمراد بالأنباء ما سجل بهم من العذاب و (زوج) : أى صنف ، والكريم من كل شيء : المرضي المحمود منه .

﴿ التفسير ﴾

(قوله تعالى : ﴿ ط . س . م . بعض حروف الهجاء وفيها اشارة الى الكتاب المعجز الذى أعجز فحول البلاغة واساطين البيان (قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا) ﴾^(١) تلك آيات الكتاب المبين ﴾ أى : هذه آيات القرآن الواضحة البينة التى تزاحم الشمس فى الجلاء ، وترسل اشعتها الكاشفة تبدد غياهب الظلمات وتحيى كل موات فهى روح ونور ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نورا مهدى به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم ﴾ صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ألا إلى الله تصير الأمور ﴾^(٢) .

قوله تعالى : ﴿ لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين ﴾ أى : لا تقتل نفسك عليهم حزنا وهما وكما وغما قال تعالى : ﴿ أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا فإن الله يضل من يشاء ويهذى من يشاء فلا تذهب نفسك عليهم حسرات إن الله عليم بما يصنعون ﴾^(٣) وقال جل شأنه : ﴿ فلعلك باخع نفسك على آثارهم ان لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا ﴾ قال مجاهد وقتادة وعكرمة وغيرهم ﴿ لعلك باخع نفسك ﴾ أى : قاتل نفسك قال الشاعر :

(١) سورة الاسراء الآية : ٨٨

(٢) سورة الشورى الآيتان : ٥٢ - ٥٣

(٣) سورة فاطر الآية : ٨

ألا أيهذا الباخع الحزن نفسه لشيء نحته عن يديه المقادر

قوله تعالى : ﴿ إن نشأ نزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين ﴾ أى لو نشأ لأنزلنا آية تضطرهم الى الايمان قهرا ، ولكن لا نفعل ذلك ؛ لأننا لا نريد من أحد إلا الايمان الاختيارى وقال تعالى (لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم ﴾^(١) .

وقال تعالى ﴿ ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا . أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ﴾^(٢) وقال تعالى : ﴿ ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين ، إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴾^(٣) وقال جل شأنه ﴿ فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾^(٤) وقال تبارك اسمه ﴿ إنا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا * إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا ﴾^(٥) وقال تعالى ﴿ وهديناه النجدين ﴾^(٦) وقال عز وجل ﴿ ونفس وما سواها * فألهمها فجورها وتقواها * قد أفلح من زكاها * وقد خاب من دساها ﴾^(٧) ولذلك لما اقترحوا على رسول الله ما اقترحوه من الآيات ﴿ وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا * أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتى بالله والملائكة قبيلا * أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه ﴾^(٨) لما اقترحوا تلك الآيات كان الرد عليهم ﴿ قل سبحان ربي هل كنت إلا بشرا رسولا ﴾ وفى التعبير بخضوع الاعناق ما يفيد الرضوخ والقهر والجبر وليس هذا موافقا لحقيقة الايمان إذ الايمان تصديق ناشئ عن رضا ويقين فليس الايمان بالتمنى ولكن ما وقر فى القلب وصدقه العمل فالإيمان عمل من أعمال القلوب لا يستوى مع القسر والقهر .

قوله تعالى : ﴿ وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث إلا كانوا عنه معرضين ﴾ هذا شأنهم وديدنهم وهجيرهم تكذيب وجحود وعناد وإصرار ﴿ قال رب إني دعوت قومي ليلا ونهارا * فلم يزدتهم دعائي إلا فرارا * وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا ﴾^(٩) وقال تعالى ﴿ وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ﴾ وقال تعالى : ﴿ يا حشرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزءون ﴾^(١٠) وقال تعالى : ﴿ ثم أرسلنا رسلنا تترى كلما جاء أمة رسولا كذبوه فأتبعنا بعضهم بعضا وجعلناهم أحاديث فبعد القوم لا يؤمنون ﴾^(١١) ولهذا قال تعالى ههنا فقد كذبوا فسيأتهم أنباء ما كانوا به يستهزءون ﴾^(١٢) أى : فقد كذبوا بما جاءهم من الحق فسيعلمون نأ هذا التكذيب بعد حين ﴿ وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون ﴾^(١٣)

(٨) سورة الاسراء من الآيات : ٩٠ - ٩٣

(٩) سورة نوح الآيات : ٥ - ٧

(١٠) سورة يس الآية : ٣٠

(١١) سورة المؤمنون آية : ٤٤

(١٢) سورة الشعراء الآية : ٦

(١٣) سورة الشعراء الآية : ٢٢٧

(١) سورة البقرة الآية : ٢٥٦

(٢) سورة يونس الآية : ٩٩

(٣) سورة هود الآيتان : ١١٨ - ١١٩

(٤) سورة الكهف من الآية : ٢٩٠

(٥) سورة الانسان الآيتان : ٢ ، ٣

(٦) سورة البلد الآية : ١٠

(٧) سورة الشمس الآيات : ٧ - ١٠

قوله تعالى : ﴿ أولم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم . إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين . وإن ربك هو العزيز الرحيم ﴾^(١) .
وفي هذا تنبيه على عظمة سلطانه وجلالة قدره وشأنه للذين اجترأوا على مخالفة رسوله وتكذيب كتابه وهو القاهر العظيم القادر الذي خلق الأرض وأنبت فيها من كل زوج كريم من زروع وثمار وحيوان قال سفيان الثوري عن رجل عن الشعبي : الناس من نبات الأرض فمن دخل الجنة فهو كريم ، ومن دخل النار فهو ليثم .

تأمل في نبات الأرض وانظر	إل آثار ماصنع المليك
عيون من لجين شاخصات	بأبصار هي الذهب السبيك
على قضيب الزبرجد شاهدات	بأن الله ليس له شريك

تباركت ربنا وتعاليت يا من قلت وقولك الحق : ﴿ خلق السموات بغير عمد ترونها وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم وبث فيها من كل دابة وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه بل الظالمون في ضلال مبين ﴾^(٢) .
ويا من قلت وقولك الصدق : ﴿ والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج . تبصرة وذكرى لكل عبد منيب . ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد والنخل باسقات لها طلع نضيد رزقا للعباد وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج ﴾^(٣) .
﴿ إن في ذلك لآية ﴾ أي : دلالة على قدرة الخالق للأشياء الذي بسط الأرض ورفع بناء السماء ، ومع هذا ما آمن أكثر الناس بل كذبوا به ويرسله وكتبه وخالفوا أمره وارتكبوا نبيه . ﴿ وما كان أكثرهم مؤمنين ﴾ هو كقوله تعالى : ﴿ وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ﴾^(٤) وقوله : ﴿ وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون ﴾^(٥) وقوله : ﴿ تلك آيات الكتاب والذي أنزل إليك من ربك الحق ولكن أكثر الناس لا يؤمنون ﴾^(٦) ﴿ وإن ربك هو العزيز الرحيم ﴾ ﴿ العزيز ﴾ الذي عز كل شيء وقهره وغلبه ﴿ الرحيم ﴾ أي : بخلقه فلا يعجل على من عصاه بل يؤجله وينظره ثم يأخذه أخذ عزيز مقتدر . قال أبو العالية وقتادة والربيع بن أنس : العزيز في نقمته وانتصاره ممن خالف أمره وعبد غيره ، وقال سعيد بن جبير : الرحيم بمن تاب إليه وأناب .

(٤) سورة يوسف الآية : ١٠٣
(٥) سورة الأنعام الآية : ١١٦
(٦) سورة الرعد الآية : ١

(١) سورة الشعراء الآيات : ٧ ، ٨ ، ٩
(٢) سورة لقمان الآيتان : ٩ ، ١١
(٣) سورة ق الآيات : من ٧ - ١١

وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنْ أَتَيْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۖ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىٰ ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا فَإِذْ هَبَا بَيَاتِنَنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَآتَيْنَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعَلْتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ ۖ أَلَا تَسْمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَنْ أَتَّخِذَ إِلَهًا غَيْرَ الَّذِي جَعَلَنِي مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أُولَئِ كُنْتُمْ تُعْبَدُونَ ۖ أَفَلَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِ ۚ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ ۖ إِنْ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ ۚ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَا تَوَكُّ بِكُلِّ شَعَرٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمْ الْغَالِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَإِنَّا لَنَأْجُرُكَ إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُمْ مُوسَىٰ الْقَوَامَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ

تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَالْقَى السَّحَرَةُ سَجْدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَا قِطْعَنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مَن خَلَفَ وَلَا صَلْبَيْكُمُ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَتَنَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ * وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي أَنْتُمْ مُتَّبِعُونَ ﴿٥٢﴾ فَارْسَلْ فِرْعَوْنَ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنْ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَحَمِيعُ حَادِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَاءَ الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فَرَقٍ كَالطُّودِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦٧﴾

تفسير المفردات

﴿ كلا ﴾ كلمة زجر وردع والمراد اتق بالله وانزجر عن خوفك منهم . ﴿ بآياتنا ﴾ المراد هنا معجزاتنا . ﴿ ففرت منكم ﴾ خرجت من بينكم إلى مدين . ﴿ مبين ﴾ : أى : ظاهر أنه ثعبان بلا تمويه ولا تخيل كما يفعل السحرة ، ﴿ الملأ ﴾ : إشراف القوم ، ﴿ عليم ﴾ : أى : خبير بفن السحر حاذق في تلك الصنعة ، ﴿ فماذا تأمرون ﴾ : أى : فبم تشيرون ، ﴿ أرجه وأخاه ﴾ : أى : أخر أمرهما ولا تباغتهما بالقتل خيفة الفتنة . ﴿ حاشرين ﴾ : أى : اجعل رجال الشرطة يحشرون السحرة ﴿ الميقات ﴾ : ما وقت به أى حدد من مكان وزمان ومنه مواقيت الاحرام ﴿ اليوم المعلوم ﴾ هو يوم الزينة الذى حدده موسى في قوله : ﴿ موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى ﴾ ، ﴿ وبعزة فرعون ﴾ : أى : قوته التى يمتنع بها من الضيم ، ﴿ تلقف ﴾ : أى : تبتلع بسرعة . ﴿ يافكون ﴾ : أى : يقلبونه عن وجهه وحقيقته بكيدهم وسحرهم ، ﴿ من خلاف ﴾ : أى : بقطع الايادى اليمنى

والأرجل اليسرى ، لا ضير ، أى : لا ضرر علينا فيما ذكرت ، ﴿ ينقلبون ﴾ أى : راجعون .
 ﴿ اسرى ﴾ : سار ليلا ، ﴿ متبعون ﴾ : أى : يتبعكم فرعون وجنوده ﴿ والشرذمة ﴾ : الطائفة
 القليلة من الناس ، ﴿ غائظون ﴾ أى : فاعلون ما يغيظنا ﴿ حاذرون ﴾ : أى من دأبنا الحذر فى
 الأمور ، كنوز أى : أموال كتزوها وخزنها فى باطن الأرض ، ﴿ ومقام كريم ﴾ : أى : قصور عالية
 ودور فخمة ، ﴿ أورثناها ﴾ : أى ملكناها لهم تملك الميراث ، ﴿ مشرقين ﴾ : أى داخلين فى وقت
 الشروق ، ﴿ تراءى الجمعان ﴾ أى : تقاربا بحيث رأى كل منهما الآخر ، ﴿ لمدركون ﴾ أى :
 سيدركوننا ويلحقون بنا ، ﴿ كلا ﴾ : أى لن يدركوكم ، ﴿ انفلق ﴾ : انشق ، ﴿ الفرق ﴾ الجزء
 المنفرد منه ، ﴿ والطود ﴾ : الجبل ، ﴿ وأزلفنا ﴾ أى : قربنا . ﴿ وثم ﴾ : أى هناك ، ﴿ لآية أى :
 لعظة وعبرة توجب الايمان بموسى .

المناسبة واجمال المعنى

بعد أن ذكر سبحانه سوء حال المشركين وشدة عنادهم وقبيح لجاحهم سلى رسوله ﷺ - على ذلك
 بأن قومه ليسوا ببدع فى الأمم وانه ليس بالأوحد فى الأنبياء المكذبين ، فقد كذب موسى من قبلك على ما
 أتى به من باهر الآيات وعظيم المعجزات . ولم تغن الآيات والنذر ، فحاق بالمكذبين ما كانوا به
 يستهزئون وأخذهم الله بذنوبهم وأغرقهم فى اليم جزاء اجتراحهم للسيئات ، وتكذيبهم بعد ظهور
 المعجزات ، وما ربك بظلام للعبيد .

التفسير

هذا جزء من قصة موسى على نبيا وعليه الصلاة والسلام - وقد جاء بعد ذلك الحديث عن
 إبراهيم ، ثم نوح ، ثم هود ، ثم صالح ، ثم لوط ، ثم شعيب

كلمة عن القصة فى القرآن

الحدث التاريخى والقصة

إن القصة القرآنية بنيت بناء محكما من لبنات الحقيقة المطلقة التى لا يطوف بحماها طائف من
 الخيال ، ولا يطررها طارق منه . . ثم هى مع هذا « قصة » حيث سمي القرآن كل ما جاء على هذا
 النحو قصصا ، فقال تعالى مخاطبا النبى الكريم : ﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص ﴾ (١) وقال
 تعالى : ﴿ إن هذا هو القصص الحق ﴾ (٢) .

(١) سورة طه الآية : ٥٩

(١) سورة يوسف الآية : ٣

(٢) سورة آل عمران الآية : ٦٢

هكذا أطلق القرآن لفظ القصص على ما حدث به من أخبار القرون الأولى في مجال الرسائل السماوية ، وما كان يقع في محيطها من صراع بين قوى الحق والضلال ، وبين مواكب النور وجحافل الظلام .

والقصص القرآني كله عرض لأحداث تاريخية مضى بها الزمن فهو - والأمر كذلك - وثيقة تاريخية من أوثق ما بين يدي التاريخ من وثائق ، فما جاء فيه من أشخاص وأحداث ، وما يتصل بالأشخاص والأحداث من أمكنة وأزمنة .

الشخصية والحادثة

يقوم العمل القصصي على محورين : إما الشخصية ، وإما الحدث . . بمعنى ان تكون الشخصية هي الفلك الذي تدور حوله الأحداث ، أو أن تكون الأحداث هي المركز الذي تدور في دائرته الشخصيات : وقد تتوازن في العمل القصصي الشخصية والحدث ، فيتبادلان نقطة الارتكاز والتجمع مرة بعد مرة . . ! ويلاحظ في القصص التاريخي غلبة الشخصية على الحدث . . فيكون الشخص هو محور الحركة في القصة ، وهو منطلق الأحداث الجارية فيها . .

ومن هنا كان أبطال القصص التاريخي أشخاصا لا أحداثا . .

وفي القصص القرآني نرى تدبيرا عجيبا معجزا ، في توزيع المشاهد القصصية توزيعا محكما متوازنا ، بين الحدث والشخصية . . فلا تجد موقفا من المواقف تستأثر به الشخصية وحدها ، أو الحادثة وحدها . . وإنما تلتقي الشخصية مع الحادثة أو الحادثة مع الشخصية فيتخلق من اجتماعهما مضمون هو الذي يصبح بطل الموقف . فتكون شخصيته أبرز شخوص القصة ، ويكون صوته اندي الأصوات فيها ، وأقواها سلطانا على المشاهدين أو المستمعين !

فالأشخاص في القصص القرآني - أيا كانوا - ليسوا مقصودين لذاتهم من حيث هم أشخاص تاريخيون يراد إبراز معالمهم وكشف احوالهم ، والتمجيد أو التنديد بأعمالهم . . وإنما يعرض القرآن ما يعرض من شخصيات كنماذج بشرية في مجال الحياة الخيرة أو الشريرة ، وفي صراعها مع الخير والشر وفي تجاوبها أو تعاندها مع الأخيار والأشرار . .

إن الشخصية في القصة القرآنية ، إنما ينظر إليها بهذا الاعتبار الذي تؤدي فيه دورها كشاهد من شواهد الانسانية ، في قوتها أو ضعفها ، وفي استقامتها أو انحرافها ، وفي هداها أو ضلالها ، وفي رشدتها أو غيها ، وفي حكمتها أو سفاهتها . . إلى غير ذلك مما تندرج تحته عوالم الانسانية ، وتتشعب فيه مذاهب سعيها ومسلكها في مضطرب الحياة !

وكذلك الشأن في الأحداث التي يعرضها القرآن في قصصه . . إنها ليست إلا محاك اختبار تظهر فيها معادن الرجال ، وتختبر بها مواطن القوة والضعف فيهم ، ومنازع الاحسان والسوء فيهم . . ! ومن أجل هذا ، كان ذلك الذي نشهده في القصص القرآني ، من عرض الشخصية في معارض

كثيرة ، حيث تستدعيها الأحداث والمواقف . . فنجد كثيرا من الشخصيات تأخذ مواقف متعددة في القرآن الكريم ، وذلك في أزمنة متباعدة ، في عرض القرآن لها ، حسب نزوله . . ولو أن الشخصية كانت مقصودة قصدا أصليا لذكرت أحداثها ومواقفها في معرض واحد . . فكنا نجد قصة موسى مثلا في سورة واحدة ، وكذلك قصة إبراهيم ، وعيسى ، ونوح وغيرهم . . ولكن الذي كان هو أننا نرى الشخصية مع حدث من الأحداث تتفاعل معه ، وتمضى به إلى غايتها في موقفه منها أو موقفها منه . . ثم ينتهى المشهد ، ويطوى الموقف . حتى إذا مضى زمن - طال أو قصر - طالعنا وجه الشخصية من جديد مع حدث آخر ، يأخذ دوره معه ، ثم يمضى . . وهكذا .

وعلى هذا ، فإن التكرار الذى يقال عنه فى القصص القرآنى ليس تكرارا للحدث ، ولا إعادة للواقعة بصورتها التى عرضت بها أولا ، بل إن أكثر القصص القرآنى تتكرر فيه الشخصية ، ولا تتكرر فيه الحادثة .

ولما الذى دعا إلى هذا القول هو ظهور الشخصية فى مواقف متعددة ، فوقع للنظرة المجردة من التعمق والتبصر أن ذلك من التكرار ، بل التكرار الممل الذى لا تدعو اليه داعية ، من حال أو مقام ! إن الشخصية فى القصص القرآنى ليست مقصودة لذاتها ، ولا كان ذكر الأشخاص منظورا إليه نظرة القصص التاريخى إلى شخصياته ، وعرضهم فى معارض البطولة . . فى أى مجال من مجالاتها . ولما الأحداث والوقائع . . أولا ، ثم الشخصيات التى تلبست بها أو لابستها الأحداث . . ثانيا . . لأن مناط العبرة والعظة إنما هو فى الحدث ، وفى موقف الناس منه ، وتلقيهم له ، من بين محسن ومسيء ، ومقبل ومعرض ، ومستقيم ومنحرف . . ومن خلال هذه المواقف التى يقفها المحسنون أو المسيئون من الأحداث تنكشف وجوه العبرة والعظة منها . . وهذا ما جاء القصص القرآنى من أجله . .

لا تكرار فى القصص القرآنى

والذى يتبع القصص القرآنى يجد أن أحداثه كلها تقريبا تدور فى محيط الدعوة إلى الله ، وإلى تحرير العقيدة وتصفيتها من العبودية لغير الله ، وتوجيهها إلى عبادة الاله الواحد ، الخالق ، رب العالمين . . . ولذلك كانت دعوات الأنبياء هى الشخصية الغالبة فى القصص القرآنى ، بحيث ساغ أن يسمى القصص باسم صاحب الدعوة فيقال : قصة يوسف ، وقصة موسى ، وقصة يونس ، وقصة هود ، ونوح ، وصالح ، وآدم وهكذا . . والملاحظ الذى نود أن نشير إليه هنا مرة أخرى ، هو أنه لو كانت الشخصية - لا الحادثة - هى مناط القصة ودافعها الأصلي لجاءت قصة كل نبي أو كل شخصية غير نبي فى موضع واحد من القرآن ، فى سورة أو بعض سورة . . ولما كان هناك داع لتقطيع حياة الشخصية إلى تلك الأجزاء الموزعة فى مواضع متباعدة فى القرآن ، ولكن إذا نحن اعتبرنا الحادثة - لا الشخصية - هى محور القصة - لم نجد هذا التمزق فى الشخصيات ، ولما نجد فى كل حادثة أو موقف قصة كاملة وإن كان هذا لا يمنع من أن نلتقى بالشخصية الواحدة فى أكثر من حدث وفى أكثر من موقف ، مع تباعد الزمان والمكان . كما أن هذا لا يمنع من أن تقترن الأحداث المتماثلة ويجمع بعضها

إلى بعض في مساق واحد ، وفي عرض متصل ، في سورة أو بعض سورة !
وهذا ما نجده فعلا في القصص القرآني !

ففي أكثر من سورة من القرآن الكريم جمعت أحداث كثيرة لعدد من الانبياء حيث تتماثل الأحداث ، وتتشاكل الوقائع ، وإن اختلفت الأزمنة والأمكنة ، وفي هذا الجمع ما يعطى دلالة واضحة مؤكدة لما في الانسان من عناد وكنود ، وأن الانسان هو الانسان حيث اختلف زمانه ومكانه .

مفهوم القصة في القرآن

وهنا يلقانا هذا السؤال : إذا كان القرآن قد سمي بالأحداث والوقائع قصصا ، فهل هذه التسمية تتلاقى مع المفهوم الاصطلاحي ، ومع المحتوى الفني للقصة ، كما تعرف في الآداب الانسانية قديما وحديثا ؟

ونحن ننظر في المعنى اللغوي للقصة نرى أن أصل اشتقاقها يتلاقى مع المفهوم الذي قام عليه أصل التسمية للقصص القرآني . . فالقصة مشتقة من القص وهي تتبع الأثر ، قال تعالى : ﴿ ولأخته قصيه ﴾^(١) أي : تتبعي آثاره ، على ما انتهى إليه أمره .
ومن هذا قولهم قص الأثر نظرفيه ، واقتفى آثاره وشواهده . . يقال قصصت أثره واقتصصته وتقصصته ، وخرجت في أثر فلان قصصا .

وفي القرآن ﴿ فارتدا على آثارهما قصصا ﴾^(٢) . . وقص عليه الرؤيا والحديث . . .

وفي القرآن ﴿ لا تقصص رؤياك على إخوتك ﴾^(٣) .

فالقص للأثر أشبه بما يعرف في عصرنا بتصوير « البصمات » أو رفع الآثار وتصويرها ليستدل منها على ما وراءها من أحداث مضت وليمسك بما يقدر على إمساكه منها .

والقصة في القرآن إنما تتبع أحداثا ماضية واقعة ، وتعرض منها ما ترى علاضيه ! ومن هنا كانت تسميه الأخبار التي جاء بها القرآن قصصا ، مما يدخل في المعنى العام للكلمة خبرا أو نبأ . وقد استعمل القرآن الكريم الخبر والنبأ بمعنى التحدث عن الماضي ، وإن كان قد فرق بينهما في المجال الذي استعملاه فيه ، جريا على ما قام عليه نظمه من دقة وإحكام واعجاز . . . فاستعمل النبأ والأنباء في الأخبار عن الأحداث التي مضى الزمن بعيدا بها ، ولفها في أطوائه . . على حين أنه استعمل الخبر والأخبار في الكشف عن الوقائع القريبة العهد بالوقوع ، أو التي لا تزال شواهدا قائمة ماثلة للعيان .

ففي النبأ والأنباء يقول تعالى في أصحاب الكهف : ﴿ نحن نقص عليك نبأهم بالحق ﴾^(٤) ويقول سبحانه في شأن الأمم الماضية وما وقع فيها من مثلات : ﴿ ذلك من أبناء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد ﴾^(٥) ويقول سبحانه فيما يقص على نبيه من قصص الأولين .

(١) سورة القصص الآية : ١١

(٢) سورة الكهف الآية : ٦٤

(٣) سورة يوسف الآية : ٥

(٤) سورة الكهف الآية : ٣

(٥) سورة هود الآية : ١٠٠

﴿ تلك من أبناء الغيب نوحىها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا .. الآية ﴾^(١) وفى الخبر والأخبار يقول سبحانه مخاطبا المؤمنين !

﴿ ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم ﴾^(٢) .
ويقول جل شأنه فيما يكون من أحداث يوم القيامة : ﴿ يومئذ تحدث أخبارها بأن ربك أوحى لها ﴾^(٣) والتحدث بالأخبار إنما يكون فى هذا الوقت الذى تقوم فيه الساعة .
وانظر فى قوله تعالى : ﴿ نحن نقص عليك نبأهم بالحق ﴾^(٤) تجد أن القصص القرآنى إنما هو من قبيل الأنباء .. أى الأخبار التى بعد الزمن بها ، واندثرت أو كادت تندثر ، ولهذا سماها القرآن : من أنباء الغيب .

وحين ننظر فى القصص القرآنى نجد انه يجىء بمادته كلها من الماضى البعيد دون أن يكون فيه شيء من واقع الحال أو من متوقعات المستقبل .

قصص الأحداث الجارية والمستقبلية

ولعل سائلا يسأل : لماذا لا يكون من تدبير القرآن ان يجىء بقصص يصور الأحداث الواقعة الدائرة فى محيط الدعوة الاسلامية ، أو بأحداث مستقبلية تتنبأ لسير هذه الدعوة عبر المستقبل ، كما نرى فى كثير من القصص الأدبية التى يكشف بها أصحابها عن رؤى جديدة فى ضباب الأحداث المظلمة على الحياة ، أو فى المستقبل الذى ينتظر الحياة ؟ .. لماذا لم يكن من تدبير القصص القرآنى مثل هذا القصص الأدبى ؟

والجواب عن هذا من وجوه :

فأولا : قد جاء القرآن الكريم بصور كثيرة من أحداث الوقائع الدائرة فى محيط الدعوة الاسلامية فى اوقات نزوله ، فكشف ضبابها ، وابان عن وجه الحق فيها ﴿ كما ترى ذلك فى حديث الافك ، وفى وقعة بدر وأحد وحنين ، وفى بيعة الرضوان ، وصلح الحديبية ، وغير ذلك كثير مما جاء به القرآن الكريم فى أحوال وشئون ملابسة لنزوله كذلك جاء القرآن الكريم مخبرا عن أحداث ووقائع مستقبلية .
فأخبر سبحانه وتعالى عن الصراع الذى كان دائرا بين الفرس والروم ، وان معركة ستدور بعد بضع سنين ، وسيكتب النصر فيها للروم على الفرس . قال تعالى : ﴿ ال م غلبت الروم فى أدنى الأرض ، وهم من بعد غلبهم سيفعلون . فى بضع سنين الآية ﴾^(٥) كما أخبر سبحانه عن فتح مكة ودخول الناس فى دين الله أفواجا فى قوله : ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا ﴾^(٦) كما أخبر عن هزيمة المشركين يوم بدر بقوله سبحانه ﴿ سيهزم

(١) سورة هود الآية : ٤٩

(٢) سورة محمد الآية : ٣١

(٣) سورة الزلزلة الآيتان : ٤ ، ٥

(٤) سورة الكهف الآية : ٣

(٥) سورة الروم الآيات : ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤

(٦) سورة النصر الآيات : ١ ، ٢ ، ٣

الجمع ويولون الدبر^(١) وقد كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه - يقول : كنت أقرأ هذه الآية وأسأل : أى جمع هذا الذى سيهزم ؟ حتى كان يوم بدر ؟ ورسول الله ﷺ - يقرأ : (سيهزم الجمع ويولون الدبر) فرأيت الجمع المهزوم !

فهذه أحداث تحدث عنها القرآن ، وكشف عن وجهها من قبل أن تقع ، فجاءت على الوجه الذى صورها به ، دون ان تفقد لمحة واحدة من ملاحظها ، وكان الذين استمعوا إلى تلك الآيات وأمثالها حين نزولها ثم شاهدوا أحداثها حين وقعت - كانوا كأنما ينظرون إلى شخوص ماثلة فى جانب ، وإلى صورها الواقعة فى المرآة فى جانب آخر !

وهذه الأحداث لم يسمها القرآن قصصا ، لأن القصة تتبع للآثار الماضية والتفات إلى وراء ، لا نظر إلى قدام !

وثانيا : ليس القصص مجرد أحداث تروى ، وإنما هو أحداث تتفاعل وتتحرك ، وتلد عظات وعبرا . . . وليس كذلك الشأن فى الأحداث القائمة أو المستقبلية التى يكشف القرآن عن وجهها إذ أن أهم ما فيها هو هذا الكشف ، الذى يتم بمجرد نزول الآية أو الآيات المتعلقة بها هذه الأحداث . وثالثا : الاشتقاق اللغوى للقصة هو كشف عن آثار ، وتنقيب عن أحداث ، نسيها الناس أو غفلوا عنها ، وغاية ما يراد بهذا الكشف هو إعادة عرضها من جديد ، لتذكير الناس بها ، والفتهم إليها ، ليكون لهم منها عبرة وموعظة ، وهكذا كان القصص القرآنى ، ولهذا جاء ، قال تعالى : ﴿ لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ما كان حديثا يفترى ، ولكن تصديق الذى بين يديه ، وتفصيل كل شئ ، وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾^(٢) .

ورابعا : فى القصص الأدبى الذى يعالج الحياة الواقعة أو المتوقعة يختلط فيه الخيال بالحقيقة ، وتكثر فيه الشطحات والرؤى والأحلام ، ولا يجد الناس غرابة فى هذا ، فهم إنما يأخذونه على هذا الوجه ، وينظرون فيه على تلك الصفة - وليس كذلك ما كان من القرآن من حديث عن الواقع أو المستقبل رجما بالغيب ، ولا خيالا من الخيالات ، ولا حلما من الأحلام ، ولكنه الصدق المصفى ، والحق المبين . . . ومن هنا لم يكن لهذه الأخبار التى جاء بها القرآن مدخل إلى القصص ، الذى لا بد فيه من عناصر الغرابة أو المفارقة أو الاستحالة ، التى تثير الدهش والاستغراب ، والتى يلعب فيها الخيال فى عقول الناس دورا كبيرا . فصان الله سبحانه أخبار الغيب التى نطق بها القرآن من أن تقع فى نفوس الناس هذا الموقع ، وأن يتدسس إلى مشاعرهم منها هذا الإحساس .

القصة والحكاية

ومع هذا يلقانا سؤال آخر ، هو !

لماذا لم يطلق على القصص القرآنى اسم الحكاية بدلا من القصص ؟ والحكاية كما نرى هى أقرب شئ إلى موضوع هذا القصص ، إذ كان إعادة للماضى وتشخيصا ، ومحاكاة له ، لاسيما أن لفظ

(١) سورة القمر الآية : ٤٥

(٢) سورة يوسف الآية : ١١١

« القصص » يوحى بأن جانباً من الخيال قد اختلط به ، على خلاف الحكاية التى تدل على محاكاة مماثلة للحدث أو الأحداث ، دون تزييد عليها ؟

والجواب عن هذا ، هو أن عرض القرآن للأحداث الماضية ليس محاكاة لها ، ولا تمثيلاً لشخصها ومشاهدها ، وإنما هو بعث لها ، وإعادة لوجودها فى النظم المعجز الذى ينقل إلينا الماضى أو ينقلنا إليه ، فنطالع هناك وجوه الحياة فى زمانها ومكانها ، حتى لكأننا أبناء هذه القطعة أو القطع من الزمن وأهله ، فكان لفظ القصص ، أو القص أنسب لفظ يطلق على تلك الأنباء التى عرضها القرآن اذ أن ذلك أشبه بقص أثر الشئ وتتبعه ، ثم الوقوف عليه بذاته ، لا على صورته أو ما يشبه صورته . ونخلص من هذا كله إلى القول بأن القصص القرآنى هو أنباء وأحداث تاريخية ، لم تتلبس بشئ من الخيال ، ولم يدخل عليها شئ غير الواقع ، ومع هذا فقد اشتمل على مالم يشتمل عليه غيره من قصص ، من الإثارة والتشويق ، مع قيامه على الحقائق المطلقة ، الأمر الذى لا يصلح عليه القصص الأدبى بحال أبداً .

اعتراضات وتمويهات

وهناك اعتراضات كثيرة يلقيها بعض الدارسين والباحثين فى وجه القول بأن القصص القرآنى تسجيل لأحداث واقعة ، وأنه جاء بهذه الأحداث كما وقعت دون أن يدخل عليها شئ من التحوير أو التبديل ، أو الزيادة والحذف بحيث يغير من وجوهها ، أو يخالف بين واقعها وما يقصه منها .

وتتلخص هذه الاعتراضات فى :-

أولاً : استحالة نقل أى حدث من الأحداث مع جميع ملابساته ، فهناك كثير من الأمور التى تصحب وقوع الحادثة ، ثم لا يكون لها ذكر إذ لا حاجة إليها فى عرض المحتوى الشخص للحادثة ، وإبراز الملامح ذات الدلالة القوية عليها . . ولو أن نقل الحادثة كان يعنى الإمساك بكل جزئية من جزئياتها لكان ذلك - على استحالاته - ضرباً ، بل ضرورياً من العبث الذى يدعو إلى الملل والسآمة ويذهب بكل ما فى النفس من طاقات الصبر على احتمال هذا اللغو والسخف تصور - مثلاً - حادثة عابرة من الحوادث الكثيرة التى تقع كل يوم على مرأى ومشهد من الناس ، ولتكن سيارة صدمت شخصاً ، فى أحد شوارع القاهرة ، وفى وقت من أوقاتها . . وانظر أتعطى قوة بشرية أن ترصد مجريات هذه الحادثة وأن تمسك بكل قريب وبعيد منها ؟ - السيارة ، لونها ، شكلها ، رقمها ، سائقها ، هيئته - طولها - عمره - ثم الشخص الذى صدم . . أوصافه الجسدية وكيف صدم ، وإيه كانت الصدمة ، ومدى آثارها - ثم اجتماع الناس - والتفافهم حول الحادثة ثم بعض ما كان من تعليقات عليها . . ثم عملية رجال الشرطة والإسعاف - ثم انجلاء الموقف - وعودة الحياة إلى سيرتها فى هذا المكان . . ذلك أقصى ما يمكن أن يمسك به إنسان من شهود هذه الحادثة من صورها وما دار فى محيطها .

وإن ذلك لقليل إلى كثير جداً مما وقع هناك ، ولم يلتفت إليه أحد ، ولم يكن فى حساب أحد . .

فكم من الناس من شهدوا هذا الحادث مثلا ؟ وكم الذكور وكم الاناث منهم ؟ وكم الصغار وكم الكبار ؟ وما أسماؤهم ؟ وماذا يلبس كل واحد ؟ ثم ما شأن كل إنسان من شهود هذه الحادثة ؟ إلى أين كانت وجهته ؟ وماذا تركت الحادثة في نفسه ؟ وهل انطلق بعدها إلى غايته ، أو انصرف إلى وجهة أخرى ؟ إن لكل إنسان من هؤلاء قصة طويلة .. لا تكاد تنتهى .

وهل ينتهى الأمر عند هذا ؟ كلا ، فإن هناك مئات بل ألوف من الأمور الصغيرة أو الكبيرة التى تتصل بهذه الحادثة - يمكن أن يجتمع منها كتاب ضخيم لو تتبعها متتبع ، ثم يبقى بعد ذلك كثير من مجريات الأمور قد أفلت منه ، ولم يقدر على الإمساك به ، ولو استعان بمئات من الأشخاص والأدوات المسجلة والمصورة .

وهذا يكشف لنا عن أمرين : أولهما : استحالة نقل الحدث مهما صغر نقلا كاملا ، بملابساته جميعها مما حواه زمانه ، واشتمل عليه مكانه .

وثانيهما : ان نقل جميع الملابس التى تتلبس بالحادث - على فرض امكانها - لا داعى إليها فى التعرف على وجه الحادثة والاستدلال على شخصياتها والوقوف على ما يحتاج إليه منها . إذ يكفى من هذه الشخصيات ما يصور الملامح الواضحة للحادث ويشخصه .

ويدهى ان القصص القرآنى إذ نقل صورا من أحداث الماضى لم ينقل كل ما تلبس بها من قريب ويعيد ، وإنما أخذ منها ما كان ذا دلالة واضحة عليها ، وأهمل ما لا تدعو الحاجة إليه .. فى تصويرها وتشخيصها !

وإذ كان ذلك كذلك فى القصص القرآنى .. فإنه يعنى أن هذا القصص لج يجىء بالواقع كله بل أخذ بعضا وأعرض عن بعض .. ويعنى أيضا أن هناك تفاوتًا واختلافًا كثيرا أو قليلا بين هذا القصص وبين الواقع ..

وهذا يعنى - مرة ثالثة - أن القصص القرآنى مغاير للواقع على نحو ما .. وهذا يعنى - مرة رابعة - ان هذا القصص قد تصرف فى الأحداث كما يتصرف الكاتب القصصى فى الأحداث الواقعة ، حين يؤلف منها قصة من القصص ، أو رواية من الروايات ، وهذا يعنى أخيرا ان انباء القصص القرآنى ليست الواقع كما وقع ، إذ أنها ليست الصدق كل الصدق .

هذا مدخل من المداخل التى رآها بعض الباحثين آذنة لهم بالقول بأن القرآن الكريم شأنه شأن القصص الأدبى .. لم يقف عند حدود الأحداث الواقعة ، بل تصرف فيها على الوجه الذى يقيم منها قصصا فنيا ، الأمر الذى جعله يغير من وجوه الواقع ، ويخرج به على غير مألوف الحياة ، حتى تجد النفس إقبالا عليه ، لما فيه من جدة وغرابة ولما فى هذه الجدة والغرابة من إثارة

وثانيا : يقدم أصحاب هذا رأى أدلة على قولهم هذا من القرآن الكريم نفسه .. حيث إن القرآن قد جاء بصور متعددة مختلفة للحادثة الواحدة وتحدث عنها حين عرضها بأساليب مختلفة تتغاير بها صور الحوادث وألوانها .

فمثلا :

في قصة موسى !

يذكر القرآن الكريم ابتداء رسالة موسى ، وتكليم الله - سبحانه وتعالى - له وذلك في أكثر من

موضع من القرآن .

ففي سورة طه ، يقول تعالى : ﴿ وهل آتاك حديث موسى إذ رأى ناراً فقال لأهله امكثوا إني آنست ناراً لعل آتيكم منها بقبس أو أجدر على النار هدى .. فلما أتاها نودى يا موسى إني أنا ربك فاخلع نعليك إني بالواد المقدس طوى وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى . إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري .. إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها ، واتبع هواه ، فتردى .. وما تلك بيمينك يا موسى قال هي عصا أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي ولي فيها مآرب أخرى .. قال ألقها يا موسى فآلقاها فإذا هي حية تسعى قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى واضمم يدك إلى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء آية أخرى - لنريك من آياتنا الكبرى ﴾^(١)

وفي سورة القصص تحيىء هذه الأحداث هكذا .. يقول الله تعالى : ﴿ فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور نارا قال لأهله امكثوا إني آنست ناراً لعل آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون فلما أتاها نودى من شاطئ الواد الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى إني أنا الله رب العالمين ، وأن ألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولي مدبراً ولم يعقب ، يا موسى أقبل ولا تخف إني أنا رب العالمين . اسلك يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء .. واضمم إليك جناحك من الرهب فذانك برهاتان من ربك إلى فرعون وملته ، إنهم كانوا قوماً فاسقين ﴾^(٢) .

وفي سورة النمل تحيىء القصة هكذا . ﴿ وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم ، إذ قال موسى لأهله امكثوا إني آنست ناراً سأتيكم منها بخبر أو آتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون ، فلما جاءها نودى أن بورك من في النار ومن حولها وسبحان الله رب العالمين .. يا موسى إنه أنا الله العزيز الحكيم - وألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولي مدبراً ولم يعقب يا موسى لا تخف إني لا يخاف لدي المرسلون إلا من ظلم ، ثم بدل حسنا بعد سوء فإني غفور رحيم ، وأدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء في تسع آيات إلى فرعون وقومه إنهم كانوا قوماً فاسقين ﴾^(٣) .

هذا ، ويلاحظ أن السور الثلاث التي وردت فيها هذه القصة هي سور « مكية » ومعنى هذا أن الداعي الذي جاءت له هذه القصة هو هو لم يتغير ، حيث كانت الدعوة الإسلامية في مواجهة قريش ، ولم يجرى بعد الدور الذي واجهت فيه البلاء مواجهة مباشرة بعد الهجرة !

ولإذن فهذا التكرار ، وهذا الاختلاف في وجوه العرض لم يكن عن مقتضى دواع جديدة دعت

(١) سورة طه الآيات : من ٩ - ٢٣

(٢) سورة القصص الآيات : من ٢٩ - ٣٢

(٣) سورة النمل الآيات : من ٦ - ١٢

إليه ، فيتغير الأسلوب بتغير الموقف ومن يقفون فيه . فمن أى داع إذن كان هذا التكرار ؟ .
والآن نود أن نكشف عن وجوه الاتفاق أو الاختلاف في هذه المواقف التي عرضتها هذه الآيات
القرآنية في السور الثلاث ، ولهذا الجانب الذي عرضته من قصة موسى - عليه السلام - وذلك لنرى وجه
هذا التكرار وهل كان لمجرد التأكيد والتقرير بعرض الوقائع في هذا اللون من التكرار - أم أن ذلك كان
لإضافات جديدة تزداد على كل عرض منها . لتكتمل من ذلك كله الصورة التي يراد تقريرها . . . والتي
تمثل في مجموعها الواقع كما وقع ؟!

وننظر في هذا فنرى ان الحادثة التاريخية تتضمن العناصر الآتية :

(١) موسى في طريق عودته إلى مصر من أرض مدين ، وقد بلغ الطور ، ومعه أهله ، وهناك رأى نارا
موقدة .

(٢) عندئذ طلب إلى أهله أن يمكثوا حيث هم . وان يذهب هو إلى حيث رأى النار .

(٣) غايته من هذا الذهاب ، وأنه يريد بهذا أن يحصل على شعلة من النار ، ليقود منها نارا يصطلي
بها هو وأهله . . أو لعله يجد هناك عند موقد النار من يؤنس وحشته في هذه المتاهة الموحشة .

(٤) وهناك قرب النار سمع موسى نداء الله - سبحانه وتعالى - يخبره فيه ان هذا الذي رآه ليس نارا ،
ولأنما هو نور الحق . . وان المتكلم هو الله - سبحانه - وانه سبحانه قد اختار موسى ليكون رسوله إلى
فرعون وإلى بني إسرائيل .

(٥) واذ كلف موسى بهذه الرسالة فقد وضع الله - سبحانه وتعالى - بين يديه معجزات يحاج بها
فرعون ، وان هذه المعجزات - هي عصاه التي يلقيها من يده فتقلب حية عظيمة تسعى . . ويده التي
يدخلها في جيبه ثم يخرجها فإذا هي بيضاء مشرقة وضیئة من غير سوء !

هذه هي أهم عناصر هذه الواقعة التاريخية التي عرضها القرآن في ثلاثة معارض من النظم
القرآني - في سورة : طه ، والقصص ، والنمل .

ولكى يبدو لنا وجه الشبه أو المخالفة بين هذه المعارض - نجعل بعضها إزاء بعض على هذا
النحو :

سورة طه .

- ١ - ﴿ وهل أتاك حديث موسى إذ رأى نارا ﴾ .
- ٢ - ﴿ فقال لأهله امكثوا . . إني آنست نارا ﴾ .
- ٣ - ﴿ لعل آتيكم منها بقبس أو أجدر على النار هدى ﴾ .
- ٤ - ﴿ فلما أتاه نودي يا موسى إني أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى وأنا اخترتك
فاستمع لما يوحي . . إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني ، وأقم الصلاة لذكري ﴾ . .
- ٥ - ﴿ وما تلك بيمينك يا موسى . . قال هي عصا أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي ، ولي فيها مآرب
أخرى ، قال ألقها يا موسى ، فألقاها فإذا هي حية تسعى ، قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها
الأولى ﴾ .
- ٦ - ﴿ واضمم يدك إلى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء آية أخرى . . لنريك من آياتنا الكبرى
اذهب إلى فرعون إنه طغى ﴾ .

سورة النمل

- ١ - ﴿ وَإِنَّكَ لَتَلْقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾ .
- ٢ - ﴿ إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ ، أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ .
- ٣ - ﴿ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مِنْ فِي النَّارِ وَمِنْ حَوْلِهَا وَسَبِّحَانَ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ، يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ .
- ٤ - ﴿ وَأَلْقِ عَصَاكَ ، فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌ وَلِيٌّ مُدْبِرٌ ، وَلَمْ يَعْقِبْ . يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَى الْمُرْسَلُونَ ، إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَلْ حَسَنًا بِسُوءٍ ، فَيُنَازِلُكُمْ فِي الْبَاطِلِ الْفَاسِقِينَ ﴾ (١) .

سورة القصص

- ١ - ﴿ فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا ﴾ .
 - ٢ - ﴿ قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ ، أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ .
 - ٣ - ﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ .
 - ٤ - ﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ .. فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌ وَلِيٌّ مُدْبِرٌ وَلَمْ يَعْقِبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ .. إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ ﴾ .
 - ٥ - ﴿ اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضًا مِنْ غَيْرِ سُوءٍ . وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ .. فَذَانِكَ بِرَهَانٍ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ (٢) .
- فهذه خمسة مشاهد أو مواقف في هذه القصة :

ويلاحظ :

أولاً : لم يجر ذكر المشهد الأول وهو رؤية موسى للنار في سورة النمل ، على حين قد جرى ذكره في السورتين الأخريين : طه ، والقصص .

وهذا المشهد هو مدخل إلى القصة ، لا يتعلق به غرض أصيل فيها ، بل هو أشبه بالدقات التقليدية على خشبة المسرح ، التي تسبق رفع الستار في الرواية المسرحية . ومع هذا فإن في كل حال من هذه الأحوال الثلاثة نغماً خاصاً يمهد به للجو الذي تعرض فيه القصة .. ففي سورة (طه) كانت القصة امتداداً لتعداد ما حوى القرآن الذي نزل على النبي الكريم من آيات ، وعبر وعظات ، منها

(١) سورة النمل الآيات من ٦ - ١٢

(٢) سورة القصص الآيات من ٢٩ - ٣٢

القصص ، وفيه قصة موسى هذه . . . وكذلك الشأن في سورة النمل حيث تجيء القصة منبثة عن حكمة الحكيم العليم .

﴿ وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم . . . إذ قال موسى لأهله إني آنست نارا ﴾ أما في سورة القصص فإن هذا المقطع هو امتداد لقصة موسى كلها التي بدأت من أولها في هذه السورة ، وشملت قصة حياته من مولده ، وإلقائه في اليم ، ونجاته ، ونبوته ، ولقائه فرعون ، وخروجه ببني إسرائيل من مصر . . .

ثانيا : حين يرفع الستار عن أول مشهد من صميم القصة نرى صورة واحدة للمشهد في المعارض الثلاثة في السور الثلاث كما ترى . . . ففي السور الثلاث جاءت الآية التي تتصدر هذا المشهد هكذا : ﴿ قال لأهله امكثوا إني آنست نارا ﴾ . . . مع تغيير لا يكاد يحس به ، حيث يزيد في إحداها حرف العطف (الفاء) : (فقال) . . . وفي الأخرى تقدمها الظرف (إذ) . . . (إذ قال) وذلك مما يطلبه سياق النظم ولا يستدعيه المعنى الذي جاءت الآية لأدائه .

ثالثا : وفي الموقف الثالث ، من القصة نجد اختلافا في مقول القول لموسى . . . وإن كان هذا الاختلاف اللفظي لا يغير شيئا من المعنى . . . ولكن نحن بصدد البحث في التزام القرآن بحكاية الواقع ، ونقل الأحداث على الصورة التي وقعت - فإن هذا الاختلاف يثير كثيرا من التساؤل !

ففي سورة طه يجيء بقول موسى : ﴿ لعل آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى ﴾ على حين يكون قوله في سورة القصص ﴿ لعل آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون ﴾ ثم يجيء قوله في سورة (النمل) هكذا : ﴿ سأتيكم منها بخبر ، أو آتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون ﴾ . فهناك أمران اقتضاهما هذا الموقف الذي وقفه موسى من أهله حين رأى نارا فدعاهم إلى الانتظار حيث هم في مكانهم لا يبرحونه ، ولا يتحولون عنه بحال .

أما هو فمنطلق إلى حيث رأى النار ليحقق هذين الأمرين : أولهما : هو أن يأتي بجذوة من النار . وثانيهما : أن يجد عند النار من يؤنس وحشتهم ، في هذا المكان القفر الموحش . وقد رأينا صور التعبير عن هذين الأمرين تختلف في كل آية من الآيات الثلاث في السور الثلاث .

فتارة يقدم أحد المطلوبين على الآخر ، وتارة يؤخر . . . ﴿ لعل آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى ﴾ ﴿ لعل آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون ﴾ ومرة يكون الحديث عن النار المستجلبة بأنها جذوة ، ومرة بأنها شهاب قبس ، ومرة ثلاثة بأنها شهاب ، وحسب . وفي آية يكون أحد المطلوبين (خبرا) يلتمس عند النار ، وفي آية أخرى يكون هذا المطلوب (هدى) يلتمس عند النار أيضا .

وفي سورتين يصدر المطلوب كله بحرف الترجى (لعل) على حين يذكر المطلوب في السورة الثالثة غير مصدر بحرف الرجاء هذا . هذه الوجوه الكثيرة من المغايرة تدعو إلى التساؤل حقا . . . فهو موقف واحد لاشك فيه ، وهو قول واحد قيل في هذا الموقف فكيف يتفق هذا مع هذه المقولات الثلاث

وما بينها من اختلاف؟

إن هذا الاختلاف لو كان في غير القرآن لما كان له هذا الشأن الذي نجده له هنا في القرآن الكريم ، حيث إن للقرآن مقامه من الصدق في نقل الأخبار ، والمشاهد والأحداث ، وحيث إن لكل حرف أو حركة فيه وزنها الذي يرجح وزن السموات والأرض ! وهذه الصور المختلفة من الأداء في الإخبار عن الواقع نتقبلها من غير القرآن ، لأن المعول عليه في نقل الأخبار هو المعنى ، وهى بجميع صورها هنا تعبر عن المعنى المقصود ، فى جملة ، وإن اختلفت صور الأداء .

أما القرآن هو الذى يحدث بهذا الحديث ، فهو الصدق المطلق فى جميع صورته وأشكاله . . وكل صورة من صورته فهو الحق الذى لا يأتیه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ! والحق وجه واحد ، لا يدخل عليه شيء مطلقا من تبديل أو تحوير .

وكيف يكون هذا ، وقد جاء الحق فى هذه المعارض الثلاثة على ما بينها من خلاف؟

أترید الجواب؟

إذن ، فلا تعجل ، ولا تضجر . . وخذ نفسك باليقظة وبالصبر معا ، فإننا بين یدى أسرار محجبة ، وكنوز مصونة فى روائع الكلم ، لا تأذن بشيء مما عندها ، إلا لمن يقف بين يديها متلطفا ، متأنيا ، متخاشعا !!

ودع ما يذهب إليه بعض المفسرين من أن هذه المقولات الثلاث كانت من موسى فى موقفه مع أهله ، حيث كان ذلك على سبيل التوكيد ، للتسرية عنهم ، والطمأنينة لهم ، وإشاعة الغبطة فيهم ، بعد أن ظهرت لهم أمارات الرجاء فى ضوء هذه النار .

فهذا الرأى على وجاهته لا نراه يغطى هذا الموقف ، ويقيم له الدليل المقنع . والذى نراه ، ونرجو أن يكون مما أرانا الله ، هو :

أولا : ان مقول موسى لأهله هو قوله : ﴿ امكثوا إني آنست نارا ﴾ ولهذا جاء فى السور الثلاث على صورة واحدة ، لم يقع فيها خلاف ، أو إختلال فى حرف واحد . . ﴿ امكثوا إني آنست نارا ﴾ . . إذ لم يكن له إلا قول واحد ، وإلا شعور واحد ينطلق منه هذا القول .

ثانيا : ان بقية مقول القول لا يعدو أن يكون أحد الصور الثلاث : ﴿ لعلى آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى ﴾ أو ﴿ سأتيكم منها بخبر أو آتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون ﴾ أو ﴿ لعلى آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون ﴾ . وليس فى مقدورنا أن نقطع بأى منها هو الذى كان القول الذى أسمعته موسى أهله !

أما المقولان الآخران فهما - فى رأينا - مما كان يدور فى خلد موسى ويخطر فى خاطره ، وهو يحدث أهله بما سيكون من شأنه مع تلك النار التى رآها . .

فهو بين يأس ورجاء مما سيجد عند النار . . فقد يكون موقد النار ركب تجار ، أو قطاع طرق ! . . ولهذا فإنه إن صرح بأنه سيأتى بخبر راجع نفسه ، فقد غير هذا التقدير . . ثم عاوده الأمل ثم طلع عليه الخوف . . وهكذا . . ثم قال : لعل وعسى !! وهو موزع النفس بين الأمرين المتطلع

إليهما . . الحصول على قبس من النار ، والعثور على الأنيس الذى يبدد مخاوف هذا المكان المخيف ، ويذهب بوحشته . وهو حريص عليهما معا ، طامع فيهما جميعا ، فهو وإن قدم أحدهما لفظا فإنه قد يكون هو المقدم فى خاطره ، ثم يدفعه صاحبه ، ويتقدم عليه . . وهكذا .

والنار التى تصور أنه سيحصل عليها ليست فى تصويره لها على حال واحدة ، لأنه لا يدرى ما هو الذى يمكن أن سيحصل عليه منها ، أهو بعض شرارات من النار ، أو هو شعلة منها . وهكذا تكون هذه الصورة المتكررة هى من منطوق موسى عليه السلام ، ومن الخواطر المتلبسة بهذا المنطوق أيضا . . وهذا التصوير الدقيق لأحوال النفس ، ومسارب الخاطر ، لا يمكن أن يكون فى غير القرآن . . ولا يمكن أن يحتمله نظم غير نظم القرآن .

ثم إنه لا يمكن أن يكون على صورة مقبولة مع هذا التكرار ، إلا إذا جاء موزعا كما هو واقع فى هذه المعارض الثلاثة ، وإلا تراكمت ألوان الصورة وتدافعت ، ولطم بعضها وجه بعض ! هذا ، ويمكن أن تكون هذه المقولات الثلاث قد خرجت من همس الخاطر جميعها ، وتسربت إلى الخارج تحت ضغط الانفعال النفسى ، فكانت ألفاظا مسموعة من موسى أسمعها أهله ، ليكونوا على بينة مما وراء هذا الوجه الذى يتجه إليه ، ولا يدرى على وجه التحقيق ماذا هو ملاق عنده .

وفى المشهد الرابع . . وهو الذى يصور وصول موسى إلى النار ، ثم سماعه نداء الحق هناك ، وإبلاغه أن هذه النار التى رآها ليست على ما تصور وتخیل ، وإنما هى نور الحق جل وعلا . . وإن على موسى - وقد عرف هذا - أن يأخذ لهذا الموقف ما ينبغى له من التوقير والاحترام ، وهنا يؤمر بخلع نعليه ، وإن يتهيأ لسماع ما يوحى إليه من الله تعالى . . فقد اختارته العناية الإلهية ليكون رسولا من رسل الله إلى عباده - فى هذا المشهد نجد أن الصور الثلاث التى صورت بها المشاهد الثلاثة إنما هى صورة واحدة ، قد توزعت توزيعا دقيقا محكما ، بحيث أخذ كل مشهد بحظ منها ، يمكن أن يقوم بنفسه ، مستغنيا عن غيره ، فترى فيه ملامح الصورة كلها مجتمعة ، ومفترقة ! كما يمكن إذا انضم إلى المشهدين الآخرين أن يكون معها صورة مسجدة ، تبرز فيها الملامح ، وتظهر المضمرات ، وما استتر وراء الكلمات ! فنحن نرى من مجموع الصور الثلاث التى تقع لنا من هذه المشاهد الثلاثة أن مكان هذا الحدث كان بالوادي المقدس طوى ، وأنه كان بالجانب الأيمن للبقعة المباركة من الشجرة ، وإن موسى سمع صوت الحق يناديه : ﴿ إني أنا ربك . . فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى ، وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى ، إني أنا الله . . لا إله إلا أنا فاعبدنى ، وأقم الصلاة لذكري ﴾^(١) .

﴿ إني أنا الله رب العالمين ﴾^(٢) - ﴿ إنه أنا الله العزيز الحكيم ﴾^(٣) وواضح من هذا أن هذه الكلمات التى تفرقت فى السور الثلاث يمكن أن تظهر فى مشهد واحد ، فيجتمع بعضها إلى بعض على هذا النحو ، دون أن يكون بينها تدافع أو تفكك ، بل إن بعضها ليصافح بعضا فى تعاطف واشتياق ، فهى

(١) سورة طه الآيات : ١٢ - ١٤

(٢) سورة القصص الآية : ٣

(٣) سورة النمل الآية : ٩

جميعها من قول الله سبحانه وتعالى لموسى في هذا الموقف ، قد حملت كل سورة بعضا منه ، وهذا البعض كاف لذاته لأداء المعنى المراد ، فإذا اجتمع بعضها إلى بعض اتسع اطار الصورة ، فإزدادت وضوحا ، وإن لم تتغير محتوى ومضمونا !

وواضح أيضا أن هذا التكرار في الحديث عن الله - ﴿ إني أنا ربك .. إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني .. إني أنا الله رب العالمين .. إني أنا الله العزيز الحكيم ﴾ هذا التكرار المتلاحق في سرعة وانطلاق إنما اقتضاه الموقف الذى اهتز له موسى من اقطاره ، فكان صوت الحق سبحانه بهذه النداءات المتكررة سكنا لقلب موسى ، وامساكا لنفسه وقد كادت تذهب شعاعا !

أما في المشهد الخامس ، وهو الذى يكشف عن المعجزات التى وضعها الله - سبحانه وتعالى - فى يد موسى ، وما كان من موسى حين رأى هذه المعجزات تنفجر من بين يديه لأول مرة - فى هذا المشهد نرى فيه ما رأينا فى سابقه ، من أن الصورة الكبيرة الجامعة للمشهد كله ، قد وزعت بين السور الثلاث ، بحيث يمكن ان يستقل كل مقطع منها فى سورته بتأدية المعنى الذى تؤديه الصورة مجتمعة فى مقاطعها الثلاثة ، وبحيث إذا اجتمعت هذه المقاطع تشكلت منها صورة تكشف عن الأجزاء الدقيقة الخفية ، التى كانت تطل من وراء حجاب ، فى مقطعها الذى شكلت فيه !!

ففى أحد المقاطع نرى موسى يتحدث عن عصاه ، ويكشف عن وظيفتها الأصلية التى يعرفها لها ، والتى صاحبها عليها .. الأمر الذى لا نجده فى المقطعين الآخرين .

ونرى العصا حين يؤمر موسى بإلقائها من يده تنقلب حية تسعى فى أحد المقاطع ، ثم نراها تهتز كأنها جان فى المقطعين الآخرين .. فتكتمل بذلك الصورة الحقيقية لما صارت إليه العصا .. فهى حية فى ضخامتها ، جان فى خفتها ونشاطها وحيويتها التى تضاعف من أفاعيلها ، وتضاعف من مشاعر الفرع والهلل منها .. وأنت ترى فى تصويرها بالحية قد وصفت الحية بأنها « تسعى » ، ومن هذا الوصف نجد معنى الخفة والنشاط الذى كشف عنه ما وصفت به فى المقطعين الآخرين من أنها « تهتز كأنها جان » .. كما نرى فى تصويرها وهى « جان » بأنها تهتز - ما يشعر بضخامتها لأنها لو كانت دون ضخامة الحية لما كان منها اهتزاز بل انطلاق أشبه بانطلاق السهم !

فالحية التى تسعى والجان الذى يهتز .. كل منهما يعطى صورة واضحة لما انقلبت إليه العصا .. فهى حية فى جان ، و جان فى حية .. (والجان هو فرخ الحيات) وقد جاء فى القرآن وصف آخر لما صارت إليه العصا .. وهو ﴿ ثعبان مبين ﴾ .. وهذا الوصف يناظر تماما الوصفين السابقين لها .. فهى ثعبان فى خفة الحركة ولكنه ثعبان مبين فى عظم الجسم وضخامته ! وهكذا نجد التكرار الذى يحدث فى بعض مشاهد القصة القرآنية يؤدى وظيفة حيوية فى إبراز جوانب لا يمكن أداؤها على وجه واحد من وجوه التعبير بل لابد أن تعاد العبارة مرة ومرة لكى تحمل فى كل مرة بعضا من شخصيات المشهد وإن كانت كل عبارة منها تعطى صورة مقاربة للمشهد كله .

ولنا أن نشبه ذلك على بعد ما بين المشبه والمشبّه به .. بالتصوير (الفتوغرافى) .. اللقطة الواحدة تصور المشهد كله . تصويرا كاملا صامتا .. فالصورة هنا وإن أعطت جميع ملامح المشهد فإنها تحتاج فى قراءتها إلى مهارة وحذق ،

للكشف عن مضمونها أو بعض مضمونها . . أما الصورة السينمائية فإنها تتشكل من مئات وآلاف (اللقطات) حتى تتجسم الأحداث وتتحرك الشخصيات وتتكشف كل خافية كانت مخبئة وراء الصورة (الفتوغرافية) إن تكرار الأحداث القصصية في القرآن هو إعجاز من إعجاز القرآن . تتجلى فيه روعة الكلمة وجلالها ، بحيث لا يرى لها وجه في أية لغة وفي أية صورة من صور البيان يقارب هذا الوجه في جلاله وروعته وسطوته ! وهل شهدت الحياة الكلمة تؤدي ما يؤديه العمل السينمائي اليوم من نقل المشاهد بأبعادها الثلاثة - (طولها وعرضها وعمقها) وبحركاتها وسكناتها ، ونطقها ، وصمتها ؟ وكم تتكلف السينما لهذا العمل من لقطات ؟ مئات وألوف ! أما النظم القرآني فإنه ينقل المشاهد بأبعادها وأعماقها وبحركاتها وسكناتها وبنطقها وصمتها وبوسوسة خواطرها . وهجسات نفوسها ، ثم لا يكون ذلك كله إلا بلمحة أو لقطتين أو ثلاث للمشاهد الواحد كله . ومن تدبير القرآن في هذا أنه لم يجمع هذه اللقطات في معرض واحد حتى لا تتراكم وتتراكب بل جعلها موزعة في مواضع متباعدة في القرآن الكريم بحيث يمكن أن تستقل كل (لقطه) منها بذاتها مستغنية عن كل تفصيل ، ثم بحيث لو نظر ناظر إليها من خلال اللقطات الأخرى المماثلة أو المناظرة لها لوجد منها جميعا صورة واحدة . .

وإذن فالذين يقولون إن هذه الوجوه المختلفة في عرض القصة الواحدة لا يستقيم منها القول بأن القصص القرآني قصص واقعي بجميع عناصره ومقوماته ، هذا القول إنما يستقيم في نظر من ينظر إلى القرآن على أنه مجرد كلام من الكلام يرسل على عواهنه ويلقى به بغير حساب ولا تقدير ، ولكنه لا يستقيم أبدا عند من ينظر في القرآن بعين بصيرته فيرى في كل كلمة من كلمات الله عالما فسيحا لا حدود له مشرقا بأضواء الحق من أرضه وسمائه .

ثالثا : ومما يراه أصحاب هذا الرأي مؤيدا لوجهة نظرهم فيه أيضا أن القرآن جاء بلسان عربي مبين ، والشخصيات التي وردت في هذا القصص لم يكن لسانها عربيا كموسى . وفرعون ويوسف واخوته . والعزیز وامرأة العزيز ، وأصحاب الكهف ، وما كان بينهم من حديث ، والأنبياء وأقوامهم ، إلى كثير من الشخصيات التي نطق عنها القرآن بلسان عربي . . فرعون مثلا نطق عنه القرآن بمقولات كثيرة كقوله : ﴿ أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي ؟ أفلا تبصرون ؟ ﴾^(١) . وقوله : ﴿ يا هامان ابن لي صرحا لعلى أبلغ الأسباب ، أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى ﴾^(٢) .

وإنه مما لا شك فيه أن فرعون لم ينطق بهذه الكلمات في مقاطعها وحروفها ، وإنما الذي نطق به هو ما حملت هذه الكلمات من معنى . . فهي ترجمة أمينة صادقة لما قال ! وهذا النقل أيا كان من الدقة والاحكام في نقل المعاني من لسان إلى لسان فإنه على أي حال صورة مخالفة للواقع ولو في الصورة والشكل وإن لم يكن في المضمون والمحتوى ، وأي مخالفة أكبر من أن تتبدل السنة الناس فينطقوا بغير اللغة التي نطقوا بها ؟ فرعون - ولغته المصرية القديمة - ينطق بالعربية الفصحى ، وأصحاب الكهف

(١) سورة الزخرف الآية : ٥١

(٢) سورة غافر الآية : ٣٦

ولا تعرف لغتهم على وجه التحديد - يتحاورون بلسان عربى مبين .. وهكذا ؟
وأكثر من هذا .. الحيوانات والجماد ينطقها القرآن بهذا البيان المبين ﴿ ثم استوى إلى السماء
وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها .. قالتا أتينا طائعين ﴾ ^(١) ..
﴿ قالت غملة : يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا
يشعرون ﴾ ^(٢) .

والهدد ينطق بين يدي سليمان قائلا : ﴿ أحطت بما لم تحط به وجئتكم من سبأ نبأ يقين ، إني
وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم ﴾ ^(٣)
فهذه المفارقات وأشباهاها قد جعل منها بعض الدارسين منفذا آخر ينفذون به إلى القول بأن
القصص القرآنى شأنه شأن القصص التاريخى الذى لا يكون قصصا إلا إذا لونه القاص بألوان من
خارج الواقع وجعل لنفسه سلطانا على الأحداث فيغير ويبدل كما يقتضى الحال وتستدعى أجواء
القصة .

دعاوى متهافة :-

والحق أن هذه الاعتراضات كلها مباحكات وتلبيسات متهافة ، لا تقوم على أساس من الحجة
الواضحة والمنطق المستقيم .. فالقول بأن القصص القرآنى لم يحمل فى أطوائه الأحداث التى جاء بها
متلبسة بكل ما صاحبها من صور وأشكال ساكنة ومتحركة فى مجال الزمان والمكان على سواء - هذا
القول - مع تسليمنا به لا تقوم منه حجة أبدا على أن القصص القرآنى قد بعد عن الواقع فى قليل أو
كثير ..

ذلك أن الحياة كلها بأزممتها وأمكتتها ، وأشخاصها وأحداثها حاضرة عتيدة كلها بين يدي
الحكيم الخبير الذى لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء !
وهذا القصص الذى جاء به القرآن الكريم لم يكن تاريخا للحياة كلها وأحداثها ، وإنما هو
عرض لبعض المواقف وكشف عن بعض الأحداث التى من شأنها أن تحدث فى النفس أثرا ، وتقيم فى
الضمير وازعا ، وتفتح العقل والقلب على مواقع ماثلة للعبرة والعظة .
فالقصص القرآنى لا يمسك بالأحداث الواقعة فى الحياة كلها .. وإنما يمسك من الأحداث
والوقائع بما يراه مجليا عن عبرة كاشفا عن عظة ، لتنتفع بها الدعوة الإسلامية فى مقام الدعوة إلى الله ،
والإنابة إليه .. ولا يعنيه أن يكون الحدث مدويا صارخا ، أو مزلزلا عاتيا بقدر ما تعنيه الدلالة التى
يدل عليها ، والعظة التى ينطوى عليها .. ولا شك أن هذه الأحداث والوقائع التى يقطعها القصص
القرآنى من (شريط) الحياة هى الصدق الخالص ، والحق الذى لا يأتيه باطل من بين يديه ولا من

(١) سورة فصلت الآية : ١١

(٢) سورة النمل الآية : ١٨

(٣) سورة النمل الآيتان ٢٢ ، ٢٣

خلفه . . يقتطعها القرآن زمانا ومكانا وأشخاصا وملابسات ، وينفخ فيها نفخة الحياة فتبعث من مرقدتها ، وقد تساقط منها ما جف من أوراقها ، وما ذبل من أغصانها . . وإذا هي ثمر طيب ، داني القطوف ، تأخذه العين وتشتهيه النفس ! .

وإذن فليس تخلص القصص القرآني من الزوائد والحواشي التي لا تغني شيئا في تصوير الحدث وعرضه في معرض الاعتبار والعظة - ليس هذا التخليص إلا عملية غربلة وتصفية ، غايتها تنقية الحدث من الشوائب ، وتخليصه من الغناء والزبد ، ليصفو موره ، ويسوغ مذاقه للواردين . . وليس ذلك عن عجز أو غفلة عن جميع الملابس التي اتصلت بالحدث من كل جهة من جهاته ، والتقت به من قريب أو بعيد !

وهذا التصرف الذي كان من صنيع القرآن في عرض الأحداث ، وفي تخير الجوانب التي تخدم بروز الأحداث ، وتجليتها - ليس مما يصح أن يقال معه : إن القرآن - وقد أباح التصرف في الأحداث على أي وجه من الوجوه قد - أدخل في القصص القرآني ما ليس من صميم الواقع ، أو أنه غير وبدل في معالمة . فهذه مغالطة - كما قلنا - لأن ما جاء في القصص القرآني هو الصميم من الواقع ، واللباب من الحادث ، وإن يكن ترك ما ترك من حواش وأطراف وزوائد ، وقشور .

وأما القول بأن القرآن نفسه قد جاء بالحادثة الواحدة في صور مختلفة متغايرة ، فهذا أيضا خلط وتخبط ، جاء عن نظر قاصر لا يرى إلا ظاهر الأشياء ، ولا ينفذ إلى شيء مما وراء هذا الظاهر ! وقد رأينا فيما ذكر القرآن من قصة موسى أن هذا الاختلاف : إما اختلاف غايته تصوير ما توارد على النفس من خواطر ، وما تردد عليها من صور . . كقول موسى لأهله :

﴿ امكثوا إني آنست نارا لعل آتيكم منها بقبس أو أجدر على النار هدى ﴾ (١) .

وقوله : ﴿ امكثوا إني آنست نارا لعل آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون ﴾ (٢) .

ثم قوله : ﴿ امكثوا إني آنست نارا ، سأتيكم منها بخبر ، أو آتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون ﴾ (٣) .

وأنت ترى أن الصورة ظلت واحدة في المقام الذي لم يكن بد من ثباتها فيه ، كقوله لأهله حين رأى النار (امكثوا) إذ لم يكن ثم سبيل إلى تردد في هذا الأمر . وكذلك الشأن في قوله ﴿ إني آنست نارا ﴾ فهذا سبب ، لا سبب غيره في دعوته لأهله إلى المكث حيث هم ، وحيث ينطلق هو وحده ليرى ماذا هناك !

ثم كان هذا التردد الذي تذهب النفس في شعابه مذاهب مختلفة ، حين أراد أن يكشف لأهله عما يبغى من وراء ذهابه إلى النار . . إن الأمر هنا مختلف ، فهو لا يدرى ماذا هنالك عندها ، ومن

(١) سورة طه الآية : ١١

(٢) سورة القصص الآية : ٢٩

(٣) سورة النمل الآية : ٧

موقدها .. وأخيرا أيصيب عندها خيرا أم شرا؟ .
ولهذا كثرت وساوسه ، وتعددت خواطره . فكانت هذه المقولات أصدق تصوير لحاله تلك في
ظاهر أمره وباطنه جميعا .. وإما أن يكون الاختلاف في اللفظ عن اختلاف في الأحوال والمواقف ..
كقوله في وصف عصا موسى وما تصير إليه بعد أن يلقيها من يده .. فهي مرة (حية تسعى) وهي مرة
أخرى (ثعبان مبین) وهي مرة ثالثة (تهتز كأنها جان) .. فهي صور من أحوال العصا يكمل بعضها
بعضا .. فهي حية في ضخامتها ، وهي ثعبان في خفتها ونشاطها ، وهي جان فيما تثير من رعب
وفزع .. ولقد رآها موسى على تلك الصفات كلها ، وصحبها على تلك الوجوه التي تكشفت له منها .
وأما أن القرآن قد تحدث بلسانه العربى عن ألسنة غير عربية ، أو نطق عن دلالة الحال ، كما في
تحديثه عن الجماد والحيوان ، فهذا لا يمكن أن يجيء منه الادعاء بأن القرآن قد تقول على من نطق
عنه ، وإنما هذا الذى نطق به القرآن مترجما به عما نطق به الناطقون ، أو نطقت به دلائل الأحوال - إنما
هو المضمون الحق ، والمحتوى الصادق الأمين لما نطقت به الألسنة ، أو أشارت إليه دلالات الأحوال .
وماذا كان يمكن أن يكون غير هذا فى مثل هذه الأحوال إذا أريد نقلها وعرضها فى الحياة ؟
أكان من التدبير الحكيم هنا أن يجيء القرآن بالأشخاص والأحداث فيبعثها من مرقدها ويحركها
على مسرح الحياة من جديد لتتطرق هى بما نطقت به ، أو لتشير إلى ما كانت تشير إليه ؟
إن قدرة الله تعالى لا يعجزها شيء .. ولكن هل تحتل الحياة هذا لو انه حدث ؟ وهل يلقاه
الناس فلا يفتنون به ، ولا يخرجون عن عقولهم فى تخبط مجنون ؟ ﴿ قل لو كان فى الأرض ملائكة
يمشون مطمئين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا ﴾ (١) !
ثم هل لو استمع العرب إلى هذه المقولات التى نطق بها أصحابها كما نطقوها بألسنتهم ، أو
بأصواتهم - هل يفهمون شيئا ، أو ينتفعون مما استمعوا بشيء ؟
إن القصص القرآنى لكى يكون قصصا مثمرا نافعا ، فقد جاء على وفق الحياة التى يحيها
الناس ، ولم يخرج على مألوفها .. !
ولو جاء على غير هذا لما كان للناس التفات إليه ، ولو أنهم التفتوا إليه لما وقع لهم منه إلا البلبلة
والاضطراب ! .

فالناس يتداولون الأنباء ، ويروون الأخبار ويتناقلونها ، على تعدد الأشخاص ، واختلاف الألسنة ..
ثم لا يكون شيء من ذلك حائلا بينهم وبين أن يفيدوا منها وينتفعوا بها ، ويخلصوا إلى مضامينها .
وغاية ما يمكن أن ينظروا إليه فى هذا الأحوال ، هو الصدق فى الرواية ، والأمانة فى النقل ،
والدقة فى التصوير والتعبير . وإذا كان هناك ملتصق تلتصق فيه هذه الغاية على أتم تمامها ، وأكمل
كمالها فلن يكون ذلك على هذا الوجه إلا فى القرآن ، وفيما نطق عنه القرآن .

إن القصص القرآنى وإن يكن سماوى المطلع فهو بشرى الصورة ، إنسانى المنازع والعواطف ،
يتحدث عن الناس إلى الناس ، ويأخذ من الحياة للحياة .. يقرؤه الناس ويسمعونه فكأنما يقرأون

اطواء أنفسهم ، ويسمعون همس ضماثرهم ، ووسوسة خواطرهم ، ومن هنا فهم يعيشون فيه ، ويحيون معه ، ويستفعون به انتفاع الأرض بصوبها الغيث .. فيقع منها مواقع مختلفة ، بين وديان وسهول ، وجبال وقيعان ، وأحراش وسهول !

المؤثرات المباشرة وغير المباشرة في القصص القرآني :

وهنا سؤال يلقانا بعد هذه المقولات التي قلناها في القصص القرآني ، من أنه أحداث واقعية مقتطعة من التاريخ ، وأن القرآن قد تخير من هذه الأحداث ما يخدم الدعوة ، ويفتح للناس طرقا للعبارة والعظة منها ، كما انه تخير من هذه الأحداث ما رآه من المواقف والمشاهد صالحا لبناء الصورة المحققة لهذه الغاية .

نقول : إن سؤالا يلقانا بعد هذه المقولات .. وهو : إذا كان ما في القصص القرآني هو مجرد أحداث تاريخية . فكيف تحسب هذه الأحداث في عداد القصص ؟ ومن أي باب تدخل إليه ؟ وهي ليست إلا تاريخا ، أو بمعنى أدق حقائق تاريخية ؟ وفي القرآن الكريم كثير من الحقائق التاريخية ، والنفسية ، والاجتماعية ، والعلمية ، مع هذا فلم تدخل في القصص القرآني المعروف ! فلم اختصت هذه الحقائق التاريخية دون غيرها باسم القصص ؟

والجواب عن هذا من وجهين :

أولا : الأسلوب الذي جاء عليه القرآن من هذا النظم الرائع المعجز المفجر هو في ذاته آية الآيات في فن الكلام .. ومن هنا كانت آيات القرآن الكريم كلها فنا عاليا لا يطاول .. من فنون القول ، وكان أي لون من ألوان الحقائق معجبا مثيرا إذا حملته ألفاظ القرآن ، وجلته في هذا النظم المعجب المعجز ! وإذن فكل آيات القرآن تحقق لقارئها أو لسامعها أصدق وأقوى ما تحقق أروع آيات الفن القولي ، في مجال النثر أو الشعر ، وفي مجال الخطابة ، أو القصة .

فالآية - أو الآيات من الكتاب الكريم - لك ان تطلق عليها الوصف الذي يروعك ويروك من فنون القول . فتقول عنها إنها قصيدة أو خطبة ، أو قصة .. لا تعني بذلك الأسلوب الذي نظمت به وجاءت عليه ، وإنما تعني ما دخل عليك منها من آثار فنية ، ملكت عليك عقلك وقلبك .. وهذا ما كان من قريش وهي تستمع من القرآن فتأخذها منه روعة ، وتغشاها من تلقائه سطوة .. ثم لا تدري ماذا تقول فيه .. فتقول مرة .. إنه شعر ، ومرة أخرى هو سحر ، ومرة ثالثة : أساطير الأولين ، أو هو قول كاهن ، أو قول شاعر ،

وهكذا تمضي في تنقلها من قول إلى قول فيه ، لأنها تجد منه أحوالا أشبه بهذه الأحوال التي تجدها للشعر ، وللسحر ، وللأخبار الغريبة التي يحدث بها الكهان وأصحاب الأساطير .. وإن كان ما يلقاها من القرآن أصفى صفاء ، وأبلغ اثرا ، وأصدق خبرا ..

ومن أجل هذا أراد بعضهم ان يكيد للنبي ، وهو يدعو قريشا إلى الاسلام ، فجلب قينات يعزفن ويغنين ، ليجذب قريشا إليه ، وليملأ أسماعهم بتلك الألحان والأغاني ، التي استجلبها ، وهو يحسب أن ذلك سيصرف الناس عن الاستماع إلى القرآن ، والخشوع له ، فما التفت احد إلى هذا

العبث إزاء ما كان يملأ به القرآن الأذان والقلوب من آياته البينات المعجزة ، وفي هذا يقول القرآن الكريم : ﴿ ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله ﴾^(١) . وحين لم ينفع هذا شيئا من النفع فيما أريد له ، جعلوا يشوشون على القرآن حين يتلى ، حتى لا يخلص منه إلى الأذان ما ينفذ إلى القلوب منه من جلال ورهبة ، وقد فضح القرآن الكريم هذا الكيد الصبياني ، فقال تعالى : ﴿ وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون ﴾^(٢) .

فالقرآن كله يدخل على العقول والقلوب مدخل الروعة والدهشة والإثارة ، بما لا تستطيع أروع آيات الفن الكلامي ان تبلغ أقل القليل منه .. متفرقة ومجمعة ! ..

وهذا يؤدي بنا إلى القول بأن الأحداث التاريخية في النظم القرآني لها من الإثارة الفنية ما لا يحدثه أروع الملاحم ، وأكثرها إغرابا في الخيال .. حتى لو كانت هذه الأحداث التي يعرضها القرآن تساق مساعق الخير ، مجردة من كل صور الصراع ، والاحتكاك بغيرها من الأحداث .

ثانيا : اذا كان ذلك هو شأن القرآن كله من حيث نظمه ، وما لهذا النظم من روعة أسرة وسلطان قاهر متحكم في العقول والقلوب ، فإن اطلاق اسم القصص على بعض الأحداث التاريخية التي جاء بها لا تأباه هذه الأحداث ، بل إنها في هذا النظم المعجز ليست مجرد سرد للأخبار ولا عرض للأحداث وإنما هي - كما قلنا - بعث جديد لها ، كما تبعث الحياة في الأرض الموات !

وإذن فليست الأحداث التي جاء بها القصص القرآني محتاجة إلى شيء جديد من مواد التشويق والإثارة ، تضاف إليها ، لكي تكتسب ألوانا من الإثارة والتأثير .. إذ أنها فو هذا النظم القرآني غنية عن كل زخرف ، مستغنية عن كل طلاء ، بما أفاض الله عليها من آيات الحسن ، والجمال والجلال .. فكل حسن إلى حسننا باهت ، وكل جمال إلى جمالها ما حل ، وكل جلال إلى جلالها ظل زائل ! . وفيما سيلقانا من مباحث هذا الكتاب شواهد كثيرة لما نقول ...

الأمثال في القرآن :-

هذا ، وهناك أمثال ضربها القرآن الكريم ، لأحوال وأحداث ، وهي على امتداد القصص ، من حيث إنها للعبارة والعظة ، كما يقول الله تعالى : ﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس ، لعلهم يتفكرون ﴾^(٣) .

ومع هذا فلم يدخلها القرآن في القصص ولم يعدها منه .

وماذا في هذه التفرقة ؟ :-

ولنا أن نقول : إن القرآن ينظر إلى القصة نظرة أكبر من مجرد أنها أحداث وحقائق تاريخية ، إذ أن في كيانها من العناصر المعروفة في القصص ما ليس في غيرها من الحقائق التي تصور لمجرد الكشف عن ذاتها .

(١) سورة لقمان الآية : ٦

(٢) سورة فصلت الآية : ٢٦

(٣) سورة الحشر الآية : ٢١

ونعم .. فإن الذى يتأمل القصص القرآنى ، وينظر فى الأحداث والمواقف التى أطلق عليها القصص - يجد أن الحادثة القصصية فى القرآن حادثة متميزة بطابع خاص ، لا نجده فى تلك الأحداث التى تحدث عن أمثال واقعة أو مفترضة .

ففى أحداث القصص القرآنى صور من الصراع بين قوى الخير والشر ، وبين النور والظلام ، والإيمان والشرك .. والهدى والضلال ، كما أن فيها صوراً من الحوار والجدل الذى تنشأ عنه (أزمة) الحدث أو عقده ، وأخيراً تتمخض هذه الأزمة أو تلك العقدة عن موقف تنفرج فيه الأزمة ، أو تحل العقدة ..

ثم إن هذه القصص أيضاً لا تعدم مشاهدة وجه المرأة كما تعرفها الحياة . فى عقلها وطيشها ، وفى حبها وبغضها ، وفى قوتها وضعفها ..

والمرأة كما نعرف عنصر أصيل من عناصر القصص ، كما أن الحوار المنتج للأزمات ، والمولد لحلها عنصر قوى فيها أيضاً . وبهذين العنصرين - الحوار المنتج ، والمرأة بكل أنوثتها - بهذين العنصرين القويين دخلت الحادثة القرآنية تحت هذا الاسم . (القصة) ! وهذا وذاك جميعه من واقع الحياة ومن صميمها ..

لم تشبه شائبة توليد ، أو تخيل (المرجع : القصصى القرآنى فى منطق ومفهومه . للاستاذ عبد الكريم الخطيب)

والآن إلى كلام الله موسى :

قوله تعالى : ﴿ وإذ نادى ربك موسى أن ائت القوم الظالمين قوم فرعون ألا يتقون ﴾ (١) . أى : اذكر لقومك وقت نداء ربك موسى من جانب الطور الأيمن وقوله له : ائت القوم الظالمين قوم فرعون . الذين عم ظلمهم البلاد والعباد ﴿ إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم إنه كان من المفسدين . ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم فى الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون ﴾ واعجب معى لهذا الموقف الرهيب : موسى عندما خرج من مصر قال : ﴿ رب نجنى من القوم الظالمين ﴾ (٣) . ولما التقى بشيخ مدين وقص عليه القصص قال : ﴿ لا تخف نجوت من القوم الظالمين ﴾ (٤) . ولما ناداه ربه من جانب الطور الأيمن قال له : ﴿ ائت القوم الظالمين ﴾ ﴿ وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت : رب ابن لى عندك بيتا فى الجنة ونجنى من فرعون وعمله ونجنى من القوم الظالمين ﴾ (٥) .

فانظر إلى مراحل الظلم ، والظلم مرتعه وخيم ، وعاقبته خسران مبین ، وعقابه أليم . قال جلت قدرته : ﴿ فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم . فانظر كيف كان عاقبة الظالمين ، وجعلناهم أئمة

(١) سورة الشعراء الآيتان : ١٠ ، ١١

(٢) سورة القصص الآيات : ٤ ، ٥ ، ٦

(٣) سورة القصص الآية : ٢١

(٤) سورة القصص الآية : ٢٥

(٥) سورة التحريم الآية : ١١

يدعون إلى النار ، ويوم القيامة لا ينصرون وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين ﴿١﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ ألا يتقون ؟ ﴾ أى ألا يتقون الله ؟ ألا يحذرون عقوبته ؟ ألا يخافون عذابه ؟ ﴿ ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم . يوم يقوم الناس لرب العالمين ﴾ ﴿٢﴾ .
قوله تعالى : ﴿ قال رب إني أخاف أن يكذبون . ويضيق صدرى ولا ينطلق لسانى فأرسل إلى هارون . ولهم على ذنب فأخاف أن يقتلون ﴾ ﴿٣﴾ .

هذا تضرع من كلم الله موسى لربه : إني أخاف أن يكذبون . ويضيق صدرى من تكذيبهم ولا ينطلق لسانى بالدعوة من شدة ما يصيبني من التكذيب . فأرسل إلى هارون أى : أرسل جبريل بالوحي لتشد به عضدى ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ قال رب اشرح لى صدرى ويسر لى أمرى واحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولى ، واجعل لى وزيراً من أهلى هارون أخى . أشدد به أزرى وأشركه فى أمرى كى نسبحك كثيراً ونذكرك كثيراً إنك كنت بنا بصيراً . قال قد أوتيت سؤالك يا موسى ﴾ ﴿٤﴾ .

وقوله : ﴿ ولهم على ذنب فأخاف أن يقتلون ﴾ ﴿٥﴾ تفسيره فى قوله تعالى : ﴿ قال رب إني قتلت منهم نفساً فأخاف أن يقتلون ﴾ ﴿٦﴾ وليس الخوف من القتل فى حد ذاته ، فالمرسلون يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله وكفى بالله حسيباً . إنما الخوف من أن يقتلوه قبل أن يبلغ رسالات ربه ويؤدى أمانة الدعوة . وقصة القتل هى التى وردت فى قوله جل ذكره : ﴿ ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها ، فوجد فيها رجلين يقتتلان ، هذا من شيعته وهذا من عدوه فاستغاثه الذى من شيعته على الذى من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه . قال هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين . قال رب إني ظلمت نفسى فاغفر لى ، فغفر له إنه هو الغفور الرحيم ﴾ .

والخلاصة أن موسى سأل ربه أمرين : أحدهما أن يرسل معه أخاه هارون كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ وأخى هارون هو أفصح منى لساناً فأرسله معى ردءاً يصدقنى إني أخاف أن يكذبون ﴾ ﴿٧﴾ فاستجاب له ربه . قال تعالى : ﴿ قال سنشد عضدك بأخيك ونجعل لك سلطاناً فلا يصلون إليكما . بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون ﴾ ﴿٨﴾ . وقال عز وجل : ﴿ واذكر فى الكتاب موسى إنه كان مخلصاً وكان رسولا نبياً وناديناه من جانب الطور الأيمن ، وقربناه نجياً . ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبياً ﴾ ﴿٩﴾ .

(١) سورة القصص الآيات : ٤٠ ، ٤١ ، ٤٢

(٢) سورة المطففين الآيات : ٤ ، ٥ ، ٦

(٣) سورة الشعراء الآيات : ١٢ ، ١٣ ، ١٤

(٤) سورة طه الآيات : ٢٥ - ٣٦

(٥) سورة الشعراء الآية : ١٤

(٦) سورة القصص الآية : ٣٣

(٧) سورة القصص الآية : ٣٤

(٨) سورة القصص الآية : ٣٥

(٩) سورة مريم الآيات : ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣

والامر الاخر ان يصرف الله عنه شرهم حتى يتمكن من إبلاغ الدعوة فاستجاب له ربه ﴿ قال ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى ﴾ . قال لا تخافا إني معكما أسمع وأرى ﴿ (١) ﴾ .
وفي سورة الشعراء ﴿ قال كلا فاذهبا بآياتنا إنا معكم مستمعون ﴾ (٢) : والمراد بالآيات المعجزات الباهرات وخوارق العادات كالعصا واليد . ﴿ إنا معكم مستمعون ﴾ فمن كان الله معه فمن عليه ؟ ومن وجد الله فماذا فقد ؟ .

وإذا العناية لاحظتك عيونها نم فالمخاوف كلهن أمان

وما أجل قوله جل جلاله : ﴿ إذ يوحى ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب ﴾ . فاضربوا فوق الأعناق ، واضربوا منهم كل بنان ﴿ (٣) ﴾ .
وما أعظم قوله جل ذكره : ﴿ إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا ﴾ . فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم ﴿ (٤) ﴾ .
وما أكرم قوله جل ذكره : ﴿ إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ﴾ (٥) .
وقوله تعالى : ﴿ فاتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين ﴾ . أن أرسل معنا بنى اسرائيل ﴿ (٦) ﴾ :
ولما جاء بلفظ الرسول مفردا نظرا إلى توحيد دعوتها كما جاء في قوله تعالى : ﴿ وجاء فرعون ومن قبله والمؤتفكات بالخاطئة ﴾ ، فعصوا رسول ربهم فأخذهم أخذة رابية ﴿ (٧) ﴾ فرسل الله جميعا قدامهم في معسكر واحد هو معسكر التوحيد ، وتحتم لواء واحد هو قول لا إله إلا الله . فمن كذب واحدا منهم فقد كذبهم جميعا . قال تعالى : ﴿ كذبت قوم نوح المرسلين ﴾ (٨) وقال : ﴿ كذبت عاد المرسلين ﴾ (٩) وقال : ﴿ كذبت ثمود المرسلين ﴾ (١٠) . وقال : ﴿ كذبت قوم لوط المرسلين ﴾ (١١) .
وقال : ﴿ كذب أصحاب لثيكة المرسلين ﴾ (١٢) . وقد جاء موسى إلى فرعون ليدعوه إلى عبادة الله وحده قال تعالى : ﴿ هل أتاك حديث موسى إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى ﴾ . اذهب إلى فرعون إنه طغى . فقل هل لك إلى أن تزكى وأهديك إلى ربك فتخشى ﴿ (١٣) ﴾ . وقال جل شأنه : ﴿ فاتياهم فقولا إنا رسولا ربك فأرسل معنا بنى اسرائيل ولا تعذبهم قد جئتكم بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى ﴾ (١٤) .

(١) سورة طه الايتان : ٤٥ ، ٤٦

(٢) سورة الشعراء الآية : ١٥

(٣) سورة الأنفال الآية : ١٢

(٤) سورة التوبة الآية : ٤٠

(٥) سورة النحل الآية : ١٢٨

(٦) سورة الشعراء الايتان : ١٦ ، ١٧

(٧) سورة الحاقة الايتان : ٩ ، ١٠

(٨) سورة الشعراء الآية : ١٠٥

(٩) سورة الشعراء الآية : ١٢٣

(١٠) سورة الشعراء الآية : ١٤١

(١١) سورة الشعراء الآية : ١٦٠

(١٢) سورة الشعراء الآية : ١٧٦

(١٣) سورة النازعات الايات : ١٥ ، ١٦ ، ١٧ ، ١٨ ، ١٩

(١٤) سورة طه الآية : ٤٧

﴿ وكان فرعون قد استعبد بنى إسرائيل وأعمل فيهم القتل فذبح الأبناء واستحيى النساء ، وطغى وبغى وتجاوز كل حد حتى لقد تجاوز حدود العبودية ، فحشر فنادى فقال : أنا ربكم الأعلى ﴾^(١) وقال فرعون ﴿ يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى فأوقد لى يا هامان على الطين فاجعل لى صرحا لعلى أطلع إلى إله موسى وإنى لأظنه من الكاذبين ﴾^(٢) .

لقد ظل استعباده لبنى إسرائيل قرونا فأراد ربك ان يرفع عنهم تلك القيود ، وأن يخرجهم عن تلك الأسوار والحدود .

قوله تعالى : ﴿ قال : ألم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين ؟ ﴾^(٣) فى الكلام جمل طواها القرآن كما يطوى البرق معصرات الغمام وذلك للعلم بها . وكما قال العلامة ابن مالك : وحذف ما يعلم جائز كما تقول زيد بعد من عندكما

والبلاغة الايجاز كما جاء فى قوله تعالى فى قصة يوسف : ﴿ وقال الذى نجا منها وادكر بعد أمة أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون يوسف أيها الصديق ﴾^(٤) . وتقدير الكلام : فأرسلوه فذهب إلى يوسف فى سجنه وجلس معه ثم قال له : يوسف أيها الصديق :

وكما فى قوله جل شأنه : ﴿ اذهب بكتابى هذا فألقه إليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون . قالت : يا أيها الملأ إنى ألقى إلى كتاب كريم ﴾^(٥) أى فذهب وألقى الخطاب فقرأته وقالت : إنى ألقى إلى كتاب كريم .

فقد يطوى القرآن جملا تعلم من سياق الكلام . أى فذهب موسى إلى فرعون واستأذن فى الدخول عليه وأبلغه رسالة ربه فقال فرعون : ﴿ ألم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين ؟ ﴾^(٦) أى أبعد أن ربيناك فى بيوتنا ولم نقتلك فى جملة من قتلنا وأنعمنا عليك بنعمنا ردحا من الزمن تقابل الاحسان بكفران النعمة وتواجهنا بمثل تلك المقالة ؟

روى أنه لبث فيهم ثمانى عشرة سنة وقيل ثلاثين سنة .

- وقوله ﴿ وفعلت فعلتك التى فعلت وأنت من الكافرين ﴾^(٧) أى وقتلت ذلك القبطى الذى وكزته وهو من خواصى فكنت من الجاحدين لنعمتى عليك من التربية والاحسان إليك . وخلاصة ما سلف - أنه عدد نعماءه عليه أولا من تربيته وإبلاغه مبلغ الرجال ثم بتوبيخه بما جرى على يديه من قتل خبازه وهو من خواصه وهو بهذا أيضا قد كفر نعمته وجحد فضله .

فأجاب موسى عن الأمر الثانى وترك أمر التربية لأنها معلومة مشهورة ، ولا دخل لها فى توجيه الرسالة فإن الرسول إذا كان معه حجة ظاهرة على رسالته تقدم بها إلى المرسل إليهم سواء أكانوا أنعموا

(٥) سورة النمل الآيتان : ٢٨ ، ٢٩

(٦) سورة الشعراء الآية ١٨

(٧) سورة الشعراء الآية : ١٩

(١) سورة النازعات الآيتان : ٣٣ ، ٣٤

(٢) سورة القصص الآية : ٣٨

(٣) سورة الشعراء الآية : ١٨

(٤) سورة يوسف الآيتان : ٤٥ ، ٤٦

عليه أم لم ينعموا .

﴿ قال فعلتها إذا وأنا من الضالين ﴾^(١) أى قال موسى مجيباً فرعون : فعلتى هذه الفعلة التى ذكرت وهى قتل القبطى . وأنا إذ ذاك من الجاهلين بأن وكزق تأق على نفسه فإنى إنما تعمدت الوكز للتأديب ، فأدى ذلك إلى القتل .

﴿ ففرت منكم لما خفتكم فوهب لى ربى حكماً وجعلنى من المرسلين ﴾^(٢) أى فخرجت هارباً منكم حين توقعت مكروها يصبنى حين قيل لى ﴿ إن الملائكة يأترون بك ليقتلوك ﴾^(٣) فوهب لى ربى علماً بالأشياء على وجه الصواب وجعلنى من المرسلين من قبله لهداية عباده وإرشادهم إلى النجاة من العذاب .

وخلاصة ما قال - إن القتل الذى توبخنى به لم يكن مقصوداً لى بل كنت أريد بوكزه التأديب فحسب ، فلا أستحق التخويف الذى أوجب فرارى وإن أنتم أسأتم إلى : فقد أحسن إلى ربى فوهب لى فهم الأمور على حقائقها وجعلنى من زمرة عباده المخلصين .

ثم بين له أنه وإن أسدى النعمة إليه فقد أساء إلى شعبه عامة فقال : ﴿ وتلك نعمة تمنها على أن عبدت بنى إسرائيل ﴾^(٤) يقال عبدت الرجل وأعبدته إذا اتخذته عبداً ، وتمن من المنة بمعنى الانعام : أى وما أحسنت إلى وربيتنى إلا وقد أسأت إلى بنى إسرائيل جملة فجعلتهم عبيداً وخدماء تصرفهم فى أعمالك وأعمال رعيتك الشاقة .

وخلاصة ذلك - أيفى إحسانك إلى رجل منهم بما أسأت به إلى مجموعهم ؟ فهو ليس بشيء إذا قيس بما فعلته بالشعب أجمع ، وكأنه قال : إن هذا ليس بنعمة لأن الواجب عليك ألا تقتلهم ولا تستعبدهم فإنهم قومى فكيف تذكر إحسانك إلى على الخصوص وتنسى استعباد الشعب كله . وأخذ فرعون يسأل موسى - عليه السلام - ﴿ قال فرعون مارب العالمين ﴾^(٥) لأن موسى قال له ﴿ إنا رسول رب العالمين ﴾ والمراد بالعالمين هنا كل ما سوى الله تعالى مما يعلم به وجود الخالق فكان الجواب ﴿ رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين ﴾^(٦) أى إن كان عندكم يقين وتصديق فالذى رفع السموات بلا عمد وبسط الأرض وخلق ما بينهما هو الرب المعبود بحق فلو سألت العالم من عرشه إلى فرشه ومن سمائه إلى أرضه وقلت له من خالقك لأجابتك بلسان الحال والمقال أنا مخلوق للواحد الديان .

حتى أريك بديع صنع البارى
لروائع الآيات والآثار
تمحو أثيم الشك والانكار

تلك الطبيعة قف بنا يا سارى
الأرض حولك والسماء اهتزتا
من شك فيه فنظرة فى خلقه

(٤) سورة الشعراء الآية : ٢٢
(٥) سورة الشعراء الآية : ٢٣
(٦) سورة الشعراء الآية : ٢٤

(١) سورة الشعراء الآية : ٢٠
(٢) سورة الشعراء الآية : ٢١
(٣) سورة القصص الآية : ٢٠

قوله تعالى ﴿ قال لمن حوله ألا تستمعون ؟ ﴾ أى التفت فرعون إلى الملأ والرؤساء من حوله وقال لهم على سبيل التهكم والاستهزاء : ألا تعجبون من مقالته وزعمه أن لكم إلهاً غيرى ؟ ثم زاد موسى وصف إله إيضاحاً وبياناً .
﴿ قال ربكم ورب آبائكم الأولين ﴾ أى قال : إنه هو خالقكم وخالق من قبلكم من آبائكم وأجدادكم .

وقد انتقل بهم موسى من النظر فى الآفاق وما فيها من باهر الأدلة إلى النظر فى الأنفس وما فيها من عجيب الصنع فإن التناسل المستمر فى النبات والحيوان والانسان وما فيها من العجائب لأوضح دلالة من النظر فى الآفاق .

ولما لم يستطع رداً لما جاء به أورد ما يشك قومه فى حسن تقديره للأمور وفهمه لما يقول :
﴿ قال إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون ﴾ أى : قال فرعون لقومه : إن رسولكم لا عقل له ، إذ يقول قولاً لا نعرفه ولا نفهمه فهو يدعى أن ثمة إلهاً غيرى .
ثم وصف موسى الإله بأنه خالق الأكوان ، ورب الزمان والمكان . ﴿ قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون ﴾

أى قال موسى : إن ربكم هو الذى جعل المشرق مشرقاً وتطلع منه الكواكب والمغرب مغرباً تغرب فيه الكواكب ، ثوابتها وسياراتها مع انتظام مداراتها وتغير المشارق والمغارب كل يوم ، إن كان لكم عقول تفقهون بها ما يقال لكم وتسمعون بها ما تسمعون ، إن فى كل أدلة على أن هناك إلهاً مصوراً صور هذ العوالم كلها وابدعها وزينها ورتبها ونظمها على أحسن النظم .
وقد لا ينهم أولاً وعاملهم بالرفق حيث قال لهم : إن كنتم موقنين ثم لما رأى شدة شكيمتهم خاشنهم واغلظ لهم فى الرد وعارضهم بمثل مقالهم بقوله إن كنتم تعقلون ، لأنه أوفق بما قبله من رد نسبة الجنون إليه .

ولما قامت الحجة على فرعون عدل إلى القهر واستعمال القوة ولبس لموسى جلد النمر كما حكى سبحانه عنه .

﴿ قال لئن اتخذت إلهاً غيرى لأجعلنك من المسجونين ﴾ أى قال له : لأجعلنك فى زمرة الذين فى سجونى على ما تعلم من فظاعة أحوالها وشديد أهوالها وكانت سجونهم أشد من القتل لأنه إذا سجن أحداً لم يخرج به حتى يموت وكان يطرحه فى هوة عميقة تحت الأرض وحده وفى توعده بالسجن ضعف منه ، لما يروى أنه كان يفزع من موسى فزعا شديداً .

وحينئذ اضطر موسى أن يترك الأدلة العقلية وراءه ظهرياً ويلجأ إلى المعجزات وخوارق العادات .
﴿ قال أولو جئتكم بشيء مبين ؟ ﴾ أى أتفعل هذا ولو جئتكم بحجة بينة على صدق دعواى وهى المعجزة الدالة على وجود الإله القادر وحكمته وعلى صدق دعوى من ظهرت على يديه .
وحين سمع فرعون هذا الكلام من موسى .

﴿ قال فات به إن كنت من الصادقين ﴾ في دعوى الرسالة فإن من يدعى النبوة لا بد له من حجة على صدق ما يدعى وقد أمره بذلك ظنا منه أنه يقدر على معارضته .

﴿ فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين ﴾ أى فبعد أن قال له فرعون مقاتله ألقى عصاه فإذا هي ثعبان واضح لا لبس فيه ولا تخيل ولا تمويه وقد روى أنها لما صارت حية ارتفعت في السماء قدر ميل ثم انحطت مقبلة الى فرعون ، فقال : بالذى أرسلك إلا أخذتها فأخذها موسى فعادت عصا كما كانت . وقد جاء في آية أخرى ﴿ كأنها جان ﴾ واجان الصغير من الحيات ، تشبيها لها به من جراء الخفة والسرعة .

ولما أتى موسى بهذه الآية قال له فرعون : هل هناك غيرها ؟ قال نعم . ﴿ ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين ﴾ أى وأدخل يده في جيبه ثم أخرجها فإذا هي تضيء الوادى من شدة نورها وكأنها فلق قمر . قال ابن عباس : أخرج موسى يده من جيبه فإذا هي بيضاء تلمع للناظرين ها شعاع كشعاع الشمس يكاد يعشى الأبصار ويسد الأفق .

ولما رأى فرعون هذه الحجج بادر بالتكذيب والعناد وذكر لأشراف قومه أمورا ثلاثة :
١ - ﴿ قال للملأ حوله إن هذا لساحر عليم ﴾ أى قال لرؤساء دولته وأشراف قومه الذين حوله ليروج عليهم بطلان ما يدعيه موسى : إن هذا الرجل البارع في السحر حاذق في الشعوذة ومراده من هذا أن ما ظهر على يديه إنما هو من قبيل السحر لا من وادى المعجزات .
ثم هيجهم وحرصهم على مخالفته والكفر به والتنفير منه بقوله :

٢ - ﴿ يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره ﴾ أى يريد أن يذهب بقلوب الناس معه بسبب هذا السحر فيكثر أعوانه وأتباعه ويغلبكم على دولتكم فيأخذ البلاد منكم .

٣ - ﴿ فماذا تأمرون ﴾ أى فأشيروا على ماذا أصنع ؟ وبم أدافعه عما يريد ومثل هذا القول يوجب جذب القلوب والتضايف في مكافحة العدو والتغلب عليه جهد المستطاع .

قال المفتى أبو السعود : بهر سلطان المعجزة وحيره حتى حطه من ذروة ادعاء الربوبية إلى حضيض الخضوع لعبده في زعمه ، والامثال لأمرهم ، أو إلى مقام مؤامرتهم ومشاورتهم بعد ما كان مستقلا بالرأى والتدبير وأظهر استشعار الخوف من استيلائه على ملكه ونسبه إلى إخراجهم من الأرض لتنفيرهم منه .

﴿ قالوا أرجه وأخاه وابعث في المدائن حاشرين يأتوك بكل سحار عليم ﴾ أى قالوا : أخر البت في أمرهما ولا تعاجلها بالعقوبة حتى تجمع لها من مدائن مملكته وأقاليم دولته كل سحار عليم ، ثم تقابلهم به وجها لوجه ويأتون من ضروب السحر ما يستطيعون به التغلب عليه ، فتكون قد قابلت الحجة بالحجة وقرعت الدليل بمثله ويكون لك النصر والتأييد عليه وتجتذب قلوب الشعب إليك . وقد كان هذا من تسخير الله تعالى له ليجتمع الناس في صعيد واحد وتظهر آيات الله وحجبه للناس في وضوح النهار جهرة .

روى أن فرعون أراد قتله فقال له الملأ : لا تفعل . فإنك إن قتلته أدخلت على الناس شبهة في

أمره وأشاروا عليه بإنفاذ حاشرين يجمعون له كل سحار عليم ، ظنا منهم أنهم إذا أكثروا غلبوه على أمره وتم لفرعون الغلب . فأخذ بمشورتهم وأجابهم إلى طلبتهم .

﴿ فجمع السحرة لميقات يوم معلوم ﴾ أى إن الملاء بعد أن أشاروا على فرعون بتأخير البت فى أمر موسى وبأن من الخير له أن يجمع السحرة ليظهر عند حضورهم فساد قوله - رضى بما أشاروا به واستقر عليه الرأى ، وأحب أن تقع المناظرة فى يوم عيد لهم لتكون بمحضر الجسم الغفير من الناس ، ويتم الله نوره ويظهر الحق على الباطل بلطفه وفضله .

﴿ وقيل للناس هل أنتم مجتمعون ﴾ أى وقيل للناس حثا لهم على المبادرة إلى الاجتماع ومشاهدة ما يكون من الجانبين : هل أنتم مجتمعون فى ذلك الميقات لتروا ما سيكون فى ذلك اليوم المشهود وكان ذلك ثقة من فرعون بالظهور ، وقد طلب أن يكون ذلك بمجمع من الناس لئلا يؤمن بموسى أحد منهم فوقع من موسى الموقع الذى يريده لأنه يعلم أن حجة الله هى الغالبة وحجة الكافرين هى الداحضة وفى ظهور حجة الله بمجمع من الناس زيادة فى الاستظهار للمحققين وقهر للمبطلين .

﴿ لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين ﴾ أى نرجو أن يكون هم الغلبة فتتبعهم ونستمر على دينهم ولا نتبع دين موسى .

﴿ فلما جاء السحرة قالوا لفرعون أئن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين ؟ قال نعم وإنكم إذا لمن المقربين ﴾ .

أى فلما جاء السحرة مجلس فرعون طلبوا منه الاحسان ببذل المال والتقرب إليه إن هم غلبوا فأجابهم إلى ما طلبوا وزاد على هذا أن وعدهم بأنهم سيكونون من جلسائه وخاصة بطانته . بعدئذ عادوا إلى مقام المناظرة وقالوا يا موسى إما أن تلقى وإما أن نكون نحن الملقين . ﴿ قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون . فألقوا حبالهم وعصيهم وقالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون ﴾ .

أى قال لهم موسى ألقوا ما تريدون إلقاءه مما يكون حجة لكم على إبطال ما أدعيه من المعجزات فألقوا ما معهم من الحبال والعصى وقد كانت مطلية بالزئبق والعصى مجوفة مملوءة به ، وقالوا بقوة فرعون وجبروته : إنا لنحن الغالبون ، فلما حيت حرارة الشمس اشتدت حركتها وصارت كأنها حيات تدب من كل جانب وسحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم .

وجاء فى سورة طه ﴿ فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى فأوجس فى نفسه خيفة موسى قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى ﴾ .

وقد استفرغوا الوسع وقاموا بما ظنوا أن فيه الكفاية بل ما فوقها وأن النصر قد كتب لهم . ﴿ فألقى موسى عصاه فإذا هى تلقف ما يأفكون ﴾ أى وحين ألقى موسى عصاه ابتلعت ما كانوا يقلبون صورته وحالته الأولى بتمويههم وتخيل الحبال والعصى أنها حيات تسعى .

وجاء فى آية أخرى ﴿ فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون ﴾ . وقد قامت الحجة لموسى عليهم واستبان لهم أن هذا ليس من متناول أيديهم كما أشار إلى ذلك

سبحانه بقوله :

﴿ فَألقى السحرة ساجدين ﴾ أى فخرؤا سجدا لله لأنهم قد علموا أن هذا الذى فعلوه هو منتهى التخييل السحرى ، فلما ابتلعت الحية ما زوروه أيقنوا أن هذا من قدرة فوق ما عرفوا وما هو إلا من قوة آتية من السماء لتأييد موسى حينئذ خروا سجدا لله القوى القاهر فوق عباده .

وفى التعبير بالإلقاء إشارة إلى أنهم لم يتمالكوا أنفسهم من الدهش حتى كأنهم أخذوا فطرحوا . ثم فاهوا بما - يجيش فى صدورهم وتنطوى عليه جوانحهم .

﴿ قالوا آمنا برب العالمين . رب موسى وهارون ﴾ أى قالوا : آمنا برب العالمين الذى دعا إليه موسى أول ما تكلم مع فرعون .

وفى هذا إيحاء إلى عزل فرعون عن الربوبية وأن سبب إيمانهم ما أجراه الله على يدى موسى وهارون من المعجزات .

وبعد أن حصحص الحق ووضح الصبح لذى عينين لجأ فرعون إلى العناد والمكابرة وشرع يهدد ويتوعد ولكن ذلك لم يجد فى السحرة شيئا ولم يزدهم إلا إيمانا وتسليما إذ كان حجاب الكفر قد انكشف واستبان لهم نور الحق وعلمهم ما جهل قومهم وأن القوة التى تؤيد موسى قوة غيبية قد أيده الله بها وجعلها دليلا على صدق ما يدعى .

﴿ قال آمتم له قبل أن آذن لكم ؟ ﴾ . أى قال لهم : أتؤمنون به قبل أن تستأذنوا وقد كان ينبغى أن تفعلوا ذلك ، والا تفتاتوا على ، فإنى أنا الحاكم المطاع ؟ ثم التمس لإيمانهم عذرا آخر غير انبلاج الحق ، ليعمى على العامة ، ويصرفهم عن وجه الحق فقال :

﴿ إنه لكبيركم الذى علمكم السحر ﴾ فأنتم فعلتم ذلك عن مواطاة بينكم وبينه . ولاشك أن هذا تضليل لقومه ، ومكابرة ظاهرة البطلان ، فإنهم لم يجتمعوا بموسى قبل ذلك اليوم ، فكيف يكون هو كبيرهم الذى افادهم صناعة السحر؟! ثم توعدهم فقال :

﴿ فلسوف تعلمون ﴾ وبال ما فعلتم ، وسوء عاقبة ما اجترحتم ، ثم بين ذلك بقوله . ﴿ لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم أجمعين ﴾ أى لأقطعن اليد اليمنى من كل منكم والرجل اليسرى ، ثم لأصلبنكم أجمعين بعد ذلك .

فأجابوه غير مكثرئين بقوله ، ولا عابئين بتهديده ، بأمرين فى كل منهما دليل على اطمئنان النفس وبرد اليقين :

أ - ﴿ قالوا لا ضرر إنا إلى ربنا منقلبون ﴾ أى قالوا لا ضرر علينا فى تنفيذ وعيدك ، ولا نبالى به ، لأن كل حى لا محالة مائت .

ومن لم يمت بالسيف مات بغيره تعددت الأسباب والموت واحد

ونحو ذلك قول على كرم الله وجهه : لا أبالى أوقعت على الموت أم وقع الموت على ؟

٢ - ﴿ إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا أن كنا أول المؤمنين ؟ ﴾ أى ولأننا نؤمل أن يغفر لنا ربنا ما

فعلنا من السحر ، واعتقدناه من الكفر ، من أجل أن كنا أول من آمن من الجماعة الذين شهدوا الموقف ، انقيادا للحق ، واعراضا عن زخرف الدنيا وزينتها .

قوله تعالى : ﴿ وَأَوْحِينَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُتَّبِعُونَ فَأَرْسِلْ فِرْعَوْنَ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ، إِنْ هَؤُلَاءِ لَشُرُذِمَةٌ قَلِيلُونَ ، وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ، وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ ، فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ، وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ، كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ قال العلامة ابن كثير رحمه الله تعالى :

لما طال مقام موسى عليه السلام ببلاد مصر وأقام بها حجج الله وبراهينه على فرعون وملئه وهم مع ذلك يكابرون ويعاندون ، لم يبق لهم إلا العذاب والنكال فأمر الله تعالى موسى عليه السلام أن يخرج بني إسرائيل ليلا من مصر وأن يمضي بهم حيث يؤمر ففعل موسى عليه السلام ما أمره به ربه عز وجل ، خرج بهم بعد ما استعاروا من قوم فرعون حليا كثيرا ، وكان خروجه بهم فيما ذكره غير واحد من المفسرين وقت طلوع الفجر ، وذكر مجاهد رحمه الله أنه كشف القمر تلك الليلة فآله أعلم وأن موسى عليه السلام سأل عن قبر يوسف عليه السلام فدلته امرأة عجوز من بني إسرائيل عليه ، فاحتمل تابوته معهم ويقال إنه هو الذي حمله بنفسه عليهما السلام ، وكان يوسف عليه السلام قد أوصى بذلك إذا خرج بنو إسرائيل أن يحتملوه معهم ، وقد ورد في ذلك حديث رواه ابن أبي حاتم رحمه الله فقال : حدثنا علي ابن الحسين حدثنا عبد الله بن عمر بن ابان بن صالح حدثنا بن فضيل عن يونس بن أبي اسحاق عن ابن أبي بردة عن أبيه عن أبي موسى قال : نزل رسول الله ﷺ بأعرابي فأكرمه فقال له رسول الله ﷺ : (تعاهدنا) فأتاه الأعرابي فقال له رسول الله ﷺ : (ما حاجتك ؟) قال : ناقة برحليها وأعنز يحتلبها أهلي ، فقال : (أعجزت أن تكون مثل عجوز بني إسرائيل ؟) فقال له أصحابه وما عجوز بني إسرائيل يا رسول الله ؟ قال : (إن موسى عليه السلام لما أراد أن يسير ببني إسرائيل أضل الطريق فقال لبني إسرائيل ما هذا ؟ فقال له علماء بني إسرائيل نحن نحدثك أن يوسف عليه السلام لما حضرته الوفاة أخذ علينا موثقا من الله ألا نخرج من مصر حتى ننقل تابوته معنا ، فقال لهم موسى فأياكم يدرى أين قبر يوسف ؟ قالوا ما يعلمه إلا عجوز من بني إسرائيل ، فأرسل إليها فقال لها دليني على قبر يوسف ، قالت والله لا أفعل حتى تعطيني حكمتي ، فقال لها وما حكمتك ؟ قالت : حكمتي أن أكون معك في الجنة ، فكأنه ثقل عليه ذلك فقليل له أعطها حكمتها - قال - فانطلقت معهم إلى بحيرة - مستنقع ماء - فقالت لهم انضبوا هذا الماء فلما انضبوه قالت احفروا فلما حفروا واستخرجوا قبر يوسف فلما احتملوه إذا الطريق مثل ضوء النهار) .

وهذا حديث غريب جدا والأقرب أنه موقوف والله أعلم . فلما أصبحوا وليس في ناديم داع ولا مجيب غاظ ذلك فرعون واشتد غضبه على بني إسرائيل لما يريد الله به من الدمار ، فأرسل سريعا في بلاده حاشرين أي من يحشر الجند ويجمعه كالنقباء والحجاب ونادى فيهم ﴿ إِنْ هَؤُلَاءِ ﴾ يعني بني إسرائيل ﴿ لَشُرُذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴾ أي بطائفة قليلة ﴿ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ﴾ أي كل وقت يصل منهم إلينا ما يغيظنا ﴿ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ ﴾ .

أى نحن كل وقت نحذر من غائلتهم وقرأ طائفة من السلف ﴿ وإنا لجميع حذرون ﴾ أى مستعدون بالسلاح ، وإنى أريد أن استأصل شأفتهم وأبید خضراءهم فجوزى فى نفسه وجنده بما اراد لهم ، قال الله تعالى : ﴿ فأجر جناتهم من جنات وعيون ، وكنوز ومقام كريم ﴾ أى فخرجوا من هذا النعيم إلى الحجيم وتركوا لكم المنازل العالية والبساتين والأنهار والأموال والأرزاق والملك والجاه الوافر فى الدنيا ﴿ كذلك وأورثناها بنى إسرائيل ﴾ كما قال تعالى : ﴿ وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التى باركنا فيها ﴾ (١) الآية وقال تعالى : ﴿ ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ﴾ الآيتين .

قوله تعالى : ﴿ فأتبعوهم مشرقين ، فلما تراءا الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون ، قال كلا إن معى ربى سيهدين ، فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم ، وأزلفنا ثم الآخرين ، وأنجينا موسى ومن معه أجمعين ، ثم أغرقنا الآخرين ، إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ، وإن ربك هو العزيز الرحيم ﴾ .

ذكر غير واحد من المفسرين ان فرعون خرج فى محفل عظيم وجمع كبير هو عبارة عن مملكة الديار المصرية فى زمانه أولى الحل والعقد والدول من الأمراء والوزراء والكبراء والرؤساء والجنود ، فأما ما ذكره غير واحد من الاسرائيليات من انه خرج فى ألف ألف وستمائة ألف فارس منها مائة ألف على خيل ففيه نظر ، وقال كعب الأحبار فيهم ثمانمائة ألف حصان أدهم وفى ذلك نظر ، والظاهر أن ذلك من مجازفات بنى إسرائيل والله سبحانه وتعالى أعلم ، والذي أخبر به القرآن هو النافع ولم يعين عدتهم إذ لا فائدة تحته لأنهم خرجوا بأجمعهم ﴿ فأتبعوهم مشرقين ﴾ أى وصلوا إليهم عند شروق الشمس وهو طلوعها ﴿ فلما تراءى الجمعان ﴾ أى رأى كل من الفريقين صاحبه فعند ذلك ﴿ قال أصحاب موسى إنا لمدركون ﴾ وذلك أنهم انتهى بهم السير إلى سيف البحر وهو بحر القلزم فصار أمامهم البحر وقد ادركهم فرعون بجنوده فلماذا قالوا : ﴿ إنا لمدركون ، قال كلا إن معى ربى سيهدين ﴾ أى لا يصل إليكم شيء مما تحذرون فإن الله سبحانه هو الذى أمرنى ان أسير ههنا بكم وهو سبحانه وتعالى لا يخلف الميعاد ، وكان هارون عليه السلام فى المقدمة ومعه يوشع بن نون ومؤمن آل فرعون . وموسى عليه السلام فى الساقة ، وقد ذكر غير واحد من المفسرين انهم وقفوا لا يدرون ما يصنعون وجعل يوشع بن نون أو مؤمن آل فرعون يقول لموسى عليه السلام : يا نبى الله ههنا أمرك ربك ان تسير ؟ فيقول نعم فاقترب فرعون وجنوده ولم يبق إلا القليل فعند ذلك أمر الله نبيه موسى عليه السلام أن يضرب بعصاه البحر فضربه وقال انفلق بإذن الله .

وروى ابن أبى حاتم : حدثنا أبو زرعة حدثنا صفوان بن صالح حدثنا الوليد حدثنا محمد بن حمزة ابن يوسف عن عبد الله بن سلام ان موسى عليه السلام لما انتهى إلى البحر قال : يا من كان قبل كل شيء والمكون لكل شيء والكائن بعد كل شيء اجعل لنا مخرجاً فأوحى الله إليه (٢) :

(١) سورة الأعراف الآية : ١٣٧

(٢) انظر الدر المنثور للسيوطى ٦ / ٢٩٩

﴿ أن اضرب بعصاك البحر ﴾ وقال قتادة أوحى الله تلك الليلة إلى البحر أن إذا ضربك موسى بعصاه فاسمع له وأطع فبات البحر تلك الليلة وله اضطراب ولا يدرى من أى جانب يضربه موسى ، فلما انتهى إليه موسى قال له فتاه يوشع بن نون يا نبي الله أين أمرك ربك - عز وجل - ؟ قال : أمرني أن أضرب البحر قال : فاضربه ، وقال محمد بن اسحق : أوحى الله - فيما ذكر لي - إلى البحر أن إذا ضربك موسى بعصاه فانفلق له قال فبات البحر يضطرب ويضرب بعضه بعضا فرقا من الله تعالى وانتظارا لما امره الله ، وأوحى الله إلى موسى ﴿ ان اضرب بعصاك البحر ﴾ فضربه بها وفيها سلطان الله الذي اعطاه فانفلق ، وذكر غير واحد انه جاءه فكناه فقال انفلق على أبا خالد بإذن الله . قال تعالى ﴿ فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم ﴾ أى كالجبل الكبير ، قاله ابن مسعود وابن عباس ومحمد بن كعب والضحاك وقتادة وغيرهم . وقال عطاء الخراساني : هو الفج بين الجبلين وقال ابن عباس : صار البحر اثني عشر طريقا . . لكل سبط طريق ، وزاد السدي وصار فيه طاقات ينظر بعضهم إلى بعض ، وقام الماء على حيله كالحيطان وبعث الله الريح إلى قعر البحر فلفحته فسار ييسا كوجه الأرض قال الله تعالى : ﴿ فاضرب لهم طريقا في البحر ييسا لا تخاف دركا ولا تخشى ﴾^(١) وقال في هذه القصة : ﴿ وأزلفنا ثم الآخرين ﴾ أى هنالك . قال ابن عباس وعطاء الخراساني وقتادة والسدي ﴿ وأزلفنا ﴾ أى قربنا من البحر فرعون وجنوده وأتينا بهم إليه ﴿ وأنجينا موسى ومن معه أجمعين ثم أغرقنا الآخرين ﴾ . أى أنجينا موسى وبني إسرائيل ومن اتبعهم على دينهم فلم يهلك منهم أحد ، وأغرق فرعون وجنوده فلم يبق منهم رجل الا هلك ، وروى ابن أبي حاتم حدثنا علي بن الحسين حدثنا أبو بكر بن أبي حاتم حدثنا علي بن الحسين حدثنا أبو بكر بن أبي حاتم حدثنا يونس بن أبي اسحاق عن أبي اسحق عن عمرو بن ميمون عن عبد الله هو ابن مسعود ان موسى عليه السلام حين أسرى بني إسرائيل بلغ فرعون ذلك فأمر بشاة فذبحت ، وقال لا والله لا يفرغ من سلخها حتى يجتمع إلى ستمائة ألف من القبط فانطلق موسى حتى انتهى إلى البحر فقال له : انفرق فقال له البحر قد استكبرت يا موسى وهل انفرت لأحد من ولد آدم فانفرك لك ؟ قال ومع موسى رجل على حصان له فقال له ذلك الرجل أين أمرت يا نبي الله ؟ قال : ما أمرت إلا بهذا الوجه يعنى البحر فأقحم فرسه فسبح به فخرج فقال أين أمرت يا نبي الله ؟

قال : والله ما كذب ولا كذبت : قال فأوحى الله إلى موسى ان اضرب بعصاك البحر ، فضربه موسى بعصاه فانفلق فكان فيه اثنا عشر سبطا لكل سبط طريق يتراءون فلما خرج أصحاب موسى وتنام أصحاب فرعون التقى البحر عليهم فأغرقهم ، وفي رواية إسرائيل عن أبي اسحق عن عمرو بن ميمون عن عبد الله قال : (فلما خرج آخر أصحاب موسى وتكامل أصحاب فرعون إنظم عليهم البحر فما رثى سواد أكثر من يومئذ ، وغرق فرعون لعنه الله ، ثم قال تعالى ﴿ إن في ذلك لآية ﴾ أى في هذه القصة وما فيها من العجائب والنصر والتأييد لعباد الله المؤمنين لدلالة وحجة قاطعة ونعمة بالغة ﴿ وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك هو العزيز الرحيم ﴾^(٢) .

(١) سورة طه الآية : ٧٧

(٢) انظر الدر المنثور للسيوطي ٣٠١ / ٦

نبا إبراهيم

وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِم نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ۖ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ۖ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا
فَنَظَّلُهَا عِكَفِينَ ۖ قَالِ هَلْ يَسْمَعُونَكَ إِذْ تَدْعُونَ ۖ أَوْ يَنْفَعُونَكَ أَوْ يَضُرُّونَ
قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ۖ قَالِ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ۖ
أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ۖ فَلْيَنَّهُمْ عَذُوبِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ۖ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ
يَهْدِينِ ۖ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ۖ وَإِذَا امْرَأَتِي فَهُوَ يَشْفِينِ ۖ وَالَّذِي يُمِيتُنِي
ثُمَّ يُحْيِينِ ۖ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ۖ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا
وَالْحَقِّقْنِي بِالصَّلَاحِينَ ۖ وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ۖ وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ
النَّعِيمِ ۖ وَاعْفِرْ لَائِي ۖ إِنَّهُ كَانَ مِنْ الصَّالِحِينَ ۖ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ۖ يَوْمَ
لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۖ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۖ وَأَزْلَفَتْ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ
وَبُرَزَتْ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ۖ وَقِيلَ لَهُمْ آيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ۖ مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ
يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ ۖ فَكَبَّكُوا فِيهَا هُمُ وَالْغَاوُونَ ۖ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ
قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ۖ تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ۖ إِذْ نُسَوِّكُمْ بِرَبِّ
الْعَالَمِينَ ۖ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمَجْرُمُونَ ۖ فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ ۖ وَلَا صِدِّيقٍ حَمِيمٍ
فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۖ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ
وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۖ

تفسير المفردات

نبا : النبا الخبر المهم .

عاكفين : مقيمين على عبادتها .

خطيئتي : ذنبي

حكما : فهما وعلمها وحكمة ومنه قولهم : الصمت حكم وقليل فاعله

لسان صدق : أى : ثناء حسنا
وأزلفت الجنة : قربت وأدנית ليدخلوها .
وبرزت الجحيم : المراد ظهرت جهنم .
فككبوا فيها : ألقوا فيها ، والكبكة الإلقاء على الوجه مرة بعد مرة .
كرة : رجعة إلى الدنيا
وتتلخص القصة التى ذكرت فى هذه السورة :
أ- فى محاجة إبراهيم لأبيه وقومه فى عبادة الأصنام وترك عبادة الواحد القهار .
ب- ما ينتظره المؤمنون والكافرون يوم القيامة من أحوال .
ج- العبرة من القصة .

المناسبة وإجمال المعنى

لما ذكر فى أول السورة شدة حزنه ﷺ على كفر قومه وعدم استجابتهم دعوته ، ثم ذكر قصص موسى عليه السلام ليكون فى ذلك تسلية له وليعلم أنه ليس ببدع فى الرسل وأن قومه ليسوا بأول الأمم عنادا واستكبارا فقد أتى موسى بياهر المعجزات وعظيم الآيات ولم يؤمن به من قومه إلا القليل ، ولم يؤمن به من المصريين إلا النذر اليسير - اردف ذلك بقصص إبراهيم أبى الانبياء ، و خليل الرحمن وكليم الله ، ليعلم أن حزنه لكفران قومه كان أشد وآلامه كانت أعض ، فهو كان يرى أن أباه وقومه صائرون إلى النار ، وهو ليس بمستطيع إنقاذهم وقد أكثر حجاجهم حتى حجهم ولم يجد ذلك فيهم شيئا ، بل ركنوا إلى التقليد بما ورثوه عن الآباء والأجداد ، وقد أبان لهم أثناء حجاجه أن أصنامهم لا تغنى عنهم شيئا ، فهى لا تسمع دعاءهم (ولا يسمع الصم الدعاء) ولو سمعت لم تغن عنهم شيئا . ثم ذكر لهم صفات الرب الذى ينبغى أن يعبد وفصلها أتم التفصيل .

وبعد أن أثنى إبراهيم على ربه بما أثنى عليه - ذكر مسألته ودعائه إياه بما ذكره كما هو دأب من يشتغل بدعائه تعالى ، فإنه يجب عليه أن يتقدم بالثناء عليه وذكر عظمته وكبريائه ليستغرق فى معرفة ربه ومحبته ، ويصير أقرب شيئا بالملائكة الذين يعبدون الله بالليل والنهار لا يفترون ، وبذا يستنير قلبه إلى ما هو أرفق به فى دينه ودنياه وتحصل له قوة إلهية تجعله يهتدى إلى ما يريد ، ومن ثم جاء فى الأثر حكاية عن الله تعالى ﴿ من شغله القرآن عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطى السائلين ﴾ .
وبعد أن ذكر أنه لا ينفع فى هذا اليوم مال ولا بنون وإنما ينفع العبد بعده عن الكفر والنفاق - ذكر هنا من وصف هذا اليوم أمورا تبين شديد أهواله ، وعظيم نكاله .

التفسير

قوله تعالى ﴿ واتل عليهم نبأ إبراهيم : إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون . قالوا نعبد أصناما فنظّل لها عاكفين - قال هل يسمعونكم إذ تدعون . أو ينفعونكم أو يضرون . قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك

يفعلون . قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون . أنتم وآباءكم الأقدمون . فإنهم عدولى إلا رب العالمين ﴿١﴾ .
هذا خطاب من العلى العظيم إلى نبيه الكريم محمد - ﷺ - أن يتلو على أمته خبر إبراهيم الخليل
إمام الخفاء^(١) إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين شاكرا لأنعمه اجتباه وهداه إلى
صراط مستقيم وآتيناه فى الدنيا حسنة وإنه فى الآخرة لمن الصالحين . ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة
إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين ﴿٢﴾ .

لقد كان لإبراهيم نبأ عظيم إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون بدأ بأبيه ثم ثنى بقومه لأن الداعية
الصادق هو الذى يبدأ بأهله ثم بمن يعول . وهكذا فعل الصادق المعصوم محمد - ﷺ - (عندما جمع
أهله وأخذ يخاطب كلا منهم يا عباس عم محمد اعمل لا أغنى عنك من الله شيئا يا صفية عمة محمد
اعمل لا أغنى عنك من الله شيئا يا فاطمة بنت محمد اعمل لا أغنى عنك من الله شيئا^(٣) . وهو الذى
قال : (لو سرق فاطمة بنت محمد لقطعت يدها وكان الفاروق - رضى الله عنه - يقول لأهله اتقوا الله
يا آل عمر فإن الناس ينظرون إليكم كما ينظر الطير إلى اللحم)^(٤) .
وقد قال أحد الحكماء :

يا أيها الرجل المعلم غيره	هلا لنفسك كان ذا التعليم
تصف الدواء لذى السقام وذى	كيما يصح به وأنت سقيم
ونراك تصلح بالرشاد عقولنا	أبدا وأنت من الرشاد عديم
أبدأ بنفسك فانها عن غيرها	فإذا انتهت عنه فأنت حكيم
فهناك يسمع ما تقول ويشتفى	بالقول منك وينفع التعليم
ولا تنه عن خلق وتأتى مثله	عار عليك إذا فعلت عظيم

لقد ضرب إبراهيم الشرك فى جبهتيه حطمه وجعله جذاذا ضربه فى صورة الأفلاك وضربه فى صورة
الأصنام .

﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه آفرأتخذ أصناما آلهة إنى أراك وقومك فى ضلال مبين . وكذلك نرى
إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين . فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربي
فلما أفل قال لا أحب الأفلين . فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدينى ربي لأكونن

(١) أخرجه الترمذى - كتاب فضائل القرآن ٥ / ١٨٤ رقم ٢٩٢٦

وقال : هذا حديث حسن غريب

(٢) سورة النحل الآيات : ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٣

(٣) متفق عليه من حديث أبى هريرة

(٤) متفق عليه من حديث عائشة

من القوم ضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال هذا رب هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إنى برىء مما تشركون . إنى وجهت وجهى الذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين . وحاجه قومه قال أتحتاجونى فى الله وقد هدان ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربى شيئا وسع ربى كل شئ علما أفلا تتذكرون . وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا فأتى الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون . الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون . وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشأ إن ربك حكيم عليم . ووهبنا له إسحق ويعقوب كلا هدينا ونوحا هدينا من قبل ومن ذريته داوود وسليمان وإيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزي المحسنين . وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كل من الصالحين . وإسماعيل وإسحق ويونس ولوطا وكلا فضلنا على العالمين . ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم واجتبتيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم . ذلك هدى الله يهدى به من يشاء من عباده ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون . أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين . . أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده قل لا أسألكم عليه أجرا إن هو إلا ذكرى للعالمين ﴿١﴾ .

وكذلك ضرب الشرك فى عالم الأوثان والأصنام والتمثيل اقرا معنى هذا المشهد القرآنى المهيّب : ﴿ ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنابه عالمين . إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون . قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين . قال لقد كنتم أنتم وأبائكم فى ضلال مبين . قالوا أجبنا بالحق أم أنت من اللاعبين . قال بل ربكم رب السموات والأرض الذى فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين . وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين . فجعلهم جذاذا إلا كبيرا لهم لعلهم إليه يرجعون . قالوا من فعل هذا بالهتنا إنه لمن الظالمين . قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم . قالوا فاتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون . قالوا أنت فعلت هذا بالهتنا يا إبراهيم . قل بل فعله كبيرهم هذا فسالوهم إن كانوا ينطقون . فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون . ثم نكسوا على رؤوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون . قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئا ولا يضركم . أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون . قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين . قلنا يا نار كوني بردا وسلاما على إبراهيم . وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخرين . ونجيناه لوطا إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين . ووهبنا له إسحق ويعقوب نافلة وكلا جعلنا صالحين . وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين ﴾ (٢) .

ثم اقرا بعد ذلك هذا المشهد القرآنى الرائع ﴿ إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون قالوا نعبد أصناما فنظّل لها عاكفين ﴾ .

(١) سورة الأنعام الآيات : ٧٤ ، ٩٠

(٢) سورة الانبياء ٥١ - ٧٣

أى مقيمن على عبادتها ودعائها ﴿ قال هل يسمعونكم إذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون . قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون ﴾ يعنى اعترفوا بأن أصنامهم لا تفعل شيئاً من ذلك وإنما رأوا آباءهم كذلك يفعلون .

فهم على آثارهم يهرعون .

وتلك أمة التقليد الأعمى التى ألقى القرآن على أهلها باللائمة ﴿ بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون . وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون . قال أولو جنتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون . فانتقمنا منهم فانظر كيف كانت عاقبة المكذبين ﴾ (١) .

وقال تعالى ﴿ وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله . قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون ﴾ (٢) .

إن الاسلام حرر العقل من قيود التقليد الأعمى وجعل التفكير فريضة ولذا ذم التقليد وأصحابه من أهل الضلال .

قال إبراهيم لهم ﴿ أفرأيتم ما كنتم تعبدون . أنتم وآباءكم الأقدمون . فإنهم عدو لى إلا رب العالمين ﴾ (٣) . أى إن كانت هذه الأصنام شيئاً ولها تأثير فلتخلص إلى بالمساءة فإنى عدو لها لا أبالى بها ولا أفكر فيها ، وهذا كما قال تعالى مخبراً عن نوح عليه السلام ﴿ فأجمعوا أمركم وشركاءكم ﴾ (٤) الآية وقال هود عليه السلام ﴿ إنى أشهد الله واشهدوا أنى برىء مما تشركون من دونه فكيدونى جميعاً ثم لا تنظرون . إنى توكلت على الله ربى وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إنى ربى على صراط مستقيم ﴾ (٥) . وهكذا تبرأ إبراهيم من آلهتهم فقال ﴿ وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ﴾ (٦) الآية وقال تعالى ﴿ قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم ﴾ إلى قوله ﴿ حتى تؤمنوا بالله وحده ﴾ وقال تعالى : ﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إئنى برء مما تعبدون . إلا الذى فطرنى فإنه سيهدين . وجعلها كلمة باقية فى عقبه لعلهم يرجعون ﴾ (٧) . يعنى لا إله إلا الله .

قوله تعالى ﴿ الذى خلقنى فهو يهدين . والذى هو يطعمنى ويسقئنى . وإذا مرضت فهو يشفين . والذى يمتنئى ثم يحيين . والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين ﴾ . وهكذا يذكر إبراهيم لهؤلاء الضالين أن لهذا الكون إلهاً لا شريك له بيده الأمر كله وإليه يرجع الأمر كله ويؤكد تلك الحقيقة العليا فيقول ﴿ الذى خلقنى فهو يهدين ﴾ فيثبت لله تعالى صفة الخلق والايجاد . ﴿ أفرأيتم ما تمنون أن أنتم تخلقونه أم نحن الخالقون . نحن قدرنا بينكم الموت . وما نحن بمسبوقين . على أن نبدل أمثالكم وننشئكم فيما لا تعلمون . ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا

(١) سورة الزخرف الآيات : ٢٢ - ٢٥

(٢) سورة البقرة الآية : ١٧٠

(٣) سورة يونس الآية : ٧١

(٤) سورة هود الآيات : ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٦

(٥) سورة الأنعام الآية : ٨١

(٦) سورة الممتحنة الآية : ٤

(٧) سورة الزخرف الآيات : ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨

تذكرون . أفرايتم ما تحرثون . أنتم تزرعونه أم نحن الزارعون . لو نشاء لجعلناه حطاما فظلمتم تفكهون . . إنا لمغرمون بل نحن محرون . أفرايتم الماء الذى تشربون . أنتم انزلتموه من المزن أم نحن المنزلون . لو نشاء جعلناه أجاجا فلولا تشكرون . أفرايتم النار التى تورون أنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون نحن جعلناها تذكرة ومتاعا للمقوين . فسبح باسم ربك العظيم ﴿^(١)﴾ .
هذا هو الله الخالق البارئ المصور خالق الانسان ومبدع الأكوان ﴿سبح اسم ربك الأعلى .
الذى خلق فسوى . والذى قدر فهدى والذى أخرج المرعى فجعله غثاء أحوى﴾ ^(٢) .

سبحانك اللهم أنت الواحد كل الوجود على وجودك شاهد
ياحى يا قيوم أنت المرتجى وإلى علاك عنا الجبين الساجد .

سبحانك رب الذى خلقنى فهو يهدين . فلا أعبد إلا الذى يفعل هذه الأشياء ﴿الذى خلقنى فهو يهدين﴾ أى هو الخالق الذى قدر قدرا وهدى الخلائق إليه فكل يجرى على ما قدر له وهو الذى يهدى من يشاء ويضل من يشاء ﴿والذى هو يطعمنى ويسقئنى﴾ أى هو خالقى ورازقى بما سخر ويسر من الأسباب السماوية والأرضية فساق المزن وأنزل الماء وأحيا به الأرض وأخرج به من كل الثمرات رزقا للعباد وأنزل الماء عذبا زلالا يسقيه مما خلق أنعاما وأناسى كثيرا .

لا تجعلن الرزق بالعجل الرزق فى اللوح مكتوب مع الأجل
فلو صبرنا لكان الرزق يطلبنا لكنه خلق الإنسان من عجل

وقوله ﴿وإذا مرضت فهو يشفين﴾ أسند المرض إلى نفسه وإن كان عن قدر الله وقضائه وخلقه ولكن أضافه إلى نفسه أدبا كما قال تعالى آمرا للمصل أن يقول ﴿اهدنا الصراط المستقيم . صراط الذين أنعمت عليهم . غير المفضوب عليهم ولا الضالين﴾ ^(٣) . فأسند الإنعام والهداية إلى الله تعالى والغضب حذف فاعله ادبا وأسند الضلال إلى العبيد كما قالت الجن ﴿وأنا لا ندرى أشر أريد بمن فى الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا﴾ ^(٤) . وكذلك قال إبراهيم ﴿وإذا مرضت فهو يشفين﴾ أى وإذا وقعت فى مرض فإنه لا يقدر على شفائى أحد غيره بما يقدر من الأسباب الموصلة إليه ﴿والذى يميتنى ثم يحيينى﴾ أى هو الذى يحيى ويميت لا يقدر على ذلك أحد سواه فإنه هو الذى يبدى ويعبد ، ﴿والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين﴾ أى لا يقدر على غفران الذنوب فى الدنيا والآخرة إلا

(١) سورة الواقعة الآيات : ٥٨ - ٧٤

(٢) سورة الأعلى الآيات : ١ - ٥

(٣) سورة الفاتحة الآيتان : ٦ ، ٧

(٤) سورة الجن الآية : ١٠

هو ومن يغفر الذنوب إلا الله وهو الفعال لما يشاء .
 قوله تعالى ﴿ رب هب لي حكما وألحقني بالصالحين . واجعل لي لسان صدق في الآخرين . واجعلني من ورثة جنة النعيم . واغفر لأبي إنه كان من الضالين . ولا تخزني يوم يبعثون . يوم لا ينفع مال ولا بنون . إلا من أتى الله بقلب سليم ﴾ .

وهنا يتوجه الخليل إلى رافع السماء بلا عمد يدعو ويسأله أن يهب له حكما قال ابن عباس : هو العلم وقال عكرمة : هو اللب .

وقيل : الحكم هو الحكمة وهي جماع كل خير فهي العلم الغزيز والحكم والصواب والعمل الموفق قال تعالى : ﴿ يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر إلا أولو الألباب ﴾ (١) .

وقال في شأن يوسف : ﴿ ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزي المحسنين ﴾ (٢) .
 وفي شأن موسى : ﴿ ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزي المحسنين ﴾ (٣) .
 قوله ﴿ وألحقني بالصالحين ﴾ أي : اجعلني مع الصالحين في الدنيا والآخرة .
 كما قال النبي - ﷺ - عند الاحتضار : « اللهم في الرفيق الأعلى » (٤) قالها ثلاثا .
 وفي الحديث في الدعاء : ﴿ اللهم أحينا مسلمين وأمتنا مسلمين وألحقنا بالصالحين غير خزايا ولا مبدين ﴾ (٥) .

قال تعالى : ﴿ ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا ذلك الفضل من الله وكفى بالله علما ﴾ (٦) .
 والمرء مع من أحب فاللهم احشرونا مع هؤلاء الذين أنعمت عليهم واجمع بيننا وبينهم في مستقر رحمتك .

قوله : ﴿ واجعل لي لسان صدق في الآخرين ﴾ أي : اجعل لي ثناء جميلا وذكرنا حسنا بعدى أذكر به ويقتدى بـ في الخير كما قال تعالى : ﴿ وتركنا عليه في الآخرين . سلام على إبراهيم . كذلك نجزي المحسنين ﴾ (٧) .
 قال مجاهد وقتادة : (واجعل لي لسان صدق في الآخرين) يعني الثناء الحسن . قال مجاهد كقوله تعالى : ﴿ وآتيناه في الدنيا حسنة ﴾ (٨) . وكقوله : ﴿ وآتيناه أجره في الدنيا ﴾ (٩) .

(١) سورة البقرة الآية : ٢٦٩

(٢) سورة يوسف الآية : ٢٢

(٣) سورة القصص الآية : ١٤

(٤) البخاري - كتاب الرقاق - باب من أحب لقاء الله ١٣٢/٨ ، ١٣٣ مسلم - كتاب السلام - باب استحباب رقية المريض ١٧٢٢/٤

(٥) مسند الامام احمد عن عبد الله الرزقي ٣ / ٤٢٤

(٦) سورة النساء الآية : ٦٩

(٧) سورة الصافات الآيات : ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٠

(٨) سورة النحل الآية : ١٢٢

(٩) سورة العنكبوت الآية : ٢٧

قال ليث بن أبي سليم : كل ملة تحبه وتتولاه وكذا قال عكرمة .
 دقات قلب المرء قائمة له إن الحياة دقائق وثوانى
 فارفع لنفسك بعد موتك ذكرها فالذكر للانسان عمر ثان
 واصبر على نعم الحياة وبؤسها فنعم الحياة وبؤسها سيان

قوله تعالى : ﴿ واجعلنى من ورثة جنة النعيم ﴾ وهكذا جمع إبراهيم فى دعائه بين خيرى الدنيا والآخرة حيث طلب الثناء الحسن فى الدنيا وجنة النعيم فى الآخرة وكان عليه السلام كريما فقد دعا للمؤمنين بالمغفرة والرحمة حيث قال : ﴿ ربنا اغفر لى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب ﴾ (١) وهكذا دعاء الصالحين يطلبون من الله خيرى الدنيا والآخرة .
 ﴿ ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة ، وقنا عذاب النار ﴾ (٢) . وهكذا يحكم الله تعالى لأهل الصلاح والتقوى بأنهم ورثة الفردوس .

﴿ قد أفلح المؤمنون . الذين هم فى صلاتهم خاشعون . والذين هم عن اللغو معرضون والذين هم للزكاة فاعلون . والذين هم لفروجهم حافظون . الا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين . فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون . والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون . والذين هم على صلواتهم يحافظون . أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون ﴾ (٣) .

قوله : ﴿ واغفر لأبى إنه كان من الضالين ﴾ هو كقوله ﴿ ربنا اغفر لى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب ﴾ (٤) .

وهذا مما رجع عنه إبراهيم - عليه السلام - كما قال تعالى : ﴿ ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم . وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما يتبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم ﴾ (٥) وقد قطع تعالى الإلحاف فى استغفاره لأبيه فقال تعالى : ﴿ قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برءاء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك وما أملك لك من الله من شئ ﴾ (٦)

وقوله ﴿ ولا تخزنى يوم يبعثون ﴾ وهكذا دعاء الصالحين : ﴿ إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض . ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانه . فقنا . عذاب النار . ربنا إنك من

(٤) سورة إبراهيم الآية : ٤١

(٥) سورة التوبة الآيتان : ١١٣ ، ١١٤

(٦) سورة الممتحنة الآية : ٤

(١) سورة إبراهيم الآية : ٤١

(٢) سورة البقرة الآية : ٢٠١

(٣) سورة المؤمنون الآيات : ١ - ١٠

تدخل النار فقد أخزيتة وما للظالمين من أنصار . ربنا إنا سمعنا مناديا ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنّا . ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار . ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد ﴿١﴾ .

روى البخارى بسنده عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ - : (يلقي إبراهيم يوم القيامة أباه عليه الغبرة والقترة) ﴿٢﴾ .

قوله : ﴿ يوم لا ينفع مال ولا بنون ﴾ أى لا يقى المرء من عذاب الله ماله ولو افتدى بملء الأرض ذهباً ﴿ ولا بنون ﴾ أى ولو افتدى بمن على الأرض جميعاً ولا ينفع يومئذ إلا الإيمان بالله وإخلاص الدين له والتبرى من الشرك وأهله .

ولذا قال : ﴿ إلا من أتى الله بقلب سليم ﴾ وقرأ معى فى مشاهد القيامة قوله تعالى ﴿ يبصرونهم يود المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ ببنيه وصاحبه وأخيه وفصيلته التى تؤيه ومن فى الأرض جميعاً ثم ينجيهِ كلا ﴾ ﴿٣﴾ .

وقوله تبارك اسمه : ﴿ فإذا جاءت الطامة الكبرى . يوم يتذكر الإنسان ما سعى . وبرزت الحجيم لمن يرى . فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فإن الجحيم هى المأوى . وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هى المأوى ﴾ ﴿٤﴾ .

وقوله عز وجل : ﴿ فإذا جاءت الصاخة . يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبه وبنيه لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه وجوه يومئذ مسفرة . ضاحكة مستبشرة ووجوه يومئذ عليها غبرة ترهقها قترة . أولئك هم الكفرة الفجرة ﴾ ﴿٥﴾ .

وقوله عز وجل : ﴿ فاليوم لا يؤخذ منكم فدية . ولا من الذين كفروا مأواكم النار هى مولاكم وبئس المصير ﴾ ﴿٦﴾ .

أما أصحاب القلوب السليمة فانهم فى روح وريحان وجنة نعيم ودولة القلوب كلها اسرار لا يملك مفاتيحها الا علام الغيوب .

وللامام ابن القيم - رحمه الله تعالى - صولات وجولات فى عالم القلوب جاء فى كتابه (إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان) وتحت عنوان (فى انقسام القلوب الى صحيح وسقيم وميت) جاء هذا العلم النافع .

قال رحمه الله تعالى :

لما كان القلب يوصف بالحياة وضدها . انقسم بحسب ذلك إلى هذه الأحوال الثلاثة .

(١) سورة آل عمران الآيات : ١٩٠ - ١٩٤

(٢) البخارى - كتاب الانبياء - باب قول الله تعالى : [واتخذ الله إبراهيم خليلاً] ١٦٩/٤

(٣) سورة المعارج الآيات : ١١ - ١٥

(٤) سورة النازعات الآيات : ٣٤ - ٤١

(٥) سورة عبس الآيات : ٣٣ - ٤٢

(٦) سورة الحديد الآية : ١٥

فالقلب الصحيح : هو القلب الذى لا ينجو يوم القيامة إلا من أتى الله به
كما قال تعالى : ﴿ يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ﴾ . والسليم هو السالم
وجاء على هذا المثال لأنه للصفات ، كالطويل والقصير والظريف ، فالسليم القلب الذى قد صارت
السلامة صفة ثابتة له كالعليم والقدير ، وأيضا فانه ضد المريض والسقيم والعليل .
وقد اختلفت عبارات الناس فى معنى القلب السليم والأمر الجامع لذلك : أنه الذى قد سلم من
كل شهوة تخالف أمر الله ونهيه ومن كل شبهة تعارض خيره فسلم من عبودية ما سواه وسلم من تحكيم
غير رسوله ، فسلم بالأحبة لله مع تحكيمه لرسوله ، فى خوفه ورجائه والتوكل عليه ، والابانة إليه ،
والذل له ، وإيثار مرضاته فى كل حال والتباعد من سخطه بكل طريق وهذا هو حقيقة العبودية التى لا
تصلح الا لله وحده .

فالقلب السليم : هو الذى سلم من أن يكون لغير الله منه شرك بوجه ما بل قد خلصت عبوديته
لله تعالى : إرادة ومحبة وتوكلا وإبانة وإخبارا وخشية وزجاء ، وخلص عمله لله ، فان أحب فى الله وان
ابغض البغض فى الله وان أعطى أعطى الله وإن منع منع الله ولا يكفيه هذا حتى يسلم من الانقياد
والتحكيم لكل من عدا رسوله - ﷺ - فيعقد قلبه معه عقدا محكما على الإلتزام والاتكسبه وحده دون كل
أحد من الأقوال والأعمال من أقوال القلب وهى العقائد وأقوال اللسان وهى الخبر عما فى القلب وأعمال
القلب وهى الارادة والمحبة والكراهة وتوابعها أعمال الجوارح فيكون الحاكم عليه فى ذلك كله دقة
وجله . هو ما جاء به الرسول - ﷺ - فلا يتقدم بين يديه بعقيدة ولا قول ولا عمل . كما قال تعالى :
﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله ﴾ (١) .

أى لا تقولوا حتى يقول ، ولا تفعلوا حتى يأمر . قال بعض السلف : ما من فعلة - وان صغرت -
الا ينشر لها ديوانيان : لم ؟ وكيف ؟ أى لم فعلت وكيف فعلت ، فالأول سؤال عن علة الفعل وباعثه
وداعيه : هل هو حظ عاجل من حظوظ العامل وغرض من أغراض الدنيا فى محبة المدح من الناس أو
خوف ذمهم أو استجلاب محبوب عاجل أو دفع مكروه عاجل ، أم الباعث على الفعل القيام نحو
العبودية وطلب التودد والتقرب الى الرب سبحانه وتعالى . وابتغاء الوسيلة إليه .

ومحل هذا السؤال : إنه ، هل كان عليك ان تفعل هذا الفعل لمولاك ؟ أم فعلته لحظك وهواك .
والثانى : سؤال عن متابعة الرسول - عليه الصلاة والسلام - فى ذلك التعبد أى هل كان ذلك العمل
مما شرعته لك على لسان رسولى أم كان عملا لم أشرعه ولم أرضه ؟

فالأول سؤال عن الإخلاص والثانى عن المتابعة فان الله سبحانه لا يقبل عملا إلا بهما .
فطريق التخلص من السؤال الأول : بتجريد الإخلاص وطريق التخلص من السؤال الثانى
بتحقيق المتابعة وسلامة القلب من ارادة تعارض الاخلاص وهوى يعارض الاتباع . فهذا حقيقة سلامة
القلب الذى ضمنت له النجاة والسعادة .

فصل في القلب الميت

والقلب الثاني : ضد هذا وهو القلب الميت الذي لا حياة به فهو لا يعرف ربه ولا يعبد به بأمره وما يحبه ويرضاه ، بل هو واقف مع شهواته ولذاته ولو كان فيها سخط ربه وغضبه ، فهو لا يبالي إذا فاز بشهوته وحظه رضى ربه أم سخط فهو متعبد لغير الله . حبا وخوفا ورجاء ورضا وسخطا وتعظيما وذلا . إن أحب أحب لهواه وإن أبغض أبغض لهواه . وإن أعطى أعطى لهواه وإن منع منع لهواه . فهو أثر عنده وأحب إليه من رضا مولاه ، فالهوى إمامه والشهوة قائده والجهل سائقه والغفلة مركبه فهو بالفكر في تحصيل الأغراض الدنيوية مغمور ويسكره الهوى وبحب العاجلة مغمور . ينادى إلى الله وإلى الدار الآخرة من مكان بعيد ، لا يستجيب للناصح ويتبع كل شيطان مريده الدنيا تسخطه والهوى يعميه عما سوى الباطل ويعميه فهو في الدنيا كما قيل في ليلي :
عدو لمن عادت وسلم لأهلها ومن قربت ليلي أحب وأقربا

مخالصة هذا القلب سقم ومعاشرته سم ومجالسته هلاك .

فصل في القلب المريض

والقلب الثالث : قلب له حياة وبه علة . فله مادتان تمده هذه مرة وهذه أخرى ، وهو لما غلت عليه منها ، ففيه من محبة الله تعالى والایمان به والاخلاص له والتوكل عليه : ما هو مادة حياته وفيه من محبة الشهوات وإيثارها والحسد على تحصيلها والحبر والكبر والعجب وحب العلو والفساد في الأرض بالرياسة : ما هو مادة هلاكه وعطبه وهو ممتحن بين داعيين : داع يدعو إلى الله ورسوله والدار الآخرة وداع يدعو إلى العاجلة . وهو إنما يجيب أقربها منه بابا وادناهما إليه جوارا .
فالقلب الأول حي مخبت لين واع والثاني يابس ميت والثالث مريض فإما إلى السلامة أدنى وأما إلى العطب أدنى .

وقد جمع الله سبحانه بين هذه القلوب الثلاثة في قوله :

﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم . ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم وإن الظالمين لفي شقاق بعيد . وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم وإن الله لهاد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم ﴾ (١) .

فجعل الله سبحانه وتعالى القلوب في هذه الآيات ثلاثة . .

قلبين مفتونين وقلبا ناجيا . فالملتونان : القلب الذى فيه مرض والقلب القاسى . والناجى : القلب

المؤمن المخبت إلى ربه . وهو المطمئن إليه الخاضع له ، المستسلم المنقاد .
وذلك : أن القلب وغيره من الأعضاء يراد منه أن يكون صحيحا سليما لا آفة به ، يتأتى منه ما
هىء له وخلق لأجله . وخروجه عن الاستقامة إما ليسه وقساوته . وعدم التأتى لما يراد منه ، كاليد
الشلاء واللسان الأخرس ، والأنف الأخشم ، والعين لا تبصر شيئا . وأما بمرض وآفة فيه تمنعه من
كمال هذه الأفعال ووقوعها على السداد . فلذلك انقسمت القلوب إلى هذه الأقسام الثلاثة . فالقلب
الصحيح السليم : ليس بينه وبين قبول الحق ومحبه وإيثاره سوى إدراكه فهو صحيح الإدراك للحق ،
تام الانقياد والقبول له .

والقلب الميت القاسى : لا يقبله ولا ينقاد له .
والقلب المريض : إن غلب عليه مرضه التحق بالميت القاسى . وإن غلبت عليه صحته التحق
بالسليم .

فما يلقيه الشيطان فى الأسماع من الألفاظ وفى القلوب من الشبه والشكوك . فتنة لهذين القلبين .
وقوة للقلب الحى السليم لأنه يردد ذلك ويكرهه ويبغضه ويعلم أن الحق فى خلافه فيخبت للحق
ويطمئن وينقاد ويعلم بطلان ما ألقاه الشيطان ، فيزداد إيمانا بالحق ومحبة له وكفرا بالباطل وكراهة له ،
فلا يزال القلب المفتون فى مرية من إلقاء الشيطان . وأما القلب الصحيح فلا يضره ما يلقيه الشيطان
ابدا .

قال حذيفة بن اليمان رضى الله عنه : قال رسول الله ﷺ : (تعرض الفتن على القلوب كعرض
الحصير عودا عودا . فأى قلب اشربها نكتت فيه نكتة سوداء . وأى قلب أنكرها نكتت فيه نكتة
بيضاء ، حتى تعود القلوب على قلبين . قلب اسود مرباء كالكوز مجخيا . لا يعرف معروفا ولا ينكر
منكرا ، الا ما أشرب من هواه ، وقلب أبيض ، فلا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض)^(١) فشبه
عرض الفتن على القلوب شيئا فشيئا كعرض عيدان الحصير ، وهى طاقاتها شيئا فشيئا ، وقسم القلوب
عند عرضها عليها إلى قسمين : قلب اذا عرضت عليه فتنة اشربها ، كما يشرب السفنج الماء فتنتت فيه
نكتة سوداء ، فلا يزال يشرب كل فتنة تعرض عليه حتى يسود وينتكس وهو معنى قوله : (كالكوز
مجخيا) أى مكبوبا منكوسا ، فإذا اسود وانتكس عرض له من هاتين الآفتين مرضان خطران مثراميان به
إلى الهلاك : أحدهما :

اشتباه المعروف عليه بالمنكر ، فلا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا ، وربما استحکم عليه هذا
المرض حتى يعتقد المعروف منكرا والمنكر معروفا ، والسنة بدعة والبدعة سنة ، والحق باطلا والباطل
حقا ، الثانى : تحكيمه هواه على ما جاء به الرسول ﷺ .
وانقياده للهوى واتباعه له .

وقلب أبيض قد أشرق فيه نور الايمان . وأزهر فيه مصباحه ، فإذا عرضت عليه الفتنة أنكرها
وردها ، فإزداد نوره وأشراقه وقوته .

(١) مسلم - كتاب الايمان - باب الاسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا

والفتن التي تعرض على القلوب هي أسباب مرضها ، وهي فتن الشهوات وفتن الشبهات ، فتن الغنى والضلال فتن المعاصي والبدع ، فتن الظلم والجهل . فالأولى توجب فساد القصد والارادة ، والثانية توجب فساد العلم والاعتقاد .

وقد قسم الصحابة - رضى الله عنهم - القلوب إلى أربعة ، كما صح عن حذيفة ابن اليمان : (القلوب أربعة : قلب أجرد فيه سراج يزهر ، فذلك قلب المؤمن ، وقلب أغلف ، فذلك قلب الكافر ، وقلب منكوس فذلك قلب المنافق ، عرف ثم أنكر ، وأبصر ثم عمى ، وقلب تمده مادتان : مادة ايمان ، ومادة نفاق ، وهو لما غلب عليه منها)^(١) .

فقوله (قلب أجرد) أى متجرد مما سوى الله ورسوله ، فقد تجرد وسلم مما سوى الحق - و (فيه سراج يزهر) وهو مصباح الايمان : فأشار بتجرده إلى سلامته من شبهات الباطل وشهوات الغنى ، وبحصول السراج فيه إلى اشراقه واستنارته بنور العلم والإيمان ، وأشار بالقلب الأغلف الى قلب الكافر ، لانه داخل فى غلافه وغشائه ، فلا يصل إليه نور العلم والإيمان ، كما قال تعالى ، حاكيا عن اليهود :

﴿ وقالوا قلوبنا غلف ﴾^(٢) وهو جمع أغلف ، وهو الداخل فى غلافه ، كقلف وأقلف ، وهذه الغشاوة هي الأكنة التي ضربها الله على قلوبهم ، عقوبة لهم على رد الحق والتكبر عن قبوله ، فهي أكنة على القلوب ووقر فى الاسماع ، وعمى فى الابصار ، وهي الحجاب المستور عن العيون فى قوله تعالى : ﴿ وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا ، وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا ﴾^(٣) . فإذا ذكر لهذه القلوب تجريد التوحيد وتجريد المتابعة ، ولى أصحابها على ادبارهم نفورا . وأشار بالقلب المنكوس - وهو المكبوب - إلى قلب المنافق ، كما قال تعالى : ﴿ فما لكم فى المنافقين فئتين والله أركسهم بما كسبوا ﴾^(٤) . أى نكسهم ورددهم فى الباطل الذى كانوا فيه . بسبب كسبهم وأعمالهم الباطلة . وهذا شر القلوب وأخبثها ، فهو يعتقد الباطل حقا ويوالى أصحابه ، والحق باطلا ويعادى أهله ، فالله المستعان .

وأشار بالقلب الذى له مادتان إلى القلب الذى لم يتمكن فيه الايمان ولم يزهر فيه سراج ، حيث لم يتجرد للحق المحض الذى بعث الله به رسوله ، بل فيه مادة منه ومادة من خلافه ، فتارة يكون للكفر أقرب منه للإيمان ، وتارة يكون للإيمان أقرب منه للكفر والحكم للغالب وإليه يرجع .

فى ذكر حقيقة مرض القلب

قال الله تعالى عن المنافقين : ﴿ فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ﴾^(٥) ، وقال تعالى : ﴿ ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين فى قلوبهم مرض ﴾^(٦) وقال تعالى : ﴿ يا نساء النبى لستن كأحد من النساء

(٤) سورة النساء الآية : ٨٨

(٥) سورة البقرة الآية : ١٠

(٦) سورة الحج الآية : ٥٣

(١) مسند أحمد ١٧/٣

(٢) سورة البقرة الآية : ٨٨

(٣) سورة الاسراء الآية : ٤٥

إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرض ﴿١﴾ أمرهن ألا يبلن فى كلامهن ، كما تلىن المرأة المعطية اللبان فى منطقها ، فيطمع الذى فى قلبه مرض الشهوة ، ومع ذلك فلا يخشن فى القول بحيث يلتحق بالفحش ، بل يقلن قولا معروفا ، وقال تعالى : ﴿ لئن لم يتنه المنافقون والذين فى قلوبهم مرض والمرجفون فى المدينة لنگرينك بهم - الآية ﴾ (٢).

﴿ وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيمانا ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين فى قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا ﴾ (٣) ، أخبر الله سبحانه عن الحكمة التى جعل لأجلها عدة الملائكة الموكلين بالنار تسعة عشر ، فذكر سبحانه خمس حكم : فتنة الكافرين . فىكون ذلك زيادة فى كفرهم وضلالهم ، وقوة يقين أهل الكتاب ، فيقوى يقينهم بموافقة الخبر بذلك لما عندهم عن انبيائهم من غير تلق من رسول الله صلى الله عليه وسلم عنهم ، فتقوم الحجة على معاندتهم ، وينقاد للإيمان من يرد الله أن يهديه . وزيادة إيمان الذين آمنوا بكمال تصديقهم بذلك والاقرار به ، وانتفاء الريب عن أهل الكتاب لجزمهم بذلك ، وعن المؤمنين لكمال تصديقهم به .

فهذه أربع حكم : فتنة الكفار ، ويقين أهل الكتاب ، وزيادة إيمان المؤمنين ، وانتفاء الريب عن المؤمنين وأهل الكتاب .

والخامسة : حيرة الكافر ومن فى قلبه مرض ، وعمى قلبه عن المراد بذلك ، فيقول ﴿ ماذا أراد الله بهذا مثلا ﴾ وهذا حال القلوب عند ورود الحق المنزل عليها ، قلب يفتن به كفرا وجحودا ، وقلب يزداد به إيمانا وتصديقا ، وقلب يتيقنه ، فتقوم عليه به الحجة ، وقلب يوجب له حيرة وعمى ، فلا يدري ما يراد به . واليقين وعدم الريب فى هذا الموضع ، إن رجعا إلى شىء واحد ، كان ذكر عدم الريب مقرا لليقين ومؤكدا له ، ونافيا عنه ما يضاده بوجه من الوجوه ، وإن رجعا إلى شيئين ، بأن يكون اليقين راجعا إلى الخبر المذكور عن عدة الملائكة ، وعدم الريب عائدا إلى عموم ما أخبر الرسول به ، للدلالة هذا الخبر الذى لا يعلم إلا من جهة الرسل على صدقه ، فلا يرتاب من قد عرف هذا الخبر بعد صدق الرسول - ﷺ - ظهرت فائدة ذكره . والمقصود : ذكر مرض القلب وحقيقته .

وقال تعالى : ﴿ يا أيها الناس قد جاءكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين ﴾ (٤) فهو شفاء لما فى الصدور من مرض الجهل والغى ، فإن الجهل مرض شفاؤه العلم والهدى . والغى مرض شفاؤه الرشد ، وقد نزه الله سبحانه نبيه عن هذين الداءين . فقال : ﴿ والنجم إذا هوى ، ما ضل صاحبكم وما غوى ﴾ (٥) ووصف رسوله - ﷺ - خلفاء بضدها فقال : ﴿ عليكم

(١) سورة الأحزاب الآية : ٣٢

(٢) سورة الاحزاب الآية : ٦٠

(٣) سورة المدثر الآية : ٣١

(٤) سورة يونس الآية ٥٧

(٥) سورة النجم الأيتان : ١ ، ٢

بستى وسنة الخلفاء الراشدين من بعدى ﴿١﴾ وجعل كلامه سبحانه كموعظة للناس عامة ، وهدى ورحمة لمن آمن به خاصة ، وشفاء تاما لما فى الصدور ، فمن استشفى به صح وبرىء من مرضه ومن لم يستشف به فهو كما قيل :

إذا بل من داء به ظن انه نجا وبه الداء الذى هو قاتله

وقال تعالى : ﴿ وتنزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا ﴾ (٢)، والأظهر أن (من) وهنا لبيان الجنس ، فالقرآن جميعه شفاء ورحمة للمؤمنين .

فصل فى أسباب ومشخصات مرض البدن والقلب

ولما كان مرض البدن خلاف صحته وصلاحه ، وهو خروجه عن اعتداله الطبيعى ، لفساد يعرض له ، يفسد به ادراكه وحركته الطبيعية ، فإما ان يذهب ادراكه بالكلية ، كالعمى والصمم والشلل ، وإما أن ينقص إدراكه ، لضعف فى آلات الادراك مع استقامة إدراكه وإما أن يدرك الأشياء على خلاف ما هى عليه ، كما يدرك الحلوى مرا ، والخبيث طيبا ، والطيب خبيثا .
وأما فساد حركته الطبيعية فمثل أن تضعف قوته الهاضمة ، أو الماسكة ، أو الدافعة ، أو الجاذبة ، فيحصل له من الألم بحسب خروجه عن الاعتدال ، ولكن مع ذلك لم يصل إلى حد الموت والهلاك ، بل فيه نوع قوة على الادراك والحركة .

وسبب هذا الخروج عن الاعتدال : إما فساد فى الكمية وإما فى الكيفية .
فالأول : إما لنقص فى المادة ، فيحتاج إلى زيادتها ، وإما لزيادة فيها فيحتاج إلى نقصها .
والثانى : إما بزيادة الحرارة ، أو البرودة ، أو الرطوبة ، أو اليبوسة ، أو نقصانها عن القدر الطبيعى ، فيداوى بمقتضى ذلك ، ومدار الصحة على حفظ القوة ، والحمية عن المؤذى ، واستفراغ المواد الفاسدة ، ونظر الطبيب دائر على هذه الأصول الثلاثة ، وقد تضمنها الكتاب العزيز ، وأرشد إليها من أنزله شفاء ورحمة . فأما حفظ القوة : فإنه سبحانه أمر المسافر والمريض ان يفطر فى رمضان . ويقضى المسافر إذا قدم ، والمريض إذا برىء ، حفظا لقوتها عليهما ، فإن الصوم يزيد المريض ضعفا ، والمسافر يحتاج إلى توفير قوته عليه لمشقة السفر ، والصوم يضعفها .
وأما الحمية عن المؤذى : فإنه سبحانه حمى المريض عن استعمال الماء البارد فى الوضوء والغسل ، إذا كان يضره ، وأمره بالعدول إلى التيمم ، حمية له عن ورود المؤذى عليه من ظاهر بدنه ، فكيف بالمؤذى له فى باطنه .

وأما استفراغ المادة الفاسدة : فإنه سبحانه اباح للمحرم الذى به أذى من رأسه أن يحلقه ،

(١) أخرجه ابو داود - كتاب السنة - باب لزوم السنة ١٣/٥ رقم ٤٦٠٧ وابن ماجه ١٦/١ رقم ٤٢ والبيهقى ١٠/١١٤ وابن حبان ١٠٤/١ رقم ٥

(٢) سورة الاسراء الآية : ٨٢

فيستفرغ بالخلق الأبخرة المؤذية له ، وهذا من أسهل أنواع الاستفراغ وأخفها ، فنبه به على ما هو أحوج إليه منه .

وذاكرت مرة بعض رؤساء الطب بمصر بهذا ، فقال : والله لو سافرت إلى الغرب في معرفة هذه الفائدة لكان سفرا قليلا ، أو كما قال :

وإذا عرف هذا ، فالقلب محتاج إلى ما يحفظ عليه قوته وهو الايمان وأوراد الطاعات ، وإلى حمية عن المؤذى الضار ، وذلك بإجتنب الآثام والمعاصي ، وأنواع المخالفات ، وإلى استفراغه من كل مادة فاسدة تعرض له ، وذلك بالتوبة النصوح ، واستغفار غافر الخطيئات ، ومرضه هو نوع فساد يحصل له ، ويفسد به تصوره للحق واراادته له ، فلا يرى الحق حقا ، أو يراه على خلاف ما هو عليه ، أو ينقص إدراكه له ، وتفسد به ارادته له ، فيبغض الحق النافع ، تارة بالشك والريب ، كما قال مجاهد وقتادة في قوله تعالى :

﴿ في قلوبهم مرض ﴾^(١) أى شك ، وتارة بشهوة الزنا ، كما فسر به قوله تعالى : ﴿ فيطمع الذي في قلبه مرض ﴾^(٢) ، فالأول مرض الشبهة ، والثاني مرض الشهوة .
والصحة تحفظ بالمثل والشبه ، والمرض يدفع بالضد والخلاف وهو يقوى بمثل سببه ، ويزول بضده ، والصحة تحفظ بمثل سببها وتضعف أو تزول بضده .

ولما كان البدن المريض يؤذيه مالا يؤذى الصحيح : من يسير الحر ، والبرد ، والحركة ، ونحو ذلك ، فكذلك القلب . إذا كان فيه مرض أذاه أدنى شيء : من الشبهة أو الشر ، حيث لا يقوى على دفعها إذا وردا عليه ، والقلب الصحيح القوى يطرقه أضعاف ذلك وهو يدفعه بقوته وصحته . وبالجمله فإذا حدث للمريض مثل سبب مرضه زاد مرضه وضعفت قوته وترامى إلى التلف ، مالم يتدارك ذلك بأن يحصل له ما يقوى قوته ويزيل مرضه .

في اقسام أدوية أمراض القلب إلى قسمين : طبيعية ، وشرعية
مرض القلب نوعان : نوع لا يتألم به صاحبه في الحال ، وهو النوع المتقدم كمرض الجهل ، ومرض الشبهات والشكوك ، ومرض الشهوات ، وهذا النوع أعظم النوعين ألما ، ولكن لفساد القلب لا يحس بالألم ، ولأن سكرة الجهل والهوى تحول بينه وبين ادراك الألم ، وإلا فألمه حاضر فيه حاصل له ، وهو منوار عنه باشتغاله بضده ، وهذا أخطر المرضين وأصعبهما .

وعلاجه إلى الرسل واتباعهم . فهم أطباء هذا المرض .
والنوع الثاني : مرض مؤلم له في الحال كآلم والغم والحزن والغيظ وهذا المرض قد يزول بأدوية طبيعية كإزالة أسبابه أو بالمداواة بما يضاد تلك الأسباب . وما يدفع موجبها مع قيامها وهذا كما أن القلب قد يتألم بما يتألم به البدن ويشقى بما يشقى به البدن فكذلك البدن يتألم كثيرا بما يتألم به القلب ويشقيه ما يشقيه .

(١) سورة البقرة الآية : ١٠

(٢) سورة الاحزاب الآية : ٣١

فأمراض القلب التي تزول بالأدوية الطبيعية من جنس أمراض البدن ، وهذه قد لا توجب وحدها شقاء وعذابه بعد الموت وأما أمراضه التي لا تزول إلا بالأدوية الايمانية النبوية فهي التي توجب له الشقاء والعذاب الدائم إن لم يتداركها بأدويتها المضادة لها ، فإذا استعمل تلك الأدوية حصل له الشفاء ، ولهذا يقال : (شفى غيظ) فإذا استولى عليه عدوه آلمه ذلك فإذا انتصف منه اشتفى قلبه . قال تعالى : ﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصَرِّمُهُمْ وَيَشَفِّصُ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ، وَيَذْهَبُ غِيظُ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ ﴾ (١) فأمر بقتال عدوهم وأعلمهم ان فيه ست فوائد : فالغيظ يؤلم القلب ، ودواؤه في شفاء غيظ ، فإن شفاه بحق اشتفى ، وإن شفاه بظلم وباطل زاده

مرضا من حيث ظن أنه يشفيه وهو كمن شفى مرض العشق بالفجور بالمعشوق فإن ذلك يزيد مرضه ويوجب له أمراضا أخرى أصعب من مرض العشق ، وكذلك الغم والحزن أمراض للقلب وشفائها بأضدادها من الفرح والسرور ، فإن كان ذلك بحق اشتفى القلب وصح وبرىء من مرضه ، وإن كان باطلاً توارى ذلك واستتر ولم يزل وأعقب أمراضا هي أصعب وأخطر .

وكذلك الجهل مرض يؤلم القلب ، فمن الناس من يداويه بعلوم لا تنفع ، ويعتقد أنه قد صح من مرضه بتلك العلوم ، وهي في الحقيقة انما تزيده مرضا إلى مرضه ، لكن اشتغل القلب بها عن ادراك الألم الكامن فيه ، بسبب جهله بالعلوم النافعة التي هي شرط في صحته وبرئه ، قال النبي - ﷺ - : في الذين افتوا بالجهل ، فهلك المستفتى بفتواهم (قتلوه ، قتلهم الله ألا سألوا إذا لم يعلموا ؟ فإنما شفاء العي السؤال) (٢) فجعل الجهل مرضا وشفاءه سؤال أهل العلم .

وكذلك الشاك في الشيء المرتاب منه ، يتألم قلبه حتى يحصل له العلم واليقين ، ولما كان ذلك يوجب له حرارة قيل لمن حصل له اليقين : ثلج صدره : وحصل له برد اليقين ، وهو كذلك يضيق بالجهل والضلال عن طريق رشده ، وينشرح بالهدى والعلم . قال تعالى : ﴿ فَمَنْ يَرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يَرِدْ أَنْ يَضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ ﴾ (٣) .

والمقصود : ان من أمراض القلب ما يزول بالأدوية الطبيعية ومنها ما لا يزول إلا بالأدوية الشرعية والايمانية ، والقلب له حياة وموت ، ومرض وشفاء ، وذلك أعظم مما للبدن .

انتهى المجلد الثاني والخمسون من كتابنا : في رخاب التفسير ويليهِ بمشيئة الله تعالى المجلد الثالث والخمسون مبدؤا بتلك العبارة :

(في ان حياة القلب واشراقه مادة كل خير فيه وموته وظلمته مادة كل شرفيه)

(١) سورة التوبة الآيتان : ١٤ ، ١٥

(٢) أخرجه أبو داود - كتاب الطهارة - باب المجروح يتيمم ١ / ٢٤٠ رقم ٣٣٧ وابن ماجه - كتاب الطهارة - باب المجروح تصيبه الجنابة ١ / ١٨٩ رقم ٥٧٢ والحاكم ١ / ١٧٨ وابن حبان رقم ٢٢٠١ واحمد ١ / ٣٣٠

(٣) سورة الانعام الآية : ١٢٥

فصل

فى أن حياة القلب وإشراقه مادة كل خير فيه ، وموته وظلمته مادة كل شر فيه .
أصل كل خير ، وسعادة للعبد ، بل لكل حى ناطق كمال حياته ونوره ، فالحياة والنور مادة الخير كله .

قال الله تعالى : ﴿ أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها ﴾ ؟ (١) .

فجمع بين الأصلين : الحياة والنور ، فبالحياة تكون قوته وسمعه وبصره وحيائه وعفته وشجاعته وصبره وسائر أخلاقه الفاضلة ، ومحبه للحسن ، وبغضه للقيح ، فكلما قويت حياته قويت فيه هذه الصفات ، وإذا ضعفت حياته ضعفت فيه هذه الصفات ، وحيائه من القبائح هو بحسب حياته فى نفسه ، فالقلب الصحيح الحى إذا عرضت عليه القبائح نفر منها بطبعه وأبغضها ولم يلتفت إليها بخلاف القلب الميت ، فإنه لا يفرق بين الحسن والقيح كما قال عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه - : (هلك من لم يكن له قلب يعرف به المعروف وينكر به المنكر) .

وكذلك القلب المريض بالشهوة فإنه لضعفه يميل إلى ما يعرض له من ذلك بحسب قوة المرض وضعفه ، وكذلك إذا قوى نوره ، وإشراقه انكشفت له صور المعلومات وحقائقها على ما هى عليه ، فاستبان حسن الحسن بنوره ، وأثره بحياته ، وكذلك قبح القبيح .

وقد ذكر سبحانه وتعالى هذين الأصلين فى مواضع من كتابه فقال تعالى :
﴿ وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم ﴾ (٢) .

فجمع بين الروح الذى يحصل به الحياة ، والنور الذى يحصل به الإضاءة والإشراق ، وأخبر أن كتابه الذى أنزله على رسوله ﷺ - متضمن للأمرين ، فهو روح تحيا به القلوب ، ونور تستضيء وتشرق به .

كما قال تعالى : ﴿ أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها ﴾ (٣) .

أى أو من كان كافرا ميت القلب مغمورا فى ظلمة الجهل فهديناه لرشده ، ووفقناه للإيمان ، وجعلنا قلبه حيا بعد موته مشرقا مستنيرا بعد ظلمته ، فجعل الكافر - لانصرافه عن طاعته وجهله بمعرفته وتوحيده وشرائع دينه ، وترك الأخير بنصيبه من رضاه ، والعمل بما يؤديه إلى نجاته وسعادته - بمنزلة الميت الذى لا ينفع نفسه بنافعة ، ولا يدفع عنها من مكروه ، فهديناه للإسلام ، وأنعشناه به ، فصار يعرف مضار نفسه ومنافعها ، ويعمل فى خلاصها من سخط الله - تعالى - وعقابه ، فابصر الحق

(١) سورة الأنعام من الآية : ١٢٢

(٢) سورة الشورى الآية : ٥٢ .

(٣) سورة الأنعام الآية : ١٢٢

بعد عماه عنه ، وعرفه بعد جهله به ، واتبعه بعد اعراضه عنه ، وحصل له نور وضياء يستضيء به ،
فيمشي بنوره بين الناس وهم في سدف الظلام .
كما قيل :

ليلى بوجهك مشرق وظلامه فى الناس سارى
الناس فى سدف الظلا م ونحن فى ضوء النهار

ولهذا يضرب الله سبحانه وتعالى المثلين المائى والنارى لوجيه و لعباده .
أما الأول : فكما قال فى سورة الرعد : ﴿ أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل
السييل زبدا رابيا ومما يوقدون عليه فى النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله كذلك يضرب الله الحق
والباطل فاما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض كذلك يضرب الله
الأمثال ﴾ (١) .

فضرب لوجيه المثل بالماء لما يحصل به من الحياة وبالنار لما يحصل بها من الاضائة والاشراق .
وأخبر سبحانه أن الأودية تسيل بقدرها ، فواد كبير يسع ماء كثيرا ، وواد صغير . يسع ماء قليلا .
كذلك القلوب مشبهة بالأودية ، فقلب كبير يسع علما كثيرا ، وقلب صغير يسع بقدره ، وشبه ما
تحمله القلوب من الشبهات والشهوات بسبب مخالطة الوحى لها ، وإمازته لما فيها من ذلك بما يحتمله
السييل من الزبد .

وشبه بطلان تلك الشبهات باستقرار العلم النافع فيها بذهاب ذلك الزبد ، والقاء الوادى له ،
وإنما يستقر فيه الماء الذى به النفع ، وكذلك فى المثل الذى بعده : يذهب الخبث الذى فى ذلك الجوهر
ويستقر صفوه . .

وأما ضرب هذين المثلين للعباد ، فكما قال فى سورة البقرة ﴿ مثلهم كمثل الذى استوقد نارا فلما
أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون . صم بكم عمى فهم
لا يرجعون ﴾ (٢) .

فهذا المثل النارى .

ثم قال : ﴿ أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم فى آذانهم من
الصواعق حذر الموت ﴾ (٣) .

فهذا لمثل المائى والمقصود أن صلاح القلب وسعادته وخلاصه موقوف على هذين الأصلين .
قال تعالى : ﴿ إن هو إلا ذكر وقرآن مبين ، لينذر من كان حيا ﴾ (٤) .
فأخبر أن الانتفاع بالقرآن والانداز به إنما يحصل لمن هو حى القلب ، كما قال فى موضع آخر :
﴿ إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب ﴾ (٥) .

(١) سورة الرعد الآية : ١٧

(٢) سورة البقرة الآيتان : ١٧ ، ١٨

(٣) سورة البقرة من الآية : ١٩

(٤) سورة يس الآيتان : ٦٩ ، ٧٠

(٥) سورة ق من الآية : ٣٧

وقال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم ﴾^(١) .
 فأخبر سبحانه وتعالى : أن حياتنا إنما هي باستجابتنا لما يدعونا إليه الله والرسول من العلم
 والايمان ، فعلم أن موت القلب وهلاكه بفقد ذلك .
 وشبه سبحانه من لا يستجيب لرسوله بأصحاب القبور .
 وهذا من أحسن التشبيه ، فإن أبدانهم قبور لقلوبهم ، فقد ماتت قلوبهم وقبرت في أبدانهم .
 فقال الله تعالى : ﴿ ان الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من في القبور ﴾^(٢) .
 ولقد أحسن القائل

وفي الجهل قبل الموت	موت	لأهله
وأجسامهم	قبل القبور	قبور
وأراوهم في وحشة	من	جسومهم
وليس لهم	حتى النشور	نشور

ولهذا جعل سبحانه : وحيه الذى يلقيه إلى الأنبياء روحا كما قال تعالى : ﴿ يلقى الروح من أمره
 على من يشاء من عباده ﴾^(٣) .
 فى موضعين من كتابه :

وقال سبحانه : ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ﴾^(٤) .
 لأن حياة الأرواح والقلوب به ، وهذه الحياة الطيبة هى التى خص بها سبحانه من قبل وحيه ، وعمل
 به .

فقال بحانه : ﴿ من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم
 أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾^(٥) .

فخصهم سبحانه وتعالى بالحياة الطيبة فى الدارين ، ومثله قوله تعالى : ﴿ وأن استغفروا ربكم
 ثم توبوا إليه يمتعكم متاعا حسنا إلى أجل مسمى ويؤت كل ذى فضل فضله ﴾^(٦) .
 ومثله قوله تعالى : ﴿ للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير ولنعم دار
 المتقين ﴾^(٧) .

ومثله قوله تعالى : ﴿ للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة وأرض الله واسعة ﴾^(٨) .
 فبين سبحانه : انه يسعد المحسن باحسانه فى الدنيا وفى الآخرة ، كما أخبر أنه يشقى المسيء بإساءته
 فى الدنيا والآخرة .

(٥) سورة النحل الآية : ٩٧
 (٦) سورة هود من الآية : ٣
 (٧) سورة النحل من الآية : ٣٠
 (٨) سورة الزمر من الآية : ١٠

(١) سورة الأنفال من الآية : ٢٤
 (٢) سورة فاطر آية : ٢٢
 (٣) سورة غافر من الآية : ١٥
 (٤) سورة الشورى من الآية : ٥٢

قال تعالى : ﴿ ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى ﴾ (١) .
وقد جمع بين النوعين ﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد في السماء كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون ﴾ (٢) .
فأهل الهدى والايمان لهم شرح الصدر واتساعه وانفساحه ، وأهل الضلال لهم ضيق الصدر والحرج .

وقال تعالى : ﴿ أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه ﴾ (٣) .
فأهل الايمان في النور وإنشراح الصدر ، وأهل الضلال في الظلمة وضيق الصدر .
والمقصود أن حياة القلب وإضاءته مادة كل خير فيه ، وموته وظلمته مادة كل شر فيه .
* في أن حياة القلب وصحته لا تحصل إلا بأن يكون مدركا للحق مريدا له ، مؤثرا له على غيره .
لما كان في القلب قوتان : قوة العلم والتمييز ، وقوة الارادة والحب ، كان كماله وصلاحه باستعمال هاتين القوتين فيما ينفعه ، ويعود عليه بصلاحه وسعادته ، فكماله باستعمال قوة العلم في إدراك الحق ، ومعرفته ، والتمييز بينه وبين الباطل ، وباستعمال قوة الارادة والمحبة في طلب الحق ومحبة ، وإيثاره على الباطل . فمن لم يعرف الحق فهو ضال ، ومن عرفه وآثر غيره عليه فهو مغضوب عليه ، ومن عرفه واتبعه فهو منعم عليه .

وقد أمرنا الله سبحانه - وتعالى - : أن نسأله في صلاتنا أن يهدينا صراط الذين أنعم الله عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ، ولهذا كان النصارى أخص بالضلال ، لأنهم أمة جهل . واليهود أخص بالغضب ، لأنهم أمة عناد ، وهذه الأمة هي المنعم عليهم ولهذا قال سفيان بن عيينه : (من فسد من عبادنا ففيه شبه من النصارى . ومن فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود ، لأن النصارى عبدوا بغير علم ، واليهود عرفوا الحق وعدلوا عنه) .
وفي المسند والترمذي من حديث عدى بن حاتم عن النبي ﷺ - قال : (اليهود مغضوب عليهم ، والنصارى ضالون) (٤) .

وقد جمع الله سبحانه بين هذين الأصلين في غير موضع من كتابه ، فمنها قوله تعالى : ﴿ وإذا سألك عبادي عني فإني قريب ، أجيب دعوة الداع إذا دعان ، فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون ﴾ (٥) .

فجمع سبحانه بين الاستجابة له والايمان به . ومنها قوله عن رسوله ﷺ - : ﴿ فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون ﴾ (٦) .

(١) سورة طه ، الآية : ١٢٤

(٢) سورة الأنعام الآية : ١٢٥

(٣) سورة الزمر من الآية : ٢٢

(٤) انظر سنن الترمذي في (كتاب تفسير القرآن) باب : ومن سورة فاتحة الكتاب ج ٥ ص ٢٠٤ رقم ٢٩٥٤

(٥) سورة البقرة الآية : ١٨٦

(٦) سورة الأعراف ، من الآية : ١٥٧

وقال تعالى : ﴿ ألم ، ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ، الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة وما رزقناهم ينفقون ، والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون ، أولئك على هدى من ربهم وألئك هم المفلحون ﴾ (١) .

وقال تعالى في وسط السورة : ﴿ ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة - إلى آخر الآية ﴾ (٢) .

وقال تعالى : ﴿ والعصر ، إن الإنسان لفى خسر ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ﴾ (٣) .

فأقسم سبحانه بالدهر الذى هو زمن الأعمال الرباحة والخسارة ، على أن كل واحد فى خسر ، إلا من كمل قوته العلمية بالايمان بالله ، وقوته العملية بالعمل بطاعته . فهذا كماله فى نفسه ، ثم كمل غيره بوصيته له بذلك ، وأمره إياه به ، وبملاك ذلك وهو الصبر . فكملى نفسه بالعلم النافع والعمل الصالح ، وكملى غيره بتعليمه إياه ذلك ، ووصيته له بالصبر عليه ، ولهذا قال الشافعى - رحمه الله - : (لو فكر الناس فى سورة العصر لكفتهم) وهذا المعنى فى القرآن فى مواضع كثيرة : يخبر سبحانه أن أهل السعادة : هم الذين عرفوا الحق واتبعوه ، وأن أهل الشقاوة : هم الذين جهلوا الحق وضلوا عنه ، أو علموه وخالفوه واتبعوا غيره .

وينبغى أن تعرف أن هاتين القوتين لاتتعطلان فى القلب ، فهو إما يستعمل قوته العلمية فى معرفة الحق وإدراكه ، وإما يستعملها فى معرفة ما يليق به ويناسبه من الباطل ، وإما يستعمل قوته الارادية العملية فى العمل به ، وإلا إستعملها فى ضده ، فالإنسان حارس همام بالطبع ، كما قال النبى ﷺ - : (أصدق الأسماء : حارث وهمام) (١) فالحارث الكاسب العامل ، والهمام المريد ، فإن النفس متحركة بالارادة ، وحركتها الارادية لها من لوازم ذاتها ، والارادة تستلزم مراداً يكون مصوراً لها ، متميزاً عندها ، فإن لم تتصور الحق وتطلبه وتريده تصورت الباطل وطلبتة ، وأرادته ولا بد .

* فى أنه لاسعادة للقلب ، ولا لذة ، ولا نعيم ، ولا صلاح إلا بأن يكون الله هو الهه وفطره وحده ، وهو معبوده وغاية مطلوبه ، وأحب إليه من كل ما سواه .

معلوم أن كل حى - سوى الله سبحانه - : من ملك أو إنس أو جن أو حيوان ، هو فقير إلى جلب ما ينفعه ودفع ما يضره ، ولا يتم ذلك له إلا بتصوره للنافع والضار ، والمنفعة من جنس النعيم واللذة ، والمضرة من جنس الألم والعذاب .

(١) سورة البقرة ، الآيات : ١ - ٥

(٢) سورة البقرة من الآية : ١٧٧

(٣) سورة العصر من الآية : ١ - ٣

فلا بد له من أمرين : أحدهما معرفة ما هو المحبوب المطلوب الذي يتتبع به ويلتذ بإدراكه ، والثاني : معرفة المعين الموصل المحصل لذلك المقصود . وبإزاء ذلك أمران آخران ، أحدهما : مكروه بغيض ضار ، والثاني : معين دافع له عنه ، فهذه أربعة أشياء : أحدهما أمر هو محبوب مطلوب الوجود . الثاني : أمر مكروه مطلوب العدم . الثالث : الوسيلة إلى حصول المطلوب المحبوب ، الرابع : الوسيلة إلى دفع المكروه .

فهذه الأمور الأربعة ضرورية للعبد ، بل ولكل حيوان ، لا يقوم وجوده وصلاحه إلا بها . فإذا تقرر ذلك ، فالله - تعالى - هو الذي يجب أن يكون هو المقصود المدعو المطلوب . الذي يراد وجهه ، ويبتغى قربه ، ويطلب رضاه ، وهو المعين على حصول ذلك . وعبودية ما سواه والالتفات إليه ، والتعلق به . هو المكروه الضار ، والله هو المعين على دفعه ، فهو سبحانه الجامع لهذه الأمور الأربعة دون ما سواه . فهو المعبود المحبوب المراد . وهو المعين لعبده على دفعه عنه ، كما قال أعرف الخلق به : (أعوذ برضاك من سخطك ، وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك)^(١) .

وقال : (اللهم إني أسلمت نفسي إليك ، ووجهت وجهي إليك ، وفوضت أمري إليك ، وأجأت ظهري إليك ، رغبة ورهبة إليك ، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك)^(٢) . فمنه المنجى ، وإليه الملجأ ، وبه الاستعاذة من شر ما هو كائن بمشيئته وقدرته ، فالإعاذة فعله ، والمستعاذ منه فعله ، أو مفعوله الذي خلقه بمشيئته . فالأمر كله له ، والحمد كله له ، والملك كله له ، والخير كله في يديه ، لا يحصى أحد من خلقه ثناء عليه ، بل هو كما أثنى على نفسه ، وفوق ما يثنى عليه كل أحد من خلقه ، ولهذا كان صلاح العبد وسعادته في تحقيق معنى قوله : ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾^(٣) فإن العبودية تتضمن المقصود المطلوب ، لكن على أكمل الوجوه ، والمستعان هو الذي يستعان به على المطلوب .

فالأول : من معنى ألوهيته ، والثاني من معنى ربوبيته ، فإن الاله هو الذي تأله القلوب : محبة ، وإناابة ، وإجلالا ، وإكراما ، وتعظيما ، وذلا ، وخضوعا ، وخوفا ، ورجاء ، وتوكلا ، والرب هو الذي يربى عبده ، فيعطيه خلقه ، ثم يهديه إلى مصالحه . فلا إله إلا هو ، ولارب إلا هو . فكما أن ربوبية ما سواه أبطل الباطل ، فكذلك إلهية ما سواه .

وقد جمع الله - سبحانه - بين هذين الأصلين في مواضع من كتابه كقوله : ﴿ فاعبده وتوكل عليه ﴾^(٤) وقوله عن نبيه شعيب : ﴿ وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ﴾^(٥) .

(١) انظر الترمذى والنسائى من حديث عائشة رضى الله عنها قالت : كنت نائمة الى جنبى النبى ﷺ - ففقدته من الليل فلمسته فوقعت يدي على قدميه وهو ساجد يقول : أعوذ برضاك .. الخ .. ورواه مسلم وأصحاب السنن .

(٢) انظر البخارى ومسلم وأبو داود الترمذى

(٣) سورة الفاتحة الآية : ٥

(٤) سورة هود ، من الآية : ١٢٣

(٥) سورة هود ، من الآية : ٨٨

وقوله : ﴿ وتبتل إليه تبتيلا ، رب المشرق والمغرب لا آله إلا هو فاتخذه وكيلا ﴾^(١) . وقوله : ﴿ قل هو رب لا إله إلا هو عليه توكلت وإليه متاب ﴾^(٢) . وقوله عن الخنفاء أتباع إبراهيم عليه السلام : ﴿ ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير ﴾^(٣) فهذه سبعة مواضع تنتظم هذين الأصلين الجامعين لمعنى التوحيد اللذين لا سعادة للعبد بدونهما البتة .

الوجه الثاني : أن الله - سبحانه وتعالى - : خلق الخلق لعبادته ، الجامعة لمعرفته والانابة إليه ومحبته ، والاخلاص له ، فذكره تطمئن القلوب ، وتسكن نفوسهم ، وبرؤيته في الآخرة تقر عيونهم ، ويتم نعيمهم ، فلا يعطيهم في الآخرة شيئا هو أحب إليهم ، ولا أقر لعيونهم ، ولا أنعم لقلوبهم : من النظر إليه ، وسماع كلامه منه بلا واسطة ، ولم يعطهم في الدنيا شيئا خيرا لهم ولا أحب إليهم ، ولا أقر لعيونهم من الإيمان به ، ومحبته والشوق إلى لقائه ، والأنس بقربه ، والتنعم بذكره .

وقد جمع النبي ﷺ - بين هذين الأمرين في الدعاء الذي رواه النسائي والامام أحمد ، وابن حبان في صحيحه وغيرهم ، من حديث عمار بن ياسر : أن رسول الله ﷺ - كان يدعو به : (اللهم بعلمك الغيب ، وقدرتك على الخلق ، أحيني ما علمت الحياة خيرا لي ، وتوفني إذا كانت الوفاة خيرا لي ، وأسألك خشتيك في الغيب والشهادة ، وأسألك كلمة العدل والحق في الغضب والرضا ، وأسألك القصد في الفقر والغنى ، وأسألك نعيما لا يبيد ، وقرة عين لاتنقطع ، وأسألك الرضا بعد القضاء ، وأسألك برد العيش بعد الموت ، وأسألك لذة النظر إلى وجهك ، وأسألك الشوق إلى لقائك ، في غير ضراء مضرة ، ولا فتنة مضلة ، اللهم زينا بزينة الإيمان ، واجعلنا هداة مهتدين)^(٤) .

فجمع في هذا الدعاء العظيم القدر بين أطيب شيء في الدنيا ، وهو الشوق إلى لقائه سبحانه ، وأطيب شيء في الآخرة ، وهو النظر إلى وجهه سبحانه . ولما كان كمال ذلك وتمامه موقوفا على عدم ما يضر في الدنيا ويفتن في الدين قال : (في غير ضراء مضرة ، ولا فتنة مضلة) .

ولما كان كمال العبد في أن يكون عالما بالحق متبعا له معلما لغيره ، مرشدا له ، قال : (واجعلنا هداة مهتدين)^(٥)

ولما كان الرضا النافع المحصل للمقصود هو الرضا بعد وقوع القضاء لاقبله ، فإن ذلك عزم على الرضا ، فإذا وقع القضاء إنفسخ ذلك العزم ، سأل الرضى بعده ، فإن المقدور يكتنفه أمران : الاستخارة قبل وقوعه ، والرضا بعد وقوعه . فمن سعادة العبد أن يجمع بينهما ، كما في المسند وغيره عنه ﷺ : (إن من سعادة ابن آدم استخارة الله ورضاه بما قضى الله وإن من شقاوة ابن آدم ترك

(١) سورة الفرقان من الآية : ٥٨

(٢) سورة المزمل من الآيتين : ٨ ، ٩

(٣) سورة الرعد من الآية : ٣٠

(٤) سورة الممتحنة من الآية : ٤

(٥) انظر مسند الامام أحمد - من حديث عمار بن ياسر ج ٤ ص ٢٦٤ وابن حبان في ذكر جواز دعاء المرء في الصلاة بما ليس في كتاب الله ج ٣ ص ٢١٢ رقم ١٩٦٨

استخارة الله وسخطه بما قضى الله تعالى (١) .

ولما كانت خشية الله عز وجل رأس كل خير في المشهد والمغيب ، سألته خشيته في الغيب والشهادة .

ولما كان أكثر الناس إنما يتكلم بالحق في رضاه فإذا غضب أخرجه غضبه إلى الباطل ، وقد يدخله أيضا رضاه في الباطل ، وسأل الله عز وجل أن يوفقه إلى كلمة الحق في الغضب والرضا ، ولهذا قال بعض السلف : (لا تكن ممن إذا رضى أدخله رضاه في الباطل وإذا غضب أخرجه غضبه من الحق) .
ولما كان الفقر والغنى بليتين ومحتتين يبتلى الله بهما عبده ، ففي الغنى يبسط يده ، وفي الفقر يقبضها . سأل الله - عز وجل - القصد في الحالين ، وهو التوسط الذي ليس معه إسراف ولا تقثير .
ولما كان النعيم نوعين : نوعا للبدن ، ونوعا للقلب ، وهو قرة العين ، وكماله بدوامه واستمراره ، جمع بينهما في قوله (أسألك نعيما لا ينفد ، وقرة عين لا تنقطع) .

ولما كانت الزينة زيتين : زينة البدن وزينة القلب ، وكانت زينة القلب أعظمها قدرا وأجلها خطرا ، وإذا حصلت حصلت زينة البدن على أكمل الوجوه في العقبى ، سأل ربه الزينة الباطنة فقال : (زينا بزينة الإيمان) (٢) .

ولما كان العيش في هذه الدار لا يبرد لأحد كائنا من كان ، بل هو محشو بالغصص والنكد ، ومحفوف بالآلام الباطنة والظاهرة ، سأل برد العيش بعد الموت .

والمقصود : أنه جمع في هذا الدعاء بين أطيب ما في الدنيا ، وأطيب ما في الآخرة .
فإن حاجة العباد إلى ربهم في عبادتهم إياه وتأليهم له ، كحاجتهم إليه في حاجتهم إلى تأليهه ومحبته وعبوديته أعظم ، فإن ذلك هو الغاية المقصودة لهم ، ولا صلاح لهم ولا نعيم ولا فلاح ولا لذة ولا سعادة بدون ذلك بحال ، ولهذا كانت « لا إله إلا الله » أحسن الحسنات ، وكان توحيد الألوهية رأس الأمر ، وأما توحيد الربوبية الذي أقر به المسلم والكافر ، وقرره أهل الكلام في كتبهم ، فلا يكفى وحده ، بل هو الحجة عليهم ، كما بين ذلك سبحانه في كتابه الكريم في عدة مواضع ، ولهذا كان حق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا كما في الحديث الصحيح الذي رواه معاذ بن جبل - رضى الله عنه - عن النبي ﷺ - قال : (أتدرى ما حق الله على عباده ؟ قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : حقه على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا ، أتدرى ما ق العباد على الله إذا فعلوا ذلك ؟ قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : حقهم عليه ألا يعذبهم بالنار) (٣) ولذلك يحب سبحانه عباده المؤمنين الموحدين ويفرح بتوبتهم ، كما أن في ذلك أعظم لذة العبد وسعادته ونعيمه ، فليس في الكائنات شيء غير الله عز وجل يسكن القلب إليه ، ويطمئن به ويأنس به ، ويتنعم بالتوجه إليه ، ومن عبد غيره سبحانه وحصل

(١) انظر مسند الامام أحمد بن حنبل ومسند أبي اسحاق سعد بن أبي وقاص ج ١ ص ١٦٨

(٢) جزء من حديث رواه الامام أحمد في مسنده من حديث عمار بن ياسر ج ٤ ص ٢٦٤ وابن حبان في جواز دعاء المرء في الصلاة

بما ليس في كتاب الله ج ٣ ص ٢١٢

(٣) انظر مسن الامام أحمد من حديث معاذ بن جبل ج ٥ ص ٢٢٨ ، ٢٣٠ ، ٢٣٤ ، ٢٣٦

له به فرع منفعة ولذة ، فمضرته بذلك أضعاف أضعاف منفعته وهو بمنزلة أكل الطعام المسموم اللذيذ ، وكما أن السموات والأرض لو كان فيهما آلهة غيره سبحانه لفسدتا ، كما قال تعالى ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ﴾ فكذا القلب إذا كان فيه معبود غير الله تعالى : فسد فسادا لا يرجى صلاحه إلا بأن يخرج ذلك المعبود منه ، ويكون الله تعالى : وحده أكرم ومعبوده الذى يحبه ويرجوه ويخافه ، ويتوكل عليه ، وينيب إليه .

الوجه الثالث : إن فقر العبد إلى أن يعبد الله سبحانه : وحده لا يشرك به شيئا ليس له نظير ، فيقاس به ، لكن يشبه من بعض الوجوه ، حاجة الجسد إلى الغذاء والشراب والنفس ، فيقاس بها ، لكن بينهما فروق كثيرة ، فإن حقيقة العبد قلبه وروحه ، ولا صلاح له إلا بإله الحق الذى (لا إله إلا هو) ، فلا يطمئن إلا بذكره ، ولا يسكن إلا بمعرفته وحبه ، وهو كادح إليه كدحا فملاقية ، ولا بد له من لقائه ولا صلاح له إلا بتوحيد محبته وعبادته وخوفه ورجائه ، ولو حصل له من اللذات والسرور بغيره ما حصل ، فلا يدوم له ذلك ، بل ينتقل من نوع إلى نوع ، ومن شخص إلى شخص ، ويتنعم بهذا فى حال ، وبهذا فى حال ، وكثيرا ما يكون ذلك الذى يتنعم به هو أعظم أسباب ألمه ومضرته . وأما إله الحق فلا بد له منه فى كل وقت ، وفى كل حال ، وإينما كان فنفس الايمان به ومحبه وعبادته وإجلاله وذكره هو غذاء الانسان وقوته ، وصلاحه وقوامه ، كما عليه أهل الايمان ودلت عليه السنة والقرآن ، وشهدت به الفطر والجنان ، لا كما يقوله : من قل نصيبه من التحقيق والعرفان ، ونحس حظه من الاحسان إن عبادته وذكره وشكره تكليف ومشقة لمجرد الابتلاء والامتحان ، أو لأجل مجرد التعويض بالثواب المنفصل ، كالمعاوضة بالاثمان ، أو لمجرد رياضة النفس وتهذيبها ليرتفع عن درجة البهيم من الحيوان ، كما هى مقالات من نقص حظه من معرفة الرحمن ، وقل نصيبه من ذوق حقائق الايمان ، وفرح بما عنده من زبد الأفكار وزبالة الأذهان ، بل عبادته ومعرفته وتوحيده وشكره قرّة عين الانسان ، وأفضل لذة للروح والقلب والجنان ، وأطيب نعيم ناله من كان أهلا لهذا الشأن والله المستعان وعليه التكلان .

وليس المقصود بالعبادات والأوامر المشقة والكلفة بالقصد الأول ، وإن وقع ذلك ضمنا وتبعاً فى بعضها ، لأسباب اقتضته لابد منها ، هى من لوازم هذه النشأة .

فأوامره سبحانه ، وحقه الذى أوجبه على عباده ، وشرائعه التى شرعها لهم ، هى قرّة العيون ولذة القلوب ، ونعيم الأرواح وسرورها ، وبها شقاؤها وسعادتها وفلاحها ، وكمالها فى معاشها ومعادها ، بل لا سرور لها ولا فرح ولا لذة ولا نعيم فى الحقيقة إلا بذلك ، كما قال تعالى : ﴿ يا أيها الناس قد جاءكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين ﴾ ، قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون ^(١) .

قال سعيد الخدرى : (فضل الله : القرآن ورحمته : أن جعلكم من أهله) وقال هلال بن يسان (بالاسلام الذى هداكم إليه ، والقرآن الذى علمكم إياه ، هو خير مما تجمعون من الذهب والفضة) .

والتحقيق : أن كلا منهما فيه الوصفان ، الفضل والرحمة ، وهما الأمران اللذان امتن الله بهما على رسوله - عليه الصلاة والسلام - فقال : ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ﴾^(١) والله سبحانه إنما رفع من رفع بالكتاب والإيمان . ووضع من وضع بعدهما .

فإن قيل : فقد وقع نسبة ذلك تكليفا في القرآن كقوله : ﴿ لا يكلف الله نفسا إلا وسعها ﴾^(٢) وقوله : ﴿ لا تكلف نفسا إلا وسعها ﴾^(٣) .

قيل : نعم إنما جاء ذلك في جانب النفس ، ولم يسم سبحانه أوامره وشرائعه تكليفا قط ، بل سماها روحا ونورا ، وشفاء وهدى ورحمة ، وحياة ، وعهدا ، ووصية ، ونحو ذلك .

الوجه الرابع : أن أفضل نعيم الآخرة وأعلاها على الإطلاق هو النظر إلى وجه الرب - عز وجل - وسماع خطابه كما في صحيح مسلم عن صهيب - رضى الله عنه - عن النبي ﷺ - (إذا دخل أهل الجنة الجنة نادى مناد : يا أهل الجنة ، إن لكم عند الله موعدا يريد أن ينجزكموه فيقولون : ما هو ؟ ألم يبيض وجوهنا ، ويثقل موازيننا ويدخلنا الجنة ، ويجرنا من النار ؟ قال فيكشف الحجاب ، فينظرون إليه ، فما أعطاهم شيئا أحب إليهم من النظر إليه)^(٤) وفي حديث آخر (فلا يلتفتون إلى شيء من النعيم ما داموا ينظرون إليه) فبين عليه - الصلاة والسلام - أنهم مع كمال تبعمهم بما أعطاهم ربهم في الجنة لم يعطهم شيئا أحب إليهم من النظر إليه .

من مشاهد القيامة

قوله تعالى : ﴿ وأزلفت الجنة للمتقين ، وبرزت الجحيم للغاوين ، وقيل لهم أين ما كنتم تعبدون . من دون الله هل ينصرونكم أو ينتصرون . فكبكبا فيها وهم الغاؤون . وجنود إبليس أجمعون - قالوا وهم فيها يختصمون بالله إن كنا لفي ضلال مبين . إذ نسويكم برب العالمين . وما أضلنا إلا المجرمون . فما لنا من شافعين ولا صديق حميم فلو أن لنا كرة فكنون من المؤمنين إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك هو العزيز الرحيم ﴾^(٥) .

هذا إخبار منه تبارك وتعالى عن دار الجزاء في الآخرة ، فالجنة قد أزلفت وقربت وزينت للمتقين الذين خافوا الجليل ، وعملوا بالتنزيل ، ورضوا بالقليل ، واستعدوا ليوم الرحيل ، إنهم الذين تنادى بهم الحور العين نحن الناعمات فلا نبأس ، نحن الراضيات فلا نسخط ، نحن المقيمات فلا نظعن ، نحن الخالدات فلا نبید ، طوبى لمن كنا له وكان لنا قال تعالى : ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون ﴾^(٦)

(١) سورة الشورى من الآية : ٥٢

(٢) سورة البقرة من الآية : ٢٨٦

(٣) سورة الأنعام من الآية : ١٥٢

(٤) الحديث رواه مسلم في (كتاب الإيمان) باب : اثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى ج ١ ص ١٦٣ رقم ١٨١ بلفظ : (إذا دخل أهل الجنة الجنة ، قال : يقول الله تبارك وتعالى : تريدون شيئا أزيدكم ؟ فيقولون : ألم تبيض وجوهنا ؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار ؟ قال : فيكشف الحجاب . فما أعطوا شيئا أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل) .

(٥) سورة الشعراء من الآية : ٩٠ - ١٠٤

(٦) سورة السجدة الآية : ١٧

لاتركنن إلى القصور الفاخرة واذكر عظامك حين تمسى ناخرة
 وإذا رأيت زخارف الدنيا فقل يارب إن العيس عيش الآخرة
 قف خاشعا أمام هذا الجلال ، ومتع السمع والبصر بهذا الجمال ، وأملأ القلب روعة بهذا
 الكمال ، قف أمام هذا المشهد المشرق البسام ﴿١﴾ إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا ،
 عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا . يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيرا . ويطعمون
 الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا . إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا . إنا
 نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا . فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسرورا . وجزاهم بما
 صبروا جنة وحريرا متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا ودانية عليهم ظلالها
 وذللت قطوفها تذليلا . ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرا . قواريرا من فضة
 قدروها تقديرا ويسقون فيها كأسا كان مزاجها زنجبيلا . عينا فيها تسمى سلسبيلا ، ويطوف عليهم
 ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا وإذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا . عاليهم ثياب
 سندس خضر واستبرق وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شرابا طهورا إن هذا كان لكم جزاء
 وكان سعيكم مشكورا ﴿١﴾ .

وينتقل بنا النظم الكريم من نور الوعد إلى نيران الوعيد ، ومن منازل السعداء إلى درك
 الأشقياء ، فيقول تبارك اسمه ﴿٢﴾ وبرزت الجحيم للغاوين ﴿٣﴾ أى : سارت الجحيم ظاهرة لمن يرى غير
 خافية ﴿٤﴾ هذه النار التى كتمت بها تكذبون . أفسحر هذا أم أنتم لاتبصرون . اضلوهما فاصبروا أو
 لاتصبروا سواء عليكم إنما تجزون ما كتمت تعملون ﴿٥﴾ إنها منزل لكل من ضل وغوى عن سواء
 السبيل ، ﴿٦﴾ إن جهنم كانت مرصادا للطاغين مآبا لابشين فيها أحقابا . لا يذقون فيها بردا ولا شرابا إلا
 حميما وغساقا جزاء وفاقا إنهم كانوا لا يرجون حسابا وكذبوا بآياتنا كذابا وكل شيء أحصيناه كتابا .
 فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا ﴿٧﴾ .

القبر باب وكل الناس داخله	يا ليت شعرى بعد الموت ما الدار
الدار دار نعيم إن عملت بما	يرضى الإله وإن خالفت فالنار
هما محلان ما للمرء غيرهما	فانظر بنفسك أى الدار تختار
ما للعباد سوى الفردوس إن عملوا	وإن هفوا هفوة فالرب غفار

إن الغاوين الضالين يقال لهم يوم القيامة : ﴿٨﴾ أين ما كتمت تعبدون من دون الله ﴿٩﴾ ﴿١٠﴾ إنكم
 وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون . لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها وكل فيها
 خالدون . لهم فيها زفير وهم فيها لا يسمعون ﴿١١﴾ هل ينصرونكم ؟ إنهم لا يستطيعون ، أو ينتصرون

(١) سورة الانسان الآيات : ٥ - ٢٢

(٢) سورة الطور الآيات : ١٤ - ١٦

(٣) سورة النبا الآيات : ٢١ - ٣٠

(٤) سورة الشعراء من الآية : ٩٢ ، ٩٣

(٥) سورة الانبياء الآيات : ٩٨ - ١٠٠

لأنفسهم ! إنهم لا يقدرُونَ ﴿ فككبوا فيها وهم الغاؤون ﴾ ^(١) والمراد أنه ألقى بعضهم على بعض من الكفار وقادتهم الذين دعوهم إلى الشرك . ﴿ وجنود إبليس أجمعون ﴾ ^(٢) كذلك ألقى فيها جنود إبليس ﴿ فلم تغادر منهم أحدا ﴾ وفي لفظ الككببة ما يفيد التدهور والقاء بعضهم على بعض مما يوحى بالازدراء والاستهانة ﴿ وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين ﴾ ^(٣)

﴿ قالوا وهم فيها يختصمون تالله إن كنا لفي ضلال مبين إذ نسويكم برب العالمين ﴾ ^(٤) هذا حديث عن أهل النار وهم فيها ونحو قوله تعالى : ﴿ وإذ يتحاجون في النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعاً فهل أنتم مغنون عنا نصيباً من النار . قال الذين استكبروا إنا كل فيها إن الله قد حكم بين العباد ﴾ ^(٥) ونحو قوله تعالى : ﴿ قال أدخلوا في أمم قد خلت من قبلكم من الجن والأنس في النار كلما دخلت أمة لعنت أختها حتى إذا ادركوا فيها جميعاً قالت أوراهاهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون . وقالت أولاهم لأوراهاهم فما كان لكم علينا من فضل فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون . إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط وكذلك نجزي المجرمين . لم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش وكذلك نجزي الظالمين ﴾ ^(٦) ثم أقسموا قائلين تالله إن كنا لفي ضلال مبين إذ نسويكم برب العالمين ﴾ ^(٧) .

لقد أقسموا بالله بأنهم كانوا في ضلال مبين (فإن) هنا مخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن محذوف والتقدير إنه كنا لفي ضلال مبين أي : كان شأننا هكذا في بعد عن الحق واضح ، ثم بينوا وجه ضلالهم فقالوا : ﴿ إذ نسويكم برب العالمين ﴾ ثم اعترفوا قائلين ﴿ وما أضلنا إلا المجرمون ﴾ ^(٨) ولكن بعد ما فات الأوان وأدرجوا في أكفان القدر ودخلت الشمس في منطقة الكسوف . وذهبت السكره ، وحلت الفكرة ، وانقضت الدنيا ، وانفض السوق ، ربح منه من ربح ، وخسر فيه من خسر ، يقول الامام ابن القيم - رحمه الله تعالى - : في قوله تعالى : ﴿ إذ نسويكم برب العالمين ﴾ ان هذه التسوية إنما كانت في الحب والتأليه واتباع ما شرعوا ، لا في الخلق والقدرة والربوبية وهي العدل الذي أخبر به عن الكفار ، كقوله ﴿ الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون ﴾ ^(٩) .

وأصح القولين : أن المعنى ، ثم الذين كفروا بربهم يعدلون ، فيجعلون له عدلاً يحبونه ويقدسونه ويعبدونه ، كما يعبدون الله ، ويعظمون أمره . وقال في طريق الهجرتين : وهذه التسوية لم تكن منهم في الأفعال والصفات ، بحيث اعتقدوا أنها مساوية لله - سبحانه - في أفعاله وصفاته ، وإنما كانت تسوية منهم بين الله وبينها في المحبة والعبودية

(٦) سورة الأعراف الآيات : ٣٨ - ٤١

(٧) سورة الشعراء الآيات : ٩٧ ، ٩٨

(٨) سورة الشعراء الآية : ٩٩

(٩) سورة الأنعام آية : ١

(١) سورة الشعراء الآية : ٩٤

(٢) سورة الشعراء الآية : ٩٥

(٣) سورة الزخرف الآية : ٧٦

(٤) سورة الشعراء الآيات : ٩٦ - ٩٨

(٥) سورة غافر الآيات : ٤٧ - ٤٨

والتعظيم ، مع إقرارهم بالفرق بين الله وبينها فتصحيح هذه : هو تصحيح شهادة أن لا إله إلا الله .
فحقيق لمن نصح نفسه ، وأحب سعادتها ونجاتها : أن يتيقظ لهذه المسألة علما وعملا ، وتكون
أهم الأشياء عنده ، وأجل علومه وأعماله . فإن الشأن كله فيها ، والمدار كله عليها ، والسؤال يوم
القيامة عنها .

قال تعالى : ﴿ فو ربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون ﴾^(١) قال غير واحد من السلف : هو
عن قول « لا إله إلا الله » وهذا حق ، فإن السؤال كله عنها وعن أحكامها وحقوقها ، وواجباتها
ولوازمها . فلا يسأل أحد قط إلا عنها وعن واجباتها ، ولوازمها وحقوقها . قال أبو العالية : كلمتان
يسأل عنها الأولون والآخرين (ماذا كنتم تعبدون ؟ وماذا أجبتم المرسلين ؟) .

فالسؤال عما ذا كانوا يعبدون : هو السؤال عنها نفسها . والسؤال عما ذا أجابوا المرسلين : سؤال
عن الوسيلة والطرق المؤدية إليها هل سلكوها وأجابوا الرسل لما دعوهم إليها ؟ فعاد الأمر كله إليها .
وأمر هذا شأنه حقيق بأن تبنى عليه الخناصر ، ويعض عليه بالنواجذ ، ويقبض فيه على الجمر .
ولا يؤخذ بأطراف الأنامل ، ولا يطلب على فضلة بل يجعل هو المطلب الأعظم ، وما سواه إنما يطلب
على الفضلة . أ هـ .

أما قول أهل النار ﴿ فمالنا من شافعين ولا صديق حميم ﴾^(٢) فهو كقوله تعالى : ﴿ ما سلككم في
سقر . قالوا لم نك من المصلين ولم نك نطعم المسكين وكنا نخوض مع الخائضين وكنا نكذب بيوم
الدين حتى آتانا اليقين فما تنفعهم شفاعة الشافعين ﴾^(٣) قال بعض المفسرين : أى من الملائكة وكما
يقولون : ﴿ فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نرد فنعمل غير الذى كنا نعمل قد خسروا أنفسهم وضل
عنهم ما كانوا يفترون ﴾^(٤) قال تعالى : ﴿ ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ﴾^(٥) وقال سبحانه :
﴿ واتقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة ولا هم ينصرون ﴾^(٦)
وقال تعالى : ﴿ ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون ﴾^(٧) وقال : ﴿ من ذا الذى
يشفع عنده إلا باذنه ﴾ ﴿ ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ﴾^(٨) فلا شفاعة لهؤلاء الذين كفروا وماتوا وهم
كفار . ﴿ إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً ولو افتدى به
أولئك لهم عذاب اليم . وما لهم من ناصرين ﴾^(٩) وليس لهم صديق حميم ، أو قريب ، أو ولى أو
نصير . قال سبحانه : ﴿ يوم تكون السماء كالمهل وتكون الجبال كالعهن ولا يسأل حميم حميما يبصرونهم
يود المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ بنيه . وصاحبه وأخيه . وفصيلته التى تؤيه ومن فى الأرض
جميعا ثم ينجيهم . كلا ﴾^(١٠) .

لقد تمنوا العودة إلى الدنيا فقالوا : ﴿ لو أن لنا كرة فكنون من المؤمنين ﴾^(١١) ونحوه قوله تعالى :

(٧) سورة البقرة من الآية : ٤٨ ، ٢٥٥
(٨) سورة الأنبياء من الآية : ٢٨
(٩) سورة آل عمران آية : ٩١
(١٠) سورة المعارج الآيات : ٨ - ١٥
(١١) سورة الشعراء الآية : ١٠٢

(١) سورة الحجر الآية : ٩٢
(٢) سورة الشعراء الآية : ١٠٠ ، ١٠١
(٣) سورة المدثر الآيات : ٤٢ - ٤٨
(٤) سورة الأعراف الآية : ٥٣
(٥) سورة سبأ من الآية : ٢٣
(٦) سورة البقرة الآية : ١٢٣

﴿ والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها . كذلك نجزي كل كفور . وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذي كنا نعمل أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير . إن الله عالم غيب السموات والأرض ، إنه عليم بذات الصدور ﴾ (١) .

لقد سبق في علمه القديم أنهم لو ردوا لعادوا لما نهوا عنه ، قال تعالى : ﴿ ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين بل بداهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون . وقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين ﴾ (٢) قوله تعالى : ﴿ إن في ذلك لآية ﴾ (٣) أي فيما سبق من قصة الخليل .

وذكر الوعد والوعيد لعبرة وعظة ولكن هل تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون ! قال تعالى : ﴿ وما كان أكثرهم مؤمنين ﴾ (٤) ﴿ وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر ، ولقد جاءهم من الأنبياء ما فيه مزدجر حكمة بالغة فما تغنى النذر ﴾ (٥) قوله تعالى : ﴿ وإن ربك هو العزيز الرحيم ﴾ (٦) العزيز الذي لا يغلب ولا يقهر إن يشأ يستأصلهم بعذاب من عنده ﴿ ولا يخاف عقباها ﴾ (٧) لكنه وسعت رحمته كل شيء ﴿ وربك الغفور ذو الرحمة لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موثلا ﴾ (٨) وقال تعالى : ﴿ ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾ (٩) وقال سبحانه : ﴿ أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم وكانوا أشد منهم قوة وما كان الله ليعجزه من شيء في السموات ولا في الأرض إنه كان عليا قديرا . ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيرا ﴾ (١٠) نوح وقومه

قال تعالى : كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿١١٠﴾ * قَالُوا أَنْتُمْ لَكُمْ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عَلِمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوَ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَا أَنَا

(١) سورة فاطر الآيات : ٣٦ - ٣٨

(٢) سورة الأنعام الآيات : ٢٧ - ٢٩

(٣) سورة الشعراء من الآية : ١٢١

(٤) سورة القمر الآيات : ٢ - ٥

(٥) سورة الشعراء الآية : ١٢٢

(٦) سورة الشمس الآية : ١٥

(٧) سورة الكهف الآية : ٥٨

(٨) سورة النحل الآية : ٦١

(٩) سورة فاطر الآيتان : ٤٤ ، ٤٥

(١٠) سورة الشعراء الآيات : ١٠٥ - ١٢٢

بَطَّارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنَّ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿١١٥﴾ قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ
الْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَأَفْتَحَ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتَحًا وَنَجَّيْنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ
الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنْجَيْتَهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِكِ الْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِي
ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾

تفسير المفردات

القوم : اسم لا واحد له من لفظه كرهط ونفر يذكر ويؤنث ، أخوهم : أى : أخوة نسب ، كما
يقال : يا أخا العرب ، ويا أخا تيم ، يريدون يا من هو واحد منهم . الأردلون : واحداهم أردل ،
والرذالة : الخسة والدناءة ، وقد استرذلوهم ، لاتضاع نسبهم وقلة حظوظهم من الدنيا ، من
المرجومين : أى من المقتولين رميا بالحجارة ، فافتح : أى احكم من الفتاحة بمعنى الحكومة ، والفلك :
يستعمل واحدا وجمعا ، المشحون : أى المملوء .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن قص على رسوله ﷺ - قصص أبيه ابراهيم وما لقيه من تكذيب قومه له مع ما أرشدهم
إليه من أدلة التوحيد وما حجهم به من الآيات - أردف بقصص رسول من أولى العزم وهو نوح - عليه
السلام - ، وفيه ملاقاة من قومه من شديد التكذيب لدعوته ، وعكوفهم على عبادة الأصنام والأوثان
وأنه مع طول الدعوة لهم لم يزددهم ذلك إلا عتوا واستكبارا ، وقد كان من عاقبة أمرهم ما كان لغيرهم
من كذبوا رسل ربهم بعد أن أملى لهم بطول الأمد : ﴿ وأملى لهم إن كيدى متين ﴾ ^(١) فأغرقهم الطوفان
ولم ينج منهم إلا من حملته السفينة .

التفسير

هذه قصة شيخ الأنبياء نوح الذى بعث إلى قوم وصفهم نوح لربه قائلا : ﴿ رب إني دعوت
قومى ليلا ونهارا . فلم يزددهم دعائى إلا فرارا . وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في
أذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا . ثم إني دعوتهم جهارا . ثم إني أعلنت لهم
وأسررت لهم إسرارا ﴾ ^(٢) كم ظل على هذه الحال إقرأ قوله تعالى : ﴿ ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه
فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما ﴾ ^(٣) ماذا كان مصيرهم ﴿ فأخذهم الطوفان وهم ظالمون ﴾ وماذا
كان مصيره والذين آمنوا معه ﴿ فأنجيناه وأصحاب السفينة ﴾ ^(٤) وماذا كان الهدف ﴿ وجعلناها آية
للعالمين ﴾ .

(١) سورة الأعراف الآية : ١٨٣

(٢) سورة نوح الآيات : ٥ - ٩

(٣) سورة العنكبوت : الآية : ١٤

(٤) سورة العنكبوت الآية : ١٥

ماذا قال لهم في دعوته ﴿ألا تتقون إني لكم رسول أمين . فاتقوا الله وأطيعون﴾^(١) أمر بالتقوى والطاعة فهل في هذا فظاظة أو غلظة أو خسران أو ضرر ، لقد بين لهم أنه رسول أمين مفوض إليه بشرع من الله ، ومأمور بتبليغه ، وهو أمين على تبليغ هذا الوحي ، أمين عليهم : إنه أخوهم والرائد لا يكذب أهله ، اقرأ معي مرة ثانية هذه الآيات التي تسيل رقة وعطفا ورحمة ورفقا ﴿إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون﴾ ألا تحذرون عقاب الله ، ألا تخافون عذابه ألا تخشون يوما ترجعون فيه إلى الله ، ألا تظنون أنكم مبعثون ليوم عظيم ، يوم يقوم الناس لرب العالمين ، فاتقوا الله الذي خلقكم والذين من قبلكم ، وأطيعوني فيما أمرتكم به ، فأنا لأسألكم على التبليغ أجرا فإن الرسل أصحاب رسالات بعثوا هادين لاجابين ﴿وما أسألكم عليه من أجر﴾^(٢) والنكرة هنا في سياق النفي تفيد العموم أى ما أسألكم عليه أى أجر ﴿إن أجرى إلا على رب العالمين﴾^(٣) فإننا لانلتمس الأجر من أحد غيره ﴿قل ما سألتكم من أجر فهو لكم إن أجرى إلا على الله﴾ ثم كرر الأمر بالتقوى والطاعة فقال ﴿فاتقوا الله واطيعون﴾^(٤) فأنت ترى هنا أن الأمر بالتقوى يملأ الجوعبيرا وأريجا ويتضوع مسكا وطيبا ، لقد قال لهم ﴿إني لكم نذير مبين ألا تعبدوا إلا الله﴾ فالعز كل العز في وحدانيته ، وطاعته وإفراده بالعبادة ، والذل كل الذل في معصيته وعبادة غيره .

إذا المرء لم يلبس ثيابا من التقى
وخير لباس المرء طاعة ربه
وجميل قول هذا الحكيم :
إلا إنما التقوى هو العز والكرم
وحبك للدنيا هو الذل والندم
تقلب عريانا ولو كان كاسيا
ولا خير فيمن كان لله عاصيا

ثم بما أمرهم اسمع معنى إلى هذا القلب الكبير الذي يرسل أشعته الكاشفة تبدد غياهب الظلمات في قلوبهم ﴿فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا . يرسل السماء عليكم مدرارا ، ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا﴾^(٥) ثم يحرك فيهم هذه النفوس التي نامت على هدهة الشهوات بين قسوة العاطفة وغفوة الضمير ﴿ما لكم لا ترجون لله وقارا . وقد خلقكم أطوارا﴾^(٦) فيما ردوا عليه ، ردوا بلسان الكبر وسوء الأدب ﴿أنؤمن لك واتبعك الأرذلون﴾^(٧) لقد احتقروا أتباع الأنبياء واستهانوا بهم لفقرهم وقلة ما لهم ، وهكذا كان دأب الملأ وسيظل في كل زمان ومكان ، وقد قال الملأ من قريش لرسول الله ﷺ - اطرد هؤلاء الصعاليك من حولك ونحن نؤمن

(١) سورة الشعراء من الآية : ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٨

(٢) سورة الشعراء الآية : ١٠٩

(٣) سورة الشعراء الآية : ١١٠

(٤) سورة نوح الآيات : ١٠ - ١٤

(٥) سورة الشعراء الآية : ١١١

(٦) سورة الأنعام الآية : ٥٢

(٧) سورة الأنعام من الآية : ٥٤

بك ، وكانوا يقصدون بذلك أمثال عمار وبلال وصهيب وخباب وابن مسعود . فقال له ربه : ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين ﴾ ^(١) بل لقد أوصاه بهم خيرا فقال ﴿ وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة ﴾ ^(٢) بل وأمره أن يصبر نفسه معهم ، ونهاه أن يسمع لهؤلاء المستكبرين ، فقال : ﴿ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا ﴾ ^(٣) .

فماذا قال نوح لهم ؟ ﴿ وقال وما علمى بما كانوا يعملون ﴾ ^(٤) فكل إنسان مسئول عما قدمت يده أمام الله ، والمسئولية في الاسلام فردية ﴿ كل امرئ بما كسب رهين ﴾ ﴿ كل نفس بما كسبت رهينة ﴾ ^(٥) ﴿ من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فإنما يضل عليها ﴾ ^(٦) ﴿ ألا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ ^(٧) ﴿ فقل لي عملى ولكم عملكم ﴾ ^(٨) ﴿ إن حسابهم إلا على ربى لو تشعرون ﴾ ^(٩) فهو الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، وهو القائم على كل نفس بما كسبت ، وجل - جلال الله - إذ يقول ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى ﴾ ^(١٠) ، وأذ يقول ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾ .

ثم يقول نوح عليه السلام ﴿ وما أنا بطارد المؤمنين ﴾ ^(١١) وكيف يطردهم وقد بعث الأنبياء لتجميع القلوب ، وجاءوا بشرع هو للشعوب البدائية كالأب الرحيم ، وللشعوب المتحضرة كالأستاذ العظيم . . إن وظيفة الأنبياء دعوة إلى الله ، وهداية العباد ، وتبشير المؤمنين ، وإنذار المعاندين وسياسة الدنيا بالدين ، لذا قال نوح : ﴿ إن انا إلا نذير مبين ﴾ وقال ﴿ قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى وأتاني رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون . ويا قوم لا أسألكم عليه مالا إن أجرى إلا على الله وما أنا بطارد الذين آمنوا إنهم ملاقوا ربهم ولكنى أراكم قوما تجهلون . ويا قوم من ينصرنى من الله إن طردتهم أفلا تذكرون . ولا أقول لكم عندى خزائن الله ، ولا أعلم الغيب ولا أقول إني ملك ولا أقول للذين تزدري أعينكم لن يؤتيهم الله خيرا ، الله أعلم بما فى أنفسهم إني إذا لمن الظالمين ﴾ ^(١٢) .

(٧) سورة الشعراء ، الآية : ١١٣

(٨) سورة فاطر من الآية : ١٨

(٩) سورة الأنبياء الآية : ٤٧

(١٠) سورة الشعراء الآية : ١١٤

(١١) سورة الشعراء الآية : ١١٥

(١٢) سورة هود الآيات : ٢٨ - ٣١

(١) سورة الكهف الآية : ٢٨

(٢) سورة الشعراء الآية : ١١٢

(٣) سورة المدثر الآية : ٣٨

(٤) سورة الاسراء الآية : ١٥

(٥) سورة النجم الآية : ٣٨

(٦) سورة يونس الآية : ٤١

وهكذا تسير القافلة والذئاب تعوى ، فينتقل بهم الحديث من الحجة والبرهان الذي يتكلم الأنبياء بهما إلى الوعيد والتهديد من قبل أهل الباطل ، ﴿ قالوا لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين ﴾ ^(١) : إن لم تنته عما تقوله من الدعوة إلى عبادة إله واحد لنقتلنك رجما ﴿ قال نوح رب إنهم عصوني واتبعوا من لم يزد ماله وولده إلا خسارا ، ومكروا مكرا كبارا ، وقالوا لا تذرنا آهتكم ولا تذرنا ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا ، وقد أضلوا كثيرا ولا تزد الظالمين إلا ضلالا ﴾ ^(٢) .

فبما قابل نوح هذا التهديد ، لقد توجه إلى ربه ﴿ قال رب إن قومى كذبون ﴾ ^(٣) وكفى بهذه التهمة ثقلا ، وألما ، ولوعة ، وجوى ، فى نفوس الأنبياء الذين اتصفوا بالصدق والأمانة ، والتبليغ والفظانة ، والعصمة ، ثم يسأل نوح ربه أن يحكم فهو خير الحاكمين . ﴿ فافتح بينى وبينهم فتحا ﴾ ^(٤) يا سريع الحساب ، يا من إذا حكمت عدلت ، فلا معقب لحكمك ، ولاراد لقضائك ، ﴿ ونجنى ومن معى من المؤمنين ﴾ ^(٥) وهنا يقول ربك : ﴿ فدعا ربه أنى مغلوب فانتصر ، ففتحننا أبواب السماء بماء منهمر وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر وحملناه على ذات ألواح ودسر ، تجرى بأعيننا جزاء لمن كان كفر ﴾ ^(٦) ﴿ فأنجيناه ومن معه فى الفلك المشحون ﴾ بأهل الايمان ﴿ ثم أغرقنا بعد الباقين ﴾ ^(٧) وهم أهل الكفر والعصيان ، وهكذا حكم الله . وأرعى الستار على تلك المأساة إن فى ذلك الذى حدث لآية وعبرة . وما كان أكثرهم مؤمنين ، لقد ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ﴿ وإن ربك هو العزيز الرحيم ﴾ ^(٨) الذى لا يغلب ولا يقهر ومع عزته فهو الرحيم بعباده ، من أقبل ناداه من قريب فأهل ذكره أهل عبادته ، وأهل طاعته أهل محبته ، وأهل شكره أهل زيادته ، وأهل معصيته لا يقنطهم من رحمته .

هود عليه السلام وقومه

قال تعالى : كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّ لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا ﴿١٢٦﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطِشْتُمْ بَطِشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِى أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَمِ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ

(٥) سورة القمر الآيات : ١٠ - ١٤
(٦) سورة الشعراء الآيتان : ١١٩ ، ١٢٠
(٧) سورة الشعراء الآيتان : ١٢١ ، ١٢٢
(٨) سورة الشعراء الآيات : ١٢٣ - ١٤٠

(١) سورة الشعراء الآية : ١١٦
(٢) سورة نوح الآيات : ٢١ - ٢٤
(٣) سورة الشعراء الآية : ١١٧
(٤) سورة الشعراء الآية : ١١٨

﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾

تفسير المفردات

عاد : اسم أبى القبيلة الأكبر ، ويعبر عن القبيلة إذا كانت عظيمة باسم الأب أو يا بنى فلان أو آل فلان ، والريع (بالفتح والكسر) المكان المرتفع ، ويقال : كم ريع أرضك أى : ارتفاعها ، آية : أى قصرا مشيدا عاليا ، تعبثون : أى تفعلون العبث ، ومالا فائدة فيه ، مصانع : أى قصورا مشيدة وحصونا منيعة ، ولعل هنا معناها التشبيه ، أى : كأنكم تخذلون والبطش : الأخذ بالعنف ، والجبار : المتسلط العاتى بلا رافة ولاشفقة أمدكم : أى سخر لكم ، والوعظ : كلام يلين القلب بذكر الوعد والوعيد . خلق الأولين : أى عاداتهم التى كانوا بها يدينون ، ونحن بهم مقتدون نموت ونحيا بلا حساب ولابعث .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر قصص نوح وقومه ، أردف هذا قصص هود - عليه السلام - مع قومه عاد ، وكانوا بعد قوم نوح كما قال فى الأعراف ﴿ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم فى الخلق بسطة ﴾ يسكنون الأحقاف وهى جبال الرمل قريبة من حضر موت متاخمة ببلاد اليمن ، وكانت لهم أرزاق دارة وأموال ، وجنات وأنهار وزروع وثمار ، وكانوا يعبدون الأصنام ، فبعث الله فيهم نبيا منهم يشرهم وينذرهم ويدعوهم إلى عبادة الله وحده ، ويحذرهم نقمته وعذابه ، فكذبوه فأهلكهم كما أهلك المكذبين لرسله .

التفسير

﴿ وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جبار عنيد وأتبعوا فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة ألا إن عادا كفروا ربهم ألا بعدا لعاد قوم هود ﴾ ^(١) .
لكى تعلم مدى ما كان عليه القوم من جبروت فعليك أن تقرأ قوله - عز وجل - : ﴿ فأما عاد فاستكبروا فى الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة أو لم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون ﴾ ^(٢) وحسبك أن تقف أمام ما قالوه ﴿ من أشد منا قوة ؟ ﴾ استفهام انكارى يفيد النفى أى لا أحد فى هذا الكون أشد منا قوة ، وجاء الجواب مشعرا بجبروت هؤلاء ﴿ أو لم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة ﴾ ^(٣) لذا كان العقاب ملائما للجرم ﴿ فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا .

(١) سورة هود الآيات : ٥٩ - ٦٠

(٢) سورة فصلت الآية : ١٥

(٣) سورة فصلت من الآية : ١٥

في أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون ﴿١﴾ .
ويوضح هذا الجزء ما جاء في قوله تعالى : ﴿ وأما عاد فأهلكوا بريح صرر عاتية سخرها عليهم
سبع ليال وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية . فهل ترى لهم من
باقية ؟ ﴾ (٢) .

وكانت شدة العذاب ظاهرة في قوله جل شأنه : ﴿ كذبت عاد فكيف كان عذابي ونذر إنا أرسلنا
عليهم ريحا صرصرا في يوم نحس مستمر . تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر . فكيف كان عذابي
ونذر ﴾ (٣) .

قوله تعالى ﴿ كذبت عاد المرسلين . إذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون . إني لكم رسول أمين .
فاتقوا الله وأطيعون . وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين ﴾ (٤) جاءت هذه المقالة
على لسان نوح وهود وصالح ولوط وشعيب للتنبيه إلى أن بعثة الأنبياء أسها الدعاء إلى معرفة الله وطاعته
فيما يقرب المدعو إلى الثواب ، ويبعده من العقاب ، وأن الأنبياء مجتمعون على ذلك وإن اختلفوا في
تفصيل الأحكام تبعا لاختلاف الأزمنة والعصور ، وأن الأنبياء منزهون عن المطامع الدنيوية لا يأبهون
بها ، ولا يجعلونها قبلة أنظارهم ، ومحط رحالهم .

ولما فرغ من دعائهم إلى الإيمان أتبعه الإنكار بعض ما هم عليه فقال : ﴿ أتبنون بكل ريع آية
تعشون ؟ ﴾ أي أتبنون في كل مرتفع عال قصرا مشيدا للتفاخر والدلالة على الغنى ﴿ وتتخذون مصانع
لعلكم تخلدون ﴾ أي : وتتخذون الحصون والقلاع كأنكم مخلصون في الدنيا .

روى ابن أبي حاتم أن أبا الدرداء - رضي الله عنه - لما رأى ما أحدث المسلمون في غوطة دمشق
من النبيان ونصب الشجر ، قام في مسجدهم فنادى يا أهل دمشق ، فاجتمعوا إليه ، فحمد الله وأثنى
عليه ، ثم قال : ألا تستحيون ، ألا تستحيون ، تجمعون مالا تأكلون ، وتبنون مالا تسكنون ،
وتأملون مالا تدركون ، إنه قد كانت قبلكم قرون ، يجمعون فيوعون ، ويبنون فيوثقون ، ويأملون
فيطيلون ، فأصبح أملهم غرورا ، وأصبح جمعهم بورا ، وأصبحت مساكنهم قبورا ، ألا إن عادا
ملك ما بين عدن وعمان خيلا وركابا ، فمن يشتري مني ميراث عاد بدرهمين ؟ (٥) .

النفس تبكى على الدنيا وقد علمت	إن السلامة فيها ترك ما فيها
إلا الذي كان قبل الموت يبينها	لا دار للمرء بعد الموت يسكنها
وإن بناها بشر خاب بانيها	فإن بناها بخير طاب مسكنه
حتى سقاها بكأس الموت ساقياها	إن الملوك التي كان مسلطنة

(١) سورة فصلت الآية : ١٦

(٢) سورة الحاقة الآيات : ٦ ، ٨

(٣) سورة القمر الآيات : ١٨ - ٢١

(٤) سورة الشعراء الآيات : ١٢٣ - ١٢٧

(٥) انظر تفسير القرآن الكريم للحافظ بن كثير ج ٦ ص ١٦٢ ، ١٦٣

ودورنا لخراب الدهر نبيها
أمت خرابا وأفنى الموت أهليها
من المنية آمال تقويها
والمرء يبسطها والدهر يطويها
الدين أولها والعقل ثانيها
والجود خامسها والفضل سادسها
والبر سابعها والشكر ثامنها
ولست أرشد إلا حين أعصيتها
فالموت لاشك يفنينا ويفنيها
والجار أحسن والرحمن ناشيها
والزعفران حشيش نابت فيها
أموالنا لذوى الميراث نجمعها
كم في المدائن في الأفاق قد بنيت
لكل نفس وإن كانت على وجل
النفس تنشرها والموت يقبضها
والعلم ثالثها والحلم رابعها
إن المكارم أخلاق مطهرة
والصبر تاسعها واللين باقيها
والنفس تعلم أني لأصادقها
لا تركن إلى الدنيا وما فيها
واعمل لدار غد رضوان خازنها
قصورها ذهب والمسك طينها

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا بَطِشْتُمْ بَطِشْتُمْ جَبَارِينَ ﴾ ^(١) وهذا إخبار عن أنهم قوم غلاظ الأكباد قساة القلوب ، جفاة الطباع ، لو وزعت قسوة قلب أحدهم على أهل الأرض ما بقى للرحمة سبيل إلى قلب واحد منهم ، ثم يأمرهم بتقوى الله والطاعة له ، فيقول : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴾ ^(٢) أى : اتقوا الله فلا تخالفوا أمره ، وأطيعوني فأنا لكم ناصح أمين ، ثم يعيد الأمر مرة أخرى فيذكرهم بنعم الله عليهم ، فيقول : ﴿ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴾ ^(٣) ثم يفصل ما أجمل ويبسط النعم بسطا فيقول ﴿ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ وَجَنَّاتٍ وَعَيُْونَ ﴾ ^(٤) أبعد هذه النعم تعصون ، وبعد هذا الكرم تخالفون ، وعلى رب العزة تتمردون ، أنعام تضيق بها شعاب الجبال من إبل وبقر وغنم ، وأبناء أولو قوة ، وأولو بأس شديد ، وجنات من أعناب ونخيل وفواكه كثيرة منها تأكلون وعيون تجري بالماء عذبا فاراتا سلسيلا ، فماذا قالوا لهذا الناصح الأمين والنبي الكريم : ؟ ﴿ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أُوْعِظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ . إِنْ هَذَا إِلَّا خَلْقُ الْأَوَّلِينَ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴾ ^(٥) .

قالوا هذا بعد ما حذرهم من عذاب الله وقال لهم : ﴿ إِنْ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ ^(٦) فتأمل الفرق الشاسع بين الموقفين : يخاف عليهم عذاب يوم عظيم وهم ينكرون هذا اليوم فأى الفريقين أحق بالأمن الذى يخاف عذاب الله ، أم الذى يأمن مكر الله إنه لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أُوْعِظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ﴾ أى : هون عليك وأرح نفسك ، فكل هذا تعب ضائع ، وجهاد فى غير عدو ، وضرب فى حديد بارد ، فإننا لن نرجع عما نحن عليه ، ثم ذكروا السبب فى أن الوعظ وعدمه سواء بقولهم : ﴿ إِنْ هَذَا إِلَّا خَلْقُ الْأَوَّلِينَ ، وَمَا نَحْنُ

(٤) سورة الشعراء الآيتان : ١٣٣ ، ١٣٤

(٥) سورة الشعراء الآيات : ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٣٨

(٦) سورة الشعراء الآية : ١٣٥

(١) سورة الشعراء الآية : ١٣٠

(٢) سورة الشعراء الآية : ١٣١

(٣) سورة الشعراء : ١٣٢

بمعذبين ﴿١﴾ أى : ما هذا الدين الذى نحن عليه إلا دين الأولين من الآباء والأجداد ، فنحن سالكون سبيلهم ، نعيش كما عاشوا وموت كما ماتوا ، ولابعث ولامعاد ولاثواب ولاعقاب ، ولاجنة ولا نار .
﴿٢﴾ فكذبوه فأهلكناهم ﴿٣﴾ أى : فاستمروا فى تكذيبهم ومخالفة أمر رسوله ، فأهلكناهم بريح صرصر عاتية : (ريح عظيمة ذات برد شديد) كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ ألم تر كيف فعل ربك بعاد ﴾ (١) وقوله : ﴿ وأنه أهلك عادا الأولى ﴾ (٢) ﴿ إن فى ذلك لآية ﴾ أى : إن فى إهلاكنا عادا بتكذيبها رسولها - لعبرة ﴿ وما كان أكثرهم مؤمنين ﴾ أى : وما كان أكثر من أهلكنا بالذين يؤمنون فى سابق علمنا . ﴿ وإن ربك هو العزيز الرحيم ﴾ (٣) أى : وإن ربك هو الشديد فى انتقامه من أعدائه ، الرحيم بأوليائه المؤمنين .

صالح عليه السلام وقومه

قال تعالى : كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا ﴿١٤٤﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَلُنَا ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَذُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنَحُّنُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يَفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يَصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِهَا شَرِبٌ وَلَكُمْ شَرِبٌ يَوْمَ مَعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَاصْبَحُوا نَدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾

تفسير المفردات

الطلع : أول ما يطلع من الثمر . والهضيم : هو النضيج الرخص اللين اللطيف : والنحت : النجر والبرى ، والمنحت : ما ينحت به ، والعزة : النشاط وشدة الفرح . من المسحرين : أى الذين

(١) سورة الفجر الآية : ٦

(٢) سورة النجم الآية : ٥٠

(٣) سورة الشعراء الآيتان : ١٧٤ ، ١٧٥

(٤) سورة الشعراء الآيات : ١٤١ - ١٥٩

سحروا حتى ذهبت عقولهم ، الشرب : (بالكسر) النصيب والحظ ، فعقروها : أى : رموها بسهم ، ثم قتلوها .

المناسبة واجمال المعنى

بعد أن قص سبحانه على رسوله قصص عاد وهود - قص قصة صالح وقومه وقد كانوا عربا مثلهم يسكنون مدينة الحجر التي بين وادى القرى والشام ومساكنهم معروفة تتردد عليها قريش في رحلة الصيف ، وهم ذاهبون إلى بلاد الشام . دعاهم صالح إلى عبادة الله وحده ، وأن يطيعوه فيما بلغهم من رسالة ربهم فأبوا وكذبوا بعد أن اتى لهم بالآيات المصدقة لرسالته ، فأخذهم العذاب وزلزلت بهم الأرض ، ولم تبق منهم ديارا ولا نافخ نار .

التفسير

هذا إخبار من الله - عز وجل - عن عبده ورسوله صالح - عليه السلام - أنه بعثه إلى قومه ثمود وكانوا عربا يسكنون مدينة الحجر التي بين وادى القرى وبلاد الشام ، ومساكنهم معروفة مشهورة فدعاهم نبيهم صالح إلى الله - عز وجل - أن يعبدوه وحده لا شريك له ، وأن يطيعوه فيما بلغهم من الرسالة ، فأبوا عليه وكذبوا وخالفوه ، وأخبرهم أنه لا يتغى بدعوتهم أجرا منهم ، وإنما يطلب ثواب ذلك من الله - عز وجل - ، ثم ذكرهم آلاء الله عليهم فقال سبحانه :

﴿ أتركون في ما هاهنا آمين في جنات وعيون . وزروع ونخل طلعها هضيم . وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين ، فاتقوا الله وأطيعون ، ولا تطيعوا أمر المسرفين الذى يفسدون فى الأرض ولا يصلحون ﴾ (١) .

يقول لهم : واعظا ومحذرهم نقم الله أن تحل بهم ، ومذكرا بأنعم الله عليهم فيما رزقهم من الأرزاق الدارة ، وجعلهم فى أمن من المحذورات ، وأنبت لهم من الجنات ، وفجر لهم من العيون الجاريات ، وأخرج لهم من الزروع والثمرات ، ولهذا قال لهم : ﴿ ونخل طلعها هضيم ﴾ قال ابن عباس : إذا رطب واسترخى فهو هضيم . وقال مجاهد : هو الذى إذا يبس تهشم وتفتت وتناثر . وقال عكرمة وقتادة : الهضيم الرطب اللين . وقال الضحاك : إذا كثر حمل الثمرة وركب بعضها بعضا فهو هضيم . وقال الحسن البصرى : هو الذى لانوى له .

وقوله تعالى : ﴿ وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين ﴾ قال ابن عباس وغير واحد : يعنى حاذقين . وفى رواية عنه : شرهين أشرين ، وهو اختيار مجاهد ، ولا منافاة بينهما ، فإنهم كانوا يتخذون تلك البيوت المنحوتة ، فى الجبال أشرا وبطرا وعبثا من غير حاجة إلى سكنائها ، وكانوا حاذقين متقنين لنحتها ونقشها . ﴿ فاتقوا الله وأطيعون ﴾ أى : أقبلوا على ما يعود نفعه عليكم فى الدنيا والآخرة ، من عبادة ربكم الذى خلقكم ورزقكم ، لتعبدوه وتوحدوه وتسبحوه بكرة وأصيلا ، ﴿ ولا تطيعوا أمر المسرفين الذين يفسدون فى الأرض ولا يصلحون ﴾ يعنى : رؤساءهم وكبراءهم الدعاة لهم إلى الشرك

والكفر ومخالفة الحق .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمَسْحُورِينَ . مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ . قَالَ هَذِهِ نَاقَةُ لَهَا شَرْبٌ وَلَكُمْ شَرْبٌ يَوْمَ مَعْلُومٍ . وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ . فَعَقَرُوهَا فَاصْبَحُوا نَادِمِينَ . فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ . إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ . وَإِنْ رَبُّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ (١) .

يقول تعالى : مخبرا عن ثمود في جوابهم لنبيهم صالح - عليه السلام - حين دعاهم إلى عبادة ربهم - عز وجل - إنهم ﴿ قَالُوا : إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمَسْحُورِينَ ﴾ قال مجاهد وقتادة يعنون من المسحورين ، وروى أبو صالح عن ابن عباس ﴿ مِنَ الْمَسْحُورِينَ ﴾ يعنى : من المخلوقين واستشهد بعضهم على هذا بقول الشاعر :

فإن تسألينا فيم نحن فإننا عصفير من هذا الأنام المسحر

يعنى : الذين لهم سحر ، والسحر هو الرثة ، والأظهر في هذا قول لمجاهد وقتادة أنهم يقولون : إنما أنت في قولك هذا مسحور لا عقل لك ، ثم قالوا : ﴿ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا ﴾ يعنى : فكيف أوحى اليك دوننا ، كما قالوا في الآية الأخرى : ﴿ أَنْزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرَ مِنْ بَيْنِنَا ؟ بَلْ هُوَ كَذَابٌ أَشْرٌ ، سَيَعْلَمُونَ غَدًا مِنَ الْكَذَابِ الْأَشْرِ ﴾ ثم إنهم اقترحوا عليه آية يأتيهم بها ليعلموا صدقه بما جاءهم به من ربهم ، وقد اجتمع ملؤهم وطلبوا منه أن يخرج لهم الآن من هذه الصخرة ناقة عشراء ، وأشاروا إلى صخرة عندهم ، من صفتها كذا وكذا ، فعند ذلك أخذ عليهم نبي الله صالح العهد والميثاق لئن أجابهم إلى ما سألوا ليؤمنن به وليتبعنه ، فأعطوه ذلك ، فقام نبي الله صالح - عليه السلام - فصلى ثم دعا الله - عز وجل - أن يجيبهم إلى سؤالهم ، فانفطرت تلك الصخرة التي أشاروا إليها عن ناقة عشراء على الصفة التي وصفوها ، فأمن بعضهم وكفر أكثرهم ، ﴿ قَالَ : هَذِهِ نَاقَةُ لَهَا شَرْبٌ وَلَكُمْ شَرْبٌ يَوْمَ مَعْلُومٍ ﴾ يعنى : ترد ماءكم يوما ويوما تردونه أنتم ، ﴿ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ فحذرهم نقمة الله إن أصابوها بسوء ، فمكثت الناقة بين أظهرهم حيناً من الدهر ترد الماء ، وتأكل الورق والمرعى ، وينتفعون بلبنها يحلبون منها ما يكفيهم : شرباً ورياً ، فلما طال عليهم الأمد وحضر أشقاهم تمالؤا على قتلها وعقرها . ﴿ فَعَقَرُوهَا فَاصْبَحُوا نَادِمِينَ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ ﴾ وهو أن أرضهم زلزلت زلزالا شديداً ، وجاءتهم صيحة عظيمة اقتلعت القلوب من محالها ، وأتاهم من الأمر ما لم يكونوا يحتسبون ، وأصبحوا في ديارهم جائمين . ﴿ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ، وَإِنْ رَبُّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ .

* لوط وقومه *

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ

﴿١٦٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ۖ ﴿١٦٣﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا لَنْ لَمْ تَنْتَه يَلُوطُ لَنَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَرْنَا الْأَخْرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾

تفسير المفردات :

آخرهم : أى : فى البلد والسكنى ، لا فى الدين ولا فى النسب ، لأنه ابن أخرى ابراهيم وهما من أرض بابل ، والذكران : واحداهم ذكر ضد الأنثى من كل حيوان ، عادون : أى متعدون الحدود التى رسمها العقل والشرع ، من المخرجين : أى : ممن تخرجهم من أرضنا وننفهم من قريتنا ، من القالين : أى المبغضين لفعالهم ، والقلى : البغض الشديد ، كأنه يقلى الفؤاد ، يقال قليته أقلية قلى وقلاء ، الغابرين : أى الباقيين فهى لم تخرج مع لوط ومن مضى معه .

المناسبة وإجمال المعنى

قص الله علينا فى هذه الآيات قصص لوط بن هاران بن آزر بن أخى إبراهيم - عليه الصلاة والسلام بعثه الله فى حياته إلى أمة عظيمة تسكن سدوم وما حولها من المدائن من بلاد الغور بالقرب من بيت المقدس ، فدعاهم إلى عبادة الله وحده وطاعة رسوله ، ونهاهم عن معصيته وإرتكاب ما كانوا قد ابتدعوه من الفواحش مما لم يسبقهم إليه أحد من العالمين ، فكذبوه فأهلكهم الله ، فأرسل عليهم كبريتا ونارا من السماء فأحترقت قريتهم وأحدث بها زلزالا جعل عاليها سافلها كما جاء فى قوله : ﴿ فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل ﴾ .

﴿ كذبت قوم لوط المرسلين ، إذ قال لهم أخوهم لوط ألا تتقون ؟ إني لكم رسول أمين ، فاتقوا الله وأطيعون . وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين ﴾ ^(١) . تقدم تفسير هذا فى سالف القصص وبعد أن نصحهم بما سلف ذكره وبخسهم على قبيح ما ابتدعوه ، بقوله : ﴿ أتأتون الذكران من العالمين ، وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم ﴾ أى : أنتم دون الناس جميعا تفعلون هذه الفعلة الشنعاء ، تغشون الذكور وتتركون النساء اللاتى جعلهن الله حلا لكم تستمتعون بهن ، ويستمتعن بكم . ﴿ بل أنتم قوم عادون ﴾ أى بل أنتم قوم أحقاء بأن توصفوا

بالعدوان وتجاوز الحدود التي تسيغها العقول وتبيحها الشرائع بارتكابكم هذا الجرم الذي لم يخطر ببال أحد ممن قبلكم .

ولما اتضح لهم وجه الحق ، وانقطعت حجتهم لجأوا إلى التهديد واستعمال القوة : ﴿ قالوا لئن لم تنته يا لوط لتكونن من المخرجين ﴾ أى : لئن لم تنته عما أنت فيه من إنكارك ما تنكره من أمرنا لتنفيذك من قريتنا ، وليكونن شأننا معك شأن من أخرجناهم من قبلك بالعنف والعسف ، واحتباس الأموال : ﴿ كما هو شأن الظلمة ، إذا أجلوا بعض من ييغضونهم ، صادروا أملاكهم ﴾ . حينئذ أجابهم بأن إبعاده لا يقف به عن الإنكار عليهم .

﴿ قال إني لعملكم من القالين ﴾ أى : إني برىء مما تعملون ، فبغض له ، لأحبه ولا أرضاه ، ولا يضيرني تهديدكم ولا وعيدكم ، وإني لراغب في الخلاص من سوء جواركم . وقال ﴿ من القالين ﴾ دون (قال) إيماء إلى أنه من القوم الذين لو سمعوا بما تفعلون لأبغضوه ، كما يقال : فلان من العلماء فإنه أشد مدحا من قولك فلان عالم ، إذ الأولى تدل على أنه في عداد زمرة العلماء المعروفين بمساهمتهم في العلم .

ثم أعرض عنهم وتوجه إلى الله أن ينجيه من أعمال السوء هو وأهله قال : ﴿ رب نجني وأهلي مما يعملون ﴾ أى رب نجني من شؤم أعمالهم ، وأبعدني من عذابك الدنيوى والأخروى .

فأجاب الله دعاءه واغاثه بعد أن استغاثه قال : ﴿ فنجيناه وأهله أجمعين ، إلا عجوزا في الغابرين ﴾ أى فنجيناه وأهله جميعا مما حل بأهل القرية من العذاب ، فأمرناه بالخروج منها قبل أن ينزل بهم ما نزل ، إلا عجوزا قد بقيت ولم تخرج معه وهى إمرأته كما جاء في سورة هود : ﴿ إلا امرأتك إنه مصيها ما أصابهم ﴾ وكانت عجوز سوء لم تتبع لوطا في الدين ولم تخرج معه . والخلاصة - فنجيناه وأهله من العذاب بإخراجهم من بينهم ليلا عند حلول العذاب بهم ، إلا عجوزا قدر الله بقاءها ، لسوء أفعالها ، وقبح طوبيتها ، ولما لها من ضلع في استحسان أفعالهم . ﴿ ثم دمرنا الآخرين ، وأمطرنا عليهم مطرا فساء مطر المنذرين ﴾ أى : ثم أهلكنا المؤخرين عن لوط ، فأمطرنا عليهم حجارة من السماء . قال وهب بن منبه : أنزل الله عليهم الكبريت والنار . وبش المطر هذا وما أشد وطأته وما أقسى وقعه ، فقد أحدث بأرضهم زلزالا جعل عاليها سافلها .

﴿ إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين : وإن ربك هو العزيز الرحيم ﴾ سبق تفسيره تباركت ربنا وتعاليت يا من قلت وقولك الحق إن هذا هو القصص الحق .

كتب الشيخ المراغى : (رحمه الله تعالى) تحت عنوان (إيضاح لهذه القصة بما كتبه الباحثون) ويقصد بها قصة لوط - عليه السلام - مع قومه كتب يقول : كتبت مجلة السياسة الأسبوعية فصلا قالت فيه : روت الكتب المنزلة أن الله أهلك مدينتي سدوم وعمورة ، وثلاث مدن أخرى بجوارهما ، بأن أمطر عليهم نارا وكبريتا من السماء ، فلم ينج من سكانها سوى إبراهيم الخليل . وأهل بيته ، ولوط

وابنتيه ، ولم يكن إبراهيم من أهل تلك المدن ، بل نزع إليهما من الشمال طلبا للكلأ والمرعى بحسب عادة القبائل الرحل في ذلك الزمن .

وكان كثير من المؤرخين يرى أن هذه قصة خرافية وبعضهم يقول : إنها قصة واقعية كما تشهد بذلك آثار البلاد المجاورة للبحر الميت (بحيرة لوط) وقد قام الدكتور (أولبرابط) بمباحث واسعة في وادي نهر الأردن ، وعلى سواحل البحر الميت ، حيث يظن أن سدوم وعموره والثلاث مدن الأخرى كانت فيها ، فاستبان له أن هذه القصة حقيقية بجميع تفاصيلها ، وعلم أن إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - انحدر حوالي القرن التاسع عشر قبل الميلاد من بلاد ما بين النهرين إلى فلسطين ومعه أهل بيته وابن أخيه لوط وأهله ، ومعهما أنعام كثيرة ، فحدث نزاع وشجار بين الرعاة فرأى لوط : حفظا للسلام أن يفترق عن إبراهيم .

واختار منطقة وادي الأردن التي كانت فيها سدوم وعمورة ، وأقام بسدوم ، واختار إبراهيم المرتفعات التي في الشمال ، وضرب خيامه هنالك . وكشف الدكتور آثارا تدل على صدق هذه القصة ، إذ وجد هناك آثار حصن قديم يعلو سطح البحر بنحو خمسمائة قدم ويجواره (المذبح) هو حجارة منصوبة على شكل أعمدة يرجح أن الوثنيين في ذلك الزمن كانوا يقدمون عليها قرابينهم ، ويرجح أن البحر الميت طغا على المدن الخمس التي كانت في منطقة الأردن .

وبعض علماء الجيولوجيا (طبقات الأرض) يؤكدون أن هذا البحر يغمر اليوم بلادا كانت أهلة بالسكان .

وفي التوراة : إن إبراهيم كان ذات يوم جالسا بباب خيمته في حر النهار إذ أقبل إليه ثلاثة ملائكة ، فاستقبلهم بترحاب عظيم وصنع لهم وليمة ، واحتفى بهم ، وفي أثناء الطعام علم أنهم ذاهبون إلى سدوم ، وكان أهل هذه المدينة مشهورين بشروورهم وانغماسهم في شهواتهم البهيمية ، ولا سيما المحرمة منها ، فلما وصلوا إلى سدوم ساروا توا إلى منزل لوط ابن أخى إبراهيم ليبيتوا عنده ، وعلم أهل سدوم بقدمهم فأرادوا أن يرتكبوا بهم موبقا ، ولكن لوطا دافع عنهم وعرض أن يضحي بشرف ابنتيه لينقذهم ، فأبى أهل سدوم إلا أن يرتكبوا بهم الفحشاء ، وقد تمكن الضيوف من الفرار ، وأقنعوا لوطا وأهل بيته بالفرار ، وحين أشرقت الشمس على الأرض دخل لوط (صوعر) فأمطر الرب على سدوم وعمورة كبريتا ونارا من السماء ، وقلب تلك المدن وجميع ساكنها ، ونظرت امرأة لوط إلى وراء فصارت عمود مسلح : (اختنقت بالغازات الكثيرة التي التهبت إما بحدوث زلزلة أو بسقوط صاعقة من الجو) .

وفي التاريخ ما يدل على حدوث انقلابات جيولوجية شبيهة بحادثة (سدوم وعمورية) فقد يثور بركان ويتدفق حممه على البلاد المجاورة ، فيغمرها ويهلك أهلها ، وقد تغور بلاد واسعة فيطمو عليها البحر وتزول هي وما فوقها من نبات وحيوان وإنسان ، وقد تنشق الأرض فتبتلع مدنا بأسرها .

والخلاصة - إن هذه المدن كانت قاعدة لملوك جبارين ، وكانت ذات رياض غناء ، وغياض غنية بوفرة مائها وخيراتها ، وشمل أهلها الفساد ، ورتعوا في شهواتهم البهيمية ولم يبق فيها بر إلا لوط

وأهله ، فانتقم الله منهم ، فأمطر عليهم نارا وكبريتا من السماء ، فألهب البراكين النارية التي فيها ، فعجلت دمارهم ، وخسفت الأرض بهم ، وظهرت البحيرة على ما نراه الآن . فسبحانه الله رب العالمين الذي قال في محكم آياته : ﴿ ذلك الكتاب لا ريب فيه . هدى للمتقين ﴾^(١) . وجل جلال الله إذ يقول : ﴿ إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ﴾^(٢) .

يا أمة الاسلام هذا كتاب ربكم من تركه من جبار قصمه الله ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله ، وما من يوم ينشق فجره إلا وتؤكد الحقائق العلمية صدقه المطلق ، تحقيقا لقوله تعالى : ﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد ﴾^(٣) .

اقبلوا على هذا القرآن ، فأحلوا حلاله ، وحرموا حرامه ، وأقيموا دولة الاسلام في بيوتكم تقم على أرضكم .

في التحذير من عمل قوم لوط

يقول الامام الجليل أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي في كتابه الجامع : (ذم الهوى) . أخبرنا هبة الله بن محمد الشيباني قال : أنبأنا الحسن بن علي التميمي قال : أنبأنا أحمد بن جعفر قال : حدثنا عبد الله بن أحمد قال : حدثني أبي قال : حدثنا محمد بن سلمة ، عن محمد بن إسحق عن عمرو بن أبي عمرو ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ - : (ملعون ملعون من عمل بعمل قوم لوط)^(٤) .

أخبرنا ابن الحصين قال : أنبأنا ابن المذهب قال : أنبأنا أحمد بن جقال : حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل قال : حدثني أبي قال : حدثنا عبد الرحمن بن زهير ، عن عمرو يعني : ابن أبي عمرو ، عن عكرمة ، عن ابن عباس عن النبي ﷺ - قال : (لعن الله من عمل عمل قوم لوط ، ولعن الله من عمل عمل قوم لوط ، ولعن الله من عمل عمل قوم لوط)^(٥) .

أخبرنا محمد بن عبد الباقي البزار قال : أنبأنا محمد بن الحسن بن الغراء قال : أنبأنا علي بن عمر السكري قال : حدثنا حامد بن بلال قال : حدثنا محمد بن عبد الله يعني : البخاري قال : حدثنا يحيى بن النضر قال : حدثنا عمار بن عمر بن الصباح عن مقاتل بن حيان عن أبي الجارود العباسي عن جابر بن عبد الله قال : بلغني حديث في القصاص - وكان صاحب الحديث بمصر - فاشتريت بعيرا وشددت عليه رحلا ، ثم سرت شهرا ، فذكر الحديث إلى أن قال : فلقيت الرجل فقال : سمعت

(١) سورة البقرة الآية : ٢

(٢) سورة الاسراء من الآية : ٩

(٣) سورة فصلت : الآية : ٥٣

(٤) الحديث انظره في نصب الراية للزيلعي : في كتاب الحدود ص ٢٣٨ ج ٣

(٥) انظر الترغيب والترهيب للمنذرى ج ٣ ص ٤٨١ باب لعن الله من ذبح لغير الله وقال : رواه ابن حبان في صحيحه والبيهقي ، وعند النسائي آخره مكررا وروى مسلم نحوه

رسول الله ﷺ - يقول : (ان أخوف ما أخاف على أمتي من بعدى عمل قوم لوط ، ألا فليرتقب أمتي العذاب إذا كان الرجال بالرجال والنساء بالنساء)^(١) .

أخبرنا عبد الله بن علي قال : أنبأنا ابن العلاف قال : حدثنا أبو القاسم بن بشر ان قال : حدثنا الأجرى قال : حدثنا أبو مسلم الكشي قال : حدثنا سليمان الشاذكوني .

وأخبرنا ابن ناصر قال : أنبأنا طراد قال : أنبأنا علي بن محمد بن بشران قال : أنبأنا ابن صفوان

قال : حدثنا أبو بكر القرشي قال : حدثنا عبيد الله بن عمر الجثمي قالا : حدثنا عبد الوارث قال :

حدثنا القاسم بن عبد الواحد عن عبد الله بن محمد بن عقيل أنه سمع جابر بن عبد الله يقول : ان

رسول الله ﷺ - قال : (إنه أخوف ما أخاف على أمتي عمل قوم لوط)^(٢) .

أخبرنا المبارك بن علي قال : أنبأنا عبد الله بن أحمد السمرقندي قال : أنبأنا أحمد بن عبد الواحد

قال : حدثنا محمد بن أحمد السلمى قال : حدثنا محمد بن جعفر السامري قال : حدثنا ابراهيم بن

الجنيد قال : حدثنا يوسف بن أبي أمية الثقفي قال : حدثنا عبد الله بن سعد الكندي قال : حدثنا أبو

خالد الأحمر عن الضحاك بن عثمان عن مخرمة بن سليمان ، عن كريب ، عن ابن عباس قال : قال

رسول الله ﷺ - (لا ينظر الله إلى رجل أتى رجلا أو امرأة في دبرها)^(٣) .

أخبرنا ابن ناصر قال : أنبأنا محمد بن علي بن ميمون قال : أنبأنا علي بن المحسن التنوخي قال :

أنبأنا عبد الله بن ابراهيم الزينبي قال : أنبأنا محمد بن سفيان الحنائي قال : حدثنا محمد بن عيسى بن

حيان قال : حدثنا محمد بن الصباح قال : حدثنا أبو زيد محمد بن حسان قال : حدثنا ابراهيم بن

يحيى عن ابن أبي ذئب ، عن نافع ، عن ابن عمر قال : قال النبي ﷺ - : لم يعمل فحل فحلا حتى

كان قوم لوط فإذا علا الفحل الفحل ارتج أو اهتز عرش الرحمن - عز وجل - فاضطربت الملائكة تعظيما

لفعلها فقالوا : يارب ألا تأمر الأرض أن تعزرها وتأمّر السماء أن تحصبها ؟ فقال : إني حلیم لا يفوتني

شيء)^(٤) .

أخبرنا ابن منازل قال : أنبأنا المبارك بن عبد الجبار قال : أنبأنا أبو محمد الخلال قال : حدثنا

العباس بن أحمد الهاشمي قال : حدثنا علي بن أحمد بن نوح قال : حدثنا محمد بن عبد الرحمن قال :

حدثنا الفضل بن دكين قال : حدثنا مسعر عن سماك بن حرب عن ابن عباس أنه قال : إن الرجل

ليأتى الرجل فتصيح الأرض من تحتها ، والسماء من فوقها ، والبيت والسقف كلهم يقولون : أي :

رب ائذن لنا أن ينطبق بعضنا على بعض فنجعلهم نكالا ، ومعتبرا فيقول الله عز وجل : إنه وسعهم

(١) الحديث في الترغيب والترهيب للمنزدي باب في الترهيب من اللواط ج ٣ ص ٤٧٨ رقم ١ وقال : رواه ابن ماجه والترمذی

وقال : حديث حسن غريب ، والحاكم : وقال صحيح الاسناد

(٢) أخرجه الحاكم في (كتاب الحدود) وقال : صحيح الاسناد

(٣) انظر الترغيب والترهيب للمنزدي باب : لا ينظر الله الى رجل أتى رجلا أو امرأة في دبرها ج ٣ ص ٤٨٥ رقم ١٢ وقال رواه

الترمذی ، والنسائي وابن حبان في صحيحه ، وصححه ابن حزم .

(٤) انظر كتاب الكبائر لشمس الدين الذهبي : في الكبيرة الحادية عشرة : اللواط ج ١ ص ٥٧ مع اختلاف في بعض ألفاظه وقال

المحقق : ذكر السيوطی حديثا نحو هذا الحديث رآه على ظهر نسخة ابن أبي شيبة بخط مغربي .

حلمى ولن يفوتون .

أخبرنا عبد الله بن علي ومحمد بن أبي منصور قالا : أنبأنا طراد قال : حدثنا أبو الحسين بن بشران قال : حدثنا ابن صفوان قال : حدثنا أبو بكر القرشي قال : حدثنا خالد بن خراش قال : حدثنا مسلم ابن قتيبة قال : سمعت سفيان الثوري يقول : لو أن رجلا عبث بغلام بين أصبعين من أصابع رجله يريد الشهوة لكان لواطاً .

فصل

وأعلم أن المرأة مع المرأة كالرجل مع الرجل .
أخبرنا عبد الله بن علي ، ومحمد بن ناصر قالا : أنبأنا علي بن محمد بن العلاف قال : أنبأنا عبد الملك بن بشران ، قال : حدثنا أبو بكر محمد بن الحسين قال : حدثنا أحمد بن الحسن بن عبد الجبار الصوفي قال : حدثنا عمار بن نصر الخرساني قال : أنبأنا عثمان بن عبد الرحمن الحراني عن عنبسة بن عبد الرحمن القرشي عن العلاء ، عن مكحول ، عن وائلة بن الأسقع قال : قال رسول الله ﷺ - : (سحاق النساء زنا بينهن) (١) .

في عقوبة اللوطي في الدنيا

اعلم أن الله - عز وجل - قص علينا من قصة عمل قوم لوط إيثارهم الفاحشة ، وميلهم إليها ، وشرح عقابه إياهم في الدنيا ، فأطال في ذكر ذلك ما لم يطل في ذكر كفرهم .
ومعلوم أن الكفر أعظم من الفاحشة ، ولكنه أراد تحذيرنا من تلك الأفعال ، وقصة القوم في القرآن في مواضع ، وقد عرفنا منها أنه عاقبهم في الدنيا بالرجم والحجارة .
وقد رويت في عقوبة اللوطي في الدنيا أحاديث :

أخبرنا عبد الله بن علي وابن ناصر قالا : أنبأنا طراد بن محمد قال : أنبأنا أبو الحسين بن بشران قال : أنبأنا ابن صفوان قال : حدثنا أبو بكر القرشي قال : حدثنا خالد بن خدّاش قال : حدثنا عبد العزيز الداودي قال : حدثنا عمرو بن أبي عمرو ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، أن النبي ﷺ - قال : فيمن عمل عمل قوم لوط : (يقتل الفاعل والمفعول به) (٢) .

أخبرنا ابن الحصين قال : أنبأنا ابن المذهب قال : أنبأنا أحمد بن جعفر قال : حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل قال : حدثني أبي قال : حدثنا أبو القاسم ابن أبي الزناد قال : أخبرني ابن أبي حبيبة وداود ابن الحصين ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ - : (اقتلوا الفاعل والمفعول به في عمل قوم لوط) (٣) .

(١) أخرجه ابن حجر في المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية في كتاب الحدود - باب : السحاق ج ٢ ص ١١٥ رقم ١٨٠٩

(٢) أخرجه الامام أحمد في مسنده - مسند ابن عباس ج ١ ص ٣٠٠

(٣) أخرجه أبو داود في الحدود - باب : فيمن عمل عمل قوم لوط ص ٢٥٧ ج ٢ والترمذي باب : ما جاء في حد اللوطي ص

١٨٨ - ج ١ وعند ابن ماجه في الحدود - باب : من عمل عمل قوم لوط ، ص ١٨٧ ح ٢ وعند الحاكم في الحدود ، ص

٣٥٥ - ج ٢ وقال : صحيح الاسناد

أخبرنا عبد الله بن علي قال : أنبأنا ابن العلاف قال : حدثنا عبد الملك بن بشران قال : حدثنا أبو بكر الأجرى قال حدثنا أبو بكر بن أبي داود قال : حدثنا الحسن بن الصباح قال : حدثنا عبد الوهاب بن عطاء ، وأخبرنا بن ناصر قال أنبأنا عبد القادر بن محمد قال : أنبأنا الجوهري قال : حدثنا ابن المظفر قال : حدثنا الهيثم بن خلف قال : حدثنا عباس قال : حدثنا عيسى بن شعيب كلاهما عن عباد بن منصور ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ - : (اقتلوا الفاعل والمفعول به)^(١) .

أخبرنا المبارك بن علي قال : أنبأنا عبد الله بن أحمد السمرقندي قال : أنبأنا أحمد بن عبد الواحد قال : أنبأنا محمد بن أحمد بن الوليد قال : حدثنا محمد بن جعفر السامري قال : حدثنا علي بن داود القنطري قال : حدثنا عبد الله بن صالح قال : حدثنا يحيى بن أيوب عن عباد بن كثير أن عبد الله بن محمد بن محمد بن عقيل حدثه ، عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ - (من عمل بعمل قوم لوط فاقتلوه)^(٢) .

قال السامري : وحدثنا أحمد بن ملاعب قال : حدثنا يعقوب بن الزبيرى قال : حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله بن عمر عن سهيل بن أبي صالح عن أبيه ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ - (من وجدتموه يعمل بعمل قوم لوط فارجموا الأعلى والأسفل)^(٣) .

ذكر ما روى عن أبي بكر الصديق وغيره من الصحابة في ذلك :

أخبرنا ابن ناصر وعبد الله بن علي قالا : أنبأنا طراد قال : أنبأنا أبو الحسين بن بشران قال : أنبأنا الحسين بن صفوان قال : حدثنا أبو بكر القرشي قال : حدثنا عبيد الله بن عمر قال : حدثنا عبد العزيز بن أبي حازم ، عن داود بن بكر ، عن محمد بن المنكدر أن خالد بن الوليد كتب إلى أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - أنه وجد رجلا في بعض الأضاحى ينكح كما تنكح المرأة ، فجمع أبو بكر لذلك أصحاب رسول الله ﷺ - منهم علي بن أبي طالب فقال ، علي : إن هذا ذنب لم تعمل به إلا أمة واحدة ، ففعل الله بهم ما قد علمتم أرى أن نحرقه بالنار ، فاجتمع رأى أصحاب رسول الله ﷺ - أن يحرق بالنار ، فأمر به أبو بكر أن يحرق بالنار قال : وقد حرقهم ابن الزبير وهشام بن عبد الملك^(٤) .

وبالاسناد قال حدثنا القرشي قال : حدثنا سويد قال : حدثنا ابن أبي زائدة عن ابن أبي ليلى ، عن يزيد بن قيس أن عليا - عليه السلام - رجم لوطيا^(٥) .

وقد روى عن عمر أنه قال : (من عمل عمل قوم لوط فاقتلوه) .

أخبرنا ابن ناصر وعبد الله بن علي قالا : أنبأنا علي بن محمد قال : - أنبأنا عبد الملك بن بشران قال : حدثنا أبو بكر الأجرى قال : حدثنا ابن مخلد قال : حدثنا محمد بن إسحاق الصاغانى قال :

(١) أخرجه أبو داود في الحدود باب : فيمن عمل عمل قوم لوط ج ٢ ص ٢٥٧ والحاكم في الحدود ج ٤ ص ٣٥٥

(٢) انظر نصب الراية للزيلعي ج ٣ / ٣٤٠

(٣) أخرجه ابن ماجه في الحدود - باب : من عمل عمل قوم لوط ج ٤ ص ٣٥٥

(٤) انظر الترغيب والترهيب للمنذرى باب والأقوال في حد اللوطى ج ٣ ص ٤٨٣ رقم ١٠

(٥) أخرجه ابن أبي شيبة في (كتاب الحدود) ج ٩ ص ٥٣٠ رقم ٨٣٨٨ في اللوطى حد كحد الزانى وقال : أخرجه الزيلعي في قصة الراية ج ٣ ص ٣٤١ وقال : أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ج ٨ / ٢٣٢

حدثنا هارون بن معروف قال : حدثنا غسان بن مضر ، عن سعيد بن يزيد قال : سئل ابن عباس ما حد اللوطى ؟ قال : ينظر أعلى بيت فى القرية فيرمى منكسا ثم يتبع بالحجارة^(١) .
 أخبرنا ابن ناصر قال : أنبأنا عبد القادر بن محمد بن يوسف قال : أنبأنا الجوهري قال : حدثنا ابن المظفر قال : حدثنا الهيثم بن خلف قال : حدثنا عباس بن يزيد قال : حدثنا غسان قال : حدثنا أبو مسلمة عن أبي نضرة قال : سئل ابن عباس عن حد اللوطى قال : ينظر إلى أعلى بناء فى القرية فيرمى به منكوسا ثم يتبع بالحجارة^(٢) .

ذكر كلام التابعين ومن بعدهم فى ذلك :

أخبرنا المبارك بن على قال : أنبأنا أحمد بن عبد الواحد قال : أنبأنا أبو بكر محمد بن أحمد السلمى قال : حدثنا محمد بن جعفر الخرائطى قال : حدثنا على بن حرب قال : حدثنا وكيع قال : حدثنا سفيان ، عن جابر ، عن الشعبي قال : اللوطى (يرمج أحصن أو لم يحصن)^(٣) .
 وبالإسناد قال : حدثنا الخرائطى قال : وحدثنا أحمد بن منصور الرمادى قال : حدثنا محمد بن الصباح قال : حدثنا إبراهيم بن سعد قال : حدثنا صالح بن كيسان ، عن الزهرى ، عن سعيد بن المسيب قال : (على اللوطى الرجم أحصن أو لم يحصن)^(٤) .
 قال : وحدثنا عباس الدورى قال : حدثنا عبيد الله بن موسى قال حدثنا سفيان عن حماد عن إبراهيم قال : (حد اللوطى حد الزانى)^(٥) .

قال سفيان : وحدثنا حماد ، عن قتادة ، عن جابر بن زيد فى اللوطى يرمج .
 أخبرنا ابن ناصر قال : أنبأنا عبد القادر بن محمد بن يوسف قال : أنبأنا الحسن بن على الجوهري قال : حدثنا محمد بن المظفر الحافظ قال : حدثنا الهيثم بن خلف الدورى قال : حدثنا محمد بن أحمد ابن النضر قال : حدثنا معاوية بن عمرو قال حدثنا محمد بن بشر عن سفيان عن ابن أبي نجيح ، عن عطاء قال : (حد اللوطى حد الزانى) وعن سفيان عن منصور عن إبراهيم قال : (اللوطى حده حد الزانى ان أحصن رجم وإلا جلد)^(٦) .

وبه قال الهيثم : وحدثنا عبد الرحمن بن منصور قال : قال معاذ بن هشام : وحدثني أبي عن قتادة ، عن الحسن أنه قال فى الرجل خالط الرجل : إن كان أحصن جلد ورجم ، وإن كان لم يحصن

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (فى كتاب الحدود) باب فى اللوطى حد كحد الزانى ج ٩ ص ٥٢٩ رقم ٨٣٨٦ وقال : أخرجه الزيلعى فى نصب الراية ج ٣ / ٣٤٢ وأخرجه البيهقى فى السنن الكبرى ج ٨ ص ٢٣٢
 (٢) رواه البيهقى فى السنن الكبرى ج ٨ ص ٢٣٢ (فى كتاب الحدود) باب ما جاء فى حد اللوطى وأخرجه ابن أبي شيبة فى مصنفه فى (كتاب الحدود) باب فى اللوطى حد كحد الزانى ج ٩ ص ٥٢٩ رقم ٨٣٨٦
 (٣) أخرجه ابن أبي شيبة فى مصنفه فى (كتاب الحدود) باب : حد كحد الزانى ج ٩ ص ٥٣٠ رقم ٨٣٩٠ وقال المحقق : أورده ابن حزم فى المحلى ٤٦٧ / ١١ من الشعبى .
 (٤) أنظر البيهقى فى السنن الكبرى فى (كتاب الحدود) باب : ما جاء فى حد اللوطى ج ٨ ص ٢٣٢
 (٥) أخرجه ابن أبي شيبة فى (كتاب الحدود) باب اللوطى حد كحد الزانى ج ٩ ص ٥٣٠ رقم ٨٣٩١ وقال المحقق : أخرجه عبد الرازق فى مصنفه فى باب من عمل عمل قوم لوط رقم ١٣٤٨٧
 (٦) أنظر السنن الكبرى للبيهقى فى (كتاب الحدود) باب : ما جاء فى حد اللوطى ج ٨ ص ٢٣٣

جلد ونفى) وقال معاذ : وحديثي أبي عن قتادة ، عن جابر بن زيد وعبيد الله بن عبد الله بن معمر .
أنهما قالا : عليه الرجم إن كان أحسن وإن لم يحسن .
قال قتادة : وقول الحسن أعجب إلى .

وقال قتادة : وكان الحسن يقول في الرجل يخالط البهيمة : إن كان أحسن جلد ورجم ، وإن لم يحسن جلد ونفى .

وبالاسناد عن الهيثم قال : حدثنا عبد الله بن سعيد الكندي قال : حدثنا حماد بن خالد ، عن مالك بن أنس ، عن الزهري قال : يرمم إن أحسن أو لم يحسن ، وكذلك قال ربيعة وابن هرمز ومالك : يرمم أحسن أو لم يحسن ، وقال الزهري سنة ماضية .

أخبرنا ابن ناصر وعبد الله بن علي قالا : أنبأنا ابن العلاف قال : حدثنا ابن بشران قال : حدثنا الأجرى قال : حدثنا عبد الله بن العباس الطيالسي قال : حدثنا إسحاق الكوسج قال : قلت لأحمد بن حنبل : أيرجم اللوطي أحسن أو لم يحسن ؟ قال : يرمم أحسن أو لم يحسن . وقال إسحاق بن راهوية : كما قال أحمد .

وقد روى عن أحمد أن حد اللوطي كحد الزاني يختلف بالثبوتة والبراءة وهذا قول أبي يوسف ومحمد .

وعن الشافعي كالروايتين عن أحمد .

وقال الحكم : يضرب اللوطي دون الحد ، وإلى هذا مال أبو حنيفة .

وقال النخعي : لو كان أحد ينبغي أن يرمم مرتين لكان ينبغي للوطي أن يرمم مرتين .
أخبرتنا شهدة بنت أحمد قالت : أنبأنا جعفر بن أحمد السراج قال : أنبأنا عبد العزيز بن علي قال : أنبأنا علي بن جعفر الصوفي قال : سمعت الموازيني يقول : قال لي رجل من الحجاج : مررت بديار قوم لوط فأخذت حجرا مما رجما به فطرحت في محلة ودخلت مصر فنزلت في بعض الدور في الطبقة الوسطى ، وكان في سفلى الدار حدث فأخرجت الحجر من خرقي ووضعته في روزنة (الكوة) في البيت فدعا الحدث الذي كان في السفلى صبيا إلى عنده واجتمع معه فسقط الحجر على الحدث من الروزنة فقتله .

أخبرتنا شهدة قالت : أنبأنا جعفر بن أحمد قال : أنبأنا أبو الحسن محمد ابن عثمان بن مكى قال : أخبرني جدي أبو الحسن أحمد بن عبد الله بن حمد قال : أنبأنا أبو العباس أحمد بن عيسى الوشاء المغربي قال : سمعت أبا عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد الحليم يقول : سمعنا يونس بن عبد الأعلى يقول : خرجت حاجا إلى مكة ، فلما كان ليلة عرفات رأى الامام الذي حج بنا تلك الليلة مناما فلما صرنا إلى مكة بعد انقضاء الحج سمعنا مناديا ينادي فوق الحجر أنصتوا يا معشر الحجاج ، فأنصت الخلق فقال : يا معشر الحجيج إن إمامكم رأى أن الله - عز وجل - قد غفر لكل من وافى العام البيت إلا رجلا واحدا فإنه فسق بغلام .

في ذكر عقوبة اللوطي في الآخرة

أخبرنا أحمد بن منازل قال : أنبأنا المبارك بن عبد الجبار قال : : أنبأنا أبو محمد الخلال قال :

حدثنا العباس بن أحمد الهاشمي قال : حدثنا علي بن أحمد بن نوح قال : حدثنا محمد بن أبي عبد الله الشعرائي قال : حدثنا داود بن المحبر ، عن أبي عائشة السعدي ، عن يزيد بن عمر بن عبد العزيز ، عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة وابن عباس قالا : (خطبنا رسول الله ﷺ - فقال في خطبته :) (من نكح امرأة في دبرها ، أو غلاما أو رجلا حشر يوم القيامة أنتن من الجيفة ينادى به الناس حتى يدخله الله نار جهنم ويحبط الله عمله ، ولا يقبل منه صرفا ولا عدلا ، ويجعل في تابوت من النار ، ويسمر عليه بمسامير من حديد من نار ، فتستل تلك المسامير في وجهه وفي جسده)^(١) .

قال أبو هريرة : هذا لمن لم يتب .

أخبرنا عمر بن هدية الصواف قال : أنبأنا علي بن أحمد بن بيان قال : أنبأنا أبو الحسن بن مخلد قال : أنبأنا إسماعيل بن محمد الصفار قال : أنبأنا الحسن بن عرفة قال : حدثني علي بن ثابت الجزري ، عن مسلم بن جعفر ، عن حسان بن حميد ، عن أنس ابن مالك عن النبي ﷺ - قال : سبعة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولا يجمعهم مع العاملين ، يدخلون النار أول الداخلين إلا أن يتوبوا ، فمن تاب تاب الله عليه : الناكح يده ، والفاعل والمفعول به ، ومدمن خمر ، والضارب أبويه حتى يستغيثا ، والمؤذي جيرانه حتى يلعنوه ، والناكح حليلة جاره)^(٢) .

أخبرنا أحمد بن منازل قال : أنبأنا عبد الجبار قال : أنبأنا الخلال قال : حدثنا العباس بن أحمد الهاشمي قال : حدثنا علي بن أحمد بن نوح قال : حدثنا محمد بن يونس قال : حدثنا محمد بن حيان قال : أنبأنا روح بن مسافر ، عن حماد عن إبراهيم ، عن علقمة ، عن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ - (اللوطيان لو اغتسلا بماء البحر لم يجزهما إلا أن يتوبا)^(٣) .

أخبرنا أبو منصور بن عبد الرحمن القزاز قال : أنبأنا أحمد بن علي بن ثابت قال : أخبرني أحمد بن جعفر بن حمدان قال : حدثنا أبو بكر محمد بن أحمد القاضي قال : حدثنا مسلم بن عيسى قال : حدثنا أبي قال : حدثنا حماد بن زيد ، عن سهيل ، عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ - : (من مات من أمتي يعمل عمل قوم لوط نقله الله إليهم حتى يحشر معهم)^(٤) .

أخبرنا عبد الله بن علي ومحمد بن ناصر قالا : أنبأنا طراد بن محمد قال : أنبأنا أبو الحسن بن بشران قال : حدثنا الحسين بن صفوان قال : حدثنا أبو بكر القرشي قال : حدثنا سويد بن سعيد قال : حدثنا مسلم بن خالد عن إسماعيل بن كثير ، عن مجاهد قال : لو أن الذي عمل ذلك العمل -

(١) ذكر صدر الحديث في تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذى في باب ما جاء في كراهية إتيان النساء في أدبارهن ج ٤ ص ٣٣٩ رقم ١١٧٦ وقال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب .

(٢) انظر كتاب الكبائر للشيخ شمس الدين الذهبي - باب الكبيرة الحادية عشرة اللوط ج ١ ص ٥٧ مع اختلاف في بعض الفاظه والحديث في كنز العمال للمفتي الهندي باب : الترهيب السباعي من الاكمال ج ١٦ ص ٩٠ ، ٩١ رقم ٤٤٠٤٠ وقال : رواه البيهقي في شعب الايمان والحسن بن عرفة في جزئه عن أنس .

(٣) انظر اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة (كتاب الحدود) ج ٢ ص ١٩٨ ، ١٩٩ .

(٤) انظر الخطيب البغدادي في تاريخه ج ١١ ص ١٦٠ رقم ٥٨٥٣ في ترجمة عيسى بن مسلم الصفار وفي كشف الخفاء ج ٢ ص ٣٨٧ رقم ٢٦٢١ وقال : رواه الديلمي بلا سند مرفوعا عن أنس وحكاه ابن وقيع فيما أسنده ابن عساكر عنه

يعنى : عمل قوم لوط - لو اغتسل بكل قطرة من السماء وكل قطرة في الأرض لم يزل نجسا^(١) .
 أخبرنا ابن ناصر قال : أنبأنا عبد القادر بن محمد بن يوسف قال : أنبأنا الجوهري قال : حدثنا
 محمد بن المظفر قال : أنبأنا الهيثم بن خلف قال : حدثنا عباد بن الوليد الغنوي قال : سمعت إبراهيم
 ابن شماس يقول : سمعت الفضيل بن عياض يقول : لو ان لوطيا اغتسل بكل قطرة من السماء لقي
 الله غير طاهر^(٢) .

أخبرنا ابن منازل قال : أنبأنا ابن عبد الجبار قال : أنبأنا الخلال قال : حدثنا العباس بن أحمد
 الهاشمي قال : حدثنا علي بن أحمد بن نوح قال : حدثنا محمد بن عبد الرحمن قال : حدثنا أبو أيوب
 ابن سليمان ، عن طلحة بن زيد ، عن برد بن سنان ، عن أبي المنيب ، عن عبد الله بن عمرو قال :
 (يحشر اللوطيون يوم القيامة في صورة القردة والخنزير)^(٣) .

أخبرنا ابن منازل قال : أنبأنا ابن عبد الجبار قال أنبأنا الخلال قال : حدثنا العباس الهاشمي
 قال : حدثنا محمد بن يحيى الأزدي قال : حدثنا أحمد بن نصير قال : حدثنا سعدان بن عمرو المعافري
 عن أبي الصهباء ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : من خرج من الدنيا على حال خرج من
 قبره على تلك الحال حتى إن اللوطي يخرج يعلق ذكره على دبر صاحبه مفتضحين على رءوس الخلائق
 يوم القيامة) .

قصة شعيب عليه السلام

كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ
 ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿١٧٩﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ
 ﴿١٨٠﴾ * أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَوزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾
 وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعَثُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي خَلَقَكُمْ
 وَالْجِبِلَّ الْأُولَى ﴿١٨٤﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ
 نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّ
 أَعْلِمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُم عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾
 إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾

(١) انظر اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة (كتاب الحدود) ج ٢ ص ١٩٩ وقال : أخرجه البيهقي في شعب الايمان

انظره في التعليق على الحديث السابق

(٢) انظر كتاب الكبائر لشمس الدين الذهبي في الكبيرة الحادية عشرة : اللواط ج ١ ص ٥٧ مع اختلاف في بعض ألفاظه قال
 المحقق : ذكره ابن الجوزي في الموضوعات مرفوعا .

(٣) سورة الشعراء الآيات : ١٧٦ - ١٩١

تفسير المفردات

الأيكة : غيضة كثيرة الشجر قرب مدين بعث الله إلى أهلها شعيبا كما بعثه إلى أهل مدين ولم يكن منهم نسبا .

من المسحرين/ : أى المطففين الآخذين من الناس أكثر مما لهم .
والقسطاس : الميزان .

والمستقيم : أى العدل . ولا تعثوا : أى لا تفسدوا .

والجبل : بكسر الجيم والباء وتشديد اللام وبضمهما وتشديد اللام : الخلقة والطبيعة ، ويقال جبل فلان على كذا : أى خلق والمراد أنهم كانوا على خلقة عظيمة .
كسفا : واحدا كسفة كقطعة (وزنا ومعنى) .
والظلة : السحابة التى استظلوا بها .

المناسبة واجمال المعنى

قص الله تعالى : علينا فى هذه الآيات قصص شعيب مع قومه أهل مدين وقد بعثه إليهم فنصحهم بإيفاء الكيل والميزان ، وألا يعثوا فى الأرض فسادا ، فكذبوه ، فسلط الله عليهم الحر الشديد ، فكانوا يدخلون الأسراب فيجدونها أحر من غيرها ، فيخرجون ، ثم أظلمتهم سحابة فاجتمعوا تحتها ، فأمطرت عليهم نارا فاحتقروا جميعا .

التفسير

سبحانك ربى ما أعذلك لاتعجل كعجلة أحدنا وإنما تملى للظالم حتى إذا أخذته لم تفلته ﴿ وإن كان أصحاب الأيكة لظالمين فانتقمنا منهم وإنها ليأمام مبين ﴾ .
هذا خطيب الأنبياء شعيب على نبينا وعليه - الصلاة والسلام - يرسله ربه إلى أصحاب الأيكة ، وكانوا قوما يعبدون المال ويخسرون الميزان والمكيال ، فأمرهم بإيفاء الكيل والميزان .
قوله تعالى ﴿ كذب أصحاب الأيكة المرسلين ﴾ . إذ قال لهم شعيب ألا تتقون . إني لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون . وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين ﴿ (١) ﴾ .
هذا ديدن أهل الباطل تكذيب يقابله من الأنبياء منطق العدالة والحق ، والانباء الذين ارسلوا إلى أقوامهم كان منطقهم ألا تتقون ؟ ويقول كل منهم إني لكم رسول أمين . فاتقوا الله وأطيعون . .
أمين على وحى السماء ، أمين على هدايتكم ، وإرشادكم ، فاتقوا الله واحذروا عقابه ، واطيعون فيما أبلغكم عن الله ، فأنا صاحب رسالة لأسألكم على التبليغ أجرا ، وأصحاب الرسالات يتجردون عن طلب الأجر لأنهم يبتغون ما عند الله ، والله خير وأبقى ، هذا منطق المرسلين ، ولقد قال شعيب :
مثلا قال اخوانه الأنبياء ، ثم توجه إلى القوم آمرا وناهيا .
﴿ أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين ﴾ أى : إذا بعتم للناس فكيلوا لهم الكيل كاملا ، ولا تبخسوهم حقهم فتعطوه ناقصا ، وإذا اشتريتم ، فخذوا كما لو كان البيع لكم .

وخلاصة ذلك - خذوا كما تعطون وأعطوا كما تأخذون .
﴿ وزنوا بالقسطاس المستقيم ﴾ أى : وزنوا بالميزان السوى العدل ، وقد جاء فى سورة المطففين مثل هذا مع التحذير منه فقال ﴿ ويل للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ألا يظن أولئك أنهم مبعوثهم ليوم عظيم ﴾ .
ثم عمم النهى عن البخس فى كل حق فقال : ﴿ ولا تبسخوا الناس أشياءهم ﴾ أى : :
ولا تنقصوا الناس حقهم فى كيل أو وزن أو غيرهما ، كالمذروعات والمعدودات ، كأخذ بيض كبير وإعطاء بيض صغير ، وإعطاء رغيف صغير وأخذ رغيف كبير ، وهكذا .

ثم نهاهم عن جرم أعظم شأنا وأشد خطرا وهو الفساد فى الأرض بجميع ضروبه وأشكاله فقال : ﴿ ولا تعثوا فى الأرض مفسدين ﴾ أى : ولا تكثروا فيها الفساد بالقتل والغارة وقطع الطريق ، والسلب والنهب ، ونحوها وبعد أن نهاهم عن ذلك خوفهم سطوة الجبار الذى خلقهم وخلق من قبلهم ممن كانوا أشد منهم بطشا وعتوا فقال : ﴿ واتقوا الذى خلقكم والجبلة الأولين ﴾ أى وخافوا بأس الله الذى خلقكم من العدم للإصلاح فى الأرض ، وخلق من قبلكم ممن كانوا أشد منكم قوة وأكثر مالا ، كقوم هود الذين قالوا : من أشد منا قوة ، فأخذهم أخذ عزيز مقتدر ، وقد تمخض هذا النصيح عن شيئين : القدح فى رسالته أولا ، واستصغار الوعيد ثانيا .

(١) ﴿ قالوا إنما أنت من المسحرين ﴾ أى : ما أنت ألا ممن سحر عقله مرة بعد أخرى فصار كلامه جزافا لا يعبر عن حقيقة ولا يصيب هدف الحق .

﴿ وما أنت إلا بشر مثلنا ﴾ فما وجه تفضيلك علينا وإرسالك رسولا أيضا .

ثم أكدوا هذا الإنكار بقولهم :

﴿ وإن نظنك لمن الكاذبين ﴾ أى : وإنا لنعتقد أنك ممن يتعمد الكذب فيما يقول : ولم يرسلك

الله نبيا إلينا .

(٢) ﴿ فأسقط علينا كسفا من السماء إن كنت من الصادقين ﴾ أى فإن كنت صادقا فى دعواك الرسالة فأنزل علينا من السحاب قطعا يكون فيها العذاب لنا .

وهذا شبيه بما قالته قریش لنبىهم فيما حكى الله عنهم بقوله : ﴿ وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا - إلى أن قالوا - أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتى بالله والملائكة قبيلا ﴾ (١) وقوله : ﴿ وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾ (٢) .

فأجابهم شعيب :

﴿ قال ربى أعلم بما تعملون ﴾ فيجازيكم به فإن شاء عجل لكم العذاب ، وإن شاء أخره إلى

(١) سورة الاسراء الآيات : ٩٠ - ٩٢

(٢) سورة الأنفال الآية : ٣٢

أجل معلوم ، وما على إلا البلاغ وأنا مأمور به ، فلم أنذركم من تلقاء نفسي ، ولا أدعى القدرة على عذابكم .

﴿ فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم ﴾ أى : وهكذا دأبوا على التكذيب فجازاهم بجنس ما طلبوا من إسقاط الكسف من السماء فجعل عقوبتهم أن أصابهم حر عظيم أخذ بأنفاسهم لم ينفعهم فيه ظل ولا ماء ولا شراب ، فاضطروا إلى أن يخرجوا إلى البرية ، فأظلمت سحابة وجدوا لها بردا ونسيما ، فاجتمعوا كلهم تحتها فأمطرتهم شواظا من نار فاحترقوا .

﴿ إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ﴾ أى : إن فى ذلك الانجاء لكل رسول ومن أطاعه ، والعذاب لكل من عصاه فى كل العصور لدلالة واضحة على صدق الرسل ، وما كان أكثر قومك بمؤمنين ، مع أنك قد أتيتهم بما لا يكون معه شك لما يصحبه من الدليل والبرهان .
﴿ وإن ربك هو العزيز الرحيم ﴾ أى : وإن ربك هو العزيز فى انتقامه من الكافرين الرحيم بعباده المؤمنين التائبين .

(تنبيه) :

جاءت هذه القصص السبع مختصرة هنا وفيها البرهان الساطع على أن القرآن جاء من عالم الغيب ، فإن النتائج التى حصل عليها الأنبياء مع أقوامهم هى مثل النتائج التى حصل عليها النبى ﷺ - ولم يكن حين نزولها ذا شوك ولا ذا قوة ، وإن ما أصيب به من التكذيب والأذى ، وكانت عاقبته الفتح والنصر المبين ، نموذج لما حدث للأنبياء السالفين قبله .
منطق الحق والعدل

وَإِنَّهُ لَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ
بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿١٩٤﴾ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٩٥﴾ أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ
بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٩٦﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٧﴾ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ
﴿١٩٨﴾ كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٩٩﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرُوا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ
﴿٢٠٠﴾ فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠١﴾ فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ ﴿٢٠٢﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٣﴾
أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٤﴾ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٠٥﴾ مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا
كَانُوا يَمْتَتِعُونَ ﴿٢٠٦﴾ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذُرُونَ ﴿٢٠٧﴾ ذِكْرَى وَمَا كُنَّا
ظَالِمِينَ ﴿٢٠٨﴾ وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ﴿٢٠٩﴾ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١٠﴾ إِنَّهُمْ عَنْ

الَسْمَعِ لَمَعَزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذِّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَآخِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنَّي بِرِيءٍ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ الَّذِي يَرِثُكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقْلُبُكَ فِي السَّجْدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾ هَلْ أَنْبِئُكُمْ عَلَىٰ مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُهُمْ كَذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا ۗ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾

تفسير المفردات

- الروح الأمين : هو جبريل - عليه السلام - ، ووصف بالأمين ، لأنه أمين .
 وحيه تعالى : وموصله إلى من شاء من عباده .
 على قلبك : أى على روحك ، لأنه المدرك والمكلف دون الجسد .
 الزبر : الكتب ، واحدها زبرة كصحف وصفحة .
 الآية : الدليل والبرهان .
 الأعجمين : واحداهم أعجمى ، وهو من لا يقدر على التكلم بالعربية .
 سلكناه : أى أدخلناه .
 المجرمين : مشركى قريش .
 بغة : فجأة .
 منظرون : أى مؤخرون .
 ذكرى : أى تذكرة وعبرة لغيرهم وما ينبغى لهم أى : ما ييسر ولا يتسنى لهم ، وما يستطيعون :
 أى ما يقدرون على ذلك لمعزولون : أى لمنوعون بالشهب بعد أن كانوا ممكنين .
 أنبئكم : أى أخبركم . والأفك : كثير الافك والكذب .
 الأثيم : كثير الذنوب والفجور .
 يلقون السمع : أى يصغون أشد الاصغاء إلى الشياطين ، فيتلقون منهم ما يتلقون مما أكثره الكذب .
 الغاؤون : الضالون المائلون عن السنن القويم .

الوادي : الشعب ، يهيمنون : أى يسرون سير البهائم حائرين لايهتدون إلى شيء .
المنقلب : المرجع .
* المناسبة وإجمال المعنى *

بعد أن اختتم سبحانه هذا القصص ، وبين مدار بين الأنبياء وأقوامهم من الججاج والجدل ، وذكر أنه قد أهلك المكذبين وكان النصر في العاقبة لرسله المتقين ، فإن سنته في كل صراع بين الحق والباطل أن تزول دولة الباطل ، وينتصر الحق وإن طال الزمن ﴿ بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه ﴾ (١) .

وفي ذلك سلوة لرسوله ، وعدة له ، بأنه مهما أودى من قومه ولقى منهم من الشدائد ، فإن النصر والفوز له ﴿ سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا ﴾ (٢) .

أردف هذا بيان أن هذا القرآن الذى جاء بذلك القصص وحى من الله أنزله على عبده ورسوله جبريل - عليه السلام - بلسان عربى مبين ، لينذر به العصاة ويبشر به عباده المتقين ، وأن ذكره في الكتب المتقدمة الماثورة عن الأنبياء الذين بشروا به حتى قام آخرهم خطيبا في ملكه يبشر به كما قال : ﴿ وإذ قال عيسى بن مريم يا بنى إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد ﴾ (٣) وأن العلماء من بنى إسرائيل يجدون ذكره في كتبهم كما قال : ﴿ الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل ﴾ (٤) .

وكما أن الأعجمين إذا قرئ عليهم لم يدروا منه شيئا ولم يؤمنوا به ، كذلك هؤلاء المجرمون من قريش لا يؤمنون به كفرا وعنادا حتى يأتيهم عذاب الله بغتة وهم لا يشعرون ، فيتمنون إذ ذاك النظرة ليطيعوا الله ويتبعوا أوامره وأنى لهم ذلك ؟ وهل يجديهم التمنى ساعتئذ ؟ ﴿ فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا ﴾ (٥) .

وقد جرت سنتنا ألا نهلك قوما إلا بعد أن نبعث إليهم الرسل مبشرين ومنذرين . ثم رد على مشركى قريش الذين قالوا : إن لمحمد ﷺ - تابعا من الجن يخبره كما تخبر الكهنة - بأن الشياطين من سجايهم الفساد ، وإضلال العباد ، والقرآن فيه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وبأنهم ممنوعون عن سماع ما تتكلم به الملائكة في السماء ، لأن السماء ملئت حرسا شديدا وشهبا مدة إنزال القرآن على رسوله ﷺ - فلم يخلص أحد من الشياطين إلى استراق السمع كما قال : ﴿ وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا . وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهبا رصدا ﴾ (٦) .

وبعد أن بالغ سبحانه في تسليته رسوله ﷺ - وأقام الحجة على نبوته ، ثم أورد سؤال المنكرين وأجاب عنه - أردف ذلك أمره بعبادته وحده وإنذار العشيرة الأقربين ، ومعاملة المؤمنين بالرفق ، ثم

(٤) سورة الأعراف آية : ١٥٧

(٥) سورة غافر : آية : ٨٥

(٦) سورة الجن الآيتان : ٨ ، ٩

(١) سورة الأنبياء الآية : ١٨

(٢) سورة الأحزاب الآية : ٦٢

(٣) سورة الصف آية : ٦

ختم هذه الأوامر بالتوكل عليه تعالى وحده ، فإنه هو العليم بكل شئونه وأحواله .
 روى البخارى ومسلم عن ابن عباس - رضى الله عنه - قال : لما أنزل الله : ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ أتى النبي ﷺ - الصفا فصعد عليه ثم نادى يا صباحاه ، فاجتمع الناس إليه ، بين رجل يجىء إليه ، وبين رجل يبعث رسوله ، فقال رسول الله ﷺ - (يا بنى عبد المطلب ، يا بنى فهد ، يا بنى لؤى ، أرايتم لو أخبرتكم أن خيلا بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم صدقتموني ؟ قالوا نعم ، قال : فإنى نذير لكم بين يدي عذاب شديد ، فقال أبو لهب : تبأ لك سائر اليوم ، أما دعوتنا إلا لهذا ؟) وأنزل الله تعالى : ﴿ تبت يدا أبا لهب وتب ﴾^(١) .

وبعد أن أبان سبحانه امتناع الشياطين بالقرآن ، وأثبت أنه تنزيل من رب العالمين - أعقب هذا بيان استحالة تنزيلهم على رسول الله ﷺ - ، فإنها لا تنزل إلا على كل كذاب فاجر ، ورسول الله صادق أمين ، ثم ذكر أن الكذابين يلقون السمع إلى الشياطين ، فيتلقون وحيهم وهو تخیلات لا تطابق الحق والواقع .

وبعدئذ ذكر أن محمدا ﷺ - ليس بشاعر ، لأن الشعراء يهيمون فى كل واد من أودية القول من مدح وهجو وتشبيب ومجون بحسب الهوى والمنفعة ، فأقوالهم لا تترجم عن حقيقة ، وليس بينهما وبين الصدق نسب ، ومحمد ﷺ - لا يقول إلا الصدق فأنى له أن يكون شاعرا .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ وإنه لتنزيل رب العالمين . نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين . بلسان عربى مبين ﴾ .

هذا إخبار منه سبحانه وتعالى : عن القرآن العظيم ، فهو تنزيل من حكيم حميد ، ونحو ذلك قوله تعالى : ﴿ تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين ﴾^(٢) وقوله جل شأنه : ﴿ تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ﴾^(٣) .

وقوله تبارك اسمه : ﴿ تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم ﴾^(٤) وقوله جل وعز : ﴿ تنزيل من الرحمن الرحيم ﴾^(٥) وقوله تبارك وتعالى :

﴿ وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾^(٦)
 ﴿ نزل به الروح الأمين ﴾ جبريل - عليه السلام - ونحوه قوله تعالى : ﴿ قل من كان عدوا

(٢) الحديث رواه الامام أحمد فى مسنده - مسند ابن عباس : ٣٠٧ / ١ ورواه البخارى ، تفسير سورة (تبت يدا أبا لهب وتب) : ٢٢١ / ٦ ، ٢٢٢ . وتفسير سورة الشعراء : ١٤٠ / ٦ . . . ومسلم ، كتاب الايمان ، باب فى قوله تعالى : (وأنذر عشيرتك الأقربين) : ١٣٤ / ١ . وتحفة الأحوذى ، تفسير سورة (تبت) الحديث ٢ ، ٣٤ : ٢٩٦ / ٩ - ٢٩٨ وقال الترمذى : (هذا حديث حسن صحيح) .

(٢) سورة السجدة آية : ٢

(٣) سورة الأحقاف آية : ٢

(٤) سورة غافر آية : ٢

(٥) سورة فصلت آية : ٢

(٦) سورة فصلت من الآية ٤١ ، ٤٣

لجبريل فإنه نزل على قلبك بإذن الله مصدقا لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين ﴿١﴾ .
 ونحوه أيضا : ﴿ إنه لقول رسول كريم ذي قوة عند ذي العرش مكين مطاع ثم أمين ﴾ ﴿٢﴾ .
 ونحوه قوله تعالى : ﴿ وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون .
 تنزيل من رب العالمين ﴾ ﴿٣﴾ .
 وقوله تعالى ﴿ علمه شديد القوى ﴾ ﴿٤﴾ .

وسمى جبريل الروح ، لأنه يروح ويغدو بين الله ورسله ، ووصف بالأمين ، لأنه أمين على الوحي لا يزيد ولا ينقص ، وما هو على الغيب بضنين : وهكذا كان جبريل من بين ملائكة الله سفير الأنبياء وكبير أمناء وحى السماء .

﴿ على قلبك لتكون من المنذرين ﴾ أى على قلب رسول الله ﷺ - لانداز البغاة المعاندين .
 ﴿ إن هو إلا ذكر وقرآن مبين . لينذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين ﴾ ﴿٥﴾ .
 ﴿ كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ألا تعبدوا إلا الله إننى لكم نذير
 وبشير ﴾ ﴿٦﴾ . ﴿ كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك جرح منه لتذر به وذكرى للمؤمنين ﴾ ﴿٧﴾ .
 ﴿ يا أيها النبی إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا ﴾ ﴿٨﴾ .

﴿ بلسان عربى مبين ﴾ هو كقوله تعالى : ﴿ إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون ﴾ ﴿٩﴾ وقوله :
 ﴿ إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون ﴾ ﴿١٠﴾ وقوله ﴿ كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم
 يعلمون ﴾ ﴿١١﴾ وقوله جل شأنه : ﴿ ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذى يلحدون إليه
 أعجمى وهذا لسان عربى مبين ﴾ ﴿١٢﴾ .

* نزول القرآن الكريم *

نزل القرآن مفرقا ، وفى أوقات متباعدة وتاريخه هو تاريخ الرسالة المحمدية ، ومدته هى مدتها ،
 أو قريبا من ذلك .

وقد صرح القرآن بأن نزوله كان فى رمضان ، وفى ليلة القدر منه على الخصوص كما قال تعالى :
 ﴿ شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن ﴾ ﴿١٣﴾ .
 وقال ﴿ إنا أنزلناه فى ليلة القدر ﴾ ﴿١٤﴾ .
 وأكد ذلك بالنسبة إلى الليلة المذكورة قوله فى الآية الأخرى : ﴿ إنا أنزلناه فى ليلة
 مباركة ﴾ ﴿١٥﴾ .

- (٨) سورة الأحزاب آية : ٤٥
 (٩) سورة يوسف آية : ٢
 (١٠) سورة الزخرف آية : ٣
 (١١) سورة فصلت آية : ٣
 (١٢) سورة النحل آية : ١٠٣
 (١٣) سورة البقرة من الآية : ١٨٥
 (١٤) سورة القدر الآية : ١
 (١٥) سورة الدخان الآية : ٣

- (١) سورة البقرة آية : ٩٧
 (٢) سورة التكوين الآية : ٢٠
 (٣) سورة الحاقة الآيات : ٤١ - ٤٢
 (٤) سورة النجم آية : ٥
 (٥) سورة «يس» الآيتان : ٦٩ ، ٧٠
 (٦) سورة هود الآيتان : ١ ، ٢
 (٧) سورة الأعراف آية : ٢

ورمضان مختص بإنزال الكتب السماوية السابقة ، فقد جاء في مسند الامام أحمد من حديث واثله بن الأسقع - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ - قال : (أنزلت صحف ابراهيم - عليه الصلاة والسلام - في أول ليلة من رمضان ، وأنزلت التوراة لست مضين من رمضان ، والانجيل لثلاث عشرة خلت من رمضان ، وأنزل الله تعالى القرآن لأربع وعشرين خلت من رمضان)^(١) .
ومعنى إنزاله لأربع وعشرين خلت : أنه نزل بعد تمام أربع وعشرين ليلة . فيكون إنزاله في ليلة خمس وعشرين .

وهذه الكتب المنزلة ماعدا القرآن نزل كل منها على الرسول الذى نزل عليه جملة واحدة .
وأما القرآن المجيد : فمعلوم أنه نزل على محمد بن عبد الله مفرقا من حين رسالته إلى قرب وفاته ، بيد أن ظاهر هذه الآيات يدل على أنه نزل كله جملة واحدة في ليلة من ليالى شهر رمضان ، وهو أيضا ظاهر حديث واثله السابق . وهذا يشير في النفس تساؤلا . كيف يتسنى القول بنزول القرآن كله جملة واحدة مع ما هو معلوم يقينا من أنه نزل على محمد بن عبد الله مفرقا في اثنتين وعشرين سنة وخمسة أشهر تقريبا ، حتى أن الكافرين قالوا كما حكى الله تعالى عنهم في سورة الفرقان : ﴿ وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة ﴾^(٢) .

وقد يجيب بعض الناس عن هذا التساؤل فيقول : إن الذى أنزل في ليلة القدر إنما هو أول القرآن نزولا وهو قوله تعالى : ﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم ﴾^(٣) فيكون قوله تعالى : ﴿ شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن ﴾ معناه شهر رمضان الذى ابتدئ فيه إنزال القرآن . وقوله : ﴿ إنا أنزلناه ﴾ معناه إنا ابتدأنا إنزاله .

وهذا الجواب ليس بسديد ، لأن فيه حمل الآيات على غير ظاهرها .
والجواب السديد هو ما أجاب به ابن عباس في آثار صحيحة مروية عنه نكتفى منها بما يلي :
أولا : أخرج الحاكم عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : (فصل القرآن من الذكر ، فوضع في بيت العزة من السماء الدنيا فجعل جبريل ينزل به على النبي ﷺ - ومعنى قوله : (فصل القرآن من الذكر) أن الملائكة كتبوا القرآن الكريم نقلا من اللوح المحفوظ ، ثم أنزلوا ما كتبوه إلى مكان في السماء الدنيا يسمى بيت العزة .

ثانيا : أخرج النسائي والحاكم والبيهقى عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أنه قال : (أنزل

(١) مسند الامام أحمد من حديث واثله بن الأسقع ج ٤ ص ١٠٧ وفي الدر المنثور في التفسير المأثور لجلال الدين السيوطى ج ١ ص ٤٥١ في الجزء الثانى أخرجه أحمد وابن جرير ومحمد بن نصر وابن أبى حاتم والطبرانى والبيهقى في شعب الايمان والأصبهانى في الترغيب عن واثله بن الأسقع .

(٢) سورة الفرقان الآية : ٣٢

(٣) سورة العلق الآيات : ١ - ٥

(٤) الحديث أخرجه الحاكم في المستدرک في كتاب التفسير ج ٢ ص ٢٢٣ وقال الحاكم : صحيح الاسناد

القرآن جملة واحدة إلى السماء الدنيا ليلة القدر ثم أنزل بعد في عشرين سنة^(١) . وقوله (في عشرين سنة) فيه إيجاز بالاختصار على ذكر العقدين الكاملين وحذف الكسر وهو ستان وخمسة أشهر تقريبا .
ثالثا : - أخرج ابن مردويه والبيهقي وابن أبي حاتم عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أنه سأل عطاء بن الأسود ، فقال : (وقع في قلبى الشك)^(٢) قول الله تعالى : ﴿ شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن ﴾ وقوله : ﴿ إنا أنزلناه فى ليلة مباركة ﴾ وقوله :

﴿ إنا أنزلناه فى ليلة القدر ﴾ وقد أنزل فى شوال ، وفى ذى القعدة ، وفى ذى الحجة ، وفى المحرم ، وصفر وشهر ربيع ، فقال ابن عباس - رضى الله عنهما - إنه أنزل فى رمضان فى ليلة القدر ، وفى ليلة مباركة جملة واحدة ، ثم أنزل على مواقع النجوم رسلا فى الشهور والأيام وقوله : (وقع فى قلبى الشك) .

لا يقصد به حقيقة الشك فإن القرآن لا يشك فيه مسلم ، وإنما مقصوده أن هذا التعارض الذى يبدو لأول وهلة يثير فى النفس حيرة عن الفهم مع إيمان بأن القرآن حق لا ريب فيه .
وقوله : (أنزل على مواقع النجوم) معناه أنه أنزل مفرقا على مثل مساقط النجوم فإن النجوم تسقط أمام الأنظار فى أوقات مختلفة يتبع بعضها بعضا .

وقوله : (رسلا) بكسر الراء - معناه (تؤده) أى فى زمن طويل . ولا شك أن نزول القرآن من اللوح المحفوظ إلى موضع مخصوص فى السماء الدنيا يسمى بيت العزة - لا يقوله ابن عباس - رضى الله عنهما - اجتهدا ، ولا تخمينا ، فإنه من علم الغيب الذى لا يطلع الله عليه إلا رسوله ﷺ .
وهذا النزول الغيبى إن كان مما يحمل على القول به هو إبقاء الآيات الواردة فى نزول القرآن على ظاهرها من نزوله جملة واحدة ، فإنه لا يعارض نزوله الحسى فى التاريخ المذكور ، أى : ابتداء نزوله على الرسول ﷺ - مفرقا ، بل إن الرواية نفسها تشير إلى ذلك وتبين المراد به ، فهما إذن نزولان ، غيبى وحسى وتاريخهما واحد .

ويتساءل العلامة الزركشى عن السر فى هذا النزول ؟ ويجيب عن ذلك بقوله : (فإن قيل : ما السر فى إنزاله جملة إلى السماء ؟ قيل فيه تفخيم لأمره ، وأمر من نزل عليه ، وذلك بإعلان سكان السموات السبع أن هذا آخر الكتب المنزلة على خاتم الرسل لأشرف الأمم قربناه إليهم لتنزله عليهم) .

وقد بين الله تعالى : حكمة نزول القرآن مفرقا لاجملة واحدة فى موضعين فى الكتاب العزيز .
الموضع الأول : قوله تعالى فى سورة الاسراء : ﴿ وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا ﴾ .

(١) الحديث أخرجه الحاكم فى المستدرک (فى كتاب التفسير) باب : أنزل القرآن جملة واحدة فى ليلة القدر الى السماء الدنيا ج ٢ ص ٢٢ وقال الحاكم : حديث صحيح الاسناد ولم يخرجاه وأخرجه الامام النسائى والبيهقى عن ابن عباس .
(٢) الحديث فى الدر المنثور فى التفسير المأثور لجلال الدين السيوطى فى الجزء الأول ص ٤٥٦ قال : وأخرج ابن جرير ومحمد بن نصر فى كتاب الصلاة ، وابن أبي حاتم ، والطبرانى وابن مردويه والبيهقى فى الأسماء والصفات ، عن مقسم قال : سأل عطية ابن الأسود ، ابن عباس فقال : وذكر الحديث .

الموضع الثانى : قوله تعالى فى سورة الفرقان : ﴿ وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة ، كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا . ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا ﴾ .

وصدر آية سورة الاسراء ﴿ وقرأنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ﴾ يرشد إلى حكمة من حكم التفرقة وهى أن يتيسر على الناس حفظه وفهمه وتخليهم عن عقائدهم وأعمالهم الفاسدة بالتدريج وتخليهم بالعقائد والأعمال الصالحة بالتدريج أيضا وآخرها ﴿ ونزلناه تنزيلا ﴾ .

يرشدك إلى حكمة أخرى من حكم التفرقة ، وهى الدلالة على أن القرآن منزل من الله تعالى : وليس من قول البشر ، فإنه مع نزوله مفرقا حسب الحوادث ، وإعجازه بهذا الترتيب الزمنى كان الرسول ﷺ - يأمر الكتبة كلما نزلت آية أن يضعوها بأمر الله تعالى : بعد آية كذا ، من سورة كذا ، فكان ترتيبه فى التلاوة غير ترتيبه فى النزول وكان مع ذلك متناسبا أعظم التناسب ، بل معجزا للخلق جميعا أن يأتوا بمثله ، فهذا إعجاز متكرر مرتين .

أولاهما : بترتيبه فى التلاوة آيات وسورا طويلا وقصارا وأوساطا والآية الأولى من آيتى (الفرقان) : ﴿ وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة ، كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا ﴾ .

ترشد إلى حكمة ثالثة ، وهى تثبيت قلب الرسول ﷺ - بتجدد الوحي ، ونزول الملك وهو أمر يدعو إلى طمأنينة القلب وانسراح الصدر مع ما فى ذلك من تيسر الحفظ ، وتكرار انتصاره على الأعداء بتكرار عجزهم عن الاتيان بمثله كلما تحداهم .

والآية الكريمة الثانية من آيتى الفرقان : ﴿ ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا ﴾ ترشد إلى حكمة رابعة ، وهى مساقرة الحوادث بإجابة السائلين ، وبيان حكم الله تعالى : فى الوقائع المتجددة وتوجيه أنظار المسلمين إلى ما يقعون فيه من أخطاء أولا فأول ، وهتك أستار المنافقين والمشككين كلما هموا بأمر فيه كيد للإسلام والمسلمين .

وكان أول ما نزل هو وقوله تعالى : ﴿ اقرأ باسم ربك ﴾ كما تفيده السنة الصحيحة ، ففى البخارى عن عائشة قالت : (أول ما بدئ به رسول الله ﷺ - من الوحي الرؤيا الصادقة فى النوم فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حُبب إليه الخلاء فكان يخلو بغار حراء ، فيتحنث فيه وهو التعبد الليالى ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق وهو فى غار حراء ، فجاءه الملك فقال : اقرأ قال : ما أنا بقارىء . قال : فأخذنى فغطنى ، حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقال : اقرأ ، قلت ما أنا بقارىء . فأخذنى فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى فقال : اقرأ ، فقلت : ما أنا بقارىء فأخذنى فغطنى الثالثة ، ثم أرسلنى فقال : ﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ﴾ فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده ... الحديث (١) .

(١) انظر تفسير القرطبي - سورة العلق ج ٢٠ ص ١٠٨ وفى مسلم الرؤيا الصادقة كما جاء فى نهاية الحديث . وانظر فتح البارى شرح صحيح البخارى (كتاب بدء الوحي) ٣ - باب ج ١ ص ٢٣

لكن جاء في صحيح مسلم عن جابر : (أول ما نزل من القرآن سورة المدثر)^(١) وهذا محمول عند العلماء على ما بعد فترة الوحي التي تلت النزول الأول .

والروايات المختلفة الألفاظ للحديث عند البخارى وعند مسلم نفسه تؤيد ذلك ونورد هنا رواية البخارى لوضوحها واختصارها وهى عندهما معا من طريق ابن شهاب الزهري عن أبي سلمة ، عن جابر أن النبي ﷺ - قال : وهو يحدث عن فترة الوحي :

(بينما أنا أمشي ، إذا سمعت صوتا من السماء فرفعت بصري فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض ، فرعبت منه فرجعت فقلت : زملوني زملوني ، زاد مسلم فذروني ، فأنزل الله تعالى : ﴿ يا أيها المدثر قم فأنذر إلى قوله : والرجز فاهجر ﴾^(٢) فحمى الوحي وتتابع فبان بهذا أن الأولية الحقيقية هى التي في حديث عائشة ، وأن التي في حديث جابر إنما هى أولية إضافية ، لأن الحديث عن فترة الوحي لا يكون إلا بعد وحي سابق زيادة على أن مضمون الآيات المفتوح بها سورة المدثر وافتتاحها هذا ، مما يؤذن بسبق خطاب اقرأ على خطاب يا أيها المدثر .

وإذا كانت أول ما نزل هو قوله تعالى : ﴿ اقرأ باسم ربك ﴾ كما ثبت لدينا بالدليل القاطع ، فإن آخر ما نزل على الراجح والمعتمد هو قوله تعالى : ﴿ واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ﴾^(٣) . أخرجه النسائي وابن مردويه والطبري عن ابن عباس .

وهذا يرشدنا إلى أن ثمرة المعرفة هى التقوى التى تعنى حسن السلوك ومحاسبة النفس ، فالعلم فى الاسلام ليس غاية فى ذاته ولكنه وسيلة إلى تزكية النفس ، ونفع العباد حتى يكون الانسان خليقا بهذا المنصب الرفيع الذى أهل له منذ وجود أول فرد منه ، وهو خلافة الله فى أرضه ، المقتضية لاعلاء منار شريعته الكفيلة بسعادة الدنيا والآخرة .

وقد نزل القرآن بأرقى صور الوحي . إذ ورد فى القرآن أن الله تعالى يكلم الناس فى صور ثلاث قال تعالى :

﴿ وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه ما يشاء ﴾^(٤) .

فأول صورة لكلام الله - سبحانه وتعالى - للانسان ، هى الايحاء ، ومعناه الاشارة السريعة تلقى فى روع الانسان ، وفى هذه الحالة يتكلم الأنبياء وغيرهم من المتقين بنفث من روح القدس ، فيلقى فى نفس الموحى إليه فكرة تشع فى روعه بنور خاطف كأنه البرق ، ولا يكون الأيحاء فى هذه الصورة مصاغا بكلام ، بل يكون خطرة تخطر بالبال لا يسبقها تفكير وتجلى بها شكوك .

(١) انظر الحديث فى تفسير القرطبي - تفسير سورة المدثر ج ١٩ ص ٦٠

(٢) انظر فتح الباري شرح صحيح البخارى (كتاب بدء الوحي) ٣ - باب ج ١ ص ٢٧ رقم ٤

(٣) الحديث فى الدر المنثور فى التفسير المأثور لجلال الدين السيوطي ج ٢ ص ١١٦ قال : وأخرج أبو عبيد وعبيد بن حميد وابن مردويه والبيهقي فى الدلائل من طرق عن ابن عباس قال : آخر آية نزلت من القرآن على النبي ﷺ - ﴿ واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ﴾ .

(٤) سورة الشورى من الآية : ٥١

وثاني صورة لكلام الله - سبحانه وتعالى - للانسان : هي الكلام من وراء حجاب . وثالث صورة لكلام الله للانسان : الحالة التي يرسل الله - سبحانه وتعالى - بها كلاما منه يحمله ملك رسول إلى الموحى إليه .

وهذه الصورة هي أعلى مراتب التنزيل حيث اختص الله - سبحانه وتعالى - بها أنبياءه ورسله دون سواهم لتبليغ رسالاته إلى الناس ، وأما الصورتان الأوليان : الايحاء والكلام من وراء حجاب ، فتقل مرتبتهما عن الصورة الثالثة ويشترك فيهما الأنبياء ومن عداهم ممن سلكوا نهجهم من عباد الله المتقين . وأما الرسل فقد أمرهم الله بأن يبلغوا رسالاته إلى الناس وينذروهم بها ، وذلك لتجنيبهم مواطن الضلال ، وهدايتهم إلى الصراط المستقيم المفضي إلى نجاتهم وإسعادهم ، ورسالة هذه غايتها تكون أشد شأنا مما عداها ، ويكلم الله فيها رسوله بأعلى صور الكلام مرتبة ، فلا تكون فكرة عابرة ، ولا كلاما يسمعه الرسول وينطق به بنفث من روح القدس ، بل يرسل الله تعالى : كلاما يحمله روح القدس إلى الرسول ، ويسمى كلام الله هذا الوحي المتلو ، وبه نزل القرآن كله بدون استثناء . فالقرآن وحى متلو على النبي نزل به الروح الأمين على قلب النبي بكلام عربي مبين وبأرقى صور الوحي .

وهناك صور أخرى للوحي فقد ورد أن النبي كان يرى قبل نزول القرآن الرؤيا الصادقة (إن أول ما بدىء به من الوحي الرؤيا الصادقة فكان رسول الله لا يرى رؤيا ألا جاءت مثل فلق الصبح) . ويتبع هذه الصورة من الوحي ما ورد من أن رسول الله ﷺ - كان يسمع أصواتا خفية ، وهذه الصورة يعبر عنها بالوحي الخفى يوحى بها الله إلى الرسول .

وتختلف حالة الانسان أثناء تلقي الوحي باختلاف صورته . ففي القسمين الأولين تعترى الانسان حالة غير عادية ، سواء أتاه الايحاء في وقت النوم أو اليقظة ، ولا يحدث تغيير بين في الوحي إليه ، وأما في الصورة الثالثة : وهي التي اختص الله بها أنبياءه ورسله فتتغير حالة الموحى إليه تغييرا كبيرا ، فينتقل معها من عالم إلى آخر ، ولا يزال الموحى إليه يقظا تمام اليقظة غير مصروع ولا غائب عن وعيه ، شاعرا بوطأة الوحي ويستطيع من حوله من الناس أن يشاهدوا هذا التغير المحسوس أثناء الوحي ، عن عائشة - رضي الله عنها - أن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ - فقال : يا رسول الله كيف يأتيك الوحي ؟ فقال الرسول : أحيانا يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده علي ، فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال : وأحيانا يتمثل لي الملك رجلا فيكلمني فأعي ما يقول .

قالت عائشة : ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه ، وإن جبينه ليتفصد عرقا .

وبهاتين الحالتين : نزل القرآن على الرسول ﷺ - ، ففي كليتهما كان الرسول يرى جبريل ، وفي كليتهما كان جبريل ينقل كلام الله إليه فيفصم عنه فيعي ما يقول ، ولا فرق بين الحالتين سوى أنه في إحدهما كان جبريل يظهر على صورة رجل ينقل كلام الله بصوت هاديء لين ، وأما في الحالة الثانية

فكان الوحي يأتي كصلصلة الجرس - أى : أن جبريل كان ينقل كلام الله بصوت قوى شديد . وكان الوحي على هذا أشد وطأة على الرسول ﷺ - من الحالة السابقة ، وكان الحامل لكلام الله تعالى : فى كلتا الحالتين جبريل - عليه السلام - وكان الرسول الكريم وقت نزول الوحي ينتقل - كما ذكرنا من عالم إلى آخر ، وكان يبلغ منه الجهد مبلغا كبيرا حتى كان جبينه يتصبب عرقا فى أشد أيام البرد .

وسواء أظهر جبريل - عليه السلام - فى صورة رجل أم لا ، وسواء أبلغت الرسالة فى صوت هادئ لين أم فى صوت قوى شديد ، فإنه لا ريب فى أن الموحى به كان كلاما من الله يحمله جبريل إلى الرسول ﷺ - ونزل القرآن جميعه بهذه الصيغة منجما على الرسول بواسطة جبريل . وقد كان الرسول يتلقى التنزيل بصورتيه وهو جالس مع أصحابه أحيانا ، ويستخلص من ذلك أن الرسول كان يرى جبريل ويسمع منه التنزيل .

وكان القرآن ينزل بحسب الحاجة خمس آيات وعشر آيات وأكثر وأقل . وقد صح نزول عشر آيات فى قصة الافك جملة . وصح نزول عشر آيات من أول المؤمنون جملة ، وصح نزول جملة ﴿ غير أولى الضرر ﴾ وحدها وهى بعض آية .

والحكمة فى نزول الآيات قليلة العدد على هذا النحو هى فى أن يتمكن النبى ﷺ - من حفظها ومن تعليمها للناس ، ومن إملائها على كتابه ليدونها .

ولنزول القرآن حسب الحوادث الجارية شواهد كثيرة : وهى كل القرآن تقريبا . فمن ذلك مثلا ما اتصل بعمر بن الخطاب ، وكان هو سببا فى نزوله ، فقد روى عنه أنه قال : وافقت ربي فى ثلاث قلت : يا رسول الله لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى فنزلت الآية : ﴿ واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ﴾ .

وقلت : يا رسول الله إن نساءك يدخل عليهن البر والفاجر فلو أمرتهن أن يحتجبن ، فنزلت آية الحجاب ، واجتمع على رسول الله نساؤه فى الغيرة فقلت لهن : ﴿ عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن ﴾ فنزلت كذلك .^(١)

وفى رواية أخرى : أنه لما نزلت الآية : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ﴾ قال عمر بن الخطاب قلت أنا : فتبارك الله أحسن الخالقين ، فنزلت الآية كما نطق عمر : ﴿ فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ .

وفى طبقات ابن سعد عن الواقدي : حمل مصعب بن عمير اللواء يوم أحد فقطعت يده اليمنى ، فأخذ اللواء بيده اليسرى وهو يقول : (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم) .

ثم قطعت يده اليسرى فحنى على اللواء وضمه بعضديه إلى صدره وهو يقول : (وما محمد إلا رسول) ثم قتل فسقط اللواء .

قال محمد بن شر حبيل وما نزلت هذه الآية (وما محمد إلا رسول) يومئذ حتى نزلت بعد ذلك .
 وذكر البخارى من حديث زيد بن ثابت أن رسول الله أملى عليه : ﴿ لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون في سبيل الله ﴾ فجاء ابن أم مكتوم وقال : يا رسول الله لو أستطيع الجهاد لجاهدت وكان أعمى فأنزل الله ﴿ غير أولى الضرر ﴾ وكذلك قوله تعالى : (١) .
 ﴿ وإن خفتهم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء إن الله عليم حكيم ﴾ بعد قوله تعالى :
 ﴿ إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا ﴾ (٢) .

كانت الآيات التشريعية وهى آيات الأحكام تنزل على الرسول ﷺ - فى الغالب جوابا لحوادث فى المجتمع الاسلامى ، وتعرف هذه الحوادث بأسباب النزول ، وقد اعتنى بها جماعة من المفسرين وألفوا فيها كتباً وجعلوها أساساً لفهم القرآن ، وأحيانا كانت تنزل الآيات جوابا عن أسئلة يسألها بعض المؤمنين ، وقليلاً ما كانت تنزل الأحكام مبتدأة .

ولنضرب أمثلة لكل من هذين القسمين :

١ - أرسل رسول الله ﷺ - مرثدا الغنوى إلى مكة ليخرج منها قوما مسلمين مستضعفين ، فلما وصلها عرضت امرأة مشركة نفسها عليه ، وكانت ذات جمال ومال فأعرض عنها خوفاً من الله ، ثم أقبلت عليه تريد زواجه ، فقبل ووقف ذاك على إذن رسول الله ﷺ - فلما قدم المدينة عرض قضيته على رسول الله ﷺ - وطلب إجازة ذلك النكاح فنزل قوله تعالى : فى سورة البقرة :

﴿ ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمنن ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم أولئك يدعون إلى النار والله يدعو إلى الجنة والمغفرة بإذنه ويبين آياته للناس لعلهم يتذكرون ﴾ (٣) .

٢ - ورد فى القرآن أحكام كثيرة عقب أسئلة صدرت من المؤمنين أو من غيرهم من ذلك قوله تعالى : فى سورة البقرة :

﴿ يسألونك عن الخمر والميسر قل فيها إثم كبير ومنافع للناس وإثمها أكبر من نفعها ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون فى الدنيا والآخرة ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير وإن تخالطوهم فإخوانكم والله يعلم المفسد من المصلح ولو شاء الله لأعتكم إن الله عزيز حكيم ﴾ (٤) ﴿ ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء فى المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن فاذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين ﴾ (٥) .

﴿ يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد

(١) انظر الحديث فى القرطبى فى تفسير سورة النساء آية : ٩٥ ج ٥ ص ٣٤١ ، ٣٤٢

(٢) سورة التوبة الآية : ٢٨

(٣) سورة البقرة الآية : ٢٢١

(٤) سورة البقرة الآيتان : ٢١٩ ، ٢٢٠

(٥) سورة البقرة الآية : ٢٢٢

الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل ﴿٤﴾ .
وفي سورة النساء : ﴿يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة﴾ ﴿٥﴾ .
إلى غير ذلك من الآيات .

أما الأحكام التي أنزلت بدون حادث أو سؤال فقليلة ، وقبلما نرى حكما لم يذكر له المفسرون حادثا أنزل الحكم مرتبا عليه ولسعة زمن نزول القرآن واختلاف أماكنه نسبت سور القرآن وآياته إلى أزمانها وأماكنها ، فكان من أشهر ما أطلق على الآيات أنها (مكية) أو (مدنية) : نسبة إلى مكة وهي المهد الأول للدعوة الإسلامية ، وإلى المدينة وهي مستقر هذه الدعوة . كما قد ينسب منه شيء إلى غير هاتين المدينتين هي أشهر نسبة وإليها وجهت العناية ببيان المكي والمدني من آي القرآن ، وتعيينه وترتيبه ووصفه وما إلى ذلك .

وقد ذكر السيوطي اصطلاحات يمكن التفريق فيها بين المكي والمدني ، قال : اعلم أن للناس في المكي والمدني اصطلاحات ثلاثة أشهرها :

١ - أن المكي ما نزل قبل الهجرة والمدني ما نزل بعدها سواء نزل بمكة أم بالمدينة عام الفتح أو عام حجة الوداع ، أم بسفر من الأسفار .

أخرج عثمان بن سعيد الرازي بسنده إلى يحيى بن سدم قال :

ما نزل بمكة وما نزل في طريق المدينة قبل أن يبلغ النبي ﷺ - المدينة فهو مكي ، وما نزل على النبي ﷺ - في أسفاره بعدما قدم المدينة فهو من المدني وهذا أثر لطيف يؤخذ منه أن ما نزل في سفر الهجرة مكي اصطلاحا .

٢ - أن المكي ما نزل بمكة ولو بعد الهجرة ، والمدني ما نزل بالمدينة وعلى هذا تثبت الوسطة . فما نزل بالأسفار لا يطلق عليه مكي ولا مدني ، وقد أخرج الطبراني أن رسول الله قال : أنزل القرآن في ثلاثة أمكنة : مكة والمدينة والشام : (وقيل في تفسير الشام : إنها بيت المقدس أو تبوك وهذا أرجح) . قال السيوطي : ويدخل في مكة ضواحيها كالمنازل بمنا وعرفات والحديبية . وفي المدينة ضواحيها كالمنازل ببدر وأحد ولسع .

٣ - أن المكي ما وقع خطابا لأهل مكة ، والمدني ما وقع خطابا لأهل المدينة . قال القاضي أبو بكر في الانتصار : إنما يرجع في معرفة المكي والمدني لحفظ الصحابة والتابعين . ولم يرد عن النبي ﷺ - في ذلك قول : لأنه لم يؤمر به ولم يجعل الله علم ذلك من فرائض الأمة وإن وجب في بعضه على أهل العلم معرفة تاريخ النسخ والمنسوخ فقد يعرف ذلك بغير نص الرسول .

وأخرج البخاري عن ابن مسعود أنه قال : والذي لا إله غيره ما نزلت آية من كتاب الله تعالى إلا وأنا أعلم فيمن نزلت وأين نزلت ﴿٣﴾ .

(١) سورة البقرة من الآية : ٢١٧

(٢) سورة النساء من الآية : ١٧٦

(٣) انظر تفسير ابن كثير في مقدمته ج ١ ص ١٢ فقد ذكر الحديث وقال المحقق : رواه ابن جرير الطبري ، عن مسروق ، عن عبد الله بن مسعود .

وقال أيوب سأل رجل عكرمة عن آية من القرآن ، فقال : نزلت في سفح ذلك الجبل وأشار إلى سلع .

وهناك ضوابط أحصاها القدماء تميز المكي من المدني ، وهذه الضوابط هي من قبيل الاحصاء ، إذ أنها بنيت على ما جاء في مصحف عثمان بن عفان .

أولا : إن آيات المكي على الجملة قصار بخلاف الآيات المدنية وشاهد ذلك أن السور تزيد قليلا على ٣٠ / ١١ من القرآن وعدد آياتها ١٤٥٦ أى : أنها تزيد قليلا على ربع مجموع آياته . ومن الأمثلة القريبة على ذلك جزء قد سمع كله مدني وعدد آياته ١٣٧ وجزء تبارك مكي وعدد آياته ٤٣١ ، وجزء عم مكي وعدد آياته ٥٧٠ .

ومن ذلك الأنفال والشعراء كلتاها نصف جزء من القرآن ، لكن الأولى مدنية عدد آياتها ٧٥ والثانية المكية عدد آياتها ٢٢٧ .

وهذا المميز أغلبى ، فقد يوجد في بعض الآيات المكية طول وأكثره في السور الطوال .

ثانيا : - خطاب الجمهور في الآيات المدنية يغلب أن يكون بقوله تعالى :

﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ وقلما يرد بقوله ﴿ يا أيها الناس ﴾ وأما خطابه في الآيات المكية

فبالعكس ، ولم نر في السور المكية ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ .

أما في السور المدنية فورد يا أيها الناس سبع مرات .

١ - يا أيها الناس اعبدوا ربكم .

٢ - يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالا طيبا . كلتاها (بالبقرة) .

٣ - يا أيها الناس اتقوا ربكم .

٤ - إن يشأ يذهبكم أيها الناس .

٥ - يا أيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم .

٦ - يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم (بالنساء) .

٧ - يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى (بالحجرات) .

ثالثا : آيات المكي ليس فيها شيء من التشريع التفصيلي ، بل معظم ما جاء فيها يرجع إلى

المقصد الأول من الدين وهو توحيد الله سبحانه وتعالى : وإقامة البراهين على وجوده والتحذير من

عذابه ، ووصف يوم الدين وأهواله ونعيمه ، والحث على مكارم الأخلاق التي بعث رسول الله ﷺ -

ليكملها ثم ضرب الأمثال بما أصاب الأمم الماضية حينما خالفت ما دعاها إليه أنبياؤها .

أما التشريع التفصيلي فمعظمه وارد في الآيات المدنية .

ولمعرفة أماكن نزول السور والآيات أهمية كبيرة ، لأنها تعين على معرفة أسباب النزول وتواريخ

الحوادث التي عرض لها القرآن وبذا تكون آياته أكثر وضوحا وقربا من الأذهان . وقد بدأت عناية

الأقدمين المبكرة بالتأليف في أسباب نزول القرآن ، وجعلوها نوعا من أنواع الدراسات القرآنية التي

سموا مجموعتها (علوم القرآن) واشتملت كتب التفسير على هذه الأسباب عند تفسير آياتها .

كما وضعت الكتب المفردة في تلك الأسباب ، مثل كتاب (الباب المنقول ، في أسباب النزول) للسيوطي وغير ذلك من كتب في أسباب النزول .

وقالوا : (لا يحل القول في أسباب نزول الكتاب إلا بالرواية والسماع ممن شاهدوا التنزيل ، ووقفوا على الأسباب ، وبحثوا عن عللها .

كما قدروا ما قد يقع من وهم الراوى للأسباب ، وأشاروا إلى بعض مسببات الوهم ، (كأن تتلى الآية عند الحادثة فيهم الراوى فيقول : فنزل عند ذلك كذا) وبهذه الدقة يجب النظر في أسباب النزول فهما للقرآن المجيد .

قوله تعالى : ﴿ وإنه لفي زبر الأولين . أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بنى إسرائيل . ولو نزلناه على بعض الأعجمين . فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين ﴾^(١) .

يقول تعالى : وإن ذكر هذا القرآن والتنويه به لموجود في كتب الأولين الماثورة عن أنبيائهم الذين بشروا به في قديم الدهر وحديثه ، كما أخذ الله عليهم الميثاق بذلك حتى قام آخرهم خطيباً في ملكه بالبشارة بأحمد ﴿ وإذ قال عيسى ابن مريم يا بنى إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدى اسمه أحمد ﴾^(٢) والزبر ههنا هي الكتب وهي جمع زبور وكذلك الزبور وهو كتاب داود ، وقال الله تعالى :

﴿ وكل شيء فعلوه في الزبر ﴾^(٣) .

أى مكتوب عليهم في صحف الملائكة ثم قال تعالى : ﴿ أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بنى إسرائيل ﴾^(٤) أى أو ليس مكفيهم من الشاهد الصادق على ذلك أن العلماء من بنى إسرائيل يجدون ذكر هذا القرآن في كتبهم التى يدرسونها والمراد العدول فهم الذين يعترفون بما فى أيديهم من صفة محمد ﷺ - ومبعثه وأمته كما أخبر بذلك من آمن . منهم ، كعبد الله بن سلام وسلمان الفارسي عمن أدركه منهم ، ومن شاكلهم .

قال الله تعالى : ﴿ الذين يتبعون الرسول النبى الأمى ﴾^(٥) ثم قال تعالى : مخبراً عن شدة كفر قريش وعنادهم لهذا القرآن أنه لو نزل على رجل من الأعاجم ممن لا يدرى من العربية كلمة ، وأنزل عليه هذا الكتاب ببيانه وفصاحته لايؤمنون به ، ولهذا قال : ﴿ ولو نزلناه على بعض الأعجمين فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين ﴾^(٦) كما أخبر عنهم فى الآية الأخرى ﴿ ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا إنما سكرت أبصارنا ﴾^(٧) وقال تعالى : ﴿ ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموت ﴾^(٨) وقال تعالى : ﴿ إن الذين حققت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ﴾^(٩) .

انتهى بمشيئة الله تعالى : المجلد الثالث والخمسون من كتابنا فى رحاب التفسير ويليه إن شاء الله المجلد الرابع والخمسون مبدوءاً بقوله تعالى : ﴿ كذلك سلكناه فى قلوب المجرمين ﴾ .

(١) سورة الشعراء الآية : ١٩٦

(٢) سورة الصف آية : ٦

(٣) سورة القمر آية : ٥٢

(٤) سورة الشعراء آية : ١٩٧

(٥) سورة الاعراف آية : ١٥٧

(٦) سورة الشعراء الآية : ١٩٨

(٧) سورة الحجر آية : ١٤

(٨) سورة الأنعام آية : ١١١

(٩) سورة يونس آية : ٩٦

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : ﴿كذلك سلكناه في قلوب المجرمين . لا يؤمنون به حتى يروا العذاب الأليم .
فيأتيهم بغتة وهم لا يشعرون . فيقولوا هل نحن منظرون . أفبعذابنا يستعجلون . أفأريت إن
متعناهم سنين . ثم جاءهم ما كانوا يوعدون . ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون . وما أهلكنا من قرية
إلا لها منذرون . ذكرى وما كنا ظالمين ﴾ .

يخبر - سبحانه وتعالى - انه أدخل التكذيب والكفر والعناد في قلوب هؤلاء الجاحدين جزاء ما
وقفوا من الحق موقف الإنكار . والمجرمون في كل زمان ومكان يقفون للحق بالمرصاد ، قال - تعالى -
﴿ إن الذين حققت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون . ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم ﴾^(١)
وقال - جلت قدرته - ﴿ ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا إنما سكرت
أبصارنا بل نحن قوم مسحورون ﴾^(٢)

وقال - تبارك اسمه - : ﴿ وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر . وكذبوا واتبعوا
أهواءهم وكل أمر مستقر ﴾^(٣)

ثم يقول - سبحانه - : ﴿ لا يؤمنون به حتى يروا العذاب الأليم ﴾
أى : لا يصدقون بالحق ولا يوقنون به ، وستظل حالهم هكذا إلى أن يروا العذاب الأليم ، حيث
﴿ لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا ﴾^(٤)
قال - تعالى - : ﴿ فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين . فلم يك
ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنت الله التي قد خلت في عباده وخسر هنالك الكافرون ﴾^(٥)
وقال - تعالى - : ﴿ حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا
من المسلمين ﴾ الآية ﴿ وقد عصيت قبل وكنت من الكافرين . فاليوم ننجيك بيدك لتكون لمن خلفك
آية وإن كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون ﴾^(٦)

إن هؤلاء الناس لا تقبل منهم معذرة ، قال - تعالى - : ﴿ ويوم يقوم الأشهاد . يوم لا ينفع
الظالمين معذرتهم وهم اللعنة وهم سوء الدار ﴾^(٧)

يقول - تعالى - عن العذاب النازل بهم ﴿ فيأتيهم بغتة وهم لا يشعرون ﴾ وكفى ببغته العذاب
من عذاب !! وكفى بنعمة الأمن للمؤمنين من نعمة ، كيف حال هؤلاء عند نزول العذاب بهم بغتة ؟
قال - تعالى - : ﴿ فيقولوا هل نحن منظرون ﴾ أى : أخر هذا العذاب عنا ، كما قال - سبحانه - :
﴿ وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع
الرسل أولم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال . وسكتتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين

(٥) الآيتان ٨٤ ، ٨٥ من سورة غافر .

(٦) الآيات ٩٠ ، ٩١ ، ٩٢ من سورة يونس .

(٧) من الآية ٥١ ، والآية ٥٢ من سورة غافر .

(١) الآيتان ٩٦ ، ٩٧ من سورة يونس .

(٢) الآيتان ١٤ ، ١٥ من سورة الحجر .

(٣) الآيتان ٢ ، ٣ من سورة القمر .

(٤) من الآية ١٥٨ من سورة الأنعام .

لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال ﴿١﴾

قوله - تعالى - : ﴿ أفبعذابنا يستعجلون ﴾

هذا تهديد ووعيد تنخلع من هوله القلوب وتنفضر من شدته الأفئدة ، لقد كانوا يستعجلون العذاب استهزاء ويقولون : ﴿ اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾ (٢) ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ﴿٣﴾

وقال - سبحانه - ﴿ ويدع الانسان بالشكر دعاءه بالخير وكان الانسان عجولا ﴾ (٤) وقال - تبارك

اسمه - : ﴿ ويستعجلونك بالسبيئة قبل الحسنة وقد خلت من قبلهم المثلثات ﴾ (٥)

وقال - تبارك وتعالى - : ﴿ ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير لقضى إليهم أجلهم فنذر

الذين لا يرجون لقاءنا في طغيانهم يعمهون ﴾ (٦)

وقال أصدق القائلين : ﴿ ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب وليأتينهم

بغثة وهم لا يشعرون . يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين . يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ويقول : ﴿ ذوقوا ما كنتم تعملون ﴾ (٧)

وقال أصدق القائلين : ﴿ سأل سائل بعذاب واقع . للكافرين ليس له دافع . من الله ذى

المعارج ﴾ (٨)

قوله - تعالى - : ﴿ أفرأيت أن متعناهم سنين . ثم جاءهم ما كانوا يوعدون . ما أغنى عنهم ما

كانوا يمتعون ﴾ .

أى : لو أخرناهم وأنظرناهم وأملينا لهم برهة من الدهر وحيناً من الزمان - وإن طال - ثم جاءهم

أمر الله أى شىء يجدى عنهم ما كانوا فيه من النعيم ؟ ﴿ كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو

ضحاه ﴾ (٩) وقال - تعالى - : ﴿ يود أحدهم لو يعمر ألف سنة وما هو بمزحزحه من العذاب أن

يعمر ﴾ (١٠) وقال تعالى : ﴿ وما يغنى عنه ماله إذا تردى ﴾ (١١) ولهذا قال - تعالى - : ﴿ ما أغنى عنهم ما

كانوا يمتعون ﴾

وفى الحديث الصحيح : (يؤتى بالكافر فيغمس فى النار غمسة ، ثم يقال له : هل رأيت خيراً

قط ؟ هل رأيت نعيماً قط ؟ فيقول : لا والله يارب : ويؤتى بأشد الناس بؤساً كان فى الدنيا فيصبغ فى

(١) الآية ٤٤ من سورة ابراهيم

(٢) من الآية ٣٢ من سورة الانفال .

(٣) الآية ٢٥ من سورة الملك

(٤) الآية ١١ من سورة الاسراء

(٥) من الآية ٦ من سورة الرعد .

(٦) الآية ١١ من سورة يونس .

(٧) الآيات ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥ من سورة العنكبوت .

(٨) الآيات ١ ، ٢ ، ٣ من سورة المعارج .

(٩) الآية ٤٦ من سورة النازعات

(١٠) الآية ٩٦ من سورة البقرة .

(١١) الآية رقم ١١ من سورة الليل .

الجنة صبغة ثم يقال له : هل رأيت بؤسا قط ؟ فيقول لا والله يارب (١) أى : ما كأن شيئا كان ، ولهذا كان عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - يتمثل بهذا البيت .

كأنك لم تؤثر من الدهر ليلة إذا أنت أدركت الذى أنت تطلب
قال - سبحانه - ﴿ وأما من أوتى كتابه بشماله فيقول ياليتنى لم أوت كتابه . ولم أدر ما حسابه . ياليتها كانت القاضية : ما أغنى عني ماليه . هلك عني سلطانيه ﴾ (٢)

قوله - تعالى - : ﴿ وما أهلكنا من قرية إلا لها منذرون . ذكرى وما كنا ظالمين ﴾ ونحوه قوله - تعالى - : ﴿ وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون ﴾ (٣)

وقال - سبحانه - ﴿ من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ﴾ (٤)

وقال - سبحانه - : ﴿ وما كان ربك مهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون ﴾ (٥)
وقال : ﴿ ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون ﴾ (٦)
قوله - جل شأنه - : ﴿ وما تنزلت به الشياطين . وما ينبغى لهم وما يستطيعون إنهم عن السمع

لمعزلون ﴾

هذا إخبار منه - تبارك وتعالى - عن حفظ القرآن من كل شيء خلافة ، كما أن في ذلك إخبارا عن سلامة القرآن وعصمته من كل خطأ ، وفي ذلك تحقيق لوعده الله في قوله : ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ (٧) وفي قوله : ﴿ وما تنزلت به الشياطين ﴾ وذلك لثلاثة وجوه

أولها : قوله - تعالى - : ﴿ وما ينبغى لهم ﴾ أن يأتوا بمثل هذا القرآن لانه معجز ولأنهم أهل فساد ، والقرآن نور ، وهدى ، والشياطين ظلمات وضلال .

والوجه الثانى : قوله - تعالى - : ﴿ وما يستطيعون ﴾ ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهرا ﴾ (٨)

والوجه الثالث : في قوله - تعالى - : ﴿ إنهم عن السمع لمعزولون ﴾ وهذا الوجه قد بينه - عز وجل - في قوله حكاية عن الجن : ﴿ وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا . وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا . وأنا لا ندرى أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا ﴾ (٩) وقال - سبحانه - ﴿ ولقد جعلنا في السماء بروجا وزيناها للناظرين . وحفظناها من كل شيطان رجيم . إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين ﴾ (١٠) وقال - تبارك

(١) انظر مسند أحمد (مسند انس) ج ٣

ص ٢٥٣ مع تقديم وتأخير ، واختلاف في بعض اللفاظ .

(٢) الايات من ٢٥ - ٢٩ من سورة الحاقة

(٣) الآية ٥٩ من سورة القصص .

(٤) الآية ١٥ من سورة الاسراء .

(٥) الآية ١١٧ من سورة هود .

(٦) الآية ١٣١ من سورة الانعام .

(٧) الآية ٩ من سورة الحجر .

(٨) الآية ٨٨ من سورة الاسراء .

(٩) الايات ٨ ، ٩ ، ١٠ من سورة الجن .

(١٠) الايات ١٦ ، ١٧ ، ١٨ من سورة الحجر .

اسمه - : ﴿ ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين واعتدنا لهم عذاب السعير ﴾ (١)

فسبحان من حفظ كتابه ووحىه فقال : ﴿ عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا . ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عددا ﴾ (٢)

وقوله - تعالى - : ﴿ فلا تدع مع الله إلها آخر فتكون من المعذبين . وأنذر عشيرتك الأقربين . واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين فإن عصوك فقل إني بريء مما تعملون . وتوكل على العزيز الرحيم . الذى يراك حين تقوم . وتقلبك فى الساجدين . إنه هو السميع العليم ﴾ . قوله - تعالى - : ﴿ فلا تدع مع الله إلها آخر فتكون من المعذبين ﴾

هذا نهى عن الشرك بكل معانيه ، والنهى عن الشئ
أمر بضده ، فهو أمر بالتوحيد ونهى عن الشرك ، قال تعالى : ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم . إن الدين عند الله الإسلام ﴾ (٣)
وقال - سبحانه - : ﴿ سبحانه وتعالى عما يشركون ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذورا أنه لا إله إلا أنا فاتقون ﴾ (٤) وقال : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾ (٥) وقال - صلوات ربى وسلامه عليه - : (أفضل ما قلته أنا والنبيون قبلى لا إله إلا الله) (٦)

أما عاقبة المشركين فكما قال - تعالى - بعد فاء السببية الواقعة بعد النهى ﴿ فتكون من المعذبين ﴾ والعذاب هنا خالد دائم ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيدا ﴾ (٧)

وقال - سبحانه - ﴿ إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين فى نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية ﴾ (٨)

وقال - عز من قائل - : ﴿ ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق ﴾ (٩)

(١) الآية ٥ من سورة الملك .

(٢) الآيات ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ من سورة الجن .

(٣) الأيتان ١٨ ، ١٩ من سورة آل عمران .

(٤) من الآية ١ ، والآية ٢ من سورة النحل .

(٥) الآية ٢٥ من سورة الأنبياء .

(٦) انظر تنوير الخواالك شرح على موطأ مالك (كتاب الحج) باب : جامع الحج ج ١ ص ٣٦٩ فقد رواه عن طلحة بن عبيد الله بن كريبه ان رسول الله ﷺ قال : « أفضل الدعاء دعاء يوم عرفة ، وأفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلى : لا إله إلا الله وحده لا شريك له » .

(٧) الآية ١١٦ من سورة النساء .

(٨) الآية ٦ من سورة البينة .

(٩) من الآية ٣١ من سورة الحج .

قوله - تعالى - : ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ أى : الأدينين إليه ، وأنه لا يخلص أحدا منهم إلا إيمانه بربه - عز وجل - وأمره ان يلين جانبه لمن اتبعه من عباد الله المؤمنين ، ومن عصاه من خلق الله كائنا من كان فليتبرأ منه ، ولهذا قال - تعالى - : ﴿ فإن عصوك فقل إني برىء مما تعملون ﴾ وهذه النذارة الخاصة لاتنأى العامة ، بل هى جزء من أجزائها ، كما قال - تعالى - ﴿ لتنذر قوما ما أنذر آبائهم فهم غافلون ﴾^(١) وقال - تعالى - : ﴿ لتنذر أم القرى ومن حولها ﴾^(٢) وقال - تعالى - : ﴿ وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ﴾^(٣)

وقال - تعالى - : ﴿ لتبشر به المتقين وتنذر به قوما لدا ﴾^(٤)
وقال - تعالى - : ﴿ لأنذركم به ومن بلغ ﴾^(٥)

كما قال - تعالى - : ﴿ ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده ﴾ وفى صحيح مسلم : (والذى نفسى بيده لا يسمع بى أحد من هذه الأمة يهودى ولا نصرانى ثم^(٦) يؤمن بى إلا دخل النار)^(٧)
وقد وردت أحاديث كثيرة فى نزول هذه الآية الكريمة فلنذكرها : - قال الامام أحمد - رحمه الله - بسنده عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : لما نزل الله - عز وجل - : ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ أتى النبى ﷺ الصفا فصعد عليه ثم نادى : (يا صباحاه) فاجتمع الناس إليه بين رجل يجىء إليه وبين رجل يبعث رسوله ، فقال رسول الله ﷺ : - (يا بنى عبد المطلب ، يا بنى فهر ، يا بنى لؤى : أرايتم لو أخبرتكم ان خيلا بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم صدقتموني ؟) قالوا : نعم . قال : (فإن نذير لكم بين يدي عذاب شديد) فقال أبو لهب : تبالك سائر اليوم ، أما دعوتنا إلا لهذا وأنزل الله : ﴿ تبت يدا أبا لهب وتب ﴾^(٨)

قال الامام أحمد بسنده عن عائشة قالت : لما نزلت ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ قام رسول الله ﷺ فقال : (يا فاطمة ابنة محمد ، يا صفية ابنة عبد المطلب ، يا بنى عبد المطلب ، لا أملك لكم من الله شيئا سلونى من مالى ما شئتم)^(٩)

قال الامام أحمد بسنده عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿ وإنذر عشيرتك الأقربين ﴾ دعا رسول الله ﷺ - قريشا فعم وخص ، فقال : (يامعشر قريش : أنقذوا

(١) الآية ٦ من سورة يس .

(٢) الآية ٧ من سورة الشورى .

(٣) الآية ٥١ من سورة الأنعام .

(٤) الآية ٩٧ من سورة مريم .

(٥) الآية ١٩ من سورة الأنعام .

(٦) الآية ١٧ من سورة هود .

(٧) الحديث رواه الامام مسلم فى صحيحه فى (كتاب الايمان) باب وجوب الايمان برسالة النبى ﷺ ج ٢ ص ١٨٦ بشرح النووى : عن أبى هريرة ، ولفظه : « الذى نفس محمد بيده لا يسمع بى احد من هذه الأمة : يهودى ولا نصرانى ثم يموت ولم يؤمن بالذى ارسلت به إلا كان من أصحاب النار .

(٨) الآية ١ من سورة المسد .

وانظر الحديث فى مسند الامام أحمد (مسند عبدالله بن عباس رضى الله عنهما) ج ١ ص ٢٨١

(٩) الحديث فى مسند الامام أحمد (مسند عائشة - رضى الله عنها -) ج ٦ ص ١٨٧

أنفسكم من النار ، يامعشر بنى كعب أنقذوا أنفسكم من النار ، يامعشر بنى هاشم أنقذوا أنفسكم من النار ، يامعشر بنى عبد المطلب : أنقذوا أنفسكم من النار ، يافاطمة بنت محمد أنقذى نفسك من النار ، فإنى - والله - لا أملك لكم من الله شيئاً ، إلا أن لكم رحماً سألنى ببلاها (١)

قال الامام أحمد بسنده عن زهير بن عمرو قال : لما نزلت ﴿ وأندر عشيرتك الأقربين ﴾ صعد رسول الله : روضة من جبل على أعلاها حجر ، فجعل ينادى : (يا بنى عبد المناف إنما أنا نذير ، إنما مثلى ومثلكم كرجل رأى العدو فذهب يربأ أهله رجاء أن يسبقوه ، فجعل ينادى ويهتف : يا صباحاه) (٢)

قال الامام أحمد بسنده عن علي - رضى الله عنه - قال : لما نزلت هذه الآية ﴿ وأندر عشيرتك الأقربين ﴾ جمع النبى ﷺ من أهل بيته ، فاجتمع ثلاثون فأكلوا وشربوا ، قال : قال لهم : (من يضمن عني ديني ومواعيدي ويكون معي في الجنة ويكون خليفتي في أهلي ؟) فقال رجل - لم يسمه شريك - يا رسول الله أنت كنت بحري من يقوم بهذا ، قال : ثم قال الآخر - ثلاثاً - قال : فعرض ذلك على أهل بيته فقال علي : أنا (٣)

قال الامام أحمد بسنده عن علي - رضى الله عنه - قال : جمع رسول الله : أودعا رسول الله : بنى عبد المطلب وهم رهط وكلهم يأكل الجذعة ويشرب الفرق فصنع لهم مدا من طعام فأكلوا حتى شبعوا وبقي الطعام كما هو كأنه لم يمس ، ثم دعا بعس فشربوا حتى رووا وبقي الشراب كأنه لم يمس أو لم يشرب ، وقال : (يا بنى عبد المطلب : انى بعثت إليكم خاصة وإلى الناس عامة ، فقد رأيتم من هذه الآية ما رأيتم فأيكم يبايعني على ان يكون أخى وصاحبى ؟) قال : فلم يقم إليه أحد ، قال : فقامت إليه وكنت أصغر القوم قال : فقال : (اجلس) ثم قال - ثلاث مرات - كل ذلك أقوم إليه فيقول لى : (اجلس) حتى كان في الثالثة ضرب يده على يدي (٤)

(طريق أخرى أغرب وأبسط من هذا السياق بزيادات أخرى) :

روى الحافظ البيهقي بسنده عن علي بن أبي طالب - رضى الله عنه - قال : لما نزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ : ﴿ وأندر عشيرتك الأقربين واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين ﴾ قال رسول الله ﷺ : (عرفت أنى إن بادرت بها قومي رأيت منهم ما أكره ، فصمت ، فجاءني جبريل - عليه السلام - فقال : يا محمد إنك إن لم تفعل ما أمرت به عذبتك ربك) .

قال علي - رضى الله عنه - فدعاني فقال : (يا على إن الله - تعالى - قد أمرنى أنذر عشيرتك الأقربين ، فعرفت انى إن بادرتهم بذلك رأيت منهم ما أكره ، فصمت عن ذلك ، ثم جاءني جبريل

(١) اورد الامام أحمد هذا الحديث في مسنده (مسند أبي هريرة) ج ٢ ص ٣٦٠

(٢) انظر مسند احمد (قبيصة بن مخارق - رضى الله عنه) ج ٥ ص ٦٠ من رواية قبيصة بن مخارق ، وزهير بن عمرو : قالا : لما نزلت : وأندر عشيرتك الأقربين . . الحديث

(٣) انظر كنز العمال ج ١٣ ص ١٢٨ ، ١٢٩ رقم ٣٦٤٠٨ فقد ورد الحديث بلفظه عن علي من رواية الامام احمد .

وانظر مسند الامام احمد (مسند علي بن أبي طالب - رضى الله عنه) ح ١ ص ١١١

(٤) انظر مسند الامام احمد (مسند علي بن أبي طالب - رضى الله عنه) ح ١ ص ١٥٩

فقال : يا محمد إن لم تفعل ما أمرت به عذبك ربك (١) فاصنع لنا ياعلى شاة على صاع من طعام ، وأعد لنا عس لبن ، ثم اجمع لي بني عبد المطلب) ففعلت ، فاجتمعوا اليه وهم يومئذ أربعون رجلا يزيدون رجلا أو ينقصون رجلا فيهم أعمامه ابو طالب وحزمة والعباس وابو لهب الكافر الخبيث ، فقدمت إليهم تلك الجفنة فاخذ منها رسول الله ﷺ جذبة فشققها بأسنانه ثم رمى بها في نواحيها وقال : (كلوا بسم الله فأكل القوم حتى نهلوا عنه ما يرى إلا آثار أصابعهم . والله إن كان الرجل منهم ليأكل مثلها ، ثم قال رسول الله - ﷺ - (اسقهم ياعلى) فجئت بذلك القعب فشربوا منه حتى نهلوا جميعا ، وأيم الله إن كان الرجل منهم ليشرب مثله ، فلما أراد رسول الله ﷺ أن يكلمهم بدره ابو لهب إلى الكلام فقال : لشد ما سحركم صاحبكم . فتفرقوا ولم يكلمهم رسول الله ﷺ فلما كان الغد قال رسول الله ﷺ (ياعلى عد لنا بمثل الذي كنت صنعت بالأمس من الطعام والشراب فإن هذا الرجل قد بدرني إلى ما سمعت قبل أن أكلم القوم . . ففعلت ، ثم جمعتهم له ، فصنع رسول الله ﷺ كما صنع بالأمس فأكلوا حتى نهلوا عنه ، وأيم الله إن كان الرجل منهم ليأكل مثلها ، ثم قال رسول الله ﷺ : (اسقهم ياعلى) فجئت بذلك القعب فشربوا منه حتى نهلوا جميعا ، وأيم الله إن كان الرجل منهم ليشرب مثله ، فلما أراد رسول الله ﷺ

أن يكلمهم بدره ابو لهب بالكلام فقال : لشد ما سحركم صاحبكم . فتفرقوا ولم يكلمهم رسول الله : فلما كان الغد قال رسول الله : : - (ياعلى عد لنا بمثل الذي كنت صنعت لنا بالأمس من الطعام والشراب فإن هذا الرجل قد بدرني إلى ما سمعت قبل أن أكلم القوم) ففعلت ، ثم جمعتهم له فصنع رسول الله : كما صنع بالأمس فأكلوا حتى نهلوا ، ثم سقيتهم من ذلك القعب حتى نهلوا عنه ، وأيم الله إن كان الرجل منهم ليأكل مثلها ويشرب مثلها ، ثم قال رسول الله : : (يا بني عبد المطلب : إني والله ما أعلم شابا من العرب جاء قومه بأفضل مما جئتكم به إني قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة) وقد رواه ابن جرير بسنده عن علي بن أبي طالب فذكر مثله وزاد بعد قوله : (إني جئتكم بخير الدنيا والآخرة) : ﴿ وقد أمرني الله أن أدعوكم إليه ، فأياكم يؤازرنى على هذا الأمر على أن يكون أخى وكذا وكذا ؟ ﴾ قال : فأحجم القوم عنها جميعا ، وقلت وإني لأحدثهم سنا ، وأدمعهم عينا ، وأعظمهم بطنا ، وأخمشهم ساقا : أنا يا بني الله أكون وزيرك عليه ، فأخذ برقبتي ثم قال : (إن هذا أخى وكذا وكذا فاسمعوا له وأطيعوا) ثم قام القوم يضحكون ويقولون لأبي طالب : قد أمرك أن تسمع لابنك وتطيع . تفرد بهذا السياق عبد الغفار بن القاسم أبي مريم ، وهو متروك كذاب شيعى اتهمه على بن المدينى وغيره بوضع الحديث وضعفه الأئمة رحمهم الله .

طريق أخرى : قال ابن أبي حاتم :

عن علي رضي الله عنه لما نزلت هذه الآية : ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ قال لي رسول الله ﷺ : (اصنع لي رجل شاة بصاع من طعام وإناء لبنا) قال : ففعلت ، ثم قال لي : (ادع بني هاشم)

(١) انظر السنن الكبرى للبيهقي (كتاب السير) باب مبتدأ الفرض على النبي ﷺ . . . الخ ج ٩ ص ٧ فقد ذكر الحديث الى قوله : « عذبك ربك » ثم قال البيهقي : ثم ذكر قصة في جمعهم وإنذاره إياهم . وانظر تفسير ابن كثير ج ٣ ص ١٧٩ في تفسير سورة الشعراء ، فقد ذكر الحديث وقصته .

قال فدعوتهم لإنهم يومئذ اربعون غير رجل أو اربعون ورجل ، قال : وفيهم عشرة كلهم يأكل الجذعة بادامها قال : فلما اتوا بالقصعة أخذ رسول الله ﷺ من ذروتها ثم قال : (كلوا) فأكلوا حتى شبعوا ، وهى على هيئتها لم يزدردوا منها إلا اليسير ، قال : ثم أتيتهم بالأناء فشربوا حتى رووا ، قال : وفضل فضل . فلما فرغوا أراد رسول الله ﷺ أن يتكلم فبدروه الكلام ، فقالوا : ما رأينا كاليوم فى السحر . فسكت رسول الله ﷺ ثم قال : (اصنع لى رجل شاة بصاع من طعام) فصنعت ، قال : فدعاهم فلما أكلوا وشربوا قال : فبدروه ، فقالوا مثل مقالته الأولى ، فسكت رسول الله ﷺ ثم قال : (اصنع لى رجل شاة بصاع من طعام) فصنعت ، قال : فجمعتهم ، فلما أكلوا وشربوا بدرهم رسول الله ﷺ فقال : (أيكم يقضى عني ديني ويكون خليفتي في أهلي ؟) قال : فسكتوا وسكت العباس خشية أن يحيط ذلك بماله ، قال : وسكت انا لسن العباس ، ثم قال مرة اخرى فسكت العباس ، فلما رأيت ذلك قلت : أنا يارسول الله ، قال : وإنى يومئذ لأسوأهم هيئة ، وإنى لأعمش العينين ضخم البطن خمس الساقين .

فهذه طرق متعددة لهذا الحديث عن على رضى الله عنه .

ومعنى سؤاله ﷺ لأعمامه وأولادهم أن يقضوا عنه دينه ويخلفوه فى أهله : يعنى ان قتل فى سبيل الله . كأنه خشى إذا قام بأعباء الانذار أن يقتل ، فلما أنزل الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾^(١) فعند ذلك أمن ، وكان أولا يحرس حتى نزلت هذه الآية : ﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ ولم يكن أحد فى بنى هاشم إذ ذاك أشد إيمانا وإيقانا وتصديقا لرسول الله ﷺ من على رضى الله عنه ولهذا بدرهم إلى التزام ما طلب منهم رسول الله ﷺ ثم كان بعد هذا - والله أعلم - :

دعاؤه الناس جهرة على الصفا وإنذاره لبطون قريش

عموما وخصوصا حتى سمي من سمي من أعمامه وعماته وبناته لينبه بالأدنى على الأعلى ، أى : إنما أنا نذير والله يهذى من يشاء إلى صراط مستقيم .

وقد روى الحافظ ابن عساكر عن عبد الواحد الدمشقي قال : رأيت أبا الدرداء - رضى الله عنه - يحدث الناس ويفتيهم وولده إلى جنبه ، وأهل بيته جلوس فى جانب المسجد يتحدثون ، فقليل له : ما بال الناس يرغبون فيما عندك من العلم وأهل بيتك جلوس لاهين ؟ فقال : لأنى سمعت رسول الله يقول : (أزهد الناس فى الدنيا الأنبياء وأشدهم عليهم الأقربون)^(٢)

وذلك فيما أنزل الله عز وجل قال تعالى ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾

قوله - تعالى - ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴾ أى : فى جميع أمورك فإنه مؤيدك وحافظك وناصرك ومظفرك ومعلى كلمتك .

(١) الآية ٦٧ من سورة المائدة .

(٢) انظر صحيح البخارى طبعة الشعب (كتاب التوحيد) باب قراءة الفاجر والمنافق ج ص ١٩٨ فقد روى هذا الحديث عن عائشة رضى الله عنها

وقوله - تعالى - ﴿الذى يراك حين تقوم﴾ أى : هو معتن بك كما قال - تعالى - (واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا)^(١) قال ابن عباس : (الذى يراك حين تقوم) وقال الحسن : (الذى يراك حين تقوم) يعنى الى الصلاة وقال عكرمة : يرى قيامه وركوعه وسجوده إذا صليت وحدك وقال الضحاك : (الذى يراك حين تقوم) أى : من فراشك أو مجلسك وقال قتادة : (الذى يراك) قائما وجالسا وعلى حالاتك .

وقوله - تعالى - (وتقلبك فى الساجدين) قال قتادة : (الذى يراك حين تقوم وتقلبك فى الساجدين) قال : فى الصلاة يراك وحدك ، ويراك فى الجمع وهذا قول عكرمة وعطاء الخراساني والحسن البصري .

وقال مجاهد : كان رسول الله ﷺ يرى من خلفه كما يرى من أمامه ، ويشهد لهذا ما صح فى الحديث : (سوا صفوفكم فإنى أراكم من وراء ظهري)^(٢)

وروى البزار وابن ابى حاتم من طريقين عن ابن عباس أنه قال فى هذه الآية : نعنى تقلبه من صلب نبي إلى صلب نبي حتى أخرجه نبيا وقوله - تعالى - : ﴿إنه هو السميع العليم﴾ أى السميع لأقوال عباده ، العليم بحركاتهم وسكناتهم ، كما قال - تعالى - : ﴿وما تكون فى شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودا إذ تفيضون فيه﴾^(٣)

قوله - تعالى - ﴿هل أنبئكم على من تنزل الشياطين . تنزل على كل أفك أثيم . يلقون السمع وأكثرهم كاذبون . والشعراء يتبعهم الغاؤون . ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون . وأنهم يقولون ما لا يفعلون . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ظلموا وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون)

يقول - تعالى - مخاطبا لمن زعم من المشركين ان ما جاء به الرسول ﷺ ليس بحق وأنه شئ افتعله من تلقاء نفسه ، أو أنه أتاه به رثى من الجن ، فنزه الله - سبحانه وتعالى - جناب رسوله عن قولهم وافترائهم ، ونبه أن ما جاء به إنما هو من عند الله ، وأنه تنزيله ووحيه نزل به ملك كريم أمين عظيم وأنه ليس من قبل الشياطين ، فإنهم ليس لهم رغبة فى مثل هذا القرآن العظيم .

وإنما ينزلون على من يشاكلهم ويشابههم من الكهان الكذبة ، ولهذا قال الله - تعالى - ﴿هل أنبئكم﴾ أى : أخبركم ﴿على من تنزل الشياطين . تنزل على كل أفك أثيم﴾ أى : كذوب فى قوله ، وهو الأفك ﴿أثيم﴾ وهو الفاجر فى أفعاله ، فهذا هو الذى تنزل عليه الشياطين من الكهان وما جرى مجراهم من الكذبة الفسقة ، فإن الشياطين أيضا كذبة فسقة ﴿يلقون السمع﴾ أى : يسترقون السمع من السماء فيسمعون الكلمة من علم الغيب فيزيدون معها مائة كذبة ، ثم يلقونها إلى أوليائهم من

(١) انظر صحيح البخارى ط / الشعب كتاب التفسير - تفسير سورة سبأ ج ٦ ص ١٥٢ ، ١٥٣ فقد ورد هذا الحديث عن ابى هريرة . وانظر ابن كثير ج ٦ ص ١٨٣ .

(٢) انظر صحيح البخارى (كتاب بدء الخلق) باب صفة إبليس وجنوده ج ٤ ص ١٥٢ فقد رواه عن عائشة - رضى الله عنها - وانظر تفسير ابن كثير ج ٦ ص ١٨٣ .

(٣) من الآية ٦١ من سورة يونس

الانس فيحدثون بها ، فيصدقهم الناس في كل ما قالوه بسبب صدقهم في تلك الكلمة التي سمعت من السماء ، كما صح بذلك الحديث كما رواه البخارى عن عروة بن الزبير يقول : قالت عائشة - رضى الله عنها - : سأل ناس النبی ﷺ عن الكهان فقال : ﴿ إنيهم ليسوا بشيء ﴾ قالوا : يارسول الله فإنهم يحدثون بالشئ يكون حقا . فقال النبي ﷺ : (تلك الكلمة من الحق يخطفها الجن فيقرقها في أذن وليه كقرقرة الدجاج ، فيخلطون معها أكثر من مائة كذبة)^(١)

وروى البخارى أيضا عن أبي هريرة قال : إن النبي - ﷺ - قال : (إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانا لقوله ، كأنها سلسلة على صفوان ، فإذا فزع عن قلوبهم قالوا : ماذا قال ربكم ؟ قالوا : الحق وهو العلى الكبير ، فيسمعها مسترقو السمع ، ومسترقو السمع هكذا بعضهم فوق بعض - وصفه سفيان بيده فحرفها وبدد بين أصابعه - فيسمع الكلمة فيلقونها إلى من تحته ، ثم يلقيها الآخر إلى من تحته حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن ، فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها ، وربما ألقاها قبل أن يدركه فيكذب معها مائة كذبة ، فيقال : أليس قد قال لنا كذا وكذا : كذا وكذا ؟ فيصدق بتلك الكلمة التي سمعت من السماء)^(٢) تفرد به البخارى .

وروى مسلم من حديث الزهري عن علي بن الحسين عن ابن عباس عن رجال من الانصار قريبا من هذا .

وقال البخارى بسنده عن عائشة عن النبي ﷺ انه قال : في الأرض ، إن الملائكة تحدث في العنان والعنان (الغمام) بالأمر فتسمع الشياطين الكلمة فتقرها في أذن الكاهن كما تقر القارورة فيزيدون معها مائة كذبة ﴿^(٣)

قوله - تعالى - ﴿ والشعراء يتبعهم الغاؤون ﴾^(٣) قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : يعنى الكفار يتبعهم ضلال الانس والجن . وكذا قال مجاهد - رحمه الله -

وقال عكرمة : كان الشعراء يتهاجيان فنتصر لهذا فثام من الناس ولهذا فثام من الناس ، فأنزل الله - تعالى - : ﴿ والشعراء يتبعهم الغاؤون ﴾ وقال الامام أحمد بسنده عن أبي سعيد قال : بينما نحن نسير مع رسول الله ﷺ بالعرج إذ عرض شاعر ينشد ، فقال النبي ﷺ (خذوا الشيطان - أو امسكوا الشيطان - لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحا خيرا له من أن يمتلىء شعرا)^(٤) وقوله - تعالى - : ﴿ ألم تر أنهم في كل واد يهيمون ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : في

(١) انظر صحيح البخارى طبعة الشعب (كتاب التوحيد) باب قراءة الفاجر والمنافق ج ٩ ص ١٩٨ فقد روى هذا الحديث عن عائشة - رضى الله عنها -

(٢) انظر صحيح البخارى ط / الشعب كتاب التفسير - تفسير سورة سبأ ج ٦ ص ١٥٢ ، ١٥٣ فقد ورد هذا الحديث عن أبي هريرة . وانظر ابن كثير ج ٦ ص ١٨٣

(٣) انظر صحيح البخارى (كتاب بدء الخلق) باب صفة إبليس وجنوده ج ٤ ص ١٥٢ فقد رواه عن عائشة - رضى الله عنها - وانظر تفسير ابن كثير ج ٦ ص ١٨٣

الحديث في مسند الامام أحمد (مسند أبي سعيد الخدرى - رضى الله عنه -) ج ٣ ص ٨ و ص ٤١ وانظر تفسير ابن كثير ج ٦ ص ١٨٤ .

كل لغوي خوضون . وقال الضحاك عن ابن عباس : في كل فن من الكلام . وكذا قال مجاهد وغيره .
وقال الحسن البصري : قد - والله - رأينا أوديتهم التي يخوضون فيها ، مرة في شتمة فلان ، ومرة في
مديحة فلان .

وقال قتادة : الشاعر يمدح قوماً بباطل ، ويذم قوماً بباطل . قوله - تعالى - : ﴿ وأنهم يقولون
مألاً يفعلون ﴾ قال العوفي عن ابن عباس : كان رجلاً على عهد رسول الله : أحدهما من الأنصار
والآخر من قوم آخرين ، وإنهما تهاجيا فكان مع كل واحد منهما غواة من قومه ، وهم السفهاء ، فقال
الله - تعالى - : ﴿ والشعراء يتبعهم الغاؤون . ألم تر أنهم في كل واد يهيمون . وأنهم يقولون ما لا
يفعلون ﴾ وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : أكثر قوهم يكذبون فيه وهذا الذي قاله ابن عباس
- رضي الله عنه - هو الواقع في نفس الأمر ، فإن الشعراء يتبجحون بأقوال وأفعال لم تصدر منهم ولا
عنهم فيتكثرون بما ليس لهم ، ولهذا اختلف العلماء - رحمهم الله - فيما إذا اعترف الشاعر في شعره بما
يوجب حداً هل يقام عليه بهذا الاعتراف أم لا ؟ لأنهم يقولون ما لا يفعلون ؟ على قولين : وقد ذكر
محمد بن إسحق ومحمد بن سعد في (الطبقات) والزيبر بن بكار في كتاب (الفكاهة) أن أمير المؤمنين
عمر ابن الخطاب رضي الله عنه استعمل النعمان بن عدى فضلة على ميسان من أرض البصرة وكان
يقول الشعر ، فقال :

الاهل أت الحسناء ان خليلها	بميسان يسقى في زجاج وحتتم
إذا	ورقاصة تحنو على كل مبسم
ت غنتي دهاقين قرية	ولا تسقى بالأصغر المتثلّم
فإن كنت ندماني فبالأكبر اسقني	تنادمنا بالجوسق المتهدم
لعل أمير المؤمنين يسوؤه	

فلما بلغ ذلك أمير المؤمنين عمر بن الخطاب

- رضي الله عنه - قال : أي - والله - إنه ليسوؤني ذلك ، ومن لقيه فليخبره أني قد عزلته . وكتب إليه
عمر : (بسم الله الرحمن الرحيم . حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم . غافر الذنب وقابل التوب
شديد العقاب ذى الطول لا إله إلا هو إليه المصير) أما بعد : فقد بلغني قولك :

لعل أمير المؤمنين يسوؤه تنادمنا بالجوسق المتهدم

وايم الله انه ليسوؤني ، وقد عزلتك ، فلما قدم على عمر بكته بهذا الشعر ، فقال : والله يا أمير
المؤمنين ما شربتها قط ، وما ذاك الشعر إلا شيء طفح على لسان . فقال عمر : أظن ذلك ، ولكن
- والله - لا تعمل لي عملاً ابداً وقد قلت ما قلت . فلم يذكر انه حده على الشراب ، وقد ضمنه
شعره ؛ لأنهم يقولون ما لا يفعلون ، ولكنه ذمه عمر - رضي الله عنه - ولأمره على ذلك وعزله به ، ولهذا
جاء في الحديث : (لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحاً خيراً له من أن يمتلئ شعراً) والمراد من هذا أن
الرسول - ﷺ - الذي أنزل عليه هذا القرآن ليس بكاهن ولا بشاعر ؛ لأن حاله مناف لحالهم من وجوه

ظاهرة ، كما قال - تعالى - ﴿ وما علمناه الشعر وما ينبغي له ان هو إلا ذكر وقرآن مبين ﴾ ^(١) وقال - تعالى - : ﴿ إنه لقول رسول كريم . وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون . ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون . تنزيل من رب العالمين ﴾ ^(٢)

وهكذا قال ههنا : ﴿ إنه لتنزيل رب العالمين - نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين ﴾ إلى أن قال : ﴿ وما تنزلت به الشياطين . وما ينبغي لهم وما يستطيعون إنهم عن السمع لمعزولون ﴾ إلى أن قال : ﴿ هل أنبئكم على من تنزل الشياطين ؟ تنزل على كل أفاك أثيم . يلقون السمع وأكثرهم كاذبون . والشعراء يتبعهم الغاؤون . ألم تر أنهم في كل واد يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون ﴾

وقوله : ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ . قال محمد بن إسحق عن يزيد بن عبد الله بن قسيط عن أبي الحسن سالم البراد بن عبد الله - مولى تحيم الدارى . قال : لما نزلت ﴿ والشعراء يتبعهم الغاؤون ﴾ جاء حسان بن ثابت ، وعبد الله بن رواحة ، وكعب بن مالك إلى رسول الله - ﷺ - وهم يكون قالوا : قد علم الله حين أنزل هذه الآية أنا شعراء . فتلا النبي ﷺ : ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ قال : ﴿ أنتم ﴾ ، ﴿ وذكر الله كثيرا ﴾ قال : ﴿ أنتم ﴾ ، ﴿ وانتصروا من بعد ما ظلموا ﴾ قال : ﴿ أنتم ﴾ رواه ابن أبي حاتم وابن جرير .

وقد روى ابن أبي حاتم أيضا عن أبي سعيد الأشج ، عن أبي أسامة ، عن الوليد بن أبي كثير ، عن يزيد بن عبد الله ، عن أبي الحسن - مولى بنى نوفل - أن حسان بن ثابت ، وعبد الله بن رواحة أتيا رسول الله ﷺ حين أنزلت هذه الآية : ﴿ والشعراء يتبعهم الغاؤون ﴾ يبيكان ، فقال رسول الله ﷺ وهو يقرؤها عليهما : ﴿ والشعراء يتبعهم الغاؤون ﴾ حتى بلغ : ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ قال : ﴿ أنتم ﴾ وقال أيضا : عن هشام بن عروة ، عن عروة قال : لما نزلت : ﴿ والشعراء يتبعهم الغاؤون ﴾ إلى قوله : ﴿ وأنهم يقولون ما لا يفعلون ﴾ قال عبد الله بن رواحة : يا رسول الله : قد علم الله أنى منهم . فأنزل الله - تعالى - ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ وهكذا قال ابن عباس وعكرمة ومجاهد وقتادة وزيد بن اسلم وغير واحد : إن هذا استثناء مما تقدم ، ولا شك أنه استثناء ، ولكن هذه السورة مكية ، فكيف يكون سبب نزول هذه الآيات شعراء الانصار ؟ وفي ذلك نظر ، ولم يتقدم إلا مراسلات لا يعتمد عليها . والله اعلم .

ولكن هذا الاستثناء يدخل فيه شعراء الانصار وغيرهم ، حتى يدخل فيه من كان متلبسا من شعراء الجاهلية ، بدم الاسلام

وأهله ثم تاب وأناب ورجع وأقلع وعمل صالحا وذكر الله كثيرا في مقابلة ما تقدم من الكلام السيء ، فإن الحسنات يذهبن السيئات ، وامتدح الاسلام وأهله في مقابلة ما كان يذمه .
كما قال عبد الله بن الزبير حين أسلم :

(١) الآية ٦٩ من سورة يس .

(٢) الآيات : ٤٠ - ٤٣ من سورة الحاقة .

يارسول المليك إن لسانى راتق ما فتقت إذ أنابور
إذا أجارى الشيطان فى سنن الغى ومن مال ميله مشبور

وكذلك أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب كان من أشد الناس عداوة للنبي ﷺ وهو ابن عمه وأكثرهم له هجوا ، فلما أسلم لم يكن أحد أحب إليه من رسول الله ﷺ وكان يمدح رسول الله ﷺ بعد ما كان يهجو ، ويتولاه بعد ما كان قد عاداه .

وهكذا روى مسلم فى صحيحه عن ابن عباس أن أبا سفيان ضمير بن حرب لما أسلم قال : يارسول الله : ثلاث اعطينهن قال : (نعم) قال : معاوية تجعله كاتباً بين يديك ، قال : (نعم) قال : وتؤمرنى حتى أقاتل الكفار كما كنت أقاتل المسلمين ، قال : (نعم) وذكر الثالثة ، وهكذا قال - تعالى - ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً ﴾

قيل معناه : ذكروا الله كثيراً فى كلامهم ، وقيل : فى شعرهم ، وكلاهما صحيح مكفر لما سبق . وقوله - تعالى - : ﴿ وانتصروا من بعد ما ظلموا ﴾ قال ابن عباس : يردون على الكفار الذين كانوا يهجون به المؤمنين . وكذا قال مجاهد وقتادة وغير واحد . وهذا لما ثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لحسان : (اهجم - أو قال : هاجهم - وجبريل معك)

وقال الامام أحمد بن كعب بن مالك عن أبيه أنه قال للنبي ﷺ ان الله - عز وجل - قد أنزل فى الشعراء ما أنزل . فقال رسول الله ﷺ : ﴿ إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه ، والذي نفسى بيده لكان ما ترمونهم به نضح النبل ﴾^(١)

وقوله - تعالى - : ﴿ وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون ﴾

كقوله - تعالى - : ﴿ يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ﴾^(٢)

وفى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : ﴿ إياكم والظلم ، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ﴾^(٣) قال قتادة بن دعامة فى قوله - تعالى - ﴿ وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون ﴾ يعنى من الشعراء وغيرهم . وقال ابو داود الطيالسى : حدثنا إياس بن أبى تميمة قال : حضرت الحسن ومر عليه بجنازة نصرانى فقال : ﴿ وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون ﴾ وقال عبد الله ابن أبى رباح عن صفوان ابن محرز أنه كان إذا قرأ هذه الآية بكى حتى أقول : قد اندق قضيب زوره : ﴿ وسيعلم الذين ظلموا ﴾

(١) انظر صحيح مسلم .. كتاب الفضائل .. باب من فضائل أبى سفيان بن حرب فقد ذكر الحديث من رواية ابن عباس ج ٤ ص ١٩٤٥ رقم ١٦٨ / ٢٥٠١ وذكر الثالثة التى لم تذكر فى روايتنا وقال : عندى احسن العرب وأجمله : أم حبيبة بنت أبى سفيان أزوجكها ..

(٢) الآية ٥٢ من سورة غافر .

(٣) انظر صحيح مسلم (كتاب البر والصلة والآداب) باب تحريم الظلم ج ٤ ص ١٩٩٦ رقم ٥٦ / ٢٥٧٨ من رواية جابر ابن عبد الله ، بلفظ : « اتقوا الظلم .. الحديث » ورقم ٥٧ / ٢٥٧٩ من رواية ابن عمر ، بلفظ : « إن الظلم ظلمات يوم القيامة »

وانظر مسند الامام احمد (مسند عبد الله بن عمر رضى الله عنهما -) ج ٢ ص ١٠٦ فقد اورده بلفظ : « ياأيها الناس إياكم والظلم .. الحديث » وانظر تفسير ابن كثير ج ٦ ص ١٨٧ .

أى منقلب ينقلبون ﴿

وقال ابن وهب : أخبرني ابن سريج الاسكندراني عن بعض المشيخة انهم كانوا بأرض الروم فبينما هم ليلة على نار يشتون عليها أو يصطلون إذا بركان قد اقبلوا ، فقاموا إليهم فإذا فضالة بن عبيد فيهم فأنزلوه فجلس معهم - قال - وصاحب لنا قائم يصلي حتى مر بهذه الآية : ﴿ وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون ﴾ قال فضالة بن عبيد : هؤلاء الذين يخربون البيت . وقيل : المراد بهم أهل مكة . وقيل : الذين ظلموا من المشركين . والصحيح أن هذه الآية عامة في كل ظالم - كما قال ابن أبي حاتم : - ذكر عن يحيى بن زكريا بن يحيى الواسطي حدثني الهيثم بن محفوظ ابو سعد النهدي حدثنا محمد بن عبد الرحمن بن المحبر ، حدثنا هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن عائشة - رضى الله عنها - قالت : كتب ابى في وصية سطرين : بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما وصى به أبو بكر بن أبى قحافة عند خروجه من الدنيا حين يؤمن الكافر وينتهى الفاجر ويصدق الكاذب : إني استخلفت عليكم عمر بن الخطاب فإن يعدل فذاك ظنى به ورجائى فيه ، وإن يجر ويبدل فلا أعلم الغيب ﴾ وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون ﴿

سورة النمل

مقدمة

● قال صاحب البصائر : السورة مكية بالاتفاق ، عدد آياتها خمس وتسعون في عد الحجاز ، وأربع في عد الشام ، والبصرة ، وثلاث في عد الكوفة ، كلماتها ألف ومائة وتسع وأربعون . وحروفها أربعة آلاف وسبعمائة وتسع وتسعون . والآيات المختلف فيها ﴿ أولوا بأس شديد ﴾ ، ﴿ من قوارير ﴾ مجموع فواصل آياتها (من ؟) وسميت سورة النمل ، لاشتغالها على مناظرة النمل سليمان في قوله : ﴿ قالت غملة يأبىها النمل ادخلوا ﴾

* مقصود السورة ومعظم ما تضمنته : بيان شرف القرآن ، وما منه نصيب أهل الايمان ، والشكاية من أهل الشرك والعصيان ، وإشارة إلى ذكر الوادى المقدس ، وموسى بن عمران ، وذكر خبر داود وسليمان ، وفضل الله - تعالى - عليهما بتعليمهما منطق الطير وسائر الحيوان ، وقصة النمل ، وذكر الهدد ، خبر بلقيس ، ورسالة الهدد إليها من سليمان ، ومشاورتها أركان الدولة ، وبيان أثر الملوك إذا نزلوا في مكان ، وإهداء بلقيس إلى سليمان ، وتهديده لها ، ودعوة آصف لاحتضار تحت بلقيس في أسرع زمان ، وتغيير حال العرش لتجربتها ، وإسلامها على يد سليمان ، وحديث صالح ومكر قومه في حقه ، وطرف من حديث قوم لوط أولى الطغيان ، والبرهان في الحقائق ، والأشجار ، والبحار والأنهار ، وإجابة الحق دعاء أهل التضرع ، والابتهاال إلى الرحمن ، وهداية الله الخلق في ظلمات أكبر ، والبحر ، وإطلاع الحق - تعالى - على أسرار الغيب ، وتسلية الرسول ﷺ في إعراض المنكرين عن قبول القرآن ، وقبول الايمان ، وخروج الدابة ، وظهور علامة القيامة ، والإخبار عن حال الجبال في ذلك اليوم ، وبيان جزاء المجرمين ، وإعراض الرسول عن المشركين ، وإقباله على القرآن الكريم ،

وأمر الله له بالحمد على إظهار الحجة ، أعنى القرآن في قوله : ﴿ وقل الحمد لله سيريكم آياته ﴾

المتشابهات

قوله : ﴿ فلما جاءها نودى ﴾ ، وفى القصص وطه ﴿ فلما أتاها ﴾ . . قال فى هذه السورة : ﴿ سأتيكم منها بخبر أو آتيكم بشهاب قبس ﴾ فكرر ﴿ آتيكم ﴾ فاستثقل الجمع بينهما وبين ﴿ فلما أتاها ﴾ فعدل إلى قوله : ﴿ فلما جاءها ﴾ بعد أن كانا بمعنى واحد . وأما فى السورتين فلم يكن إلا ﴿ سأتيكم ﴾ ﴿ فلما أتاها ﴾ .

قوله : ﴿ وألق عصاك ﴾ وفى القصص : ﴿ وأن ألق عصاك ﴾ ، لأن فى هذه السورة ﴿ نودى ان بورك من فى النار ومن حولها وسبحان الله رب العالمين ياموسى إنه أنا الله العزيز الحكيم . وألق عصاك ﴾ فحيل بينهما بهذه الجملة فاستغنى عن إعادة (أن) وفى القصص : ﴿ أن ياموسى إني أنا الله رب العالمين . وأن ألق عصاك ﴾ فلما يكن بينهما جملة أخرى عطف بها على الأول ، فحسن إدخال (أن)

قوله : ﴿ لا تخف ﴾ ، وفى القصص : ﴿ أقبل ولا تخف ﴾ خصت هذه السورة بقوله : ﴿ لا تخف ﴾ لأنه بنى على ذكر الخوف كلام يليق به ، وهو قوله : ﴿ إني لا يخاف لدى المرسلون ﴾ ، وفى القصص اقتصر على قوله : ﴿ لا تخف ﴾ ولم يبين عليه كلام ، فزيد قبله ﴿ أقبل ﴾ ليكون فى مقابلة ﴿ مدبرا ﴾ أى : أقبل آمنا غير مدبر ، ولا تخف فخصت هذه السورة به .

قوله : ﴿ وأدخل يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء ﴾ وفى القصص : ﴿ اسلك يدك فى جيبك ﴾ خصت هذه السورة بـ ﴿ ادخل ﴾ لأنه أبلغ من قوله : ﴿ اسلك يدك ﴾ لأن ﴿ اسلك ﴾ يأتى لازما ، ومتعديا ، و ﴿ ادخل ﴾ متعد لا غير ، وكان فى هذه السورة (فى تسع آيات) أى : مع تسع آيات مرسلا إلى فرعون وخصت القصص بقوله : ﴿ اسلك ﴾ موافقة لقوله : ﴿ اضمم ﴾ ثم قال : ﴿ فذائك برهانا من ربك ﴾ [وكان] دون الأول فخص بالأدون من اللفظين .

قوله : ﴿ إلى فرعون وقومه إنهم كانوا قوما فاسقين ﴾ ، وفى القصص : ﴿ إلى فرعون وملئه ﴾ لأن الملأ أشرف القوم ، وكانوا فى هذه السورة موصوفين بما وصفهم الله به من قوله : ﴿ فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين وجحدوا بها ﴾ . . الآية ، فلم يسمهم ملأ بل سماهم قوما . وفى القصص لم يكونوا موصوفين بتلك الصفات ، فسماهم ملأ ، وعقبه : ﴿ وقال فرعون ياأيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى ﴾ . وما يتعلق بقصة موسى سوى هذه الكلمات قد سبق . .

قوله : ﴿ وأنجينا الذين آمنوا ﴾ وفى حم ﴿ ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾ و ﴿ نجينا ﴾ و ﴿ أنجيناه ﴾ بمعنى واحد . وخصت هذه السورة بـ ﴿ أنجيناه ﴾ موافقة لما بعده وهو : ﴿ فأنجيناه وأهله ﴾ وبعده : ﴿ وأمطرنا ﴾ ، ﴿ وأنزلنا ﴾ كله على لفظ أفعل . وخص حم بـ ﴿ نجينا ﴾ موافقة لما قبله : ﴿ وزينا ﴾ وبعده ﴿ وقيضنا لهم ﴾ وكله على لفظ فعل

قوله : ﴿ وَأَنْزَلَ لَكُمْ ﴾ سبق
 قوله : ﴿ أَلَيْهَ مَعَ اللَّهِ ﴾ في خمس آيات ، وختم الأولى بقوله : ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾ ثم
 قال : ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ثم قال : ﴿ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ ثم قال : ﴿ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا
 يُشْرِكُونَ ﴾

ثم ﴿ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أى : عدلوا ، وأول الذنوب العدول عن الحق ، ثم لم
 يعلموا ، ولو علموا لما عدلوا ثم لم يذكروا فيعلموا بالنظر والاستدلال فأشركوا من غير حجة وبرهان .
 قل لهم يا محمد : هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين .

قوله : ﴿ وَيَوْمَ يَنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزَعَ مِنْ فِي السَّمَاوَاتِ ﴾
 وفي الزمر ﴿ فَصَعَقَ ﴾ : خصت هذه السورة بقوله : ﴿ فَزَع ﴾ موافقة لقوله : ﴿ وَهُمْ مِنْ فَزَعِ
 يَوْمِئِذٍ آمَنُونَ ﴾ ، وخصت الزمر بقوله : ﴿ فَصَعَقَ ﴾ ، موافقة لقوله : ﴿ إِنَّهُمْ مِتُّونَ ﴾ لان
 معناه : مات .

مناسبتها ما قبلها من وجوه !

- (١) إنها كالتممة لها ، إذ جاء فيها زيادة على ما تقدم من قصص الأنبياء قصص داود وسليمان .
- (٢) إن فيها تفصيلا وبسطا لبعض القصص السالفة كقصص لوط وموسى - عليهما السلام - .
- (٣) إن كليتهما قد اشتملتا على نعت القرآن وأنه منزل من عند الله .
- (٤) تسلية رسوله ﷺ على ما يلقيه من أذى قومه وعنتهم ، وإصرارهم على الكفر به والاعراض
 عنه .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

طَسَ تِلْكَ ءَايَاتُ الْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ ﴿١﴾ هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ
 يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ
 بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي
 الْآخِرَةِ هُمْ الْآخَسُونَ ﴿٥﴾ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْءَانَ مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾

تفسير المفردات

﴿ طس ﴾ : بعض حروف الهجاء ، وفيها إشارة إلى إعجاز القرآن الكريم الذي أنزله الله بتلك
 الحروف العربية .

﴿ يعمهون ﴾ : يترددون متحيرين

﴿ من لدن ﴾ : أى : من عند .

﴿ حكيم ﴾ : منزّه عن العبث

التفسير

قوله - تعالى - ﴿ تلك آيات القرآن وكتاب مبين ﴾ القرآن المجيد معجزة محمد بن عبد الله الخالدة ، وهو كتاب فصلت آياته من لدن حكيم خبير ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، ليكون للعالمين نذيرا وبشيرا ، والقرآن دستور دولة ، وقانون حكم ، وإصلاح مجتمع ... اخرج به محمد رسول - الهدى - الناس من الظلمات إلى النور ، ومن الجاهلية إلى البر والتقوى ، اخرجهم من الضلال إلى الهدى ، ومن البغى إلى الرشd ، ومن الجهل إلى المعرفة ...

﴿ هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين ﴾^(١)

قال العلامة (فينى) : إن القرآن ليس بكتاب دينى فقط ، بل كتاب علم وآداب ، ونجد فيه بيان الحياة السياسية والاجتماعية حتى أنه يرشد الانسان إلى وظائفه اليومية ، والأحكام السياسية التى إن لم توجد فى القرآن توجد فى السنة ، والتى لا تكون واضحة لا بالقرآن ولا بالسنة توجد فى الفقه الواسع الذى هو علم الحقوق .

لم يستطع الذين صاولوا الدعوة الاسلامية أول عهد الاسلام ان يجحدوا إعجازه أو ينكروا بلاغته مع استمرار العناد فى نفوسهم ، واستفحال المكابرة فى صدورهم وذلك لان القرآن المجيد فى طريقة عرضه للهداية والاعجاز على الخلق قد حكم الناس إلى عقولهم ، وفتح عيونهم إلى الكون ، وما فى الكون من سماء وأرض ، وحيوان ونبات ، وخصائص وظواهر ، ونواميس وسنن ، وكان فى طريقة عرضه معجزا ، لأن حديثه عن تلك الكونيات كان حديث العليم بأسرارها ، الخبير بدقائقها ، المحيط بعلومها ومعارفها ، على حين ان هذا الذى جاء بالقرآن رجل أمى ، نشأ فى أمة أمية لا صلة لها بتلك العلوم وتدوينها ، ولا إلمام لها بكتبتها ومباحثها ، بل إن بعض تلك العلوم لم تنشأ إلا بعد عهد النبوة بقرون وأجيال ، فأنى يكون لرجل أمى كمحمد ﷺ ذلك السجل الجامع لتلك العلوم والمعارف كلها إن لم يكن تلقاه من لدن حكى عليم ؟ .

قال الله تعالى - مقررًا لهذا الاعجاز : ﴿ وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبتطلون . بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون ﴾^(٢) وقد توفر المسلمون على دراسة القرآن واستخراج كنوز هداياته ، يستعينون على هذه الثقافة العليا

(١) الآية ٢ من سورة الجمعة

(٢) الآيتان ٤٨ ، ٤٩ من سورة العنكبوت

بمواهبهم الفطرية ، وملكاتهم السليمة من ناحية ، وبما يشرحه الرسول الكريم ويبينه لهم بأقواله وأعماله ،

كما قال الله - تعالى - ﴿ وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون ﴾^(١) كان همهم الأول هو القرآن المجيد يحفظونه ويفهمونه ، ثم يعملون بتعاليمه بدقة ، ويهتدون بهديه . وبهذا وحده صفت أرواحهم ، وطهرت نفوسهم ، وعظمت آثارهم ، لأن الروح الانساني هو أقوى شيء في هذا الوجود ، فمتى صفا وتهذب ، وحسن توجيهه وتأدب أتى بالعجب العجائب . وقد أتت الأمة العربية بالعجب في الهداية والارشاد وإنقاذ العالم وإصلاح البشر ، وكتب الله لهم النصر العزيز ، حتى على أقوى الدول المعادية لدعوة الحق والعدل في ذلك العهد : دولة الفرس في الشرق ودولة الرومان في الغرب ، ثم دانت لهم الدنيا ففتحوا بعض دول أوروبا ، وأقاموا فيها دولة عربية ، كانت النواة الناجحة في نهضة أوروبا المعاصرة . . . تلك هي دولة الأندلس .

قال السير ريتشارد وود في تقرير رسمي طبع ونشر عام ١٨٧٨ .
(إن القرآن يتضمن أحكام الدين وفي نفس الوقت يشمل الأمور المدنية والأصول السياسية) .
وإن كثيرا من مؤلفي الافرنج يزعمون أن المسلمين لا يتسنى لهم التقدم والارتقاء في معارج الحضارة ماداموا مقيدون بنصوص القرآن التي يقولون : إنها لا تلائم المعارف واكتساب الفنون ، وهذا وهم نشأ من الجهل بمقاصد القرآن ، ويكفي برهانا على بطلانه تاريخ صدر الاسلام وعناية علماء العرب بالمعارف والفنون ، ودرسهم كتب الحكماء الأقدمين مثل ارسطو وإقليدس وأبقراط وبطليموس وغيرهم .

قال الفيلسوف الألماني (جوته) : إن تعاليم القرآن عملية ومطابقة للحاجات الفكرية .
إن القرآن في الاسلام معجزة دعوته ودعامة شريعته ، وهو في الانسانية دعوة خالدة إلى سبل السلام والخير .

وذكر الشيخ محمد الخضري : (الكتاب هو القرآن ، وهو أجل من ان يعرف)
وقال محمد فريد وجدي : القرآن علم للكتاب الذي يقدره المسلمون في مشارق الارض ومغاربها ويتبركون به ، ويتبعون سننه وفرائضه ، ويعتقدون اعتقادا راسخا انه أنزل على النبي العربي محمد بن عبد الله وأنه آخر الكتب السماوية نزولا .

وقال الراغب الأصبهاني في المفردات : القرآن في الأصل مصدر - على وزن فعلان - بالضم - مثل : رجحان وكفران ، قال الله - تعالى - : ﴿ إن علينا جمعه وقرآنه . فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ﴾^(٢)
قال ابن عباس : إذا جمعناه وأثبتناه في صدرك فاعمل به .
وأورد السيوطي خمسة أقوال في لفظ القرآن هي :

(١) الآية ٤٤ من سورة النحل

(٢) الايتان ١٧ ، ١٨ من سورة القيامة .

أولا : ما ذهب إليه الشافعي أن لفظ القرآن المعروف بأل ليس مهموزا ولا مشتقا ، بل وضع علما على الكلام المنزل على محمد ﷺ .

ثانيا : ما نقل عن الأشعري وأقوام انه مشتق من : قرنت الشيء بالشيء : إذا ضممته إليه . ثم جعل علما على اللفظ المنزل ، وسمى بذلك لقران السور والآيات والحروف فيه بعضها ببعض .

ثالثا : ذهب الفراء إلى انه مشتق من القرائن ، لأن الآيات فيه يصدق بعضها بعضا ، وجعل علما على اللفظ المنزل لذلك ، وهو على هذين غير مهموز أيضا ، كالذي قبلهما ونونه أصلية .

رابعا : قال الزجاج : هو وصف على وزن فعلان - مهموز - مشتق من (القرء) بمعنى الجمع ، ومنه : قرأت الماء في الحوض : إذا جمعته .

وسمى الكلام المنزل على النبي المرسل به قرآنا ؛ لأنه جمع السور ، أو جمع ثمرات الكتب السابقة .

خامسا : ما ذهب إليه الحياتي وجماعة من أنه مصدر مهموز بوزن الغفران ، سمي به المقروء ، من تسمية المفعول بالمصدر .

وينقل كتاب الاتقان عن الجاحظ أن الله سمي كتابه اسما مخالفا لما سمي العرب كلامهم .. سمي جملة قرآنا ، كما سمي العرب جملة كلامهم ديوانا ، وسمى بعضه سورة ، كقصيدة ، وسمى بعض السورة آية ، كالبيت ، وسمى آخر السورة فاصلة ، ككافية .

ويذكر الاتقان أن الله سمي القرآن بخمسة وخمسين اسما : سماه كتابا ، ومبينا ، في قوله

﴿ حم ، والكتاب المبين ﴾^(١)

وقرآنا ، وكريما ، في قوله : ﴿ إنه لقرآن كريم ﴾^(٢)

وكلاما : ﴿ حتى يسمع كلام الله ﴾^(٣)

ونورا : ﴿ وأنزلنا إليكم نورا مبينا ﴾^(٤)

وهدى ، ورحمة : ﴿ هدى ورحمة للمؤمنين ﴾^(٥)

وفرقانا : ﴿ نزل الفرقان على عبده ﴾^(٦)

وشفاء : ﴿ وننزل من القرآن ما هو شفاء ﴾^(٧)

وموعظة : ﴿ قد جاءكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور ﴾^(٨)

(١) الأيتان ١ ، ٢ من سورة الزخرف والدخان .

(٢) الآية ٧٧ من سورة الواقعة .

(٣) الآية ٦ من سورة التوبة .

(٤) الآية ١٧٤ من سورة النساء .

(٥) الآية ٥٧ من سورة يونس .

(٦) الآية ١ من سورة الفرقان .

(٧) الآية ٨٢ من سورة الاسراء .

(٨) الآية ٥٧ من سورة يونس .

- وذكرا ، ومباركا : ﴿ وهذا ذكر مبارك أنزلناه ﴾^(١)
وعليا : ﴿ وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي ﴾^(٢)
وحكمة : ﴿ حكمة بالغة ﴾^(٣)
وحكيما : ﴿ تلك آيات الكتاب الحكيم ﴾^(٤)
ومهيمننا : ﴿ مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمننا عليه ﴾^(٥)
وحبلا : ﴿ واعتصموا بحبل الله ﴾^(٦)
وصراطا مستقيما : ﴿ وأن هذا صراطي مستقيما ﴾^(٧)
وقيما : ﴿ قويا لينذر ﴾^(٨)
وقولا ، وفصلا : ﴿ إنه لقول فصل ﴾^(٩)
ونبا عظيما : ﴿ عما يتساءلون . عن النبأ العظيم ﴾^(١٠)
وأحسن الحديث ومثاني ومتشابهها : ﴿ الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني ﴾^(١١)
وتنزिला : ﴿ وإنه لتنزيل رب العالمين ﴾^(١٢)
وروحا : ﴿ أوحينا إليك روحا من أمرنا ﴾^(١٣)
ووحيا : ﴿ إنما انذركم بالوحي ﴾^(١٤)
وعربيا : ﴿ قرآنا عربيا ﴾^(١٥)
وبصائر : ﴿ هذا بصائر ﴾^(١٦)
وبيانا : ﴿ هذا بيان للناس ﴾^(١٧)
وعلما : ﴿ من بعد ما جاءك من العلم ﴾^(١٨)
وحقا : ﴿ إن هذا هو القصص الحق ﴾^(١٩)
وهاديا : ﴿ إن هذا القرآن يهدي ﴾^(٢٠)
وعجبا : ﴿ قرآنا عجبا ﴾^(٢١)
وتذكرة : ﴿ وإنه لتذكرة ﴾^(٢٢)

- (١) الآية ٥٠ من سورة الأنبياء .
(٢) الآية ٤ من سورة الزخرف .
(٣) الآية ٥ من سورة القمر .
(٤) الآية ١ من سورة يونس .
(٥) الآية ٤٨ من سورة المائدة .
(٦) الآية ١٠٣ من سورة آل عمران .
(٧) الآية ١٥٣ من سورة الأنعام .
(٨) الآية ٢ من سورة الكهف .
(٩) الآية ١٣ من سورة الطارق .
(١٠) الآيتان ١ ، ٢ من سورة النبأ .
(١١) الآية ٢٣ من سورة الزمر .
(١٢) الآية ١٩٢ من سورة الشعراء .
(١٣) الآية ٥٢ من سورة الشورى .
(١٤) الآية ٤٥ من سورة الأنبياء .
(١٥) الآيات ٢ من سورة يوسف ، ١١٣ من سورة طه ، ٢٨ من سورة الزمر ، ٣ من سورة فصلت ، ٧ من سورة الشورى ، ٣ من سورة الزخرف .
(١٦) الآية ٢٠ من سورة الجاثية .
(١٧) الآية ١٣٨ من سورة آل عمران .
(١٨) الآيتان ١٤٥ من سورة البقرة ، ٦١ من سورة آل عمران .
(١٩) الآية ٦٢ من سورة آل عمران .
(٢٠) الآية ٩ من سورة الأسراء .
(٢١) الآية ١ من سورة الجن .
(٢٢) الآية ٤٨ من سورة الحاقة .

والعروة الوثقى : ﴿ استمسك بالعروة الوثقى ﴾^(١) .
 وصدقا : ﴿ والذي جاء بالصدق ﴾^(٢) .
 وعدلا : ﴿ وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا ﴾^(٣) .
 وأمرنا : ﴿ ذلك أمر الله أنزله إليكم ﴾^(٤) .
 ومناديا : سمعنا مناديا ينادى للإيمان ﴾^(٥) .
 وبشرى : ﴿ هدى وبشرى ﴾^(٦) .
 ومجيذا : ﴿ بل هو قرآن مجيد ﴾^(٧) .
 وزبورا : ﴿ ولقد كتبنا في الزبور ﴾^(٨) .
 وبشيرا ونذيرا : ﴿ كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون . بشيرا ونذيرا ﴾^(٩) .
 وعزيزا : ﴿ وإنه لكتاب عزيز ﴾^(١٠) .
 وبلاغا : ﴿ هذا بلاغ للناس ﴾^(١١) .
 وقصصا : ﴿ أحسن القصص ﴾^(١٢) .
 وسماء أربعة أسماء في آيتين : ﴿ في صحف مكرمة . مرفوعة مطهرة ﴾^(١٣) .
 وقد سمي القرآن ﴿ النور ﴾ لانه يدرك به غوامض الحلال والحرام ، ﴿ وأما الهدى ﴾ فلأن فيه
 الدلالة على الحق . وأما ﴿ الفرقان ﴾ فلأنه فرق بين الحق والباطل .
 ﴿ وأما الشفاء ﴾ فلأنه يشفى من الأمراض القلبية : كالكفر ، والجهل ، والغل ، والبدنية
 أيضا .
 ﴿ وأما الذكر ﴾ فلما فيه من المواعظ ، وأخبار الأمم الماضية ، والذكر أيضا : المشرف ، قال
 تعالى : ﴿ وإنه لذكر لك ولقومك ﴾ أى شرف لانه بلغتهم .
 ﴿ وأما الحكمة ﴾ فلأنه نزل على القانون المتبر من وضع كل شيء فى محله ، أولأنه مشتمل على
 الحكمة .

- (١) الأيتان ٢٥٦ من سورة البقرة ، ٢٢ من سورة لقمان .
- (٢) الآية ٣٣ من سورة الزمر .
- (٣) الآية ١١٥ من سورة الأنعام .
- (٤) الآية ٥ من سورة الطلاق .
- (٥) الآية ١٩٣ من سورة آل عمران .
- (٦) الآيات ٩٧ من سورة البقرة ، ١٠٢ من سورة النحل ، ٢ من سورة النمل .
- (٧) الآية ٢١ من سورة البروج .
- (٨) الآية ١٠٥ من سورة الأنبياء .
- (٩) الآية ٣ ، وجزء من الآية ٤ من سورة فصلت .
- (١٠) الآية ٤١ من سورة فصلت .
- (١١) الآية ٥٢ من سورة إبراهيم .
- (١٢) الآية ٣ من سورة يوسف .
- (١٣) الأيتان ١٣ ، ١٤ من سورة عبس .

وأما ﴿الحكيم﴾ فلأنه أحكمت آياته بعجيب النظم وبديع المعاني ، وأحكمت عن تطرق التبديل والتحريف والاختلاف والتباين .

وأما ﴿المهيمن﴾ فلأنه شاهد على جميع الكتب والأمم السالفة .

﴿وأما الحبل﴾ فلأنه من تمسك به وصل إلى الجنة أو الهدى ، والحبل : السبب .

﴿وأما الصراط المستقيم﴾ فلأنه طريق إلى الجنة قويم لا عوج فيه .

وأما ﴿المثاني﴾ فلأن فيه بيان قصص الأمم الماضية فهو ثان لما تقدمه .

وأما ﴿المتشابه﴾ فلأنه يشبه بعضه بعضا في الحسن والصدق .

وأما ﴿الروح﴾ فلأنه تحيا به القلوب والأنفس .

وأما ﴿المجيد﴾ فلشرفه .

وأما ﴿العزیز﴾ فلأنه يعز على من يروم معارضته وأما ﴿البلاغ﴾ فلأنه أبلغ منه الناس ما أمروا به ونهوا عنه ، ولأن فيه بلاغة وكفاية عن غيره .

قوله - تعالى - ﴿هدى وبشرى للمؤمنين﴾ أى : إنما تحصل الهداية والبشارة من القرآن لمن آمن به واتبعه وصدقه وعمل بما فيه ، وأقام الصلاة المكتوبة ، وآتى الزكاة المفروضة ، وأيقن بالدار الآخرة والبعث بعد الموت والجزاء على الأعمال خيرا وشرها والجنة والنار ، كما قال - تعالى - : ﴿قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون فى آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد﴾^(١) وقال - تعالى - : ﴿لتبشر به المتقين وتندر به قوما لدا﴾^(٢) ولهذا قال - تعالى - ههنا ﴿إن الذين لا يؤمنون بالآخرة﴾ أى : يكذبون بها ويستبعدون وقوعها ﴿زينا لهم أعمالهم فهم يعمهون﴾ أى : حسنا لهم ما هم فيه ، ومددنا لهم فى غيهم ، فهم يتيهون فى ضلالهم ، فكان هذا جزاء على ما كذبوا من الدار الآخرة ، كما قال - تعالى - : ﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة﴾^(٣) .

﴿أولئك الذين لهم سوء العذاب﴾ أى : فى الدنيا والآخرة ﴿وهم فى الآخرة هم الآخسرون﴾ أى : ليس يخسر أنفسهم وأموالهم سواهم من أهل الحشر .
وقوله - تعالى - : ﴿وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم﴾ أى : ﴿وإنك﴾ يا محمد ﴿لتلقى﴾ أى : لتأخذ ﴿القرآن من لدن حكيم عليم﴾ أى : من عند حكيم عليم ، أى : حكيم فى أمره ونهيه ، عليم بالأمور جليلها وحقيرها ، فخبره هو الصدق المحض ، وحكمه هو العدل التام ، كما قال - تعالى - : ﴿وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا﴾^(٤)

مع موسى كليم الله

إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَعَاتِيكُمْ مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْءَاتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ

(٣) الآية ١١٠ من سورة الأنعام .

(٤) الآية ١١٥ من سورة الأنعام .

(١) الآية ٤٤ من سورة الزخرف .

(١) الآية ٤٤ من سورة فصلت .

(٢) الآية ٩٧ من سورة مريم .

تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَاءَهَا نُورِدَى أَنْ بُورِكَ مِنْ فِي النَّارِ وَمِنْ حَوْلِهَا وَسُبْحَنَ اللَّهُ رَبِّ
 الْعَالَمِينَ ﴿٨﴾ يَمُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ
 كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَمُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَى الْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾
 إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَلِئِنْ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ
 بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿١٢﴾
 فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ
 ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾

تفسير المفردات

﴿ آنت ﴾ أى : أبصرت إبصارا حصل لى به أنس . ﴿ بخبر ﴾ أى : عن الطريق وحاله .
 ﴿ بشهاب ﴾ أى : بشعلة نار . ﴿ قيس ﴾ أى : قطعة من النار مقبوسة ومأخوذة من أصلها .
 ﴿ تصطلون ﴾ أى : قد تستدفئون بها . ﴿ جان ﴾ أى : حية صغيرة سريعة الحركة . ﴿ ولى مدبرا ﴾
 أى : التفت هاربا . ﴿ ولم يعقب ﴾ أى : لم يرجع على عقبه ، ولم يلتفت إلى ما وراءه ، من قولهم :
 عقب المقاتل : اذا كر بعد الفر . ﴿ من غير سوء ﴾ أى : من غير برص ولا نحوه من الآفات .
 آيات ﴾ أى : معجزات دالة على صدقك . ﴿ مبصرة ﴾ أى : بينة واضحة ﴿ فجحدوا بها ﴾ أى :
 كذبوا . ﴿ واستيقنتها أنفسهم ﴾ أى : علمت علما يقينيا انها من عند الله ﴿ وعلوا ﴾ أى : ترفعا
 واستكبارا .

المناسبة والمعنى الجملى

بعد أن وصف - عز اسمه - القرآن بأنه هدى وبشرى للمؤمنين ، وأن من اعرض عنه كان من
 الخاسرين . . أردفه بذكر قصص النبيين تسلية لرسوله ﷺ وأنه ليس بالأوحد في الأنبياء المكذبين ، فقد
 كذب موسى من قبلك على ما أتى به من باهر الآيات ، وعظيم المعجزات . ولم تغن الآيات والنذر ،
 وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا فانظر كيف كان عاقبة المفسدين .

التفسير

قوله - تعالى - : ﴿ إذ قال موسى لأهله إني آنست نارا سأتيكم منها بخبر أو آتيكم بشهاب قيس

لعلكم تصطلون ﴿١﴾ أى : واذكر أيها الرسول لقومك حين قول موسى لأهله وقد سار بهم فضل الطريق فى ليل دامس وظلام حالك ، فرأى نارا تأجج وتضطرب ، إني أبصرت نارا سأتىكم منها إما بخبر عن الطريق أو آتىكم بشعله ، من النار تستدفئون بها ، وكان كما قال ، فإنه رجع منها بخبر عظيم واقتبس نورا جليلا .

وقد كان هذا حين مسيره من مدين إلى مصر ، ولم يكن معه سوى امرأته ، وكانا يسيران ليلا ، فاشتبه عليهما الطريق ، والبرد شديد ، وفى مثل هذه الحال يستبشر الناس بمشاهدة النار من بعد ، لما يرجى فيها من زوال الحيرة ، وأمن الطريق ، ومن الانتفاع بها للاصطلاء ومن ثم قال لها هذه المقالة . قوله - تعالى - ﴿ فلما جاءها نودى أن بورك من فى النار ومن حولها وسبحان الله رب العالمين ﴾ . أى : فلما وصل إلى النار نودى بأن بورك من فى مكان النار ومن حول مكانها ، ومكانها هو البقعة المباركة المذكورة فى قوله - تعالى - من سورة القصص : ﴿ نودى من شاطئ الواد الأيمن فى البقعة المباركة من الشجرة ﴾ (١) ﴿ ومن حولها ﴾ من فى ذلك الوادى وحواليه من أرض الشام الموسومة بالبركات ومهبط الخيرات ، لكونها مبعث الأنبياء وكفاتهم أحياء وأمواتا . وقوله : ﴿ سبحان الله ﴾ : تنزيه لنفسه عما لا يليق به فى ذاته وحكمته ، وإيدان بأن مدبر ذلك الأمر هو رب العالمين .

أخرج عبد بن حميد ، وابن ماجه ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم والبيهقى عن أبى موسى الأشعرى قال : قام فينا رسول الله ﷺ فقال : ﴿ إن الله لا ينام ، ولا ينبغي له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل الليل قبل النهار ، وعمل النهار قبل الليل حججا به النور أو النار ، لو كشفه لأحرقت سبحات (أنوار) وجهه كل شئ أدركه بصره . ثم قرأ أبو عبيده (أن بورك من فى النار ومن حولها وسبحان الله رب العالمين) .

وفى التوراة : (جاء الله من سيناء ، وأشرف من ساعير ، واستعلى من جبل فاران) فمجيئه من سيناء بعثه موسى منها ، وإشراقه من ساعير بعثه المسيح منها ، واستعلاؤه من فاران بعثه محمدا ﷺ (وفاران : مكة) .

ولما تشوقت النفس إلى تحقيق ما يراد بالتصريح قال - تعالى - : تمهيدا لما اراد اظهاره على يد موسى من المعجزات الباهرة : ﴿ ياموسى إنه أنا الله العزيز الحكيم ﴾ أى : ياموسى إن الذى يخاطبك ويناجيك هو ربك الذى عز كل شئ وقهره ، وهو الحكيم فى أقواله وأفعاله .

ثم أرى موسى آية تدل على قدرته ، ليعلم ذلك علم شهود فقال : ﴿ وألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب ﴾ أى : وألق عصاك ، فلما ألقاها انقلبت حية سريعة الحركة ، فلما رآها كذلك ﴿ ولى مدبرا ﴾ ولى هاربا خوفا منها ولم يلتفت وراءه من شدة فرقه .

وحينئذ تآقت النفس إلى معرفة ما قيل إذ ذاك فقال : ﴿ ياموسى لا تخف إني لا يخاف لدى

المرسلون ﴿ أى : لا تخف مما ترى ، فإن لا يخاف عندى رسلى وانبيائى الذين أختصهم واصطفاهم بالنبوة .

﴿ إلا من ظلم ثم بدل حسنا بعد سوء فإنى غفور حيم ﴾ أى : ولكن من ظلم من سائر العباد ، فإنه يخاف ، إلا إذا تاب ، فبدل بتوبته حسنا بعد سوء ، فإنى أغفر له وأحو ذنوبه وجميع آثارها ، كما فعل السحرة الذين آمنوا بموسى ، وفى هذا بشارة عظيمة لسائر البشر : فإن من عمل ذنبا ثم أقلع عنه وتاب وأناب ، فإن الله يتوب عليه ، كما قال - تعالى - : ﴿ وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى ﴾ (٢) ثم أراه - جلّت قدرته - آية أخرى ذكرها بقوله : ﴿ وأدخل يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء ﴾ أى : وأدخل يدك فى جيبك « مدخل الرأس منه المفتوح إلى الصدر » قميصك تخرج بيضاء بياضا عظيما ، ولها شعاع كشعاع الشمس بلا آفة بها من برص أو غيره .

والآية الأولى كانت بتغيير ما فى يده وقلبها من جماد إلى حيوان ، والثانية بتغيير يده نفسها وقلب أوصافها إلى أوصاف أخرى نورانية .

فهاتان آيتان من خوارق العادات ، وفى ذلك كله تأييد لك .

قوله - تعالى - : ﴿ فى تسع آيات ﴾ وهى : اليد ، والعصا ، والطمس على الأموال ، كما جاء فى قوله - تعالى - : ﴿ وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا فى الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم ﴾ (١) ورابعة الآيات الأخذ بالسنين العجاف والقحط ، قال - تعالى - : ﴿ ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون ﴾ (٢) والآيات الباقية جاءت فى قوله - جل شأنه - : ﴿ فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين ﴾ (٣) .

ولقد ذكر الله - عز وجل - فى كتابه العزيز أن القوم راوغوا وظنوا أنهم يخادعون الله ، وجهلوا أنهم إنما يخادعون أنفسهم وما يشعرون قال - تعالى - : ﴿ ولما وقع عليهم الرجز قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بنى إسرائيل . فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينكثون . فانتقمنا منهم فأغرقناهم فى اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين ﴾ (٤) وهذا جزاء كل أمة تكذب بآيات ربها ، وتعصى رسله ، وتضرب بأحكامه عرض الحائط ، وتغفل عن آياته ، إذا أراد الله بقوم قحطا نادى مناد من قبل الله : « يأمعاء اسمعى ، يا بركة

(١) انظر صحيح مسلم « كتاب الايمان » باب فى قوله عليه السلام : إن الله لا ينال ج ١ ص ١٦١ ، ١٦٢ رقم ٢٩٣ / ١٧٩ من رواية أبى موسى الأشعرى ، وانظر الحديث ٢٩٥ عن أبى موسى . وانظر سنن ابن ماجه « المقدمة » ج ١ ص ٧٠ ، ٧١ رقمى ١٩٥ ، ١٩٦ .

(٢) الآية : ٨٢ من سورة طه .

(١) الآية : ٨٨ من سورة يونس .

(٢) آية : ١٣٠ من سورة الأعراف .

(٣) آية : ١٣٣ من سورة الأعراف .

(٤) آيات : ١٣٤ - ١٣٦ من سورة الأعراف .

ارتفعى ، ياعين لا تشبعى « ان ظلم الشعوب جرم كبير ، لا يرضاه الله ، بل إنه - تعالى - لا يعجل كعجلة أحدنا ، إنه ليتمكن للظالم حتى إذا اخذه لم يفله : ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾ (١) .

لقد أيد الله موسى بتسع آيات بينات ، وأرسله إلى قوم فاسقين خارجين عن حدود الله قال كبيرهم : ﴿ ما علمت لكم من إله غيرى ﴾ (٢) وقال : ﴿ أنا ربكم الأعلى ﴾ (٣) فماذا كان موقف القوم من تلك الآيات المبصرة الواضحة الدلالة البينة البرهان ؟

﴿ فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين ﴾ فتأمل معى كيف حكموا على الحقائق بأنها سحر ، وعلى المعجزات بأنها تخیلات فى الحس وأوهام فى العقل ؟ وشتان شتان بين المعجزة والسحر ، فالمعجزة امر خارق للعادة يظهره الله على أيدى الأنبياء تصديقاً لهم فى دعواهم ، مع عجز جميع الخلق عن الاتيان بمثل هذه الآيات ، فأى سحر فى انقلاب العصاحية ؟ ! وأى تخیلات فى انشقاق القمر بعد ما رأوه بأعينهم ؟ ! إن أهل الباطل يحاولون قلب الحقائق والحكم على الأشياء بغير واقع الأمر ، قال - تعالى - : ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر ﴾ (٤) مع إنك لو اطلعت على ما فى قلوبهم علمت أنهم فى قرارة انفسهم يوقنون بصدق الآيات ، ولكنهم يكذبونها ظلماً وعلوا واستكباراً وإباءً حتى لا يظهرُوا امام قومهم بأنهم قد خضعوا للحق ، قال - تعالى - : ﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلوا ﴾ فلا بد من وقوع العاقبة ، ولا بد من الجزاء العادل ، قال - تعالى - : ﴿ فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ﴾ وقد بين الله تلك العاقبة الوخيمة فى قوله : ﴿ ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون ﴾ (٥)

وفى قوله : ﴿ فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين . وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون . وأتبعناهم فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين ﴾ (٦)

مع داود وسليمان

وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥١﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَأَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأَوْتَيْنَا مِنْ

(١) الآية ١٠٢ من سورة هود .

(٢) الآية ٣٨ من سورة القصص .

(٣) الآية ٢٤ من سورة النازعات .

(٤) الأيتان ١ ، ٢ من سورة القمر .

(٥) الآية ١٣٧ من سورة الاعراف .

(٦) الآية ٤٠ - ٤٢ من سورة القصص .

كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحِشْرُ لُسَيْمٍ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ
وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسْكِنَكُمْ
لَا يَحِطُّ بِكُمْ لُسَيْمٌ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ
أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي
بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴿١٩﴾ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ
الْغَائِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ وَأَوْلِيَاءِ تِينِي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ
بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ نَحِط بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدْتُ أَمْرًا
تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ
مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فُصْدَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾
أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾
اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾ * قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَذَّابِينَ ﴿٢٧﴾
أَذْهَبَ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقَاهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَا أَيُّهَا
الْمَلَأُوا إِنِّي أَتِيْتُ إِلَىٰ كِتَابٍ كَرِيمٍ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمٍ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾
أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَىٰ وَاتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوا أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً
أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةً وَأَوْلُوا بِأسِ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي
مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً
وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمِ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَاءَ
سُلَيْمٌ قَالَ أَتُمِدُّونَ بِمَالٍ فَمَا أَتَيْنِ اللَّهُ خَيْرَ مِمَّا أَتَيْتُكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾

أَرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٢٧﴾
 قَالَ يَبْنَؤُهَا الْمَلَأُوا أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٢٨﴾ قَالَ عَفَرَيْتُ مِنَ الْجِنِّ
 أَنَاءَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٢٩﴾ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ
 مِنَ الْكِتَابِ أَنَاءَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ
 هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ
 رَبِّي غَنِيٌ كَرِيمٌ ﴿٣٠﴾ قَالَ نَكِرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ
 ﴿٣١﴾ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكَ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا
 مُسْلِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٣٣﴾ قِيلَ
 لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا قَالَتْ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ
 مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٤﴾

تفسير المفردات

﴿ورث سليمان داود﴾ أي : قام مقامه في النبوة والملك . ﴿منطق الطير﴾ أي : منهم ما
 يريد كل طائر إذا صوت : ﴿حشر﴾ أي : جمع ﴿يوزعون﴾ أي : يحبس أولهم ليلحق آخرهم
 فيكونون مجتمعين لا يتخلف منهم أحد . ﴿وادي النمل﴾ : واد بأرض الشام . ﴿لا يحطمنكم﴾
 أي : لا يهشمنكم . ﴿أوزعني﴾ أي : يسر لي . ﴿التفقد﴾ : طلب ما فقد . ﴿بسلطان مبين﴾
 أي : بحجة واضحة ، والاحاطة بالشئ علمه من جميع جهاته . وسبأ : هو سبأ بن يشجب بن يعرب
 ابن قحطان أبو قبيلة باليمن ، و ﴿نبأ﴾ أي : خبر عظيم والعرش : سرير الملك . ﴿عن السبيل﴾
 عن سبيل الحق والصواب و ﴿الخبء﴾ : هو المخبوء من كل شئ كالمرور وغيره من شئون الغيب
 ﴿تول عنهم﴾ أي : تنح عنهم إلى مكان قريب تتوارى فيه ليكون ما يقولونه يسمع منك . ﴿فانظر﴾
 أي : تأمل وفكر ﴿يرجعون﴾ أي : يرجع بعضهم إلى بعض من القول ويدور بينهم بشأنه . و
 ﴿الملا﴾ : أشرف القوم وخاصة الملك . ﴿ألا تعلوا على﴾ أي : ألا تتكبروا ولا تنقادوا للنفس
 والهوى . ﴿مسلمين﴾ : أي : منقادين خاضعين . ﴿أفتوني﴾ أي : أشيروا على بما عندكم من
 الرأي والتدبير فيما حدث . ﴿قاطعة أمرا﴾ أي : بآلة فيه منفذته ﴿تشهدون﴾ أي : تحضرون ،

والمراد بالقوة : القوة الحسية وكثرة الآلات ، والمراد بالبأس : النجدة والثبات في الحرب . العفريت من البشر : الخبيث الماكر الذي يعفر أقرانه ، ومن الشياطين ، المارد . ﴿ مقامك ﴾ أى : مجلسك الذى تجلس فيه للحكم . ﴿ قوى ﴾ أى : قادر على حمله لا أعجز عنه . ﴿ أمين ﴾ أى : على ما فيه من لآلىء وجواهر وغيرها . ﴿ الكتاب ﴾ هو علم الوحى والشرائع ، والذى عنده علم هو سليمان - عليه السلام - كما اختاره الرازى وقال : إنه أقرب الآراء ، ﴿ يرتد ﴾ أى : يرجع ، والطرف ، تحريك الأجفان ، والمراد بذلك : السرعة العظيمة . ﴿ مستقرا ﴾ أى : ساكنا قارا على حاله التى كان عليها . الفضل : التفضل والاحسان ﴿ ليلونى ﴾ أى : ليعاملنى معاملة المختبر . ﴿ أم أكفر ﴾ أى : أقصر فى أداء واجب الشكر . كفر : أى : لم يشكر . ﴿ نكروا لها عرشها ﴾ أى : غيروا هيئته وشكله بحيث لا تعرفه بسهولة ، ﴿ مسلمين ﴾ أى : خاضعين منقادين . ﴿ صدها ﴾ أى : منعها . و ﴿ الصرح ﴾ : أى : القصر ، وكل بناء عال . واللجة : الماء الكثير . ﴿ عمرد ﴾ أى : ذو سطح أملس . القوارير : الزجاج . واحدها : قارورة . ﴿ أسلمت ﴾ أى خضعت .

المناسبة والمعنى الجملى

يُعد أن ذكر - سبحانه - قصة موسى - عليه السلام - أردفه قصص داود وسليان ، وذكر أنه آتى كلا منهما طائفة من علوم الدين والدنيا ، فعلم داود صناعة الدروع ولبوس الحرب ، وعلم سليمان منطق الطير ثم بين أن سليمان طلب من ربه أن يوفقه الى شكر نعمه عليه وعلى والديه ، وأن يمكن من العمل الصالح وأن يدخله جنات النعيم وسخر الله لسليمان الجن والانس والطير وجعلهم جنودا له وذكر أنه احتاج جنديا من جنوده وهو الهدهد ، فبحث عنه فلم يجده ، فتوعده بالعذاب أو القتل إلا إذا أبدى له عذرا يبرئه ، فحضر بعد قليل ، وقص عليه خبر مملكة باليمن من أغنى الممالك وأقواها تحكمها امرأة هي بلقيس ملكة سبأ ، ووصف له ما لها من جلال الملك وابته وانها وقومها يعبدون الشمس لا خالق الشمس العليم بكل شئ فى السموات والأرض ، والعليم بما نخفى وما نعلن ، والعليم بالسر والنجوى ، وهورب العرش العظيم . ثم امره سليمان بتبليغ كتاب منه إلى ملكة سبأ ، والتنحى جانبا ليستمع ما يدور من الحديث بينها وبين خاصتها بشأنه ، وكانت خاتمة المطاف أن قالوا : الرأى لدينا القتال ، فإننا قوم أولوا بأس ونجدة ، والأمر مفوض إليك فافعل ما بدا لك وهنا قالت : إني أرى أن عاقبة الحرب الدمار والخراب وصيرورة العزيز ذليلا ، وإني أرى ان نهاده ونرسل إليه بهدية ثم ننظر ماذا يكون رده ، عله يقبل ذلك منا ، ويكف عنا ، أو يضرب علينا خراجا نحمله إليه كل عام ونلتزم ذلك له ، وبذا يترك قتالنا وحربنا ، ولما وصلت الهدية مع الرسول إلى سليمان قال له : أتمدنون بما لهما آتاني الله خير مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون . ثم قال له : ارجع اليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها اذلة وهم صاغرون . فتجهزت بلقيس للسفر مقبلة إلى سليمان ، وكان سليمان قد احضر عرشها فى لمح البصر وأمر بتغيير معالم العرش وتبديل أوضاعه ، ثم سألها عنه ليختبر مقدار عقلها ، ولتعلم صدقه فى دعواه النبوة وتظاهرها لديها الأدلة على قدرة المولى - سبحانه وتعالى - فحينما

رأت ملكه العظيم أيقنت بأن دين سليمان هو الحق ، وأنها قد ظلمت نفسها بكفرها بالله ربها خالق السموات والأرض ، وصاحت تقول : أسلمت مع سليمان لله رب العالمين . .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ ولقد آتينا داود وسليمان علما وقالوا الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين ﴾ قال ابن أبي حاتم : ذكر عن إبراهيم بن يحيى بن هشام ، أخبرني أبي عن جدي قال : كتب عمر بن عبد العزيز : (إن الله لم ينعم على عبده نعمة فيحمد الله عليها إلا كان حمده أفضل من نعمه ، لو كنت لا تعرف ذلك إلا في كتاب الله المنزل ، قال الله - تعالى - : ﴿ ولقد آتينا داود وسليمان علما وقالوا الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين ﴾ فأى نعمة أفضل مما أوتى داود وسليمان - عليهما السلام - ؟

وفي الآية إخبار منه - تعالى - عن أنه - بفضلله وكرمه - قد آتى عبديه داود وسليمان علما ، وأشرف العلم : علم الوحي المعصوم ، فقد أنعم عليهما بالنبوة والملك ، فكانا نبيين ملكين ، وفي هذا الباب مراتب لا تحصى ومراق لا تستقصى ، ولقد قابلا هذا العلم والفضل العظيم بالحمد لله صاحب الإنعام والكرم والجود والسخاء ، حمداً على تفضيله لهما على كثير من عباده المؤمنين ، وتوفيق العبد للحمد في حاجة إلى حمد ، فنعمة التوفيق لا تعدلها نعمة والله لولا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا فيارب كيف أشكرك وتوفيقك لي إلى أن أشكرك في حاجة إلى شكر ؟ !

يقول الامام ابن القيم في [اثبات الحمد كله لله عز وجل]

إنه - تعالى - هو المحمود على ما خلقه وأمر به ونهى عنه ، فهو المحمود على طاعات العباد ومعاصيهم وإيمانهم وكفرهم ، وهو المحمود على خلق الأبرار والفجار ، والملائكة والشياطين ، وعلى خلق الرسل وأعدائهم ، وهو المحمود على عدله في أعدائه ، كما هو المحمود فضله وإنعامه على أوليائه ، فكل ذرة من ذرات الكون شاهدة بحمده ، ولهذا سبح بحمده السموات السبع والأرض ومن فيهن ﴿ وإن من شيء إلا يسبح بحمده ﴾ (١)

﴿ التفسير ﴾

قوله تعالى : ﴿ ولقد آتينا داود وسليمان علما وقالوا الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين ﴾ قال ابن أبي حاتم : ذكر عن إبراهيم بن يحيى بن هشام ، أخبرني أبي عن جدي قال : كتب عمر بن عبد العزيز : (إن الله لم ينعم على عبده نعمة فيحمد الله عليها إلا كان حمده أفضل من نعمه ،

لو كنت لا تعرف ذلك إلا في كتاب الله المنزل ، قال الله - تعالى : ﴿ ولقد آتينا داود وسليمان علما وقالوا الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين ﴾ فأى نعمة أفضل مما أوتى داود وسليمان - عليهما السلام ؟

وفي الآية إخبار منه - تعالى - عن أنه - بفضلله وكرمه - قد آتى عبديه داود وسليمان علما ، وأشرف العلم : علم الوحي المعصوم ، فقد أنعم عليهما بالنبوة والملك ، فكانا نبيين ملكين ، وفي هذا الباب مراتب لا تحصى ومراق لا تستقصى ، ولقد قابلا هذا العلم والفضل العظيم بالحمد لله صاحب الإنعام والكرم والجود والسخاء ، حمداً على تفضيله لهما على كثير من عباده المؤمنين ، وتوفيق العبد للحمد في حاجة إلى حمد ، فنعمة التوفيق لا تعدلها نعمة والله لولا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا فيارب كيف أشكرك وتوفيقك لي إلى أن أشكرك في حاجة إلى شكر؟!]

يقول الامام ابن القيم في [اثبات الحمد كله لله عز وجل]

إنه - تعالى - هو المحمود على ما خلقه وأمر به ونهى عنه ، فهو المحمود على طاعات العباد ومعاصيهم وإيمانهم وكفرهم ، وهو المحمود على خلق الأبرار والفجار ، والملائكة والشياطين ، وعلى خلق الرسل وأعدائهم ، وهو المحمود على عدله في أعدائه ، كما هو المحمود فضله وإنعامه على أوليائه ، فكل ذرة من ذرات الكون شاهدة بحمده ، ولهذا سبح بحمده السموات السبع والأرض ومن فيهن ﴿ وإن من شيء إلا يسبح بحمده ﴾^(١) .

وكان في قول النبي ﷺ عند الاعتدال من الركوع « ربنا ولك الحمد ، ملء السموات ، وملء الأرض ، وملء ما بينهما ، وملء ما شئت من شيء بعد فله - سبحانه - الحمد حمداً يملأ المخلوقات والفضاء الذي بين السموات والأرض ، ويملاً ما يقدر بعد ذلك مما يشاء الله أن يملأ بحمده ، وذاك يحمل أمرين :

أحدهما أن يملأ ما يخلقه الله بعد السموات والأرض ، والمعنى : أن الحمد ملء ما خلقته ، وملء ما تخلقه بعد ذلك .

الثاني أن يكون المعنى : ملء ما شئت من شيء بعد يملأه حمدك ، أى : يقدر مملوءاً بحمدك ، وإن لم يكن موجوداً . ولكن يقال : المعنى الأول أقوى ، لأن قوله : ﴿ ما شئت من شيء بعد ﴾ يقتضى أنه شيء يشاؤه ، وما شاء كان ، والمشية متعلقة بعينه لا بمجرد ملء الحمد له . فتأمل . لكنه إذا شاء كونه فله الحمد ملؤه . فالمشيئة راجعة إلى المملوء بالحمد . فلا بد أن يكون شيئاً موجوداً يملأه حمده . وأيضاً قوله : ﴿ من شيء بعد ﴾ يقتضى أنه شيء يشاؤه - سبحانه - بعد هذه المخلوقات ، كما يخلقه بعد ذلك من مخلوقاته من القيامة وما بعدها ، ولو أريد تقدير خلقه لقليل : وملء ما شئت من شيء ، ومع ذلك لأن المقدر يكون مع المحقق . وأيضاً فإنه لم يقل : ملء ما شئت أن يملأه الحمد ، بل قال : ما شئت ، والعبد قد حمد حمداً أخبر به ، وإن ثناءه ووصفه بأنه يملأ ما خلقه الرب

- سبحانه - وما يشاء بعد ذلك وأيضا فقله : ﴿ وملء ما شئت من شيء بعد ﴾ يقتضى إثبات مشيئة تتعلق بشيء بعد ذلك ، وعلى الوجه الثانى قد تتعلق المشيئة بملء المقدر ، وقد لا تتعلق ، وأيضا فإذا قيل : ﴿ ما شئت من شيء بعد ذلك ﴾ كان الحمد مائلا لما هو موجود يشاؤه الرب دائما ، ولا ريب ان له الحمد دائما فى الأولى والآخرة ، وأما إذا قدر ما يملأه الحمد وهو غير موجود فالمقدرات لا حد لها ، وما من شيء منها إلا يمكن تقدير شيء بعده وتقدير ما لا نهاية له كتقدير الاعداد : ولو أريد هذا المعنى لم يحتج إلى تعليقه بالمشيئة ، بل قيل : ﴿ ملء ما لا يتناهى ﴾ فأما ما يشاؤه الرب فلا يكون إلا موجودا مقدرًا ، وإن كان لا آخر لنوع الحوادث أو بقاء ما يبقى منها ، فهذا كله مما يشاؤه بعد .

وأیضا الحمد : هو الاخبار بمحاسن المحمود على وجه الحب له ، ومحاسن المحمود - تعالى - إما قائمة بذاته ، وإما ظاهرة فى مخلوقاته ، فأما المعدوم المحض الذى لم يخلق ولا خلق قط فذاك ليس فيه محاسن ولا غيرها ، فلا محامد فيه البتة ، فالحمد لله الذى يملأ المخلوقات ما وجد فيها ويوجد هو حمد يتضمن الثناء عليه بكماله القائم بذاته ، والمحاسبة الظاهرة فى مخلوقاته ، وأما مالا وجود له فلا محامد ولا مذام ، فجعل الحمد مائلا له لما لا حقيقة له .

وقد اختلف الناس فى معنى كون حمده يملأ السموات والأرض وما بينهما ، فقالت طائفة : على جهة التمثيل ، أى : لو كان أجساما لملأ السموات والأرض وما بينهما . قالوا : فإن الحمد من قبيل المعانى والأعراض التى لا تملأ بها الأجسام ، ولا تملأ الأجسام إلا بالأجسام . والصواب أنه لا يحتاج إلى هذا التكلف البارد ، فإن ملء كل شيء يكون بحسب المالىء والمملوء . فإذا قيل : امتلأ الاناء ماء ، وامتلأت الجفنة طعاما ، فهذا الامتلاء نوع . وإذا قيل : امتلأت الدار رجالا وامتلأت المدينة خيلا ورجالا فهذا نوع آخر ، وإذا قيل : امتلأ الكتاب سطورا فهذا نوع آخر ، وإذا قيل : امتلأت مسامع الناس حمدا أو ذما لفلان فهذا نوع آخر ، كما فى أثر معروف . (أهل الجنة من امتلأت مسامعه من ثناء الناس عليه . وأهل النار من امتلأت مسامعه من ذم الناس له) وقال عمر بن الخطاب فى عبد الله بن مسعود : كنيف ملء علما ، ويقال : فلان علمه قد ملأ الدنيا . وكان يقال : ملأ ابن أبى الدنيا الدنيا علما ، ويقال : خبث فلان قد ملأ الدنيا وضيق الأفاق ، وحبه قد ملأ القلوب ، وبغض فلان قد ملأ القلوب ، وامتلا قلبه رعبا . وهذا اكثر من ان تستوعب شواهد ، وهو حقيقة فى باب ، وجعل الملىء والامتلاء حقيقة للأجسام خاصة تحكم باطل ودعوى لا دليل عليها البتة ، والأصل الحقيقة الواحدة ، والاشتراك المعنوى هو الغالب على اللغة والأفهام والاستعمال ، فالمصير إليه أولى من المجاز والاشتراك . . .

﴿ والحمد كله لله ﴾ فهذا له معنيان : (احدهما) أنه محمود على كل شيء وبكل ما يحمد به المحمود التام ؛ وإن كان بعض خلقه يحمد أيضا - كما يحمد رسله وأنبيأؤه وأتباعهم - فذلك من حمده - تبارك وتعالى - بل هو المحمود بالقصد الأول وبالذات ، وما نالوه من الحمد فإنما نالوه بحمده فهو المحمود أولا وآخرا ، وظاهرا وباطنا ، وهذا كما أنه بكل شيء عليم . وقد علم غيره من علمه ما لم يكن يعلمه بدون تعليمه . وفى الدعاء المأثور : (اللهم لك الحمد كله ، ولك الملك كله ، وبيدك الخير كله ، وإليك يرجع الأمر كله ، أسألك من الخير كله وأعوذ بك من الشر كله)

وهو - سبحانه - له الملك وقد آتى من ملكه بعض خلقه ، وله الحمد وقد آتى غيره من الحمد ما شاء . وكما أن ملك المخلوق داخل في ملكه فحمده أيضا داخل في حمده . فما من محمود يحمده على شيء مما دق أو جل إلا والله المحمود عليه بالذات والأولية أيضا . وإذا قال : ﴿ اللهم لك الحمد ﴾ فالمراد به : أنت المستحق لكل حمد ، ليس المراد به الحمد الخارجى فقط .

﴿ والمعنى الثانى ﴾ أن يقال : ﴿ لك الحمد كله ﴾ أى : الحمد التام الكامل . فهذا مختص بالله ليس لغيره فيه شريك .

والتحقيق ان له الحمد بالمعنيين جميعا ، فله عموم الحمد وكماله ، وهذا من خصائصه - سبحانه - فهو المحمود على كل حال ، وعلى كل شيء أكمل حمد وأعظمه ، كما أن له الملك التام العام فلا يملك كل شيء إلا هو ، وليس الملك التام الكامل الا له .

قوله - تعالى - : ﴿ وورث سليمان داود ، وقال يأيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء إن هذا هو الفضل المبين ﴾

أى : ورث سليمان داود فى الملك والنبوة وليس المراد وراثته المال ، إذ لو كان كذلك لم يخص سليمان وحده من بين سائر أولاد داود ، فإنه قد كان لداود مائة امرأة ، ولكن المراد بذلك وراثته الملك والنبوة فإن الأنبياء لا تورث أموالهم كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ فى قوله : ﴿ نحن معاشر الأنبياء لا نورث ، ما تركناه فهو صدقة ﴾^(١) وقال : ﴿ يأيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء ﴾

أى : أخبر سليمان بنعم الله عليه فيما وهبه له من الملك التام والتمكين العظيم ، حتى إنه سخر له الانس والجن والطير ، وكان يعرف لغة الطير والحيوان أيضا ، وهذا شيء لم يعطه أحد من البشر فيما علمناه مما أخبر الله به رسوله ، ومن زعم من الجهلة والرعاى أن الحيوانات كانت تنطق كنطق بنى آدم قبل سليمان ابن داود - كما قد يتفوه به كثير من الناس - فهو قول بلا علم ، ولو كان الأمر كذلك لم يكن لتخصيص سليمان بذلك فائدة ؛ إذ كلهم يسمع كلام الطيور والبهائم ويعرف ما تقول ، وليس الأمر كما زعموا ولا كما قالوا ، بل لم تزل البهائم والطيور وسائر المخلوقات من وقت خلقت إلى زماننا هذا على هذا الشكل والمنوال . ولكن الله - سبحانه - كان قد أفهم سليمان ما تتخاطب به الطيور فى الهواء ، وما تنطق به الحيوانات على اختلاف أصنافها ولهذا قال - تعالى - : ﴿ علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء ﴾ أى : مما يحتاج إليه المملك ﴿ إن هذا هو الفضل المبين ﴾ أى : الظاهر البين لله علينا .

وقوله - تعالى - : ﴿ وحشر لسليمان جنوده من الجن والانس والطير فهم يوزعون ﴾ أى : وجمع لسليمان جنوده من الجن والانس والطير ، يعنى ركب فيهم فى أبهة وعظمة كبيرة فى الانس وكانوا هم الذين يلونه ، والجن هم بعدهم فى المنزلة ، والطير ومنزلتها فوق رأسه فإن كان حر أظلمته منه بأجنحتها .

وقوله : ﴿ فهم يوزعون ﴾ أى : يكف أولهم على آخرهم لئلا يتقدم أحد عن منزلته التى هى مرتبة له ، قال مجاهد : جعل على كل صنف وزعة يردون أولاهها على اخراها لئلا يتقدموا فى المسير كما يفعل الملوك اليوم .

وقوله : ﴿ حتى إذا أتوا على واد النمل ﴾ أى : حتى إذا مر سليمان - عليه السلام - بمن معه من الجيوش والجنود على وادى النمل ﴿ قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون ﴾ أى : خافت على النمل أن تحطمها الخيول بحوافرها ، فأمرتهم بالدخول الى مساكنهم ، ففهم ذلك سليمان - عليه السلام - منها ﴿ فتبسم ضاحكا من قولها وقال رب أوزعنى أن أكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى وأن أعمل صالحا ترضاه ﴾ أى : ألهمنى أن أشكر نعمتك التى مننت بها على من تعلّمى منطق الطير والحيوان ، وعلى والدى بالاسلام لك ، والايمان بك ، ﴿ وأن أعمل صالحا ترضاه ﴾ أى : عملا تحبه وترضاه ﴿ وادخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين ﴾ أى : إذا توفيتنى فألحقنى بالصالحين من عبادك والرفيق الأعلى من أوليائك .

قد دل بحث الباحثين فى معيشة النمل على ما لها من عجائب فى معيشتها وتدبير شئونها ، فإنها لتتخذ القرى فى باطن الأرض ، وتبنى بيوتها أروقة ودهاليز وغرفات ذوات طبقات ، وتملؤها حبوبا وقوتا للشتاء ، وتخفى ذلك فى بيوت من مساكنها منعطفات إلى فوق حذرا من ماء المطر . وفى هذه الآية تنبيه إلى هذا لايقاظ العقول إلى ما أعطيته من الدقة وحسن النظم والسياسة ، فإن نداءها لهم تحت أمرها وجمعها لرقم ليشير إلى كيفية سياستها ، وحكمتها وتدبيرها لأمرها ، وأنها تفعل ما يفعل الملوك ، وتدبر وتسوس كما يسوس الحكام .

ولم يذكره الكتاب . الكريم إلا ليكون أمثالا تضرب للعقلاء ؛ فيفهمون حال هذه الكائنات وكيف ان النمل أجمعت أمرها على الفرار خوفا من الهلاك كما تجتمع على طلب المنافع ، وإن امة لا تصل فى تدبيرها إلى مثل ما يفعل هذا الحيوان الأعجم تكون أمة حمقاء تائهة فى أودية الضلال ، وهى أدنى حالا من الحشرات والديدان .

﴿ ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شىء عليم ﴾^(١) فسبحانك ربى يامن قلت وقولك الحق ﴿ وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا فى الكتاب من شىء ثم إلى ربهم يحشرون ﴾^(٢)

أسمعت إلى قصة النملة مع أخواتها وكان لها إمرة على هذا النمل فوقفت موقف الناصح الأمين كمسئولة عن رعيته؟ ثم أسمعت قبلها إلى قصة موسى ؟ ثم أسمعت إلى قصة سليمان وقد حشر له جنوده من الجن والأنس والطير فهم يوزعون ؟ إن فى قصص القرآن عبرة لأولى الألباب ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شىء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون .

قوله - تعالى - : ﴿ وتفقد الطير فقال ما لى لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين ، لأعذبه عذابا شديدا أو لأذبحنه أو ليأتينى بسلطان مبين ﴾ .

قال مجاهد وسعيد بن جبير وغيرهما عن ابن عباس وغيره : كان الهدهد مهندسا يدل .

(١) الآية ٣٥ من سورة النور .

(٢) الآية ٣٨ من سورة الأنعام .

سليمان - عليه السلام - على الماء إذا كان بأرض فلاة طلبه فنظر له الماء في تخوم الأرض كما يرى الانسان الشيء الظاهر على وجه الأرض ، ويعرف كم مسافة بعده من وجه الأرض ، فإذا دلهم عليه أمر سليمان - عليه السلام - الجان فحفروا له ذلك المكان حتى يستنبط الماء من قراره ، فنزل سليمان - عليه السلام - يوما بفلاة من الأرض فتفقد الطير ليرى الهدهد فلم يره ﴿ فقال ما لي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين ﴾ حدث يوما عبد الله بن عباس بنحو هذا وفي القوم رجل من الخوارج يقال له نافع بن الأزرق - وكان كثير الاعتراض على ابن عباس - قال له : قف يا بن عباس ، غلبت اليوم ، قال : ولم ؟ قال : إنك تخبر عن الهدهد أنه يرى الماء في تخوم الأرض ، وإن الصبى ليضع له الحبة في الفخ ويحثو على الفخ ترابا فيجىء الهدهد ليأخذها فيقع في الفخ فيصيده الصبى . قال ابن عباس ، لولا أن يذهب هذا فيقول : رددت على ابن عباس لما اجبته ، ثم قال : ويحك ؛ إنه إذا نزل القدر عمى البصر وذهب الحذر ، فقال له نافع : والله لا أجادلك في شيء من القرآن أبدا . وقد ذكر الحافظ بن عساكر في ترجمة أبي عبد الله البرزى من أهل برزة من غوطة دمشق ، وكان من الصالحين يصوم الاثنين والخميس ، وكان أعور قد بلغ الثمانين ، فروى ابن عساكر بسنده إلى أبي سليمان بن زيد أنه سأله عن سبب عوره فامتنع عليه ، فألح عليه شهورا فأخبره ان رجلين من أهل خراسان نزلا عند جمعة في قرية برزة وسألاه عن واد بها ، فأريتهما إياه فأخرجاه مجامر وأوقدا فيها بخورا كثيرا حتى عجعج الوادى بالدخان ، فأخذا يعزمان والحيات تقبل من كل مكان إليهما فلا يلتفتان إلى شيء منها ، حتى أقبلت حية نحو الذراع وعيناها تتوقدان مثل الدينار ، فاستبشرا بها عظيما ، وقالوا : الحمد لله الذي لم يخيب سفرنا من سنة ، وكسرا المجامر وأخذا الحية فأدخلها في عينها ميلا فاكتحلا به ، فسألتهما أن يكحلاني ، فأبيا ، فألححت عليهما وقلت : لا بد من ذلك ، ووعدتهما بالدولة ، فكحلا عيني الواحدة اليمنى ، فحين وقع في عيني نظرت الى الارض تحتي مثل المرأة انظر ما تحتها ثم قالوا لي : سر معنا قليلا فسرت معهما وهما يحدثان ، حتى اذا بعدت عن القرية اخذاني فكتفاني وادخل احدهما يده في عيني ففقاها ورمى بها ومضيا ، فلم أزل كذلك ملقى مكتوفا حتى مر بي نفر ففك وثاقي ، فهذا ما كان من خبر عيني . وقال ابن أبي حاتم : حدثنا علي بن الحسين ، حدثنا هشام بن عمار ، حدثنا صدقة بن عمرو الغساني ، حدثنا عباد بن ميسرة المنقري عن الحسن قال : اسم هدهد سليمان - عليه السلام - عنبر وقال محمد بن إسحق : كان سليمان - عليه السلام - إذا غدا إلى مجلسه الذي كان يجلس فيه تفقد الطير ، وكان - فيما يزعمون - يأتيه نوب من كل صنف من الطير كل يوم طائر ، فنظر فرأى من أصناف الطير كلها من حضره إلا الهدهد ﴿ فقال ما لي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين ﴾ أخطأه بصرى من الطير أم غاب فلم يحضر ؟ وقوله : ﴿ لأعذبه عذابا شديدا ﴾ قال الأعمش عن المنهال بن عمرو ، عن سعيد ، عن ابن عباس : يعني ينتف ريشه ، وقال عبد الله ابن شداد : نتف ريشه وتشميسه ، وكذا قال غير واحد من السلف : إنه نتف ريشه وتركه ملقى يأكله الذر والنمل . وقوله : ﴿ أو لأذبحنه ﴾ يعني : قتله . ﴿ أو ليأتيني بسلطان مبين ﴾ بعذر بين واضح ، وقال سفيان بن عيينة ، وعبد الله بن شداد : لما قدم الهدهد قالت له الطير : ما خلّفك فقد نذر سليمان دمك ؟ فقال : هل استثنى ؟ قالوا : نعم ، قال :

﴿لأعذبه عذابا شديدا أو لأذبحنه أو ليأتيني بسلطان مبين﴾ قال : نجوت إذا . قال مجاهد إنما دفع الله عنه ببره بأمه .

قوله - تعالى - : ﴿فمكث غير بعيد﴾ فقال أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ نبأ يقين ، إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم ، وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون ، ألا يسجدوا لله الذي يخرج الخبء في السموات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون ، الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم ﴾ .

قوله - تعالى - : ﴿فمكث غير بعيد﴾ أي : غاب زمانا يسيرا ثم فاجأ سليمان بقوله : ﴿أحطت بما لم تحط به﴾ أي : علمت بأشياء لم تعلمها أنت ، وإنما فاجأه بهذا القول ليشير فيه عامل الاصغاء واستمالة قلبه إلى قبول عذره ، وليبين خطر ما شغله .

قال صاحب الكشف : ألهم الله الهدد فكافح سليمان بهذا الكلام على ما أوتي من فضل النبوة والحكمة والعلوم الجمة والاحاطة بالمعلومات الكثيرة ، ابتلاء له في علمه ، وتنبيهها على ان في ادنى خلقه وأضعفه من احاط بما لم يحط به ، لتتحاقر إليه نفسه ، ويتصاغر إليه علمه ، ويكون لطفاله في ترك الاعجاب الذي هو فتنة العلماء ، وأعظم بها فتنة . وإنما قال : ﴿نبأ يقين﴾ حتى يعلم سليمان أنه خبر جدير بالمعرفة والبحث ، إذ التخمين لا تنبنى عليه أحكام ، ولم يدع الهدد النبأ غامضا إنما فصله قائلا : مبينا في قوله ثلاثة أشياء :

(١) إن ملكتهم امرأة وهي بلقيس بنت شراحيل وكان ابوها من قبلها ملكا جليل القدر واسع الملك .

(٢) إنها أوتيت من الثراء وأبهة الملك وما يلزم ذلك من عتاد الحرب والسلاح وآلات القتال الشيء الكثير الذي لا يوجد مثله إلا في الممالك العظمى .

(٣) إن لها سريرا عظيما تجلس عليه ، مرصعا بالذهب وأنواع اللائى والجواهر في قصر كبير رفيع الشأن ، وفي هذا أكبر الأدلة على عظمة الملك وسعة رقعته ورفعة شأنه بين الممالك . وبعد أن بين الهدد لسليمان شئون القوم الدنيوية شرع يبين شئونهم الدينية ، وما هم عليه من مخالفات جسيمة : من الشرك ، وعبادة غير الله ، فقال : ﴿وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون﴾ أي : وجدتها وقومها في ضلال مبين ، فهم يعبدون الشمس لارب الشمس وخالق الكون المحيط بكل شيء علما ، وزين لهم الشيطان قبيح أعمالهم ، فظنوا حسنا ما ليس بالحسن وصدهم عن الطريق القويم الذي بعث به الأنبياء والرسل وهو إخلاص السجود والعبادة لله وحده . ثم فرع على ذلك القول : ﴿فهم لا يهتدون﴾ وإنما

فعل بهم ذلك حتى لا يعرفوا الطريق القويم ، وحتى لا يسلكوا الصراط المستقيم ، ولئلا يسجدوا لله رب العالمين ، الذى يخرج كل شئ مخبوء فى السموات والأرض ، فهو الذى ينزل المطر وينبت النبات ، له ما فى السموات وما فى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى ، وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى . الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى .

﴿ ويعلم ما تخفون وما تعلنون ﴾ هو كقوله - تعالى - : ﴿ سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار ﴾^(١) .

وقوله - جل شأنه - : ﴿ وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور ، ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴾^(٢) ثم اسند الأمر المتعلق بالألوهية الحققة لله وحده لا شريك له فهو المستغنى عما سواه ، والمفتقر إليه جميع من عداه ، فوجب إفراده بالعبادة مع اعتقاد وحدته ذاتا وصفات وافعالا ، فلا سجود الا له ، ولا خضوع الا له ، ولا تعظيم إلا له ، فسبح باسم ربك العظيم ، وسبح باسم ربك الاعلى .

ما فى الوجود سواك رب يعبد	كلا ، ولا مولى هناك فيقصد
يامن له عنت الوجوه بأسرها	رهبا وكل الكائنات توحد
أنت الاله الواحد الحق الذى	كل القلوب له تقرر وتشهد

الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم
قوله - تعالى - : ﴿ قال سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين . اذهب بكتابى هذا فألقه إليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون . قالت ياأيها الملأ إني ألقي إلى كتاب كريم . إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم . ألا تعلوا على واثتوني مسلمين ﴾ .
﴿ قال سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين ؟ ﴾ أى : قال : سنختبر مقالك ، ونتعرف حقيقته بالامتحان ، أصادق أنت فيما تقول أم أنت من الكاذبين ؟ وهذا شأن الحاكم العادل إذا وصله نبأ عن قوم لا بد ان يتثبت ، ومن الخطأ الشنيع أن يصدر الأحكام دون ان يتبين ، عندئذ سيخطئ الحساب ويأتى بأوخم العواقب ، وإنما قال له ﴿ أم كنت من الكاذبين ﴾ ولم يقل : ﴿ أصدقت أم كذبت ﴾ إيذانا بأن تلفيق الأقوال المنمقة ، واختيار الأسلوب الذى يستهوى السامع إلى قبولها - من غير ان يكون لها حقيقة تعبر عنها - لا يصدر إلا ممن مرن على الكذب وصار سجية له ، حتى لا يجد وسيلة للبعد عنه ، وهذا يفيد انه كاذب على أتم وجه ، ومن كان كذلك لا يوثق به .

(١) الآية ١٠ من سورة الرعد .

(٢) الآيتان : ١٣ ، ١٤ من سورة الملك .

ثم شرع يفعل ما يختبره به ، فكتب له كتابا موجزا ، وأمره بتبليغه إلى ملكة سبأ فقال : ﴿ اذهب بكتابي هذا فألقه إليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون ﴾ أى : اذهب بهذا الكتاب فألقه إليهم ، ثم تنح عنهم وكن قريبا منهم ، واستمع مراجعة الملكة أهل مملكتها ، وما بعد ذلك من مراجعة بعضهم بعضا ونقاشهم فيه .

ثم فصل ما دار بينهم بشأنه فقال : ﴿ قالت ياأيها الملأ إني ألقى إلى كتاب كريم ﴾ أى : وبعد أن ذهب الهدهد بالكتاب القاه إلى الملكة ، ففضت خاتمه وقرأته ، وجمعت أشراف قومها ومستشاريها ، وقالت تلك المقالة المشهورة ، وطلبت أخذ الرأى فى ذلك الخطب الذى نزل بها كما هو دأب الدول الديمقراطية .

وفى الآية إيحاء إلى أمور :

- (١) سرعة الهدهد فى إيصال الكتاب إليهم .
- (٢) إنه اوقى قوة المعرفة فاستطاع ان يفهم بالسمع كلامهم .
- (٣) إنها ترجمت ذلك الكتاب فورا بواسطة تراجمتها .
- (٤) إن من آداب رسل الملوك أن يتنحوا قليلا عن المرسل إليهم بعد اداء الرسالة ، ليتشاور المرسل إليهم فيها .

ثم بينت مصدر الكتاب وما فيه لخاصتها وذوى الرأى فى مملكتها فقالت : ﴿ إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ألا تعلوا على واثنون مسلمين ﴾ .
ونص هذا الكتاب على وجازته يدل على أمور :

- (١) إنه مشتمل على إثبات الاله ووحدانيته وقدرته وكونه رحمانا رحيمًا .
- (٢) نهيم عن اتباع أهوائهم ، ووجوب اتباعهم للحق .
- (٣) أمرهم بالمجئء إليه منقادين خاضعين . وبهذا يكون الكتاب قد جمع كل ما لابد منه فى الدين والدنيا .

قوله - تعالى - : ﴿ قالت ياأيها الملأ أفتونى فى أمرى ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون . قالوا نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد والأمر إليك فانظري ماذا تأمرين . قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون . وإني مرسله إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون ﴾ .

﴿ قالت ياأيها الملأ أفتونى فى أمرى ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون ﴾ . أى : قالت بلقيس لأشراف قومها : أيها الملأ أشيروا على فى أمر هذا الكتاب الذى ألقى إلى ، فإنى لا أقضى فيه برأى حتى تشهدون فأشاوركم فيه . وفى قولها هذا دلالة على إجلالهم وتكريمهم ليمحضوها النصيح ، ويشيروا عليها بالصواب ، ولتختبر عزمهم على مقاومة عدوهم ، وحزمهم فيما يقيم أمرهم ، وإمضاءهم على الطاعة لها ، علما منها أنهم إن لم يبذلوا أنفسهم وأموالهم ودماءهم دونها لم يكن لها طاقة بمقاومة عدوها ، وإن لم يجتمع أمرهم وحزمهم وجددهم كان ذلك عوناً لعدوهم عليهم ، وإن لم تختبر ما عندهم وتعلم

قدر عزمهم لم تكن على بصيرة من أمرهم . وربما كان في استبدادها برأيها وهن في طاعتها ، وتعمية في تقدير أمرهم ، وكان في مشاورتهم وأخذ رأيهم عون على ما تريد من قوة شوكتهم وشدة مدافعتهم ، ألا ترى إلى قولهم في جوابهم : ﴿ نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد ﴾ على ما لها من عقل راجح وأدب جم في التخاطب وعلى هذا النهج سار الاسلام ، فقد قال - سبحانه - لنبيه : ﴿ وشاورهم في الأمر ﴾ ^(١) وقد مدح - سبحانه - صحابة رسوله بقوله : ﴿ وأمرهم شورى بينهم ﴾ ^(٢) .

فأجابوا عن مقالها :

﴿ قالوا نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد والأمر إليك فانظر ماذا تأمرين ﴾ أى : قال الملأ من قومها حين شاورتهم في أمرها وأمر سليمان : نحن ذوو بأس ونجدة في القتال ، إلى ما لنا من وافر العدة وعظيم العتاد وكثير الكراع والسلاح ، وإن امر القتال والسلم مفوض إليك ، فأنظري وقلبي الرأي على وجوهه ثم مرينا نأتمر بذلك .

ولما أحست منهم الميل إلى القتال شرعت تبين لهم وجه الصواب ، وأنهم في غفلة عن قدرة سليمان وعظيم شأنه ، إذ من سخر له الطير على الوجه الذى يريده ليس من السهل مجالدته والتغلب عليه .

﴿ قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون ﴾ أى : قالت لهم حين عرضوا عليها أنفسهم لقتال سليمان : إن الملوك إذا دخلوا قرية فاتحين أفسدوها بتخريب عمائرهم وإتلاف أموالها ، وأذلوا أهلها بالأسر والاجلاء عن موطنهم ، أو قتلهم تقتيلاً ، ليتم لهم الملك والغلبة ، وتتقرر لهم في النفوس المهابة ، وهكذا يفعلون معنا ، وفي هذا تحذير شديد لقومها من مسير سليمان إليهم ، ودخوله بلادهم .

وبعد أن أبانت ما فى الحرب والمجالدة من الخطر أتبعته بما عازمت عليه من المسألة بقولها : ﴿ وإني مرسله إليهم بهدية فناظرة . بم يرجع المرسلون ﴾ أى : وإني سأرسل إليهم هدية من نفائس الأموال لأتعرف حاله ، واختبر أمره ، أنبى هو أم ملك ؟ فإن كان نبيا لم يقبلها ولم يرض منا إلا ان نتبعه على دينه . وإن كان ملكا قبل الهدية وانصرف إلى حين ، فإن الهدايا مما تورث المودة ، وتذهب العداوة ، وفى الحديث : ﴿ تصافحوا يذهب الغل ، وتهادوا تحابوا وتذهب الشحناء ﴾ ^(١) ولقد أحسن من قال :

هدايا الناس بعضهم لبعض تولد فى قلوبهم الوصالا
وتزرع فى الضمير هوى وودا وتكسبهم إذا حضروا جمالا

قوله - تعالى - : ﴿ فلما جاء سليمان قال أتمدونن بمال فما آتاني الله خير مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون . ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون ﴾ . لما وصلت الهدية مع الرسول إلى سليمان وكانت من ذهب وجواهر ولآلىء وغيرها مما يقدمه الملوك

(١) انظر اتخاف السادة المتقين : شرح إحياء علوم الدين ج ٥ ص ٣٤٦ من حديث عائشة رضى الله عنها فيما رواه الطبراني ولكن بزيادة « وهاجروا تورثوا أبناءكم مجدا .

العظام . قال سليمان للرسول : أتصانعونني بالمال لأترككم على شرككم وكفركم ؟ لن يكون ذلك ابدا إن الذي أعطاه الله من النبوة والملك الواسع الأرجاء ، والمال الوفير ، خير مما أنتم فيه ، فلا حاجة لي بهديتكم ، وليس رأيي في المال كما ترون ، فأنتم تفرحون به دوني ، فارجع بما جئت به إلى من أرسلك ولنأتينكم بجنود لا طاقة لكم بدفعها ولا الانتصار عليها ، ولنخرجنكم من أرضكم أذلة مأسورين مستعبدين ، إن لم تأتونى مستسلمين منقادين .

قوله - تعالى - : ﴿ قال ياأيها الملأ أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين . قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإني عليه لقوى أمين . قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك فلما رآه مستقرا عنده قال هذا من فضل ربي ليبلوني أشكر أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربي غني كريم ﴾ .

وهكذا أبى سليمان ، ان يقبل المال ؛ لأنه لا مساومة على دين الله ووحدانيته ، وأصحاب الرسالات لا يرضون الدنية في دينهم ، فهم القمم العوالى والجبال الراسيات التى لا تستطيع الدنيا ان تقتحم عليهم تلك الأسوار العالية ، ليس في العقيدة أنصاف حلول . إن المال الذى قدمته بلقيس - ملكة سبأ - كانت قد ظنت بتقديمه أنه سيخضع سليمان ويلين من قلبه ويجعله في حالة انعدام وزن من أمره وتنتقل القضية بهذا المال من مجال العقيدة الى المناورة والمساومة على المزيد لكن أنبياء الله كما وصفوا بالصدق والأمانة والتبليغ - وصفوا كذلك بالفطنة ، والفطنة : حضور البديهة وسرعة الادراك وقوة الحجة . كذلك وصفوا بالعصمة ، فقد حفظ الله ظواهرهم وبواطنهم من التلبس بمنهى عنه ، لذا فإن سليمان أصدر إنذارا حاسما لا تردد فيه ولا رجوع عنه : ﴿ أتمدونن بمال فما آتاني الله خير مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون ﴾ هذه عزة النفس وكرامة الدين وعظمة الرسالة . ثم أضاف : ﴿ ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون ﴾ ثم يعقد سليمان جلسة طارئة يلقي فيها هذا السؤال على الملأ : ﴿ أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين ﴾ .

قال محمد بن إسحق عن يزيد بن رومان قال : فلما رجعت إليها الرسل بما قال سليمان قالت : قد - والله - عرفت ما هذا بملك ، وما لنا به من طاقة وما نصنع بمكابرتة شيئا . وبعثت إليه : إني قادمة عليك بملوك قومي لأنظر ما أمرك وما تدعوننا إليه من دينك . ثم أمرت بسرير ملكها الذى كانت تجلس عليه . وكان من ذهب مفصص بالياقوت والزبرجد والؤلؤ فجعل في سبعة أبيات بعضها في بعض ، ثم أقفلت عليه الأبواب ثم قالت لمن خلفت على سلطانها : احتفظ بما قبلك وسرير ملكي فلا يخلص إليه أحد من عباد الله ، ولا يرينه أحد حتى آتيك ، ثم شخصت إلى سليمان في اثني عشر ألف قيل من ملوك اليمن ، تحت يدي كل قيل ألوف كثيرة ، فجعل سليمان يبعث الجن يأتونه بمسيرها ومنتهاها كل

يوم وليلة ، حتى إذا دنت جمع من عنده من الجن والانس ممن تحت يده فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِ مُسْلِمِينَ ﴾ . ومن ههنا يظهر أن سليمان أراد بإحضار هذا السرير إظهار عظمة ما وهب الله له من الملك وما سخر له من الجنود الذي لم يعطه أحد قبله ولا يكون لأحد من بعده ، وليتخذ ذلك حجة على نبوته عند بلقيس وقومها لأن هذا عمل خارق عظيم ان يأتوا بعرشها كما هو من بلادها قبل أن يقدموا عليه ، هذا وقد حجبه بالأغلاق والأقفال والحفظة .

لقد قال لها رجالها وعظماء قومها : ﴿ نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةً وَأَوْلُوا بِأَسْ شَدِيدَ ﴾ فأراد سليمان أن يثبت لها أن قوة الله فوق كل قوة ، وإرادته فوق كل إرادة ، وما كان الله ليعجزه شيء في السموات ولا في الأرض إنه كان عليا قديرا . سبحانه كل شيء قائم به ، وكل شيء خاشع له ، عز كل ذليل وغنى كل فقير ، وقوة كل ضعيف ومفزع كل ملهوف ، من تكلم سمع نطقه ، ومن سكت علم سره ، ومن عاش فعليه رزقه ، ومن مات فإليه منقلبه . ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنَى الْحَمِيدُ . إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ . وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾^(١) لقد قال لها الملأ من قومها : ﴿ وَالْأَمْرُ إِلَيْكَ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴾ وكانوا في هذا القول من الغافلين عن الحقيقة العليا : ﴿ قُلْ إِنْ الْأَمْرُ كُلُّهُ لِلَّهِ ﴾^(٢) والله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون ﴾^(٣) فسبحان من تنزه عن الشريك ذاته . وتقصدت عن مشابهة الأغيار صفاته ، بالبر معروف ، وبالإحسان موصوف ، معروف بلا غاية ، وموصوف بلا نهاية . واحد لا من قلة . وموجود لا من علة . كيف يفوضون إليها الأمر ؟ لقد نسوا أو تناسوا أن للكون إلهها يدبر أحكامه ويفعل ما يشاء .

فيا بن آدم لا تخف سلطان أحد مادام سلطان الله باقيا ، وسلطان الله دائم لا يزول أبدا . . لقد أراد نبي الله سليمان أن يلقيها دروسا في العقيدة تتمركز في سويداء قلبها ؛ ليعلموا أن الله على كل شيء قدير ، وأن الله قد أحاط بكل شيء علما ، وأحصى كل شيء عددا .

قال عفريت من الجن (أى : مارد) : ﴿ أَنَا آتِيكَ بِهِ ﴾ (أى : بعرشها) ﴿ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ ﴾ وقد فصل الأئمة هذا المقام : فقال ابن عباس - رضى الله عنه - يعنى قبل أن تقوم من مجلسك . وقال مجاهد : مقعدك . وقال السدى وغيره : كان يجلس للناس للقضاء والحكومات وللطعام من أول النهار إلى أن تزول الشمس . قوله : ﴿ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيَّ أَمِينٌ ﴾ أى : قوى على حمله والأتیان به ، أمين لن تمتد يدي إليه بسوء ، بل سأتى به كاملا غير منقوص ، إذ الأمانة ضد الخيانة . ومعلوم أن العفريت مارد . قد يتجاوز الحدود ، لذلك فقد ذكره هاتين الصفتين : القوة والأمانة حتى لا يتطرق الشك إلى قلوب السامعين ، لكن سليمان قال : أريد أعجل من ذلك . ﴿ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ ﴾ وللمفسرين في الذي عنده علم من الكتاب أقوال : قال ابن عباس : هو آصف كاتب سليمان ، وكذا روى محمد بن إسحاق عن يزيد بن رومان أنه آصف بن برخياء . وكان صديقا يعلم

(١) الآيات ١٥ - ١٧ من سورة فاطر .

(٢) الآية ١٥٤ من سورة آل عمران .

(٣) الآية ١٢٣ من سورة هود .

الاسم الأعظم . وقال قتادة : كان مؤمنا من الانس واسمه آصف . ويرى الشيخ المراغى - رحمه الله تعالى - ان الذى عنده علم من الكتاب هو سليمان نفسه : قال الشيخ فى تفسيره لهذه الآية : أى : قال سليمان للعفريت متحدثا بنعمة الله وعظيم فضله : أنا أفعل ما لا تستطيع أنت ، أنا أحضره فى أقصر ما يكون مدة ، أنا أحضره قبل ارتداد طرفك إليك . وقد كان كما قال .

ويقول العلامة ابن كثير - رحمه الله تعالى - فى قوله : ، أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك ﴿ أى : ارفع بصرك وانظر مد بصرك مما تقدر عليه فإنك لا يكل بصرك إلا وهو حاضر عندك . وقال وهب بن منبه : امدد بصرك فلا يبلغ مداه حتى آتيك به ، فذكروا أنه امره ان ينظر نحو اليمن التى فيها هذا العرش المطلوب ثم قام فتوضأ ودعا الله - تعالى - قال مجاهد : قال : ياذا الجلال والاكرام . وقال الزهرى : قال : ياإلهنا وإله كل شئ إلهنا واحدا لا إله إلا أنت ائتنى بعرشها . قال : فمثل بين يديه . وهكذا طويت المسافات الشاسعة ، وقطعت مئات الأميال من اليمن إلى القدس بقدرة من لا يغفل ولا ينام ، وبعظمة من يقول للشئ : كن فيكون ﴿ وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين ﴾ (١) نعم لقد اتى بالعرش ما بين طرفه عين وانتباهتها ، وسبحان من يقول : ﴿ إنا كل شئ خلقناه بقدر ، وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر ﴾ (٢) ومن يقول : ﴿ وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب . إن الله على كل شئ قدير ﴾ (٣) ومن يقول : ﴿ وله ما سكن فى الليل والنهار وهو السميع العليم ﴾ (٤) ومن يقول : ﴿ وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير ﴾ (٥) .

سبحانك ربى :

ولا الشئون التى تجرى	لا الأمر أمرى ولا التقدير تقديرى
تدبىرى	لى خالق رازق ما شاء يفعل بى
احاط بى علمه من قبل تصويرى	

فيا بن آدم : إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت باستعن بالله .

سهرت أعين ونامت عيون	فى شئون تكون أو لا تكون
إن ربا كفالك بالأمس ما كان	سيكفيك فى غد ما يكون

فاجعل بربك كل عزك يستقر ويثبت

فإذا اعتزرت بمن يموت فإن عزك ميت

إذا أصابتك ضراء فقل : يارب ، وإذا تنكر لك الأصدقاء فقل : يارب ، وإذا عزَّ الدواء فقل :

(١) الآية ٥٩ من سورة الأنعام .

(٢) الآيتان ٤٩ ، ٥٠ من سورة القمر .

(٣) الآية ٧٧ من سورة النحل .

(٤) الآية ١٣ من سورة الأنعام .

(٥) الآية ١٨ من سورة الأنعام .

يارب ، وإذا قل ناصرك وكثروا واترك فقل : يارب ، وإذا نمت على فراش المرض فقل : يارب ، وإذا جاءتك سكرة الموت بالحق فقل : يارب .

وإذا رميت من الزمان بشدة وأصابك الأمر الأشق الأصب
فاضرع لربك إنه أدنى لمن يدعو من حبل الوريد وأقرب
ماذا قال سليمان عندما رأى عرش بلقيس مستقرا عنده ؟ هل استطاع الغرور أن يقتحم عليه
أسوار نفسه المنيعه ؟ فقال بلسان الفخر الكاذب :

أنا الذى نظر الأعمى إلى أدبى وأسمعت كلماتى من به صمم
فالخيل والليل والبيداء تعرفنى والسيف والرمح والقرطاس والقلم ؟
هل دخل الكبر نفسه العظيمة فقال :

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا متى أضع العمامة تعرفون ؟
هل هاجت ثعابين الغرور فى قلبه فقال :

إنى لأرى رءوسا قد أينعت وحان قطافها ، وإنى لصاحبها ؟

هل قال للرعية : والله لا حزمكم حزم السلمة ، ولا ضربنكم ضرب غرائب الابل ؟ لا . ثم لا . ثم لا . . . لقد قال بلسان اليقين ومنطق الحق المبين . وبقلب ذاكر . وفؤاد شاعر : ﴿ هذا من فضل ربي ليبلوني أشكر أم أكفر ﴾ إنه منطق الأنبياء ، إنها صفة الصفوة ولغة المصطفين الأخيار .
قوله - تعالى - : ﴿ ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربي غنى كريم ﴾ هذا من قبيل قوله - تعالى - : ﴿ من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها ﴾ ^(١) . وكقوله - جل شأنه - : ﴿ ومن عمل صالحا فلأنفسهم يمهّدون ﴾ ^(٢) . . . فالله هو الغنى عن العباد وعبادتهم ، كريم فى نفسه وإن لم يعبد أحد ، فإن عظمتها ليست مفتقرة إلى أحد وهذا كما قال موسى : ﴿ وإن تكفروا أنتم ومن فى الأرض جميعا فإن الله لغنى حميد ﴾ ^(٣) وفى صحيح مسلم : (يقول الله - تعالى - : يا عبادى ؛ لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل منكم ما زاد ذلك فى ملكى شيئا . يا عبادى ؛ لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل منكم ما نقص ذلك من ملكى شيئا ، يا عبادى ؛ إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفىكم إياها ، فمن وجد خيرا فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه) ^(٤) .

قال - تعالى - : ﴿ قال نكروا لها عرشها ننظر أتهتدى أم تكون من الذين لا يهتدون . فلما جاءت قيل أهكذا عرشك قالت كأنه هو وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين . وصدها ما كانت تعبد من دون الله إنها كانت من قوم كافرين . قيل لها ادخلى الصرح فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقها قال

(١) الآية ١٥ من سورة الجاثية .

(٢) الآية ٤٤ من سورة الروم .

(٣) الآية ٨ من سورة إبراهيم .

(٤) انظر صحيح مسلم « كتاب البر والصلة والآداب » باب « تحريم الظلم » ج ٤ ص ١٩٩٤ - ١٩٩٥ رقم ٢٥٧٧/٥٥ من حديث أبى ذر : « يا عبادى إني حرمت الظلم على نفسى . . . فهذا جزء حديث .

إنه صرح بمرد من قوارير قالت رب إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين ﴿١﴾
 أراد سليمان - عليه السلام - أن يختبر ذكاء بلقيس وحصافة عقلها ورجاحة رأيها ، فلما جرى له
 بالعرش قبل أن تأتي إليه قال : ﴿ نكروا لها عرشها ﴾ أى : غيروا فيه بعض معالمه . قال المفسرون فى
 هذا التنكير أقوالاً :

قال ابن عباس : نزع منه فصوصه ومرافقه . وقال مجاهد : أمر به فغير ما كان فيه أحمر جعل
 أصفر ، وما كان أصفر جعل أحمر ، وما كان أخضر جعل أحمر ، غير كل شيء عن حاله . وقال
 عكرمة : زادوا فيه ونقصوا . وقال قتادة : جعل أسفله أعلاه ومقدمه مؤخره وزادوا فيه ونقصوا .
 ولقد بين سليمان الحكمة من هذا فقال : ﴿ ننظر أتهتدى أم تكون من الذين لا يهتدون . فلما
 جاءت قيل أهكذا عرشك ؟ ﴾ لقد ألفت بلقيس نظرة فاحصة على العرش . فلم تعرفه ، وفى نفس
 الوقت لم تنكره ، فلم تقدم على أن هو لبعد مسافته عنها ، ولا أنه غيره لما رأت من آثاره وصفاته وإن
 غير وبدل ونكر فقالت : ﴿ كأن هو ﴾ أى : يشبهه ويقاربه . وهذا دليل على أنها كانت صائبة الرأى
 ثاقبة الفكر متوقدة الذكاء . وقيل : إنها شبهت عليهم كما شبهوا عليها . فلما كان السؤال بـ : أهكذا
 عرشك ؟ قالت كأنه هو . ولو قيل لها : أهذا عرشك لقالت : إنه هو . أما قوله - تعالى - : ﴿ وأوتينا
 العلم من قبلها وكنا مسلمين ﴾ فقد قال مجاهد : إن هذه العبارة من كلام سليمان ، أى : الله آتانا
 العلم بأنها ستسلم ، وعلمنا ذلك قبل أن تعلنه علينا ، وكنا مسلمين لله رب العالمين .

وقال غيره : إن هذه العبارة من كلام بلقيس ، كأنها تقول لسليمان لما نكر لها عرشها : لست فى
 حاجة إلى كثير من المعجزات ، فقد أوتينا العلم بنبوتك وصدق رسالتك ، فقد قامت الأدلة على ذلك -
 فقد كان الهدهد آية من آيات الله دلت على صدق رسالتك . وما سمعناه عنك من معجزات أخرى
 كتسخير الريح والشياطين والطير ، وكنا مسلمين . وما صدنا عن الاسلام إلا أننا نشأنا فى بيئة تعبد
 الشمس فتكيفنا بتلك البيئة وتقليد الآباء الأقدمين .

قال تعالى - : ﴿ وصدها ما كانت تعبد من دون الله ﴾ أى : ومنعها من الاسلام ما كانت تعبد
 من دون الله ، ولو أنها فتحت أمامها نوافذ المعرفة - وأزيل عنها التقليد الأعمى لأسلمت من قبل أن يأتى
 الهدهد بخبرها ، لكنها كانت من قوم كافرين جاحدين مقلدين . والتقليد شر ما يبتلى به الانسان .
 ﴿ وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا أو لو كان الشيطان يدعوهم
 إلى عذاب السعير ﴾ (١)

قوله - تعالى - : ﴿ قيل لها ادخلى الصرح فلما رأته حسبه لجة وكشفت عن ساقها قال إنه صرح
 بمرد من قوارير قالت رب إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين ﴾ :
 روى ان سليمان أمر قبل مقدمها ببناء قصر عظيم جعل صحنه من زجاج أبيض شفاف يجرى
 من تحته الماء ، وألقى فيه دواب البحر من سمك وغيره ، فلما قدمت إليه استقبلها فيه وجلس فى

صدره ، فحين أرادت الوصول إليه حسبته ماء فكشفت عن ساقها لئلا تبتل أذيالها - كما هي عادة من يخوض الماء - فقال لها سليمان : إن ما تظنيه ماء ليس بالماء ، بل هو صرح قد صنع من الزجاج ، فسترت ساقها وعجبت من ذلك ، وعلمت أن هذا ملك أعز من ملكها ، وسلطان أعز من سلطانها ، ودعاها سليمان إلى عبادة الله ، وعابها على عبادة الشمس دون الله ، فأجابته إلى ما طلب وقالت : رب إنى ظلمت نفسي بالثبات على ما كنت عليه من الكفر ، وأسلمت مع سليمان لله رب كل شيء ، وأخلصت له العبادة .

الاسلام دين الأنبياء

قالت بلقيس : ﴿ رب إنى ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين ﴾ فقولها : أسلمت مع سليمان لله رب العالمين دليل ساطع وبرهان قاطع وحجة بالغة على أن دين الأنبياء هو الاسلام . فكل الأنبياء عملوا في معسكر واحد هو معسكر التوحيد ، وتحت لواء واحد هو قول : « لا إله إلا الله » ، ونظرة في كتاب الله الكريم تعطيك هذا المعنى ، فكل الأنبياء آمنوا بالله ربنا وبالاسلام ديننا . قال نوح - عليه السلام - : ﴿ إن أجرى إلا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين ﴾^(١) وقال إبراهيم : ﴿ أسلمت لرب العالمين ﴾^(٢)

﴿ ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يابنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون . أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى ؟ قالوا : نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهنا واحدا ونحن له مسلمون ﴾^(٣) وقال - جل شأن - : ﴿ قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون . فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما هم في شقاق فسيكفيكمهم الله وهو السميع العليم . صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون . قل أتحتاجوننا في الله وهو ربنا وربكم ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ونحن له مخلصون . أم تقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هودا أو نصارى ؟ قل أنتم أعلم أم الله ؟ ومن أظلم ممن كنتم شهادة عنده من الله . وما الله بغافل عما تعملون ﴾^(٤) . وقال يوسف : ﴿ رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث فاطر السماوات والأرض أنت ولى فى الدنيا والآخرة توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين ﴾^(٥) .

وقال موسى : ﴿ يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين ﴾^(٦) وقال الله - تعالى

(١) الآية ٧٢ من سورة يونس .

(٢) الآية ١٣١ من سورة البقرة .

(٣) الآيتان ١٣٢ ، ١٣٣ من سورة البقرة .

(٤) الآيات ١٣٦ - ١٤١ من سورة البقرة .

(٥) الآية ١٠١ من سورة يوسف .

(٦) الآية ٨٤ من سورة يونس .

للمسيح بن مريم - : ﴿ وإذ أوحيت إلى الخواريين أن آمنوا بى وبرسولى قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون ﴾^(١) .

وقال - تعالى - : ﴿ إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا ﴾^(٢) .
وقال - تعالى - : لأمة محمد ﷺ : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً ﴾^(٣) .

وقال لأهل السموات والأرض : ﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾^(٤) وحذر من مخالفة ذلك الحكم مبينا عاقبة ذلك فى الدنيا والآخرة فقال : ﴿ ومن يتبع غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين ﴾^(٥)

تعقيب

بعد ما مضى من القصص فى هذه السورة المباركة يحسن بنا أن نذكر شيئاً عن القصة فى القرآن من كتاب (تذكرة الدعاة) للشيخ البهى الخولى ، قال - رحمه الله تعالى - :

تمتاز القصة بأنها تصور نواحي الحياة ، فتعرض لك الأشخاص ، وحركاتهم وأخلاقهم ، وأفكارهم ، وإتجاهات نفوسهم ، وبيئتهم الطبيعية والزمنية ، تعرضهم عليك بعرض أعمالهم وتصرفاتهم ونقاشهم ، فإذا رأيت هذه التصرفات والأعمال ، ومضيت مع الحوار والنقاش عرفت ما يستكن فى النفوس من طباع ، وما يهيجس فيها من خواطر ، وانشرح صدرك لأهل الخير منهم وضقت ذرعاً بذوى النفوس المظلمة ، والوسائل الملتوية ، حتى لكأنك تراهم رأى العين ، وتسمع منهم سمع الأذن ، وتعاشرهم وتحيا بينهم .

وتمتاز القصة كذلك بأن النفس تميل إليها . فغريزة حب الاستطلاع تعلق عين السامع وأذنه وإنباهه بنسق القصصى البارع استشرافاً لمعرفة ما خفى من بقية الأنباء .

والقصة بهاتين الميزتين من خير الوسائل التى يتوسل بها الداعية لابلأغ تعاليمه إلى أعماق القلوب ؛ فهى بالميزة الأولى تعرض هذه التعاليم فى صورة عملية حية تحرك الوجدان ، وترفع نبض المشاعر . . وهى بالميزة الثانية : - ميزة التنبه والتقبل - تجعل النفوس أوعية مفتوحة ، يصب فيها الداعية ما يشاء فيبلغ القرار .

فاستمسك بذلك - يا أخى - فإنه من سنة الله والله - عز شأنه - قد سنه فى القرآن الكريم ، فقص على رسوله أحسن القصص ، وضمنه خير التعاليم والمواعظ تثبيتها له ولأمة على الحق : ﴿ وكلا نقص

(١) الآية ١١١ من سورة المائدة .

(٢) الآية ٤٤ من سورة المائدة .

(٣) الآية ٣ من سورة المائدة .

(٤) الآية ١٩ من سورة آل عمران .

(٥) الآية ٨٥ من سورة آل عمران .

عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين ﴿١﴾
 وخير القصص كله : قصص القرآن الكريم شرح الله صدرك له ، وأنار بصيرتك بما فيه وإلى ما
 فيه ، لقد أحكمت به عروة العقيدة ، واكتمل نظام الأخلاق ، واشتدت به أركان الحضارة الإسلامية ،
 فكانت أوفى وأكمل الحضارات ..

مثال من قصص القرآن

ونحن نسوق لك مثلاً قصة سليمان ومملكة سبأ ، ولا تؤاخذني إن قصر بي العجز عن الإحاطة
 بمراميتها القيمة البعيدة .

إن هدهدا كشف لسليمان - عليه السلام - ما عليه مملكة سبأ من الشرك والضلال ، فبعث إليهم
 سليمان أن يسلموا لرب العالمين ، فحاولوا إسترضاءه عنهم بالمال ، فلم تغنهم المحاولة شيئاً ، فقد
 رفض المال وأوعدهم وأنذرهم جنوداً لا قبل لهم بها ، وحينئذ نزلوا على حكم سليمان وجاءوه
 مسلمين .

وفي هذه القصة يقرر الله - تبارك وتعالى - القواعد الأصلية : المادية والروحية ، التي لا بد منها لقيام
 الدولة النموذجية الفاضلة على النحو الآتي :

(١) قوة وعلم :

يقوم الملك العظيم على دعامتين كبيرتين أصيلتين هما : القوة والعلم .
 فالقوة : تجمع قوة الأبدان ، وكثافة الجنود المدربين ، ووفرة الأسلحة والآلات .
 والعلم : هو نور العقول والقلوب ، وهو وسيلتك إلى معرفة قوانين الوجود وسنن الطبيعة
 لتسخير ما يمكن تسخيرها منها في منافع الدولة ، وهذا هو العلم النافع ، هو العلم بالله - عز وجل - .
 هذا أصل صالح من أصول الدولة ، ذكره الله - عز وجل - في مواضع كثيرة من كتابه : ﴿ قالوا
 أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال ؟ ! قال إني الله اصطفاه عليكم
 وزاده بسطة في العلم والجسم ، والله يؤتي ملكه من يشاء ، والله واسع عليم ﴾ (٢) ولكن الله - عز
 وجل - لم يقف بنا عند حد الترسيم والوصف النظري لمقومات الملك ، بل ذكر لنا ملكاً عملياً ، ودولة
 نموذجية ، لنرى هذه الصفات حقائق ماثلة للعيان ، في معالم ملكها الشامخ ، فنحتذى حذوها على
 بصيرة ، فإن لم نبلغ هذا المثال - ولن نبلغه - فلنحقق منه ما تتسع به الطاقة .

القوة في قصة سليمان :

إن الله - عز وجل - يريد لنا ملكاً عملياً ، فذكر لنا هذه الصفات مجردة ، ثم أوردنا محققة في
 ملك سليمان ؛ لنكون عمليين في بناء المجد ، لا كلاميين ولا نظريين ، فما القوة هنا ؟ وما كثافة
 الجند ؟ اقرأ معي قول الله - عز وجل - : ﴿ وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم ﴾ من
 كثرتهم وتزاحمهم ﴿ يوزعون ﴾ : يدفعون حفظاً لنظامهم ، وإبقاء على تنسيق صفوفهم ، فلا يتقدم

(١) الآية ١٢٠ من سورة هود .

(٢) الآية ٢٤٧ من سورة البقرة .

التأخر ولا يتأخر المتقدم ، وهذه الجنود الكثيفة التي لم يعرف لها مثيل في تعدد اجناسها تبعث الرعب في جميع الآفاق ، حتى ليدخل الوجل في قلوب النمل فضلا عن غيره ، فإذا ﴿ أتوا على واد النمل قالت غملة ياأيها النمل ادخلوا مساكنكم ، لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون ﴾ .

ويعرف سليمان هذه القوة من جنده ، وأنها لا يقف لها شيء في الأرض ، فيرد هدية ملكة سبأ بقوله : ﴿ ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ، ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون ﴾ .

أرأيت - ياأخي - الجند مصورا هذا التصوير الرائع في مثل هذا الكلام اليسير الموجز ؟ وهو تصوير لم يدع ناحية من نواحي الجند إلا ألم بها : كثرة العدد ، النظام ، عظمته بتعدد الأجناس فيه ، إلقاؤه الرعب في قلوب المخلوقات ، حتى اليسير منها والتي لا قصد للجنود إليها ، وكونه جندا غالبا مظفرا على أعدائه في كل المواطن ، فتبارك الله رب العالمين ، وما أجل شأن القرآن الكريم !

العلم في قصة سليمان :

ثم أين العلم في هذه القصص ؟ واين رسالته التي أداها للدولة ؟ اقرأ معي قول الله - عز وجل -

﴿ ولقد آتينا داود وسليمان علما ، وقالوا : الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين وورث سليمان ﴾ ميراث نبوة وعلم ﴿ داود ﴾ وهذا العلم الذي اشار الله إليه ، يفسره سليمان بأنه هو اللغات ، وسائر أنواع العلم في قوله : ﴿ ياأيها الناس علمنا منطق الطير . وأوتينا من كل شيء . إن هذا هو الفضل المبين ﴾ .

فأما منطق الطير وغيرها ، فإنك تراه في حوارهِ المعروف مع الهدهد ، وتراه كذلك في فهمه ما قالت النملة التي أُنذرت ذويها بجنده ليدخلوا مساكنهم .

وأما ما عدا اللغات من اى أنواع العلم فهو قوله : ﴿ وأوتينا من كل شيء ، إن هذا هو الفضل المبين ﴾ .

ونرجو ان نتأمل قول الله - عز وجل - : ﴿ إن هذا هو الفضل المبين ﴾ وهذا الفضل هو العلم معترفا به على لسان سليمان الشاكر الذاكر - عليه السلام - .

وأما ثمرة هذا العلم العملية في الدولة ﴿ فهي السيطرة على قوانين الطبيعة وقواها المختلفة ، ليسخرها أهله في منافع الدولة ، وهو ما تصوره قصتنا فيما يلي :

لما أيقن أهل سبأ وملكتهم أن سليمان - عليه السلام - ليس ممن يعملون للمال ، وأنه لا بد أخذهم بالبأس الماحق إن لم يسلموا ، خرجت الملكة في وفد كبير ذاهبة إليه ، فلما كانوا ببعض الطريق ، أراد - عليه السلام - ان يحدث آية تدهش القوم ، وتلين قلوبهم للإيمان ، فقال لجنوده وفيهم من أرباب القوى العجيبة ، وأهل العلم بأسرار الوجود : ﴿ ياأيها الملأ أياكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين . قال عفريت من الجن : أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإني عليه لقوى أمين . قال الذي عنده علم من الكتاب : أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك فلما رآه مستقرا عنده قال : هذا من فضل ربي ﴾ .

أرأيت الذي عنده علم من الكتاب كيف يسخر علمه لمشيئة الملك العادل ، والامام الفاضل والنبى الصالح ؟ . . وهذا الذى عنده علم من الكتاب هو ممن تفضل بهم الله على

سليمان ليكونوا في خدمة ملكه ، فلما تحقق فضل الله - بتسخير هذا العلم عمليا - اعترف به فقال : ﴿ هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ، ومن كفر فإن ربي غني كريم ﴾ .

وفضل الله كما نراه هنا : هو القوى العلمية بدون شك ، فإنك تقرأ في هذه السورة : ﴿ ولقد آتينا داود وسليمان علما ﴾ وتقرأ في سورة أخرى : ﴿ ولقد آتينا داود منا فضلا ، ياجبال أوبي معه والطير ، وألنا له الحديد ﴾^(١) فسبحان الله العظيم ، فسخر الاسرار للعاملين في الأرض بطاعته ، المؤيدين لسلطانه فيها ﴿ ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون ﴾^(٢) وحسبنا هنا هذه الحادثة شاهدا لتسخير العلم والقوى الطبيعية ، فهي وحدها كافية لتصوير المراد ، وإلا فإنك تجد تسخير الطبيعة ، لملك سليمان في آيات أخرى : ﴿ وسليمان الريح ، غدوها شهر ورواحها شهر ، وأسلنا له عين القطر ، ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ، ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير . يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات اعملوا آل داود شكرا وقليل من عبادي الشكور ﴾^(٣)

هذا شأن العلم والقوة في هذه القصة ، وقد شرحته لنا بأوفى بيان وأكملة ورسالة .
(٢) رسالة :

ولابد للدولة من رسالة مجيدة تسعى لتحقيقها ، وتصرف إليها قوتها وعلمها فما هذه الرسالة ؟ هل هي اتساع الملك ، وكثرة المستعمرات والاستيلاء على أراضي الضعفاء ؟ هل يرتاح ضميرك ان تكون هذه اللصوصية وهذا الفساد في الأرض رسالة مجيدة ؟ ان علم الله أرفع من ان يسخر لمثل هذه المخازي والمآسي ، وإن الله - عز وجل - أرفع من أن يرسم لأوليائه مثل هذه الغاية الشريرة الأثمة ، إن الغاية الفاضلة التي يجب ان تعيش لها الدولة الفاضلة وتعمل جاهدة لتحقيقها غير ناظرة إلى شيء سواها ، هي : توحيد الله عز وجل ، وجمع الناس على الايمان به وحده ، وتطهير الأرض من كل رجس وشرك ، حتى تكون كلمة الله هي العليا ، ويكون الدين كله لله ، يجب تحقيق ذلك بكل الوسائل يجب إقامة النظم السياسية ، والتشريعية ، والعملية ، التي تكفل استقرار الناس في ظلال هذه الغاية ، فإن استقر ذلك بالتي هي أحسن فيها ونعمت ، وإن استعصى الأمر على الوسائل السلمية فلنتذرع بالتي هي أحسن أيضا ، وليس أحسن في هذه الحالة من القوة المسلحة فمن أنزله السيف على أمر الله فهو معنا : له ما لنا ، وعليه ما علينا ، وإلا فلن نكف عن أعداء الله حتى نطهر الأرض من رجسهم : ﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله ، فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين ﴾^(٤) ﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير ﴾^(٥)

إنتهى المجلد الرابع والخمسون ويليه المجلد الخامس والخمسون مبدؤا بعبارة ﴿ تلك هي الغاية التي يجب ان تكون هدف الدولة الربانية الفاضلة) .

(٤) الآية ١٩٣ من سورة البقرة .

(٥) الآية ٣٩ من سورة الأنفال .

(١) الآية ١٠ من سورة سبأ

(٢) الآية ١٠٥ من سورة الأنبياء

(٣) الآية ١٢ ، ١٣ من سورة سبأ .

بسم الله الرحمن الرحيم

تلك هي الغاية التي يجب أن تكون هدف الدولة الربانية الفاضلة ، وقد أثنى الله على المسلمين ، وشهد لهم أنه عاشوا لها : لتطهير الأرض من الرجس .
ولتشيت دعائم الإيمان بالله ، فقال عز شأنه :

﴿ كَتَمَ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ، تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ (١) .
وأثنى على القائد الصالح القوى صاحب سورة الكهف ، الذي آتاه من كل شيء سبباً ، أثنى عليه لأنه وجه قواه لتعذيب أهل الشر ، وتشجيع أهل الإيمان ومعاونتهم ﴿ قُلْنَا يَا ذَا الْقُرْنَيْنِ ، إِمَّا أَنْ نَعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ نَتَّخِذَ فِيهِمْ حَسَنًا ﴾ (٢) . فوضع لقوته دستوراً صالحاً ، يعذب عليه أو يثيب . ﴿ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نَّكَرًا . وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جِزَاءٌ الْحَسَنَىٰ ، وَسَنُقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴾ (٣) .

وهذا حسن في موضعه بالغ درجة الحسن ، لأنه الله عز شأنه ، أراد مجرد التقرير ، تقرير هذه الغاية والنص عليها ، أما حين أراد تصويره عملياً ، فقد أقامه لنا في قصتنا الخالدة ، في منتهى الشرح والتفصيل ، ومنتهى الإيجاز والإعجاز ، اقرأ قوله تعالى حكاية عن الهدهد : ﴿ إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ - وَأَوْتَيْتُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ، وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، وَزَيْنُ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَاهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴾

وهذا ضلال في العقيدة ، وضلال في العمل ، يفسدان على الدولة غايتها ويقودانها إلى شر المصير . . وهل صلاح الحياة ، إلا عقيدة صالحة ، وعمل صالح ؟ . . وبعد أن تبين الهدهد فساد هذه الدولة وعقيدتها وأعمالها ، استمر في بيان العقيدة الصالحة التي يجب أن تعيش عليها الإنسانية أفراداً وجماعات : ﴿ أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يَخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تَعْلَنُونَ ، اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ ونرى سليمان عليه السلام ، وهو رئيس الدولة الأعلى ، يعمل لهذه الغاية نفسها ، وفق ما يحكيه الله عن الهدهد ، فيرسل إلى سبأ بهذا الكتاب الموجز

الحكيم ، يدعوهم إلى الإسلام لله : ﴿ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ ، وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَلَا تَعْلَمُونَ عَلَىٰ وَاقْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ ويصر سليمان على أن ينزلهم على حكم الإسلام ، فيهدد ما يهدد بالقوى المسلحة الجبارة . حتى تقول ملكتهم في النهاية :

﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

(١) آل عمران آية رقم ١١٠

(٢) الكهف آية رقم ٨٦

(٣) الكهف الآيتان ٨٧ ، ٨٨

ألا ترى يا أخى أن هذه الدولة الكريمة قد عاشت حقا عاملة لهذه الغاية الكريمة ، أولا ترى أن هذه الغاية واضحة جميلة في النسق التصويرى المحكم الذى ساقها الله عز وجل فيه .
(٣) إيمان الرئيس الأعلى وعنايته بكل شيء :

والحقيقة الثالثة في هذه القصة تبين لنا أن من تمام نظام الدولة ، أن يكون رئيسها الأعلى عالما بغايتها ، مؤمنا بها ، عاملا جهدها .

هذه واحدة والأخرى أن يكون يقظا ومتبها ، متعهدا لشئون رعيته صغيرها وكبيرها ، حازما في محاسبة المسئولين ، فإن لم يكن كذلك انحل التناسق في قوى الدولة وانفرط عقدتها . وهذا كلام لاغبار عليه ولا تردد في قبوله ، فلا نطيل في الإستشهاد له من كتاب الله ، ولنلتمس مصورا في قصتنا أبداع تصوير . ﴿ وتفقد الطير فقال : مالى لا أرى الهدهد ، أم كان من الغائبين ؟ ﴾ ... ألا تراه عليه السلام معنيا برعيته ، يتفقدهم ولا يهملهم ؟ والذى يعنى بتفقد الطير ، لا يفوته أن يتفقد مامو أهم منه ، وذلك إستقصاء كامل في رعاية نواحي الدولة ، والعناية بأمرها ... ثم ترى يقظته العجيبة ، وفطنته الحساسة إذ يفطن إلى غياب هدهد ، وسط هذه الألوف ، بل الملايين من الخلائق المحشورة له ، فيقف متسائلا ﴿ مالى لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين ؟ وهذا مثل أعلى في يقظة الحس ، من العسير إن لم يكن من المستحيل على بشر عادى أن يدركه ، ولكنه من الأمور الميسورة لنبي من أنبياء الله ، ينظر الأشياء بنور بصيرته الملهمة ، لا بنور بصره فقط ، وهو على كل حال مثل أعلى في اليقظة ، ينصبه الله عز وجل ، ليحتذيه كل من ولى من أمور الناس شيئا ، وانظر إليه بعد هذا ، كيف يهتم بغياب الهدهد ، ويسأل عنه ، ويتوعده بالعقوبة الصارمة ؟ خبرنى بربك ، ما قيمة هدهد في هذه الجيوش الجرارة ؟

ما غناء هذا الهدهد إذا حضر وما مضرتة إذا غاب ؟ .. هو القائد الحكيم يا أخى يرى أن لكل شيء رسالة صغر أو كبر . ولكل جندى عملا لا يؤديه غيره ، فإذا غاب أو أهمل ، اختل التناسق في العمل ، وأدركه الاضطراب والخلل ، ومن هنا يعظم في صدر القائد الحساس مايقع من جرائم الغياب أو التقصير ، فيكون حازما في مؤاخذه أصحابها مؤاخذه تحمل العذاب الشديد ، وتمتد إلى عقوبة الإعدام ﴿ لأعذبه عذابا شديدا ، أو لأذبحنه ، أو ليأتينى بسلطان مبين ﴾ وفى المجال قول كثير ، وتعليق مستفيض ، ولكننا نكتفى بالإشارة إلى أن الله عز وجل اختار لنا من يقظة سليمان ، هذا المقال ، ليعلمنا أن الذى يهتم بصغار الأمور هذا الاهتمام ، يكون بكبارها أشد رعاية واهتماما ، وأن الذى يحاسب الحساب العسير الحازم على ما قد يبدو تافها ، لا يمكن أن يفرط في المؤاخذه على الأخطاء الجسيمة .

ثم هو لم يأخذ اعتذار الهدهد قضية مسلمة ، بل وضعها موضع التحقيق والاختبار فقال ﴿ سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين ﴾ .

وأما إيمانه بالغاية ، والعمل لها ، وعدم الركون إلى غيرها ، من مال أو نحوه ، فيتجلى لك من أول القصة إلى آخرها ، فليس له هدف إلا الله ، وتسخير كل شيء لله . وحسبك منه انصرافا عن كل ماعدا الله ، أنه سخر برسل بلقيس ملكة سبأ وبهديتهم ، وقال هذا القول الذى يصور إعراضه عن المال ، وتهكمه بأهله أصدق تصوير ، فلما جاء سليمان قال متهمكما : ﴿ أتمدونن بمال ؟ فما آتاني الله خير مما آتاكم ، بل أنتم بهديتكم تفرحون ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون ﴾ ولقد روى الله تبارك وتعالى عن صاحب الكهف ما يشبه ذلك : ﴿ قالوا : ياذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون فى الأرض - فهل نجعل لك خرجا على أن تجعل بيننا وبينهم سدا . قال : مامكنى فيه ربى خير - من المال - فأعينونى بقوة أجعل بينكم وبينهم ردما ﴾ (١) .

(٤) إيمان أفراد الشعب برسالة الدولة :

ورابعة ننقلها من هذه القصة ، ولابد من النص عليها : أن كل فرد من الرعية - يجب أن يؤمن بغاية الدولة ، وأن يجند نفسه لها ، وكل مامضى مما قررناه يصبح عديم الجدوى .

- إذا شذ أفراد الرعية ، فاتجهوا إلى غير هذا الاتجاه ، وأنت ترى الهدهد ، يعتز بواجبه ، ويقول فى ثقة المؤمن العامل لغايته العليا مخاطبا سليمان ، وهو حاكم الجن والإنس :

﴿ أحطت بما لم تحط به ! وجئتك من سبأ بنبا يقين ، إني وجدت امرأة تملكهم و . . الخ ﴾ ومن حق خطاب الهدهد بهذه اللهجة العجيبة ، أن نتأمله وندرسه ، لنرى أنه ليس خطاب المهمل المذنب المضطرب ، وإنما هو خطاب الذى رضى عن نفسه ، واطمأن إلى أداء واجبه فهو لا يعبأ أن يخاطب أعظم مخلوق بلغة الحق القوى ولو كان هو سليمان حاكم الإنس والجن .

ياأيها الناس ، ياأيها الشباب ، اعرفوا واجبكم . واسعوا فى صدق إلى غايتكم ، فإن أمة لايساوى رجالها هدهدا هى أمة من الغناء والهباء ، وإن أمة هدهدها خير من رجال هى أمة مقعدها فى السماء فوق هامة الجوزاء .

وماذا بعد هذا فى هذه القصة ياأخى ؟ فيها أن فساد العقيدة والعمل كما رأيناه فى دولة سبأ ، لا يخلق إلا رجالا لاعقول لهم ولا حمية ، من هذا الطراز الذى جمعته بلقيس ، لتستشيرهم فيما نزل بها من خطب جسيم ، فلم يكن عندهم من غناء ، إلا أن قالوا : ﴿ الأمر إليك فانظرى ماذا تأمرين ﴾ وماجمعتهم لهذا ، وإنما جمعتهم لتقول لهم . ﴿ ماكنت قاطعة أمرا حتى تشهدون ﴾ فلم يسعفوها برأى تستأنس به ، وهذا ضرب من الرجال لا تقوم به دولة . ولا تبنيه إلا عقيدة زائفة ، ونظام من العمل فاسد مضطرب . فالعقيدة العقيدة أيها الإخوان .

نحن فى هذه القصة أمام أربع معان دقيقة خطيرة ، لاتقوم دولة عظيمة إلا بها .

(١) قوة وعلم (٢) رسالة مجيدة (٣) إيمان الرئيس الأعلى وتفقدته - في انتباه - كل شيء
(٤) إيمان أفراد الشعب بغايتهم وشدة إخلاصهم لواجبهم . . فخبرني ياأخى ، لو أن قصصيا من
الأفذاذ النوايح ، أراد تصوير هذه المعاني الجليلة ، أكان يعرضها عليك في مثل هذه القوة ، وفي مثل
هذا الوضوح ، الذى يفوق ضوء الشمس في شدة جلالته ، أو كان يعرضه عليك في مثل هذا القدر
الوفير من البيان الرائع المعجز !! .

ولسنا بصدد إعجاز القرآن فنحدثك عن أحكام التعبير ، ودقة التركيب ، وسداد مراعى
الإرشادات ؛ أو نحدثك عن خلود المعاني والقوانين الصحيحة التى ضمنها الله هذه القصة ، فهو نوع
من أسرار الإعجاز ، إذ لا يلتفت إلى هذا النظام الكامل للدولة العظيمة بشر . . لا يحيط به إلا الله
الذى خلق كل شيء وأحاط بكل شيء علما ﴿ ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴾^(١) وصدق الله
العظيم : ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن ، لا يأتون بمثله ولو كان
بعضهم لبعض ظهيراً ﴾^(٢) .

أقول : لسنا بصدد شيء من إثبات هذا الإعجاز القرآنى وإنما بصدد طبيعة القصة ، فى عرضها
للمعاني الدقيقة عرضاً مصوراً فى حوادث عملية . ونحسب أن قد قمنا فى تحليل هذه القصة بقدر يكفى
بالإقناع لما قصدنا إليه .

والآن نسوق إليك القصة بأكملها فى نسقها الإلهى المعجز ؛ قال عز شأنه فى سورة النمل :
﴿ ولقد آتينا داود وسليمان علماً ، وقالوا الحمد لله الذى فضلنا على كثير من عباده المؤمنين ، وورث
سليمان داود وقال : ياأيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء إن هذا هو الفضل المبين ،
وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون ، حتى إذا أتوا على وادى النمل قالت
نملة ياأيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون ، فتبسم ضاحكاً من
قولها وقال : رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى وأن أعمل صالحاً ترضاه ،
وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين . وتفقد الطير فقال : ما لى لأرى الهدهد أم كان من الغائبين ؟ .
لأعذبه عذاباً شديداً ، أو لأذبحنه ، أو ليأتينى بسلطان مبين . فمكث غير بعيد ، فقال : أحطت بما لم
تخط به ، وجئتك من سبأ نبأ يقين . إني وجدت امرأة تملكهم ، وأوتيت من كل شيء ، ولها عرش
عظيم . وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله ، وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن
السييل فهم لا يهتدون . ألا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض ، ويعلم ما تخفون
وما تعلنون . الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم . قال تنتظر أصدقت أم كنت من الكاذبين اذهب
بكتابى هذا فألقه إليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون . قالت ياأيها الملأ إني ألقى إلى كتاب كريم إنه
من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم . ألا تعلوا على واثقون مسلمين . قالت ياأيها الملأ أفتون فى
أمرى ماكنت قاطعة أمراً حتى تشهدون . قالوا : نحن أولو قوة وأولو بأس شديد ، والأمر إليك

(١) الملك آية / ١٤

(٢) الاسراء آية / ٨٨

فأنظري ماذا تأمرين . قالت : إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون . وإني مرسله إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون . فلما جاء سليمان قال : أتمدونن بمال ؟ ! فما آتاني الله خير مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون . ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ، ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون ، قال : ياأيها الملأ أياكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين . قال عفريت من الجن : أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإني عليه لقوى أمين . قال الذى عنده علم من الكتاب : أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك ، فلما رآه مستقرا عنده قال : هذا من فضل ربي ليبلوني أشكر أم أكفر ، ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ، ومن كفر فإن ربي غنى كريم . قال : نكروا لها عرشها ننظر أتهتدى أم تكون من الذين لا يهتدون . فلما جاءت قيل : أهكذا عرشك ؟ قالت : كأنه هو ، وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين . وصدها ماكانت تعبد من دون الله ، إنها كانت من قوم كافرين . قيل لها ادخلي الصرح فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها قال : إنه صرح ممرد من قوارير ، قالت : رب إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين ﴿ .

وأنت ترى فى القصة بعد تلاوتها الآن أن فيها لطائف دقيقة ، كالنص على حقيقة الاستعمار وسوء عاقبته على الذين يحل بهم فى قوله تعالى :

﴿ إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة ﴾ وإن هذا ديدنهم فى كل زمان ومكان وكذلك يفعلون ﴿ فلا ينفكون عنه . . وترى فطنة بلقيس ، وتوقد ذكائها فى إدراكها معنى الاستعمار ، كما ترى هذا الذكاء فى تريثها ، واختبار حقيقة سليمان ، فإنها لم تحاول أن ترشوه بالمال وإلا كانت غبية . وإنما حاولت أن تختبر حقيقته ، فإن كان ممن يعملون للمال فقد أسكتته الهدية ، ورضى بما يدفع له من خراج ، وإذا كان من أرباب العقائد والإيمان بما يدعوها إليه فى خطابه - فسوف يرد الهدية ولا يقبل إلا السيف ، فإذا تبين لها ذلك كان حقا عليها - وهى العاقلة الذكية - ألا تترد فى مبايعة هذا المؤمن ، فذلك مقتضى الحكمة . .

وهو الذى قد كان كما ترى فى القصة . . ومحاولة الاختبار تلمحها فى قول بلقيس : ﴿ وإني مرسله إليهم بهدية ، فناظرة بم يرجع المرسلون ﴾ فقولها : ﴿ فناظرة بم يرجع المرسلون ﴾ يضع يدك على رغبة الاختبار الذى قصدت إليه . . وتلمح هذا الذكاء أيضا حين عرضوا عليها عرشها ، وقد نكروه ، فغيروا معاملة بالزيادة والنقصان ، وقالوا لها : أهكذا عرشك ؟ فلم تقل : إنه هو ، لأنها تركته وراءها فى بلادها والمسافة بعيدة ، ولكنها فى الوقت نفسه لم تقل ليس عرشى ، لأنها تراه بكثير من معاملة وصفاته . . ولم تقل لأدري لأنه غباوة وبلادة ذهن ، فخرجت من هذا السؤال المخرج ، بهذه الإجابة الكيسة اللبقة ، التى ماكان يصلح للموقف غيرها . . فقالت : ﴿ كأنه هو ﴾

وتر فى القصة غير هذا من اللفظات اللبقة الدقيقة ، نتركه آسفين خوف الإطالة والإملال . فعليك بقصص القرآن ياأخى ، وادرس أغراضه ومعانيه ، واجعله من وسائلك فى تبليغ دعوتك ، فإنه يسعفك بما لايسعفك به قصص آخر .

* صالح مع قومه ثمود *

قوله تعالى : وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثُمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَتَقَوْمٍ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا أَطِيرَنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مُكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا إِنَّا فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنْبَحِينَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾

معاني المفردات : (يختصمون) يتنازعون (اطيرنا) تطيرنا أى تشاءمنا والطيرة تعليق الخير أو الشر على طيران الطائر يمينا أو شمالا (تفتنون) تمتحنون (رهط) الرهط اسم للجماعة (لوليه) من له ولاية دمه (مهلك) هلاك .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثُمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴾ هذا أمر بتوحيد الألوهية ، وهو أفراد المعبود بالعبادة ، دون أن يشرك به ، كما قال سبحانه : ﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ ^(١) وتلك رسالة الأنبياء جميعا ، اشتملت على هذا المبدأ الوطيد ، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ أَلَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾ ^(٢) . وقال : ﴿ وَإِلَى عاد أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره إن أنتم إلا مفترون ﴾ ^(٣) .

وقال : ﴿ وَإِلَى ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره هو أنشأكم من

(١) سورة الكهف آية رقم آ ١١٠

(٢) سورة هود الآيتان ٢٥ / ٢٦

(٣) سورة هود الآية آ ٥٠

الأرض واستعمركم منها فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربي قريب مجيب ﴿١﴾ .
 وقال سبحانه : ﴿ وإلى مدين أخاهم شعيبا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ولا تنقصوا
 المكيال والميزان إني أراكم بخير وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط ﴾ ﴿٢﴾ وقال سبحانه : ﴿ وما أرسلنا
 من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾ ﴿٣﴾ وقال عز من قائل : ﴿ واسأل من
 أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون ﴾ ﴿٤﴾ .

قوله تعالى : ﴿ فإذا هم فريقان يختصمون ﴾ قال مجاهد : مؤمن وكافر كقوله تعالى : ﴿ قال
 الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه ؟ قالوا
 إنا بما أرسل به مؤمنون قال الذين استكبروا إنا بالذي آمنت به كافرون ﴾ ﴿٥﴾ .

قوله تعالى : ﴿ قال يا قوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة ﴾ أى لم تستعجلون العذاب ، وكان
 الواجب عليكم بمقتضى عقولكم أن تطلبوا الهداية والرحمة ، قال تعالى : ﴿ ويدع الإنسان بالشر دعاءه
 بالخير وكان الإنسان عجولا ﴾ ﴿٦﴾ .

لقد قالوا - وهم كفار مكة - ﴿ اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من
 السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾ ﴿٧﴾ .

وكان المنطق السليم يقتضى أن يقولوا : فاهدنا إليه ، لكنهم لما ملئت قلوبهم ظلما وعلوا لم يهتدوا
 صراطا مستقيما ، ولذا قال صالح لقومه : ﴿ لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون ﴾ أى كان عليكم أن
 تطلبوا المغفرة من الله تعالى ، ليرحمكم بدلا من أن تطلبوا العذاب ، فإن الله هو التواب الرحيم .

قوله تعالى : ﴿ قالوا اطيرنا بك وبمن معك قال طائركم عند الله بل أنتم قوم تفتنون ﴾
 أى مارأينا على وجهك ووجوه من اتبعك خيرا ، وذلك أنهم لشقائهم كان لا يصيب أحدا منهم
 سوء إلا قال هذا من قبل صالح وأصحابه . قال مجاهد : تشاءموا بهم ، وهذا كما قال الله تعالى إخبارا
 عن قوم فرعون : ﴿ فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه ألا إنما
 طائرهم عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ ﴿٨﴾ .

وقال تعالى : ﴿ وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من
 عندك . قل كل من عند الله ﴾ ﴿٩﴾ . أى بقضائه وقدره ثم قال تعالى بعد ذلك (فمال هؤلاء القوم
 لا يكادون يفقهون حديثا ﴾ وقال سبحانه في سورة يس ﴿ واضرب لهم مثلا أصحاب القرية إذ جاءها

(١) سورة هود الآية ٦١

(٢) سورة هود آية رقم ٨٤

(٣) سورة الأنبياء آية رقم ٢٥

(٤) سورة الزخرف آية رقم ٤٥

(٥) سورة الأعراف آية رقم ٧٥

(٦) سورة الأسراء آية رقم ١١

(٧) سورة الأنفال آية رقم ٣٢

(٨) سورة الأعراف آية رقم ١٣١

(٩) من النساء آية رقم ٧٨

المرسلون . إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث ، فقالوا إنا إليكم مرسلون . قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شيء إن أنتم إلا تكذبون . قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون وما علينا إلا البلاغ المبين . قالوا إنا تطيرنا بكم . لئن لم تنتهوا لنرجنكم ولیمسنكم منا عذاب أليم . قالوا طائركم معكم أئن ذكرتم بل أنتم قوم مسرفون ^(١) .
وقال هؤلاء لنبيهم صالح عليه السلام ﴿ اطيننا بك وبمن معك قال طائركم عند الله ﴾ أى الله يجازيكم على ذلك .

﴿ بل أنتم قوم تفتنون ﴾ قال قتادة : تبتلون بالطاعة والمعصية .
قال تعالى : ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون ^(٢) كما قال : ﴿ وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون وكان ربك بصيرا ﴾ ^(٣) .

قوله تعالى : ﴿ وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون . قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله ثم لنقولن لوليه ماشهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون . ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون . فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين . فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إن في ذلك لآية لقوم يعلمون . وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾

قوله تعالى : ﴿ وكان في المدينة ﴾ أى مدينة ثمود ﴿ تسعة رهط ﴾ أى تسعة نفر ﴿ يفسدون في الأرض ولا يصلحون ﴾ وإنما غلب هؤلاء على أمر ثمود لأنهم كانوا كباراءهم ورؤساءهم . وهؤلاء هم طغاة البلاد وجبابرتهم ﴿ وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها ومايمكرون إلا بأنفسهم ومايشعرون ﴾ ^(٤) .

وقال سبحانه : ﴿ وماأرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون ﴾ ^(٥) .
قال العوفي عن ابن عباس : هؤلاء هم الذين عقروا الناقة ، أى الذين صدر ذلك عن رأيهم ومشورتهم ، قبحهم الله ولعنهم ، وقد فعل ذلك - وكان من هؤلاء التسعة - قدار بن سالف عاقر الناقة ، أى الذى باشر ذلك بيده .

قال تعالى : ﴿ فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر ﴾ ^(٦) وقال سبحانه :
﴿ كذبت ثمود بطغواها ، إذ انبعث أشقاها . فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها . فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها ولا يخاف عقباها ﴾ ^(٧) .

ووجوه الإفساد في الأرض كثيرة لا تحصى فقول الله تعالى : ﴿ يفسدون في الأرض ولا يصلحون ﴾ يفيد أن إفسادهم أكثر من أن يستقصى ، فكل المعاصي إفساد ، سواء أكانت في العرض ،

(١) سورة يس الآيات رقم آ ١٣ إلى آ ١٩

(٢) سورة الأنبياء الآية رقم آ ٣٥

(٣) سورة الفرقان الآية رقم آ ٢٠

(٤) سورة الأنعام الآية رقم آ ١٢٣

(٥) سورة سبأ الآية رقم آ ٣٤

(٦) سورة القمران الآية رقم آ ٢٩

(٧) سورة الشمس الآيات من ١١ - ١٥

أم المال ، أم النفس ، أم العقل ، فإن وجوه الفساد لاتكاد تقف عند حد ، قال تعالى في صفة أهل الفساد : ﴿ ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون . وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون . ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون . وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون . وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزون . الله يستهزيء بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين ﴾ ^(١) وقال عز من قائل : ﴿ وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبس المهاد ﴾ ^(٢) .

وقال تعالى : ﴿ إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحى نساءهم إنه كان من المفسدين ﴾ ^(٣) .

وقال عز من قائل : ﴿ إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة . إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين . وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك . ولا تبغ الفساد في الأرض . إن الله لا يحب المفسدين ﴾ ^(٤) .

وقال جل جلاله : ﴿ تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين ﴾ ^(٥) وقال جل جلاله : ﴿ والذين كفروا بعضهم أولياء بعض إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير ﴾ ^(٦) .

وقوله تعالى : ﴿ قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله ﴾ أى تحالفوا وتبايعوا على قتل نبي الله صالح عليه السلام من لقيه ليلا غيلة . فكادهم الله وجعل الدائرة عليهم .

ولأئمة التفسير في هذه الآية الكريمة أقوال :

قال مجاهد : تقاسموا وتحالفوا على هلاكه فلم يصلوا إليه حتى هلكوا وقومهم أجمعين . وقال قتادة : توثقوا على أن يأخذوه ليلا فيقتلوه وذكر لنا أنهم بينما هم معانق إلى صالح ليفتكوا به إذ بعث الله عليهم صخرة فأهدمتهم .

قال العوفي عن ابن عباس : هم الذين عقروا الناقة قالوا : حين عقروها لنبيتين صالحا وأهله فنقتلهم ثم نقول لأولياء صالح ماشهدنا من هذا شيئا ومالنا به من علم فدمرهم الله أجمعين . وقال محمد بن إسحق قال هؤلاء التسعة بعد ما عقروا الناقة : هلم فلنقتل صالحا ، فإن كان

(٤) سورة القصص الآيتان ٧٦ ، ٧٧

(٥) سورة القصص آية رقم ٨٣

(٦) سورة الأنفال آية رقم ٧٣

(١) سورة البقرة الآيات من ٨ - ١٦

(٢) سورة البقرة الآيتان ٢٠٥ - ٢٠٦

(٣) سورة القصص آية رقم ٤

صادقا عجلناه قبلنا ، وإن كان كاذبا ، كنا قد ألحقناه بناقته ، فأتوه ليلا لبيتوه في أهله ، فدفعتهم الملائكة بالحجارة ، فلما أبطأوا على أصحابهم أتوا منزل صالح فوجدوهم منشدين قد رضخوا بالحجارة ، فقالوا لصالح أنت قتلتهم ثم هموا به ، فقامت عشيرته دونه ولبسوا السلاح وقالوا لهم : والله لا تقتلونه أبدا وقد وعدكم أن العذاب نازل بكم في ثلاث ، فإن كان صادقا فلا تزيدوا ربكم عليكم غضبا ، وإن كان كاذبا فأنتم من وراء ما تريدون فانصرفوا عنهم ليلتهم .

قال عبد الرحمن بن أبي حاتم : لما عقروا الناقة قال لهم صالح : ﴿ تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب ﴾ (١) .

قالوا زعم صالح أنه يفرغ منا إلى ثلاثة أيام فنحن نفرغ منه وأهله قبل ثلاث ، وكان لصالح مسجد في الحجر عند شعب هناك يصل في فيه ، فخرجوا إلى كهف أى غار هناك ليلا ، فقالوا إذا جاء يصل قتلناه ثم رجعنا إذا فرغنا منه إلى أهله ففرغنا منهم ، فبعث الله عليهم صخرة من الهضب حياهم فخشوا أن تشدخهم فتبادروا فانطبقت عليهم الصخرة وهم في ذلك الغار ، فلا يدرى قومهم أين هم ولا يدرىون ما فعل بقومهم : فعذب الله هؤلاء ههنا وهؤلاء ههنا وأنجى الله صالحا ومن معه ، ثم قرأ ﴿ ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون . فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين . فتلك بيوتهم خاوية ﴾ أى فارغة ليس فيها أحد ﴿ بما ظلموا إن في ذلك لآية لقوم يعلمون . وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾

المكر من العبد حيلة سيئة وخداع ، والمكر من الله تعالى بطش انتقام ، قال سبحانه : ﴿ فانظر كيف كان عاقبة مكرهم ﴾ أى خداعهم ﴿ أنا دمرناهم وقومهم أجمعين ﴾ قوله تعالى : ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ دليل على أن الله سبحانه يمهل ولا يهمل ، بل إنه ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ، قال سبحانه : ﴿ فذرني ومن يكذب بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث لا يعلمون وأملى لهم إن كيدى متين ﴾ (٢)

وقال عز من قائل : ﴿ ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار مهطعين مقنعي رءوسهم لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء ﴾ (٣) .

إن يد الله تعمل في الخفاء فدعوها تعمل بطريقتها الخاصة فليس لأحد أن يستعجلها أو يقترح عليها إقرأ قوله جل شأنه : ﴿ فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب وأوحينا إليه لتنبئهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون ﴾ (٤) .

(١) سورة هود آية رقم ٦٥

(٢) سورة القلم الآيتان رقم ٤٤ / ٤٥

(٣) سورة ابراهيم الآيتان رقم ٤٢ / ٤٣

(٤) سورة يوسف الآية رقم ١٥